السيّد محمّد الكثيري

السلفيّة

بين أهل السُّنة والإماميّة



السلفية

بين أهل السنة والإمامية

سر شناسه	:	كثيرى، محمد
عنوان و نام پديدآور	:	السلفيه بين اهل السنة والاماميه/محمد الكثيرى .
مشخصات نشر	:	قم: مؤسسه دائرة معارف الفقه الاسلامى طبقاً لمذهب اهل البيت(ع)، ١٣٨٧ .
مشخصات ظاهرى	:	٧٢٠ ص.
شابک	:	978-964-2730-53-7
وضعيت فهرست نويسى	:	فيپا
يادداشت	:	عربى.
يادداشت	:	چاپ قبلى: الغدير، ١٣٧٦.
يادداشت	:	كتابنامه: ص. ٦٩٩ ـ ٧١٠: همچنين به صورت زيرنويس.
موضــوع	:	سلفيه ـ ـ دفاعيه‌ها ورديه‌ها.
موضـوع	:	اسلام ـ ـ فرقه‌ها.
شناسه افزوده	:	مؤسسه دائرة المعارف فقه اسلامى.
رده بندى كنگره	:	١٣٨٦ ٨س٢ک/٥/BP٢٠٧.
رده بندى ديويى	:	٢٩٧/٣١٦
شماره كتابخانه ملى	:	١١٨٢٦١٧

الطبعة الثانية

١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: محمّد

الناشر:



مؤسسة دائرة معارف الفقه الاسلامي

Islamic jurisprudence Encyclopedia Institute

ايـران ـ قم المقدسة — Iran - Qom

ص . ب: ٣٧١٨٥/٣٧٩٦ — P.O. Box 3796/37185

هاتف: ٧٧٣٩٩٩٩/فاكس: ٧٧٤٤٩٦٣ — Tel. +982517739999/Fax +982517744963

وكلاء التوزيع:

لبنان: بيروت ـ حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري ـ مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع
هاتف: ٩٦١٣٦٤٤٦٦٢+ و ٩٦١١٥٥٢٢٦٢+ تلفاكس: ٩٦١١٥٥٨٢١٥+

العراق: النجف الأشرف ـ دار الغدير للطباعة والنشر. تلفون ٩٦٤٣٣٣٧٣٥٦٣ +





السيد محمد الكثيري

الغدير
بيروت - لبنان

الإهداء

إلى من سفكت دماؤهم، وسبيت ذراريهم، ونهبت أموالهم، بفتاوى الشيخين ابن تيمية الحراني، ومحمد بن عبد الوهاب النجدي.

وإلى كل من يتعرض للاضطهاد السلفي المعاصر من أهل السنة والإمامية.

أقدم هذا الجهد العلمي المتواضع.

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين الله.

فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

الإمام علي بن أبي طالب

[نهج البلاغة، الخطبة ٤٩]

مقدمة الطبعة الثالثة

« من كان بيته من زُجاج كيف يرشُقُ النّاس بالحجارة؟!»

عندما شرعت في كتابة هذا الكتاب ـ قبل أكثر من عقد من الزمان ـ كان هدفي هو إيصال مجموعة من الرسائل، إلى أبناء الصحوة الإسلامية أولاً، ثم إلى التيارات التي يُطلق عليها أو تُسمي نفسها «سلفية». ورسائل إلى علماء أهل السنة المعاصرين، بالإضافة إلى رسالة مفتوحة لجميع الكتّاب والباحثين، وخصوصاً الأكاديميين منهم والطلبة الجامعيين الذين يبحثون في التراث، ويبذلون الجهد والوقت لإعادة قراءة هذا التراث الإسلامي..

الرسالة الأولى لأبناء الصحوة الإسلامية في جميع المناطق، ومضمونها: إن السلفية أو أتباع السلف أو مذهب السلف، ليس سوى التقليد للمذهب الحنبلي (في الفقه والأصول العقائدية) بصيغته التيمية الوهابية (أي نسبة إلى ابن تيمية الحرّاني ومحمد بن عبد الوهاب النجدي).

إنكم رفضتم تقليد الأئمة (أبي حنيفة ومالك والشافعي وغيرهم)، لتسقطوا في تقليد، أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية، ومحمد بن عبد الوهاب. وهؤلاء هم زعماء ورموز المذهب الحنبلي، لكن يُقدَّمُون الآن، ـ ولحاجة في نفس يعقوب ـ بأوصاف جديدة، بعُلماء السلف ومذهب السلف، لأن لمصطلح السلف جاذبية وإغراء وحُمولات ومفاهيم تاريخية ودينية أشرنا إليها بالتفصيل في هذا الكتاب.

أما لقب «أهل السنة» والذي يُحاول الحنابلة الجدد (السلفية) احتكاره كذلك ورفعه كشعار لهم، في محاولة لاتهام خصومهم بأنهم أهل بدعة وابتداع، فقد توصلنا إلى أن هذا اللقب قد أُطلق تاريخياً على أتباع مدرستي الأشعري والماتريدي في علم الكلام، أما إذا كان المقصود منه اتباع سُنة الرسولﷺ فكل الفرق والمذاهب والتيارات تدّعي ذلك، لذلك لا فائدة من رفع هذا المصطلح كشعار وكخصوصية، فالكل من أهل السُّنة والكل يعمل بقسم من الأحاديث النبوية الشريفة ويرفض قسماً آخر لسبب من الأسباب، لذلك على أبناء الصحوة الإسلامية أن يعيدوا النظر في هذا الانتماء والتقليد الجديد، وعدم السقوط في فخ

هذه الخديعة الكبرى التي حاول هذا الكتاب كشف واكتشاف تفاصيلها ومظاهرها وآثارها السلبية على الوحدة الإسلامية.

الرسالة الثانية هي لزعماء وكُتَّاب ودُعاة «مذهب السلفية»، هذا المذهب المزعوم والمختلق، نقول لهم فيها: ليس هناك مذهب للسلف، أو سلفي، وإنما هناك مرحلة زمنية تاريخية، وُصفت بالخيرية، فقد نزل فيها الوحي الإلهي، وأنجبت الصحابة والتابعين ومن تبعهم وجميع أئمة المدارس الفقهية والكلامية والسياسية والصوفية.. إلخ. لذلك فكل المذاهب سلفية وتابعة للسلف، فأتباع مالك والشافعي وأبي حنيفة وأئمة أهل البيت النبوي، مُقلدون للسلف وسلفيين، أما ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية فهما من علماء القرن السابع الهجري؟!

هذا من جهة، من جهة أخرى، فقد أثبت التحقيق العلمي الموضوعي أن المذهب الحنبلي هو مذهب مختلق، فأحمد بن حنبل، لم يكن فقيهاً في يوم من الأيام، ولم يُعرف عنه أنه كان مجتهداً، على غرار أبي حنيفة ومالك والشافعي، وإنما كان مُحدثاً وجامعاً للحديث، على غرار البخاري والنسائي والترمذي، لذلك لم يذكره المؤرخون القدماء في طبقات المجتهدين؟! أما على المستوى العقائدي والكلامي فأنتم مقلدون لابن تيمية الحراني الذي حاول أن يُعقْلِنَ الحشو والإسرائيليات وما وضعه القصاصون وكذبة الأعراب على لسان رسول الإسلام ﷺ في قالب كلامي ونسبته زوراً وبهتاناً إلى السلف الصالح من الصحابة والتابعين..

هذه هي حقيقة المذهب الحنبلي، ومن يشكك في ذلك فليقرأ فصول هذا الكتاب، ومع ذلك فأتباع هذا المذهب ـ في الماضي والحاضر ـ هم من أكثر المقلدين للمذاهب إثارة للشغب وللفتن المذهبية، كفَّروا الأحناف والشافعية وكفَّروا الأشعري إمام أهل السنة، وكفَّروا الصوفية والشيعة، وكفروا كل من خالفهم، ولم يكتفوا بالتكفير بل اعتدوا على الأرواح وسفكوا الدم الحرام بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن يُشكك في ذلك فعليه بتاريخ الحنابلة ليرى عدد الفتن التي أشعلوها والأرواح البريئة التي قتلوها؟!

لذلك نقول لكل السلفيين، إنكم ترشقون غيركم بحجارة التبديع والتكفير، وبيتكم المذهبي (الفقهي والأصولي) ليس فقط من زجاج، ولكن أوهن من بيت العنكبوت؟!

لقد استشرفت بحوث الكتاب مستقبل بعض التيارات السلفية ـ قبل إعلان الحرب الغربية والعربية عليها تحت شعار «الحرب على الإرهاب» ـ عندما أكدتُ أن لعبة التكفير والقتل التي تلعبها ستؤدي بها إلى الطريق المسدود، وإلى ردود فعل اجتماعية وسياسية محلية

وعالمية، تكون لها تأثيرات سلبية على الصحوة الإسلامية، بل على الدين الإسلامي ككل. وهذا ما وقع ونعيشه الآن؟!

أما بخصوص الحرب الشرسة والمفتوحة على الشيعة والتشيع، فنقول للسلفيين: أنتم فعلاً أغبياء إذا تصورتم أن نشر الأكاذيب والخرافات بإمكانها أن تشكل حاجزاً يمنع أبناء الصحوة الإسلامية من الاطلاع على التشيع والتعرف على عقائد الشيعة ومذهبهم الفقهي، إن هذه الافتراءات (للشيعة مصحف غير القرآن، يقولون بأن القرآن محرف، ويسبُّون الصحابة، يعبدون أئمتهم بدل الله سبحانه وتعالى) قد يؤمن بها البعض ممن لا يعرف الحقيقة، وقد تُخيف آخرين فيبتعدون عن الشيعة والتشيع، لكن البعض سيدفعهم الفضول المعرفي، للبحث وللتعرف بنفسه على هؤلاء الشيعة وتشيعهم، وهنا يكون هذا الباحث على موعد مع الحقيقة، سيكتشف أن كل ما يُروِّج له السلفيون بخصوص التشيع هو محض افتراء وكذب، فالتشيع مذهب إسلامي كباقي المذاهب السنية، يختلف معها في بعض الآراء والاجتهادات المحدودة في الفقه والعقائد، كما يتفق معها في قضايا كثيرة فقهية وعقائدية، وما يُميزه فعلاً هو كونه مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام (علي بن أبي طالب وأبناؤه).

وقد يتعرض بعض الباحثين المكتشفين للحقيقة لصدمة قوية تفقدهم التوازن والاعتدال فتصدر عنهم مواقف متطرفة جداً تجاه التيارات السلفية و«المذهب السلفي» وهذا ما وقع لعدد من أبناء الصحوة الذين قرأوا عن الثورة الإسلامية في إيران بأنها ثورة شيعية مجوسية يهودية، هدفها الانتقام من الإسلام المحمدي والرجوع إلى عبادة النار.. الخ، فسافروا إلى إيران بحثاً عن مواقد النار المجوسية المقدسة، فلم يجدوا سوى مساجد تُعلن على مآذنها الشهادة الإسلامية كل يوم خمس مرات، وبداخلها تقام الصلوات الخمس ويقرأ فيها القرآن المطبوع في المدينة المنورة أو القاهرة.

إن الأكاذيب السلفية لا تدفع أبناء الصحوة الإسلامية إلى التعرف على التشيع واعتناقه فقط، وإنما تدفعهم إلى اتخاذ مواقف متطرفة من السلفية وغير السلفية؟!

وبعد ذلك يتهمون الثورة الإسلامية وعلماء الشيعة بأنهم يعملون على تشييع السنة، فمن يدفع فعلاً أبناء السنة لاعتناق التشيع؟ أليست الأكاذيب السلفية؟!

أما الرسالة لعلماء أهل السنة، فإلى متى السكوت على دعاة السلفية وهم يكفرون المسلمين ويستبيحون دماءهم في كل مكان؟! هل تؤمنون بعقيدة التجسيم والتشبيه التي يُروِّج لها السلفيون (الحنابلة الجدد) مثلاً وهل هي عقيدة أهل السنة في التوحيد؟!

والرسالة الأخيرة، هي للباحثين والكتّاب، وطلبة الجامعات، الحقيقة الإسلامية الكاملة والمتكاملة، تشبه صورة فسيفسائية، مكونة من قطع صغيرة، متناثرة في تراث وكتب جميع الفرق والمذاهب والمدارس الفقهية والكلامية، لذلك فمن أراد تشكيل هذه الصورة والبحث عن قطعها، فعليه أن يبذل الجهد للاطلاع على تراث جميع الفرق والمذاهب، لا بد للباحث عن الحقيقة الإسلامية من الخروج من قلاع هذه المذاهب التاريخية، والتمرد على حُراسها وكسر القيود والأغلال التي تكبله وتمنعه من دخول القلاع الأخرى، واقتحام مكتباتها وغرفها المغلقة. فهناك قد تقبع حقائق سجينة، يكبلها الخوف من الآباء والأجداد أو المصالح المادية الضيقة. إن الحكمة والحقيقة هي ضالة المؤمن، وهو أحق بها أنّى وجدها، لذلك لا بد من السعي وراءها دون خوف أو وجل، وإلا فإن الباحث سيقع لا محالة ضحية أكاذيب وأفخاخ حُرَّاس المذاهب المنحرفة للحفاظ عليه كتابع ومقلد ساذج وغبي يمكن أن يستخدم كحطب في مواقد المشاريع السياسية الشيطانية؟!

أما ما يثلج الصدر فعلاً، فهو وصول هذه الرسائل إلى «من يهمهم الأمر» واستيعابها من طرف من قرأ هذا الكتاب.

لذلك أجدد دعوتي ـ في هذه المقدمة ـ إلى الاطلاع على مضمون هذه الرسائل مفصلاً في ثنايا هذا الكتاب، فقد ازدادت أهمية هذا الاطلاع وهذه المعرفة، أمام ما يتعرض له الإسلام من مخاطر وتحديات داخلية من طرف التيارات السلفية «التكفيرية والقتالية»، وخارجية من طرف الاستعمار الغربي الذي كشَّر أنيابه ويُريد أن يُحيي ـ من جديد ـ أمجاده الاستعمارية الغابرة؟!

أما بخصوص هذه الطبعة، فليست فيها إضافة أو حذف وإنما تدقيق وتصحيح لبعض الأخطاء المطبعية واللغوية فقط، لأنني اكتشفت عند المراجعة، أن ما كتبته كان استشرافاً للمستقبل، لذلك فلا يحتاج إلى إضافة وقد كُتب بلسان الحال..

محمد الكثيري

٢٠٠٧/١٢/٣م

المقدمة

قبل عقد ونصف من الزمن كنت في زيارة لأحد أقاربي، شيخ طاعن في السن و«مقدم» في الطريقة التيجانية، يقيم في منزله حلقات الذكر والدعاء، فكان أتباع هذه الطريقة يؤمون بيته في كل وقت للذكر والزيارة. وقد صادف يوم زيارتي له أن جاءه رجل في الخمسينات من عمره، وبعد أن سلم وجلس بجوار الشيخ بدأ يحدثه عن زيارته للأماكن المقدسة. قال الرجل إنه زار مكة والمدينة وقد التقى بالشيخ أبي بكر الجزائري الواعظ السلفي المشهور.

حيث دار بينهما نقاش طويل حول زيارة القبور والتوسل بالأولياء. قال الرجل إنه أفحم الواعظ السلفي فلم يجد ما يرد به عليه إلا اعتراضه على حلق اللحية وقد كان الرجل حليقا. فقال له، لو تركت لحيتك تطول لكان ذلك أفضل وأتم.

لكن المريد التيجاني رد عليه بقوة قائلا: إن الله سبحانه وتعالى لم يقل أنه ينظر إلى لحاكم بل قال إنه ينظر إلى قلوبكم، فحار الشيخ أبو بكر الجزائري في جوابه وانتهى الحوار.

كان الرجل يومها يحدث أصحابه بفخر واعتزاز وقد ظهرت الغبطة والسرور على وجوه الحاضرين ومنهم شيخ الطريقة، وكأنه يحدثهم عن انتصار مهم في معركة حامية الوطيس، انتقل الحاضرون بعد ذلك لنقاش بعض القضايا، فسمعت اسم ابن تيمية يتردد على ألسنتهم، قال أحدهم إن الرحالة ابن بطوطة ذكر في رحلاته أن ابن تيمية ذكر حديث النزول، نزول الله إلى سماء الدنيا، وأنه - أي ابن تيمية - نزل درجة من على المنبر قائلا كنزولي هذا.

وتابع الحاضرون نقاشاتهم بين مستنكر لما قاله ابن تيمية وبين معلق عليه...

لم أكن أعرف وقتها أن هناك صراعا عقائديا مريرا بين هؤلاء الطرقيين وبين المذهب

الفقهي والأصولي المنتشر في جزء كبير من شبه الجزيرة العربية، لأنني كنت في بدايات تحصيلي العلوم الدينية. كما أن الكتب التي كانت تغزو الساحة آنذاك ومن بينها فتاوى ابن تيمية لم تكن تدعو لمذهب فقهي أو أصولي معين، أو معروف لدى أبناء الصحوة الإسلامية. وإنما هي دعوة للتشبث بالسنة النبوية والعمل بمقتضاها ورفض التقليد في الدين. وقد واكب ذلك انتشار كبير لآراء وفتاوى تخالف المذهب المالكي وأشهرها القبض في الصلاة بدل الاسبال.

أما الحوارات الفقهية والأصولية التي كانت تدور في ساحات الجامعة وداخل الفصول، فكانت تثير الكثير من التساؤلات، وذلك لوجود طلبة ممن لديهم اطلاع جيد على العلوم الإسلامية. فالآراء الجديدة كانت تجد معارضة قوية ويتحول النقاش في أحيان كثيرة إلى خصام واتهام الطرف الآخر بالجهل وقلة الاطلاع. وبعد ذلك ينقسم الطلبة إلى تيارين مختلفين ومتنافسين، كل واحد منهما يدعو لاختيارته الفقهية ويعمل على تكثير أتباعه.

لقد شاركت في الكثير من هذه الحوارات والنقاشات الساخنة، وانتصرت لبعض الآراء الفقهية معتمدا على ما تجود به المكتبات من كتب حديثة طبعت في بيروت والقاهرة وفي بعض الأحيان في السعودية، ولم نكن نعرف عن أصحابها شيئا، اللهم إلا ابتدائها ببسم الله الرحمان الرحيم، واحتضانها عشرات الأحاديث النبوية والآيات القرآنية!؟.

كنا نعتقد ونحن نناقش ونجادل أن حججنا قوية بما فيه الكفاية، وأن المخالف لنا إنما هو معاند ومكابر، متشبث بتقليد الآباء والأجداد دون علم أو تحقيق. لكن أحدا منا لم يكن يخطر بباله أن حقائقه الجديدة التي يدعو لها إنما هي انتصار لمذهب فقهي وأصولي تجتاح كتبه الساحة الإسلامية في غفلة عن باقي المذاهب الإسلامية الأخرى. كل ما هنالك أن هذه الآراء والأحكام التي تعرفنا عليها هي جديدة بالنسبة لنا. فمثلا عندما قرأنا عن صفة صلاة النبي ﷺ وجدنا أنه ﷺ كان يضع يده اليمنى على اليسرى، لكننا وآباءنا نسدل أيدينا في الصلاة. وقد ورثنا ذلك خلفاً عن سلف دون أن نعرف الأدلة على ذلك، وعندما قرأنا كتبا تخالف ما نحن عليه وتستدل بأحاديث الرسول ﷺ لم نجد بدا من اعتناق الرأي الجديد وضربنا بغيره عرض الحائط.

لكن السؤال الكبير الذي لم نكن نجد له جوابا شافيا، كان في حل هذا التناقض والاختلاف العلمي والنظري الذي بدأ يقسم الساحة إلى تيارين مختلفين ومتصارعين.

فأغلب الفقهاء المالكية على سبيل المثال لا يقبضون في الصلاة بل يسدلون أيديهم. كما يؤيدون ما تقوم به الزوايا من مراسيم واحتفالات سنوية بالمولد النبوي وبالأولياء. بل إن الكثير منهم يشارك مشايخ الطرق الصوفية مجمل عقائدهم في التوسل والشفاعة ودعاء الأولياء وبناء القبور والأضرحة، وهذه العقائد والاختيارات الفقهية درج الجميع عليها منذ قرون خلت.

وإذن كيف لم تصلهم هذه الأحاديث التي اكتشفناها نحن مؤخرا وعملنا بها؟!! في التوحيد والشرك ومحاربة البدع وصولا إلى القبض في الصلاة وغير ذلك من المسائل الفروعية؟!.

لن أكون مجانبا للصواب، إذا قلت بأن مسألة التمذهب والمذهبية أو الاختيارات الفقهية والأصولية. كانت قضايا مبهمة لدينا ولدى غالبية الملتزمين الشباب من جيلنا. أولا لندرة الكتب التي تعالج هذه القضية الشائكة، ثانيا لعدم معرفتنا بتفاصيلها وخلفياتها التاريخية ونحن في بداية التحصيل العلمي الديني. زد على ذلك خلو الساحة من أي تعدد مذهبي فقهي أو أصولي، لأن منطقة المغرب العربي هي منطقة نفوذ تاريخي للمذهب المالكي. لذلك كانت معرفتنا بباقي المذاهب الفقهية والأصولية الأخرى هزيلة، بل نكاد لا نعرف شيئا عن المذاهب الإسلامية خارج إطار أهل السنة والجماعة.

إن هذه الاختلافات الفروعية والأصولية التي شغلت أبناء الصحوة الإسلامية مبكرا، كانت تبشر بأزمة خطيرة بدأت ملامحها تظهر وتتعمق، ليس فقط على مستوى التعدد الحركي أو الانتماءات السياسية، ولكن في التمزق الفكري الديني. كل شاب يختار الالتزام بتعاليم الدين عليه أن يقرأ الكتب الإسلامية في الحديث والعقائد والفقه بمفرده، أن يدرس ويفهم ثم يختار ويطبق ما توصل إليه من مفاهيم وآراء في العقيدة وفي الإسلام ككل. ويهون الخطب لو كان الأمر ليقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه في أغلب الأحيان، لأن ما سيتوصل إليه هذا الشاب الملتزم سيتحول إلى ميزان وقانون يحاكم به المجتمع والأفراد من حوله. فمن قبل بما توصل إليه من آراء وفتاوى فهو على الحق، ومن خالفه فهو بالتأكيد على الباطل؟!.

من هنا بدأ التمزق يغزو كيان الصحوة الإسلامية داخل كل بلد، وتعددت الخلافات وكثرت الأحكام الفقهية المتناقضة والمتضاربة. وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام أبناء

الصحوة دون شرط أو قيد، سوى امتلاك كتب الحديث النبوي والقدرة على القراءة والفهم. وبين عشية وضحاها يصبح الشاب المراهق فقيها مجتهدا، يُفتي في الدماء والأعراض والأموال. ولنا أن نتصور ماذا كانت النتيجة، ظهور مذاهب فقهية وأصولية بعدد أبناء الصحوة، لأن كل ملتزم أو متدين يلتحق بصفوف الصحوة هو مشروع فقيه مجتهد، ومفكر إسلامي يحمل هموم الأمة الإسلامية ويفكر في إيجاد الحلول لمشاكلها المستعصية!!.

هذا التخبط والاختلاف العقائدي والفقهي العقيم الذي بدأ يمزق جسد الصحوة الإسلامية كان سببا في انتشار موجة من القلق الفكري والروحي داخل صفوف أبناء الصحوة، دفع البعض إلى التحرر تدريجيا من الالتزام الديني والتوجه نحو الانشغالات الدنيوية، والنظر إلى «الإسلام الجديد» بنوع من الحذر والريبة. ومنهم من هرب قاصدا الطرق الصوفية على اعتبار أن التعبد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن أن يختلف حولها مع تجنب بعض مظاهر الشرك. وبقيت فئات عريضة داخل هذه البؤرة تتخبط في الاختلاف والتناقض وتتوزعها كيانات فكرية وحركية لا تتوقف عن الانقسام والتكاثر، كل كيان يسفه أحلام خصومه، بل يكفرهم ويرمي بهم بعيدا عن جماعة المسلمين.

الواقع أنني كنت ممن اكتوى بنار هذا الاختلاف وأصابه شرر من لهيبه المتطاير، أيام بل شهور وشهور من القلق الفكري والعقائدي كادت أن تعصف بكياني الإيماني والالتزامي. لكن العناية الإلهية أدركتني في الوقت المناسب فانتشلتني من هذا التخبط الذي حشرت فيه، وأمدتني بالقوة والعزم الكافيين لمواصلة مسيرة البحث والدراسة لمعرفة أسباب الخلاف وعوامله ومن يقف وراءه. فعقدت العزم لدراسة المذاهب الإسلامية المتعددة والتعرف على رجالاتها وكتبهم والبحث عن الدراسات المهمة التي تعالج قضية المذهبية وتاريخ المذاهب. ولما لم يكن ذلك متيسرا في وطني لقلة المراجع والمصادر الخاصة بالمذاهب الإسلامية المختلفة قررت السفر إلى الشرق لتحقيق هذا الغرض.

لن أسترسل في ذكر تفاصيل تجربتي المعرفية والبحثية، لكنني قد أكون اكتشفت حقائق كثيرة كانت غائبة عني وعن أبناء جيلي من أبناء الصحوة. منها أن العالم الإسلامي لا تتوزعه جغرافية سياسية فقط، وإنما هناك جغرافية مذهبية وأيديولجية كذلك. حدود خفية ودقيقة يتم الحفاظ عليها وحراستها أكثر من الحدود السياسية والجغرافية.

فالجزائر مثلا كان أريد لها أن تصبح سلفية؟!. فكان ذلك وأغرقت الأسواق بالمنتجات الفكرية السلفية التي غذت نهم أبناء الصحوة للمعرفة. ولبست الحقيقة رداء السلفية في الجزائر، وحوربت الحقائق الأخرى بضراوة وشراسة.

إن البحث والدراسة العميقة لتاريخ الإسلام بشكل عام وتاريخ المذاهب الفقهية والأصولية بشكل خاص وعلاقة ذلك بالاجتماع والسياسة، يكشف عن حقائق مهمة وخطيرة تنزل أصناما ذهبية براقة من عليائها لترمي بها في مزابل التاريخ، لأنها ليست سوى بصمة عار على جبين الإنسانية، ورمزاً للانحراف والظلم اللذين شيدا صروح النفاق والكفر والضلال عن الحق.

من هنا يأتي هذا الكتاب وفصوله الستة كمساهمة في إيجاد إجابات لمئات التساؤلات التي تطرحها مسيرة الصحوة الإسلامية اليوم على المستوى العقائدي والمذهبي، ومحاولة لتسليط الضوء على أسباب وعلل الاختلاف الديني، ومن يقف وراء الفتن المذهبية والحروب الطائفية التي تمزق وحدة المسلمين في الوقت الراهن. كل ذلك من خلال متابعة تاريخية شاملة لنشوء المذهب الحنبلي في الفقه والعقائد، ورصد ليومياته في الدعوة والانتشار وعلاقته بخصومه ومخالفيه من المذاهب الإسلامية الأخرى، مع عرض لبعض خصوصياته العقائدية والفقهية.

هذا المذهب الذي انبعث فجأة من مقبرة التاريخ، نافضا غبار السنين، مستفيدا من الظروف المؤاتية، ليكتسح الساحة الإسلامية. ليس كمذهب اجتهادي في الفقه والأصول، ولكن كحقيقة إسلامية مطلقة تقسم جماعة المسلمين إلى «سلفي» مؤمن و«بدعي» كافر!!.

سيجد القارئ أن هذه المتابعة التاريخية الطويلة والضرورية هي جديد هذا الكتاب، وتجاوز للنقص الذي شكت منه الكتب والدراسات التي عالجت هذا الموضوع، من زاوية أن الفكر الوهابي أو السلفي يقف مباشرة وراء هذا التمزق العقائدي والفقهي العميق الذي تعيشه الساحة الإسلامية السنية خصوصا. فالتركيز على معالجة قضايا التوحيد والشرك وحصرها في إطار مسائل التوسل والشفاعة وبناء القبور، والدخول في مناقشات عقيمة مع أتباع المذهب الحنبلي المعاصرين «السلفية»، من خلال تجميع وحشد الأحاديث المخالفة والمناقضة لما يذهبون إليه، لم يؤد إلى وضوح قضايا التوحيد الشائكة أمام أعين أبناء الصحوة

الإسلامية، مما ساعد على انتشار الفكر العقائدي السلفي الذي يرفع شعار التوحيد ويدعو للابتعاد عن الشرك ومظاهره.

والسبب كما قلت يرجع إلى إهمال وعدم اعتبار الخلفية التاريخية والمذهبية للآراء والأفكار. فلو علم أبناء الصحوة أن مجمل ما يصلهم اليوم وبشكل عام ويقرأونه ويؤمنون به على أنه رأي الصحابة وعمل السلف الصالح، ليس سوى اختيارات المذهب الحنبلي في العقائد والفقه، واجتهادات رجالاته عبر التاريخ؟! في مقابل آراء واجتهادات واختيارات المذاهب الأخرى التي ظهرت للوجود قبل المذهب الحنبلي، بل قبل أن يولد مجتهدوه الكبار بقرون عدة. والكل يدعي ارتباطه بالسلف الصالح والصحابة ويسند أقواله وأفعاله لهم؟!!

ولو أتيح لغالبية أبناء الصحوة سبيل الاطلاع ومعرفة آراء وأفكار مذاهب أخرى لا يعرفون عنها شيئا، فمما لا شك فيه أنهم سيراجعون عددا لا بأس به من أفكار قدمت لهم على أنها عمل السلف الصالح ومعتقد صحابة رسول الله ﷺ بالتالي الحقيقة الإسلامية.

إن الخلفيات التاريخية والمذهبية والسياسية وكذا الاجتماعية هي التي تعطي للفكرة أو منظومة الأفكار الأبعاد الداخلية العميقة والصورة الشكلية الخارجية. فتظهر الحقيقة من خلال هذا العمق وهذه الصورة واضحة جلية ليس فيها لبس أو إشكال. وهذا هو الذي يساعد الإنسان على حسن الاختيار والتمييز بين الحق والباطل ليعيش ويموت على بينة. إن هذا الكتاب الذي جعل هدفه توضيح مجموعة من المغالطات وعلى رأسها الحقيقة السلفية التي ليست هي الحقيقة الإسلامية المطلقة كما يدعى وإنما مجرد «رؤية؟!» مذهبية محكومة بنمط اجتهادي حنبلي متميز، وتسبح في فضاء سياسي واجتماعي وجغرافي هو المسؤول عن إخراجها للوجود ونشرها في الآفاق البعيدة.

جهد كذلك ولو بشكل غير مباشر على إزاحة بعض الأقنعة عن وجوه ورجالات وكيانات مذهبية وسياسية مختلفة، حيث تتشابك المصالح المادية مع الأهواء الشيطانية وصراع الإرادات الشريرة، لتصنع تاريخا مزيفا ودينا محرفا، وواقعا تتخبط فيه الأنفس والأرواح من شدة القلق.

السيد محمد الكثيري

بيروت ٦/ ٣/ ١٩٩٦م

الباب الأول

السلفية

الخلفيات التاريخية والمذهبية

الفصل الأول

التعاريف

- السلفية
- الحشوية
- أهل السنة والجماعة
- الشيعة الإمامية

السلف والسلفية في اللغة والاصطلاح

تعريف السلفية:

يقول ابن منظور في مادة سلف:

سلف: سلف يسلف سلفا وسلوفا: تقدم، والسالف: المتقدم: والسلف والسليف والسلفة الجماعة المتقدمون وقوله عز وجل: فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين. وقال الفراء: يقول جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون.

ويقول الجوهري: سلف يسلف سلفا مثال طلب يطلب طلبا، أي مضى.

والقوم السلاف: المتقدمون. وسلَف الرجل: آباءه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف... والسلف أيضا: من تقدم من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل، وأحدهم سالف. وقيل، سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[1].

قال ابن فارس: «سلف: س ل ف، أصل يدل على تقدم وسبق فالسلف. الذين مضوا والقوم السلاف: المتقدمون»[2].. وفي أنساب السمعاني: السلفي: بفتح السين واللام في آخرها الفاء. هذه النسبة إلى السلف. وانتحال مذهبهم حتى «عرفت به جماعة»[3].. قال ابن الأثير في النهاية: سمي الصدر الأول من التابعين، «السلف الصالح»[4].. والسلف شرعا: كل من يقلد ويقتفي أثره في الدين

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٦ ص ٣٣٠ - ٣٣١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ١ ١٩٨٨ م.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة سلف.

(٣) علي حسين الجابري، الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشرية، ص ١٥ - ١٦.

(٤) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ٢ / ١٩٠، المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٣هـ

كأبي حنيفة وأصحابه فإنهم سلفنا، وأما الصحابة فإنهم سلفهم، وأبو حنيفة من أجلاء التابعين[١].. والسلفية فرقة من الإمامية. وهم الأخبارية[٢]..

من خلال هذه التعاريف يظهر أن السلف لغة، تعني التقدم الزمني «فكل زمن من الأزمان سالف بالنسبة إلى الأزمنة الآتية في أعقابه وخلف بالنسبة إلى الأزمنة التي سبقته ومرت من قبله»[٣].. لكن الاختلاف ظهر في تحديد مفهومه الاصطلاحي وربط ذلك بفترة زمنية محددة أطلق عليها اسم «السلف». والمعنى الاصطلاحي المستقر لهذه الكلمة كما ذهب إليه الدكتور البوطي:

«هو القرون الثلاث الأولى من عمر هذه الأمة الإسلامية»[٤].. وذهب غيره إلى «اتفاق رأي العلماء بأن السلف يراد بهم الصحابة رضي الله عنهم والتابعون عليهم رحمة الله، وتابعوا التابعين رحمهم الله»[٥].. وقيل ما قبل الخمسمائة[٦]..

أما المراد بمذهب السلف فيقول أحمد بن حجر: ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم وما كان عليه أعيان التابعين لهم بإحسان وما كان عليه أتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة. وعرف عظيم شأنه في الدين وتلقي الناس لكلامهم خلفا عن سلف. كالأئمة الأربعة والسفيانيين والليث بن سعد

وابن المبارك النخعي، والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن دون من رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والمرجئة والجبرية، والجهمية، والمعتزلة وسائر الفرق الضالة[٧]. وعليه فمفهوم السلف في أغلب

---

(١) التهانوي، الكشاف، مادة سلف.

(٢) الفكر السلفي، مصدر سابق، ص ١٦.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر – دمشق، ص ٩.

(٤) نفس المصدر.

(٥) د. عبد الحليم محمود، السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٩ – ١٠.

(٦) الفكر السلفي، مصدر سابق، ص ١٧.

(٧) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. نقلا عن العقائد السلفية، لأحمد بن حجر آل أبو طامي. ص ١١.

التعاريف التي ذكرنا لا يشير فقط إلى مرحلة زمنية معينة اختلف في تحديدها. وإنما ارتبطت هذه الفترة الزمنية بمفهوم آخر هو الذي أعطى للفظ «السلف» و«السلفية» مفهومه الاصطلاحي وهو «الخيرية». وهذا المفهوم إنما استنبط من حديث رواه كل من البخاري ومسلم، فعن عبد الله بن مسعود قال رسول اللهﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

السلف والخيرية:

انطلاقا من مضمون هذا الحديث - بصرف النظر عن صحته أو ضعفه - نرى أن رسول اللهﷺ جعل خير الناس وأفضلهم، معاصريه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، دون تحديد سبب لهذه الأفضلية أو الخيرية، سوى ما هو متبادر من ظاهر الحديث، قرب هؤلاء الناس من الرسول وتواجده بين ظهرانيهم، فأفضلهم من عايشوا الرسولﷺ وهم الصحابة، ثم من عايش الصحابة وهم «التابعون»، ثم من عايش «التابعين». وقد سمي هؤلاء التابعون -كما مر معنا في التعاريف - بالسلف الصالح.

لكن الملاحظ أن هذه «الأفضلية» و«الخيرية» التي ذكرها الحديث، مطلقة وتشمل كل من عاصر الرسول وأصحابه والتابعين، دون تحديد. فهل يشير الحديث ضمنا إلى فئة أو شريحة متميزة من الناس لها مواصفات معينة وهي التي تستحق الأفضلية وتنسب إلى الخيرية.

أما الجمهور فيرون أن الخيرية ثابتة لأفراد هذه القرون الثلاث جميعا، على اختلاف درجاتهم وتفاوتهم في الصلاح والاستقامة. وذهب ابن عبد البر، إلى أنها ثابتة لمجموع المسلمين في تلك العصور الثلاث، أما الأفراد فقد لا تنطبق الخيرية على بعضهم، بل قد يأتي فيمن بعدهم من هو أفضل منهم[1]..

---

(١) السلفية للبوطي، مرجع سابق، ص ١٠.

وعليه فقد تبين من خلال هذه التعاريف أن عصر الرسول أو قرنه والقرنين اللذين تلياه، هي أفضل القرون في تاريخ الإسلام والمسلمين[1]..

وإن الخيرية قد استوعبت مجموعهم إما أفراداً أو مجموعات. وهذه النتيجة هي التي اعتمدها الخلف الذين جاؤوا بعد هذه القرون الثلاث، حيث تم تقديس هذه المرحلة الزمنية واحترم أصحابها واعتبروا سلف هذه الأمة الصالح الذين يجب علينا اتباعهم واقتفاء أثرهم حذو النعل بالنعل.

على أن مفهوم «السلف»- وإلى حدود القرن الرابع الهجري - لم يكن له سمات واضحة، جلية ومحددة في العقائد والسلوك، من التزم بها نسب إلى السلف. وإنما ارتبط مفهوم السلف وازداد استخدامه والإشارة إليه عندما بدأت معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية تتغير عما عرف أو كان عليه مجتمع الرسول وصحابته.

لقد انطلق العرب المسلمون من الجزيرة العربية مبشرين بالإسلام وفاتحين الدول، حيث تم القضاء على إمبراطوريتين عريقتين في الحضارة والتمدن، وقد انتقل إرثهما الكامل لهؤلاء الفاتحين اللذين لم يتطبعوا بمدنية من قبل وإنما كان سكن أغلبهم الخيام، وأكلهم التمر ولحوم الإبل. فما كاد القرن الأول يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى أصبح العرب الفاتحون، الزعماء الجدد لعدد كبير من المجتمعات والقوميات المختلفة الأعراف والأديان، فكان أن بدأ التغير ينساب بسرعة إلى حياة ذلك العربي المؤمن، البسيط في لباسه وسكنه ومعيشته.

فظهرت معالم التحول واضحة في المدن الجديدة التي اختارتها القيادات الإسلامية والعربية لتكون حواضر المدنية الجديدة.

لقد بدا هذا التحول الشامل وكأنه انسلاخ عما ألفه العرب المسلمون الأوائل

(١) روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه».

من أساليب الحياة، والتي ربط البعض بينها وبين تعاليم الدين الجديد، فشكل اللباس وطريقة الأكل والمسكن التي كان عليها الرسول وأصحابه الأول، بدأت تنحصر وتتراجع لتنسخها طرق وأساليب حياة جديدة ومختلفة، مستوحاة من طرائق الحياة لدى الأمم المفتوحة، والتي اعتنق أغلب سكانها الإسلام. وأصبحوا مع مناطقهم الجغرافية يشكلون المجتمع الإسلامي الكبير.

لقد انطلقت منذ ذاك الحين دعوات ونداءات من طرف بعض الناس، تنبه لهذا التحول وتحذر منه، وتدعو للرجوع إلى ما كان عليه الرسول ومجتمع الصحابة الأول.

فأمام حركة الترف والتنعم بملذات الدنيا وخيراتها، من امتلاك للمزارع الكبيرة، وبناء الدور والقصور الفخمة، واقتناء الجواري والعبيد والخدم والحشم الخ.. ظهر تيار مناهض لهذه المظاهر وندد بها، داعيا للتقشف والزهد في الحياة الدنيا. على أن ذلك من صميم الدين وسيرة السلف الصالح، وهناك محاورة بين الإمام الصادق وسفيان الثوري وكلاهما ينتسب لعصر التابعين، تظهر لنا عدم تقبل الكثير من الملتزمين بالدين الجديد - خصوصا من العرب - بعض العادات الجديدة في الملبس والمأكل والمسكن. فقد دخل سفيان الثوري على الإمام الصادقعليه السلام وكان عليه جبة خز دكناء، قال سفيان:

فجعلت أنظر إليها متعجبا. فقال لي: يا ثوري. ما لك تنظر إلينا، لعلك مما رأيت؟ قال فقلت: يا بن رسول الله ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك.

فقال لي: يا ثوري، كان ذلك الزمان مقفرا مقترا، ثم حسر عن ردن جبته وإذا تحتها جبة صوف بيضاء، وقال، يا ثوري لبسنا هذا لله (وأشار إلى جبة الصوف) وهذا لكم (وأشار إلى الخز) فما كان له أخفيناه، وما كان لكم أبديناه[1].. وفي رواية أخرى قال أخبرك إن الرسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم كان في زمان مقفر جشب، فإذا أقبلت

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، م ٢ ص ٣٠٢.

الدنيا فأحق بها أبرارها لا فجارها، مؤمنوها لا منافقوها ومسلموها لا كفارها»[(١)]..

من خلال هذه المحاورة التاريخية بين اثنين من أقطاب السلف وهما الإمام الصادق وسفيان الثوري وهو من كبار الزهاد في عصره، يتبين لنا مدى التحول الذي بدأ يتجلى في الحياة الاجتماعية العامة لدى المسلمين. فلبس الخز من طرف الإمام الصادق إنما هو مسايرة لما عليه الأغلبية في لباسهم، ونحن نعلم أن من الصحابة من لم يكن يلبس إلا المرقع من خشن اللباس، وذلك للفقر الذي عاشه المسلمون الأوائل قبل الانتصار الكبير للإسلام. لذلك استنكر سفيان هذا اللباس وقال للإمام الصادق ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك.

لقد شهد عدد من المحدثين والفقهاء الاختلاف الذي سرى وتعمق في الحياة العامة للمسلمين والعرب منهم بالخصوص. وكيف أنهم ابتعدوا كثيراً عما كان عليه السلف (والمقصود به في ذلك الزمن الصحابة) وكانت جل الملاحظات والانتقادات لا تعدو كما ذكرنا: طرائق الحياة من ملبس ومسكن، وإن كان هناك تغير وتحول إن لم نقل انحراف عقائدي تزعمه ملوك بني أمية، الذين حولوا الخلافة إلى ملك عضوض. لكن مع مرور الزمن وما عرفه المجتمع الإسلامي من أحداث جسام، خصوصا على الصعيد السياسي وما نجم عنه من تقاتل وسفك للدماء. ونشوء الفرق السياسية بادئ الأمر، والكلامية بعد ذلك، وبداية التأسيس الحضاري في مجالات العلوم الدينية والعلمية، والذي اكتمل بنيانه مع نهاية القرن الرابع.

كل ذلك وغيره جعل الدعوة إلى اقتفاء أثر السلف الصالح من (الصحابة والتابعين) تأخذ بعدا آخر، أكثر عمقا وأبعد أثرا. لقد خطا المجتمع الإسلامي أشواطا بعيدة في المدنية، جعل الدعوة لتقليد السلف في ملبسهم وسلوكياتهم العامة، خطا أو تيارا خاصا متميزا في الوسط الإسلامي بجانب التيارات الأخرى. لكن

(١) بداية الفرق نهاية الملوك، الشيخ محمد رضا الحكيمي، ص ٧١.

هذه الدعوة ستأخذ ابتداء من القرن الرابع الهجري بعدا فكريا ونظريا، بالإضافة للدعوة إلى الالتزام بما كان عليه الصحابة من مظاهر خارجية تمس الحياة اليومية الاعتيادية من ملبس ومأكل، إلى اقتناء وتقليد آرائهم ومذاهبهم الفكرية والاعتقادية.

لقد كانت هذه الحركة بداية تفجر الاختلاف الكبير حول مفهوم السلف وتحديد الفترة الزمنية التي يمكن أن يطلق عليها لغة واصطلاحا «السلف»، ومن هم رجالات السلف الذين سنقتفي أثرهم ونعتنق آراءهم ومذاهبهم؟

وهل يعتبر العلماء والفقهاء ممن ظهر مؤخرا ولم يلتقي بالتابعين، «سلفاً» لنا يمكن الاقتداء بهم، وقد أصبح للكثير منهم مكانة علمية مرموقة، سواء في الفقه أو الحديث، وباقي العلوم الإسلامية. كما حازوا احترام العامة فقلدوهم في كل ما يذهبون إليه من أفكار وفتاوى فقهية؟. وإذا كانت الخيرية قد اعتبرت في القرون الأولى خاصة، بنص الحديث النبوي. فما قولنا فيمن جاء بعد تلك القرون؟.

الاختلاف حول مفهوم السلف والخيرية وتحديد الفترة الزمنية:

إن تحول التقليد والاقتداء بالسلف وتطوره من مفهوم المتابعة السلوكية إلى المتابعة في الاعتقادات النظرية والفكرية، قد فجر عدة مشاكل نظرية وعملية.

خصوصا مع ظهور تيار خاص، اتخذ من هذه المتابعة أو التقليد مذهبا مميزا عن باقي التيارات والفرق التي كانت تموج بها الساحة الفكرية الإسلامية.

ومن بين الأسئلة الأكثر حرجا والتي لم تجد لها جوابا متكاملا ومقنعا، واحتار زعماء هذا التيار في الماضي والحاضر في أن يجدوا لها حلا شافيا أو جوابا علميا. نذكر منها ما يخص تحديد مفهوم مصطلح «سلف» ودلالاته العملية والواقعية.

ما المقصود بالخيرية التي ذكرها الحديث، على فرض صحته؟ وهل هذه الخيرية قصد بها بيان المنزلة الخاصة للذين عايشوا الرسول من الصحابة، ومن

عايشهم من التابعين، الذين أتوا بعدهم، لتوجيه الأنظار والتدليل على اتباعهم واقتفاء أثرهم في كل ما راموه من فعل أو قول؟ لقد كان في الصحابة والتابعين المنافقون والفسقة، ومنهم من انحرف زمن الرسول، ومنهم من انحرف بعده، واشتهر من بينهم الوضاعون والكذبة، وارتد البعض منهم عن الإسلام وأصبح كافرا معلنا العداوة للإسلام وأهله!؟.

وقد توزع الصحابة في الأمصار وأحدثوا كثيرا من القضايا التي اختلف حولها المسلمون. وحارب بعضهم بعضا؟! وعليه فمفهوم السلف هنا إذا قصد به الصحابة أو التابعون لهم. لا بد وأن يختص به جماعة منهم، من استقام على الإسلام ولم يبدل تبديلا حتى لقي ربه.

ومعرفة هؤلاء ونعتهم بالأسماء مما اختلفت الأمة قاطبة حوله، وافترقت الفرق من جراء الفصل فيه!؟.

لقد اختلف في تحديد الفترة الزمنية التي وجد فيها هؤلاء «السلف» القدوة. فإن كان البعض قد حصرهم في التابعين وهؤلاء لم يكن أحد منهم حيا أواخر القرن الثالث، فقد ذهب البعض الآخر إلى اعتبار السلف ما قبل القرن الخامس. ومنهم من أعطى مفهوم السلف بعدا نظريا لا علاقة له بالزمن أو فترة زمنية محددة، فكل من سلك طريقا معينا في الأصول أو الفروع وبرع فيه حتى أصبح رائدا واتبعه الناس وقلدته العوام فهو من السلف، وينتسب إليهم، وإن كان هؤلاء قد وضعوا له محددات خاصة لا علاقة لها بالمفهوم الحقيقي للاقتداء السلفي. وإنما لها علاقة وارتباط بالصراعات السياسية والمذهبية، وأثر ذلك على نشوء الفرق والحركات.

وإذا كان السلف هم المسلمون الذين عاشوا في القرون الثلاثة الأولى، وإننا ملزمون باقتفاء أثرهم واتباع سبلهم وطرائق حياتهم الفكرية والعملية، فإن ذلك لن ينجم عنه إلا الإيمان بكل الفرق والمذاهب والحركات التي ذكرها الشهرستاني

في ملله ونحله. والتي حاول جهده أن يوصلها إلى ثلاثة وسبعين فرقة، ليخرج منها فرقة «أهل السنة والجماعة». باعتبارهم الفرقة الناجية التي ذكرها الحديث[١]، والبقية في النار؟!.

وهذا المفهوم لن يستقيم لما يذهب إليه من اعتبروا أن السلف تيار أو فرقة مخصوصة من ضمن الفرق الإسلامية، وأنهم المقصودون بالفرقة الناجية؟!.

وعليه فادعاء كون «السلفية» فرقة متميزة، يعني تحديد مفهوم السلف في أشخاص معينين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى يومنا هذا. لقد ظهرت جل الفرق والحركات والمذاهب التي عرفها المجتمع الإسلامي، خلال القرون الثلاثة الأولى. وكان فيما بينها من اختلافات الأصولية والفروعية ما أباح تجريد السيف وسفك الدماء وإباحتها، وكفرت كل فرقة من ناوءها أو خالفها الرأي والمعتقد.

لقد افترق المجتمع الإسلامي الأول مباشرة بعد وفاة الرسولﷺ إلى فرقتين، فمن الصحابة من آمن بولاية علي بن أبي طالب ابن عم الرسولﷺ وزوج ابنته فاطمة، لا على أساس القرابة وفضل الجهاد. وإنما على أساس النص والتعيين النبوي[٢]، بالإضافة إلى ادعائه عليه السلام نفسه بكونه الولي الشرعي المنصوص عليه من طرف الله ورسوله.

وناصر جمع من المهاجرين والأنصار استخلاف أبي بكر وعمر وعثمان وأنكروا النص على خلافة علي بن أبي طالب، وظهرت للوجود آنذاك فرقة الشيعة متميزة، وهم أتباع الإمام علي من الصحابة وغيرهم من التابعين وتابع التابعين. وبعد الحروب التي خاضها الإمام علي إبان خلافته. ظهرت فرقة الخوارج، وبعدها بقليل ظهرت فرقة المرجئة. وقد تحولت هذه الفرق السياسية إلى

---

(١) روي عن الرسولﷺ: «تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة».

(٢) أنظر تعريف «الإمامية الاثنا عشرية» ضمن هذا الفصل.

فرق كلامية ودينية. تدافع عن معتقداتها السياسية والفكرية بنصوص الكتاب والسنة، وغيرهما مما اختلق من مصادر وأساليب الحجاج والجدال، فظهرت بذلك الفرق الدينية الكبرى التي أثرت في تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء. منذ ذاك العهد وإلى يوم الناس هذا.

ظهر التيار الجبري الأموي، وفي مقابله وضده انطلق القدريون دعاة للحرية الإنسانية بشكل متطرف. وإلى جانب الفرق التي جادلت في بعض القضايا الخاصة بمشكلات عقائدية[1] لها جذور في النص القرآني والحديثي، أو كانت محل إثارة وجدال لدى الأديان والمذاهب السابقة على الإسلام، مثل التشبيه والتجسيم. وقامت فرق أخرى للرد على تلك الفرق، المعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث بفرقهم من معتدلين وحشوية، كما ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة وغيرها مما اندثر وعفى عنه الزمن.

إن هذه الفرق وغيرها كثير، والتي حاولنا ذكرها بإجمال في هذه العجالة، قد سجل ظهورها في القرن الأول أو الثاني والثالث. بالإضافة إلى أحداث أليمة متمثلة في حروب دامية أكلت الأخضر واليابس، شارك فيها الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، أي ظهرت ونشأت في عهد السلف، وتحت إمرة من يعتبرون من أعاظم السلف، وسفكت فيها دماء الكثير من السلف الصالح، فقد قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على يد مولى لأحد الصحابة، وقتل الصحابة وبعض التابعين الخليفة الثالث عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وقتل الإمام علي على يد الخوارج، وحارب معاوية وهو صحابي - كما يعتبره السلفية - الإمام الشرعي، واغتصب الخلافة من ابنه الحسن. وسفكت الدماء أنهارا، وهتكت الأعراض، ونهبت الأموال بسبب ذلك. وقتل معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي، وعددا من كبار الصحابة كحجر بن عدي. وقتل ابنه يزيد بن معاوية الحسين بن علي، وسبى أهله. وتوالى

(١) مثل مشكل الصفات الخبرية، والمتشابه والمحكم في القرآن.

القتل والنهب والتشريد والظلم الفظيع بعد ذلك على يد ملوك بني أمية وأمرائهم. فغزيت مدينة رسول الله واستباحها الجيش الأموي ثلاثة أيام، قتل فيها عدد من الصحابة والتابعين، وولدت نساؤهم وبناتهم من الزنا. حيث هتكت أعراض الكثيرات منهن. كما هدمت الكعبة. وغير ذلك من الأحداث الجسام، التي سطرها التاريخ ونسبها لهذه الفترة التي يقول فيها الحديث المروى عن الرسولﷺ خير القرون قرني ثم الذي يليه، ثم الذي يليه؟!.

إن اعتبار السلف الواجب الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم هم من وُجدَ وعاش في هذه الفترة. لا يستقيم إلا بالانتقاء الشديد والخاص، يغدو معه مفهوم «السلف» ضيقا جدا ومنحصرا في عدة أسماء، لا يقبل به من يدعو نفسه اليوم أو في الماضي بأنه من أتباع السلف، أو من حاول إعطاء «السلف» مفهوما مرتبطا بحقبة زمنية أعطيت ميزة الأفضلية والخيرية لمن عايشها أو وجد حيا أثناءها، لقد ماجت القرون الثلاث الأولى بفرق ومذاهب كفرت بعضها بعضا واستحل كل فريق دم ومال وعرض الآخر، وادعت كل فرقة أنها على ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه[1]، وأن غيرها منحرف ضال.

لذلك نرى أن عددا من التعاريف التي ذكرناها لتحديد مفهوم «السلفية» و«السلف» لا تستقيم بحال. نذكر منها على سبيل المثال - وإن كنا سنفصل في هذه المواضيع وغيرها في البحوث القادمة، إن شاء الله، تعريف علي عبد الحليم محمود.

تعاريف متناقضة:

جاء في تعريف الدكتور السلفي المعاصر علي عبد الحليم محمود حول مذهب السلف قوله: «ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم» وقد قلنا سابقا بأن الصحابة انقسموا في مسألة الخلافة إلى علويين وشيعة يؤمنون بالنص والتعيين

---

(١) إشارة للحديث الذي يقول فيه الرسول «ما أنا عليه وأصحابي» عندما سئل بعد قوله: عليكم بالجماعة فقيل من هم يا رسول الله؟ قال: «... الحديث».

النبوي المباشر لعلي بن أبي طالب، وآخرون انتصروا لأبي بكر وعمر وعثمان وآمنوا بشرعية خلافتهم، وغيرهم رام الحياد. وهذا الخلاف ليس بالهين لأن السيف قد جرد فيه. وتبادل الفريقان التكفير والتضليل، فمن تبع الفريقين إذن، يكون متبعا للسلف غير منحرف عن نهجهم. أما أعيان التابعين فقد ذهبوا مذاهب شتى متنافرة ومتناحرة، وكتب تاريخ الفرق تدل بوضوح على ذلك. فليس صاحب نحلة أو مذهب في الدين أو السياسة، إلا ويرجع أصل مقولته لهؤلاء السلف من الصحابة والتابعين.

أنظر ما يقوله ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام: «ما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة... فإن المعتزلة – الذين هم أهل التوحيد والعدل وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن – تلامذته وأصحابه... وأما الأشعرية فينتهون بأخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب... وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر... ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه. وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه، «وأبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل» هؤلاء الفقهاء الأربعة. وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر... ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أخذ... ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلي والجنيد وسري، وأبو يزيد البسطامي، وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم. ويكفيك دلالة على ذلك، الخرقة التي هي شعارهم إلى اليوم. وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام»[1].

أما قوله أي الدكتور السلفي «الأئمة الأربعة والسفيانيين والليث بن سعد وابن المبارك والنخعي والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن».. فالمحقق والمطلع

(١) ابن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة، ج ١ – ٢ / ١٧ – ١٨ – ١٩، باختصار.

المقتصد على آثار هؤلاء وسيرهم في كتب التاريخ يجد بينهم من الاختلاف أكثر من عدد اللغات في القارة الهندية اليوم، وكل يدعي وصلا بليلي؟!.

وقد كان يهون الاختلاف لو لم يكفر بعضهم بعضا ويعتبر ذلك دينا له وأصلا من أصوله. فالإمام أبو حنيفة في نظر الإمام أحمد بن حنبل مرجئي، والمرجئي ضال منحرف. وقد كفرته باقي الفرق، وهو يقول بخلق القرآن، وعليه فقد لزمه الكفر لأن كل من قال بخلق القرآن فهو جهمي وكل جهمي في نظر الحنابلة وإمامهم كافر. وهذه مسألة متعلقة بالعقائد وأصول الدين و ليست من الفروع حتى يقال لا يضر الاختلاف فيها. وكان أبو حنيفة على بيعة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.. ومن جملة شيعته، حتى رفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد حتى مات في السجن[1].

ومحمد بن عبد الله هذا كان أحد رجالات الشيعة الأوائل. ومناصرة أبي حنيفة له تعني خروجه على طاعة إمام زمانه، وإمام السلفية أحمد بن حنبل يؤمن بخلافة بني العباس ولا يجوز الخروج عليهم ولا على غيرهم، وهو موقف أصحاب الحديث بشكل عام. وهذا العمل لا شك أنه أخرج أبو حنيفة من مفهوم السلف المتشبثين بالجماعة الخاضعين لطاعة السلاطين وإن فجروا وظلموا.

أما أصحاب الحديث وجامعي السنن فحدث ولا حرج، فمذاهبهم الأصولية والاعتقادية بعدد الأحاديث التي رووها ودونوها في كتبهم.

ففيهم المنزهة، وفيهم المشبهة المعتدلين، والمشبهة الغلاة، وفيهم المجسمة المعتدلين والغلاة، وفيهم الجبرية والقدرية، والمرجئة بكل فرقهم والخوارج والشيعة كذلك. وانتشر بينهم التكفير والطعن على بعضهم البعض، يقول ابن قتيبة وهو محدث يصف حالهم: «وكان آخر ما وقع من الاختلاف أمرا خص بأصحاب الحديث الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين وبالأتباع قاهرين يداجون بكل بلد ولا

---

(١) الشهرستاني، والملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ج ١ ص ١٥٨.

يداجون ويستتر منهم بالنعل ولا يستترون، ويصدعون بحقهم الناس ولا يستغشون، لا يرتفع بالعلم إلا من رفعوا ولا يتضع فيه إلا من وضعوا ولا تسير الركبان إلا بذكر من ذكروا إلى أن كادهم الشيطان بمسألة لم يجعلها الله تعالى أصلا في الدين ولا فرعا. في جهلها سعة وفي العلم بها فضيلة، فنمى شرها وعظم شأنها. حتى فرقت جماعتهم وشتتت كلمتهم ووهنت أمرهم وأشمتت حاسديهم، وكفت عدوهم مؤنتهم بألسنتهم وعلى أيديهم فهو دائب يضحك منهم ويستهزئ بهم حين رأى بعضهم يكفر بعضا وبعضهم يلعن بعضا. ورآهم مختلفين وهم كالمتفقين ومتباينين وهم كالمجتمعين[١].

قد يتأول بعضهم هذا الاسترسال في الإكفار بأنه من قبيل كفر دون كفر، لا الكفر الناقل من الملة، وفاته أن الوارد في الأثر من كفر دون كفر هو ما يكون من قبيل كفران العشير ونكران الجميل وظاهر عدم تمشي ذلك في أمثال هذه المواضع، على أن بعضهم يصرح بأن مراده بالكفر الكفر الناقل. فهذا يقطع قول كل خطيب، وإن كان الكفر الناقل متفاوت الدركات[٢]. وهناك نص آخر أورده عبد الله ابن حنبل في كتابه «السنة» يلقي الضوء على عقائد أهل الحديث وما أصابها من تهافت وتناقض وانتقائية يقول: «حدثني يحيى بن أيوب أملاه سنة ٢٣٥ هـ حدثنا أبو حفص الأبار حدثني شيخ من قريش عن الشعبي قال:

إرجئ الأمور إلى الله ولا تكن مرجئا. وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر ولا تكن حروريا، وأعلم أن الخير والشر من الله ولا تكن قدريا. قال يحيى بن أيوب وحدثني رجل كان إلى جنب الأبار أن الشعبي قال: مع هذا وأثبت صلاح بني هاشم ولا تكن شيعيا»[٣].

---

(١) الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٢.

(٢) نفس المصدر، الهامش ص ١٢.

(٣) عبد الله بن أحمد بن حنبل، السنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ ١٩٨٥ م، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

هذا الخليط العجيب من الأفكار والمعتقدات المتناقضة والمتضاربة يسميه الدكتور السلفي «مذهب السلف». وإذا كان كذلك فكل الفرق والمذاهب والملل والنحل اليوم، وفي الماضي سلفيون وأتباع للسلف. وإذن لا حاجة لفرقة تدعي اليوم لنفسها أنها هي الوحيدة التي تمثل نهج السلف، وأن غيرها قد استقى تعاليمه من اليهود والنصارى والمجوس ومن الغرب والشرق؟!

إن المفهوم الاصطلاحي للسلف أو «السلفية» كتيار ظهر قديما تدعي تمثيله اليوم فرقة من المسلمين، مفهوم انتقائي محدد جدا. وهذا الإطلاق الذي ذكره الدكتور السلفي إنما هو للتمويه على العامة وأنصاف المتعلمين والمطلعين على التراث الإسلامي، ولا يثبت أمام التحليل التاريخي. وهذا ما سنحاول تبيينه للقارئ فيما بعد.

وإذا كان مذهب السلف ما كان عليه مالك والشافعي فلماذا يرفض المذهب المالكي وينهى السلفيون المعاصرون عن تقليده؟! ولماذا كفر أسلافهم من «الحنابلة» فيما مضى أتباع المذهب الشافعي، وسبوا صاحبه وطعنوا في إمامته؟

ووقفوا للشوافع في الطرقات وترصدوا لهم وقتلوهم. ولماذا نهى إمام الحنابلة كما يدعون عن تقليد الشافعي وأبو حنيفة ومالك؟! وإذا لم يقلد هؤلاء الأئمة فيما اجتهدوا فيه ورأوه فماذا يبقى منهم يا ترى؟. وكيف سنتخذهم قدوة وسلفا لنا، إن لم نأخذ بأقوالهم وأفعالهم كما نأخذ أقوال وأفعال غيرهم عند الاقتداء والتقليد؟.

إن مفهوم «السلف» كما قلناه، مفهوم انتقائي جدا وقد حاول الدكتور السلفي أن يشير إلى ذلك في آخر التعريف الذي نقله عن سلفي آخر وهو أحمد بن حجر آل بوطامي. حيث استثنى من مذهب السلف «دون ما رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والمرجئة والجهمية والمعتزلة، وسائر الفرق الضالة»، وهذا التحديد بدوره عام ومبهم وغير مفصل.

وعند التحليل سينقض عروة عروة. أولا لأن القرون الثلاث الموسومة بالخيرية تشمل كل هذه الفرق التي ذكرها وأخرجها من مذهب السلف.

فإذا كان يقصد بالروافض من رفض خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فعدد من الصحابة والتابعين ومن تبعهم رفض هذه الخلافة، منهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وسلمان الفارسي وعمار والمقداد وأبو ذر الغفاري، وغيرهم كثير يتجاوز المائة صحابي، ومئات التابعين منهم: زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق أستاذ الأئمة وشيخ السلف بالإجماع. وهؤلاء وغيرهم من كبار التابعين والسلف باتفاق جل المؤرخين المسلمين.

أما المرجئة فقد عرف لفيف من الصحابة والتابعين بالإرجاء ويكفي ما ذكرناه سابقا من أن أبو حنيفة عرف بالإرجاء هو وتلامذته. وقد انتشر الإرجاء في العهد الأموي الأول، حتى قيل ليس هناك كور في الإسلام إلا وغلب عليه الإرجاء. أما الجبر فقد فشا في أهل الحديث. واعتبر العقيدة الرسمية للدولة الأموية. ولا نظن أن سلفيا قديما أو معاصرا، يشك في سلفية معاوية ابن أبي سفيان والبيت الأموي الحاكم من بعده. وللسلفيين اعتقادات خاصة في معاوية وابنه يزيد وقد ألفوا الكتب في فضائلهما وتنزيههما وجاؤوا بالغرائب في ذلك، كما يقول ابن كثير المؤرخ.

أما قوله «الجهمية والمعتزلة» فالآراء التي أخرج بها الدكتور السلفي هاتين الفرقتين من مذهب السلف، قد إعتنقها بعض الأئمة الأربعة وكثير من الفقهاء وأصحاب الحديث، وقد كان أبو الوفاء ابن عقيل وهو أحد كبار المحدثين والفقهاء الحنابلة السلفيين يعظم المعتزلة ويترحم على الحلاج وقد درس علم الكلام سرا على يد بعض شيوخ الاعتزال، فاكتشفه الحنابلة فطلبوا أذاه فاختفى في دار السلطان. ولم يغفر الحنابلة له ذلك حتى كتب بخطه كتابا يقر على نفسه بالخطأ ويبرأ منه ويعطي إمام المسلمين الحق في التنكيل به إذا ظهر منه فيما بعد شئ مماثل لما كان عليه[١].

---

(١) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي، النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد، عالم الكتب، ط ٢ ص ١٩٨٤م، بيروت، ص ٣٧.

نعتقد إن هذا الالتزام الخطي الذي كتبه هذا المحدث السلفي الكبير على نفسه تحت الإكراه والخوف من بطش أصحابه الحنابلة لم يكن ليغير في معتقداته بهذه السهولة ولا أدل على ذلك من أنه هو الذي تكفل بتغسيل الفقيه الأشعري الشافعي أبو إسحاق الشيرازي لما توفي وصلى عليه بباب الفردوس[١].

والحنابلة كما هو معلوم يكفرون الأشاعرة والشوافع، وعمل ابن عقيل هذا هو خلاف لما عليه أصحابه. وهذا دليل على أنه يختلف عنهم في المعتقد ولو حسب منهم. والأمثلة على ما ذكرنا كثيرة، وإيرادنا لهذا المثال هو فقط للتدليل على عدم صحة التعميم لأنه خلاف الحق والواقع.

وقد سئل الحسن البصري وهو تابعي ومن أقطاب السلف لدى «السلفيين» عن عمرو بن عبيد رأس المعتزلة فأجاب سائله قائلا: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شئ كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه، ولا باطنا أشبه بظاهر منه. إن عالما جليلا - كما يقول الدكتور الشكعة - مثل الحسن البصري لا يمكنه أن يصف عمرو بن عبيد بهذه الأوصاف لو كان فيه قيد شعرة من انحراف في مذهبه واعتقاده[٢].

بالإضافة إلى أن عددا من خلفاء بني العباس كانوا على مذهب الاعتزال ولم يقل أحد من أئمة الفقه أو الحديث بأنهم كفار. بل كانوا يصلون وراءهم ويحجون معهم ويغزون. وقد كان الإمام أحمد ابن حنبل عباسي الميل السياسي، ولعله الوحيد بين الأئمة الأربعة الذي يرى هذا الرأي[٣]. فكيف بزعيم السلفية -

---

(١) أبو إسحاق الشيرازي الشافعي، طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠ م، ص ١٥.

(٢) إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية للطباعة والنشر، بيروت، ص ٤٩٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٣٤، «كان أحمد يقول: الأئمة من قريش، ويعين على إمامة ولد العباس ويقول العباس أبو الخلفاء»، وقد كان أبوه محمد والي سرخس، وكان من أبناء الدعوة العباسية. أنظر مختصر طبقات الحنابلة لابن الشطي، ص ٨.

كما سيدعي أصحابه فيما بعد - يوالي المنحرفين والكفرة إن كان المعتزلة فعلا كذلك.

من هم السلفية:

بعد هذه المتابعة التاريخية لمفهوم السلف، وتحليل بعض التعاريف التي وضعها السلفيون وغيرهم، نستطيع أن نجيب على السؤال الثالث وهو: من هم حقيقة دعاة الانتساب لمذهب السلف أو «السلفية» في الماضي والحاضر؟

وهل لهؤلاء «السلفية» مذهب خاص في الأصول والفروع يميزهم عن باقي الفرق الإسلامية المعروفة.

المقصود بالسلفية هم أولئك الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري وكانوا من الحنابلة، وزعموا أن جملة آرائهم تنتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيى عقيدة السلف، وحارب دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري، أحياه شيخ الإسلام (ابن تيمية) وشدد في الدعوة إليه، وأضاف إليه أمورا أخرى قد بعثت إلى التفكير فيها أحوال عصره، ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري، أحياها «محمد بن عبد الوهاب»- في الجزيرة العربية - وما زال الوهابيون ينادون بها[(١)].

يتبين من خلال هذا التعريف الذي وضعه أبو زهرة، بأن دعاة السلفية أو مذهب السلف هم شريحة من أتباع المذهب الحنبلي ونقول «شريحة»، وليس جميع أتباع هذا المذهب. لأن هذه الفئة التي سمت نفسها بـ«السلفية»، لها آراء وأفكار ومذهب خاص في «الأصول والعقائد». وأحمد بن حنبل يعتبر أحد الأئمة الأربعة المقلدين في الفقه، وليس له في العقائد أو الأصول مذهب خاص به. لذلك كان أغلب مقلدي هؤلاء الأئمة الأربعة وأحمد بن حنبل من ضمنهم، ينتمون عقائديا

(١) محمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، ص ٣١١.

إلى المذهب الكلامي الممثل بشقيه «الأشعري، والماتريدي» مذهب «أهل السنة والجماعة» في الأصول.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان جل الحنابلة في الأصول، على عقيدة مذاهب أهل السنة والجماعة من أشاعرة وما تريدية؟.

الجواب بالنفي، فقد كان الحنابلة دون باقي المذاهب الفقهية الأخرى، موزعين على عقائد شتى ومذاهب أصولية مختلفة، فمنهم من كان أشعريا، ومنهم من كان صوفيا، يؤمن بعقائد وحدة الوجود وغيرها من عقائد الصوفية، ومنهم مفوضة يتبعون بعض السلف في مواقفهم وآرائهم العقائدية.

ومنهم وهم الأغلبية كانوا - كما أجمعت عليه كتب علم الكلام والعقائد والتاريخ -«حشوية». حيث كثر فيهم وفي غالبية أصحاب الحديث الاعتقاد بالتشبيه والتجسيم والقول بالجبر وغيرها من الآراء والمعتقدات، التي تجند المعتزلة أولا لمحاربتها، ثم تصدى لهم فيما بعد «أهل السنة والجماعة» من علماء الكلام، الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ممن يذهب مذاهب التنزيه.

وإذا رجعنا إلى المذهب الأصولي والعقائدي لابن تيمية، محيي وباعث مذهب السلف في القرن السابع الهجري، كما ذكر الشيخ محمد أبو زهرة في تعريفه، نجد أن الرجل - أي ابن تيمية - قد اشتهر بالتشبيه والتجسيم وكان يذهب مذاهب الحشوية في العقائد. وقد قام بمجهود جبار في الدفاع عن هذه العقائد والانتصار لها جعلت الدكتور علي سامي النشار يصفه بـ«الفيلسوف المجسم النادر المثال»[١]. وإذا كان محمد بن عبد الوهاب تلميذ ابن تيمية وزعيم «السلفية» وباعثها المعاصر، فسيفهم من ذلك أن الدعوة السلفية المعاصرة والنابتة من آراء ابن تيمية خصوصا والمذهب الحنبلي عموما، ما هي إلا «الحشوية الحنبلية» التي عرفت في تاريخ

---

(١) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ١ ص ٣١٢.

الفرق الكلامية، كمذهب أو تيار له آراؤه الخاصة في العقائد والأصول. وعرفت غالبية أتباعه بالانتساب إلى مذهب أحمد بن حنبل الفقهي. لذلك قال الصفدي: «والغالب في الحنابلة الحشوية»[١].

إن القارئ والمطلع على ما يكتبه رجالات السلفية المعاصرون من كتب، في الأصول والفروع، وما ينشرونه من كتب التراث التي تدعم مذهبهم، وما يدعون إليه صباح مساء، سيجد بأن الدعوة «الحشوية الحنبلية» قد قامت من رقادها الطويل تنفض عنها غبار الزمن، مستعيرة لقب «السلفية» للتضليل والتمويه على عامة الناس عموما وأبناء الصحوة الإسلامية خصوصا. وقد تنبه لذلك طائفة من علماء أهل السنة، فبادروا لإعلان ذلك. وتنبيه المسلمين كافة من خطر انتشار عقائد وأفكار هذه الفئة المخربة والمشاغبة. والتي سطر لها التاريخ الإسلامي صفحات سوداء في الماضي، من إشاعة الفتن المذهبية وتحريف وتشويش العقائد الإسلامية. وما تبع ذلك من انحصار وتقهقر للحضارة والمدنية الإسلامية بشكل عام. يقول ابن خليفة عليوي وهو عالم أزهري:

«لقد ظهرت في بلادنا الشامية طائفة تدعو إلى «السلفية» ونهجها اعتناق العقيدة «الحشوية الحنبلية» وتبديع أهل السنة والجماعة[٢]. ويضيف:

«ولنحذر جميعا من وساوس الشياطين أن تزين لنا نزعات الضالين من اليهود والنصارى المجسمين الذين اتبعتهم في ذلك «الحشوية الحنبلية». فقد أصيب بهم المسلمون بأكبر بلية. تركوا العقل والنظر وأخذوا بظاهر الخبر. ولا مستند لهم من شرع سيد البشر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. فليت شعري كيف يدعون «السلفية» ويزعمون أنهم يدعون إلى التوحيد الخالص والأعمال الصالحات، وهم

---

(١) بهاء الدين العاملي، الكشكول، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج ٢ ص ١٥١.

(٢) ابن خليفة عليوي، هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله تعالى، مطبعة زيد بن ثابت. دمشق ١٩٧٩م، ص ٧.

مجسمون ومتمسكون بأذناب الضلالات!! فأخلق بهم أن يأخذوا بعقيدة أهل السنة والجماعة لرشدوا إلى طريق الإسلام»[١].

ويقول أيضا: «أما أنتم أيها (الحشوية الحنبلية) في البلاد الشامية كفاكم شن الغارات على أهل السنة والجماعة بعاديات الأهواء، وكفاكم شموخا بأنوفكم حتى السماء، مع أنكم لا تملكون حتى ولا دليلا واحدا يؤيد مدعاكم فيما تبدعوننا فيه. ونحن نملك كل دليل كان عليه السلف ونسير عليه»[٢].

إن هذه النصوص وغيرها تنقلنا إلى أجواء القرن الرابع الهجري وما بعده حيث كان الصراع مستعرا وعلى أشده، بين أهل السنة «أشاعرة وماتريدية» وبين هذه الفرقة التي عرفت بـ«الحشوية الحنبلية» والتي تبرأ منها علماء الإسلام عامة، «وناقشهم في هذه النسبة (أي الانتساب للإمام أحمد بن حنبل) بعض الفضلاء الحنابلة»[٣] كما يقول الشيخ أبو زهرة.

لكن هذه النصوص قد كشفت لنا وبما لا مجال للشك فيه أن «السلفية الوهابية» اليوم، والتي تتخذ من أرض الجزيرة والحرمين الشريفين منطلقا لها ولدعوتها، هي في حقيقة الأمر، بعث لعقائد فرقة «الحشوية الحنبلية» والتي عرفت تاريخيا بهذا الاسم. وسنحاول تسليط الضوء على تاريخ هذه الفرقة، نشوؤها وتطورها، وعلاقتها بـ«السلف» وبـ«مذهب الإمام أحمد بن حنبل» الفقهي والأصولي.

السلفية التنويرية:

إن مصطلح «السلفية» قد انتشر انتشارا واسعا مع بداية هذا القرن وإلى الآن، في كتب الذين تابعوا وأرخوا لظاهرة الإحياء الإسلامي العام، ونهضة الشعوب

(١) المرجع نفسه، ص ٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦.

(٣) المذاهب الإسلامية، م س، ص ٣١١.

الإسلامية للتحرر من الاستعمار وتقاليد التخلف. وقد استعمل الكثير من المؤرخين والمفكرين خصوصا العلمانيين والقوميين بشقيهم «الماركسي والليبرالي» هذا المصطلح في كتاباتهم، ينعتون به مفكري عصر النهضة، وزعماء الحركات الإسلامية الكبرى التي ظهرت في العالم الإسلامي. مثل محمد عبده المصري وأستاذه جمال الدين الأفغاني. ومن سار على نهجهما كأبي شعيب الدكالي والعربي العلوي والزعيم علال الفاسي، وهؤلاء من المغرب الأقصى. أما في الجزائر فعرف الشيخ ابن باديس كداعية سلفي، وفي تونس نشر تعاليم السلفية سالم بوحاجب وطاهر بن عاشور. أما حركة الإخوان المسلمين التي ظهرت بدءا في مصر فيمكن القول بأنها قامت على أساس تبني المبادئ السلفية الكبرى وإعادة التفكير فيها قصد بلورتها وتجذيرها[(١)].

والسلفية التي دعا لها هؤلاء المصلحون الكبار، ومن تبعهم بعد ذلك أمثال محمد إقبال في الهند، وعلي شريعتي في إيران والمودودي في باكستان، تعتبر سلفية تنويرية تدعو المجتمع الإسلامي للأخذ بقيم الرسالة الإسلامية في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والمدنية، كشرط للنهوض العام والشامل، ومواجهة الاستعمار، ومعالجة التراث الفكري والديني الإسلامي معالجة علمية.

والاستفادة من أحسن وأفضل ما أنتجه العقل الإسلامي في الماضي، والانفتاح ومعرفة مقومات الحضارة الغربية المعاصرة. للاستفادة من إيجابياتها، خصوصا على مستوى العلوم الحديثة ومبتكرات التقنية. ومحاولة إعادة الحياة للعقل الإسلامي وتفعيله ليستعيد نشاطه وقدرته على الإبداع، الذي فقدهما في غمرة قرون من الركود والتخلف الحضاري العام.

ولا شك أن الدعوة لهذه القيم الفكرية والحضارية وغيرها، والتي عرفت بها

---

(١) الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، مادة السلفية، ص ٧٣٧.

السلفية التنويرية هي على النقيض تماما لما تدعو له سلفية هؤلاء «الحشوية الحنابلة» المتسمين بالوهابية.

فقضايا المجتمع الإسلامي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ستختزل كلها في نظر هؤلاء الحشوية، وترتبط بقضية هدم قبور الأنبياء والأولياء ومسألة التوسل بهم. ومحاربة بدعة زيارة قبر الرسولﷺ والدعوة إلى عقائد التجسيم والجبر، وإطاعة السلطان الظالم والجائر. كما سيتبين لنا خلال الفصول القادمة. لذلك قال محمد عبده زعيم السلفية التنويرية:»....

اللهم إلا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين، وإن أنكرت كثيرا من البدع، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه. فإنها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من اللفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء[١].

يقول رشيد رضا في الهامش: «يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية فقد كان يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الأثر[٢] على آراء البشر، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما أرشدت إليه النصوص من علوم الأكوان ومقدمات المدنية والعمران التي تعتني بها الأمة وتعلو كلمة الملة.

وبذلك وضع زعيم السلفية التنويرية الحد الفاصل بين مفهوم السلفيتين، حتى لا يصار إلى الخلط في مضمونهما ودعوتهما. على أن الكتاب المعاصرين

(١) محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، ط ٣ ١٩٨٨ م، ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٢) هذا إذا كان ذلك الأثر مما قاله رسول الإسلام ﷺ حقا، وليس هرطقات البدو من الأعراب أو اعتقادات مردة أهل الكتاب من يهود ونصارى، والتي حشيت بها أحاديث الرسول.

عندما يصفون هؤلاء الأعلام مثل الأفغاني وعبده بالسلفية، لا يقصدون مذهبا خاصا وفرقة بعينها، وإنما يقصدون دعوتهم للرجوع إلى الأخذ بقيم الإسلام ونبذ القيم الفاسدة للحضارة الغربية. فهم بذلك يأخذون قيمهم عن الأجداد «أي السلف». أما السلفية الوهابية أو «الحشوية الحنبلية» فإنها تيار متميز في تاريخ الإسلام له أصوله وفروعه واجتهاداته الخاصة. وهذا ما سنعرفه في البحوث القادمة.

***

الحشوية والمذهب الحشوي

تعريف:

الحشو لغة ما يملأ به الوسادة أو الحشية أو الخضر وغير ذلك. و«الحشوية بتسكين الشين وفتحها أو أهل الحشو: لقب تحقير أطلق على أولئك الفريق من أصحاب الحديث الذين اعتقدوا بصحة الأحاديث المسرفة في التجسيم من غير نقد. بل فضلوها على غيرها وأخذوها بظاهر لفظها. ومن هؤلاء أيضا السالمية. وقد ازدرى المعتزلة أصحاب الحديث جميعا وعدوهم من الحشوية لأنهم قبلوا التفاسير المنطوية على التجسيم، وإن كانوا تحفظوا في التجسيم فقالوا «بلا كيف» ولم يفسد ذوقهم كما فسد ذوق الحشوية الخلص»[1].

وقالوا إن الإيمان قول وعمل ومعرفة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وجوز قوم منهم على الأنبياء الكبائر كالزنى واللواط وغيرهما. إلى غيره من الأقوال الواضحة البطلان[2].

أما ابن رشد الفيلسوف فيقول: «الحشوية فإنهم قالوا إن طريقة معرفة وجود الله تعالى هو السمع لا العقل: أعني أن الإيمان بوجوده الذي كلف الناس التصديق به يكفي فيه أن يتلقى من صاحب الشرع ويؤمن به إيمانا كما تتلقى منه أحوال المعاد، وغير ذلك مما لا مدخل للعقل فيه، وهذه الفرقة الضالة، الظاهر من أمرها أنها مقصرة عن مقصود الشارع في الطريق التي نصبها للجميع مفضية إلى معرفة وجود الله تعالى... وذلك يظهر من غير ما آية من كتاب الله تعالى أنه دعا الناس

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الحشو، دار المعرفة، بيروت، ج ٧ ص ٤٣٩.

(٢) معجم الفرق الإسلامية، ص ٤٩

إلى التصديق بوجود الباري سبحانه بأدلة عقلية منصوص عليها»[١].

ويمكن أن نستخلص عناصر الموقف الحشوي كما يفهم من النص السابق وغيره على النحو التالي:

١ - الإعتماد على النص (الأحاديث والروايات) وحده طريقا إلى المعرفة الاعتقادية خاصة والدينية بصفة عامة، ورفض العقل وأدلته.

٢ - سوء الفهم للنصوص الدينية نفسها «أو الاعتماد على الأحاديث الضعيفة أو المدسوسة في السنة للاستدلال بها في العقائد» حيث إن هذه النصوص كما سبق بيانه وكما يشير ابن رشد في نصه الآنف الذكر، تعتمد العقل وتتضمن براهين عقلية لإثبات العقائد الدينية الواجب اعتناقها، ولا نكتفي بتقرير هذه العقائد عارية عن البرهنة والاستدلال.

٣ - النزوع إلى الفهم الحرفي لتلك النصوص مما يؤدي إلى التجسيم والتشبيه. أي تشبيه صفات المخلوقات والأشياء المادية الجسمية إلى الله سبحانه[٢].

سلبيات عدم تدوين الحديث النبوي:

لقد ظهرت أولى سلبيات منع تدوين الحديث النبوي الذي نهى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن جمعه وكتابته، في كثرة الرواية عن رسول الله ﷺ في عصر التابعين. وانتشر الرواة في الآفاق يبحثون عن الصحابة ومن عاصرهم، للأخذ عنهم. وكان من بين هؤلاء عدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس، أظهروا الإسلام في عهد الراشدين، ثم أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الأساطير، بين من تروج عليهم، ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم. فتلقفوها منهم ورددها الآخرون بسلامة باطن، معتقدين ما في أخبارهم

---

(١) ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص ١٣٤، بتوسط المدخل إلى دراسة علم الكلام.

(٢) د. حسن محمود الشافعي، المدخل إلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٩١ م، ص ٧٦.

جانب الله من التجسيم والتشبيه، ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم، وقد يرفعونها افتراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو خطأ، فأخذ التشبيه يتسرب إلى معتقدات الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة(١). وهنا نشأ الحشو(٢)، وترعرع ونما، حيث تم إدخال الكثير من عقائد أهل الكتاب خاصة، إلى الإسلام عن طريق الحديث النبوي، وتلقفها بسطاء الرواة وغيرهم على أنها عقائد الإسلام جاءت على لسان الرسول محمد بن عبد الله ﷺ.

وإذا عرفنا أن هذه الحركة كانت ملازمة لظهور الفتن السياسية في المجتمع الإسلامي الناشئ، وانتصار الأمويين في نهاية المطاف، وتسلمهم لسدة الحكم. يتبين لنا مدى انتشار هذه الظاهرة وتغلغلها في تفكير المسلمين آنذاك.

وملوك بني أمية بدءا من معاوية بن أبي سفيان وإلى آخرهم(٣)، لم يولوا أي اهتمام للدفاع عن عقائد المسلمين، أو محاولة الوقوف أمام خصومها من يهود ونصارى، فما كان يهم بني أمية هو الجانب السياسي، وتثبيت الملك العضوض بأي وسيلة، بل كان فسح المجال لأحبار اليهود والنصارى وغيرهم من دعاة الملل والنحل السالفة، إحدى الوسائل التي ركبها ملوك بني أمية لتوطيد ملكهم. فتزعموا القول بالجبر وشجعوا الأعراب من الرواة على التحديث بذلك، فاختلق هؤلاء من الأحاديث والروايات التي نسبوها للرسول ﷺ الشئ الكثير. سيكون فيما بعد معتمد الحشوية من أهل الحديث والحنابلة، وللدعوة إلى هذه النحلة وترسيخها كعقيدة إسلامية جعلت الحبر النصراني يوحنا الدمشقي الذي عاش في قصور الأمويين وخدمهم، يقول بأن الإسلام ليس إلا العقيدة الجبرية.

---

(١) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، مقدمة الشيخ محمد زاهد الكوثري، ص ١٠.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص ٢٨٦.

(٣) إلا ما كان من فعل عمر بن عبد العزيز الذي أمر بتدوين السنة وأوقف لعن الإمام علي على المنابر وأرجع فدك «نحلة فاطمة» إلى بنيها.

أما التشبيه والتجسيم فقد أطلق ملوك بني أمية العنان لهؤلاء المتأسلمة من أهل الكتاب. فنشروا ونقلوا ونشروا ما في التوراة والإنجيل من عقائد إلى المسلمين، سواء كأحاديث مستقلة منسوبة للرسولﷺ أو كشروح لآيات الذكر الحكيم. وقد كان كعب الأحبار، وهو من يهود اليمن يقرأ التوراة في مسجد رسول الله على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولم يتعرض لأي نهي[(١)]!.

وتبعه وهب بن منبه وكان عالما بالتوراة فجلس يحدث في المدينة وغيرها من حواضر الإسلام بما يجده في كتب الأولين، فنقل عنه المسلمون الكثير من الأحاديث والروايات في تفسير قصص الأنبياء وتواريخهم من لدن آدمعليه السلام وإلى خاتم الرسلﷺ. ودخلت مع تلك التفاسير والشروح عقائد أهل الكتاب المحرفة وكثر تداولها وتناقلها بين الرواة. حتى تكلموا في مجلس الحسن البصري بالسقط عنده وضاق صدر الرجل بهم، فصاح: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة - أي جانبها -.

ويرى الشيخ الكوثري أنهم سموا لأجل هذا «الحشوية». وأن إلى هؤلاء ينسب أصناف المشبهة والمجسمة[(٢)]. ويرى البعض الآخر أن هذه التسمية مرتبطة «بما يذهب إليه رأي هؤلاء القوم، من القول بأن الله تعالى ذو مكان أي أنه سيصبح في حشو العالم أي داخله»[(٣)].

إن حشو الأحاديث والروايات التي لا أصل لها في أحاديث الرسولﷺ كان أغلبه من الإسرائيليات، خصوصا لما توجه المسلمون لتفسير الآيات المتشابهة. وقد اعتمد على هذه الأحاديث بالذات واعتقد بصحتها وقدمها على غيرها مجموعة من رجالات الحديث الأوائل مثل: مضر بن محمد بن خالد بن الوليد وأبو

(١) يقول ابن كثير: «أسلم كعب في الدولة العمرية وجعل يحدث عمر عن كتبه قديما، فربما استمع له عمر، فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها. وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده». أنظر تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ١٧.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(٣) المدخل لدراسة علم الكلام، ص ٧٨.

محمد الضبي الأسدي الكوفي، وكهمس بن الحسن أبو عبد الله البصري (توفي عام ١٤٩هـ) وأحمد بن عطاء الهجمي البصري ورقبة بن مصقلة. وقد مثل هؤلاء الحشو الهائل في أحاديثهم الضعيفة، فأجازوا على الله الملامسة والمصافحة والمزاورة، وأن المخلصين من المسلمين يعاينونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا من الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص»[١].

لقد فسر هؤلاء المحدثون الأوائل وغيرهم آيات «الوجه والرؤية واليد والمجئ والجنب» تفسيرا ظاهريا ماديا. ودعموا ذلك بما رووه من إسرائيليات وعقائد أهل الكتاب. فسقطوا في التجسيم والتشبيه. وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم المعتزلة لقب الحشوية من أهل الحديث وقاموا بالرد عليهم.

أما بقية عقائد هذه الطائفة الأولى من الحشوية: فهو قولهم بقدم القرآن، حروفه أصواته ورقومه المكتوبة، وإنها كلها قديمة أزلية. ويستدلون على هذا، بأنه لا يعقل كلام ليس بحرف ولا كلمة ولا كتابة له. وما دام الكلام قديما أزليا فلا بد أن حروفه وكلماته وكتابته أزلية. وقد استندوا فيما يرى الشهرستاني على ما رأوه من إجماع المسلمين على قدم القرآن[٢].

والقول بإجماع المسلمين على قدم القرآن لا يصح. لأن هذه المسألة مما اختلفت طوائف الأمة الإسلامية حولها. فذهب المعتزلة إلى القول بخلق القرآن كما هو معروف لديهم، وللشيعة الإمامية قول بالخلق. وأما أهل السنة من أشاعرة وماتريدية، فلهم تفصيل في ذلك يبعدهم كثيرا عن قول الحشوية الحنبلية أو «السلفية» النابتة منها، وأهل الحديث بشكل عام. لذلك فإطلاق القول بإجماع المسلمين على قدم القرآن فيه نظر. على أن مسألة قدم القرآن قد تكون تسربت للمسلمين من اليهود لأنهم يقولون بقدم التوراة أو من النصارى حينما قالوا بقدم

(١) نشأة الفكر الفلسفي، ص ٢٨٨.

(٢) نفسه، ص ٢٨٨.

الكلمة التي هي المسيح[١]. ولنا عودة لتفصيل القول في عقائد «الحشوية السلفية» في الفصول القادمة إن شاء الله.

الحشو يؤسس للتشبيه والتجسيم:

لقد ظلت عقائد التجسيم والتشبيه متناثرة هنا وهناك، في أقوال المحدثين ورواياتهم، حتى ظهر مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٠هـ) وهو أحد كبار المفسرين، الذي ملأ تفسيره حشوا من الإسرائيليات. لذلك، فقد أجمعت المصادر كما يقول الدكتور علي سامي النشار على كونه مشبها ومجسما، و»أنه أخذ من علم اليهود والنصارى ما يوافقه لتدعيم تفسيره المشبهي والمجسمي... يقول ابن حيان: «كان يأخذ من اليهود والنصارى ومن علم القرآن الذي يوافقه وكان يكذب في الحديث. فتأثر الرجل باليهود والمزدكية ظاهر»[٢].

وجاء بعده مجاهد بن جبر المحدث، ونشر حديث «المقام المحمود»[٣] الذي قام سلف «الحشوية الحنبلية» بمعارك طاحنة لأجل إثباته، في كل من بغداد ودمشق والقاهرة. حيث أبوا إلا أن يجلسوا النبيﷺ مع ربه على العرش سبحانه وتعالى عما يصفون.

ومقاتل بن سليمان هذا وغيره من أصحاب الحديث، غلوا كثيرا في التجسيم والتشبيه، فالله سبحانه وتعالى عما يصفون، جسم على صورة لحم ودم له شعر وعظم وجوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان وعينين ووجه وأضراس ولهوات. وقال بعضهم ما سمعنا بذكر الرأس!! وقال آخر لا تسألوني عن الفرج واللحية. وغير ذلك من الهرطقات التي سيحاول ابن تيمية - إمام السلفية المعاصرة - الدفاع عن بعضها، في محاولة لعقلنة هذا الحشو العقائدي الفظيع.

---

(١) الشيخ جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٠٠.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي، ص ٢٨٩.

(٣) عن مجاهد: «عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا»، قال: يجلسه أو يقعده على العرش.

يقول الذهبي لهذا القول طرق خمسة. وأخرجه ابن جرير في تفسيره، وعمل فيه المروزي مصنفا. أنظر العلو للعلي الغفار، ص ٩٤.

لقد أصبح التجسيم والتشبيه بعد هذا المحدث والمفسر الكبير، مدرسة متكاملة اعتنق أفكارها بعض ممن جاء بعده من المحدثين والفقهاء، أمثال أبي عاصم حشيش بن صرم (المتوفى سنة ٢٥٤هـ) صاحب كتاب «الاستقامة» الذي دعم فيه القول بالتجسيم والتشبيه مستندا للكم الهائل من الإسرائيليات، سواء ما وجد في تفسير مقاتل بن سليمان أو ما يتداوله الرواة من أحاديث في هذا المجال، وعلى رأسها حديث المقام المحمود الذي أنكره المعتزلة وأهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية وقالوا إن المقصود به الشفاعة.

أما الملطي صاحب كتاب «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» فإنه لم ينحرف قيد أنملة عمن سبقه في التجسيم والتشبيه.

لقد اندمج العوام مع هذه العقائد اندماجا كليا، لأن التجسيم والتشبيه أقرب لأفهامهم ومخيلاتهم من التنزيه. فالتفوا حول دعاة هذه العقائد وآزروهم وعظموا شأنهم، كما سيعتبرهم السلفيون سلفهم الخاص فيما بعد.

وإلى هؤلاء «الحشوية الأوائل» سيرجع الفضل في قيام تيار وحركة حشوية تجسيمية وتشبيهية كبرى في القرن الرابع مع أحد كبار المحدثين الحنابلة وهو بحر محمد بن الحسن ابن الكوثر بن علي البربهاري – وهو شيخ الحنابلة ببغداد – والذي قدم عليه أبو الحسن الأشعري فكلمه حول انتقاله من الاعتزال ورده على المعتزلة والفرق المنحرفة، فقال له البربهاري لا أفهم مما قلت شيئا. يقول المقدسي: أما البربهارية فإنهم يجهرون بالتشبيه والمكان ويرون الحكم بالخاطر ويكفرون من خالفهم ويتمسكون بحديث المقام المحمود[1].

لقد تطورت فكرة التشبيه والتجسيم لدى أصحاب الحديث كما يرى الدكتور النشار: لتصل إلى الكشف عن إحدى الأفكار الهدامة التي راجت في الساحة الفكرية والدينية الإسلامية. وهي فكرة الحلول والاتحاد حيث جوزوا ظهور الله سبحانه وتعالى

(١) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٥ ص ١٥٠، بتوسط نشأة الفكر الفلسفي للنشار.

في صور الأشخاص. وخصوصا الصور الحسنة منها، كما ذهب إلى ذلك سلمان الدمشقي. ولما جاء الحلاج المقتول بسيف الشرع[١] (سنة ٣٠٩ هـ) وتكلم في الحلول، اختلف الفقهاء والصوفية فيه ولكن أجمع المتكلمون جميعا على تكفيره. اللهم إلا طائفة كبرى حشوية ومشبهة من الحنابلة، ثم فريق من السالمية فقد قبلوه.

يقول البغدادي «وقبله قوم من متكلمي السالمية بالبصرة ونسبوه إلى حقائق معاني الصوفية ولعل هذا يفسر تعصب السالمية له من ناحية والحنابلة من ناحية أخرى في بغداد وقيامهم بالشغب[٢]. ومع ظهور فرقة السالمية – نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن سالم البصري المتوفى (سنة ٢٩٧هـ) – عرفت هذه الفكرة – أي الاتحاد والحلول – انتشارا واسعا، ولا شك أنها وليدة التجسيم والتشبيه كما أسلفنا.

وإلى جانب «السالمية» ظهرت فرقة أخرى تسمى «الكرامية» نسبة لمؤسسها محمد بن كرام (المتوفى سنة ٢٥٥) حيث أينعت فكرة التجسيم من جديد، وعرفت ازدهارا لا مثيل له. وقد بشر محمد بن كرام بجانب مذهبه في التجسيم، بروح الزهد والتنسك فكانت مدرسته مدرسة زهد بلا شك... وإن كانت قد ملأت الدنيا ضجيجا إذ قدمت إلى العالم الإسلامي مذهبا فلسفيا، لا يتفق في أصوله وجزئياته مع عقيدة أهل السنة والجماعة (الأشاعرة والماتريدية)، بل لا يتفق مع عقائد فرق المسلمين الأخرى من شيعة ومعتزلة...

ولكن المذهب عاش في عهد مؤسسه في قلوب الألوف من البشر. وتناولته القرون من بعده، إما قبولا أو إنكارا، ثم إنه ما زال يعيش حتى الآن في دوائر سلف المتأخرين – الحنابلة – وهم يعدون بالملايين في عالمنا المعاصر الآن[٣].

لقد كانت الكرامية مجسمة غالى صاحبها في إثبات العرشية والفوقية، وأكد

(١) ذهب بعض المحققين قديما وحديثا إلى أن الحلاج قتل لأسباب سياسية متعلقة بمناصرته أو مشاركته في ثورة القرامطة.
(٢) نشأة الفكر الفلسفي، م س، ص ٢٩٣.
(٣) نفسه، ص ٢٩٧.

على أن الله جسم، لكن ليس كالأجسام. وإنه مستقر على العرش ومماس له، كما قال الكرامية بقيام الحوادث بذات الله. وجاءت بآراء ومعتقدات خالفت فيها الفرق الإسلامية جميعا وعلى رأسهم أهل السنة والجماعة.

إلا أن لهم رأيا متميزا يخص النبوة والنبي والرسول والمرسل. وقد قام الدكتور النشار بتخريج لطيف له. يربط بينه وبين عقيدة السلفية المعاصرة في موقفها من الرسول ﷺ وقبره وشد الرحال إليه.

لقد ذهبت الكرامية إلى أن النبوة والرسالة عرضان حالان في النبي والرسول، منفصلتان تمام الانفصال عن الوحي إليه، وعن ظهور المعجزات على يديه، وعن عصمته عن الخطأ والمعصية، فمن فعل الله فيه تلك الصفة وجب على الله تعالى إرساله... وتضع الكرامية تمييزا بين الرسول والمرسل فالرسول من حصل فيه «ذلك المعنى» وأنه يجب على الله أن يرسله إلى الناس رسولاً بهذا المعنى، فإذا أرسل يكون مرسلا ولم يكن قبله من المرسلين بل رسولا فقط، ولهذا يقولون «إن النبي صلى الله عليه وسلم في قبره رسول وليس بمرسل... وقد عارض أهل السنة والجماعة هذا التمييز الدقيق بين الرسول والمرسل، وقرروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم في القبر رسول ومرسل...

ولكن ما هو السر الحقيقي في هذا التمييز عند الكرامية؟.

أما التفسير الذي أراه أقرب للحقيقة - يقول النشار - فهو أن الكرامية كانت ترمي إلى غرض بعيد، وهو عدم إسباغ القداسة على الرسول في قبره، وعدم شد الرحال إليه، مخالفة في هذا رأي أهل السنة والجماعة، فقررت الكرامية أن النبوة والرسالة كانتا عرضين أو معنيين ألقاهما الله فيه أزلا، ثم أدى رسالته بمفهوم المرسل عند الكرامية، ثم انتهى علمه هو... انتهى الرسول والمرسل والرسالة باقية، فلا إسباغ للقداسة عليه. ويتضح هذا من موقف خلف الكرامية من حقيقة الرسول ووقوفهم أمام قبره. فهم إن تصادف وقوفهم أمامه يسلمون عليه ويقولون:

«لقد أديت الرسالة»، ومن عدم اعتبار زيارة الرسول فرضا أو نفلا...

إن الغرض فقط هو حج الكعبة المقدسة، والنفل هل العمرة، إن الكلام كما نعلم أوثق اتصال بالفقه. وقد أثرت الكرامية في سلف المتأخرين، ونادي ابن تيمية بما نادى به الكرامية. واحتضن الحنابلة المتأخرون هذه الآراء، وظهرت على أقوى صورة لدى الوهابيين بعد وأصبحت جزءا من عقائدهم[(١)].

لقد عاشت الكرامية بعد موت مؤسسها، ثم تلقى المذهب عالم من أكبر علماء السلف وصوفي من أرق الصوفية، هو «الهروي الأنصاري» ثم احتضنها سلفي متأخر ومفكر من أكبر مفكري الإسلام وهو «تقي الدين بن تيمية»، أو بمعنى أدق سار الحشو في طريقه يدعم فكرة التشبيه والتجسيم ويجتذب إليه مجموعة من أذكى رجالات الفكر الإسلامي[(٢)]. وإن كان ابن تيمية سيتجه بهذا الحشو اتجاها نحو عقلنته بجمع متناقضاته وآرائه المختلفة المشارب والاتجاهات وصبها في قالب، قال عنه أنه مذهب أهل الحق من السلف والخلف. وتبعه في ذلك تلميذه ابن قيم الجوزية، وحمل راية الدعوة إلي ذلك بالسيف محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي وأتباعه. حيث السعي الجاد اليوم لنشر هذه المعتقدات والآراء في العالم الإسلامي ومحاربة غيرها.

لقد كانت البذرة الأولى للتشبيه إما وافدة على البيئة الإسلامية ضمن مؤامرة على عقيدة التوحيد الخالص. أو وليدة هذه البيئة نفسها، نتيجة سوء الفهم لبعض النصوص الإسلامية. لذلك فالحشو والتشبيه وما ينتهيان إليه من تجسيم، قد نبتا في صفوف المسلمين وصار لهما ممثلون بين الفرق المختلفة، فهناك حشوية بين أهل السنة وبين غلاة الشيعة، يظهرون في عصور مختلفة.

وهناك «حشوية مشبهة» تنتمي إلى الحنابلة وإن تبرأ منها محققو الحنابلة

---

(١) نفسه، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) نفسه، ص ٣١١.

أنفسهم[١]. وهؤلاء هم الذين يطلقون على أنفسهم اليوم اسم «السلفية»، وهم في الحقيقة «حشوية الحنابلة». ونسبتهم للحنابلة لأنهم يدعون أنهم على ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل في الأصول والفروع. وسنناقشهم في الفصول القادمة حول هذه النسبة لنعرف حقيقة ومدى ارتباطهم بفكر ومنهج هذا المحدث الكبير.

يلاحظ القارئ أننا انتهينا إلى حقيقة مفادها، أن فرقة «السلفية المعاصرة» اليوم هي تيار حشوي له جذور عميقة في التاريخ الفكري للحشو وعقائده. وأنه مذهب انتقائي تكاد ترجع أغلب آرائه في العقائد إلى الإسرائيليات، التي حشا بها الرواة من الأعراب ومتأسلمة اليهود والنصارى أحاديث الرسولﷺ. ولنا عودة لنقاش هذه العقائد بالتفصيل في محله إن شاء الله.

على أن مصطلح «الحشوية الحنبلية» ليس من مبتكرات خصوم «السلفية» اليوم، وإنما ورد في كثير من كتب التاريخ وكان يقصد به سلف «السلفية الوهابية المعاصرة». فقد ذكر ابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري عن الإمام أبي الحسن الأشعري) قوله: «وفي منتصف القرن الخامس استفحل أمر هؤلاء الحشوية ببغداد حتى (أخطر) أمثال أبي إسحاق الشيرازي وأبي بكر الشاشي وغيرهما من أئمة الشافعية أن يكتبوا محضرا عليه خطوطهم ورفعوه إلى نظام الملك، ومن جملة ما فيه. «إن جماعة الحشوية والأوباش الرعاع المتسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازي الشنيعة ما لم يتسمع به ملحد فضلا عن موحد»[٢]. والبدع الفظيعة التي ذكرها النص ليست سوى قولهم واعتقادهم مذاهب التشبيه والتجسيم، مما أخذ عن أهل الكتاب من يهود ونصارى وغيرهم.

***

(١) المدخل إلى علم الكلام، ص ٧٧، مثل ابن الجوزي الذي ذم أصحابه الحنابلة لاعتقادهم الحشو والتشبيه والتجسيم، انظر الفصول القادمة.

(٢) هذه عقيدة السلف، ص ٨٩، أنظر دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الإمام أحمد، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ

أهل السنة والجماعة

تعريف:

السنة في اللغة: «الطريقة المسلوكة وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريقا». وقيل هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وتطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة. في مقابل البدعة فإنها تطلق على «ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة».

أما عند الأصوليين فهم متفقون على صدقها على «ما صدر عن النبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير»[1].

من خلال هذه التعاريف يتبين أن لـ«السنة» في الاصطلاح مفهومين أو معنيين: الأول ما يقابل البدعة أو ما ليس له أساس في الشرع. الثاني: قول الرسول وفعله وتقريره. أما قولنا «أهل السنة» ففيه إضافة «لأهل» أي أصحاب أو أتباع أو المقتدون بسنة الرسولﷺ من فعل وقول وتقرير. وسمي رواة الحديث وطالبيه بعلماء السنة أو السنن، أو جامعي السنة. ومن خالف السنة سقط في البدعة أو الابتداع في دين الله ما ليس منه.

(١) العلامة محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص ١٢١ - ١٢٢.

تطور مفهوم أهل السنة:

لكن مصطلح «أهل السنة» سيعرف تطورا في المفهوم، حيث ستتعدد مصاديقه. فأهل السنة أو أصحاب الحديث والأثر سيقابلهم أهل الرأي.

وعندما ظهرت المدارس اللغوية والفقهية والكلامية فيما بعد انقسمت إلى اتجاهين اثنين، (الرأي والقياس، وأصحاب الحديث والأثر). تيار يعتبر الرأي والقياس ويعتمده فيما يصل إليه من نتائج، وتيار يقدم الحديث أو النص ولا يتركه إلى غيره. وظهر عند كلا التيارين إفراط وتفريط. لقد أطلق مصطلح «أهل السنة» قبل ظهور الأشعري على جميع المحدثين ولم يكن يعني لدى أصحابه والملقبين به، سوى أنهم أصحاب الحديث النبوي، رواته وجامعوه والمدافعون عنه والعاملون بمضمونه. كما اختص جماعة آخرون بهذا اللقب كعبد الله بن سعيد الكلاب وأبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي. وذلك لقيامهم بالرد على عقائد المعتزلة وتفنيد آرائهم. وقد كون هؤلاء الثلاثة وبالخصوص ابن كلاب مدرسة فكرية في العقائد، سيكون لها أبلغ الأثر في مدرسة الأشعري الكلامية والتي سترث عنها لقب «أهل السنة».

كما سيعرف هذا اللقب مفهوما اصطلاحيا جديدا لا يحيد عنه ابتداء من القرن الرابع الهجري وإلى الآن. يقول أحمد أمين: سمي الأشعري وأتباعه والماتريدي وأتباعه بـ«أهل السنة» وقد استعملت كلمة «أهل» بدل النسبة فقالوا: أهل السنة أي السنيين... وسمي المعتزلة أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وسمي المبتدعة أهل الأهواء...

والسنة في «أهل السنة» تحتمل أحد معنيين: إما أن تكون السنة بمعنى الطريقة أي أن أهل السنة اتبعوا طريقة الصحابة والتابعين في تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق في معانيها. بل تركوا علمها إلى الله، وإما أن تكون السنة بمعنى الحديث. أي أنهم يؤمنون بصحيح الحديث ويقرونه من غير تحرز كثير وتأويل كثير كما يفعل المعتزلة... واسم أهل السنة كان يطلق على جماعة قبل الأشعري

والماتريدي. وقد حكي لنا أن جماعة كان يطلق عليها «أهل السنة» وكانت تناهض المعتزلة قبل الأشعري. ولما جاء الأشعري وتعلم على المعتزلة، اطلع أيضا على مذهب «أهل السنة» وتردد كثيرا في أي الفريقين أصح ثم أعلن انضمامه إلى «أهل السنة» وخروجه على المعتزلة[١].

وأهل السنة الذين سبقوا الأشعري هم كما ذكرنا مدرسة ابن كلاب ومناصريها أبو العباس القلانسي والمحاسبي، فهم الذين اشتهروا بالرد على المعتزلة. وأطلق الباحثون عليهم لقب «أوائل أهل السنة»[٢]. وعليه فإن لقب «أهل السنة» قد عرف فعلا تطورا في مفهومه الاصطلاحي وانطباقه. فلم يعد يعني «أصحاب الحديث والأثر» ومن حدا حدوهم بالتحديد، ولكنه أصبح يختص بمجموعة من العلماء قد لا ييشتغلون بعلوم الحديث ويقفون عندها. بل ممن اشتغلوا بالكلام والرد على المعتزلة. ونحن نعلم نفور المحدثين كافة من علم الكلام وتضليل أصحابه والنهي عن الاشتغال به[٣].

إن الاشتغال بعلم الكلام والرد على عقائد الاعتزال بالحجج العقلية مدعومة بالأدلة النقلية كما فعلت ذلك مدرسة ابن كلاب وأتباعها سيفجر الصراع مبكرا بين «أصحاب الحديث» و«أهل السنة الأوائل». الممثلين في ابن كلاب والقلانسي والمحاسبي. لكن هل كان كل علماء الحديث وأصحابه على هذا الرأي، أي محاربة وذم الكلام وأصحابه؟.

إن مدرسة ابن كلاب أو «أوائل أهل السنة» إنما اشتغلوا بعلم الكلام للدفاع عن عقائد أهل الحديث والانتصار لها. واعتمادهم العقل بجانب النقل فلكون

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ٤ ص ٩٧.

(٢) أنظر نشأة الفكر الفلسفي، مصدر سابق، الجزء الأول.

(٣) سيدفع هذا الموقف الأشعري إلى تأليف رسالة في الدفاع عن الكلام وجواز الاشتغال به.
أنظر رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام للأشعري، طبعت في حيدر أباد بالهند الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣هـ.

خصومهم المعتزلة يعتمدون العقل، أما النقل فيلجأون إليه في حدود ضيقة لخوفهم - أي المعتزلة - من السقوط في الحشو، وما أدخل في الحديث النبوي من عقائد فاسدة. وإذا لماذا خاصمهم أصحاب الحديث وشنعوا عليهم ورموهم بالانحراف؟.

الحقيقة أن فريقا مخصوصا من أهل الحديث هم من حمل راية الهجوم على «أوائل أهل السنة» ووصفوهم بالابتداع. هذا الفريق هم «حشوية أهل الحديث»، وهم سلف «السلفية الحشوية» كما ذكرنا سابقا. والنصوص التي تدعم هذا الرأي كثيرة.

يرى أهل السلف أو بمعنى أدق «الحنابلة» وخاصة المتأخرين منهم، إنه ضاق بابن كلاب والقلانسي وأضرابهما النفس بضآلة معرفتهم بالسنن وتركهم قبولها، والتجائهم إلى العقل، وهذا خطأ كبير من الحنابلة، لأن ابن كلاب والقلانسي كانا من أعمق المحدثين، ولكنهما اعتبرا الآثار الواردة في أن كلام الله حروف وأصوات قديمة، أخبار آحاد لا توجب علما. والحنابلة لا يرون هذا، ويرون أن ابن كلاب والقلانسي وغيرهما «التزموا ما قالته المعتزلة، وركبوا مكابرة العيان وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة المسلم والكافر[1]. وقول النشار «الحنابلة» ليس دقيقا لأن من قال بأن كلام الله حرف وصوت وهو قديم، إنما هم «حشوية الحنابلة». أما باقي الحنابلة فقد كانوا على رأي الأشاعرة «أهل السنة» في الأصول. أو مفوضة متوقفين على الخوض في هذه المسائل.

ومما يؤكد هذا القول أن ابن خزيمة صاحب كتاب «التوحيد» يعتبر من أهم رجالات «الحشوية السلفية» قديما وحديثا وقد كان من أعداء مدرسة ابن كلاب ومن تبعه من الأشاعرة متقدمين ومتأخرين.

إن المفهوم الاصطلاحي الجديد «لأهل السنة» سيعني بعد ظهور الأشعري وانتشار مذهبه في الآفاق، مدرسة كلامية في العقائد تقابل مدرسة الاعتزال.

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي، م س، ج ١ ص ٢٨٢.

وسيكون لها منهجها الخاص في تناول العقائد وترتيبها وتفريعها والدفاع عنها. لم يكن لأهل الحديث مدرسة فكرية عقائدية متكاملة أو مدونة يجتمعون عليها قبل الأشعري وتلامذته. إنما تشاطرتهم عدة آراء وأفكار ومعتقدات متضاربة سيتميز فيها تيار الحشو السلفي، الذي سيكون لنفسه فيما بعد مذهبا خاصا في الأصول بعد ظهور المحدث الكبير أحمد بن حنبل على الساحة الدينية الإسلامية واشتهاره.

وأتباع أبي الحسن الأشعري عندما يعرضون لمنهج أستاذهم وطريقته الجديدة التي أتى بها، لا يعتبرونه مجرد عالم بالعقائد يتبع أصحاب الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل، بل أكدوا على أن منهجه هو التوفيق بين طرفين متقابلين. ولدينا شاهد واضح على ذلك هو نص طويل للجويني يذكره ابن عساكر في «تبيينه». فالقاضي المشهور يبين كيف اتبع إمامه، في أمهات المسائل طريقا وسطا بين إفراط المعتزلة وتفريط الحشوية، وهم في الحقيقة من غلاة الحنابلة[1].

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن الإمام أبا الحسن الأشعري قد استطاع أن يصدر أحكاما في قضايا العقائد في جو من الاعتدال والصفاء بعيدا عن التهور والاندفاع، بالرغم من أن بعض الفقهاء ارتابوا في عقيدته وأن «الحنابلة» رموه بالكفر، فإن ذلك لم ينهض دليلا على زيغه[2] بل نصره كبار العلماء كأبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني والإسفرائيني وغيرهم من الأعلام الذين تبنوا أفكاره بعد موته. وقد سمي هؤلاء الأعلام رأي الأشعري بمذهب «أهل السنة والجماعة»[3]. ويعزز ابن خلدون المؤرخ هذا الرأي كذلك، حينما يعلن بأن منهج الأشعري توسط بين الطرق. وقد ذهب الدكتور الشكعة وغيره من المؤرخين إلى أن أول من لقب «بأهل السنة» هم الأشاعرة.

---

(١) لويس غرديه، وج قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج ١ ص ١٠٢.

(٢) الدكتور مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية للطباعة والنشر بيروت ص ٤٦٢.

(٣) فلسفة الفكر الديني، م س، ج ١ ص ٩٢.

حيث أصبح المذهب الذي خرج به أستاذهم هو بالذات «مذهب أهل السنة» في الإسلام[1] وبعد ظهور أبي منصور الماتريدي وتصنيفه في العقائد «قرر الكثير من علماء المذهب الحنفي أن النتائج التي وصل إليها تتفق تمام الاتفاق مع ما قرره أبو حنيفة في العقائد. كما قرروا أن آراء أبي حنيفة في العقائد هي الأصل الذي تفرعت منه آراء الماتريدي». وقد خالف الماتريدي أصحاب الحديث جميعا لأنه اعتمد على العقل بإرشاد الشرع، كما أوجب النظر العقلي.

ولذلك اعتبر هذان المذهبان في العقائد والأصول هما «مذهب أهل السنة الكلامي» في مقابل المعتزلة وحشوية الحنابلة. لقد سلكت مدرسة الأشعري والماتريدي - كما يقول المؤرخون من أهل السنة - سبيل التوسط والتوفيق، الأشعري توسط بين أهل الحديث والمعتزلة، والماتريدية توسطوا بين الأشاعرة والمعتزلة، ينتصرون لأهل الحديث حينا، ولبعض آراء المعتزلة حينا آخر.

وقد عرفت مدرسة الأشعري الكلامية خصوصا، شهرة واسعة وانتشارا كبيرا، غطت معه أو كادت على مدرسة الماتريدي الكلامية. وعلل بعض المؤرخين ذلك إلى انطلاقة هذه المدرسة من بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، وتبني بعض الحكومات لمذهبها العقائدي بالخصوص. ومهما يكن فقد نال الأشعري بذلك منزلة عظيمة وصار له أنصار - كما يقول الشيخ أبو زهرة - فتعقب خصومه من المعتزلة وأهل الأهواء والكفار، وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة[2]، ومخالفيها ولقبه أكثر علماء عصره بإمام «أهل السنة والجماعة»[3]. لكن حشوية

(١) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، العميد عبد الرزاق محمد أسود، الدار العربية للموسوعات، بيروت ط ١ - ١٩٨٠م، ج ٣ ص ٢٢١.

(٢) سمي العام الذي أخذ فيه معاوية بن أبي سفيان الخلافة من الحسن بن علي بعام الجماعة، وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وجبر وغلبة. أنظر الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام، دكتور نوري جعفر، ص ٤٧.

(٣) المذاهب الإسلامية: ص ٢٧٨.

الحنابلة ومن تبعهم من السلفية لم يرتضوه إماما لهم. فشكوا أولا في حقيقة توبته من الاعتزال، ثم كفروه وأصحابه. ودارت بين الفئتين حروب دامية، وفتن ومساجلات فكرية على طول التاريخ الإسلامي وإلى يوم الناس هذا. كلا المدرستين تدعي لنفسها اتباع السلف، وتعتبر نفسها دون غيرها المستحق للقب «أهل السنة» لكن المحقق في عقائد الفريقين، الأشاعرة والماتريدية «أهل السنة» و«حشوية الحنابلة» السلفية، يجد تباينا واضحا واختلافا كبيرا ينطلق من المنهج ويتعمق من خلال النتائج وتفريعاتها.

وهذه الاختلافات العقائدية، وما جرى بين الفريقين من تطاحن واقتتال على مدى أكثر من عشرة قرون يوضح بما لا مجال للشك أن مدرسة «أهل السنة» الكلامية ممثلة بـ«الأشاعرة والماتريدية» وخصومهم «حشوية الحنابلة» أو «السلفية» وعلى رأسهم زعيمهم ابن تيمية الحنبلي. فرقتان أو مدرستان مختلفتان تماما عن بعضهما البعض في المنطلقات وفي النتائج. وأن أي محاولة لدمج المنهجين، واعتبار الفريقين يمثلان تيارا واحدا يسمى تارة بأهل السنة والجماعة، وتارة بالسلف أو السلفية، إنما هي محاولة قاصرة ينقصها التحقيق والمعرفة الدقيقة بكلا المدرستين. وإن وجد بعض الكتاب قديما وحديثا يخلطون في إيراد هذين المصطلحين ويقصدون بهما مفهوما معينا واحدا فيقولون: «السلف أو مذهب السلف» ويقصدون به «أهل السنة» من أشاعرة وماتريدية وكذلك يوردون مصطلح «أهل السنة» ويقصدون به «الحشوية الحنبلية».

وقد كثر استعمال هذا المصطلح «أهل السنة» لدى «السلفية الوهابية» المعاصرة في كتبهم وبحوثهم. وليس يعني عندهم سوى منهج ابن تيمية بالخصوص، وتلميذه ابن قيم الجوزية. الصادرين عن الإطار العام لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، وباقي السلف من الحشوية الحنبلية وأهل الحديث.

***

الصراع على لقب «أهل السنة» أو «السلفية»

أجمع علماء المدرسة الأشعرية ومن تبعهم قديما وحديثا على اعتبار أنفسهم أصحاب لقب «أهل السنة والجماعة» وأتباع السلف المستحقين لذلك دون غيرهم. «لأنهم لم يأتوا بشيء جديد، وإنما اتبعوا في مذاهبهم مذهب السلف الذي يعني مذهب الصحابة والتابعين[1]. وعندما يناقش الدكتور علي سامي النشار - وهو من المعاصرين والمدافعين عن الأشاعرة - ابن تيمية الزعيم السلفي في مسألة الأسباب والعلل يقول: «لقد أعمت عداوة ابن تيمية لأهل السنة والجماعة بصيرته وأغلقت فكره فأثبت الأسباب[2]». وأهل السنة والجماعة هنا لا تعدو كونها اللقب التاريخي للأشاعرة على الخصوص. كما درج كبار الأشاعرة على تلقيب أنفسهم بـ«أهل السنة والجماعة» دون لقب السلف أو السلفية، بل تميزا عنهم وعن غيرهم.

وبين يدي الآن رسالة شكوى قدمها علماء الأشاعرة إلى الوزير نظام الملك منتصرين للشيخ أبي نصر بن القشيري رئيس الأشاعرة في عصره وقد هاله ما ينشره حشوية الحنابلة من عقائد التجسيم والتشبيه فقام ضدهم فشغبوا عليه. ومما جاء في الرسالة[3]»... ولم أسمع منه (أي القشيري) غير مذهب أهل الحق من «أهل السنة والجماعة» وبه أدين الله عز وجل وإياه أعتقد وهو الذي أدركت أئمة أصحابنا عليه واهتدى به خلق كثير من المجسمة وصاروا كلهم على مذهب أهل الحق...

---

(١) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، مرجع سابق، ج ٢ ص ٩٣.

(٢) د. سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت ط ٣ - ١٩٨٤م، ص ٢١٠.

(٣) تجد نص الرسالة كاملا في فصل السلفية وأهل السنة.

«الإمام الشيخ الأوحد أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري جمل الله الإسلام به وكثر في أئمة الدين مثله من عقد المجالس وذكر الله عز وجل بما وصف به نفسه من التنزيه ونفي التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم ولم نسمع منه غير مذهب أهل الحق من (أهل السنة والجماعة) وبه ندين الله عز وجل...».

«... ونفى التشبيه عنه واستوفى في الاعتقاد ما هو معتقد أهل السنة بأوضح الحجج وأقوى البراهين، رفع هذا المحضر الإمام أبو إسحاق الشيرازي وأصحابه إلى نظام الملك فعاد جوابه لهم بإنكار ما يقع والتشديد على الحشوية.. فسكن الحال ثم أخذ الشريف أبو جعفر بن أبي موسى، وهو شيخ الحنابلة إذ ذاك وجماعته يتكلمون في الشيخ أبي إسحاق ويبلغونه الأذى بألسنتهم فأمر الخليفة بجمعهم والصلح بينهم بعد ما ثارت بينهم فتنة هائلة قتل فيها نحو من عشرين قتيلا فلما وقع الصلح وسكن الأمر. أخذ الحنابلة يشيعون أن الشيخ أبا إسحاق تبرأ من مذهب الأشعري فغضب الشيخ غضبا لم يصل أحد إلى تسكينه... وانقمعت الحشوية وتنفس «أهل السنة» الصعداء وإلى الله عاقبة الأمور»[(١)].

وقال ابن عساكر مستندا إلى أبي القاسم القشيري: «اتفق أصحاب الحديث أن الأشعري كان إماما من أئمة الحديث ومذهبه هو مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين على الملة سيفا مسلولا. ومن طعن فيه أو لعنه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة»[(٢)].

(١) جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ٣١٧ – ٣١٨ – ٣١٩ إلى ٣٢٣.

(٢) عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، دار صادر، بيروت ط ٥ – ١٩٧٩ م، ص ٢١٠.

أما الحنابلة فقد كفروه ولم يكتفوا بسبّه أو لعنه فقط. وأما ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فقد اعتبراه في مسألة الأفعال جبريا. ولا شك أن أتباع الأشعري هم الذين أفتوا بسجن ابن تيمية، لأنه خالف عقائدهم ودعى للتجسيم والتشبيه، إلى أن مات في سجنه. وانتشرت فتوى في دمشق أنه من كان على دين ابن تيمية فقد حل دمه. إن حشوية الحنابلة أو «السلفية» لم يعترفوا يوما ما بإمامة الأشعري في الأصول، ولم يأخذوا بأقواله أو أقوال أصحابه. يقول الدكتور علي عبد الحليم محمود وهو سلفي معاصر:

« كان الإمام أحمد – رحمه الله – إماما لجميع أهل السنة في الأصول والفروع، باستمساكه في أصول الدين والعبادات بنصوص الكتاب والسنة وما صح عن علماء الصحابة من فهم وهدى وعمل مفسر لهما[1] كما اعترض على اعتبار الشهرستاني – كما ذكرنا – عبد الله بن سعيد الكلاب، وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي «أوائل أهل السنة»، من جملة السلف. فهو لا يعتبرهم من السلف. لأنهم باشروا الكلام، ولأن المتكلمين في عرف «السلفية» ليسوا من السلف. فهؤلاء ومن جاء بعدهم كالأشعري وأتباعه ليسوا من أهل السنة بهذا الاصطلاح في نظر الدكتور السلفي.

ولا يلبث هذا السلفي المعاصر أن تزل قدمه في تناقض غير مستغرب منه ولا من أصحابه وهو قوله: في محاولة لإخراج مذهبه من شرنقة الحشو الحنبلي، «ومذهب السلف هذا ليس مذهب الحنابلة فقط، أو الإمام ابن تيمية أو الشيخ محمد بن عبد الوهاب – وحدهم – بل هو مذهب أئمة الإسلام قاطبة – الإمساك عن التأويل مطلقا، مع نفي التشبيه والتجسيم – فالأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ومحمد بن الحسن وسعيد بن معاذ المروزي، وعبد الله بن المبارك، وسفيان الثوري والإمام البخاري وأبو داود السجستاني

(١) السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، م س، ص ٤٥.

وغيرهم كلهم كانوا على هذا المسلك»[(١)].

والحقيقة التي ينكشف عنها هذا الخلط والجمع لعدد من أسماء الفقهاء والمحدثين، أن الدكتور يتجنى على التاريخ ويحرفه ليموه على القارئ. والذي يكشف تناقضه هو عدم اعتباره المتكلمين من السلف في الوقت الذي نجد أن مدرسة أبي منصور الماتريدي في علم الكلام - كما ذكرنا سابقا - قد انبثقت عن أقوال الإمام أبي حنيفة وصدرت عن أقواله. كما يقول محققو هذه المدرسة. وسيتبعهم غيرهم في الإقرار بذلك، فالبغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» وهو يضع الخطوط العريضة «لمذهب أهل السنة والجماعة» يجعل «أول متكلمي أهل السنة وأرباب المذاهب»: أبو حنيفة والشافعي. فأبو حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سماه «الفقه الأكبر» وله رسالة أملاها في نصرة قول أهل السنة أن الاستطاعة مع الفعل... وللشافعي كتابان في الكلام..»[(٢)] وقد اشتهر عدد من الصحابة والتابعين بردودهم على تساؤلات بعض الأفراد أو الفرق. مما يعتبر من صلب القضايا الكلامية كالقدر والجبر والصفات الإلهية. منهم الإمام علي ابن أبي طالب وابن عباس والحسن البصري وجعفر بن محمد الصادق وغيرهم كثير.

وأبو حنيفة والشافعي ومالك، إذا كانوا حقا من السلف ومطلوب الاقتداء بهم لماذا يرفض السلفيون الوهابيون اليوم إنتاجهم الفقهي والأصولي جملة وتفصيلا، بل يعتبرون مذاهبهم الفقهية مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ. وبذلك لا ينفون على أصحابها صفة «السلف» ولكن يعتبرونهم دخلاء على الإسلام.

وقد أفصح الشيخ ناصر الدين الألباني وهو من دعاة (السلفية الوهابية المعاصرة وأحد محققيها) عن موقف فرقته من المذاهب الإسلامية الفقهية، حينما اعتبر الفقه الحنفي صنوا للإنجيل المزيف. وإنه خلاف الشرع المحمدي الأصيل. وابن

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، ج ١ ص ٦٧٥.

تيمية عندما قسم طرائق العلماء في فهم العقائد الإسلامية إلى أربعة أقسام: جعل القسمين الأول والثاني من نصيب الفلاسفة والمعتزلة وبين طريقتهم، أما القسمين الأخيرين فهما ما سلكه الأشعري والماتريدي في فهم العقائد. «وبعد هذا التقسيم قرر ابن تيمية إن منهاج السلف ليس واحدا من هذه الأربعة بل هو غيرها»[١]. والمحصلة المنطقية لهذا الكلام وغيره مما يعتقد به السلفيون المعاصرون هو أن مذاهب «أهل السنة والجماعة» في الأصول والفروع ليست من السلف الصالح في شئ. وهذا حكم على إسلام وإيمان الملايين من المسلمين في الماضي والحاضر بالضلال والانحراف الكامل!!؟.

والحقيقة أن ما يستفاد من كلام الدكتور السلفي الأخير هو التعريف الدقيق الذي يضعه لنا «للسلفية» والذي تضمنه النص دون قصد منه: فالسلفية: هي «مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب» لا غير.

على أن انتساب السلفية لمذهب أحمد بن حنبل مما لا يقرهم عليه «بعض فضلاء الحنابلة»[٢] كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، وعلى رأسهم الذهبي المعاصر لابن تيمية والمحقق الكبير. وكذلك ابن الجوزي الخطيب والفقيه الحنبلي، الذي أنكر أن يكون ما يذهب إليه «حشوية السلفية» في العقائد هو رأي الإمام أحمد بن حنبل. لكن محمد بن عبد الوهاب باعث السلفية المعاصرة ومحيي عقائدها في شبه الجزيرة العربية سيحسم النقاش لصالح حقيقة واضحة يتحرج بعض السلفيين اليوم من إعلانها، وذلك عندما أفتى بجواز قتل من يعتقد «عقيدة أهل السنة والجماعة» من الأشاعرة خصوصا.

وبذلك فصل بين التيارين، ووضع حدا بين الطريقتين. وهو ليس أول حنبلي يكفر «أهل السنة» الأشاعرة، بل سبقه إلى ذلك كثير من مشايخ الحشوية الحنبلية.

---

(١) المذاهب الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣١٥.

(٢) نفسه، ص ٣١١.

لقد احتدم الصراع المذهبي بين حشوية السلفية والأشاعرة «أهل السنة» وسالت من جراء ذلك دماء غزيرة. كان الحنابلة باعتراف المؤرخين هم السباقون لسفكها. يثيرون القلائل والفتن لأتفه الأسباب، ثم يتعقبون أهل السنة في الطرقات ويقتلونهم ويحرقون منازل علمائهم، وقد سطر التاريخ هذه الأحداث كشهادات واقعية على مدى الاختلاف بين هذين الفرقتين ومدى بعد بعضهما على البعض. لحد سفك الدماء والتقاتل وإعلان التكفير المتبادل. إن مفهوم «أهل السنة» كما ثبت تاريخيا وعليه المحققون المعاصرون يطلق ويقصد به «المدرسة الكلامية للأشعري والماتريدي» ومن تبعها وارتضى ما توصلت إليه من عقائد وأفكار. أما «السلفية» فهم بالتحديد أتباع ابن تيمية وتلميذيه ابن قيم الجوزية ومحمد بن عبد الوهاب النجدي. والجامع بين هؤلاء هو انتسابهم وصدورهم عن المذهب الحنبلي. أما الصفة أو النعت الذي عرفوا به تاريخيا فهو: «الحشوية الحنبلية». للتمييز بينهم وبين غيرهم ممن ينتسب لهذا المذهب دون أن يعتقد بما تذهب إليه هذه الفرقة الموسومة بالحشوية.

أهل السنة: مفهوم فضفاض وواسع

طبعا تبقى هناك إشكالات أخرى يطرحها مفهوم «أهل السنة»: منها إضافة لفظ «الجماعة» فيقال «أهل السنة والجماعة»، ولفظ «الجماعة» هذا ظهر عندما اغتصب معاوية بن أبي سفيان الخلافة من الإمام الحسن بن علي وتصالح معه بشروط، وقد سميت تلك السنة بـ «عام الجماعة». وقد يقصد به مفهوم الأغلبية التابعة أو المقلدة وجماهير الناس بشكل عام. والمعنى الأول يضفي على مصطلح «أهل السنة والجماعة» بعدا سياسيا، وقد نجد لذلك مصداقا وتحققا بمراجعة أصول أهل السنة والجماعة.

فهم يعترفون بشرعية خلافة الخلفاء الأربعة. وبعدم وجود النص التعييني على الإمامة أو الخلافة، عكس ما يذهب إليه الشيعة وخصوصا الإمامية منهم،

كما ويعتبرون مقياس الأفضلية بين هؤلاء الخلفاء، تبعا لتوليهم منصب الخلافة. فالأول أفضل ويليه في الأفضلية الخليفة الثاني ثم الذي يليه فالخليفة الرابع.

ومفهوم «أهل السنة والجماعة» بهذا اللحاظ سيصبح عند الإطلاق، شعارا ورمزا يدل على كل من قال بشرعية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ورفض النص أو التعيين الذي قال به الشيعة بخصوص الإمام علي. وعليه أصبح «أهل السنة والجماعة» شعارا لكل من يؤمن ليس فقط بشرعية الخلفاء الأربعة، بل جميع الخلفاء الذين جاؤوا بعدهم من أمويين وعباسيين. كما أصبح لفظ الشيعة يستوعب كل من قال بوجود النص النبوي على ولاية الإمام علي وأهل بيته، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم.

وحتى هذه المسألة التي يلتقي فيها «السلفية» بأهل السنة والجماعة، فإن تطرف السلفية في موالاة ملوك بني أمية وتبرير فسقهم وفجورهم، قد باعد الشقة بينهم وبين العقلاء والمنصفين من «أهل السنة والجماعة»، وخصوصا المتأخرين منهم. لذلك أصبح مصطلح «أهل السنة والجماعة يطلق ويقصد به في كتب التاريخ والأدب والسياسة غير الشيعة والعكس صحيح كذلك». إن المفهوم الاصطلاحي «أهل السنة» يفيد كما ذكرنا سابقا «أصحاب الحديث والأثر» على اعتبار أن السنة مرادف للحديث النبوي، وبإضافة (أهل) سيصبح المعنى أصحاب سنة الرسول أو المنتسبون إليها العاملون بها، دون غيرهم من أصحاب الرأي أو البدع. وهذا المفهوم وإن كان متضمنا لمصطلح «أهل السنة»، فقد أوضحنا التطور الاصطلاحي الذي خضع له هذا الشعار. والمفاهيم العقائدية والسياسية التي شحن بها، حتى جعلته عنوانا وشعاراً لاتجاه ومدرسة في تاريخ الفكر الإسلامي، وهي مدرسة أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي على الخصوص. بالإضافة إلى المذاهب الفقهية الأربعة، الرديف والمكمل للاتجاه العام لهاتين المدرستين.

أما محاولة إطلاق هذا المصطلح «أهل السنة والجماعة»، وجعله يختص بأهل

الحديث أو الأثر وأصحابه والمشتغلين به والملتزمين بالسنة والحديث النبوي في عقائدهم وفقههم. فإن جميع الطوائف والفرق الإسلامية سيشملها حينئذ هذا الشعار «أهل السنة». فما من فرقة إلا وقد ادعت اعتمادها على الحديث النبوي الشريف، وسيصبح الترجيح بينهم صعبا، ودون مرجح متفق عليه. فقد اختلف في مقاييس صحة الحديث وشروط قبوله. وعليه سيصبح «حشوية الحنابلة» أولى الناس بهذه التسمية لاعتمادهم على عدد كبير من الأحاديث. خصوصا المكذوبة على الرسول وما حشئت به أحاديثه ﷺ.

وكذا جميع الفرق الأخرى، مما دفع الدكتور التيجاني السماوي وهو متشيع معاصر إلى اعتبار «الشيعة الإمامية» هم أهل السنة[1] الحقيقيون وليس غيرهم، وأنهم أولى الفرق الإسلامية بهذه التسمية. لأنهم أخذوا بما روي عن الرسول من أحاديث كثيرة ومتواترة في ولاية الإمام علي وأهل بيته، والتزموا القول بمضمونها. في حين رفضها غيرهم وضربوا عنها كشحا.

وننهي بحثنا بتقرير ما توصلنا إليه، وهو أن مصطلح «أهل السنة والجماعة» إذا أطلق فإنما يراد به «المدرسة الكلامية والفقهية» لأتباع أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، وأئمة الاجتهاد الفقهي الأربعة بالتحديد. وقد وقع الاختلاف حول الإمام الرابع أحمد بن حنبل، هل له مدرسة خاصة في الأصول أم لا؟ وهل يعتبر فقيها؟ لأن بعضهم أثار غبارا كثيفا حول

---

(١) يقول التيجاني: «وقد بهرتهم هذه التسمية البراقة (أهل السنة والجماعة) ولم يعرفوا خفاياها ودسائسها التي وضعها دهاة العرب ولو علموا يوما بأن علي بن أبي طالب هو محض السنة المحمدية وهو بابها الذي يؤتى منه للدخول إليها، قد خالفوه في كل شئ وخالفهم، لتراجعوا عن موقفهم ولبحثوا الموضوع بجد، ولما وجدت (أهل السنة) إلا شيعة لعلي وللرسول ﷺ. ولكل ذلك لا بد من كشف حقيقي لتلك المؤامرة الكبرى التي لعبت أخطر الأدوار في إقصاء السنة المحمدية وإبدالها ببدع جاهلية سببت نكسة المسلمين وارتدادهم عن الصراط المستقيم وتفرقهم واختلافهم، ثم تكفير ومقاتلة بعضهم البعض». أنظر الشيعة هم أهل السنة، ص ٢٥ وما بعدها.

نسبة هذا الفقه المدون الآن إليه. كما أن الصراع قد احتدم قديما وإلى الآن بين أتباعه في مجال العقائد.

فمن اعتقد بإمامة الأشعري أو الماتريدي فقد عد من «أهل السنة والجماعة»، أما من قال بغير ذلك فقد نسب نفسه إلى «السلفية» أو مذهب «الحشوية الحنبلية» بالتحديد العلمي.

***

الشيعة الإمامية

تعريف:

يقول ابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١): «فلان من شيعة فلان، أي: ممن يرى رأيه، وشيعت الرجل على الأمر تشييعا إذا أعنته عليه. ومشايعة الرجل على الأمر مشايعة، وشياعا إذا مالأته عليه»[(١)].

ويقول ابن منظور «وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد. وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى عليا وأهل بيته، رضوان الله عليهم أجمعين، حتى صار لهم اسما خاصا، فإذا قيل، فلان من الشيعة عرف أنه منهم. وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم. وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة، قال الأزهري: والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبيﷺ ويواليهم[(٢)].

فالشيعة والتشيع، والمشايعة في اللغة تدور حول معنى المتابعة، والمناصرة والموافقة بالرأي والاجتماع على الأمر، أو الممالأة عليه[(٣)].

يقول الشهرستاني: «الشيعة هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا، وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية منَ عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام

---

(١) ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٣ ص ٦٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة شيع، ج ٧ ص ٢٥٨.

(٣) ناصر بن عبد الله الغفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ج ١ ط ١ / ١٩٩٣.

بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهيَ ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله... وهم خمس فرق، كيسانية، وزيدية وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه[١]...

وقال ابن حزم الأندلسي: «ومن وافق الشيعة في أن عليا أفضل الناس بعد رسول الله وأحقهم بالإمامة وولده من بعده، فهو شيعي. وإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا»[٢].

الفرق الشيعية والاختلاف بينها:

ومن يراجع كتب الفرق يجد أن لقب «الشيعة» قد أطلق على عدد كبير من الفرق، المختلفة المشارب والمتعددة الاتجاهات. وإنما استحقت هذا اللقب كما قال ابن حزم لإجماعها على القول بأفضلية علي ابن أبي طالب، على سائر الصحابة بعد رسول الله وأحقيته في الخلافة.

على أن أغلب هذه الفرق قد ارتبطت في بداية نشأتها بشخص صنعته الأحداث المتتالية التي عرفها المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ ومن ثم نمت أفكاره وترعرعت وأصبح لها أتباع، وتكونت لها مدرسة مستقلة. كما حدث لباقي الفرق الإسلامية. لذلك ظهر الاختلاف بين هذه الفرق وتوسعت شقته، جعلت مؤرخي الفرق الكلامية والمذهبية يفردون لكل واحدة منها فصلا خاصا بها يعرضون فيه لآراء أصحابها ومذاهبهم الاعتقادية والسياسية. ويعتبر هذا العمل في

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧. من خلال تعريف الشهرستاني للشيعة يظهر أنه ذكر ثلاث فرق كبيرة في الأصول، المعتزلة وأهل السنة والمشبهة. وهذا يعني أن التشبيه ليس من أصول أهل السنة وإنما عرف بذلك «حشوية الحنابلة» فهم مشبهة هذه الأمة، وهم بذلك حسب الشهرستاني ليسوا من أهل السنة.

(٢) الفصل في الملل والنحل، ج ٢ ص ١١٣.

الحقيقة منهجا علميا، كان من نتائجه أن عرفت عقائد الفرق وتميزت عن بعضها البعض، وعرفت نقاط التقائها واختلافها. كما فعلنا نحن فيما يخص بيان الفرق بين مفهومي «السلفية» و«أهل السنة».

والذي يقرأ ما كتبه الشهرستاني – بغض النظر عن صحة كل ما جاء فيه أو العكس – يجد أن الاختلافات كبيرة ومتعددة بين الفرق الخمسة التي ذكرها تحت عنوان «الشيعة» لدرجة أن لقب «الشيعة» يضيق عن استيعابها كلها. فإذا كان «التشيع»، حب علي بن أبي طالب والقول بأفضليته بعد رسول الله ﷺ وأحقيته في الإمامة والخلافة. فإن الادعاء بكونه رضي الله عنه «إلها» أو حل فيه الله، يخرج صاحبه عن هذا المفهوم الاصطلاحي للتشيع بل يخرجه عن الإسلام ويصبح كافرا بالرسالة المحمدية عموما.

وهكذا تتعدد الاختلافات الفكرية والعقائدية بالخصوص. فمنها ما يخرج عن الإسلام أصلا، ومنها ما يخرج عن المفهوم المصطلح عليه للعنوان الكبير، الذي تنضوي تحته هذه الفرق المتعددة وهو هنا «التشيع».

لذلك لا بد من وجود مرجع واضح المعالم يكون بمثابة الفيصل عند التفرقة والتمييز، نعرف به مدى بعد الفرق والأشخاص عن هذا «المرجع» أو قربها منه. وهذا «المرجع سيتمثل في الفرقة الأم التي إليها ترجع التسمية بالشيعة. ومنها ومن غيرها انبثقت الفرق المتعددة الأخرى التي أطلق عليها مؤرخو الفرق اسم «الفرق الشيعية».

***

الإمامية الاثنا عشرية

إذا كان لقب الإمامية قد أطلق على مجموعة من الفرق الشيعية بادئ الأمر، فإنه سيطلق فيما بعد ويقصد به «الاثنا عشرية»خصوصا، «ولعل أول من ذهب إلى ذلك شيخ الاثنا عشرية في زمنه «المفيد» في كتابه أوائل المقالات، وأشار السمعاني إلى أن ذلك هو المعروف في عصره فقال: «وعلى هذه الطائفة - يشير إلى الاثنا عشرية - يطلق الآن الإمامية».

وقال ابن خلدون «وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الإمامية عند المتأخرين منهم». وأشار صاحب مختصر التحفة الاثنا عشرية، إلى أن الاثنا عشرية هي المتبادر عند إطلاق لفظ الإمامية. ويقول الشيخ زاهد الكوثري «والمعروف أن الإمامية هم، الاثنا عشرية»[1].

والاثنا عشرية هم الطائفة الشيعية التي ساقت الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى علي الرضا، ثم إلى محمد الجواد، ثم إلى علي الجواد، ثم إلى علي الهادي، ثم إلى الحسن العسكري، ثم إلى محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر...»[2]. وتعريفهم بـ«الاثني عشرية» تمييزاً لهم عن باقي الفرق التي توقفت عند أحد الأئمة وانحرفت على غيره.

لقد تمسك الإمامية الاثنا عشرية بالنص أو التعيين، وقالوا بمضمون وصية الرسولﷺ للإمام علي بالخلافة والإمامة. وبقيت تلك الجماعة تسير على المنهاج الأول. وتتمسك بالوصية بعد أن تفرقت بالشيعة السبل وتقطعت بينهم الأسباب، وانفصلت عنهم مع الزمن مجموعة الفرق غير الإسلامية.

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية، مرجع سابق، ج ١ ص ١٠٠.

(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام، مصدر سابق، ص ١٠٢.

وهم الغلاة أمثال الكيسانية والهاشمية والمغفيرية وغيرها، ثم انبثقت عنهم الفرق الشيعية الأخرى كالزيدية والإسماعيلية وفروعهما... وبعد أن حصلت الغيبة بعد منتصف القرن الثالث للهجرة بقليل سميت الفرقة الشيعية المذكورة بـ» الإمامية» أو الاثني عشرية[١].

لقد تشبث الإمامية بالنص والتعيين على خلافة الإمام علي بن أبي طالب وآمنوا بإمامة أحد عشر إماما من بعده. الحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين آخرهم محمد بن الحسن المهدي المنتظر، الذي يعتقد الإمامية وغيرهم من الفرق الإسلامية بظهوره آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلا بعدما تملأ ظلماً وجوراً، وأحاديثه وأخباره تملأ الموسوعات الحديثية، وسائر كتب السنن لدى كل من أهل السنة والجماعة والشيعة الإمامية.

أسباب ظهور التشيع:

أما متى ظهر التشيع فإن الباحثين من الشيعة وغيرهم قد افترقوا في الإجابة على ذلك ثلاث فرق: منهم من يرى أن التشيع، أي حب علي وموالاته ظهر زمن النبيﷺ وقد كان جملة من الصحابة يصدرون عن معاملة الرسول الخاصة له، وحبه إياه ومؤاخاته مع نفسه، لذلك يذهب النوبختي: بأن أول الفرق الشيعية وهم فرقة علي بن أبي طالبعليه السلام، المسمون شيعة عليعليه السلام في زمان النبي وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته»[٢].

ويعضد قول النوبختي ما ذكره محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام».

قال: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول اللهﷺ مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن

(١) د. عبد الله فياض، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، مؤسسة الأعلمي، بيروت ط ٣ – ١٩٦٨م، ص ٢٧.

(٢) فرق الشيعة، ص ١٥.

أبي طالب والموالاة له. ومثل أبي سعيد الخدري الذي يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج، قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها لمفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل أبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد وقيس ابن سعد ابن عبادة»(١)...

وقد عد السيد شرف الدين الموسوي(٢)، الصحابة ممن كانوا يتشيعون لعلي بن أبي طالب فذكر أكثر من مائتين. أما الشيخ أحمد الوائلي(٣)، فقد ذكر مائة وثلاثين صحابيا بأسمائهم ممن كانوا يوالون عليا ويؤمنون بأحقيته في الخلافة وأنه معين من طرف الرسولﷺ.

ويظهر أن الروايات التي أشارت إلى ظهور التشيع في عهد النبيﷺ كثيرة، إلى حد أن السيد حامد حسين اللكناهوري، وهو من الكتاب المحدثين ملأ بها صفحات كتابه الموسوم بـ «عبقات الأنوار» وهو يزيد على عشر مجلدات»(٤)...

أما الرأي الثاني فهو القول بأن التشيع لعلي، إنما ظهر زمن السقيفة حين اعتزل الإمام عليعليه السلام ولم يبايع أبا بكر. واعتزل معه مجموعة من الصحابة منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس. والزبير بن العوام وباقي الصحابة الذين أدرج المؤرخ محمد كرد علي أسمائهم في «خططه».

وهذا الرأي إنما يعضد الرأي الأول ويسير في اتجاهه، خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء الصحابة لم يتراجعوا عن القول بأحقية علي في الخلافة بعدما استتب أمر

---

(١) خطط الشام، ج ٥ / ٢٥١، بتوسط السبحاني، بحوث في الملل والنحل، ج ٦ ص ١١١.

(٢) أنظر الفصول المهمة.

(٣) أنظر هوية التشيع.

(٤) تاريخ الإمامية، مرجع سابق، ص ٣٦.

الحكم لأبي بكر، وكذا في خلافة عمر. وهذا يعني أنهم كانوا يؤمنون بالنص والتعيين النبوي، ويذهب القول الثالث وهو ما عليه أغلب خصوم الشيعة. بأن التشيع وموالاة الإمام علي، إنما ظهر مع توليه عليه السلام الخلافة بعد عثمان.

وانفجار الحروب بينه وبين خصومه «الناكثين، والقاسطين، والمارقين» كما وصفهم عليه السلام، طلحة والزبير وعائشة، ومعاوية بن أبي سفيان.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن من تبع الإمام علي ونصره في حروبه التي خاضها في زمن خلافته، كانوا هم نواة وسلف الشيعة الذين جاؤوا بعدهم، ابتداءا بحركة التوابين التي جاءت كرد فعل على مقتل الإمام الحسين بن علي في كربلاء على يد يزيد بن معاوية، ويقولون بأن مع هذه الحركة الثورية التي انطلقت مباشرة بعد حادثة كربلاء، سيبدأ خط التشيع العام في التبلور، ليضع لنفسه طريقا عرف به بين باقي الفرق الإسلامية.

إن الآراء في تحديد ظهور التشيع مختلفة، وإن كان رأي المحققين من الشيعة الإمامية وغيرهم قد توصلوا إلى أن التشيع بمعنى موالاة الإمام علي والقول بالنص على تعيينه إنما ظهر في عهد الرسول، لأنه ﷺ نص فعلا على ولايته وذكر ذلك في مواقف متعددة. كان من أهمها حادثة البيعة العامة في «غدير خم» حين جمع الرسول ﷺ النـاس وأوقفهم في طريق عـودته من حجـة الوداع، وأعلن فيهم قائلا:

«أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بكم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا - يعني عليا - مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[1].

---

(١) مصادر الحديث متعددة، انظر: الصواعق المحرقة، ومسند الإمام أحمد ومستدرك الصحيحين للحاكم، وقد صرح الذهبي بصحته، انظر مزيد من التفصيل فصل «السلفية والشيعة الإمامية» من هذا الكتاب.

وهذه الحادثة ذكرها اليعقوبي في تاريخه، وبيّن أن النبي أوصى فيها لعلي بالخلافة[١].

والصحابة الذين تولوا علياً ابن أبي طالب يذكرون هذه الحادثة - أي بيعة غدير خم - ويحتجون بها. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الشيعة إن شاء الله تعالى. وعليه فالتشيع أصيل أصالة الإسلام. انبثق من أحاديث الرسول، ودعمته سيرة الإمام علي بجهاده المتميز في نشر الدعوة الجديدة وبناء صرح الدولة الإسلامية. وبادعائه كذلك الولاية، قولا وعملا. واشتهار خصوصيته العلمية وتفوقه، واحتياج الناس لعلمه واستغنائه عنهم. ومنهم الخلفاء الثلاثة، حيث إشتهر عن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني قوله: «لولا علي لهلك عمر» وكذا قوله: «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن».

هذا من حيث النشأة والجذور إما اكتمال التشيع كمدرسة متميزة في الأصول والفروع فقد جاء ذلك متأخرا عن عصر الرسالة. مثله في ذلك مثل المدارس الإسلامية الأخرى الأصولية منها والفقهية.

مذهب الإمامية في الأصول:

أما مذهب الإمامية فهو كما ذكر الشيخ المفيد في أوائل المقالات من أنهم دانوا بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان مع وجوب النص الجلي والعصمة لكل إمام، وهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وتسعة أئمة من ولد الحسين.

والإمامية الاثنا عشرية يبرأون من المقالات التي جاءت على لسان بعض الفرق، ويعدونها كفرا وضلالا. وهم كما يقول الشيخ كاشف الغطاء أحد الفقهاء الإمامية المعاصرين: «ليس دينهم إلا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق أو ملابسة لهم في صفة النقص والإمكان والتغير والحدوث وما

---

(١) تاريخ الإمامية، مرجع سابق، ص ٣٩.

ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس، وبطلان التناسخ والاتحاد والحلول والتجسيم»[١]...

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: «وتسمى هذه الفرقة بالجعفرية حينا والاثنا عشرية حينا آخر والإمامية حينا ثالثا. ولعلها من غير شك أبعد الفرق الإمامية عموما عن الاتصاف بالغلو وأقربهم إلى التعقل في أمور دينها، ومن أقرب فرق الشيعة عامة إلى جمهور أهل السنة. وإذا كانت سميت بالجعفرية من باب تسمية العام باسم الخاص، كما مر بنا قبل قليل، فإنها سميت بذلك لأمر أهم وهي أنها تستمد أمور دينها من الإمام جعفر الصادق. فلقد كان إماما لجميع المسلمين بالمعنى العام كأبي حنيفة والشافعي والأوزاعي ومالك وابن حنبل، وكان من ذوي الرأي الصائب والفتوى الصالحة في أمور الدين. فضلا إنه كان إماما لدى الإمامية، له ما لبقية أئمتهم من الولاية والوصاية...

ويضيف الدكتور الشكعة قائلا: «وهم جمهور الشيعة الذين يعيشون بيننا هذه الأيام وتربطهم بنا نحن أهل السنة روابط التسامح والسعي إلى تقريب المذاهب. لأن جوهر الدين واحد ولبه أصيل لا يسمح بالتباعد.

والشيعة يمثلون كل سكان إيران تقريبا ونصف سكان العراق وعشرات الآلاف من سكان لبنان وبضعة ملايين في الهند»[٢]...

ويوجد الشيعة الإمامية في مناطق أخرى من العالم غير التي ذكرها الدكتور، في تركيا وسورية، أما في المملكة العربية السعودية فيشكلون قرابة ٢٥٪ من عدد السكان. ويتركزون في المنطقة الشرقية والمدينة المنورة. وفي الكويت نسبة كبيرة

---

(١) إسلام بلا مذاهب، مصدر سابق ص ١٨٧.

(٢) نفسه، ص ١٨٣ – ١٨٦. يشكل الشيعة قرابة نصف عدد سكان المسلمين في العالم إذ يبلغ تعدادهم ٧٥٠ مليون نسمة أنظر «شورى الفقهاء». أما ما ذكره المؤلف بخصوص الشيعة الإمامية في لبنان فليس دقيقا فهم ليس بالآلاف لأنهم يشكلون أغلبية سكان لبنان. فإذا كانت الأغلبية السكانية في لبنان للمسلمين فإن أغلبية المسلمين من الشيعة.

منهم، وفي البحرين يمثلون الأغلبية، وفي باقي دول الخليج العربي، بنسب متفاوتة بين الأغلبية والوسط، في الإمارات العربية وعمان وقطر واليمن. كما توجد أقليات شيعية إمامية، في كل من مصر والسودان وتنزانيا وجزر القمر ومدغشقر، والكثير من الدول الإفريقية الأخرى ومن بينها دول شمال إفريقيا والمغرب العربي.

كما يتواجد الإمامية في باكستان (أكثر من ٣٠ مليوناً). وفي أفغانستان (٣ ملايين) وآذربيجان (قرابة ٦ ملايين) والهند (أكثر من ٢٥ مليوناً)، والكثير من دول جنوب آسيا المسلمة والصين، والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي السابق. وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران انتشرت موجة اعتناق أو الانتقال للتشيع.

لقد حاولنا في هذا التعريف المقتضب «للشيعة الإمامية» أن نميز هذه الفرقة عن باقي الفرق، ممن سمي أو أطلق عليه لقب «الشيعة». أولا لخصوصية هذه الفرقة الأم، ثانيا لبيان أن هناك اختلافات عقائدية مهمة بين هذه الفرق. يصل بعضها إلى إخراج الفرقة عن الإسلام بشكل عام. كادعاء ألوهية الإمام علي أو غير ذلك من الهرطقات والغلو.

وتمييز الإمامية الاثنا عشرية عن غيرها من الفرق هو المنهج العلمي الموضوعي، كي لا يصار إلى التداخل في الأفكار والمعتقدات. ونسب ذلك إلى فرقة هي من ذلك براء، كما هو حاصل الآن. حيث جرى خصوم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، على إلحاق عدد كبير من عقائد الفرق المنحرفة وإلصاقها بالإمامية. والادعاء كذبا وعن سوء نية، بأن ذلك يشكل جزءا من عقائدهم. نرى ذلك واضحا في المملكة العربية السعودية حيث يكفر السلفية الوهابية مواطنيهم من الشيعة الإمامية، رغم أنهم يمثلون كما قلنا سابقا نسبة ٢٥٪ من مجموع السكان. وإذا سألت علماء السلفية عن سبب هذا التكفير سيجيبونك بأن الشيعة الإمامية، يقولون ويعتقدون بأن جبريل قد أخطأ في تبليغ الرسالة، فبدل أن ينزل على علي

ابن أبي طالب نزل على محمد بن عبد الله ﷺ. وأنهم يقولون بأن عليا أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام.

والحقيقة أن من يقول مثل هذا القول لا يكون شيعيا فقط، وإنما سيكون غير عاقل بالمرة. لأن الشيعة والسنة على السواء يؤمنون بأن جبريل لما نزل بالرسالة على محمد بن عبد الله في مكة، لم يكن علي بن أبي طالب قد تجاوز سنه العاشرة في بعض الروايات، وأخرى تقول كان سنه تسع سنوات. فهل يمكن أن يرسل الله سبحانه وتعالى جبريل بالرسالة لطفل في العاشرة من عمره، ويطلب منه أن يبلغها. إنها الخرافات التي عشعشت في خيالات العوام، وروج لها بعض أدعياء العلم، ممن ينسب إلى الفضيلة والمعرفة.

الإمامية وتسميتهم بالروافض:

درج خصوم الشيعة الإمامية وخصوصا من «السلفيين»، على نعت الشيعة وإطلاق اسم الرافضة والروافض عليهم. وهذا الوصف كان يطلق في الماضي ويقصد به مجموع من يوصف بالتشيع ويدخل ضمنهم الإمامية. أما اليوم فإنه إذا أطلقه السلفيون يقصدون به «الشيعة الإمامية» فقط. وسنحاول في عجالة تتبع تاريخ هذا المصطلح ومدلولاته المعرفية والسياسية بالخصوص، لنعرف حده وخلفيته السياسية والتاريخية.

الرفض بمعنى الترك، قال ابن منظور في اللسان: «الرفض ترك الشئ، تقول: رفضني فرفضته، رفضت الشيء أرفضه رفضا، تركته وفرقته والرفض: الشيء المقترف والجمع أرفاض[1]. وهذا هو المعنى اللغوي، أما حسب الاصطلاح في الأعصار المتأخرة، فهو يطلق على مطلق محبي أهل البيت تارة، أو على شيعتهم جميعا أخرى. أو على طائفة خاصة منهم ثالثة.

---

(١) لسان العرب ج ٧ ص ١٥٧ مادة رفض.

وعلى كل تقدير فهذا الاصطلاح، اصطلاح سياسي أطلق على هذه الطائفة وهو موضوع لا كلام فيه. إنما الكلام في وجه التسمية ومبدأ نشوئها، فإننا نرى ابن منظور يقول في وجه التسمية بـ«الروافض»، جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكل طائفة منهم رافضة. والنسبة إليهم رافضي، والروافض قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي، قال الأصمعي: كانوا قد بايعوا زيد بن علي ثم قالوا: إبرأ من الشيخين نقاتل معك فأبي وقال: كانا وزيري جدي فلا أبرأ منهما فرفضوه وأرفضوا عنه. فسموا رافضة. وقالوا الروافض ولم يقولوا: الرفاض لأنهم عنوا الجماعات.

غير أن ابن منظور، وإن أصاب الحق في صدر كلامه وجعل للفظ معنى وسيعا يطلق على المسلم والكافر، والمسلم شيعيه وسنيه، لكنه استشهد على وجه تسمية قسم من شيعة علي عليه السلام بما يقول الأصمعي، وهو منحرف عن علي وشيعته، فكيف يمكن الاعتماد على قوله، خصوصا إذا تضمن تنقيصا وازدراء بهم.

يقول الشيخ جعفر السبحاني لا أظن الأصمعي وهو خبير في اللغة يجهل بحقيقة الحال، ولكن عداءه قد جره إلى هذا التفسير. فإن الحق أن الرافضة كلمة سياسية كانت تستعمل قبل أن يولد زيد بن علي ومن بايعه من أهل الكوفة، فالكلمة تطلق على كل جماعة لم تقبل الحكومة القائمة، سواء أكانت حقا أو باطلا. هذا هو معاوية بن أبي سفيان يصف شيعة عثمان الذين لم يخضعوا لحكومة علي بن أبي طالب عليه السلام وسلطته بالرافضة. و يكتب في كتابه إلى عمرو بن العاص وهو في البيع في فلسطين: «أما بعد:

فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا (نزل إلينا) مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني، أقبل أذاكرك أمرا»[1].

---

(١) نصر بن مزاحم المنقري، توفي سنة ٢١٢ هـ وقعة صفين، ص ٢٩.

إن معاوية يصف من جاء مع مزوان بن الحكم بالرافضة وهؤلاء كانوا أعداء علي ومخالفيه. وما هذا إلا لأن هؤلاء الجماعة كانوا غير خاضعين للحكومة القائمة آنذاك. وعلى ذلك فتلك لفظة سياسية تطلق على القاعدين عن نصرة الحكومة والالتفات حولها... إن كلمة الرفض والرافضة ليستا من خصائص الشيعة، بل هي لغة عامة تستعمل في كل جماعة غير خاضعة للحكومة القائمة. وبما أن الشيعة منذ تكونها لم تخضع للحكومات القائمة بعد رسول الله ﷺ، فكانت رافضة حسب الاصطلاح الذي عرضت، لذلك يقول الشيخ السبحاني: لم يكن ذلك الاصطلاح موهوبا من طرف زيد بن علي لشيعة جده. كيف وقد ورد ذلك المصطلح على لسان أخيه محمد الباقر عليه السلام. الذي توفي قبل زيد بن علي وثورته بست سنوات.

روى أبو الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: «أن رجلا يقول إن فلانا سمانا باسم قال وما ذاك الاسم؟ قال: سمانا الرافضة. فقال أبو جعفر مشيرا بيده إلى صدره: وأنا من الرافضة وهو مني، قالها ثلاثا»[1].

وروى أبو بصير فقال: قلت لأبي جعفر عليه السلام جعلت فداك، اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا. قال: وما هو؟ قال: الرافضة، فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن سبعين رجلا من عسكر فرعون رفضوا فرعون فأتوا موسى عليه السلام فلم يكن في قوم موسى أحد أشد اجتهادا وأشد حبا لهارون منهم، فسماهم قوم موسى الرافضة»[2].

وهذه التعابير عن أبي جعفر باقر العلوم عليه السلام أصدق شاهد على أن مصطلح الرفض ليس وليد فكرة زيد، وأجله عن هذه النسبة والفكرة، بل كان مصطلحا سائدا في أقوام، فكل من لم يخضع للحاكم القائم، والحكومة السائدة وصار يعيش

(١) بحار الأنوار، ج ٦٥ ص ٩٧ الحديث ٢. نقلا عن المحاسن للبرقي، المتوفى سنة ٢٧٤.
(٢) نفسه، ج ٦٥ ص ٩٧، الحديث ٣.

بلا إمام ولا حاكم سمي رافضيا والجماعة رافضة أو رفضة[١].

إلا أن هذا المصطلح سيتطور عند الاستعمال ليشمل ليس فقط المعارضين للحكومات من الشيعة، ولكن سيلصق بكل من يعرف عنه حب أهل بيت النبي عليهم السلام. مثل الإمام الشافعي فقد اشتهر عنه أنه أنشد:

يا آل بيت رسول الله حبكموا ... فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكموا من عظيم الذكر أنكموا ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

ويوضح الإمام الشافعي بواعث اتهامه بالرفض والتشيع فيقول:

قالوا ترفضت قلت كلا ... ما الرفض ديني ولا إعتقادي

لكن توليت دون شك ... خير إمام وخير هادي

إن كان حب الوصي رفضا ... فإني أرفض العباد

والشافعي عندما أظهر حب علي بن أبي طالب - والذي سماه «الوصي» وهذه الكلمة إشارة إلى النص - اتهم بالرفض، لكنه لم يبال بهذا الاتهام، واستمر على موالاته لأهل البيت عليهم السلام. يقول منشدا.

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد فيها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضا كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضا حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي[٢].

(١) بحوث في الملل والنحل، م س، ج ١، صفحات ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ بتصرف.

(٢) أنظر مناقب الشافعي للفخر الرازي، وكذا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر المجلد الثاني ص ٢٤٩. والغريب في الأمر أن كل من عرف بحب علي وأهل بيته كان يتهم بالتشيع والرفض. وقد ألسقت هذه التهمة بكل من يروي حديثا أو مجموعة روايات في فضائل علي بن أبي طالب أو أهل بيت النبوة، وقد أتهم بالتشيع رجال لم يكونوا في واقع الأمر شيعة بالمعنى الاصطلاحي للكلمة مثل

وهذا الإمام أحمد بن حنبل وقد كان يغشاه عبد الرحمن بن صالح الشيعي، فاعترض عليه أصحابه بقولهم إنه رافضي فكان جواب أحمد بن حنبل أنه: «رجل أحب قوما من أهل بيت النبيﷺ، نقول له لا تحبهم، هو ثقة»[1].

وعليه فإن كان حب أهل البيت ومودتهم رفضا، فالحق أن جميع المسلمين رافضة، لأن حب أهل بيت النبي من الدين. أما إذا كان الرفض يعني المعارضة السياسية، فالحركات الإسلامية اليوم وأبناء الصحوة الإسلامية يصح أن يطلق عليهم روافض ورفضة، لأنهم جميعا في خانة من يعارضه الحكومات القائمة في بلدانهم. ولا يعترفون لها بأي شرعية دينية أو حتى قانونية ودستورية.

خيثمة بن سليمان العابد الذي ألف في فضائل الصحابة وذكر بعض فضائل الإمام علي. والحاكم النيسابوري صاحب المستدرك حيث ذكر فيه فضائل الإمام علي. وعبد الرزاق بن همام الحافظ الكبير ومن رجال الصحاح قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ»: إنه صاحب تصانيف، وثقه غير واحد، وحديثه مخرج في الصحاح، وله ما ينفرد به، ونقموا عليه التشيع وما كان يغلو به بل كان يحب عليا ويبغض قاتله. وهذا الاعتراف من الذهبي وهو من هو عند أصحابه في الجرح والتعديل يبين مدى انحراف هؤلاء الذين نقموا على هذا الحافظ فهل ينقم مسلم على مسلم آخر لأنه يحب عليا وأهل بيت النبي وقد كان الرسول يحبهم؟!

ومنهم جعفر بن سليمان الضبعي ومحمد بن عثمان أبو الحسن النعالي وقاضي القضاة محيي الدين الأموي المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ومحمد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٣١٠هـ ومن أعجب الأمور كما يقول أسد حيدر إن ابن عبد البر قد أتهم بالتشيع على ما فيه من النصب والعداء لأهل البيت، فقد وصفه ابن كثير في تاريخه بأنه شيعي لرواية نقلها تمس كرامة الأمويين. بل إن أبا حنيفة قد اتهم هو كذلك بالتشيع لأنه كان يفضل الإمام علي على عثمان.

(١) تاريخ بغداد، ج ١٠ ص ٢٦١، بتوسط أسد حيدر، ج ٢ ص ٥٠٤.

خاتمة المطاف

إرتأيت في مقدمة بحثي أن أعرض لهذه المجموعة من التعاريف المقتضبة، كي أسلط الضوء بموضوعية علمية على حقيقة كل فرقة من الفرق المذكورة.

وأن أفرد لها بحثا خاصا بها من المصادر المعتبرة قديما وحديثا، دون حيف أو إجحاف. لقد كتب تاريخ الفرق الإسلامية الدينية والسياسية، بمداد التزوير والتحريف، ووقفت السلطات السياسية المتعاقبة عبر أزمنة التاريخ الإسلامي مواقف مختلفة ومتناقضة من الفرق والمذاهب الإسلامية.

فالمعتزلة أهل التوحيد والعدل، وأكثر من وقف مدافعا عن الإسلام أمام خصومه من علماء وفلاسفة الملل الأخرى - حسب إدعاء بعضهم - واعتنق الكثير من علماء وفقهاء الإسلام أفكارهم وعقائدهم، في أوج وازدهار الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين وبالخصوص الخليفة المأمون، سيصبحون كفرة مباحو الدم مع وصول المتوكل العباسي للحكم، الذي نكل بهم - أي المعتزلة - وظاهر في مقابل ذلك فريقا مخصوصا من أهل السنة (الحديث)، وهم فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة في ذلك العهد[1]، كما يقول عبد المتعال الصعيدي.

ومع هذا التحول السياسي بدأ تأريخ جديد لهذه الفرقة - المعتزلة - شوه معتقداتها، وطعن في روادها ونسب إليهم الكثير من الشذوذ الفكري والعقائدي. ومع ظهور مدرسة أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي الكلامية وتمثيلها لمذهب أهل السنة والجماعة في العقائد والأصول، وإجازتها من طرف السلطات

(١) مجلة رسالة الإسلام، ج ٣، عدد ١ السنة الثالثة، ص ٦٠.

السياسية المتتالية، أعطيت لها بجانب اجتهادات الأئمة الأربعة في الفقه، الشرعية الكاملة. وهكذا انتشرت آراء مدرستي الأشعري والماتريدي في العقائد معضدة بالمذاهب الفقهية المشهورة. حيث أصبح إسلام الجمهور الأعم من المسلمين موسوما ومرتبطا بآراء هذه المدارس في الفقه والأصول، ولم تكن الظروف الموضوعية لتتيح نشر غيرها أو الدعوة إليه، بل اعتبر ذلك شذوذا وخروجا على عقائد الجمهور وديانتهم بل تعدى الانتصار لآراء هذه المدارس، إلى وصم من يخالفها بالكفر والخروج عن الإسلام ومحاربة المسلمين ونقض بيضة الإسلام، لذلك نجد المقريزي في خططه بعدما تعرض لانتشار المذهب الأشعري «أهل السنة»في العقائد واعتناق الأغلبية له يؤكد على أن من خالف ذلك أريق دمه.

كما اكتفي في الفقه بآراء واجتهاد الأئمة الأربعة ومن تبعهم من الفقهاء وحجب ما دون ذلك. وإن كان قد سُمح بما سمي الاجتهاد الجزئي المحدود، أي الاجتهاد داخل المذهب. فالغزالي مجتهد لكنه ظل شافعيا في تقليده الفقهي العام. وكذلك غيره من مجتهدي المذاهب الأخرى.

المهم هو أن السلطات السياسية الحاكمة للمجتمع الإسلامي، خصوصا مع بداية القرن الرابع قد أضفت الشرعية المطلوبة على بعض المدارس الأصولية والفقهية. وتلقاها عامة الجمهور بالقبول وأضفوا عليها مع مرور الزمن القداسة والاحترام، حتى أضحت تمثل الإسلام في شكله ومضمونه، وعد الخارج عنها مارقا عن الإسلام، كافرا ضالا وفي أحسن الظروف مبتدعا، لذلك أحلوا دمه وماله.

في المقابل عاشت فرق ومذاهب أخرى في الظل، ليس فقط لشذوذها الفكري أو العقائدي، وركوبها الغلو الذي تنفر منه فطرة أغلبية الناس. ولكن لمعاداتها السلطات السياسية القائمة. وأفضل مثال على ذلك الفرق الشيعية بعامة والإمامية الاثنا عشرية بخاصة، فإذا كانت هذه الفرق لم تعترف بشرعية أغلب السلطات السياسية التي قامت على طول التاريخ الإسلامي، فإن رد فعل تلك السلطات كان

مماثلا وزيادة بعض الشيء. فشوهت أفكار الفرق المعارضة وحرفت عقائدها وقتل دعاتها ورجالات دعوتها وأرباب مدارسها. ولم يسمح لها بنشر مذاهبها إلا بطرق سرية وخفية. لذلك لم تعرف حقيقة الكثير من المدارس الكلامية إلا بعد فترة طويلة من انتهاء هذا الصراع.

ولكن هذا النمو في الظل والخفاء لبعض الفرق، قد جعل قطاعات واسعة لا تعرف عنها شيئا، ولما كانت تظهر على الساحة بعض عقائدها وأفكارها بين الحين والآخر، كانت تلقى استهجانا ونفورا من الأغلبية، عامة وعلماء، وهكذا بدأ عصر النهضة العربية والإسلامية في العصور الحديثة بالتنقيب في التراث ومحاولة بعثه ودراسته وتحقيقه بطرق علمية موضوعية إلى حد ما، فتم اكتشاف كتب جل الفرق، خصوصا التي قاومت الزمن وسجل لها حضور في العصر الحاضر. وبذلك بدأت مرحلة التعرف الحقيقي على آراء القوم ومعتقداتهم من كتبهم الخاصة وتراثهم المتميز وأقوال علمائهم. وإذا اشتكى بعض الفرق اليوم من أن - الآخر - الخصم قد جنى عليه وشوه أفكاره، فإن فرقة الإمامية الاثنا عشرية من دون الفرق الشيعية الأخرى قد خصها - الآخر - الخصم بالنصيب الأكبر من التشويه والتحريف والتحامل، وليس السبب في ذلك سوى تاريخ هذه الفرقة التي عاشت بموازات السلطات السياسية المتعاقبة على الحكم الإسلامي.

فلم يسجل التاريخ انتصارا سياسيا لهذه الفرقة بالذات - إلا ما كان من تبني الدولة الصفوية للتشيع الإمامي[١] - انتصارا يجعل العالم الإسلامي يتعرف على حقيقة ما تدعو له من عقائد وأفكار. لذلك نجد الدراسات التحقيقية المتعددة والتي

---

(١) ناصرت بعض الحكومات في فترات متقطعة من التاريخ الإسلامي التشيع بشكل عام، مثل الدولة البويهية، والحمدانية، وقامت الدولة الفاطمية في مصر وشمال إفريقيا انطلاقا من الدعوة الشيعة الإسماعيلية، كما تعاقبت على حكم اليمن دول شيعية على المذهب الزيدي، أما اليوم فتنفرد دولة إيران الإسلامية بكون المذهب الإمامي الاثنا عشري هو مذهب الدولة الرسمي لأن أغلبية الشعب هناك من الشيعة الإمامية الاثنا عشرية.

ظهرت في العالم العربي والإسلامي والخاصة بتاريخ الفرق الإسلامية قد أنصفت الكثير من الفرق، وعلى رأسهم المعتزلة حيث أعيد لها اعتبارها. ولم يقبل رأي خصومها فيها، فبدل تكفيرها وذمها نجد أحمد أمين وهو من المؤرخين المعاصرين مثلا يقول: كانت المعتزلة أكثر دفاعا عن الإسلام، وربط كثير من المفكرين والمثقفين المعاصرين بين العصر الذهبي للدولة الإسلامية، وبين انتشار عقائد وأفكار المذهب الاعتزالي، وعلى رأسها الدعوة إلى حرية الإنسان. كما قرنوا بداية التدهور الحضاري بانتصار المحدثين والحشوية منهم على الخصوص، وانتشار عقائد الجبر والتفويض.

أما عقائد الإمامية ومذاهب رجالها فقد ظلت كما هي عليه في كتب خصومها وأصحابها على السواء، محرومة من النشر والانتشار، إلا في حدود ضيقة، جعلت المؤرخ أحمد أمين عندما كتب حول الشيعة يستقي مادته مما كتبه خصومها. ولما زار العراق والتقى بعلماء الشيعة الإمامية وسألوه عن ذلك، إعتذر لهم بقلة المصادر.

وعليه فأغلب ما كتب عن الشيعة الإمامية ويكتب الآن إنما يستقى من الكتب والموسوعات التي أرخت للفرق الإسلامية، وأغلب أصحاب هذه الموسوعات كانوا ممن يعتنق مذاهب أهل السنة والجماعة. فكان عرضهم لعقائد وأفكار الفرق المخالفة لما عليه الأشعري، فيه الكثير من التساهل في النقل والرواية. بالإضافة إلى التحامل وعدم الموضوعية إلا ما ندر. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن التأريخ أو الكلام في تاريخ الفرق الكلامية والسياسية، يحتاج إلى الاطلاع الواسع والدقيق، حتى يتمكن الباحث من الكشف الحقيقي عن عقائد القوم ومذاهبهم. فقلة البضاعة في هذا الباب تعني الخلط والخبط والتجني، وما يسببه ذلك من إرباك لدى القارئ المتوسط الاطلاع.

وقد وقفت يوما مندهشا وأنا أقرأ كتابا لأحدهم يتكلم عن فرقة إسلامية ويذكر لها كتبا ومحافل دولية، ولما راجعت عناوين تلك الكتب وأسماء تلك المحافل

وجدتها لفرقة مسيحية - يهودية مشبوهة تدعى «شهود يهوه». إن عدم الاطلاع المتكامل على موضوع البحث ونشدان الحق في كل ما يكتب، يؤدي إلى انتشار معلومات خاطئة لدى الناس عن بعضهم البعض مما يعمق الكراهية والأحقاد. ويكون سببا في الحروب المذهبية والطائفية.

لذلك حرصنا في بداية بحثنا على تحديد المفاهيم الموضوعية لمصطلحات «السلفية»، «أهل السنة والجماعة» «الشيعة الإمامية». وبيان مدلولاتها ومصاديقها العقائدية والفكرية، في إيجاز نرجو أن لا يكون قد أخل بالمطلوب، لأن الإطناب في ذلك يخرجنا على خطة البحث، ولأننا سنناقش عقائد هذه الفرق وما تدعوا له في الفصول التالية.

والنتيجة التي توصلنا إليها وأردناها، هي تحديد مفهوم كل من «السلفية» أولا، وأنه تيار أو فرقة متميزة في التاريخ الإسلامي. كما بينا أن مصطلح «أهل السنة» قد عرف تطورا في مدلوله، فهو كان يقصد به أولا المشتغلين بجمع الحديث النبوي وروايته والاهتمام به. أما المدلول الاصطلاحي الجديد الذي سيعرفه وسينتهي عنده، فهو كونه أصبح شعارا لمدرسة كلامية في الأصول، ومنحصرة في ما توصل إليه كل من أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي وأتباعهما من العلماء.

فإذا أطلق لفظ أو مصطلح «أهل السنة والجماعة» فإنه يعني تحديدا، هذه المدرسة وأتباعها. وبهذا التحديد ظهر الفرق بين هذه المدرسة وعقائدها والمدرسة «السلفية» وعقائدها، التي كشف البحث والتحقيق أنها - أي السلفية - ليست سوى مجمل آراء ابن تيمية خاصة وشروح تلميذه ابن قيم الجوزية. وما أضافه الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي - عند التطبيق - على هذه العقائد. وما خصه بالعمل والدعوة دون غيره من عقائد أستاذيه. كل ذلك مدعوما وفي إطار النهج العام للمذهب الحنبلي.

ومع تباين نتائج هاتين المدرستين وخصوصا في الأصول والعقائد، لم يعد هناك مجال لدمجهما أو الادعاء بأنهما تيارا واحدا منسجما، فإن هذه المحاولة التي يروج لها بعض «السلفية» تمويها على أبناء الصحوة الإسلامية، ليست صحيحة ولا تمت إلى الحقيقة العلمية بصلة. أما ما يوجد في الكتب المعاصرة خصوصا كتب التيار السلفي الوهابي من إدعاء بأن ما هم عليه هو مذهب «أهل السنة والجماعة». أو قول بعض الأشاعرة المعاصرين من أن طريقة إمامهم هي ما كان عليه السلف الصالح. وبذلك تختلط المفاهيم، ويصبح أتباع المدرستين يتنازعان نفس الألقاب «السلفية وأهل السنة والجماعة». أقول إن هذا الخلط لا يعني أن منهج المدرستين واحد أو أنهما جسد برأسين. ولكن الحقيقة التي لا يود بعضهم الإفصاح عنها - السلفية الوهابية -، هي أنهم عندما يطلقون على أنفسهم لقب «أهل السنة» فإنما يعنون أنهم المستحقون وحدهم دون غيرهم لهذا اللقب. ولا يقصدون إطلاقا بأنهم ينتمون أو يعتقدون بآراء وعقائد مدرستي الأشعري والماتريدي، التي تبين لنا عبر التحقيق أنهما أول من تسمى تاريخيا بهذا اللقب المتطور. واعتمدوه صفة دالة عليهم فيما بعد، ومميزا لهم عن غيرهم.

وكذلك إذا وجد من الأشاعرة من يقول بأنه سلفي أو على مذهب السلف، فإنما يعني إتباعه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة. وأن لا خلاف بين مذهب إمامه الأشعري، وبين ما كان عليه هؤلاء الصفوة. وقد أشرنا إلى ذلك الصراع الذي احتدم بين الفريقين حول الاستفراد بهذا اللقب أو ذاك. والمهم هو أن المفهوم الاصطلاحي الخاص «للسلفية» و«لأهل السنة والجماعة» كما ظهر عند التحقيق، يعني مدرستين مختلفتين في المنهج والنتائج. وأن الشقة متباعدة بينهما، وما زالت تتباعد، خصوصا مع السلفية الوهابية المعاصرة، حيث تبادل القوم التكفير والتبديع ومخالفة السنة والسلف الصالح معا. والفصل الذي خصصناه للسلفية وأهل السنة يظهر بالتفصيل مدى الخلاف الواسع بين هذين المنهجين وبين أتباعهما.

ومن خلال تتبعنا للجذور التاريخية لمصطلح «السلفية» تبين واضحا أن أتباع هذه المدرسة اليوم، هم في الواقع «خلف حشوية أهل الحديث» المتوسمين بالحنابلة. وأن مصطلح «السلفية» سيضيق مفهومه ليصبح علما متميزا لما توصل إليه ابن تيمية الحراني «شيخ الإسلام» من آراء في العقائد خصوصا، بعدما تصدى للكم الهائل من أحاديث التشبيه والتجسيم ورام الدفاع عنها، وسلك منهجا وطريقة في إثباتها وجعلها أساسا لعقائد السلف.

والسلفية أو الوهابية اليوم هي دعوة متميزة لبعث هذه العقائد، مدعومة بمخزون أهل الحشو من أحاديث وروايات. لذلك كثرت الطبعات والتحقيقات لكتب مثل «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد، و«التوحيد» لابن خزيمة، وغيرهما من المصادر المعتمدة لدى الحشوية الأوائل.

وإذا كان أهل السنة الأوائل ممثلين بـ«مدرسة ابن كلاب وأتباعها» قد خاضوا صراعا مريرا مع أوائل الحشوية وعلى رأسهم ابن خزيمة[١]، فإن خلف كلا المدرستين سيرثان هذا الصراع والتناقض، الذي سيبلغ ذروته مع ابن تيمية في القرن السابع، والذي أحيي عقائد «الحشوية» بعدما كادت تندرس - لانتشار عقائد أهل السنة من الأشاعرة خصوصا في أغلب المدارس التعليمية الإسلامية - وهاجم خصومها. وقامت بين القوم معارك ضارية أريقت فيها دماء غزيرة، وراح ضحيتها مئات القتلى من الطرفين.

كما استطعنا بإيجاز كذلك أن نبين للقارئ بأن مصطلح «التشيع» قد استوعب كثيرا من الفرق ذات العقائد والآراء المختلفة والمتناقضة، وأن الفرقة الأم وهي «الإمامية الاثنا عشرية» تختلف عن باقي الفرق الأخرى نهجا وسلوكا. وأنها مدرسة متكاملة في الأصول والفروع، تقابل جميع الفرق الأخرى سواء «أهل السنة والجماعة» أو «السلفية». وكذا باقي الفرق الأخرى المحسوبة على «التشيع» ، وإن

---

(١) الذي أفتى بتكفير بعضهم وحمل العامة على التعرض لهم والنيل منهم.

الخلط وعدم التمييز لدى الكتاب المعاصرين - والخصوم منهم على الخصوص - بين هذه الفرقة الأم وغيرها، قد أتاح الفرصة لنشر الكثير من المغالطات والخرافات والانحرافات الدينية، ونسبها لهذه الفرقة - الإمامية الاثني عشرية -. والفصل الأخير الذي عقدناه في هذا البحث بعنوان «السلفية والشيعة الإمامية» يلقي الضوء واضحا على هذه الفرقة من حيث عقائدها وفقهها وتاريخ أئمتها وأتباعهم، ومدى اقترابها أو ابتعادها عن باقي الفرق الإسلامية الأخرى بعامة، وموضعها الحقيقي في تاريخ الإسلام ومدى قرب أو بعد عقائدها عن القرآن وما جمع من سنة رسول الله ﷺ.

***

الفصل الثاني

المذهب الحنبلي
«رحم الحشوية»

« وكان أهل الحق يلقبونهم بألقاب تكشفهم لمن لا يعرفهم: بالمشبهة لتشبيههم الحق تبارك وتعالى بخلقه في وصفه بما هو من خواص الخلق. وبالمجسمة لقولهم في الله تعالى بالاتصاف بما هو من لوازم الجسم لزوما بينا.. وبالحشوية نسبة إلى الحشو بسكون الشين، وهو اللغو الذي لا اعتبار له، فضلا عن أن يكون منسوبا إلى الله وإلى رسوله، أو مذهبا يدان الله تعالى به...».

الشيخ محمد زاهد الكوثري

تمهيد

إن البحث في المذاهب الفقهية والأصولية التي ظهرت في تاريخ الإسلام والمسلمين، يحتاج إلى دراسات تاريخية معمقة وعلمية، بعيدا عن كل تعصب أو انحياز مسبق لجهة ما. على اعتبار أنها الحق، أو أنها الميزان الذي يوزن به غيرها. وإذا كان البحث الموضوعي هو حب الوصول للحقيقة، فلا بد أن يكون بصدق وموضوعية بعيدا عن التأثر بعوامل أخرى، وبذلك يكون الباحث فقد نال شرف خدمة الحق واتباعه..

ولا بد لنا أن نلمس خطورة البحث وأهميته. لهذا يلزمنا أن نتجرد عما يخالف الحقيقة، بل يجب أن نخوضه بروح هادفة، ونية خالصة لمعالجة هذا الموضوع الذي له علاقة مباشرة بواقع المسلمين الحاضر ومستقبلهم. فالحوادث المؤلمة التي توالت على مسرح حياتنا في جميع الأدوار وما أدت إليه من نتائج سيئة في المجتمع الإسلامي، وإن كانت نتيجة عوامل كثيرة متداخلة، إنما يعود إلى التعصب المذهبي. فهو المؤثر الأكبر والعامل القوي في تفرق المسلمين شيعا وأحزابا، وقد انقسموا على أنفسهم انقساما شائنا. فكل يتهم الآخر بالانحراف عن الدين، وكل طائفة اعتزلت الأخرى[1].

والحقيقة التي يجمع عليها جل المؤرخين، والمحققين منهم بالخصوص، هي أن ظهور هذه المذاهب لم يكن بمعزل عن الصراعات السياسية، وقيام الأسر الحاكمة، وانهيار الأنظمة السياسية التي تعاقبت على الحكم طوال التاريخ الإسلامي. كما أن أول قضية اختلف حولها المسلمون الأوائل من الصحابة كانت مسألة الخلافة أو

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، م ٣ ص ١١.

الإمارة. وإذا كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها كما أعلن الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب»، فإن خلافة عثمان قد جلبت الفتن للمجتمع الإسلامي. فانتثر عقد الوحدة الإسلامية الذي لم يستطع الإمام علي بن أبي طالب أن يعيده إلى ما كان عليه، فاستشهد عليه السلام وقلبه تملأه الحسرة والألم. ومع موته تولى زمن ما سمي بـ«الخلافة الراشدة» إلى غير رجعة. ونط القردة على منبر رسول الله ﷺ، وامتلكوا مقدرات الأمة الفتية بعدما سالت أنهار من الدماء. وراحوا يوجهون الأمة الإسلامية عكس ما أراد لها الرسول وأصحابه الذين تحملوا في سبيل الدين الجديد المحن والشدائد العظيمة.

ولقد صدق ذلك الصحابي أو التابعي عندما قال: - في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، والي الأمويين على العراق - وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا...﴾. قال: كان ذلك على زمن رسول الله، أما الآن فإنهم يخرجون منه أفواجا.

لقد بدأ عصر الانحراف الكبير مع وصول الأمويين إلى سدة الحكم. وإذا كان بعض المتدينين والعلماء قد شكك في شرعية حكمهم - أي الأمويين - فإنهم قد حاولوا تجاوز هذا التشكيك بتحريف وتزوير كل النصوص والأحاديث التي تقدح في حكمهم، أو تنفي الشرعية عنهم. وبذلك أخفيت نصوص وأحاديث تؤيد هذا الاتجاه. وأعلن الأمويون البراءة ممن يحدث بها، وأن دمه وماله حلال إن هو تكلم بها أو رواها.

في المقابل تقدم عدد من الأعراب وأعطوا المال الجزيل للرواية عن الرسول ووضع الأحاديث على لسانه، دعما لرغبات ملوك بني أمية وأهوائهم. وشارك في ذلك عدد ممن عرفوا بصحبتهم للرسول، حيث باعوا دينهم بأبخس الأثمان. فانتشرت حركة الوضع، وكثر الرواة الكذبة، ودخل الحديث النبوي سوق المزايدة، فهذا حديث يروى بألف درهم، وآخر يروى مقابل مائة ألف درهم. لذلك فقد

ذهب المحققون من علماء الحديث إلى أن أغلب ما روي في فضائل الصحابة وخصوصا الخلفاء الثلاثة وبني أمية، إنما صنع واختلق في تلك الحقبة. وأن أغلبه له يصح ولا يثبت أمام الجرح والتعديل، لأن مضامينه مختلفة ومتناقضة. كما أن صبغة المبالغة والتطرف في الخيال بارزة في عدد كبير من هذه الأحاديث والروايات.

لكن - ومع كامل الأسف والحسرة - فإن حركة الوضع لم تقتصر على القضايا السياسية وما يرتبط بها، بل ستتعداها لتشمل جل القضايا الدينية، الفرعية منها والأصولية. وكثرت بذلك الروايات المختلفة والمتناقضة عن الرسول في المسألة الواحدة. فبعضهم يروي بأنهﷺ مسح على رجليه عند الوضوء، والآخر يختلف معه ويأتي برواية تفيد بأن الرسولﷺ قد غسل رجليه. والبعض الآخر يقول كان الرسول يصلي واضعا يده اليمنى على اليسرى، وغيره ينفي ذلك ويقول إنما شوهد عليه الصلاة والسلام مسبلا يديه في الصلاة.

اجتمع الأوزاعي بأبي حنيفة بمكة فقال الأوزاعي ما بالكم ترفعون أيديكم عند الركوع والرفع منه؟ فقال أبو حنيفة لم يصح عن رسول الله في ذلك شئ. فقال الأوزاعي كيف وقد حدثني الزهري عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع وعند الرفع منه، فقال أبو حنيفة حدثنا حماد عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة ولا يعود لشئ من ذلك فقال الأوزاعي: أحدثك عن الزهري عن سالم عن أبيه وتقول حدثني حماد عن إبراهيم؟ فقال له أبو حنيفة: كان حماد أفقه من الزهري وكان إبراهيم أفقه من سالم وعلقمة ليس بدون ابن عمر إن كان لابن عمر صحبة أو له فضل صحبة، فالأسود له فضل كثير وعبد الله هو عبد الله، فسكت الأوزاعي[1].

---

(١) محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ج ١ ص ٣٢١

وغير ذلك من الاختلافات التي تبدأ من تفاصيل الوضوء الجزئية وتنتهي إلى أعقد المسائل العقائدية الخاصة بصفات الله ومشكلات القدر وخلق العالم وغيرها من القضايا المهمة. فليس هناك مسألة إلا وفيها عشرات الأحاديث المتضاربة والمتناقضة. طبعا قد يعزو البعض هذه النتيجة إلى اجتهاد الخليفة الثاني «عمر بن الخطاب» الذي نهى عن كتابة وتدوين الحديث على عهده.

وإن كان ذلك صحيحا إلى حد ما، فإن الأمويين سيستغلون النتائج السلبية لهذا الاجتهاد أفضع استغلال. وبذلك تكون لبنات التحريف في الإسلام قد وضعت، وقام بنيانها في هذا العهد بالذات. ومع أن جملة من العلماء وخيار المسلمين ومن أخذتهم الغيرة على دين التوحيد الجديد، قاموا في وجه هذا التيار ونددوا به وحاولوا إيقافه، إلا أن الخرق قد اتسع على الراقع. فحركة الوضع أصبحت ظاهرة خطيرة لا يمكن التحكم فيها أو مواجهتها، خصوصا وهؤلاء الرواة يلقون الدعم المالي والمعنوي من السلطة الحاكمة. لذلك كانت النتائج وخيمة جدا على الإسلام والمسلمين. فعندما سيلقى القبض بعد ذلك على ابن أبي العوجاء الراوي الكبير وأحد الوضاعين المشهورين، سيعترف قبل قتله بأنه وضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها الحلال ويحلل فيها الحرام.

وانظر ما يقوله ابن لهيعة: قالت سمعت شيخا من الخوارج تاب فجعل يقول إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا[١].

وهكذا كان الحال عند أغلب الفرق. حتى قال بعض المتصوفة والزهاد لما عيب عليهم نسبهم بعض الأحاديث في الرقائق إلى الرسولﷺ فكان ردهم نحن نكذب له لا عليه، وإنما نأتي بهذه الأحاديث ترغيبا للعامة في الزهد والتدين ليس إلا.

(١) الفكر السامي، ص ٣٠٧.

لقد أثمرت جهود بعض العلماء والفقهاء بعد انطلاق حركة تدوين الحديث في إيجاد مناهج ووسائل شبه علمية لكشف صحيح الحديث من سقيمه، وبيان مراتبه من الضعف والصحة. لكن نتائج هذه المناهج قد بولغ في إيجابياتها كثيرا، لأنها لم تستطع أن تكشف كل ما وضع عن الرسولﷺ ولم يقله. وبقيت أغلب المسانيد وكتب الحديث تحتوي على الضعيف والموضوع. وإن قال أصحابها أنهم لم يجمعوا في بعضها إلا ما صح لديهم. إلا أن هذه المشكلة ستظل قائمة. وقد خبر علماء هذا الميدان حجم المشاكل التي تعترضهم في هذا التحقيق.

فقد يستطيع المحدث والعالم بالجرح والتعديل أن يثبت صحة الحديث من عدمه، وذلك عندما يقطع بصحة سنده، وأن الحديث لا شك مروي عن الرسول، سمعه منه الثقات وحمله الثقات إلى أن وصل إلينا لكن الفقيه أو المفكر، وخصوصا المختص في العقائد قد لا يأخذ بمتن ومحتوى هذا الحديث. بل يضرب به عرض الحائط ويجزم بأنه مكذوب على الرسول لا محالة، لأن مضمونه مخالف لأبسط المبادئ العقلية الثابتة، أو مخالف لنواميس الطبيعة بشكل واضح وصريح. ولو كان من عند الرسول فهو من عند الله طبعا.

وما يقوله الله سبحانه وتعالى لا يخالف بالضرورة نواميس الطبيعة وما اتفق العقلاء على أنه حق. مثلا أحاديث التجسيم والتشبيه الصريح فقد يدعي بعض المحدثين صحة سندها. لكن مضمونها يخالف آية محكمة من كتاب الله تعالى. وعليه يحكم على الحديث بالوضع، لأن لا اختلاف في الوحي فالقرآن وحي والسنة وحي وكل من عند الله سبحانه وتعالى. إن هذا المبحث عميق ومشكل وقد ألفت فيه المؤلفات الكثيرة، وتناوله العلماء بالأخذ والرد. ولسنا الآن بصدد مناقشة تفاصيله، وإنما عرجنا عليه لإعطاء فكرة بسيطة عما خلفته حركة الوضع والكذب على الرسولﷺ، والتي انطلقت مبكرة وعرفت أوج ازدهارها في العصر الأموي بالذات. وإنما ذكرنا ذلك لأن هذه الحركة التحريفية الكبرى ستكون بمثابة الخلفية الأولى

لظهور المذاهب الفقهية والأصولية، والمبرر الأهم لاختلاف هذه المذاهب في الأصول والفروع.

وإذا كانت للسلطة اليد الطولى في خلق مادة الاختلاف وجعله واقعاً وضرورة لا محيد عنها، فإن هذه السلطة سيكون لها دور آخر أشد خطورة من الأول. إنه التشجيع على صنع المذاهب والمدارس ودعم دعاتها والقائمين عليها ودعوة الجماهير المسلمة العامة إلى الانخراط فيها والالتفاف حول أصحابها، شريطة أن تحافظ السلطة على خيوط قوية ومتينة تربطها برؤساء هذه المذاهب أو المدارس الأصولية والفقهية.

وإذا قال قائل لماذا تتحمل السلطة كل هذا العناء، فإن التاريخ الإسلامي سيجيبه بأن جل الحكومات التي تعاقبت على الخلافة الإسلامية لم تكن تمتلك الشرعية الكافية. فلم يكن الأمويون ولا العباسيون يمتلكون الشرعية الدينية. وكانت المعارضة لهما في الغالب دينية أصيلة، ممثلة في بعض الفرق والعلماء وكذلك أئمة أهل البيت الذين عاشوا بين ظهراني الحكومتين، ولم يستطع ملوك بني أمية أو بني العباس أن يزحزحوهم عن مطالبتهم بحقهم قيد أنملة رغم القتل والتهجير.

ومعارضة أخرى مزيفة ومسلحة ينشد أصحابها الملك حينا، والعدالة الاجتماعية حينا آخر. وكلا من المعارضتين يحمل إلى جانب السيف سلاح الدين ونصوصه المقدسة، سواء ما صح منها أو ما وضع لهذا الغرض بالذات.

لذلك كانت الحرب التي خاضها الأمويون والعباسيون حربا ذات شقين أو واجهتين: الحرب العسكرية التي تلتقي فيها الجيوش وتنتهي بمنتصر ومنهزم.

والحرب كانت سجالا بين جميع الأطراف. وحرب أخرى لا تقل خطورة عن الأولى وهي الحرب الايديولوجية أو النظرية. فمن أثبت بالنص المنقول عن النبيﷺ أن «اقتلوا معاوية إذا رأيتموه على منبري» سيعتبر محاربة معاوية جهادا في سبيل الله وطاعة لرسولهﷺ.

ومن وجد أن معاوية هو أمير المؤمنين ومن أهل بيت النبي وطاعته واجبة، كما كان يعتقد أهل الشام، فإنه سيدافع عن حكم معاوية بدمه ويستشهد بين يديه، لأنه إنما ينتصر للحق ويدافع عنه. وقد شهد عدد من كبراء أهل الشام عندما انتصر العباسيون على الأمويين، أنهم لم يكونوا - وأقسموا على ذلك - يعلمون للنبي من ابن عم أو أهل سوى معاوية وأهل بيته؟!.

إن الصراع على عقول الأغلبية، أو محاولة تجييش الجماهير لدعم السلطات القائمة كان من أكبر الهموم والمهمات التي أولتها الحكومات العربية الأهمية الكبرى. كما اجتهدت المعارضة في كسب الناس إليها بدعوى كونها على حق، وأن خصومها على الباطل. وإذا انتخبت المعارضة قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1]. وأن لا بد من إعلان الجهاد في وجه الكافر. فإن السلطة القائمة قد اختارت من القرآن قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[2].

أما الاستشهاد بالحديث النبوي فحدث ولا حرج. وهذا الأسلوب في الصراع التاريخي بين الحكومة والمعارضة الدينية بالخصوص، سيبقى هو هو، لم ولن يتغير في عالمنا الإسلامي المعاصر، ونحن نشرف على نهاية القرن العشرين.

لذلك لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن الحكومات الإسلامية قد اصطنعت لها مذاهب فقهية وأصولية، كما أن المعارضة أنتجت لها مذاهب فقهية وأصولية كذلك. فللحكومة مذهبها الإسلامي الذي يدعمها ويؤمن لها الشرعية في الماضي والحاضر، وللمعارضة كذلك عقائدها التي تنطلق منها وتبرر تصرفها.

وقد ظهر أخيرا اختلال عجيب ومثير للجدل، عندما ظهرت معارضة سياسية خلفيتها الفقهية والأصولية المذاهب نفسها التي كانت تدعم السلطة فيما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

مضى، وبينهما علاقة أبوة وبنوة شرعية لا يشك أحد من المطلعين في ذلك. والسبب في ذلك، دخول عناصر جديدة في الصراع لم تكن شاخصة للعيان فيما مضى.

السياسة وانتشار المذاهب الفقهية:

نرجع لنقول ولنؤكد حقيقة تاريخية وهي أن المذاهب الفقهية المحصورة اليوم عند أهل السنة والجماعة في مذاهب أربعة، قد نمت وترعرعت في ظل السلطة وتغذت بطعامها وشربت من مائها حد الارتواء. وسبب انتشارها وفرضها على الجماهير المسلمة إنما يرجع إلى تولي دعاتها والمؤمنين باجتهاد أصحابها لمناصب حكومية كان أهمها منصب القضاء. يقول الباحث أسد حيدر: «لقد اتضح لنا أن للحكومات دخلا في نصرة المذاهب وانتشارها. فإذا كانت الحكومة قوية وأيدت مذهبا من المذاهب تبعه الناس بالتقليد، وظل سائدا إلى أن تزول الدولة. وانتشار المذاهب وعظيم الإقبال عليها لا يدل على قوتها الروحية وعواملها الذاتية. فقد رأينا أن قوة الدعاة وتدخل السلطة أقوى العوامل لنشر المذاهب، يقول شاة ولي الدهلوي: «وأي مذهب كان أصحابه مشهورين، وأسند إليهم القضاء والإفتاء واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درسا ظاهرا، انتشر في أقطار الأرض، ولم يزل ينتشر كل حين. وأي مذهب كان أصحابه خاملين. ولم يولوا القضاء والإفتاء ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين»[١].

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف في القوة والانتشار. فقد رأينا أن المذهب الحنفي هو أكثر المذاهب انتشارا وأعظمها إقبالا، لقوة أنصاره وكثرة دعاته في البداية والنهاية. إذ كانت نواة شهرته من غرس أبي يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية. فهو ناشر المذهب أو مؤسسه - إن صح لنا أن نقول ذلك - وقد كان أبو

---

(١) أسد حيدر، م س، ج ١، ص ١٦٧، نقلا عن: حجة الله البالغة، الدهلوي، ج ١ ص ١٥١.

يوسف وجيها في الدولة، مقبولا عند الخلفاء له منزلة لا يشاركه فيها أي أحد. فكان لا يولي قاضيا إلا من انتسب لمدرسة أبي حنيفة. واستمر القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار، مستمدين قوتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصبح مذهب أبي حنيفة هـو المذهب الرسمي للدولة...

وقد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن أنس - بعد غضبهم عليه - فقد أمروا بقصر الفتوى عليه، وأعلن ذلك بأمر الدولة، ونودي - غير مرة علنا - ألا يفتي الناس إلا مالك[١]. وأمروا عمالهم باستشارته في الأمر وعدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالك: إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة، أو أحد عمال الحجاز، في ذاتك، أو ذات غيرك، أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إلي بذلك. أنزل بهم ما يستحقون، وقد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك ويطيعوك في كل ما تعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك. أنت خليق أن تطاع ويسمع منك[٢]... وعلى أي حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقربته، إذ وجدت منه عونا ومؤازرة[٣]، فقربوه وأحسنوا إليه، ورفعوا مجلسه، ونشروا علمه وأجزلوا له العطاء، وأصاب منهم ثروة طائلة ومع هـذا فهم مدينون لمالك في مؤازرتهم ومعاونتهم والركون إليهم[٤].

أما مذهب الشافعي فيكفينا قول السبكي وهو من فقهاء الشافعية، في طبقاته عن مصر والشام: «هـذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هـذه البلاد، لا يكون القضاء والخطابة في

---

(١) المرجع السابق، ج ٣ ص ١١، نقلا عن تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣٠٦.

(٢) نفسه، ج ٣ ص ١١، نقلا عن مالك بن أنس، للخولي، ص ٣١٨.

(٣) أنظر فتاوي مالك في أهل الأهواء والبدع، فكلهم في نظره كفار وأشدهم الروافض.

وهؤلاء: أصحاب الأهواء والبدع، والروافض كانوا في أغلبهم حركات سياسية ودينية مناهضة للحكم العباسي. مطالبة بالحكم نفسه (الروافض)، أو داعية إلى العدالة الاجتماعية والثورة على الإجحاف الاقتصادي والحرمان المادي.

(٤) أسد حيدر، م س، ج ٣، ص ١٢.

غيرهم. أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي. ويقول: «كان (محمد بن عثمان) رجلا رئيسا، يقال إنه هـو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق، وإنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار»[١]. كما نجد أن مذهب الشافعي ارتبط بكثير من المدارس الحكومية التي بنيت لتدريسه وأشهرها نظامية بغداد، وقد تخرج منها كبار فقهاء وعلماء الشافعية.

أما المذهب الحنبلي، وهو موضوع هـذه الدراسة فإنه كان الأقل انتشارا بين المذاهب الفقهية لعوامل كثيرة سنعرض لها لاحقا. يمكن تلخيصها في خشونة أصحابه وإفراطهم في إشعال الفتن المذهبية، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كما يرون ويعتقدون. كما أن المذهب الحنبلي جاء متأخرا في تكوينه وتكامله، كما لم يعترف كثير من العلماء بكون أحمد بن حنبل فقيها، وإنما عرف لديهم كمحدث فقط. لذلك لم يتقدم أصحابه للقضاء ولم تعرض الحكومات عليهم هـذا المنصب إلا في سنين متأخرة. كانت المذاهب الفقهية الأخرى قد انتشرت واستحوذ تقليدها على أغلب فئات العامة.

يقول ابن خلدون: أما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض. وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية للحديث وميلا بالاستنباط إليه عن القياس ما أمكن[٢].

لذلك كان قليل الأتباع وكاد أن يندرس لولا أن تداركه ابن تيمية في القرن السابع. ومع محمد بن عبد الوهاب النجدي سيعرف هـذا المذهب عصره الذهبي الآن، لكن ليس بعنوان المذهب الحنبلي وإنما تحت عنوان آخر هـو «السلفية»

---

(١) المرجع نفسه، ج ٣ ص ٢٥٣.

(٢) تاريخ العلامة بن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣ م، ج ٣، ص ٨٠٣.

حيث خصصت السلطات الحاكمة في نجد أموالا طائلة لنشر هـذا المذهب وإحياء كتبه والدعوة إليه.

ومهما يكن فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تخطو خطوات في ساحة الرقي وتكتسب قيمتها المعنوية، لأنها كانت موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين. بالرغم مما رافقها من خلافات ومنافرات، فعناية السلطة تكسب الشئ لونا من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي.

فعوامل الترغيب ووسيلة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئا فشيئا، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مزاحمة غيرها[١].

إن السلطات الحاكمة على طول التاريخ الإسلامي لم تكتف بصناعة المذاهب ودعمها وتقويتها وفرض إتباعها على الجماهير المسلمة، ولكن حددت هـذه المذاهب وحصرتها في أربعة ومنعت العامة من تقليد غيرها، وحذرت الخاصة من تجاوزها أو إنشاء مذاهب أخرى جديدة. أي منعت الاجتهاد وأغلقت بابه وجعلته حكرا على من مضى من «السلف» وفرضت على «الخلف» التقليد والامتثال، وحفظ مسائل وأجوبة هـؤلاء الأئمة من السلف.

قال شهاب الدين الزنجاني الشافعي وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني الحنفي: إن المشايخ كانوا رجالا، ونحن رجال. فأوصل الوزير ما أجابوا به إلى المستعصم، وكان قد تولى الملك بعد أبيه المستنصر فأحضرهم أمامه، وطلب منهم جميعا أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم، فأجابوه جميعا بالسمع والطاعة، ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما...

وقال المقريزي: فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولى بمصر أربعة قضاة وهم: شافعي، ومالكي، وحنفي، وحنبلي، فاستمر ذلك من (سنة ٦٦٥هـ)

---

(١) أسد حيدر، ج ١ ص ١٧١.

حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هـذه الأربعة. عملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، وعودي من تمذهب بغيرها. وأنكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لأحد هـذه المذاهب، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هـذه المدة بوجوب اتباع هـذه المذاهب وتحريم ما عداها[١]...

وهكذا أخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هـذه المدارس. ويسمعون في خلال دراستهم طعونا على أي مذهب آخر فيمتلئون حقدا على من لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هـذه المذاهب الأربعة[٢].

أحمد بن حنبل وعصره:

عرف النصف الثاني من القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث أحداثا كثيرة ومتعاقبة، وهذه الفترة هـي التي ولد فيها الإمام أحمد بن حنبل وتوفي فيها، حيث تبدأ بعصر خلافة المهدي وتنتهي عند المتوكل العباسي.

---

(١) يقول الدكتور عبد الدائم البقري الأنصاري: «منع الاجتهاد هو سر تأخر المسلمين. وهذا هو الباب المرن الذي عندما قفل تأخر المسلمون بقدر ما تقدم العالم. فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغير أو يبدل لأنه لاعتبارات سياسية منع الولاة والسلاطين الاجتهاد حتى يحفظوا ملكهم، ويطمئنوا إلى أنهم لن يعارضهم معارض، وإذا عارضهم أحد لأنه لا تخلو أمة من الأمم إلا وفيها المعلم النزيه والزعيم الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، فلن يسمع قوله لأن باب الاجتهاد قد أغلق. بهذا جمد التشريع الإسلامي الآن، وما التشريع إلا روح الجماعة وحياة الأمة». أنظر الفلسفة السياسية للإسلام، ص ٣١.

ويقول أسد حيدر: هذه بعض الشواهد على عدم شرعية غلق باب الاجتهاد الذي حدث في ظروف خاصة ولمآرب سياسية، ولم تخضع الشيعة لحكم تلك الظروف، بل ساروا على طريق أهل البيت وأخذوا أحكام الإسلام عنهم وبقي الاجتهاد مفتوحا عندهم.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١ – ١٧٣.

وما يميز هـذه الفترة أنها كانت فترة ازدهار واستقرار للسلطة العباسية، وتبعها انتشار واسع للعلوم، حيث نشطت حركة التأليف والترجمة نشاطا متميزا.

وكثرت المناظرات في الأصول والفروع وصنفت في هـذه الفترة أمهات المصادر في العلوم الدينية والطبيعية.

وقد واكب هـذا الاستقرار السياسي - خصوصا بعد ما استقر الحكم للمأمون بعد انتصاره على أخيه الأمين - ازدهار في العمران، وامتدت الحضارة وتنعم أرباب المناصب والمقربون للسلطان بمباهج الحياة. ونعموا بخيرات البلاد وكانت لهم الثروات الطائلة. وعمرت مجالس العلم والأدب، وأمست دور الكبراء مدارس يغشاها أرباب الفكر وحملة الآثار والأشعار وقادة الفكر، وأمراء البلاغة والبيان، كما وقد تفنن أرباب النعيم وذوي الثراء في اتخاذ مجالس اللهو، - وتباروا في اقتناء المغنيات، وتنافسوا في شرائها بأغلى الأثمان - كما كانت بيوت الخلفاء مجالس للغناء والشراب، يتبارى فيها المغنون في إطراب الخلفاء وفي اتحافهم بكل صوت.

وقد احتفظت كتب الأدب بكثير من أخبارهم، فهم يتذوقون الغناء ويطربون عليه، ويجيزون المغنين ويصلونهم بأسنى الصلات. وكان معظمهم - أي الخلفاء - يحسن الغناء ويعرف أصوله. ويصنع أصواتا يغنيها هـو أو يليقها على جواريه أو على المغنين، كما كان هـارون والواثق أكثر ما كان في حاشيتهما من المغنين[١]. وإذا كانت قصور الخلفاء وبيوتات ذوي الحضوة تنعم في الترف والتنعم بملذات الدنيا، فإن ذلك كان يتم على حساب ملايين المحرومين والضعفاء ممن كان يرزح تحت ظلم الولاة والجباة الذين جعلوا من تلفيق التهم السياسية وسيلة لقتل الناس وأخذ أموالهم[٢].

---

(١) أسد حيدر، م س، ج ٢ ص ٤٨٥.

(٢) ما زالت هذه الوسيلة يعمل بها في بعض الدول العربية وخصوصا في العراق، حيث يعدم بعض التجار وتستحوذ الدولة على ممتلكاتهم بمبررات سياسية واهية.

إلا أن ما ميز عصر أحمد بن حنبل هـو ظهور فتن الشعوبية أو العنصرية، فإذا كان الفرس قد تغلبوا على العرب واستحوذوا على أغلب المناصب المهمة في الدولة بعد انتصار العباسيين، فإن عنصرا آخر سيدخل حلبة المنافسة ممثلا في العنصر التركي الذي استقدمه المعتصم[(١)]. فقد سلمهم مقاليد الجيش فنما عددهم وقويت شوكتهم، فاشتدت محنة أهل بغداد وضايقوا أهلها. يقول المسعودي: «كانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير، فعزم المعتصم على النقلة معهم... فلم يزل يتخير الأماكن من دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع»[(٢)].

لقد كره أهل بغداد مجيئهم إذ كانوا شؤما عليهم في حلهم وترحالهم، فلما أقاموا بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى، ولما رحلوا عنهم إلى القاطول ثم سامراء أثر ذلك أثرا سيئا في بغداد من حيث تجارتها وحضارتها... وأخذ المحدثون يضعون الأحاديث في ذم الترك تعبيرا عن شعورهم وشعور الناس، فرووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الترك أول من يسلب أمتي ما خولوا» وعن ابن عباس أنه قال: «ليكونن الملك - أو الخلافة - في ولدي حتى يغلب على عزهم الحمر الوجوه، الذين كأن وجوههم المجان المطرقة»... وكان مما فعله المعتصم متمما لاعتماده على الأتراك أن كتب إلى واليه على مصر كيدر، واسمه نصر بن عبد الله، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب، وقطع أعطياتهم[(٣)].

وهذا الصراع القومي العنصري الذي عرفته الساحة الإسلامية في عصر أحمد سيكون له تأثيره الكبير على القضايا العلمية. كما أن شعور العرب بشكل عام بتراجع

---

(١) يقال أن سبب استقدام المعتصم للأتراك هو أن أمه كانت من تلك الأصقاع التركية، فقد كانت من السغد واسمها ماردة، وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٣ م، ج ٤ ص ٥٣.

(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٩٦٩ م، ج ١، ص ٧ - ٨.

دورهم السياسي والاجتماعي والعسكري سيدفع البعض للقيام بحركة مناهضة، خصوصا على مستوى الفكر. حيث نشرت أحاديث متعددة في مدح العرب ونسبت إلى الرسولﷺ منها، قولهﷺ: «أحب العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان الجنة عربي». وغيرها من الأحاديث التي تمجد العرب وترفع من شأنهم. وقد اعتبرت عروبة أحمد بن حنبل فيما بعد منقبة نشرها أصحابه واعتزوا بها، بل جعلها بعضهم إحدى المرجحات الأساسية لاتباع مذهبه.

ومن الأحداث المهمة الأخرى التي عايشها أحمد بن حنبل، بل وارتبط اسمه بهاهـذه المرة أكثر من غيرها. قضية أو فتنة «خلق القرآن» التي استطاع المعتزلة أن يقنعوا بها المأمون، فتبناها وحاول فرضها على الفقهاء والعلماء، خصوصا من كان منهم ضمن السلك القضائي أو في مدارس الدولة أو تحت إشرافها. ومسألة القول بخلق القرآن ليست وليدة عصر المأمون، فقد أعلنها أول مرة كما تقول كتب علم الكلام، الجعد بن درهم وقتل بسببها على يد خالد بن عبد الله القسري والي العراق في عهد الأمويين. وبقيت هـذه الفكرة بعد مبتدعها في طي الكتمان حتى ازدهر الفكر الاعتزالي ونشطت حركته في العهد العباسي.

والمعتزلة وإن كانوا يؤمنون بخلق القرآن ويعتقدون ذلك، فإن عدم مؤازرة خلفاء بني العباس قبل المأمون لهم كانت حاجزا يمنعهم من نشرها. كانت مسألة صفة كلام الله وارتباطها بخلق القرآن من أهم المسائل التي فجرها المعتزلة وعضدهم الخليفة المأمون، فدعوا الفقهاء وعلماء أهل الحديث إلى اعتناقها، فكانت المحنة التي أودت بحياة بعض الفقهاء والمحدثين. وتعرض البعض الآخر منهم للضرب والتنكيل والسجن، كان من بينهم أحمد بن حنبل الذي سيكشف زوال هـذه المحنة زمن المتوكل على شهرته وزعامته لطائفة أهل الحديث.

وهناك قضايا أخرى أثارها المأمون وتبعه فيها من جاء بعده لكنها لم تشتهر عنه كما اشتهرت مسألة خلق القرآن. من هـذه القضايا انتصاره للعلويين بعدما

نكل بهم آباؤه وأجداده. فكان يحن عليهم ويصلهم بالعطايا، وسبب ذلك يرجع لحبه الإمام علي بن أبي طالب. فقد كان يحبه ويفضله على جميع الصحابة، وقد أمر مناديه أن ينادي بأن أفضل الخلق بعد رسول ﷺ علي بن أبي طالب. وأن لا يذكر معاوية بخير[1]. بل إن حبه للعلويين سيدفعه إلى محاولة إرجاع الخلافة لهم. فقد أخذ البيعة للإمام الرضا ثامن أئمة الشيعة الإمامية من بعده، رغم رفض الإمام الرضا عليه السلام لها. ومهما تكن الأسباب والدوافع الحقيقة لهذا الفعل، لكن أثره سيكون عميقا فيما بعد لأنه سيعضد فكرة اغتصاب الخلافة ودعوى الإمامية بأحقيتهم في الولاية والإمامة بعد رسول الله ﷺ. وفي (سنة ٢١٠هـ) أمر المأمون برد فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام وكتب بذلك إلى قثم بن جعفر عامله على المدينة كتاباً يقول فيه:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين بمكانته من دين الله وخلافة رسول الله، والقرابة به أولى من استن ونفذ أمره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة، منحته وصدقته بالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته وإليه في العمل بما يقربه إليه رغبته، وكان رسول الله ﷺ أعطى فاطمة بنت رسول الله فدكا وتصدق بها عليها، وكان ذلك أمرا ظاهرا معروفا لا اختلاف فيه بين آل رسول الله ﷺ ولم تدعي منه ما هو أولى به من صدق عليه، فرأي أمير المؤمنين أن يردها إلى ورثتها، ويسلمها إليهم تقربا إلى الله بإقامة حقه وعدله، وإلى رسول الله بتنفيذ أمره وصدقته، فأمر بإثبات ذلك في دواوينه والكتاب به إلى عماله، فلئن كان ينادي في كل موسم بعد أن قبض الله نبيه أن يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة فيقبل قوله وتنفذ عدته. إن فاطمة لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها، وقد كتب أمير

(١) أسد حيدر، ج ٣ ص ٤٩٠. وفي سنة ٣١٣هـ نادى منادي المأمون برأت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.. وأمر بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة منه فأشير عليه بترك ذلك فأعرض عما كان هم به. أنظر مروج الذهب، ج ٤.

المؤمنين (أي المأمون) إلى المبارك الطبري مولاه، برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها من الرقيق والغلاة...»[١].

وهذا الفعل من المأمون إنما هو طعن مباشر في ما رواه أبو بكر الصديق الخليفة الأول وصدقه عمر بن الخطاب عندما روى عن الرسول ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة» فأخذا من فاطمة فدكا فخاصمتهما وماتت وهي غضبانة عليهما وأوصت بأن لا يحضرا جنازتها، فعمل الإمام علي بوصيتها ودفنها ليلا.

.إن الانتصار لأبناء علي واحترامهم من طرف المأمون والمعتصم والواثق سيغير من نظرة المجتمع نحوهم وهذا سيظهر جليا عندما سيعلن الإمام أحمد بن حنبل التربيع بعلي، أي كونه الخليفة الرابع، فقد كان جل أهل الحديث قبله عثمانية لا يعترفون بخلافة الإمام علي. وهذه من عقائد الأمويين التي تسربت لأهل الحديث فاعتنقوها ودافعوا عنها حتى نقضها أحمد، يقول وزيرة بن محمد الحمصي: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع بعلي رضي الله عنه فقلت: يا أبا عبد الله إن هذه اللفظة توجب الطعن على طلحة والزبير فقال: بئس ما قلت وما نحن وحرب القوم وذكرها؟

فقلت أصلحك الله إنما ذكرناها حين ربعت بعلي وأوجبت له الخلافة وما يجب للأئمة قبله. فقال لي: وما يمنعنا من ذلك؟ قال: قلت: حديث ابن عمر: فقال لي: عمر خير من ابنه قد رضي عليا للخلافة على المسلمين وأدخله في الشورى.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٦، بتوسط أسد حيدر. وقد سبقه في ذلك الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، فقد رد فدك إلى أبناء فاطمة، وهذا العمل والفعل من الخليفتين إنما هو رد على أبي بكر وعمر ورفض لقولهما بورود حديث نبوي جاء به أبو بكر من أن الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقة. ولا شك أن فعلهما طعن مباشر في صدق هذه الرواية التي انفرد بها الخليفة الأول، وهذا يؤكد ويعضد دعوى الإمام علي وفاطمة والشيعة الإمامية كافة في حق فاطمة وأخذ الخليفتين فدكا منها ظلما وعدوانا أو اجتهادا خاطئا كما يرى البعض ذلك.

وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سمى نفسه أمير المؤمنين فأقول أنا ليس بأمير المؤمنين؟ فانصرفت عنه[١].

وهذا الحوار الذي دار بين أحمد وبين أحد أصحابه من أهل الحديث، يظهر لنا مدى الانحراف الذي أصاب الإسلام، حتى يعترف رجال الحديث بخلافة ابن الطليق معاوية بن أبي سفيان الذي يشك أهل التحقيق في إيمانه.

وقد أمر المأمون بلعنه لما وصل عنه من أخبار تنم عن كفره. لكنه الحشو وعقائده التي جعلت من الكافر مؤمنا ومن المؤمن فاسقا، لذلك نعتقد أن حركة المأمون هـذه لرد الاعتبار للعلويين ولأئمتهم ولفاطمة الزهراء عليها السلام قد جعلت بعضا من رجال الحديث يعيدون النظر في معتقداتهم وما يروونه في مدح خصوم أهل البيت وتقديمهم. وقد قام أحمد بن حنبل بنصرة القول بخلافة الإمام علي وصحتها. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال: من لم يربع بعلي بن أبي طالب في الخلافة فلا تكلموه ولا تناكحوه[٢].

وإذا كان أحمد قد اشتهر أمره بعد ذلك وعلت مكانته، حتى إن من أنكر عليه أحمد نبذه الناس، ومن مدحه أقبل عليه الناس وعظموه، فإن قوله بالتربيع واعتقاده به جعل بقية المحدثين يهابون معارضته في ذلك. فقل القول بخلاف ذلك، وتراجع مع الزمن حتى ساد القول بالتربيع لدى أغلب المحدثين بعد ذلك، وإلى يومناهـذا.

وإذا كان المأمون قد أعاد الاعتبار للعلويين وقربهم ورفع بعض الظلم عنهم فإن المتوكل، قد عرف ببغضه لأهل البيت ومطاردته لمحبيهم، وقتل زعمائهم.

وكان لا تأخذه في ذلك رحمة، ولا يمنعه خوف من الله. فمن يتهم بميله للعلويين فإن مصيره القتل أو السجن المؤبد. حتى ظهر النصب في عصره وانتشر

---

(١) ابن أبي يعلى الفراء، طبقات الحنابلة، المكتبة العربية. دمشق ط ١، ص ٣٥٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

بغض أهل البيت في أيامه، وتقرب الكثير بذم أهل البيت ومحبيهم، طلبا لرفده وطمعا في صلته[١].

وقد سعي بأبي الحسن علي بن محمد - الإمام العاشر عليه السلام - إلى المتوكل، وقيل له: إن في منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته، فوجه إليه ليلا من الأتراك وغيرهم من هجم عليه في منزله على غفلة ممن في داره، فوجده في بيت وحده مغلق عليه وعليه مدرعة من شعر، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملحفة من الصوف متوجها إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد، فأخذ على ما وجد عليه، وحمل إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه والمتوكل يشرب وفي يده كأس، فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جنبه، ولم يكن في منزله شئ مما قيل فيه. ولا حالة يتعلل عليه بها، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني منه، فعافاه. وقال: أنشدني شعرا أستحسنه. فقال: إني لقليل الرواية للأشعار، فقال: لا بد أن تنشدني فأنشده:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل

أين الوجوه التي كانت منعمة ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... فأصبحوا بعد الأكل قد أكلوا

وطالما عمروا دورا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا

(١) أسد حيدر، ج ٢ ص ٤٩٧.

أضـحت منـازلهم قفـرا معطلـة وساكنوها إلى الأجـداث قـد رحلـوا

قال: فأشفق كل من حضر على علي، وظن أن بادرة تبدو منه إليه[١].

في هـذا العصر ولد أحمد بن حنبل وشب واشتغل بالعلم وطلب الحديث. ولما انفجرت فتنة خلق القرآن كان أحد أبطالها الذين صبروا على ما ابتلوا به، ولما انفرجت الأزمة، اشتهر أمره وعقدت له زعامة أهل الحديث. ولما توفي اصطنع له مذهب في الأصول والفروع ودعي العامة إلى تقليده، وانتصر له بعض العلماء ممن سينسبون إلى مذهبه، وسيسمون بـ «الحنابلة». وأضيف مذهبه إلى باقي المذاهب الفقهية التي انتشر تقليدها بين الجماهير المسلمة طيلة قرون خلت وإلى الآن.

***

(١) مروج الذهب، ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤.

أحمد بن حنبل حياته ونبوغه العلمي

مولده ووفاته:

هو الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي، حملت به أمه بمرو وقدمت بغداد وهي حامل به فولدته في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة وكان أبوه محمد والي سرخس، وكان من أبناء الدعوة العباسية[(١)]. توفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه. قال صالح عن أبيه: فثقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إلي فبعتهما بثلاثين درهما.

توفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين وله من العمر سبع وسبعين سنة رحمه الله[(٢)].

ودفن بباب حرب في الجانب الغربي، وصلى عليه محمد بن طاهر. وقبره ظاهر مشهور يزار ويتبرك به[(٣)]. وقد حضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك اليوم والاجتماع في جنازته من سلف قبله. وكان للعامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس والضد في الأمور: منها أن رجلا منهم كان ينادي:

إلعنوا الواقف عند الشبهات، وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك. وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة وينادي بأعلى صوته:

وأظلمت الدنيـــا لفقـــد محمـــد   وأظلمت الدنيـــا لفقد ابن حنبل

---

(١) الشيخ محمد جميل المعروف بابن الشطي، مختصر طبقات الحنابلة، دار الكتاب العربي، بيروت ط١ ١٩٨٦م، ص٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٣٤٠.

(٣) مختصر طبقات الحنابلة، ص ١٤.

يريد بذلك أن الدنيا اظلمت عند وفاة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنها أظلمت عند موت بن حنبل. كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم[١] وقال رجل يكنى بأبي جعفر: دفنا اليوم سادس خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل[٢].

أما الوركاني جار أحمد فقد ادعى أنه: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألف من اليهود والنصارى والمجوس. قال السبكي في طبقاته الكبرى وذكرهـذه الرواية وفي لفظ عشرة آلاف قال شيخنا الذهبي: وهي حكاية منكرة تفرد بها الوركاني والراوي عنه، قال والعقل يحيل أن يقع مثل هـذا الحادث في بغداد ولا يرويه جماعة تتوفر دواعيهم على نقل ماهـو دونه بكثير. وكيف يقع مثلهـذا الأمر ولا يذكره المروذي ولا صالح بن أحمد ولا عبد الله ولا حنبل الذين حكوا من أخبار أبي عبد الله جزئيات كثيرة. قال فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس لكان عظيما ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس[٣].

وكثير من مثل هـذه الأساطير والمبالغات سينسجها العوام حول حياة أحمد بن حنبل وورعه وعلمه ومذهبه، في الأصول والفروع مما لم يعرف مثله باقي الأئمة قبله. وسنعرض لها لاحقا، لأن بعضها سيصبح معتمد الحنابلة ليس فقط في ترجيح المذهب على غيره ولكن في الحكم على من خالف أصول المذهب أو فروعه بالخروج عن الإسلام ككل.

رحلته العلمية وشيوخه:

ذكر المؤرخون أن بداية طلب أحمد للعلوم ترجع إلى سنة ١٧٩هـ وقد كان في حداثته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع

---

(١) مروج الذهب، ج ٤ ص ١٠٢.

(٢) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ص١٩٨. نقلا عن حلية الأولياء.

(٣) طبقات الحنابلة، ص٩، الهامش.

الحديث[١]. يقول عباس الدوري: سمعت أحمد يقول: أول ما طلبت إختلفت إلى أبي يوسف القاضي[٢]. أما أول شيخ تلقى عليه العلم فهو هـشيم بن بشير السلمي[٣]. المتوفى سنة ١٨٣هـ أبو معاوية الواسطي نزل بغداد وكان مدلسا. استغرقت دراسة أحمد على هـشيم ثلاث سنوات أو أكثر. وقد رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق، وممن تلقى عليهم: سفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعيد، ويحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨هـ ووكيع المتوفى سنة ١٩٦هـ وابن علية المتوفى سنة ١٩٣هـ وابن مهدي المتوفى سنة ١٩٨هـ

وعبد الرزاق ابن هـمام المتوفى سنة ٢١١هـ وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨هـ وغيرهم. واجتمع أحمد بالشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله، وبدأت علاقاته به في سنة ١٩٠هـ حين قدم الشافعي بغداد. ودام هـذا الاتصال إلى سنة ١٩٧هـ وهي السنة التي توجه فيها الشافعي إلى مكة[٤].

وإذا كان القاضي أبو يوسف أول شخصية تلقى أحمد على يديها دروسه الأولى، فإن شيخه هـشيم بن بشير هـو الذي تولى الاهتمام به ووجهه نحو السنة وجعله أحد طلابها. ومؤرخو الحنابلة يخلطون في ذكر شيوخ أحمد، ويجعلون بعضهم من تلامذته كالشافعي ويزيد بن هـارون والحسن بن موسى الأشيب وغيرهم. وأغلب هـؤلاء المشايخ كانوا من رجال الحديث. إلا أبو يوسف فهو من أهل الفقه والقياس، وصاحب أبي حنيفة ومؤسس مذهبه وناشره. وقد كان لأحمد

---

(١) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٣٤٠.

(٢) محمد بن إبراهيم اليماني، العواصم والقواصم، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٢، ١٩٩٢ م، ص ٢٣٤.

(٣) كان هشيم بخاري الأصل، وقد أقام أبوه في واسط، وكان طباخا للحجاج بن يوسف، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد كان يصطنع هذه الصناعة. فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مألوفا في أسرته. وقد تلقى هشيم عن بعض التابعين كعمر بن دينار والزهري والمغيرة بن المقسم وغيرهم. وقد اختص به أحمد مدة طويلة قبل أن يتصل بالشافعي.

(٤) أسد حيدر، ج ٤، ص ٤٧٣.

بن حنبل مشايخ وأساتذة آخرون من الشيعة، حيث كانت له صلة ببعضهم فأخذ عنهم رغم أن الجو العام كان مشبعا بالعداء للشيعة أو الروافض كما كان يطلق على بعضهم.

يحدثنا الخطيب البغدادي، أن عبد الرحمان بن صالح الشيعي(١) كان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه أحمد ويدنيه، فقيل له: يا أبا عبد الله عبد الرحمان رافضي؟. فقال سبحان الله! رجل أحب قوما من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله نقول له لا تحبهم: هـو ثقة(٢).

أما العلماء الذين أخذ عنهم أحمد، فقد ذكر علماء الرجال كثيرا من رجال الشيعة كانوا من شيوخ أحـمد، وكذلك ذكرهم ابن الجوزي في مناقب أحـمد منهم.

١ - إسماعيل بن أبان الأزدي أبو إسحاق الكوفي، المتوفى سنة ٢٠٥هـ وهو من شيوخ البخاري وابن معين أيضا.

٢ - إسحاق بن منصور السلوي أبو عبد الرحمن الكوفي، المتوفى سنة ٢٠٥هـ وقد خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٣ - تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي، المتوفى سنة ١٩٠هـ روى له الترمذي في صحيحه وقال أحمد: إن مذهبه التشيع ولم أر به بأسا.

٤ - الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبد الله الأشقر الكوفي، المتوفى سنة ٢٠٨هـ خرج حديثه النسائي.

---

(١) هو عبد الرحمن بن صالح أبو محمد الأزدي، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ كان من أهل العلم.

سكن بغداد وكتب عنه أهلها، قال محمد بن موسى: رأيت يحي بن معين جالسا في دهليز عبد الرحمن غير مرة، يخرج إليه أجزاء يكتب منها عنه. وقال يحي: عبد الرحمن بن صالح ثقة صدوق شيعي، لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف.

(٢) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٢٦٠.

٥ - خالد بن مخلد القطواني أبو الهيثم، المتوفى سنة ٢١٣هـ كان من كبار شيوخ البخاري وخرج حديثه في صحيحه، ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.

٦ - سعيد بن هيثم بن رشد الهلالي أبو معمر الكوفي، المتوفى سنة ١٨٠هـ خرج حديثه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

٧ - عبد الله بن داود أبو عبد الرحمان الهمداني، المتوفى سنة ٢١٢هـ خرج حديثه البخاري وأبو داود والترمذي وقال فيه أحمد، هو أثبت من شريك وقال ابن سعد: كان ثقة يرحل إليه.

٨ - عبيد الله بن موسى العبسي أبو محمد الكوفي، المتوفى سنة ٢١٣هـ صاحب المسند خرج حديثه أصحاب الصحاح الستة.

٩ - عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ من كبار شيوخ أحمد والبخاري خرج حديثه أصحاب الصحاح.

١٠ - عباد بن العوام بن عمر بن عبد الله بن المنذر الواسطي، المتوفى سنة ١٨٥هـ قال ابن سعد: كان يتشيع وكان من نبلاء الرجال. وقد حبسه الرشيد زمانا ثم خلي عنه وأقام ببغداد وسمع منه البغداديون وهو من رجال الصحاح الستة.

١١ - محمد بن فضيل بن غزوان الضبي، أبو عبد الرحمان الكوفي، المتوفى سنة ١٩٥هـ وهو مصنف كتاب الزهد والدعاء، قال أحمد بن حنبل: محمد بن فضيل حسن الحديث شيعي. وخرج حديثه أصحاب الصحاح.

١٢ - عائد بن حبيب الملاحي، المتوفى سنة ١٩٠هـ بياع الأقمشة الهروي خرج له النسائي وابن ماجة.

١٣ - علي بن غراب الفزاري أبو الحسن الكوفي، المتوفى سنة ١٨٤هـ سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: حديثه حديث أهل الصدق. وخرج حديثه النسائي وابن ماجة.

١٤ – علي بن هاشم بن البريد العابدي، مولاهم أبو الحسن الكوفي المتوفى سنة ١٨٠هـ خرج حديثه البخاري في الأدب المفرد. ومسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو داود.

١٥ – علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي مولاهم البغدادي الجوهري المتوفى سنة ٢٣٠هـ روى له البخاري وغيره.

١٦ – الفضل بن دكين المعروف بأبي نعيم، المتوفى سنة ٢١٩هـ من رجال الصحاح الستة، وهو شيخ البخاري وأحمد وابن معين وإسحاق قال فيه أحمد: الفضل ثقة يقضان عارف بالحديث.

١٧ – محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر أبو أحمد الأسدي الزبيري مولاهم المكي، المتوفى سنة ٢٠٢هـ

وقد نص ابن قتيبة في معارفه على تشيع جماعة هم من كبار شيوخ أحمد أمثال: يحيى بن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨هـ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ وحميد بن عبد الرحمن الرواسي المتوفى سنة ١٩٠هـ وهيثم بن بشير الواسطي المتوفى سنة ١٨٣هـ وغيرهم[١].

كما أن الإمام أحمد أخذ العلم عن الجماعة من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام والمنتمين لمدرسته، أمثال إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن الزهري المتوفى سنة ١٨٣هـ وإبراهيم بن زياد المتوفى سنة ٢٢٨هـ وجرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨هـ ومكي بن إبراهيم المتوفى سنة ٢١٥هـ والضحاك بن مخلد الشيباني أبو

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٢٥. أنظر هذا العدد من مشايخ الإمام أحمد من الشيعة وهو يعرفهم، ويأتي بعده الحشوية ممن يدعي الانتساب إليه ليقول بأن الشيعة يهود سبئيون فكيف غاب عن أحمد ذلك؟ وكيف اتخذ شيوخا وأساتذة ممن يأخذ عقائده من اليهود وابن سبأ، وقد ذكر أحمد حينما عيب عليه تقريبه لعبد الرحمن بن صالح الشيعي كونه رافضياً، فرد أحمد قائلا كما يروي البغدادي: أنه رجل أحب قوما من أهل بيت النبي وهو ثقة. وهذا يلقي الضوء على عقائد هؤلاء المحدثين وأنهم كانوا يطلقون لقب الرافض على كل من أحب أهل البيت فلسنا ندري هل كانوا هم يبغضونهم أم ماذا!.

عاصم النبيل المتوفى سنة ٢٣١هـ وغيرهـؤلاء، عدد كبير من الذين عرفوا بالتشيع وانتسبوا لمدرسة أهل البيت[١].

ومعرفة أحمد بن حنبل وأخذه عن هـؤلاء الأعلام من محدثي الشيعة وأعلامهم، قد يكون السبب في معرفة أحمد بالتشيع واطلاعه على فضائل الإمام علي ومظلوميته، فكان أن اتخذ موقفا متميزا بخصوصه حيث أعلن التربيع، أي الاعتراف بالإمام علي كخليفة شرعي رابع بعد الخلفاء الثلاثة.

وهذا الكلام قد لا يفهمه بعض أبناء الصحوة اليوم فإنهم درجوا على معرفة الخلفاء الأربعة، وأنهم الخلفاء الراشدون، ولم يعلموا أن أغلب المحدثين من غير الشيعة كانوا لا يرون الإمام علي عليه السلام خليفة، وذلك تماشيا مع عقائد ملوك بني أمية، وبعض ملوك بني العباس الذين رفضوا خلافته عليه السلام.

أولا لأن الإيمان بخلافته يدعم ما تذهب إليه طوائف الشيعة المعارضة للحكم الأموي والعباسي، ثانيا الإيمان بخلافته يفتح الباب واسعا للطعن على معاوية، وسحب الشرعية منه ومن جميع ملوك بني أمية والعباسيين من بعدهم. مما قد يفتح الباب على مصراعيه، ليس لنقاش مشكلة الشرعية الدينية لدى الأسرتين الأموية والعباسية. وإنما قد تطال خيوط هـذه المشكلة خلافة الخلفاء الثلاث الأول. لذلك كان أغلب المحدثين عثمانية وأموية، وخصوصا الحشوية منهم. ولما جاء أحمد بن حنبل واشتهر أمره وعرفت عقيدته تمكن بذلك أن يعلن التربيع، وأن يعتبر الإمام علي الخليفة الرابع، ولم يستطع أحد أن يقف في وجهه فانتشر ذلك وعم. حتى أصبح جزءا من عقائد القوم بعدما كان هـذا الاعتراف محسوبا من عقائد طوائف الشيعية فقط.

بل إن أحمد بن حنبل قد اتخذ موقفا صارما ممن لا يرى خلافة الإمام علي، عندما قال: من لم يربع بعلي بن أبي طالب في الخلافة فلا تكلموه ولا تناكحوه.

---

(١) أسد حيدر، ج ٢، صفحات ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

وبذلك انقمع كثير من حشوية أهل الحديث عن مقالتهم التي كانوا يعتقدونها. فطمس ذلك واندثر ونسي، حتى لقد جاء بعدهم من اعتبر القول بشرعية وصحة خلافة الخلفاء الأربعة من أصول أهل السنة والجماعة. مبتدع من خالفها، بل يخاف عليه أن يسقط في الكفر وتلفظه جماعة المسلمين.

ولأحمد بن حنبل موقف آخر يخص الإمام علي وأهل بيته، عندما روى لهم في مسنده، وتتبع فضائلهم، بل خصهم بتأليف خاص بهم سماه مسند أهل البيت. كما أنه تجرأ في رواية فضائل الإمام علي وأعلنها... فعن محمد بن منصور الطوسي قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول ما روي في فضائل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بالأسانيد الصحاح ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

وقد أثارت رواياته عن علي بن أبي طالب بعض الاعتراضات لدى من كان متشبعا بعقائد الأمويين. قال محمد بن منصور الطوسي: كنا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل يا أبا عبد الله ما تقول في الحديث الذي روي أن عليا قال: أنا قسيم النار فقال: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق؟ قلنا: بلى قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة قال: فأين المنافق؟ قلنا في النار قال: فعلي قسيم النار[2].

إن هـذا الكلام له خطورته التي سيلتفت إليها البعض. فإن القول بصحة هـذا الحديث يعني الطعن على معاوية بن أبي سفيان مباشرة، وهو أحد كبار المبغضين لعلي وقد أمر بلعنه، ولعنه الأمويون (٨٠ سنة) باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي أبطل في عهده هـذا التقليد.

كما ويتم الطعن في عدد من الصحابة الذين حاربهم الإمام علي واشتهروا ببغضهم إياه، وأهل بيته. ولا ننسى أن المتوكل نفسه كان يعلن بغضه للإمام علي،

---

(١) طبقات الحنابلة، ص ٣٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٢.

واعتبره بعض المؤرخين ناصبيا خالصا وهو في حكم الكافر.

وقد روي عن أحمد بن حنبل غير ذلك بخصوص الإمام علي، قال عبد الله: قلت لأبي (أحمد بن حنبل) ما تقول في التفضيل؟ قال في الخلافة:

أبو بكر وعمر وعثمان، فقلت: فعلي؟ قال: يا بني علي بن أبي طالب من أهل البيت لا يقاس بهم أحد. وعنه أيضا قال: كنت بين يدي أبي جالسا ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخية، فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وخلافة علي بن أبي طالب، فزادوا وأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: ياهـؤلاء قد أكثرتم القول في علي والخلافة. إن الخلافة لم تزين عليا بل علي زينها[١].

ليس معنى هـذا أن أحمد بن حنبل كان علويا، أو يرى أحقية علي بن أبي طالب في الخلافة دون غيره، أو مثل أبي حنيفة الذي كان هـواه مع الثوار العلويين في عصره. لقد كان أحمد عباسي الميل السياسي، ويرى أن العباس أبو الخلفاء ولم يخلع طاعتهم رغم ما تعرض له من تنكيل ومضايقة من طرف ثلاثة ملوك منهم، (المأمون والمعتصم والواثق). لكن موقفه من المتوكل كان فيه بعض التناقض فهو وإن كان يؤمن بشرعية خلافته وضرورة إطاعته والتسليم له، إلا أنه كان يرفض صلاته ويفر منها فراره من الأسد. بل كان ينهى أهله وأقاربه وخصوصا ابنه عبد الله عن أخذ ما يبعثه المتوكل من أموال، ولقد اعتبر ذلك شدة ورع منه وتجنبا للحرام؟!.

---

(١) مناقب أحمد لابن الجوزي، ص ١٦٣. يقول صاحب العواصم والقواصم: «هذا دليل على شدة موالاته لأهل البيت وقيامه بحق القرابة. وقد وصفه بذلك الإمام المنصور بالله، فقال في المجموع المنصوري في الدعوة العامة إلى جيلان وديلمان ما لفظه: وأما أحمد بن حنبل، فيكفيك في الاستقصاء عن أمره أنه ذكر له الحديث المطرق بعلي بن موسى بن جعفر، قال: أخبرني موسى العبد الصالح عن أبيه جعفر بن محمد الصادق باقر علم الأنبياء، عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين، عن أبيه الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، عن أبيه علي بن أبي طالب سيد العرب، عن رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، أنه قال: الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح». فذكر هذا السند لأحمد بن حنبل فقال: «لو قرئ هذا على مجنون لبرء من جنونه» انظر ج ٤ ص ٢٥٩.

إن هـذا الموقف لأحمد من الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام وأهل بيته والذي بدا معتدلا ومتميزا في تلك الفترة، التي كان بغض علي وأهل بيته رائجا فيها ومما يتقرب به إلى الخلفاء، قد جعل بعضا من علماء الشيعة وعامتهم ينظرون إليه بنوع من الاحترام. وقد ذكر لنا التاريخ أن بعضا من الهاشميين قد شارك في جنازته وتغسيله وتشيعه حتى قال بعضهم: لقد غلبنا على تغسيل أحمد الهاشميون.

طبعا يجب الانتباه إلى شئ مهم، وهو أن مواقف أحمد بن حنبل جاءت بعد شهرته وانتشار صيته، وبعدما أصبحت له مكانة خاصة لدى السلطان والعامة. فلم يكن لأحمد شهرة تذكر قبل انفراج الأزمة، لوجود عدد من كبار المحدثين، منهـم شيوخه وأساتذته. كما أن محنة خلق القرآن التي تورط فيها المعتزلة لم تكن لتخص أحمد بن حنبل بل طالت عددا كبيرا من الفقهاء والمحدثين، ومنهم من قدم حياته جراء موقفه المخالف. ومنهم من نكل به وضرب وسجن ومات في السجن، ومنهم من لم يفرج عنه إلا زمن المتوكل.

وبما إن اسم أحمد وشهرته قد ارتبطت بهذه المحنة، وغالى الحنابلة في وصفها وأنشأوا القصص والأساطير حولها، وكثرت المبالغات، صبوا جلها في رافد مذهب إمامهم، وجعلوا ذلك مقياسا للأفضلية والاتباع. فسنعرض لهذه المحنة حتى نعرف مكانة أحمد بن حنبل فيها. كما دونتها وقائع التاريخ العام بعيدا عن الغلو والزيادات التي عرف بها أتباع المذهب الحنبلي ماضيا وحاضرا.

أحمد بن حنبل ومحنة خلق القرآن:

قلنا سابقا أن مسألة خلق القرآن ظهرت أواخر العهد الأموي على يد الجعد بن درهم الذي قتل من أجلها. ولما تأسس مذهب الاعتزال كانت مسألة خلق القرآن إحدى العقائد التي آمن بها المعتزلة، لكنهم لم يجرؤوا على نشرها. إلى أن جاء عصر المأمون، الذي كان يميل إلى الفلسفة والفكر الحر. فقرب المعتزلة وجعل علماءهم أصحاب مشورته وبطانته، واقتنع بالكثير من عقائدهم. ومنها مسألة خلق القرآن.

ولما كان المعتزلة يرون أن القرآن مخلوق، فقد أمر المأمون بحمل العلماء والفقهاء على القول بذلك. فتحرك ولاته واستدعوا كل من عرف لديهم من الفقهاء والمحدثين والعلماء وعرضوا عليهم اعتناق فكرة خلق القرآن. لقد أرسل المأمون كتابا إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم يأمره بامتحان الفقهاء والمحدثين، وأن يعرض عليهم الإيمان والقول بخلق القرآن وأن يحملهم على ذلك ويرغمهم عليه.

رسائل المأمون لامتحان الفقهاء والعلماء:

يقول المأمون في كتابه الأول، يشرح فيه سبب حمله الناس على القول بخلق القرآن: «أما بعد: فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم، ومواريث النبوة التي أورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم، والعمل بالحق في رعيتهم، والتشهير لطاعة الله فيهم... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأخطار والآفات أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوا كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكر والتذكر، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه...

وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا...﴾ [الزخرف: آية ٣]: فكل ما جعله الله فقد خلقه. قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ...﴾ [الأنعام: آية ١]. وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: آية ٩٩]: فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به

متقدمها. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: آية ١]. وكل محكم مفصل فله محكم ومفصل والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه. ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة. وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير دين الله إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سئ آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرئاسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهاداتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها.

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظا والمخسوسون من الإيمان نصيبا، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله. وحق على من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد إستكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد...

إلى أن يقول: فأجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه.

فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده. واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله... وكتب في شهر ربيع الأول (سنة ٢١٨هـ)[١].

وجاء في رسالته الثانية لنفس الوالي: «... وكان كل شئ دونه خلقا من خلقه وحدثا هو المحدث له وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله[٢] والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: آية ٣] وتأويل ذلك إنا خلقناه، كما قال جل جلاله:

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: آية ١٠]. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠]. فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في مشيئة الصنعة، وأخبر أنه جاعله وحده فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] وقال لنبيه محمد ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: آية ١٦]. وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: آية ٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ [الأنعام: آية ٢١]. وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا:

---

(١) محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٢، ١٩٨١ م، الكتاب ٢: ص ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) يقول محمد أبو زهرة: «والمعتزلة مع ذلك يعتقدون أن الحق الذي لا شك فيه هو ما يقرون».

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: آية ٩١]. ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام آية: ٩١] فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا وقصصا...

فأقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمان بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصحهما من علمهما في القرآن وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شئ من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده وأنه لا توحيد لمن لا يقر أن القرآن مخلوق...

وفي رسالة جوابية من المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم بعد أن نفذ أوامره وامتحن القضاة وأرسل له محضرا عن إجابتهم. تكلم المأمون فيما وصله من إسحاق وذكر عرضه بعض الفقهاء والعلماء على الامتحان وإمساك بعضهم عن الخوض في هذه المسألة. مثل بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي، فأمر المأمون واليه أن يستتيبهم وأن يعرضهم على السيف إن هم أبوا القول بخلق القرآن.

«... وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن فاعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه جاهل، وأنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب، ثم إن يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله. وأما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فاعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها واستدل على جهله وآفته بها»[1].

لقد تعمدنا إيراد هذه النصوص على طولها وذلك لاعتبارها وثائق تاريخية يمكن الاعتماد عليها في تجلية الموقف بكل وضوح، فمن خلال الرسالة الأولى للمأمون يظهر أن حمله الفقهاء والمحدثين على القول بخلق القرآن هو انتشار مقولة

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢ ٣٣٤.

كونه - أي القرآن - قديما. وهو يصف فئة ما تنشر هذه الفكرة ويصفهم بأنهم يضاهون قول النصارى بادعائهم أن عيسى قديم لأنه كلمة الله. وعليه تصبح دعوة المأمون هذه إنما هي دفاع عن عقائد الإسلام تجاه هذه الشرذمة.

والواقع أن المخاطبين ليسوا سوى أهل الحديث خاصة الحشوية منهم. وسيظهر ذلك بعد انفراج المحنة وانتصار هذه الفئة بالذات وغلوها في هذه المسألة، لدرجة اعتبار الكتابة والجلد الذي يكتب عليه القرآن أزليان.

كما تضمنت هذه الرسائل التاريخية مجمل حجج القول بخلق القرآن وأغلبها نقلية. وإن كان للمعتزلة آراء عقلية للدفاع عن خلق القرآن فإن ذلك لا يظهر في هذه الرسائل، ولربما كان ذلك متعمدا وخصوصا وأن المخاطبين بهذه الحجج لا يعترفون للعقل بأي سلطان في فهم الدين أو تقريره، لذلك جاءت الحجج، مجموعة من الآيات القرآنية التي يفهم منها أن القرآن مخلوق. وليس قديما كما كان يعتقد أصحاب الحديث وغيرهم من العامة.

وقد جاء الخطاب موجها لهذه الفئة شديد اللهجة متهما إياهم بالضلال والشرك والكفر وإنهم منحرفون عقائديا. فإما التوبة والرجوع إلى الحق، أي القول بخلق القرآن، وإما السيف؟!.

وإذا كانت الرسائل قد ذكرت بعضا من أسماء الممتحنين، فقد جاء ذكر أحمد بن حنبل من ضمنهم، حيث وصفته الرسالة بأنه جاهل، وأن المأمون سمع مقالته التي اعتذر بها. وفي الأخير أمر المأمون واليه أن يشخص إليه من أبى من المحدثين والفقهاء أن يعترف بخلق القرآن.

لقد اعترف مجموعة من المحدثين والعلماء بخلق القرآن سواء اعتقادا منهم بصحة ذلك، أو تقية وخوفا من السيف أو مصانعة كما ذهب ابن كثير لذلك، خوفا على مناصبهم أو مكانتهم العلمية. لأنه وكما جاء في رسالة المأمون، فقد أمر واليه أن يمنع أي فقيه أو عالم من الإفتاء أو التحديث في المساجد أو امتهان القضاء، إذا لم يكن ممن

يؤمن بخلق القرآن. وهذا القول لابن كثير فيه بعض من الصحة، والمأمون نفسه انتبه لذلك فهو يقول عن سعدويه الواسطي الذي اعترف بخلق القرآن: «قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرئاسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب منها متى امتحن فيجلس للحديث»[١].

ومن الذين اعترفوا بخلق القرآن نذكر المحدث الكبير وشيخ أحمد والبخاري يحيي بن معين، ولم يكن ذلك الاعتراف اعتقادا منه كما يقول أصحابه من أهل الحديث. حيث قالوا لم يرتد يحيي بن معين ولكنه خاف[٢]. وإسماعيل بن أبي مسعود البصري، وعلي بن الجعد الهاشمي، وأبو حسان الزيادي وعلي بن مقاتل، وأبو معمر القطيفي وأحمد بن الجواري، ومحمد بن سعد الواقدي صاحب الطبقات، وغيرهم كثير.

ولما جمع إبراهيم بن إسحاق كافة الفقهاء والمحدثين وقرأ عليهم كتاب المأمون أجابه أغلبهم، إلا أحمد بن حنبل وسجادة والقواريري، ومحمد بن نوح، فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد، فلما أصبحوا أعاد امتحانهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن فأطلقه. وبعد يوم آخر أجاب القواريري بأن القرآن مخلوق فأخلى سبيله. ولم يبق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح. فكتب حاكم بغداد إلى المأمون بذلك فأمره بأن يشخص إليه أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح موثقين في الأغلال، ولما وصلا في طريقهما إلى قرب الأنبار، وفي أثناء الطريق جاءهم نعي المأمون[٣].

وبذلك تنتهي أولى فصول المحنة لدى ابن حنبل وغيره. إلا أن المأمون وهو يجود بنفسه أوصى أخاه المعتصم بأن يتابع مسيرة الامتحان وأن يحمل الناس على

(١) نفسه، ص ٣٣٣.

(٢) العواصم والقواصم، ج ٤ ص ٢٤٦.

(٣) أسد حيدر، م ٢، ص ٤٥٧.

القول بخلق القرآن، فامتثل المعتصم للوصية واستمرت فصول المحنة كأشد ما تكون، واستدعي أحمد بن حنبل من السجن ومثل أمام المعتصم وابن أبي دؤاد المعتزلي ومجموعة من الفقهاء والعلماء وبدأ امتحانه. لكن أحمد لم يجب الخليفة فأعيد إلى السجن وبقي ثلاثة أيام كل يوم يؤتى به فيمتحن فيرجع دون أن يقر بخلق القرآن. يقول المؤرخون إن المعتصم لما يئس منه، أمر بضربه بالسياط فضربه ثمانية وثلاثين وقيل أقل من ذلك. وبعد ذلك أطلق المعتصم سراحه ووصله. وقد اختلف في سبب ذلك بين قائل بأن أحمد أجاب المعتصم واعترف بخلق القرآن لما قطعه ابن أبي داود وحار جوابا.

ومنهم من ادعى أن العامة اجتمعوا على دار السلطان وشغبوا، فخاف المعتصم من الفتنة فأطلق سراحه. وهذا الادعاء بعيد عن الواقع لقوة الدولة في عهد المعتصم. وقد امتحن كبار العلماء ومن كانت لهم مكانة خاصة لدى العامة وقتل بعضهم.

وسنعرض فيما بعد لبعض من امتحنوا مع أحمد ولم يستجيبوا لدعوة الخليفة فتعرضوا للضرب والتنكيل والقتل. وهذا لم يتعرض إليه أحمد إلا قليلا. وإذا اعتمدنا رسالة الجاحظ التي خاطب فيها أهل الحديث وذكر المحنة، وأحمد بن حنبل، فسنرى أن الرواية تختلف اختلافا كبيرا جدا. يقول الجاحظ:

وقد كان صاحبكم هذا (الإمام أحمد) يقول: لا تقية إلا في دار الشرك، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن، كان منه على وجه التقية، فلقد أعملها في دار الإسلام، وقد أكذب نفسه، وإن كان ما أقر به على الصحة والحقيقة فلستم منه وليس منكم، على أنه لم ير سيفا مشهورا، ولا ضرب ضربا كثيرا، ولا ضرب إلا بثلاثين سوطا مقطوعة الثمار، مشبعة الأطراف. حتى أفصح بالإقرار مرارا، ولا كان في مجلس ضيق ولا كانت حاله مؤيسة، ولا كان مثقلا بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد. ولقد كان ينازع بألين الكلام ويجيب بأغلظ الجواب، ويرزنون ويخف

ويحلمون ويطيش[١].

هذا ما أردنا إثباته من هذه الرسالة التي تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أُتْلِفَ من مؤلفات المعتزلة، وهي تدلنا على إقرار أحمد واعترافه بأن القرآن مخلوق، مؤيدة بما ذكره اليعقوبي في تاريخه:

وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علما ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر الفقهاء وناظره عبد الرحمان بن إسحاق وغيره، فامتنع أن يقول أن القرآن مخلوق، فضرب عدة سياط، فقال إسحاق ابن إبراهيم: ولني يا أمير المؤمنين مناظرته، فقال: شأنك به فقال إسحاق:

هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟.

فقال أحمد: بل علمته من الرجال.

فقال إسحاق، شيئا بعد شئ أو جملة قال: علمته شيئا بعد شئ.

قال إسحاق: فبقي عليك شئ لم تعلمه؟.

قال أحمد: بقي علي شئ لم أعلمه.

قال إسحاق: فهذا مما لم تعلمه، وعلمكه أمير المؤمنين.

قال أحمد: فإني أقول بقول أمير المؤمنين.

قال إسحاق: في خلق القرآن.

قال أحمد: في خلق القرآن، فأشهد عليه وخلع عليه وأطلقه إلى منزله.

(١) قال ابن خلكان: «ودعي إلى القول بخلق القرآن أيام المعتصم وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فقال أحمد: «أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا». فأحضر له الفقهاء فناظروه فلم يجب. فضرب وحبس وهو مصر على الامتناع. وكان ضربه في العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٢٢٠هـ وكانت مدة حبسه إلى أن خلي عنه ثمانية وعشرين يوماً، وبقي إلى أن مات المعتصم. لما ولي الواثق منعه من الخروج من داره إلى أن أخرجه المتوكل وخلع عليه ورفع المحنة في خلق القرآن». انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ج١ ص٦٤

هذا ما يستدل به على إجابة أحمد للمعتصم، من أقوال رجال هم أقرب الناس من عهده وأطلعهم على حوادثه[1].

لا شك أن القارئ قد لا حظ أن اسم ابن حنبل في رسالة المأمون كما في رسالة الجاحظ وما كتبه اليعقوبي، يظهره شخصية ليست ذات شأن خطير، وأنه أمتحن كما أمتحن غيره، وأن عذابه كان أقل من غيره خلافا لما يدعيه الحنابلة. كما لم يكن أحمد وحيداً في المحنة بل شاركه فيها جملة من شيوخه وعلماء عصره.

لقد أوذي كثير من العلماء في محنة القول بخلق القرآن، ولقي كثير منهم عنتا كثيرا. يقول صاحب النهج الأحمد: وقد يكون ما لقيه بعض العلماء أكثر مما لقيه الإمام أحمد بن حنبل، فالتاريخ يحدثنا أن قوما من العلماء امتحنوا بهذه المقالة فثبتوا على رأي أهل الحق، فأمر بإدخالهم السجن، ويحدثنا التاريخ أنهم بقوا في السجن حتى انتهى زمن المحنة كله ثم أطلق سراحهم، والتاريخ يحدثنا أن قوما آخرين ماتوا في السجن. والتاريخ يحدثنا أن إماما من هؤلاء الأئمة الأبرار دخل على الخليفة فامتحنه فتشدد في الاستمساك بالعروة الوثقى(؟) وأغلظ القول للخليفة ونال منه، فقتله الخليفة بيده...

كما يحدثنا الذهبي وغيره أن أبا نعيم الفضل بن دكني امتحن في هذه المحنة، وأنه وقف من الدعاة إليها موقفا عجيبا. وأنه قال حين سألوه عن رأيه:

والله إن عنقي لأهون من زري هذا، ثم قطع زره ورماه، وقال عنه أحمد: لقد قام في أمر الامتحان بما لم يقم به غيره[2]. ويحدثنا الذهبي وغيره أن أبا عمر الحارث بن مسكين أخذ في المحنة وحبس دهرا طويلا، ولم يخرج من السجن حتى

(١) أسد حيدر، ج ٤ ص ٤٥٩.

(٢) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمي، النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد، عالم الكتب بيروت، ط٢ ١٩٨٤م، ج ١ ص ٢٥.

مات القائمون بها وأفضى الأمر إلى المتوكل على الله فعرف له موقفه فأخرجه من السجن وولاه قضاء مصر[١].

لذلك من الخطأ أن تقترن محنة خلق القرآن باسم أحمد بن حنبل فقط، ويغض الطرف عن غيره، وقد أصاب مقدم كتاب «النهج الأحمد» عندما قال: «لقد أنسي الناس قوما كان موقفهم مثل موقف أحمد أو قريبا منه فلم يعد هؤلاء يذكرون إلا في بطون التواريخ وعلى ألسنة الخاصة أو خاصة الخاصة من العلماء»[٢].

لكن ما سبب شهرة الإمام أحمد دون غيره ممن امتحن ووقف مثل موقفه؟.

الحقيقة أن شهرة أحمد قد ارتبطت أولا بانتصار المحدثين وأصحاب الأثر. ولما تولى المتوكل الخلافة أوقف الامتحان، وأبعد المعتزلة من بطانته وقرب المحدثين وانتصر لهم وأغدق المال والجوائز على عدد كبير منهم، وأمر أن يجلس المحدثون في المساجد وينتصروا لمجمل عقائدهم، ليس فقط في مسألة خلق القرآن ولكن في الرؤية كذلك، والتي كانت المعتزلة تنكرها. (أي رؤية الله بالأبصار يوم القيامة)، لذلك فقد أدى الأمر إلى تكبير المضطهدين، ونشر تفكيرهم ومبالغة الناس في أقوالهم[٣] فانطلقوا ينقضون عقائد الاعتزال، ويحاربون أصحابه بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ، فانتشر القول بتكفير من قال بخلق القرآن واستحلال دمه. وبدأ عصر المعتزلة في الأفول شيئا فشيئا، ونجم المحدثين في الصعود والاشتهار، فالتف حولهم العامة ونصروهم واعتنقوا عقائدهم.

يقول أحمد أمين: إن السلطات الحكومية من عهد المتوكل قد تخلت عن نصرة المعتزلة وأغلب الناس يمالئون الحكومة أينما كانت ويخافون أن يعتنقوا مذهبا لا

---

(١) المرجع السابق، ج ١ ص ٢٦.

(٢) نفسه، ص ٢٧.

(٣) المذاهب الإسلامية، ص ٢٦٣.

ترضاه فهربوا من الاعتزال إلى من يهاجم الاعتزال[١].

وإذا كان وضع أحمد في المحنة كما ذكرنا، لم تكن له خصوصية تفرده عن غيره وتميزه. فلا حقيقة لتلك المبالغات والأساطير التي حاكها الحنابلة حول محنة أحمد وخطورة شأنها. قال محمد بن إسحاق: سمعت أبي يقول: لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها لذهب الإسلام[٢]. ويرى علي بن المديني بأن الله أيد هذا الدين باثنين لا ثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة... ثم لا يلبث ابن المديني أن يقطع في الحماس لنفس الموضوع شوطا أبعد من ذلك حين يروي الميموني على لسانه أنه: ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قام أحمد بن حنبل فقال له: يا أبا الحسن ولا أبو بكر؟ قال: ولا أبو بكر الصديق. إن أبا بكر كان له أعوان وأصحاب، وأحمد لم يكن له أعوان وأصحاب[٣].

ونختتم الكلام عن المحنة بقول محمد بن الحسن الثعالبي يقول:

فالمسألة (أي خلق القرآن) كانت سياسية أكثر منها دينية بدليل أن الخلاف الذي هولوا به في مسألة الكلام تبين أنه لفظي، إذ الصفات القائمة بذاته تعالى قديمة والمعتزلة لا يقرون بقيام الصفات بالقديم فرارا من تعدد القدماء، والحروف والأصوات التي ننطق بها نحن حادثة وإن تعصب بعض المنتسبين لابن حنبل، فقالوا بقدمها، بل قالوا: إن الجلد وغلاف المصحف أزليان وهو جهل وعناد ومثله لا يعد في آراء أهل العلم، فتبين أن لا خلاف إلا في إثبات قيام الصفات به تعالى...

ومن أعجب ما يراه الناظر المتبصر في هذه المسألة أن ابن حنبل وحزبه تحرجوا أن يقولوا، أن القرآن مخلوق، لأنه لم يرد على النبي صلى الله عليه وسلم،

(١) ظهر الإسلام، ج ٤ ص ٦٥.

(٢) طبقات الحنابلة، ص ٧.

(٣) مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ٤٣٢، نقلا عن الطبقات ١ / ١٧.

ولا عن السلف الصالح وأنعم وأكرم بالوقوف عند حد ما ورد. لكنهم أنفسهم لم يقفوا عند حدِ ما ورد، بل قالوا: إنه غير مخلوق، وأنه قديم. وكلا اللفظين لم يردا أيضا، فكان الاعتراض مشترك الإلزام، بل ورد في القرآن ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾. ولعمري أنه لا فرق بين محدث ومخلوق، بل إن الذي يقول إنه قديم، وأنه غير مخلوق هو الذي بظاهر كلامه يناقض الوارد وإن كان قصده صحيحا، لأنه يريد المعنى القديم الذي هو صفة الحق سبحانه وهي قديمة كما أن من قال: مخلوق ومحدث يريد الأصوات والحروف، وعلى كل حال من كان حر الضمير واللسان يقف باهتا كيف وقع هذا الخلاف، وسفكت لأجله دماء. واستبيحت أعراض في لا شيء ما ذاك إلا أنها مسائل سياسية طليت بطلاء الدين تمويها على المغفلين[1].

وإذا علمنا أن سيرة أحمد الخاصة في ملبسه ومأكله، كانت دون الشك سيرة رجل زاهد متقشف يتورع عن قبول جوائز الخليفة المتوكل ولا يقبلها بحال، وينهى أهله عن أخذ شئ منها. إذا علمنا ذلك، فلا شك أن حلقات الريادة تكون قد اكتملت في شخصه، وفي الواقع الموضوعي المحيط به، ومن ثم كان أحمد بن حنبل وكان تلامذته وأتباعه فلم يبق إلا أن يظهر لهذا المحدث مذهب في الفقه والأصول، صنع بعد وفاته من مواد فتاويه وآرائه وأقواله التي صحت عنه أو نسبت إليه.

قلنا إن أحمد بن حنبل لم يكن في زمانه وقبل المحنة متفردا عن باقي أقرانه خصوصا في علم الحديث وروايته، بل كان في زمانه من كبار المحدثين وعلماء الحديث من كانوا شيوخا له، ويعترف لهم هو بالمكانة العلمية والسبق العلمي. وقد قيل لأبي داود: أحمد أعلم أم علي بن المديني؟ قال علي أعلم باختلاف الحديث من أحمد وقال أحمد بن حامد، سمعت رجاء بن جابر المرجي يقول: رأيت ابن حنبل وإسحاق، وابن المديني والشاذكوني، فما رأيت أحفظ من عبد الله يعني عبد

---

(١) الفكر السامي، ج ٢ ص ٢٠، ٢١.

الله بن عبد الرحمن الدارمي المتوفى سنة ٢٥٠هـ والذي كان يسميه أحمد بالسيد. وقال فيه ابن أبي حاتم إنه إمام أهل زمانه[١].

وقال أحمد: يحيي بن معين أعلمنا بالرجال. وقال ابن المديني: لا نعلم أحدا كتب من الحديث ما كتب يحيي بن معين[٢].

وقال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن شيبة. فقال له ابن خداش:

يا أبا زرعة فأصحابنا البغداديون؟ قال: دع أصحابك إنهم أصحاب مخاريق ما رأيت أحفظ من أبي بكر[٣]. وفي ترجمة عبد الله بن أحمد بن حنبل أن بعضهم قدمه على أبيه في الحفظ والسماع وعلل الحديث[٤].

وقال ابن المديني غير مرة، والله لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله إني لم أر أحدا قط أعلم بالحديث من عبد الرحمان[٥].

وقال ابن المديني: أعلم الناس لقول الفقهاء السبعة الزهري ثم بعده مالك ثم بعده ابن مهدي[٦]. وقال أحمد في أبي الوليد الطيالسي: أبو الوليد اليوم شيخ الإسلام ما أقدم عليه من المحدثين أحدا. وقال أبو عمران الطرسوسي في أبي مسعود الرازي وما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله من أبي مسعود[٧]. وقال أبو الخصيب في البخاري، أنه أفقه وأبصر من ابن حنبل، وقال ابن عمر الخفاق: هو (أي البخاري) أعلم بالحديث من إسحاق وأحمد وغيرهما بعشرين درجة[٨].

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٠ ص ٣١.
(٢) تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ١٧.
(٣) المرجع السابق، ص ١٩.
(٤) تاريخ بغداد، ج ١ ص ١٢٥.
(٥) تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ١٩.
(٦) نفس المرجع، ج ١ ص ٣٠٣.
(٧) طبقات الحنابلة، ج ١ ص ٥٣.
(٨) تهذيب التهذيب، ج ٩ ص ٦٧.

وقال صالح بن محمد: أعلم من أدركت بالحديث وعلله علي بن المديني وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحي بن معين، وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر ابن شيبة[١]. وقال إسحاق بن إبراهيم: إن الله لا يستحي من الحق، أبو عبيد أعلم مني ومن أحمد والشافعي!.

وأبو عبيد هذا من طبقة أحمد وأقرانه، فإن وفاته سنة ٢٢٤ هـ وأما أبو إسحاق فهو المعروف بابن راهويه المتولد سنة ١٦٤ هـ والمتوفى سنة ٢٣٨هـ وهو في سن أحمد ومن أقرانه، وسئل أحمد عنه فقال: من مثل إسحاق.

وقال النسائي: ابن راهويه أحد الأئمة، وقال ابن خزيمة، لو أن إسحاق بن إبراهيم كان في التابعين لأقروا له بحفظه وعلمه وفقهه. وقال محمد بن يحيي الذهبي إن إسحاق اجتمع بالرصافة من أعلام الحديث منهم أحمد بن حنبل، ويحيي ابن معين وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحاق[٢].

وقال إبراهيم بن أبي طالب سألت أبا قدامة عن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، فقال: الشافعي أفهمهم إلا أنه قليل الحديث، وأحمد أورعهم، وإسحاق أحفظهم وأبو عبيد أعلمهم بلغات العرب[٣]. وقال أحمد بن حنبل: لا أعلم لإسحاق بالعراق نظيرا[٤].

من خلال آراء العلماء والمحدثين في بعضهم البعض ورأيهم في بعض الأئمة وكذا أحمد بن حنبل. نرى أن شخصية ابن حنبل لم تكن ذات شأن كبير بالمقارنة مع أقرانه من مشايخ وعلماء الحديث. فهناك من هو أعلم منه وأفهم وكذا أحفظ منه للحديث ومعرفة بعلله وكذا جمعه وفقهه. ونحن ليس غرضنا التقليل من شأن

---

(١) تاريخ بغداد، ج ١٠ ص ٧٠.
(٢) تاريخ بغداد، ج ٦ ص ٣٥٣.
(٣) تهذيب التهذيب، ج ٨ ص ٣١٦.
(٤) تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ٢٠، بتوسط أسد حيدر، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ بتصرف.

الرجل أو الحط من مكانته العلمية، ولكن بيان حقيقة هذه المكانة العلمية. لأن الاختلاف حولها سينفجر في الأوساط العلمية عندما سيحاول أصحابه تأسيس مذهب فقهي وأصولي، ومحاولة نسبته إليه. فكان الخلاف يدور بين العلماء وأصحابه أولا حول مكانة أحمد الفقهية، حيث اعترف أغلبهم بكونه، محدثا، ورفضوا أن يكون أحمد فقيها كمالك وأبو حنيفة والشافعي.

كما وأثيرت الشكوك الكثيرة حول الآراء والأفكار والفتاوى التي نسبها أصحاب أحمد له، وجعلوها لبنات مذهبه، فقد شكك المحققون وما يزالون في صحة هذه النسبة. ولم يكن هذا التشكيك نابعا من عداء مذهبي لأحمد بن حنبل. فأغلب من طرح تلك الشكوك واعتمدها يلتقي مع أحمد في الكثير من العقائد والأصول، وإنما جاء تشكيكهم كبحث علمي أثارته بعض العقائد المنسوبة لأحمد. وكذا الاختلاف الكبير في فقهه الذي دونه أصحابه.

لقد انحصرت تلك الشكوك في مسألتين رئيسيتين:

الأولى: إن أحمد بن حنبل ليس فقيها.

الثانية: عدم صحة كل ما نسب إليه من تراث فقهي. وعقائدي، وذلك لتناقضه، وتضارب الأفكار والآراء فيه تضاربا واختلافا كبيرا.

أحمد بن حنبل ليس فقيهاً:

لم يعتبر كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين أحمد بن حنبل فقيها، وليس ذلك لكونهم يعادون الرجل أو يقللون من مكانته العلمية، ولكن الحقيقة التي عرفها أغلبهم، هي إن أحمد بن حنبل طلب الحديث وجمعه ورواه، وكان مشهورا بروايته والتحديث به. كما ألف فيها كتبا. وهذا لا خلاف فيه بينهم.

أما كونه من الفقهاء وأن له مذهبا فقهيا خاصا به كما يذهب أصحابه، فهذا ما لم يوافقوا عليه.

يقول الثعالبي، لم يعتبر ابن جرير الطبري في الخلافيات مذهب ابن حنبل، وكان يقول إنما هو رجل حديث لا رجل فقه، وامتحن في ذلك. وقد أهمل مذهبه كثير ممن صنفوا في الخلافيات كالطحاوي والدبوسي والنسفي في منظومته. والعلاء السمرقندي والفراهي (المتوفى سنة ٦٤٠) الحنفي أحد علماء المائة السابعة في منظومته ذات العقدين وكذلك أبو محمد عبد الله ابن إبراهيم الأصيلي المالكي في كتابه «الدلائل» والغزالي في «الوجيز» وأبو البركات النسفي في «الوافي»، ولم يذكره ابن قتيبة في «المعارف» وذكره المقدسي في «أحسن التقاسيم» في أصحاب الحديث فقط مع ذكر داود الظاهري في الفقهاء، واعتبره كثير من المتقدمين كالإمام الترمذي في جامعه، فأنه مع عدم ذكره لأبي حنيفة وصاحبه إلا نادرا أو في جملة عموم الكوفيين ينص على مذهبه بالخصوص، واعتبره كثير من المتأخرين أيضا منهم ابن هبيرة الحنبلي في كتابه «مذاهب الأشراف» الذي ألفه في مسائل الخلاف بين الأئمة الأربعة وغيره. وقال في المدارك إنه دون الأصالة في الفقه وجودة النظر في مأخذه عكس أستاذه الشافعي[(١)].

إذا من خلال هذا النص نرى أن جملة من العلماء لم يعترفوا لأحمد بالإمامة في الفقه، وأغلبهم ممن جاء بعده مثل الطحاوي والدبوسي والنسفي والعلاء السمرقندي والفراهي وكذا الغزالي وابن قتيبة. وعدم اعتراف هؤلاء العلماء بكونه فقيها، فيه إشارة واضحة ليس لكون أحمد فعلا لم يشتهر بالفقه، ولكن إشارة إلى أن المذهب الحنبلي الذي سيعترف به المتأخرون. لم يكن له في عهد هؤلاء الأعلام شأن يذكر، كما هو الوضع بالنسبة لباقي المذاهب الفقهية الثلاثة الأخرى.

نحن نعلم أن أصحاب أحمد وعلى رأسهم الخلال[(٢)] باشروا في تأسيس

---

(١) الفكر السامي، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) جمع الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد وفتاويه وكلامه في العلل والرجال والفقه والفروع حتى حصل عنده من ذلك ما لا يوصف كثرة ورحل إلى النواحي في تحصيله.

وكتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام. ثم كتب كثيرا من ذلك عن أصحاب أصحابه وبعضه عن

المذهب وجمع فتاوى صاحبه من أفواه الناس، بعد وفاة أحمد بفترة. ولكن المذهب احتاج لمدة أطول بكثير حتى تثبتت أركانه وهذبت فروعه ورتبت أبوابه، واجتهد الدعاة إليه في وضعه ضمن صف المذاهب الفقهية الأخرى لتقليد العامة، لذلك عندما ألف الطبري كتابه «اختلاف الفقهاء» ذكر فيه اختلاف مالك والأوزاعي والثوري والشافعي وأبي حنيفة مع أبي يوسف ومحمد ابن الحسن ثم أبي ثور، وذكر بعض فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم إلى أبناء المائة الثانية. ولم يذكر أحمد بن حنبل، فقصده الحنابلة وسألوه في ذلك فقال: لم يكن أحمد فقيها، إنما كان محدثا، فأساء ذلك الحنابلة[1].

ولما لم يعجبهم قوله هذا فقد وثبوا عليه ورموه بمحاربهم، ثم قذفوا داره بالحجارة إلى أن تدخلت الشرطة واضطر الرجل حفاظا على نفسه أن يعتذر لهم. وعندما مات الطبري منع الاحتفال به ودفن في داره ليلا[2]. والطبري لم يكن عدوا

رجل عن آخر عن آخر عن الإمام أحمد. ثم أخذ في ترتيب ذلك وتهذيبه وتبويبه. وعمل كتاب «العلم» وكتاب «العلل» وكتاب «السنة» كل أحد من الثلاثة في ثلاث مجلدات. أنظر العواصم والقواصم، م ٤ ص ٢٥٢، ٢٥٣. وإذا كان الحشوية قد كذبوا على رسول الله ﷺ ورووا الأحاديث الموضوعة عليه، فحدث ولا حرج كم أضيف لأحمد من كلام وأقوال في العقائد خصوصا، وهو منها بريئ وقد كان الرجل يجد شرفا في ذلك أن يقول سألت أبا عبد الله وأجابني بكذا، لما عرفه أحمد من الشهرة.

(١) مجلة «رسالة الإسلام»، ج ٣، السنة الثالثة، ص: ١٥٥، ١٥٦.

(٢) إسلام بلا مذاهب، ص ٤٣١. يقول ياقوت الحموي في معجمه عن ابن جرير الطبري:

«هو المحدث الفقيه المقرئ، كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله. كان حافظا لكتاب الله عز وجل، عارفا بالقرآن، بصيرا بالمعاني، فقيها بأحكام القرآن، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها، حتى قال فيه أبو حامد الإسفرايني الفقيه: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيرا». رجل هذه منزلته، ما ذا كانت خاتمته؟ لقد دفن ليلا خوفا من العامة، لأنه كان يتهم بالتشيع. كانت الحنابلة لا تترك أحدا يسمع عليه، ولا ذنب له إلا أنه عندما ألف كتابه «إختلاف الفقهاء» لم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فأساء ذلك الحنابلة فرموه بالرفض وأهاجوا عليه العامة يوم وفاته. وعدوا عليه هذه واحدة. أما الثانية فهي كما ذكر «كرن» في مقدمته لكتاب «إختلاف الفقهاء» واتجاهات المفسرين لجولد سيهر، إذ يقول هذا: في الأقاليم التي تسود فيها آراء السنة ويعترف بها مذهبا رسميا تعتمد على جماهير الشعب الساذجة في محاربة الأقليات من أهل العقل مستغلة لهم في مناهضة هؤلاء الذين

لأحمد إنما أرخ لواقع قد اطلع عليه، فأحمد كان راويا للحديث، وكان إذا سئل يجيب بما يروي من أحاديث الرسول أو أقوال الصحابة والتابعين، ولم يشتهر أمره كفقيه. ولم يكن له أصحاب يدونون أقواله ويأخذون عنه مبانيه الفقهية وطرقه في الاستنباط، كما فعل غيره من أئمة الفقه.

لقد كان اعتراض الطبري وجيها، لم يجد معه الحنابلة جوابا سوى إرهابه والشغب عليه، حتى تدخلت الشرطة. لذلك نجد أن ابن خزيمة وهو أحد أئمة الحديث يقول عنه: ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة(١).

وإذا كان الطبري أعلم من على الأرض في عصره، فلا نظن أنه خفي عليه أمر أحمد، والحقيقة إذن أن أحمد لم يكن فقيها كما سيدعي أصحابه، لصناعة مذهب فقهي له. وإنما كان محدثا يجيب برواية الحديث والآية إذا سئل. يقول المحقق جعفر السبحاني بعدما ذكر أن أحمد كان محدثا كبيرا ولم يكن فقيها مجتهدا: لأن «الاجتهاد بالمعنى المصطلح الذي كان يتمتع به سائر الأئمة لم يكن متوفرا فيه، إلا ببعض مراتبه الضئيلة التي لا يصح عده معها أحد الأئمة الفقهاء، فإن للاجتهاد مؤهلات وشرائط محررة في محلها، أعظمها وجود ملكة قدسية يقتدر معها الإنسان على استخراج الفروع عن الأصول. وأما الافتاء بالحكم في ضوء النص الصريح

يحدثون الضوضاء حول تعاليم أهل السنة، وفي غالب الأحيان تصاحب حركات الجماهير القسوة والغلظة وأحيانا يأتون بأعمال وحشية تذهب فيها أرواح الناس، فأية مسألة في تفسيره القرآن لا تجعل خاصة العلماء فقط فرقا، بل تجعل الشعب الجاهل كذلك شيعا وأحزابا، تتشاجر في الطرقات. وقد فهم الحنابلة المتعصبون هذه الغريزة في الجماهير التي لا تحسن النظر، وعرفوا كيف يثيرونها ضد الثائرين من أهل البدع الدينية، ويجعلون من ذلك نزاعا يمس العقيدة. وقد كانت من نتيجة حملاتهم هذه، الفتنة التي وقعت في بغداد. يقول ابن الأثير: «في هذه السنة توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد، ودفن ليلا بداره، لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا، وادعوا عليه الرفض، ثم ادعوا عليه الإلحاد، وكان علي بن عيسى يقول: «والله لو سئل هؤلاء عن الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه»». أنظر النهج الأحمد، ج ١ ص ٣٨.

(١) النهج الأحمد، ج ١ ص ٣٩، عن العبر للذهبي، ج ٢ ص ١٤٦.

الوارد فيه فليس إلا مرتبة ضعيفة من الاجتهاد. والاجتهاد المطلق يستدعي ذهنا وقادا مشققا للفروع ومستخرجا إياها من الأصول، إلى غير ذلك مما يقول به أئمة الفقه.

والمعروف من الإمام أحمد غير ذلك فإن اجتهاده كان أشبه باجتهاد الإخباريين والمحدثين الذين يفتون بنص الحديث ويتوقفون في غير مورده[1].

ومهما يكن فقد تداولت الأجيال هذه التهمة - كون أحمد ليس فقيها - وحاول الحنابلة جهدهم تفنيدها والدفاع عن فقاهة إمامهم. ومما يجعل الأمر أكثر تعقيدا بالنسبة لهم، أن هذا الكلام لا يقول به أعداؤهم أو ممن هم خارج دائرة أهل السنة والجماعة، وإنما قال به علماء وفقهاء هذا الفريق، وانتشر بين الطلبة والمدرسين. يقول ابن عقيل وهو فقيه حنبلي جاء بعد عصر الإمام أحمد ابن حنبل: «عجيب ما سمعته عن هؤلاء الأحداث الجهال إنهم يقولون:

أحمد ليس فقيه، لكنه محدث. قال وهذا غاية الجهل، لأن له اختيارات بناها على الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وربما زاد على كبارهم... قلت: ما أحسبهم يظنونه محدثا وبس، بل يتخيلونه من بابة محدثي زماننا، والله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث ومالك والشافعي، وأبي يوسف[2].

أما نحن فلا نعتقد أن القسم بالله سيفيد الحنابلة في إثبات إمامة صاحبهم في الفقه، لأن القسم قد يكون كاذبا كما يكون صادقا. وهذه مسألة علمية لها واقعها الموضوعي، وهو تراث أحمد الفقهي وحصيلته العلمية. ولأن أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى لم يحتاجوا إلى القسم بالله العظيم لإثبات أن أئمتهم فقهاء. وإنما اعتمدوا على تراثهم الفقهي والاجتهادي وسيرتهم التاريخية التي اشتهرت بين الناس.

وإذا كانت هذه الشبهة لازمة لأحمد وسيرته العلمية وليس في مقدور الحنابلة

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ٣١٣.

(٢) العواصم والقواصم، ج ٤ ص ٢٤٢، ٢٤٤.

أن يزحزحوها عنه بالطرق العلمية الموضوعية. فإن التراث الفقهي المنسوب له والذي تشكل منه مذهبه، سيعمق الأزمة من جديد. حيث عرض المحققون الكثير من الشبهات حول نسبة هذا الفقه لأحمد بن حنبل. وكثرت الاعتراضات قديما وحديثا حول هذا الكم الهائل من الآراء والاختيارات الفقهية والأصولية المضمنة فيما سمي «المذهب الحنبلي». وهذه الشكوك الجديدة والمختلفة عضدت ودعمت فكرة أن الإمام أحمد بن حنبل إنما كان محدثا مشهورا ولم يكن فقيها أو مجتهدا بالمعنى الاصطلاحي لكلمة فقه واجتهاد.

أما مذهبه الفقهي فإن مؤرخي الفكر الإسلامي العام عندما يتعرضون لمذهبه الفقهي فإنهم يتكلمون عن مجموعة فقهية منسوبة للإمام أحمد. وهذا التعبير لا تجده دارجا في وصفهم لباقي المذاهب الفقهية الأخرى[١]. يقول الشيخ أبو زهرة المصري: «ومهما يكن حكم العلماء على أحمد من حيث كونه فقيها فإن بين أيدينا مجموعة فقهية تنسب إليه. وروايات مختلفة ومتعددة ذات سند مرفوع تحكى عنه، وقد تلقاها العلماء بالقبول. وإن كان بعضهم منذ القدم قد أثار حولها غبارا وإن لم يحجبها، ولم يطمسها، فإن العين عند الدراسة تواجهه في كشف الحقيقة من ورائه»[٢].

---

(١) ممن ذكر مثل هذه العبارة الشيخ أبو زهرة، وقد أكثر من إيرادها وهو يناقش فقه أحمد، وإن كان قد انتهى إلى القول بأن هذه المجموعة الفقهية المنسوبة لأحمد قد انتهى العلماء والمتأخرون بقبولها. وكأن الموضوع قد انتهى وطويت المشكلة بمجرد قبول المتأخرين لها.
والحقيقة أن الدراسة لتاريخ المذاهب الإسلامية عامة، الفقهية والأصولية، يفجر الكثير من الإشكاليات المغضوض عنها طرفا.

(٢) أبو زهرة، أحمد بن حنبل: حياته وعصره، ص ١٥٥.

المذهب الفقهي والأصولي المنسوب لأحمد بن حنبل

في الفقه:

أجمع المؤرخون على أن أحمد بن حنبل لم يصنف كتابا في الفقه يعد أصلا يؤخذ منه مذهبه، فلم يكتب إلا الحديث، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية، منها المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة في الصلاة، كتبها إلى إمام صلى هو وراءه فأساء في صلاته.

وهذه الكتابة هي أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأي أو قياس أو استنباط فقهي، بل اتباع لعلم، وفهم لنصوص، فرسالته في الصلاة، والمناسك الكبير والصغير، هي كتب حديث، وإن كانت في موضوعات مما تناولها الفقه بالبسط والشرح والتوضيح، ولكنها كأكثر العبادات أعمال نصوص صريحة، أو اتباع عمل مروي.

وإذا كان أحمد لم يدون في الفقه كتابا ولم ينشر آراءه، ولم يملها على تلاميذه، كما كان يفعل أبو حنيفة، فإن الاعتماد في نقل فقهه كان على عمل تلامذته فقط، وهنا نجد كما نوهنا، الغبار يثار حول ذلك النقل من نواح عدة:

أولها: إن أحمد كان طول حياته يكره أن تنقل عنه الفتاوى أو تدون، أو تنشر باسمه كما أشرنا من قبل، ويروى في هذا أن أحمد بن الحسين بن حسان قال: «قال رجل لأبي عبد الله أريد أن أكتب هذه المسائل، فإني أخاف النسيان، فقال أحمد بن حنبل لا تكتب، فإني أكره أن أكتب رأيي، وأحس مرة بإنسان يكتب، ومعه ألواح في كمه، فقال: لا تكتب رأيا لعلي أقول الساعة بمسألة، ثم أرجع غدا عنها»[1] وإذا كان أحمد يكره أن تنقل عنه مسائل، وأن ما كتب كان بكراهة منه، أو خفية عنه، فإن

---

(١) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، ص ١٧.

المنقول لا بد أن يكون قليلا. وإذا كان كثيرا، فالخطأ قريب راجح في العقل، وقد رويت عنه مسائل كثيرة لا تقل عما روى عن أبي حنيفة ومالك، فكانت تلك الكثرة مع هذا النص ذريعة الخطأ والرد.

ثانيها: أن بعض الصحابة الذين أكثروا من النقل عنه، والذين قد أثرت عنهم عبارات تدل على أنهم نشروا عن أحمد مسائل قبل أن يروه، فحرب الكرماني وهو ممن أكثر الرواية عن أحمد، ذكر أنه نشر أربعة آلاف مسألة بالسماع قبل أن يراه، بل إن الذي روى هذا الفقه وهو أبو بكر الخلال يحكي أن المسائل التي رواها عن حرب، وهي أربعة آلاف هذه قد رواها حرب من غير تلق عن أحمد، وإليك نص ما يقول الخلال: «قال لي: كنت أتصوف قديما، فلم أتقدم في السماع، وقال لي: هذه المسائل حفظتها قبل أن أقدم إلى أبي عبد الله، وقبل أن أقدم إلى إسحاق بن راهويه، وقال لي: هي أربع آلاف عن أبي عبد الله، وإسحاق بن راهويه، ولم أعدها»[1].

وإذا كان الخلال كما يقول الشيخ أبو زهرة وهو يعد كأسد بن الفرات وسحنون في رواية المذهب المالكي، قد روى مسائل لم يتلقها عن صاحبها وهو حي وأن عددها كبير جدا فمن حق العلم أن يتظنن في النقل، وألا يسلم من غير أن يزيل ذلك الريب.

ثالثها: إن المروي عن ذلك الإمام الأثري الذي كان يتحفظ في الفتيا، فيقيد نفسه بالأثر، ويتوقف حيث لا أثر ولا نص بشكل عام - ولا يلجأ إلى رأي إلا في الضرورة القصوى التي تلجئه إلى الافتاء - كان المروي كثيرا جدا والأقوال المروية عنه متضاربة. وذلك لا يتفق مع ما عرف عنه من عدم الفتوى إلا فيما يقع من المسائل، ولا يفرض الفروض، ولا يشقق الفروع ويطرد العلل، ولقد كان يكثر من لا أدري ويقتدي بذلك بمالك وابن عيينة.

---

(١) نفس المرجع، ص ١٠٣.

رابعها: إن أحمد قد اشتهر أنه رجع عن مسائل كثيرة نشرت عنه بخراسان فجردها من نسبتها إليه، فكيف ينسب إليه ما جرد نفسه منه، ونفاه، وأعلن أنه ليس برأي له، وأنه لا يصح نقله عنه.

خامسها: إن الفقه المنقول عن أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضاربا يصعب على العقل أن يقبل نسبة كل هذه الأقوال إليه! وافتح أي كتاب من كتب الحنابلة، واعمد إلى أي باب من أبوابه تجده لا يخلو من عدة مسائل اختلفت فيه الرواية بين لا ونعم، أي بين النفي المجرد، والإثبات المجرد - كما يقول الشيخ أبو زهرة -، ولنفتح مثلا كتاب الفروع. في باب من أبوابه، وقد وقع نظرنا على باب من أبواب الزكاة، وهو حكم الزيادة التي يأخذها جامع الزكاة. أتحتسب من زكاة العام المقبل أم لا تحتسب، ثم أتحتسب الهدايا للعامل من الزكاة أم لا تحتسب؟ فقال: «وإن أخذ الساعي فوق حقه اعتد بالزيادة من سنة ثانية، نص عليه، وقال أحمد رحمه الله يحسب ما أهداه للعامل من الزيادة، وعنه لا يعتد بذلك... وإن زاد في الخرص(أي التقدير بالظن) هل يحتسب بالزيادة من الزكاة؟ فيه روايتان»[1].

وهكذا كلما سرت مطمئنا قليلا عثرت باختلاف الروايات كثيرا ثم محاولة التوفيق بتوفيق مقبول، وقريب أو بعيد، وأن ذلك من شأنه أن يثير الريب حول النسبة[2]. إن هذه النقاط الخمس التي ذكرها الشيخ أبو زهرة بخصوص الفقه المنسوب لأحمد تعتبر من الإشكالات الوجيهة والتي لم يستطع الحنابلة الإجابة عنها بأجوبة علمية.

أما في ما يخص الاختلاف وكثرة التناقض في الروايات المنسوبة لأحمد فيقول بعض الكتاب أن سبب ذلك يرجع إلى أن أصحابه أخذوا آراءه الفقهية من أقواله وأفعاله وأجوبته ورواياته، وقد يكون أحمد بن حنبل قد أفتى في إحدى الواقعات

---

(١) الفروع، ج ١ ص ٩٢٥.

(٢) أحمد بن حنبل، لأبي زهرة، ص ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.

بما يتفق مع الأثر، ثم أفتى في أخرى تقارب الأولى ولكن اقترنت بأحوال وملابسات جعلت الأنسب أن يفتي فيها بما يخالف الأولى، وعندها يرى الرواة الاثنين وهم يحسبون أن بينهم تضاربا...

وقد يضطر (أحمد) إلى القياس أي الرأي وأوجه الرأي مختلفة ومتضاربة، وقد يتعارض في نظره وجهان من أوجه الرأي ويذكر الاحتمالين فينسب الرواة إليه قولين. من أجل هذا اختلفت الآراء الفقهية المنسوبة إليه[1].

والحقيقة أن هذا التخريج لأسباب الاختلاف والتناقض، فيه بعضا من الصواب كما أن فيه الكثير من التهافت والتلفيق، ويجعل من أحمد أحد الفقهاء المشتغلين بكثرة الفتوى والردود، والواقع التاريخي عكس ذلك تماما.

فأحمد بن حنبل كان يبتعد كثيرا عن الافتاء. وإنما أغلب أجوبته روايات ونقل للأخبار والأحاديث. وهذه لا ينطبق عليها الاختلاف الكثير عند النقل كما هو موجود في الفتوى الفقهية المبنية على الاجتهاد.

أما المعضلة الأخرى التي حيرت أرباب هذا المذهب والقيمين عليه.

فتمثلت في اختلافهم في تفسير عبارات وردت على لسان أحمد في إجابته عن مسائل سئل عنها. فكانت عباراته ليست صريحة في إثبات الحرمة، أو في بيان أن الحكم هو الطلب على سبيل الوجوب أو على سبيل الندب، فمثلا كلمة «لا ينبغي» في كثير من إجاباته، فقد ذكروا أنه يستحب فراق غير العفيفة واحتجوا بقول أحمد: لا ينبغي أن يمسكها، فحملوا ذلك على الكراهة. ومسألة أبو طالب: عن الرجل يصلي إلى القبر والحمام والحش. فقال أحمد: لا ينبغي: قال أبو طالب، فإن كان؟ قال: يجزيه.

وسأله أبو طالب فيمن يقرأ في الأربع كلها بالحمد وسورة؟ قال: لا ينبغي

---

(١) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ج ٣ ص ١٩٥، ١٩٦.

أن يفعل. فحملوا هذا على الكراهة، وكذلك قوله: أكره، أولا يعجبني، أو لا أحبه، أو استحسنه، حملوا ذلك كله على الكراهة، ومنهم من يحمله على الحرمة، وقد نقل ابن القيم الجوزية روايات كثيرة عن أحمد جاءت بلفظ الكراهة، والمقصود التحريم.

قال ابن أبي يعلي: وليست جوابات إمامنا في الأزمنة والأعصار إلا بمثابة ما يروي عن النبيﷺ من الآثار، لا يسقط نهايتها موجبات بدايتها إلا بأمر صريح بالنسخ أو التخفيف، فإذا عدم ذلك كان على موجبات رعايته، فكذلك في جواباته إذ العلماء أنكروا على أصحاب الشافعي من حيث الجديد والعتيق، وأنه إذا ثبت القول فلا يرد إلا باليقين، فكذلك في جوابات إمامنا[1].

إن وجود ألفاظ مثل: «يعجبني ولا يعجبني وأكره ولا ينبغي» بشكل غامض وغير محدد في أجوبة أحمد يدعم القول بكونه ليس فقيها متمرسا كباقي الأئمة، وإلا لأستخدم مصطلحات فقهية واضحة في فتاويه. ولكنه كان محدثا يحفظ مئات بل الألوف من الأحاديث. ولما اشتهر أمره بعد المحنة انهال عليه العامة وقصدوه بأسئلتهم فكان يجيب بطريقته الخاصة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا كان أحمد كما يقول أصحابه كان لا يفتي إلا اعتمادا على الأثر. لماذا وضع الحنابلة في حيرة عند ترجيح أقواله ومعرفة ما يقصد به من قوله: يعجبني ولا ينبغي، لماذا لا يرجع إلى الأثر لمعرفة حقيقة الأمر؟.

والواقع أن المطلع على سيرة هذا الرجل بتمعن وتأمل، يلاحظ أنه كان مجرد محدث يطلب العلم عبر حفظ الحديث ونشره وروايته. وأنه أقحم في محنة خلق القرآن إقحاما، وقد انفرجت هذه المحنة على اشتهاره، فوجد الخليفة العباسي على بابه يبجله ويرفع مكانه ويعتمده وأصحابه كبديل عن المعتزلة الذين أثاروا تلك الفتنة. وتبعه العامة وطرقوا بابه واحتشدوا حوله، فوجد نفسه في زحمة الأحداث

(١) أسد حيدر، م ٢، ص ٥١١ - ٥١٢.

وقد أحاطت به الأسئلة من كل جانب فكان لا بد أن يجيب عن بعضها، ومشت الأمور على عكس ما كان يرغب فيه هذا المحدث.

لذلك يمكننا أن نرجح أن ابن حنبل لربما جاء كضرورة تاريخية، خاصة بأهل الحديث الذين كانت تتجاذبهم مذاهب فقهية وأصولية شتى متفرقة ومتناقضة. فكان يراودهم حلم ما بظهور وبروز شخصية منهم تتوفر فيها الشروط الذاتية والموضوعية، لجمع شملهم ووضعهم تحت قيادة واحدة، وتنظيمهم في تيار موحد، يشبه مثلا مذهب الاعتزال. فكان أحمد بن حنبل وكان السعي الحثيث من طرف أهل الحديث لتحقيق هذا الهدف والتمني.

لقد كان أحمد محدثا وحافظا تستوعب ذاكرته آلاف الروايات، وكان لا يختلف في عقائده الأساسية مع أهل الحديث إلا ما كان من إيمانه بخلافة الإمام علي، وحب أهل بيته. فإن أصحاب الحديث كانت لهم مذاهب مختلفة في الإمام علي، أكثرها اعتناقا عدم القول بإمامته. وإذا كان تيار الحشو سائدا، بل غلب على أهل الحديث ومذاهبهم، وكانوا يتعرضون لغمز العلماء وانتقادهم، فقد ظهرت الفرصة سانحة مع أحمد بن حنبل، فبدأت أفواجهم بالانضواء تحت مذهبه وإعلان انتسابها له، بعد ما صنع له مذهب في الأصول والفروع، ولم يعد الحشوية بعدها فرقة أو تياراً ضمن أهل الحديث ولكن أصبح كل حنبلي موسوما بالحشوية، كما عرف كل حشوي بانتمائه لهذا المذهب.

في الأصول:

إذا كان العلماء قد ناقشوا نسبة أحمد إلى الفقه ونفوا عنه أن يكون فقيها مجتهدا، كما شككوا في معظم ما نسب إليه من فقه، فإن الصراع سيحتدم من جديد حول عقائد أحمد وما كان يؤمن به ويعتقده، فقد تضاربت الأقوال المنسوبة إليه في العقائد. وكذلك هل كان أحمد مشبها ومجسما؟

بعض العلماء من خارج المذهب الحنبلي وبعضهم من داخله ينفون نفيا

قاطعا أن يكون أحمد على عقائد التشبيه أو التجسيم، كما هو الحال لدى الحشوية أتباع مذهبه. ويتذرعون بأن أحمد كان متبعا للسلف في عقائده، ولم يكن السلف مشبهة أو مجسمة. بل كان أغلبهم متوقفون مفوضة فيما يخص تأويل آيات الصفات الخبرية، التي قد يفهم من ظاهرها نوع ما من التشبيه أو التجسيم تعالى الله عن ذلك.

ولكن ما بال هذه الأحاديث والأقوال التي يتداولها الحنابلة في كتبهم المعتمدة في العقائد. وهي تنضح بهذه الإسرائيليات والموضوعات، وكيف تنسب لأحمد ومن ثم للسلف. الواقع أن انضواء جماهير المحدثين تحت لواء أحمد بن حنبل واحتمائهم أو تسترهم وراء مذهبه الذي صنعوه له قد جعلهم يحملون تراثهم الحديثي معهم، ومن ضمنه الحجم الهائل للروايات المحشوة فيه من عقائد التجسيم والتشبيه المتسربة إليهم من أهل الكتاب.

وإذا علمنا أن أحمد بن حنبل نفسه قد روى كثيرا منها أو رويت عنه، فلا يبقى هناك مجال للشك في أن تراث الحشوية قد ضم بالكامل إلى مصادر المذهب الحنبلي وأصبح معتمد المقلدين. لذلك تعرض الحنابلة على طول التاريخ لتهمة التشبيه والتجسيم، ولم تنفك عنهم. ليس فقط من خصومهم. ولكن كذلك من بعض علماء هذا المذهب الذين اعتبروا تقليده في الفروع وتبنوا عقائد أهل السنة والجماعة من الأشاعرة في الأصول، أو تتلمذوا على عقائد الاعتزال والتصوف.

ابن حنبل وعقيدة التجسيم:

يقول صاحب الفكر السامي: قد رموه هو (أي ابن حنبل) وأصحابه بالحلول والتجسيم وبالجهة حيث قال بالفوقية والعلو الواردين في النصوص وللاستواء، ونسبوا إليه القول بقدم الحروف والأصوات[١]. وإلى تلك المعتقدات أشار

(١) الفكر السامي، ج ٢ ص ٢٢.

الزمخشري في نظمه وهو يعرض لوصف المذاهب الأربعة.

يقول عن المذهب الحنبلي:

وان حنبليا قلت قالوا بأنني ثقيل حلولي بغيض مجسم[١]

ويقول الذهبي في كتابه «زغل العلوم» وقد ذكر الحنابلة وما ينقم عليهم ما لفظه: والعلماء يتكلمون في عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم، وبأنه يلزمهم، وهم بريئون من ذلك إلا نادرا[٢].

والحقيقة أنهم كذلك إلا قليلا منهم، وقد عكس الذهبي الحقيقة والعلماء الذين ذكروهم لا يفترون عليهم. ومنهم ابن الجوزي الحنبلي كما سيأتي.

ولقد انبرى كما قلت سابقا بعض العلماء لنفي هذه التهمة عن أحمد باعتباره رابع الأئمة المعترف بتقليدهم. ولكن محاولاتهم راحت أدراج الرياح. يقول الحشوية إن أحمد بن حنبل يقول كذا أو روي عنه كذا، ويقول غيرهم أن ما يقولونه منكر من القول، لا يصح أن ينسب لهذا الإمام السلفي الأثري، لكنهم أصحابه وأقرب الناس إليه كما يدعون وأعلم بمذهبه من غيره.

أليسوا هم من صنعه وأقام صرحه؟!.

يقول الشيخ أبو زهرة: إن ابن تيمية يقرر أن مذهب السلف هو إثبات كل ما جاء في القرآن من فوقية وتحتية واستواء على العرش. ووجه ويد ومحبة وبغض. وما جاء في السنة من ذلك أيضا من غير تأويل، وبالظاهر الحرفي. فهل هذا مذهب السلف حقا؟.

ونقول في الإجابة عن ذلك: لقد سبقه بهذا الحنابلة في القرن الرابع الهجري كما بينا. وادعوا إن ذلك مذهب السلف، وناقشهم العلماء في ذلك الوقت وأثبتوا أن

---

(١) المرجع نفس، ص ٢٣.

(٢) العواصم والقواصم، ج ٤ - ص ٣٢٥.

اعتقادهم هذا يؤدي إلى التشبيه والجسمية لا محالة، وكيف لا يؤدي إليهما، والإشارة الحسية إليه جائزة، ولذلك تصدى لهم الفقيه الحنبلي «ابن الجوزي» ونفى أن يكون ذلك مذهب السلف، ونفى أيضا أن يكون ذلك رأي «الإمام أحمد». يقول ابن الجوزي في ذلك:

رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصح، فصنعوا كتبا شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة ووجها زائدا على الذات، وفما ولهوات وأضراسا، وأضواء لوجه، ويدين وإصبعين وكفا وخنصرا وإبهاما، وصدرا وفخذا وساقين ورجلين، وقالوا ما سمعنا بذكر الرأس، وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل. ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر من صفات الحدث. ولم يقنعوا أن يقولوا صفة فعل، حتى قالوا صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لا نحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجئ وإتيـان على معنى بر ولطف...

ولا ساق على شدة، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين، والشئ إنما يعمل على حقيقته إن أمكن، فإن صرف صارف حمل على المجاز، ثم يتحرجون من التشبيه، ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع، وقلت لهم يا أصحابنا، أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر «أحمد بن حنبل» رحمه الله يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يقل، فإياكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه، ثم قلتم في الأحاديث، تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم الجارحة، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغي ألا يهمل ما يثبت به الأصل، وهو العقل، فإنا به

عرفنا الله تعالى، وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت ما أنكر أحد عليكم، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل السلفي ما ليس فيه»[١].

لم يستمع الحشوية لنصيحة ابن الجوزي أو غيره من العلماء، بل أكثروا الكذب على أحمد بن حنبل ورووا عنه مجمل عقائدهم وأدخلوا كل ما جمعوه من أحاديث أهل الكتاب من اليهود والنصارى وجعلوها أسس وقواعد مذهبه الأصولي. فاعتقدوها ودعوا العامة للإيمان بها، وكفروا من خالفهم في ذلك، سواء كان حنبليا أم لا.

وعليه يحق لنا أن نؤكد، إن ما يعرف بالمذهب الحنبلي أو ما يوصف اليوم بالمذهب السلفي، ما هو إلا عقائد الحشوية وآراؤهم، جمعت ودونت ونسبت لهذا المحدث الذي اختارته الظروف التاريخية ليتبوأ الزعامة داخل تيار أصحاب الحديث. فليس لابن حنبل في مذهبه إلا الاسم، ونزر قليل إن وجد من آرائه واختياراته، وقد اختلط وضاع ضمن الكم الهائل لآراء هؤلاء الحشوية وخصوصا في العقائد.

مسند ابن حنبل: الزيادة والتحريف:

لم يسلم «المسند» الكتاب الذي اشتهرت نسبته لأحمد من التحريف والزيادة فهذا ابن تيمية يقول في كتابه منهاج السنة عن المسند، إن عبد الله قد زاد فيه زياداته ثم زاد أبو بكر القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة فظن الجهال[٢] إن ذلك

---

(١) أبو زهرة، ابن تيمية، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) إن قول ابن تيمية «فظن الجهال» فيه سوء أدب من الشيخ كما لا يخفى. فيكف يتسنى لطالب العلم أو عالم أن يقرأ كتاب المسند ويطالع مروياته ثم يقول: هذه رواها أحمد، هذه زيادة ابنه عبد الله أو غيره، وليس هناك ما يشير إلى ذلك. نعتقد أن قوله هذا واعترافه الصريح بالزيادة في المسند ليس مرده البحث الموضوع أو الإنصاف، وإنما ليتسنى له تضعيف ورفض ما روي في المسند من فضائل علي بن أبي طالب

من رواية أحمد رواها في المسند... وهذا خطأ[١].

وقول ابن تيمية هذا فيه الكثير من المغالطة وقد خالفه العراقي في هذا وقرر أن في المسند أحاديث ضعيفة كثيرة، وأحاديث موضوعة قليلة، وناقض ابن تيمية في قوله، إن الموضوع من زيادات القطيعي لا من رواية أحمد أو ابنه. وأيد مناقضته بدليل مادي. فأورد عددا محدودا من الأحاديث التي قال أهل الشأن إنها من الأحاديث الموضوعة وهي من رواية أحمد ورواية ابنه[٢].

وقد رد ابن الجوزي دعوى الذين يزعمون أن المسند ليس فيه ضعيف، وهم ليسوا من علية العلماء، فقال: «سألني بعض أصحاب الحديث هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح، فقلت نعم، فعظم ذلك على جماعة ينسبون إلى المذهب فحملت أمرهم على أنهم عوام، وأهملت فكر ذلك، وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان، منهم أبو العلاء الهمداني، يعظمون هذا القول، ويردونه، ويقبحون قول من قاله، فبقيت دهشا متعجبا وقلت في نفسي: واعجبا!! صار المنتسبون إلى العلم عامة أيضا، وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث. ولم يبحثوا عن صحيحه من سقيمه، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد، وليس كذلك، فإن أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيرا مما روي، ولم يقل به ولم يجعله مذهبا له»[٣].

والزيادة في مسند أحمد من الأمور التي ذكرها أكثر من واحد ممن تعرضوا للمسند. فقد الحق ابنه ما يشاكله وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله.

وأهل بيته، فإنه كان لا يجد حديثا يخصهم إلا ورام تضعيفه، أو بحث له عن علة تجرحه. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لقد ورث الأمويون بغضهم عليا وآل بيته المجتمع الإسلامي عامة، وبعضا ممن ينتسب لأهل العلم.

(١) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ج ٣ ص ١٩٠.

(٢) أحمد بن حنبل، ص ١٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٦ – ١٦٧.

والمعتقد أن ما أضافه ابن أحمد هو ما سبق أن سمعه من أبيه ولكن لم يكن مما أملاه أحمد عليهم عند إملاء المسند[١].

وأحمد بن حنبل عندما عمل المسند وأمر بكتابته مع أنه كان يكره الكتابة، قام بهذا العمل، ليجعل من المسند للناس إماما[٢]، إذا ما أختلف في سنة الرسول ﷺ. بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، حين اعتبر أن الحديث - كما يروي عنه أصحابه - إذا لم يوجد في المسند فلا عبرة به.

أما كتاب «الرد على الجهمية» (المعتزلة)، والمنسوب إليه أيضا فقد أكد العلماء أن هذه النسبة لا تصح، يقول الشيخ زاهد الكوثري: وفي كتاب الرد على الجهمية المنسوب إلى أحمد إن هذه الآية ﴿ليس كمثله شئ وهو السميع البصير﴾ من المتشابه وهي كلمة خبيثة تبرأ منها عهدة الإمام أحمد، بل هذه الآية من المحكمات التي ترد إليها المتشابهات، ونسبة الكتاب إليه نسبة كاذبة كما دللنا على ذلك فيما علقناه على السيف الصقيل، وإلا ففيه كثير مما يسقط قائله، ككتاب السنة المنسوب إلى ابنه[٣].

والحقيقة أن هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي شيوع وانتشار الكذب في

---

(١) المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ج ٣ ص ١٨٩، نقلا عن أحمد محنة الدين والدنيا.

(٢) ولكن السلفيين لم يتخذوه إماما، وهم مع غيرهم من باقي المسلمين يقدمون عليه صحيحي البخاري ومسلم. بل إن غيره من مجامع السنة أكثر شهرة منه في التداول، مثل جامع الترمذي. والحقيقة أن هذا طعن عملي في إمامة صاحبهم حتى على مستوى المجال الذي عرف واشتهر به، وهو علم الحديث. أما بخصوص المسند فهو ليس بمستوى صحيح البخاري مثلا في شروط القبول أو الرفض للراوي. قال عبد الله سألت أبي عن حديث ربعي بن خراش عن حذيفة قال: الذي يرويه عبد العزيز بن داوود، قلت: نعم.
قال: الأحاديث بخلافه. قلت: فقد ذكرته في المسند. قال: قصدت في المسند المشهور، ولو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو في هذا المسند إلا الشئ بعد الشئ اليسير، ولكن يا بني تعرف طريقتي في الحديث، لست أخالف ما ضعف إذا لم يكن في الباب شئ يدفعه. أنظر المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٣) الأسماء والصفات، للبيهقي، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري الحنفي وكيل مشيخة الإسلام بالإستانة سابقا. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٢٧٧ الهامش.

كل ما يتعلق بالمذهب الحنبلي، فأقواله الفقهية والأصولية أغلبها مكذوب عليه، والكتب التي نسبت له ثبت عند التحقيق أنها ليست له، والكتب التي اشتهرت له زيد فيها وربما نقص كذلك، لذلك أشار أكثر من واحد إلى أن من مميزات هؤلاء الحشوية الذين صنعوا مذهب أحمد أنهم لا يتورعون عن الكذب. يقول الكوثري ولهذه الفئة (الحشوية) ولع شديد بافتراء الأباطيل ونسبتها إلى أكابر هذه الأمة، ولو استقريت القرون منذ نجمت هذه البدعة، لرأيت في كل قرن إلى زمانك هذا من هذه الطائفة فلولا تشاغب وتموه وبإزائهم جيوشا من أهل السنة بحق تدافع وتبين[١].

ويصرح الشيخ الأزهري ابن خليفة في وجوه خلفهم، ويتهمهم بالافتراء والكذب. يقول: «وما سمعناه من أفواه الحشوية الحنبلية في البلاد الشامية، الداعين للسلفية، وما قرأناه في كتب أسلافهم القدامى، فكم من باطل سربلتموه بلباس الحق، وكم فرية ألصقتموها بالصحابة وأتباعهم مضادة للصدق وكم حذرتم وأنذرتم وكفرتم وتوعدتم المسلمين الآمنين المسالمين الذين لم يقولوا ببدعتكم. ولو يمالقوا سفهاءكم[٢]...».

وإذن ماذا يبقى من المذهب الحنبلي، وهل غابت عن المحققين كل هاته الحقائق؟ كيف وجد هذا المذهب طريقه نحو التقليد فاعتنقته العامة؟ وما هي الإغراءات التي عرضها أصحابه حتى زين في أعين البعض فقلدوه؟.

أعتقد أن الإجابة عن السؤال الأول يجدها القارئ مبثوثة في طيات البحوث السالفة حول قيام وظهور المذاهب وطريقة انتشارها، إما تصريحا أو تلميحا. أما المغريات التي عرضها هؤلاء الحشوية لتزيين صورة إمامهم ومذهبه المختلق له فهي كثرة الكذب حول شخصه. فقد بولغ في وصف ورعه وتقواه. وتناول العامة فضائله

---

(١) نفس المرجع، ص ١٧ – ١٨.

(٢) هذه عقيدة السلف، م س، ص ٧..

ومزاياه، وأضافوا لها من الخرافات والأساطير الشئ الكثير.

ونحن هنا لا نستهين بشخصه ولا ننتقصه. فالله سبحانه وتعالى أعلم وأخبر بورعه وتقواه، ولا يستطيع أحد منا أن يقول فلان أتقى وأورع من الآخر انطلاقا من بعض المظاهر والسلوكيات العملية، فنحن لا نعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وهو سبحانه أعلم بسرائر خلقه ومكانتهم عنده. أقول إن الحشوية بالغوا حقا في وصف هذا الإمام، ويظهر ذلك مما رووه في فضائله. وكان غرضهم إبرازه وجعله متميزا في الساحة العلمية والعملية، حتى يتسنى لهم اعتماده كإمام، فينضوون تحت لوائه. وإلا فقد رأينا أقوال العلماء فيه ووصفهم إياه، وأنه كان من جملة المحدثين، حافظا معتدل الحفظ. وإذا كان غيره قد حكمت الظروف التاريخية عليهم بالخمول فقد ابتلى هو بالشهرة، وكان كارها لها غير راغب فيها. قال الخلال: أخبرنا المروذي: سمعت أبا عبد الله، يقول الخوف منعني أكل الطعام والشراب، فما أشتهيه وما أبالي أن لا يراني أحد ولا أراه، وإني لأشتهي أن أرى عبد الوهاب. قل لعبد الوهاب أخمل ذكرك. فإني قد بليت بالشهرة[١].

الرؤى والمنامات للدعوة إلى تقليد المذهب الحنبلي:

لقد بدأت حركت الوضع عن أحمد بعد وفاته مواكبة أولا، انتصار حشوية أهل الحديث[٢] وانتشار معتقداتهم بين العامة، وبداية التأسيس لإنشاء وصناعة المذهب الحنبلي. فجاءت الروايات الموضوعة متضمنة لمجمل القضايا المتعلقة بهاته المسألتين. وأهم ما عرف به الحنابلة في الانتصار لإمامهم والدعوة لتقليده وترجيح مذهبه، كانت الرؤى والمنامات التي وضعت بكثرة ملفتة للنظر.

---

(١) العواصم والقواصم، ج ٤ ص ٢٣٣

(٢) يقول عبد المتعال الصعيدي: «يقال إنه (أي المتوكل) كان يظاهر فريقا مخصوصا من أهل السنة وهو فريق الحشوية الذين كانوا يحسبون من أهل السنة في ذلك العهد» مجلة رسالة الإسلام، ج ٣ السنة ٣، العدد ١، ص ٦٠.

أما سهولة نقدها والتأكد من وضعها فبسبب احتوائها على بعض القضايا العقائدية التي كان المحدثون يخوضون صراعا مريرا مع خصومهم حول إثباتها مثل مسألة رؤية الله.

حدث إبراهيم الحربي قال: رأيت بشر بن الحارث الحافي في المنام كأنه خارج من باب مسجد الرصافة وفي كمه شئ يتحرك، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال غفر لي وأكرمني، فقلت: ما هذا الذي في كمك؟ قال: قدم علينا البارحة روح أحمد بن حنبل فنشر عليه الدر والياقوت: فهذا مما التقطت.

قلت: ما فعل يحي بن معين وأحمد بن حنبل؟ قال: تركتهما وقد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد، قلت فلما لم تأكل معهما؟ قال: قد عرف هوان الطعام علي فأباحني النظر إلى وجهه الكريم»[١].

أنظر أباحه النظر إلى وجهه الكريم، ولا ندري سبب التقاطه للدر والياقوت وهل يحتاج الناس إليهما في الجنة لغرض ما؟!.

وقال أحمد بن محمد الكندي: رأيت أحمد بن حنبل في المنام فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال غفر لي ثم قال: يا أحمد ضربت في؟ قال:

قلت نعم يا رب قال: يا أحمد هذا وجهي فانظر إليه فقد أبحتك النظر إليه[٢]، والغريب هنا أن أحمد يرى الله ليس يوم القيامة كما هي عقائد أهل الحديث ولكنه يراه في البرزخ.

أما ما وضع وقيل في تفضيل أحمد والدعوة إلى تقليد مذهبه في الفروع والأصول، فهو كثير. وقد استدل به على ترجيح مذهبه. يشهد لذلك قول أبي الخطاب المتوفى سنة ٤٧٦ هـ:

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ج ١، ص ٦٥.
(٢) طبقات الحنابلة، ص ١١.

وعن مذهبي إن تسألوا فابن حنبل   به أقتدي ما دمت حيا أمتع
وذلك لأني في المنام رأيته   يروح ويغدو في الجنان ويرتع[(١)]

ويقول بعضهم: رأيت أبا الخطاب في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فأنشد:

أتيت ربي بمثل هذا   فقال ذا المذهب السديد
محفوظ ثم في الجنان حتى   ينقلك السائق الشهيد

ومحفوظ هو اسمه وهو كلواذ، وكان من شيوخ الحنابلة وأعيانهم، لما مات دفن إلى جنب قبر أحمد. وكثرت المنامات التي تعطي مؤداها صورة عن عظمة شخصية أحمد وتعلق العامة به[(٢)].

وقال عبد الوهاب الوراق: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أقبل فقال لي:

ما لي أراك محزونا فقلت: وكيف لا أكون محزونا وقد حل بأمتك ما قد ترى؟ فقال لي: لينتهين الناس إلى مذهب أحمد بن حنبل، لينتهين الناس إلى مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله[(٣)].

ونقل ابن الجوزي عن علي بن إسماعيل أنه قال: رأيت أن القيامة قد قامت وكأن الناس قد جاؤوا إلى موضع عند قنطرة، لا يترك أحد يجوز حتى يجئ بخاتم، ورجل ناحية يختم للناس ويعطيهم. فمن جاء بخاتم جاز، فقلت، من هذا الذي يعطي الخواتيم؟ فقالوا: هذا أحمد بن حنبل[(٤)].

وقد سبقتهم الحنفية لهذه المنقبة في الاختراع، فقد ذكر المكي في المناقب أن أبا

---

(١) أسد حيدر، ج ٤ ص ٤٦٩، نقلا عن طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٤٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦٩.
(٣) طبقات الحنابلة، ص ١٥٤.
(٤) مناقب أحمد لابن الجوزي، ص ٤٤٦، أنظر أسد حيدر، ج ٤ ص ٤٧٠.

حنيفة رؤي على سرير في بستان، ومعه رق يكتب جوائز قوم فسئل عن ذلك فقال: إن الله قبل عملي ومذهبي وشفعني في أمتي، وأنا أكتب جوائزهم فقيل له: إلى أي غاية يكون علمه حتى تكتب جائزته؟ فقال أبو حنيفة: إذا علم أن التيمم لا يجوز بالرماد. كما أن المالكية يدعون أن مالك يمنع منكرا ونكيرا عن مساءلة أصحابه في القبر.

وعن يحيى الحماني قال: رأيت في المنام كأني في صفة لي إذ جاء النبيﷺ فأخذ بعضادتي الباب، ثم أذن وأقام: وقال: نجا الناجون وهلك الهالكون فقلت: من الناجون؟ قال: أحمد بن حنبل وأصحابه[1]. ويحيى الحماني معروف بالكذب والوضع.

إلى غير ذلك من المنامات والأطياف التي وضعها أنصار المذهب الحنبلي ليوجهوا الناس إليه في عصر طغى فيه تيار التعصب، وجعلت الطائفية أداة لأغراض الولاة. وستارا تعمل من ورائه الأيدي العابثة التي تحمل معول الهدم وأداة التخريب.

وقد استخدموا القصاصين في استثمار هذه الوسائل تحقيقا للهدف، ونيلا للغرض الذي يحصل من وراء ذلك، فتراهم يقومون في الأندية، والمساجد والطرقات، يحدثون بما يعضد المذهب وانتشاره، فهذا يقص عمن لا يعرفه:

بأنه رأى في المنام بعض الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

غفر لي. قيل: من وجدت أكثر أهل الجنة؟ قال: أصحاب الشافعي: فقال له:

فأين أصحاب أحمد بن حنبل، فأجابه: إنك سألتني عن أكثر أهل الجنة وما سألتني عن أعلى عليين، أصحاب أحمد في أعلى أهل الجنة، وأصحاب الشافعي أكثر أهل الجنة[2].

---

(١) المناقب لابن الجوزي، ص ٥٠٤.

(٢) أسد حيدر، ص ٤٧٠ – ٤٧١.

ويظهر أن هذه الرؤية وضعت أيام الوئام بين الشافعية وحشوية الحنابلة، أما بعد انفجار الصراع بينهما فلم يكن الحشوية يكتفون بتكفير الشوافع، وإنما ترصدوا لهم في الطرقات وقتلوهم واعتدوا عليهم.

ومع كثرة هذه الرؤى والمنامات التي ترغب في مذهبهم، بدأ التصعيد نحو الغلو والمتطرف، الغرض منه التقليل من شأن باقي العلماء والحط من مكانتهم، وجعل إمامة أحمد بن حنبل وكأنها واجبة الاتباع دون غيره. روى بعض الحنابلة، قال الشافعي رضي الله عنه: أحمد إمام في ثمان خصال: إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة[١].

والغريب أن من كانت هذه حقيقته، كيف لم يذكر العلماء ذلك منه. و لماذا لم يعترفوا بإمامته في الفقه ولا في الحديث، فنحن لا نعلم أحدا أطلق عليه اسم أمير المؤمنين في الحديث إلا البخاري، كما أطلق على غيره لقب الحافظ، ولم نسمع أحدا أطلق على أحمد بن حنبل لقبا من هاته الألقاب.

ويقولون أنه انعقد الاجماع على أصوله التي اعتقدها والأخذ بصحة الأخبار التي اعتمدها حتى من زاغ عن هذا الأصل كفروه، وحذروا منه وهجروه[٢]. وقالوا «من أبغض أحمد بن حنبل فقد كفر»[٣]. ويبلغ الغلو مداه البعيد حين يقول أحمد بن حسين: سمعت رجلا من خراسان يقول: عندنا أحمد بن حنبل يرونه أنه لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة.

وقال رجل: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة[٤].

(١) طبقات الحنابلة، ص ٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨.

(٣) نفسه.

(٤) أسد حيدر، م ٤، ص ٤٧١.

وقال إسماعيل بن الخليل لو كان أحمد في بني إسرائيل لكان نبيا[١].

وهذا الغلو والتطرف لم تقل به بعض طوائف الشيعة، التي تتهمها الحشوية بالغلو في أئمتها، يقول الساجي وهو زكريا بن يحيي: أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالك والأوزاعي والثوري والشافعي، وذلك أن هؤلاء لهم نظراء، وأحمد بن حنبل لا نظير له[٢]. لم يكتف الحنابلة بالدعوة لتقليد مذهبهم بطرق غير مباشرة كتمجيد إمامهم وبيان فضله بل دعوا إلى ذلك مباشرة، يقول عبد الله الأنصاري الهروي، أحد شيوخ الحنابلة الكبار.

أنا حنبـلي ما حييت وإن مت فوصيتي للنـاس أن يتحنبلوا[٣]

قلنا سابقا إن أصحاب الحديث لم يكن لهم مذهب خاص يجمعهم أو إمام ينضوون تحت لوائه. ولما ظهر أحمد بن حنبل واجتمعت له المكانة العلمية في مجتمعهم والشهرة الاجتماعية، لملم أصحاب الحديث أمرهم وبدأت حركة الانتساب إلى مذهبه، ونقل على إثرها أهل الحديث والحشوية منهم خاصة تراثهم الحديثي وعقائدهم وضموها لآراء ومواقف هذا الإمام. ومن هذا الخليط، مما نسب لأحمد وما يرويه المحدثون ويعتقدونه تكون المذهب الحنبلي.

وإذا كان للحشوية عقائدهم الخاصة وكتبهم المعتمدة عندهم، فإن ذلك التراث سيصبح المصدر الذي سيستقي منه الحنابلة أفكارهم وعقائدهم، وسيصبح المذهب الحنبلي فيما بعد رحم الحشوية الجديد الذي منه يصدرون، والعش الذي يحتضن كبارهم وعلماءهم. وسنقوم بحول الله برصد بعض من هذه المصادر، ومعرفة ما احتوته من عقائد الحشو. لأنها نفسها مصادر المذهب الحنبلي الخاصة. ليتبين لنا كما قلنا سابقا بأن المذهب الحنبلي قد صنع ليكون رحم الحشوية الجديد.

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٣٥٠.

(٢) طبقات الحنابلة، ص ١٠.

(٣) مختصر طبقات الحنابلة، ص ٦٨.

الوضع العام للمذهب الحنبلي في العقائد

يقول الصفدي: «والغالب في الحنابلة الحشوية»[١].

(١) الغيث المنسجم للصفدي، ج ٢ ص ٤٧. وراجع ضحى الإسلام لأحمد أمين، ج ٣ ص ٧١. أنظر بحوث في الملل والنحل للسبحاني، ج ١ ص ١٢٤.

المذهب الحنبلي رحم الحشوية الجديد

حركة الوضع في الحديث ونتائجها:

يقول الجرجاني: «وسميت الحشوية حشوية لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ قال: وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، وتوصيفه تعالى بالنفس واليد والسمع والبصر، وقالوا، إن كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أيا كانت الواسطة»[1].

لا شك أن الحديث النبوي يعتبر الدعامة الثانية للإسلام، بحيث لا تكتمل الشريعة بدونه. فهو الذي شرح مجملات القرآن وفسرها، وعن طريق الحديث اكتمل التشريع في الأمور التي لم يذكرها القرآن مفصلا. وإذا كان الرسول لا ينطق عن الهوى وإنما هو وحي يوحى فكل ما قاله أو سمع عنه، سيأخذ طابعا إلزاميا تعبديا، مثله مثل القرآن الحكيم. لذلك اهتم الصحابة الأوائل بحديث رسول الله وحفظوه وكتبه بعضهم في حياة الرسول. لكن نهى الخليفة الثاني عن كتابة الحديث بعد وفاة رسول الله ستكون له سلبيات كبيرة. حيث كثر الوضع والكذب على رسول الله بعد ذلك. واختلط مع ما صح عنه ﷺ ورواه عنه أصحابه. وإذا كان الصحابة قد توزعوا في الأمصار فإن معرفة صحيح الحديث من ضعيفه قد أصبحت

---

(١) التعريفات، للجرجاني، ص ٣٤١، والحور العين، ص ٢٠٤. ومعرفة المذاهب ص ١٥.
أنظر بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٢٤. يقول ابن الجوزي الحنبلي يصف أصحابه ممن ينتسبون للمذهب الحنبلي: «قد غمني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم في العلم صاروا كالعامة، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا: قد روي. والبكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم ولا حول ولا قوة إلا بالله».

صعبة المنال. فاغتنم الرواة الكذبة من الأعراب - بدعم من ملوك بني أمية وعلى رأسهم معاوية - الفرصة فرووا العجائب والغرائب ونسبوا كل ذلك إلى «حبيبي رسول الله» كما كانوا يدعون.

كما أن متأسلمة اليهود والنصارى لما فسح لهم المجال على عهد الخليفتين[١] عمر وعثمان وخلال الحكم الأموي، فإنهم لم يألوا جهدا في إدخال مجمل عقائدهم المنحرفة إلى الإسلام عبر الحديث. والكتب الحديثية المعتمدة لدى الحشوية «السلفية» والتي سنعرفها بعد قليل، تزخر بهذه الروايات الإسرائيلية، وبالحشو المنكر والفظيع. الذي شوه عقائد الإسلام الأصيلة والصافية من كل شائبة تخالف التوحيد الحقيقي.

عقائد "الحشوية السلفية" من خلال مصادرهم الحديثية:

قلنا سابقا في تعريفنا للحشوية، بأنهم كانوا يحشون الأحاديث التي لا أصل لها، أو من مرويات أهل الكتاب في أحاديث النبيﷺ. وأن أغلب هذه الأحاديث في التشبيه والتجسيم، وذلك بوصف الذات الإلهية باليد والرجل والنفس والذراع والحقو، وكذا وصفها بما يخص الحوادث من النزول والصعود والتحيز والمكانية، وعندهم أن ذلك إثبات للصفات. وسنعرض لبعض هذه الروايات من كتبهم المعتمدة حتى يتبين للقارئ مدى الانحراف الذي أصاب عقيد التوحيد والتنزيه على يد هؤلاء الحشوية «السلفية» وأهل الحديث.

في التشبيه والتجسيم:

جاء في مجموعة التوحيد: «والنصوص الدالة على إثبات الصفات كثيرة جلدا. وقد صنف أهل السنة من المحدثين والعلماء مصنفات كبارا، ومن ذلك كتاب

---

(١) ذكر ابن سعد صاحب الطبقات أن رجلا دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن القيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ. الطبقات ج ٧ ص ٧٩. وهذا لعمري مخالفة صريحة لنهي الرسول عن قراءة كتب أهل الكتاب وخصوصا اليهود.

«السنة» لعبد الله ابن أحمد، ذكر فيه أقوال الصحابة والتابعين والأئمة. وكتاب «التوحيد» لإمام الأئمة محمد بن خزيمة وكتاب «السنة» للأثرم صاحب الإمام أحمد وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي. وكتاب «السنة» للخلال، وكتاب «العلو» للذهبي وغير ذلك مما لا يحصى كثرة ولله الحمد والمنة[1].

ونحن سننتخب من هذه المصادر المذكورة قليلا من كثير، مما روى أصحابها ويخص التشبيه والتجسيم، وسنبدأ بكتاب»السنة»لعبد الله بن أحمد[2] لخصوصيته عندهم ومكانة أبيه لديهم.

كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد:

يقول عبد الله ابن أحمد في صفة الاستواء والجلوس على العرش:

حدثني أحمد بن سعيد أبو جعفر الدارمي، سمعت أبي خارجة يقول:

الجهمية[3] كفار بلغوا نساءهم أنهن طوالق. وأنهن لا يحللن لأزواجهن، لا تعودوا مرضاهم، ولا تشهدوا جنائزهم ثم تلا ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ فهل يكون الاستواء إلا الجلوس[4]. وموقف بعض السلف هنا التفويض، انظر مالك.

---

(١) مجموعة التوحيد، رسائل لابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهما. تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، ط ١ ١٩٨٧، ج ١ ص ٥٩.

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل، ولد عام ٢١٣هـ وتوفي عام ٢٩٠هـ روى أحاديث أبيه. وكان ملازما له. وكان أبوه لا يأكل من طعامه لأنه كان يقبل جوائز المتوكل وعطاياه والتي كان أحمد يرفضها ويقول: لو كنت أعلم أنها جلبت من حلال لأخذتها.

وكتابه السنة طبعته أول مرة المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩، وهو أحد الكتب المهمة في روايات التجسيم والتشبيه وكذا الإسرائيليات. وقد طبع ونشر ووزع من طرف «السلفية الوهابية» هو وغيره من المصادر الحشوية.

(٣) يقصد المحدثون بكلمة جهمية «المعتزلة» لأن جهم كان معطلا في نظرهم، والمعتزلة يلتقون معه في التعطيل أو التنزيه؟!.

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد، تحقيق أبو هاجر محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ ١٩٨٥ م، ص ١٣.

«حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا علي بن الحسين بن سقيف سألت عبد الله بن المبارك كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا قال: على السماء السابعة على عرشه ولا نقول كما تقول الجهمية إنه هنا في الأرض»[١].

ولسنا ندري ما يقصدون بالجهمية فإنهم يوردونها ويقصدون بها المعتزلة حينا وغيرهم حينا آخر، ولا نعرف للمعتزلة قولا بأن الله هنا في الأرض وهم أصحاب التنزيه وفرسانه؟!.

«... وحدثني أبي حدثنا عبد الرحمان عن أبي إسحاق عن عبد الله بن خليفة عن عمر قال:

إذا جلس على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد[٢]. قال الذهبي في «العلو للعلي الغفار»: «الأطيط الواقع بذات العرش من جنس الأطيط الحاصل في الرحل فذلك صفة للرحل وللعرش ومعاذ الله أن نعده صفة لله عز وجل، ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت»[٣].

وعن عبد الله ابن خليفة عن عمر قال إذا جلس الرب على الكرسي، فاقشعر رجل سماه أبي عند وكيع فغضب وكيع وقال أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها[٤]. أنظر التجسيم الصريح حتى إن الرجل ارتعش لما سمع ذلك، ولكن المحدثين من الحشوية دربوا على رواية مثل هذه المناكير.

«... وعن أبي موسى قال: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرحل»[٥]. سبحانه وتعالى عما يصفون. أنظر يقول: القدمين، فهل هذه عقيدة المسلمين؟!

(١) المصدر السابق، ص ١٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٣) العلو للعلي الغفار، ص ٣٩.
(٤) السنة، ص ٧٩.
(٥) السنة، ص ٧٩.

«... وعن عبد الله بن خليفة قال: جاءت امرأة إلى النبي فقالت: أدع الله أن يدخلني الجنة قال: فعظم الرب وقال وسع كرسيه السماوات والأرض إنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قيد أربع أصابع وإن له أطيطا كأطيط الرحل إذا ركب»[١]. أنظر قوله»ليقعد عليه»فهل هناك حشو أخطر من هذا الذي يجعل الله جسما يقعد ويحدث صوتا عند قعوده، وهذا العرش تصوروه وكأنه كرسي ملك كما هو معروف لدى الملوك والأباطرة، والحقيقة أن هذه الرؤية وهذا التصور لا يوجد له نظير سوى لدى اليهود خاصة.

وهناك أحاديث أخرى صارخة في التجسيم منها:

«... عن أبي عطاف قال: كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره إلى الصخرة في الألواح من در يسمع صريف القلم ليس بينه وبينه إلا الحجاب»[٢]. والأحاديث في كتابة الله التوراة بيده كثيره جدا والغرض واضح من ذلك، وهو إعطاء خصوصية للتوراة اليهودية المحرفة. وكذلك ذكر الحديث الصخرة وهي من معتقداتهم المهمة.

«... وعن خالد بن معدان أنه كان يقول: إن الرحمان ليثقل على حملة العرش من أول النهار إذا قام المشركون حتى إذا قام المسبحون خفف عن حملة العرش»[٣]. ولسنا ندري ماذا يقصد الراوي بقيام المشركين، فالمعروف أن أول الناس استيقاظا المؤمنون للصلاة؟ والحقيقة أن الحشو لا يناقش إنما يعرض ليتأمله القارئ ويستعيذ بالله من الكذب والافتراء والتحريف لدين الله. وكيف يثقل ويخف؟ سبحان الله عما يصفون؟!

وروى في نزوله سماء الدنيا قال: عن كعب قال: إن الله ينزل كل عشية ما بين

---

(١) السنة، ص ٨٠.

(٢) السنة، ص ٧٦.

(٣) السنة، ص ١٦١.

العصر إلى صلاة المغرب ينظر إلى أعمال بني آدم[١]. وسئل النبي عن الوتر فقال «أحب أن أوتر نصف الليل، إن الله يهبط من السماء العليا إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مذنب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ حتى إذا طلع الفجر ارتفع»[٢].

أنظر إلى قوله «ارتفع» سبحانه وتعالى وتنزه عن الحركة والانتقال.

والأحاديث في النزول كثيرة جدا في كتب القوم وغيرهم، وإن كان المتزهون من أهل السنة أولوا ما صح لديهم منها، فإن الحشوية أبوا إلا فهمها على ظاهرها.

أما رؤية الله يوم القيامة فقد أكثروا من وضع الأحاديث للانتصار لها لأنها كانت من عقائدهم المتميزة.

«... حدثني أبي عن أسلم العجلي عن أبي مرية عن أبي موسى، وكان يعلمهم من سنتهم قال:

« فبينما يحدثهم إذ شخصت أبصارهم قال ما أشخص أبصاركم عني؟

قالوا القمر قال فكيف إذا رأيتم الله جهرة؟»[٣]. أنظر: هذا ما طالب به بنو إسرائيل من قبل؟!

أما ما رواه عبد الله بن أحمد في باقي الصفات مثل الكف واليمين والذراع والفم والقدم والعينين فنورد منه ما يلي:

في صفة الكف «.. عن بعض أصحاب النبيﷺ أن النبيﷺ خرج عليهم ذات غداة وهو طيب النفس مسفر الوجه أو مشرق الوجه، فقلنا يا نبي الله والله إنا نراك طيب النفس مسفر الوجه أو مشرق الوجه فقال»وما يمنعني وأتاني ربي الليلة في أحسن صورة فقال: يا محمد قلت لبيك وسعديك فقال فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) السنة، ص ١٧٠.

(٢) السنة، ص ١٧٢.

(٣) السنة، ص ١٧٣.

قلت لا أدري أي رب، قال ذلك مرتين أو ثلاثا قال: فوضع كفيه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي حتى تجلى لي بما في السماوات وما في الأرض ثم تلا هذه الآية ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾[١].

وفي صفة اليمين عن ربيعة الجرشي في قول الله ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾ قال ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء[٢].

وعن صفة الذراع، عن عبد الله بن عمرو قال: خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر[٣]. أنظر! جعلوا لله ذراعين، وصدرا كذلك.

أما الفم فروى ابن أحمد: «... حدثني أبو معمر حدثنا وكيع عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرضي قال: كأن الناس إذا سمعوا القرآن من في الرحمان يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه، من قبل ذلك»[٤].

وفي صفة القدم أو الرجل يقول: «... عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يلقي في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول قط قط»[٥].

ولإمامهم ابن خزيمة كلام لطيف في هذا المقام سنورده عند ذكر مروياته وحشوه في التجسيم والتشبيه.

وأما العينين: «عن عقبة بن عامر أنه قال رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ الآية في خاتمة النور وهو جاعل أصابعه تحت عينيه يقول ﴿بكل شئ بصير﴾»[٦].

---

(١) السنة، ص ١٧٩.
(٢) السنة، ص ١٨٥.
(٣) السنة، ص ١٧٢.
(٤) السنة، ص ٢٨.
(٥) السنة، ص ١٨٤.
(٦) السنة، ص ٢١٣.

وقبل أن ننتقل إلى عرض ما احتوته مصادر الحشوية «السلفية» الأخرى، من روايات التشبيه والتجسيم، لا بأس من إيراد بعض ما تضمنه كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد من روايات إسرائيلية خالصة وخرافات منكرة، كل ذلك الخليط العجيب والحشو الفظيع سيسمى «سنة» وستنسب مضامينه العقائدية للسلف. وستتخذه السلفية المعاصرة مذهبا وأصلا. فهل هذه هي عقائد الصحابة والسلف؟!

«... عن جرير بن جابر الخثعمي أنه سمع كعبا يقول: لما كلم الله موسى كلمه بالألسن كلها قبل لسانه فطفق موسى يقول يا رب والله ما أفقه هذا حتى كلمه آخر ذلك بلسانه مثل صوته، فقال موسى هذا يا رب كلامك فقال الله: ﴿لو كلمتك كلامي لم تكن شيئا﴾ أو قال (لم تستقم له) قال أي رب فهل من خلقك شئ يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبها بكلامي أشد ما يسمع الناس من الصواعق[1]. هذا وهم يتلون قول الله تعالى في القرآن: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

وروى، سمعت وهبا يقول وذكر من عظمة الله فقال: إن السماوات السبع والبحار لفي هيكل وإن الهيكل لفي الكرسي وإن قدميه لعلى الكرسي وهو كمل الكرسي وقد عاد الكرسي كالنعل في قدمه. وسئل وهب ما الهيكل؟ قال شئ من أطراف السماء محدق بالأرضين والبحار كأطناب الفسطاط. وسئل وهب عن الأرضين كيف هي؟ قال هي سبع أرضين ممهدة بين كل أرضين بحر والبحر الأخضر محيط بذلك والهيكل من وراء البحر»[2]. إنه عالم خيالي عجيب يتكلم عنه وهب بن منبه وهو من مسلمة اليهود وكان مطلعا على كتب أهل الكتاب فحدث بما شاء له هواه واستقبل أقواله ومروياته رعاع الرواة والمحدثين فحشو بها أحاديث رسول الله ﷺ وانظر في الحديث الكلام حول الهيكل، ولا شك أن للهيكل رمزية

(١) السنة، ص ٧٢.
(٢) السنة، ص ١٧٢ - ١٧٣.

خاصة لدى اليهود من قديم الأزمان وإلى الآن[١].

أما إذا تصفحنا كتاب «التوحيد وإثبات صفات الرب» لابن خزيمة[٢]، فسيأخذنا العجب من كثرة ما فيه، ليس فقط من روايات التجسيم والتشبيه، ولكن في الدفاع عنها وشرحها وجعلها عقائد السلف. مما أثار عليه العلماء من أهل السنة والجماعة فانتقدوه انتقادا لاذعا. يقول الشيخ الكوثري: ألف ابن خزيمة «كتاب التوحيد» وليته اقتصر فيه على جمع الأحاديث المتشابهة ولكنه فسرها بما لا يصح أن يعتقد في الله تعالى، ولا يقول به المحققون من سلف ولا خلف، وقد طعنه الإمام فخر الدين الرازي طعنة أرداه قتيلا[٣].

يقول الرازي في شرحه لقوله تعالى ﴿ليس كمثله شئ﴾ احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسما مركبا من الأعضاء والأجزاء وحاصلا في المكان والجهة، وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الأجسام، فيلزم حصول الأمثال والأشباه له. وذلك باطل بصريح قوله تعالى ﴿ليس كمثله شئ﴾. ويقول بعد ذلك: واعلم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بالتوحيد وهو في الحقيقة كتاب شرك. واعترض عليها. وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات. لأنه كان رجلا مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل[٤]. ثم ساق كلامه وهو كلام لا يقوله محقق نافذ البصيرة في معرفة ربه[٥].

---

(١) أنظر عقيدة اليهود في الهيكل وعلاقته بملك سليمان في المصادر الخاصة.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة، توفي سنة ٣٢١. وكتابه هذا يعتبر أهم مصدر لدى المشبهة والمجسمة. وقد أولاه حشوية الحنابلة اهتماما خاصا، وخصوصا الوهابية «السلفية». فقاموا بطباعته ونشره على نطاق واسع كسابقه كتاب «السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل. وسيجد القارئ بعض الأحاديث التي نقلناها عنه ليتبين الحشو الذي انطوى عليه هذا الكتاب.

(٣) الأسماء والصفات، بتعليق الكوثري، ص ١٨.

(٤) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، ص ٢٧ – ٢٨، ص ١٥٠، تفسير قوله تعالى: **﴿ليس كمثله شئ﴾**. سورة الشورى: الآية ١١.

(٥) الأسماء والصفات، ص ١٨.

ويقول أحد أصحابه: «وهذا محمد بن إسحاق بن خزيمة المتوفى سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، له الإمامة في الحفظ والعلم بالعلل في المتون والأسانيد وفنون سوى علم الكلام. قال فيه الأستاذ الأجل أبو سهل الصعلوكي المجمع على إمامته في الحديث وأصول الدين وفروعه المتوفى سنة تسع وستين وثلاثمائة. وهو أحد الرواة عنه – حين ألف كتابه الذي سماه التوحيد –: إن شيخنا تكلم في ما لا يعنيه»[١]. وكلامه هذا فيما لا يعنيه ولا يحسنه تلقفه الحشوية السلفية وادعوا أنه قول السلف واعتقادهم وآمنوا به وكفروا من خالفه.

والغريب أن هذا الرجل شعر بزلته وعرف مقدار ورطته فهو يقول عن نفسه: «إذا كان العطار لا يحسن غير ما هو فيه فما تنكرون على فقيه راوي حديث أنه لا يحسن الكلام[٢]».

وعلق الشيخ الكوثري على كلامه هذا بقوله: وقد أنصف من نفسه حيث اعترف أنه يجهل علم الكلام، وكان الواجب على مثله أن لا يخوض في الكلام فتزل له قدم، ومع هذا الجهل ألف كتاب التوحيد فأساء إلى نفسه. ومن أهل العلم من قال عنه إنه كتاب الشرك. ومن جملة مخازيه فيه استدلاله على إثبات الرجل له تعالى بقوله سبحانه ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾ وهذا غاية في السقوط، وأسقط منه من يسعى في إذاعة كتابه هذا[٣].

بعد أن رأينا أقوال أهل العلم في هذا الرجل، سنعرض لبعض ما رواه وقال به في كتاب التوحيد هذا، لتكتمل الصورة لدى القارئ وليتحقق من صدق قول العلماء فيه.

---

(١) الأسماء والصفات، ص ١٣.

(٢) الأسماء والصفات، ص ٢٦٧.

(٣) الأسماء والصفات، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ الهامش. ولا شك أن الذي يسعى اليوم في نشره هم «الحشوية السلفية» أو ما يطلق عليهم البعض «الوهابية».

روي بطرق مختلفة عنهﷺ قال: «يتجلى لنا ربنا عز وجل يوم القيامة ضاحكا»[١].

قال ابن خزيمة «باب ذكر إثبات ضحك ربنا عز وجل»: بلا صفة تصف ضحكه - جل ثناؤه - لا ولا يشبه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك. بل نؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلى، إذ الله استأثر بصفة ضحكه لم يُطلعنا على ذلك، فنحن قائلون بما قال النبي صلى الله عليه وسلم مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا، مما استأثر الله تعالى بعلمه[٢].

والمشكل هنا أن كلامه الذي أورده تعليقا على حديث الضحك إنما يقنع به العامة وجماهير الحشوية منهم - لأن المسألة هي في كون هذا الكلام هل يصح عن الرسول أم لا؟ وليست المسألة في التصديق بما ورد عنهﷺ. فإن جميع طوائف المسلمين والمنزهة منهم يؤمنون بما صح عنهﷺ ولا يمكنهم رفضه بحال، إذ رفضه أورده يخرجهم عن الملة. أما قوله لا نعلم كيفية ضحك ربنا، فإنه تمويه على العوام أيضا. إذ المتبادر عند وصف الضحك لغة وعرفا وجود فم وأضراس ولهوات، وابن خزيمة وحزبه من الحشوية يعتقدون بأن لله مثل هذه الصفات. ولما حاول بعض علماء أهل السنة من الأشاعرة البحث عن تأويل لهذه الصفة وغيرها يليق بتقديسه سبحانه وتنزيهه عن مشابهة خلقه، رفض الحشوية ذلك التأويل ووصفوا أصحابه بالجهمية المعطلة. يقول الشيخ الكوثري: والمجسمة يحملون الضحك والعجب والتبشيش على إبداء الأضراس واللهوات وفغر الفم وكثرة الأسنان ونحو ذلك جريا على الوثنية الأولى بعد الإسلام[٣]. فهل هذه عقيدة السلف؟!

---

(١) التوحيد، ص ٢٣٦.

(٢) التوحيد، ص ٢٣٠ - ٢٣١، بتوسط بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٣٦.

(٣) الأسماء والصفات، م. س، ص ٤٧٨، أنظر الهامش.

واستدل ابن خزيمة بما ورد من أن الله بصير، على أن له عينين، قال: «نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السماوات العلى وما بينهما من صغير وكبير. إلى أن قال: كما يرى الله عرشه الذي هو مستو عليه.

وبنو آدم وإن كانت لهم عيون يبصرون بها فإنهم إنما يرون ما قرب من أبصارهم مما لا حجب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم... واستطرد في ذكر نواقص عيون بني آدم ثم قال:

فما الذي يشبه - يا ذي الحجا - عين الله الموصوفة بما ذكرنا، عيون بني آدم التي وصفناها بعد[1]. والحقيقة أن الإنسان ليصاب بغم شديد وحزن طويل، عندما ينسب مثل هؤلاء إلى العلم ويعتبرون من الأئمة. ولقد صدق من قال إن الأعور في بلد العميان ملك. وانظر: إنه يقول إن لخالقه عينان يبصر بهما لكن الفرق بينه وبين عيون الخلق هو في قوة الإبصار فقط؟!

ويذكر كذلك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما تجلى ربه للجبل رفع خنصره وقبض على مفصل منها، فانساخ الجبل، فقال حميد:

أتحدث بهذا؟ فقال: حدثنا أنس عن النبي ﷺ وتقول: لا تحدث به»[2].

لقد كانت في هذا الإمام الحشوي غفلة بالغة، ولم يتجنب الحقيقة من وصفه «بالجاهل» كما مر معنا، فهو يرد على من استنكر عليه حديثه، وفيه ذكر ليس لليد أو الكف بل «الخنصر» - وليس بعد هذا التجسيم والتشبيه مبلغ آخر - لكنه يرد عليه بأن الحديث رواه أنس بن مالك وهو صحابي، ولكن من حدث ابن خزيمة بهذا الحديث وهل سمعه من أنس مباشرة. «إنه يقول» حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا حماد بن سلمة، قال حدثنا ثابت عن أنس بن مالك

(١) المرجع نفسه، ص ٥٠ - ٥١، بتوسط السبحاني، ج ١ ص ١٣٨.
(٢) نفسه، ص ١١٣.

وأورد الحديث. ولكنه الحشو المرادف للحمق فهل يستطيع عاقل أن يناقش أحمقا. نعوذ بالله من كل شر.

وقد روى ابن خزيمة مثل هذه الأحاديث. وغيرها في إثبات صفات الرب، وأن له كلاما وصوتا. أما حديث الرجل أو القدم فقد رواه ابن خزيمة كذلك عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله رجله فيها فتقول قط قط، فهنالك تمتلئ الحديث». وهو حديث اختصام الجنة والنار وأشار إلى أنه مستفيض[1].

والأخبار في وضع الله رجله في النار كثيرة جدا وقد اعتمدها الحشوية الحنبلية في عقائدهم وفسروها بظاهرها. يقول ابن الزاغوني الحنبلي: إنما وضع قدمه في النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لا أحترق. قال ابن الجوزي:

وهو حنبلي كذلك مخالف للحشوية «وهذا تبعيض وهو من أقبح الاعتقادات..» وقد صرح بتكذيبهم فقال: «لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها» فكيف يظن بالخالق أن يردها! تعالى الله عن تجاهل المجسمة[2].

وكلمة ابن خزيمة في التوحيد «باب إثبات الرجل لله عز وجل» وإن رغمت أنوف المعطلة الجهمية، مما يفضي بمحو اسمه من ديوان العلماء، قال ابن الجوزي: رأيت أبا بكر بن خزيمة قد جمع كتابا في الصفات وبوبه فقال: باب إثبات اليد، باب إمساك السماوات على أصابعه، باب إثبات الرجل، إن رغمت المعتزلة. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿أَلَهُم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها﴾ فأعلمنا أن ما لا يد له ولا رجل كالأنعام. قال: ابن عقيل وهو حنبلي مخالف للحشوية تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة وليس الحق تعالى بذي أجزاء وأبعاض فيعالج بها. ثم إنه أليس يعمل في النار أمره وتكوينه حتى يستعين بشئ من ذاته، ويعالجها بصفة

---

(١) التوحيد ص ٩٣ – ٩٥. بتوسط السبحاني (ج ١ ص ١٤١).

(٢) ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، ص ٦٠.

من صفاته. وهو القائل (كوني بردا وسلاما) فما أسخف هذا الاعتقاد، وأبعده عن مكون الأملاك والأفلاك.

ولأهل السنة والجماعة تأويلات كثيرة لصفة القدم التي وردت في الأحاديث، توقفوا في رفضها - لأن كبار الحافظ وعلماء الحديث عندهم أثبتوها في كتبهم - وصرفها عن معنى الحسية الظاهرة نوع من أنواع الرفض لأن غرضهم التنزيه وهذه الأحاديث صريحة في التجسيم[١].

ومن الخرافات العجيبة ما ذكر في الكتابين «السنة» و«التوحيد»: أن حملة العرش أربعة ملائكة، أحدهم على صورة إنسان والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسر، والرابع على صورة أسد[٢]. وعلق عليه في الحاشية بأن هذا لم يرد في حديث صحيح، ولعل الراوي أخذه من كعب الأحبار أو غيره من مسلمة أهل الكتاب[٣]. ومع ذلك فقد ورد في الكتابين وأخرجه ابن حنبل في مسنده[٤] بالإسناد إلى عكرمة مولى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أنشد قول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد[٥]

ورواه في كتاب السنة[٦] بزيادة: «فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صدق صدق»[٧].

(١) أنظر فصل السلفية وأهل السنة ففيه بعض التأويلات لهذه الصفة.

(٢) السنة، ص ١٦١ والتوحيد ص ٩٢.

(٣) التوحيد، ص ٦٢.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج ١ ص ٢٥٦.

(٥) التوحيد، ص ٩٠، مع أبيات أخر.

(٦) السنة، ص ١٨٧..

(٧) بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٤٣

كتاب "العلو للعلي الغفار" للذهبي:

أما كتاب «العلو للعلي الغفار» للذهبي والذي ذكره النص الخاص بمصادر الحشوية في إثبات الصفات، فقد جاء كما أراد له صاحبه، أراد أن يثبت لله صفة العلو وأنه في السماء، فكان له ذلك وزيادة. وأمد عقائد التشبيه والتجسيم بحبل طويل ينتهي آخره عند مصادر أهل الكتاب. ولقد صدق فيه قول الكوثري لما اتهمه بالسقوط في التشبيه والتجسيم والتبعية لشيخ الإسلام بن تيمية[١]. خصوصا في كتابه هذا الذي أثبت فيه هذه الصفة له سبحانه ومما جاء فيه:

«... عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الميت يحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، أبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقال فلان، فيقال مرحبا بالنفس الطيبة، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى»[٢]. أنظر قوله السماء التي فيها الله؟!.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا جمع الأولين والآخرين يوم القيامة جاء الرب تبارك وتعالى إلى المؤمنين فوقف عليهم على كور. فقالوا لعقبة ما الكور؟ قال المكان المرتفع. فيقول هل تعرفون ربكم؟ قالوا إن عرفنا نفسه عرفناه، فيتجلى لهم ضاحكا في وجوههم فيخرون له سجدا. نقول هذا حديث حسن أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد عن الفلاس عن الحنفي وعنده (على كوم)»[٣]. ولا ندري كيف إن الله سبحانه وتعالى يقف على كور أو كوم ولماذا؟! إن من يفعل ذلك من الناس إنما يطلع على القوم المخاطبين ليرونه؟!.

---

(١) ابن ناصر الدين الدمشقي، الرد الوافر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٣٩٣ هـ ص ٢٠.
(٢) الذهبي، العلو للعلي الغفار، ص ٢٢. ذكر الحديث وقال: رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه وقال هو على شرط البخاري ومسلم. ورواه أئمة عن أبي ذئب.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٥.

وجاء فيه كذلك «... سمعت رسول الله يقول: «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وآتي باب الجنة فآخذ حلقته فيقول من هذا؟ فأقول أنا محمد فيفتحون لي، فأدخل فأجد الجبار مستقبلي فاسجد له»[١]. وهذا الحديث يجعل الله في الجنة يوم القيامة وليس علي عرشه.

وعن ابن مسعود قال: قال رجل يا رسول الله ما المقام المحمود؟ قال: ذلك يوم ينزل الله على عرشه[٢]. وفي أحاديث أخرى خاصة بمشكلة تفسير المقام المحمود، ادعى الحشوية أن ذلك يعني، أن الله يجلس نبيهﷺ معه على عرشه. وفي هذا الحديث ينزل، فلا ندري هل يجلس الرسول على العرش وينزل سبحانه عنه أم ماذا؟. نعوذ بالله من الخرف والجهالة. فهل هذه هي عقائد الصحابة والسلف؟!

وقد وقعت بسبب تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ فتنة كبيرة بين الحشوية وأهل السنة من الأشاعرة. يقول ابن الأثير عن سنة (٣١٧) «وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي الحنبلي وبين غيرهم من العامة. ودخل كثير من الجند فيها، وسبب ذلك أن أصحاب المروذي قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ هو أن الله يقعد النبي صلى الله عليه وسلم معه على العرش وقالت الطائفة الأخرى: إنها الشفاعة فوقعت الفتنة، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة[٣].

وهذا الحديث وهذه الحادثة التاريخية لا تترك مجالا للشك أو الإنكار، فالتشبيه والتجسيم يلزم الحنابلة أو الحشوية السلفية ولا يمكنهم التنصل منه.

---

(١) نفسه، ص ٨٣.

(٢) رواه أبو الشيخ الحافظ في كتابه «العظمة»، وعثمان ضعيف. راجع سنده، وقد حذفنا سند معظم الأحاديث اختصارا للتطويل.

(٣) الكامل، ج ٨ ص ٧٣، انظر النهج الأحمد، م س، ص ٣٨.

لذلك نفر منهم العلماء من أهل السنة والجماعة وناصبوهم العداء وردوا على انحرافهم.

ومن الأحاديث العجيبة في التجسيم والتي رواها الذهبي في كتابه: العلو:

«... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تدرون ما هذه التي فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: فإنها الرفيع، سقف محفوظ وموج مكفوف، هل تدرون كم بينكم وبينها؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام. وبينها وبين السماء الأخرى مثل ذلك.

حتى عد سبع سماوات وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام. ثم قال: هل تدرون ما هذه التي تحتكم قالوا الله ورسوله أعلم قال: فإنها الأرض وبينها والأرض التي تليها مسيرة خمسمائة عام، حتى عد سبع أرضين، وغلظ كل أرض خمسمائة عام، ثم قال: والذي نفسي بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السابعة لهبط على الله، ثم قرأ رسول الله(صلى الله عليه وسلم): ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾».

يقول الذهبي رواته ثقات وقد رواه أحمد في مسنده. ولا أعرف وجه قوله: لهبط على الله يريد معنى الباطن. ألا ترى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث كيف تلا ذلك مطابقا لقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ أي بالعلم.. وهذه بلية تحير السامع كتبتها استطرادا للتعجب، وهو من قبيل اسمع واسكت[1].

لقد تعمدت إيراد تعليق الذهبي على حديثه الذي رواه ولا شك أن القارئ قد ارتسمت على محياه علامات التعجب والاستفسار من الحديث الذي يقول راويه بعدما ذكر عوالم غريبة جدا ولكنها محدودة بالكم والزمن. وكذا التصور العام

(١) العلو للعلي الغفار، ص ٦٠ – ٦١.

لشكل العالم والكون الدائري بحيث لو دلى بعض السلفية الحشوية حبلا عبر الأراضي السبع وقطع مسافة خمسمائة عام بين الأرض، والأرض لنزل حبله على «الله»- سبحانه وتعالى عما يصفون -.

وهذا الحديث جعل الله ضمن هذا العالم وعند تقاطع السماوات والأرض، أي محددا ضمن زمان ومكان معين، وهذا مبلغ علم الحشوية. ولكن العجب والاستغراب ليس فقط في الحديث ولكن في تعليق من كتبه وجاء به ليثبت صفة العلو للعلي الغفار، وأنا شخصيا لم أفهم ماذا يعني بقوله: رواه الثقات وأحمد بن حنبل، فهل هي إشارة لكونه صحيحا. وما علاقة ذلك بقوله تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ الذي ادعى أن الرسولﷺ تلاها. إن في تعليقه خبط وخلط غير مفهوم، جعلني أشك في نصه، فلربما كان له تعليق آخر وطالته يد السلفية الحشوية فحرفته عندما نقلوه فجاء تحريفهم مضطربا، يجوز!؟

ولكن ما معنى قوله وهو يوجه «لهبط على الله» يريد معنى الباطن، أي باطن هذا؟! إنها تساؤلات لن توجد لها أجوبة مقنعة، إلا كما قال هو بنفسه، في الأخير، اسمع واسكت! أي لا تقول هذا افتراء على الله ورسوله والحقيقة، لا تقول ذلك؟ وإلا اتهمك الحشوية بالتعطيل والجهمية، والحقيقة أن علينا عندما نقرأ مثلا هاته الأساطير المنسوبة لدين التوحيد، أن نقول سبحانك هذا افتراء وكذب على دينك، وإنا نعوذ بك أن نضل أو ننحرف عن جادة التوحيد الخالص والتنزيه الذي يليق بذاتك المقدسة سبحانك؟!.

وينقل الذهبي من حديث الأعمش: عن سالم بن أبي الجعد ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال وراء الصراط جسور. جسر عليه الأمانة، وجسر عليه الرحم، وجسر عليه الرب عز وجل «يقول الذهبي رواه العسال بإسناد صحيح[1].

وإذا كان إسناده صحيحا فمعناه أن متنه صحيح أيضا، وإذا كان كذلك فإنه

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٦.

التجسيم بعينه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من جسارة الحشو وأهله وافترائهم على الله جل وعلا وتنزهه عما يصفونه به.

كتاب "رد الإمام الدارمي على عثمان المريسي":

أما من يطلع على ما كتبه الدارمي ردا على بشر المريسي فسيجده انتصارا مبالغا فيه، لعقائد هؤلاء الحشوية ليس إلا. وإن كان رده هذا قد عمق مشكلة الاختلاف حول اللفظ التي انتبه لها ابن قتيبة وألف فيها كتابا. كما يجد القارئ في الكتاب رواية كل ما ذكرناه من أحاديث التشبيه والتجسيم وشرحها والدفاع عن فهم الحشوية لها واعتقادهم فيها. نذكر منها:

« حدثنا عبد الله بن رجاء أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الله بن خليفة قال:

« أتت امرأة إلى النبيﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب فقال: إن كرسيه وسع السماوات والأرض، وإنه ليقعد عليه، فما يفضل منه إلا قدر أربع أصابع، ومد أصابعه الأربع، وأن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد إذا ركبه من ثقله»[1]. أنظر قوله وأنه ليقعد عليه؟!.

---

(١) رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشير المريسي العنيد. صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ - ١٣٥٨ هـ ص ٧٤. قارن بين هذا الحديث والحديث الآخر الذي رواه الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار» ليتضح لك مدى تسرب فكر أهل الكتاب إلى عقائد أهل الحديث ومروياتهم. يقول الذهبي: «أتى كعب رجل وهو في نفر فقال: يا أبا إسحاق! حدثني عن الجبار عز وعلا. فأعظم القوم، فقال كعب: دعوا الرجل. فإنه إن كان جاهلا تعلم، وإن كان عالما ازداد علما. أخبرك أن الله عز وجل خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، ثم جعل بين كل سماءين كما بين السماء والأرض وجعل كثفها مثل ذلك، ثم رفع العرش فاستوى عليه فما من السماوات والأرض إلا لها أطيط كأطيط الرحل في أول ما يرتحل... يقول الذهبي: «وذكر كلمة منكرة لا تسوغ لنا، والإسناد نظيف، أبو صالح لينوه وما هو بمتهم بل سيئ الإتقان».
ص ٩٣. أنظر لهؤلاء المتأسلمة من اليهود والنصارى كيف سنحت لهم الفرصة ليعلموا المجتمع الإسلامي عقائد، التوحيد، وحقائق الوحي في الوقت الذي كان فيه علماء أهل البيت وورثة علم الرسول ﷺ تفرض

وفيه أيضا: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا عن النبيﷺ قال:

« آتي باب الجنة فيفتح لي، فأرى ربي وهو على كرسيه، تارة بذاته على العرش، وتارة يكون بذاته على الكرسي، فيتجلى لي فأخر له ساجدا»[١].

ومن الخرافات العجيبة ما رواه في اختصام الجنة والنار. «فعن عبيد الله بن عتبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه» أن النبيﷺ قال «إفتخرت الجنة والنار فقالت النار: يا رب يدخلني الجبارون والملوك والأشراف، وقالت الجنة يدخلني الفقراء والضعفاء والمساكين. فقال الله للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شئ، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فيلقي فيها وتقول هل من مزيد، ثلاث مرات، حتى يأتيها فيضع قدمه عليها. فتقول: قد، قد، ثلاثا»[٢].

لست أدري كيف تختصم الجنة والنار وكيف أن الجنة تقول آسفة»ما لي لا يدخلني إلا سفلة الناس وسقطهم..»كما جاء في حديث آخر رواه. وهل الأنبياء والأولياء من سفلة الناس؟ وهل للجنة ميزان غير الميزان الإلهي الذي يرفع المؤمن مهما كان فقيرا من الذهب والفضة، ويسقط وينزل الكافر مهما امتلك من مال وجاه؟! ونحن نعجب كيف جسدوا وجسموا الجنة والنار وجعلوا لهما لسانا يختصمان به؟! وكيف أن النار تفتخر على الجنة بالكفار، وهم في ميزان الحق نجس، لا يستحقون كرم الله وعطفه، وقد أخرجهم من رحمته بكفرهم وظلمهم وأدخلهم دار ابتلائه. فهو معرض عنهم غير راض بما كسبوه من الكفر. ولكنه الحشو السلفي الذي يصعب على العاقل فهمه أو إدراكه.

عليهم الإقامة الجبرية. ومن ثم ترسل لهم، وتحت جنح الظلام، جنود من عسل لتسممهم وتقتضي عليهم. وبذلك تطوى صفحات العلم والحقيقة، فتجد غربان الجهل الفرصة مواتية لتبيض وتفرخ الانحراف العقائدي من تشبيه وتجسيم.

(١) المرجع السابق، ص ٧١ – ٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

ومن الأحاديث الغريبة والتي يشتم منها رائحة أهل الكتاب من اليهود خصوصا ما نقله: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن عطاء بن السائب عن ميسرة قال «إن الله لم يمس شيئا من خلقه غير ثلاث: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده»[١]. والحديث كما ذكرنا سابقا إن كانت فيه ميزة فإنها لا شك تخص التوراة اليهودية المحرفة بنص التنزيل المحكم.

ولا يدع الدارمي مجالا للشك في أنه يعتقد الجسمية، عندما يذكر في «باب الحد والعرش» قال: قال: أبو سعيد: والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره. ولا يجوز أن يتوهم لحده غاية في نفسه. ولكن نؤمن بالحد. ونكل علم ذلك إلى الله. والمكانة أيضا حد، وهو علي عرشه فوق سماواته، فهذان حدان اثنان[٢].

يقول المحقق في الهامش: كلمة حد لم ترد في الكتاب ولا السنة. ونحن لا ننسب إلى الله صفة ولا لفظ إلا ما ورد نصا عن الله ورسوله، مع أننا لا نقول فيها بالرأي ولا القياس. وإنما نرد علم حقيقتها إلى الله على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

وإذا كان لفظ «الحد» لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة فكيف قال به هؤلاء الذين يدعون أنهم متمسكون بالآثار لا يحيدون عنها، وأنهم على ما كان عليه سلف هذه الأمة بخلاف باقي الفرق والطوائف الإسلامية؟!.

ويبلغ التشبيه والتجسيم في روايات الدارمي مداه، وهو يناقش المريسي ومن سلك مسلكه في نفي الرؤية الحسية. يقول:: فمن ذلك: ما حدثنا موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «آتي يوم القيامة باب الجنة، فيفتح لي، فأرى ربي وهو على كرسيه، أو سريره، فيتجلى لي، فأخر له ساجدا» فهذا أحد الحواس وهو النظر

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

بالعين والتجلي، رواه هؤلاء المشهورون عن ابن عباس على رغم بشر[(١)].

كانت هذه مقتطفات من كتب ومصادر الحشوية «السلفية» المعتمدة، أوردناها للتدليل على معتقدات القوم، وأن عقيدة التشبيه والتجسيم تلزمهم وأن وصف العلماء لهم بالمجسمة صحيح وهو عين الحقيقة.

وهاهو القاضي أبو يعلى أحد كبراء الحنابلة وابن الزاغوني الفقيه الحنبلي يكشفان عن حقيقة معتقدهما مما لا يدع مجالا للشك في حقيقة عقائد هؤلاء الحشوية الحنبلية المتسمين بالسلفية. جعلت العلماء من أهل السنة والجماعة يردون عليهما وينقضون عقائدهما.

ابن الجوزي يرد على أصحابه الحنابلة:

وإذا كان أتباع المذهب الحنبلي قد توزعوا عقائديا بين مذاهب شتى، فإن من تأثر منهم بمناهج أهل السنة والجماعة وارتضاها بدل الحشو المفضي إلى التشبيه والتجسيم، سيقوم بالرد على هؤلاء المشبهة، أولا لدفع شبههم الاعتقادية، ولنفي انتسابهم ثانيا لمذهب الإمام أحمد. حيث أكد ابن الجوزي إن ما يقوله الحشوية ليس من اعتقاد أحمد بن حنبل، وأن كل ما يخالف التنزيه أو التفويض إنما هو افتراء هؤلاء المنتسبين للمذهب على إمامهم. وهو براء مما ينسبونه له من عقائد التجسيم والتشبيه. لذلك ألف ابن الجوزي[(٢)] رسالة في هذا المجال سماها بـ«الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب» وقد طبع تحت عنوان آخر هو «دفع شبه التشبيه»، ولكن محقق النسخة التي بين أيدينا وهو محمد منير الإمام يقول:

«ولكنني لما عرضته على الأصول المخطوطة وجدت النص نفسه ولكن باسم: الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب» الذين خالفوا مذهب ومعتقد

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤.

(٢) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، إمام الحنابلة في عصره، توفي في بغداد سنة ٥٩٧هـ

الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ونسبوا له ما لا يعتقده، وافتروا عليه بما لا يقله أدنى مسلم فكيف بهذا الإمام العظيم[١].

ويقول أيضا في تقدمته للكتاب: «رأيت كتاب ابن الجوزي هذا قاصما لظهور المشبهة، مشتتا لبدع المجسمة، ضاربا حججهم الواهية بسيف الشرع، طاعنا أفكارهم برمح العقل السليم الذي هو شاهد للشرع، قاذفا آرائهم بمقلاع الحجج والبراهين. كاشفا ستار الجهل والضلال، مبينا للعامة أضاليلهم وتمويهاتهم»[٢].

والذي يتصفح هذا الكتاب الذي تحول إلى وثيقة تاريخية، ثم حفظها من أيدي التحريف أو الإعدام. يجد أن ابن الجوزي يرد كثيرا قول وفهم القاضي أبي يعلى بخصوص مسألة الصفات. كما ويعضد قوله بأقوال ابن عقيل الحنبلي، الذي خالف الحشوية ونادى بالتنزيه، وذلك لأنه تتلمذ على يد المعتزلة في العقائد وأخذ عنهم. ومن خلال ذلك يظهر جليا أن هناك تياران يمثلان المذهب الحنبلي في العقائد، وبالخصوص في مسألة الصفات. وكل يدعي أن معتقده ورأيه هو قول الإمام أحمد بن حنبل ومذهبه. وسوف نورد بعض الفقرات من رد ابن الجوزي على المشبهة والحشوية ممن يدعي انتسابه لأحمد، ليتبين للقارئ حجم الادعاء، ومدى الاختلاف بين التيارين والمعتقدين.

يقول ابن الجوزي: الحديث الثالث عشر، روى القاضي عن مجاهد أنه قال: إذا كان يوم القيامة يذكر داود ذنبه فيقول الله:»كن أمامي، فيقول:

يا رب ذنبي، فيقول: كن خلفي، فيقول: يا رب ذنبي. فيقول: خذ بقدمي».

قال: وفي لفظ عن ابن سيرين قال الله تعالى: «ليقرب داود حتى يضع يده على فخذه».

---

(١) ابن الجوزي، الباز الأشهب المنقض على مخالف المذهب، دار الجنان، ص ٦.
(٢) نفسه، ص ٥.

قلت: والعجب من إثبات صفات الحق سبحانه وتعالى بأقوال التابعين، وما تصح عنهم. ولو صحت فإنما يذكرونها عن أهل الكتاب، كما يذكر وهب بن منبه.

قال القاضي (أبو يعلى): نحمله على ظاهره، لأننا لا نثبت قدما ولا فخذا هو جارحة وكذلك لا نثبت الأمام. قلت: واعجبا لقد كملوا هيئة البدن بإثبات فخذ وساق، وقدم، ووجه، ويدين وأصابع، وخنصر وإبهام وجنب، وحقو وصعود ونزول، ويقولون تحمل على ظاهرها وليست جوارح، وهل يجوز لعاقل أن يثبت لله تعالى خلفا وأماما وفخذا...؟ ما ينبغي أن يحدث هؤلاء.

ولأنا قد عرفنا الفخذ فيقال: ليس بفخذ، والخلف ليس بخلف، ومثل هؤلاء لا يحدثون، فإنهم يكابرون العقول، وكأنهم يحدثون الأطفال[١].

الحديث الثامن: روى سليمان قال: «وإن الله تعالى لما خمر طينة آدم ضرب بيده فيه، فخرج كل طيب في يمينه، وكل خبيث في يده الأخرى، ثم خلط بينهما، فمن ثم يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي».

قلت: وهذا مرسل وقد ثبت بالدليل أن الله سبحانه وتعالى لا يوصف بمس شئ، فإن صح فضرب مثل لما جرت به الأقدار.

وقال القاضي: تخمير الطين وخلط بعضه ببعض مضاف إلى اليد التي خلق بها آدم.

قلت: وهذا التشبيه المحض..؟[٢].

الحديث الخامس عشر، روى القاضي أبو يعلى: عن عبد الله بن عمر موقوفا أنه قال:»لما خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر».

قلت: وقد أثبت به القاضي ذراعين وصدرا لله عز وجل... وقال: ليس

---

(١) نفسه، ص ٨٧ – ٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

بجوارح، وهذا قبيح، لأنه حديث ليس بمرفوع ولا يصح، وهل يجوز أن يخلق مخلوق من ذات الله القديم...؟ هذا أقبح مما ادعاه النصارى...؟[١].

ويقول ابن الجوزي بعد ذكر حديث النزول:

قال ابن حامد: هو على العرش بذاته، مماس له، وينزل من مكانه الذي هو فيه فيزول وينتقل.

قلت: وهذا رجل لا يعرف ما يجوز على الله تعالى.

وقال القاضي: النزول صفة ذاتية، ولا نقول نزوله انتقال. قلت: وهذه مغالطة، ومنهم من قال: يتحرك إذا نزل، ولا يدري أن الحركة لا تجوز على الخالق. وقد حكوا عن أحمد ذلك وهو كذب عليه. ولو كان النزول صفة لذاته، لكانت صفاته كل ليلة تتجدد وصفاته قديمة[٢].

الحديث السابع والعشرون: روى القاضي عن عكرمة أنه قال: «إذا أراد الله عز وجل أن يخوف عباده أبدى عن بعضه إلى الأرض فعند ذلك تتزلزل، وإذا أراد أن يدمدم على قوم تجلى لها».

قال القاضي: أبدى عن بعضه، هو على ظاهره، وهو راجع إلى الذات على وجه لا يفضي إلى التبعيض.

قلت: ومن يقول أبدى عن بعض ذاته، وما هو بعض لا يكلم، ثم إثبات البعض بكلام تابعي لو صح يخالف إجماع المسلمين فإنهم أجمعوا أن الخالق لا يتبعض وإنما المراد أبدى عن آياته[٣].

الحديث التاسع والثلاثون: روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سئل

---

(١) نفسه، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) نفسه، ص ٩٧.

(٣) نفسه، ص ١٠٩.

رسول اللهﷺ عن المقام المحمود قال: «وعدني ربي بالقعود على العرش».

قلت: هذا حديث مكذوب لا يصح عن رسول اللهﷺ. قال ابن حامد:

يجب الإيمان بما ورد من المماسة والقرب من الحق لنبيه في إقعاده على العرش. قال: وقال ابن عمر: ﴿وأن له عندنا لزلفى﴾.

قال: ذكر الله الدنو منه حتى يمس بعضه.

قلت: وهذا كذب على ابن عمر ومن ذكر تبعيض الذات كفر بالإجماع.

قال القاضي: يقعد نبيه على عرشه بمعنى يدنيه من ذاته ويقربه منها ويشهد له قوله ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾. وقال ابن عباس: كان بينه وبينه مقدار قوسين.

قلت: هذا عن جبريل لا عن الله سبحانه ومن أجاز القرب من الذات أجاز الملاصقة وما ذهب إليه القاضي صريح في التجسيم[١].

الحديث الستون: روى جابر رضي الله عنه عن النبيﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الريح فلا تسبوها فإنها من نفس الرحمان، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فاسألوا الله خيرها واستعيذوا من شرها».

قلت: النفس بمعنى التنفيس عن المكروب، ومثله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيﷺ أنه قال: «إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن».

يعني تنفيسه عن المكروب بنصرة أهل المدينة (إياي والمدينة) من جانب اليمن، وهذا شئ لا يختلف فيه المسلمون.

وقال أبو حامد: رأيت بعض أصحابنا يثبتون لله وصفا في ذاته بأنه يتنفس.

قال: وقالوا الرياح الهفافة مثل الرياح العاصفة، والعقيم والجنوب والشمال

---

(١) نفسه، ص ١٢٤ – ١٢٥.

والصبا والدبور مخلوقة، إلا ريحا من صفاته هي نسيم حياتي، وهي من نفس الرحمان.

قلت (أي ابن الجوزي): على من يعتقد هذا اللعنة، لأنه يثبت جسدا مخلوقا وما هؤلاء بمسلمين[١].

بعد استعراض هذه المقتطفات من كتاب ابن الجوزي في رده على الحشوية «السلفية» ممن يعلنون انتسابهم لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، يظهر جليا أن هؤلاء القوم يمثلون فعلا تيار أهل التشبيه والتجسيم بشكله الواضح خصوصا مع القاضي الحنبلي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن حامد الذي تولى ابن الجوزي الرد عليهم، ونقض أوهامهم ونسف أحلامهم وما اعتمدوه من أحاديث أهل الكتاب من يهود ونصارى، وما اختلقه أعراب الرواة ونسبوه للرسولﷺ وهو براء منه. كما يكشف هذا الكتاب الذي أضحى وثيقة تاريخية. زيف ادعاء هؤلاء الحشوية انتسابهم للإمام أحمد بن حنبل، وأن ما يعتقدونه ويؤمنون به هو اعتقاد أحمد.

فقد أثبت ابن الجوزي بطلان هذا الادعاء. وهذا يعضد ما ذهبنا إليه من أن الحشوية من أهل الحديث إنما صنعوا لهذا الإمام مذهبا خاصا في الأصول والفروع ليتستروا وراءه، ومن ثم نقلوا تراثهم العقائدي لهذا المذهب، فأصبح لهم إمام

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٠ - ١٤١. يقول بن الجوزي في خاتمة الكتاب: «قال المصنف: ولما علم بكتابي هذا جماعة من الجهال لم يعجبهم لأنهم ألفوا كلام رؤسائهم المجسمة، فقالوا:
ليس هذا المذهب، قلت: ليس بمذهبكم ولا مذهب من قلدتم من أشياخكم، فقد نزهت مذهب الإمام أحمد رحمه الله، ونفيت عنه كذب المنقولات وهذيان المعقولات.. «يقول الشيخ مختار المعتزلي في كتابه المجتبى، في المسألة التاسعة من التكفير في المشبهة ما لفظه: «كفرهم شيوخنا وأكثر أهل السنة والأشعرية لأنهم شبهوا الله تعالى بخلقه في الجلوس والقعود والصعود والنزول وذلك كفر...» ولم يكفرهم صاحب «المعتمد» المعتزلي.
وهو اختيار الرازي من الأشعرية، قال: لأنهم عالمون بذات الصانع القديم على الجملة وبصفاته، ومقرون به وبصفاته وبكافة الأنبياء والكتب، فجاز أن لا يبلغ عقابهم عقاب الكافر.. «انظر العواصم والقواصم ج٤ ص ١٩٣.

ومذهب يجمع شملهم بعدما تقطعتهم كثرة المذاهب والاتجاهات، ولم يجدوا ملجأ يحميهم من ضربات أهل التنزيه الأوائل - أي المعتزلة - كما تعرضوا لضربات متلاحقة من أهل السنة والجماعة من أشاعرة وما تريدية بعد ذلك.

إن الحشوية الحنبلية أو السلفية كما يحبون أن يطلق عليهم ليسوا فرسان التشبيه والتجسيم فقطْ. وإنما اطلع العلماء والمحققون على معتقدات أخرى أضافوها إلى اعتقاداتهم هذه. والتي جاءت كثمار لهذا الحشو الحديثي الهائل، ثم قطفها والإيمان بها وترويج اعتقادها بين جماهير العامة.

وإذا كانت معتقدات التجسيم والتشبيه تمثل الانحراف الذي أصاب عقيدة التوحيد الإسلامية وحجم المؤامرات التي تعرض لها الإسلام، خصوصا من طرف أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود الذين استطاعوا عبر المتأسلمة منهم أن يرفدوا تراث الإسلام بزخم هائل من الإسرائيليات، انتظمت في عقائد الحشو وأصبحت مدرسة وتيارا إسلاميا له أتباعه ومقلدوه. فإن الترويج لعقائد أخرى مثل الجبر وطاعة السلطان الجائر، قد كان لها من الوقع السيئ والتأثير السلبي ما ظهرت معالمه واضحة في العالم الإسلامي. خصوصا في قرونه الأخيرة، حيث لعبت عقائد الجبر خصوصا دورا بارزا في تكريس حالة الجمود والتخلف والانحطاط الحضاري الذي أصاب المجتمعات الإسلامية.

ومسألة الجبر من المباحث التي تناولتها أقلام العلماء والمفكرين المعاصرين بالتحليل والنقد، وبينت جذورها وآثارها السلبية. ونحن لا نستطيع في هذا البحث أن نعرض لهذه المسألة بالشرح والتفصيل، فقد أفردت لها كما قلت بحوثا وكتبا أشبعها أصحابها بحثا وتحليلا ونقدا، ولكننا سنعرض لها لبيان جذورها في تراث الحشو السلفي، باعتباره أهم المصادر التي تغذي اليوم هاته العقائد. لذلك فالحشوية في الماضي والحاضر يعتبرون الجبر من عقائدهم التي يتشبثون بها ولا يحيدون عنها قيد أنملة.

الجبر ونفي الاختيار:

تزخر مصادر الحشوية بكم هائل من أحاديث الجبر ونفي الاختيار وأن الإنسان يولد مسلوب الإرادة لا علاقة له بتحديد مصيره. ولو صحت هذه الأحاديث لما بقي لبعث الأنبياء وتكليف العباد بالواجبات والمحرمات وغيرها معنى معقول[١].

جاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، حدثنا زيد بن يحيي الدمشقي، حدثنا خالد بن صبيح المري، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله إنه سمع أم الدرداء تحدث عن أبي الدرداء، أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله ورزقه وأثره، وشقي أم سعيد»[٢].

وعنه أيضا، قال حدثني أبي، حدثنا هشيم، حدثنا علي بن زيد، سمعت أبا عبيد بن عبد الله يحدث قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوما على حالها لا تغير، فإذا مضت الأربعون صار علقة ومضغة كذلك، ثم عظاما كذلك، فإذا أراد الله أن يسوي خلقه بعث إليها ملكا فيقول الملك الذي يليه: أي رب أذكر أم أنثى؟، أشقي أم سعيد؟ قصير أم طويل؟ أناقص أم زائد؟، قوته وأجله، أصحيح أم سقيم؟، قال فيكتب ذلك كله. فقال رجل من القوم: فيم العمل إذا وقد فرغ من هذا كله؟ فقال: اعملوا فكل سيؤخذ لما خلق له»[٣].

وعنه أيضا: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله: العمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف؟ قال بل على أمر قد فرغ منه. قال: قلت: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال: إن كلا ميسر لما خلق له»[٤].

وروي... عن طاووس اليماني، قال: «أدركت ناسا من أصحاب النبي ﷺ

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٥٧.
(٢) السنة، ص ١٢٥.
(٣) السنة، ص ١٢٦.
(٤) السنة، ص ١٣٥.

يقولون كل شئ بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ كل شئ بقدر حتى العجز والكسل»[١].

وروى... حدثنا سفيان عن عمرو بن محمد، قال: «كنت عند سالم بن عبد الله فجاءه رجل فقال الزنى بقدر؟ فقال: نعم. قال: كتبه علي؟ قال: نعم، قال: كتبه علي؟ قال: نعم ويعذبني عليه؟ قال: فأخذ له الحصا»[٢].

وبناء على هذه الأحاديث وغيرها نجد أن أحمد بن حنبل كما ينقل عنه أصحابه يقرر – ويجعل ذلك من عقائد السلف – بأن «القدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره، من الله قضاء قضاه، وقدر قدره عليهم، لا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل، ولا يجاوز قضاءه، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله، وهو عدل منه عز ربنا وجل، والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة، بل لله الحجة البالغة على خلقه، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ وعلم الله عز وجل ماض في خلقه بمشيئة منه، قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه – من لدن أن عصى تبارك وتعالى إلى أن تقوم الساعة – المعصية وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها. وكل يعمل لما خلق له، وصائر لما قضى عليه وعلم منه، لا يعدو واحد منهم قدر الله ومشيئته. والله الفاعل لما يريد، الفعال لما يشاء...

ومن زعم أن الزنى ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة، حملت من الزنى وجاءت بولد، هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى في سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أن مع الله خالقا وهذا هو الشرك صراحا.

(١) السنة، ص ١٣٩.

(٢) السنة، ص ١٤٣.

ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء وقدر، فقد زعم أن هذا الإنسان قادر أن يأكل رزق غيره، وهذا صراح قول المجوسية. بل أكل رزقه وقضى الله أن يأكله من الوجه الذي أكله.

ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل، وأن ذلك (ليس) بمشيئته في خلقه، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله. وأي كفر أوضح من هذا. بل ذلك بقضاء الله عز وجل وذلك بمشيئته في خلقه، وتدبيره فيهم وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد، ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة على الصغر والقماءة»[1].

مما لا شك فيه أن هذه العقائد لو تشبع بها العوام، واعتقدتها الجماهير، فإن مآل المجتمع ككل للإنحلال والتفسخ والانحطاط الحضاري العام، لذلك نجد ابن تيمية الحراني الحنبلي يرد على مثل هكذا اعتقاد حين يقول:»ومنهم من يتكئ على القدر حتى يظن أن المعاصي والذنوب جارية عليه بمشيئة الله وقدره، فيسلم لها ظانا أن هذا هو حق المعرفة والرضا! وهذا جهل كبير فلو كان هذا عذرا لأحد لكان عذرا لإبليس ولكل كافر»[2].

وإذا كانت مصادر الحشوية قد احتوت على زخم هائل من أحاديث الجبر فإن المصادر الحديثية لدى أهل السنة والجماعة لم تخل من هذه الأحاديث التي تدعو للجبر صراحة، منها ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر بن العاص قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا. فقال للذي بيده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا. وقال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل

---

(١) طبقات الحنابلة، ج ١ ص ٢٥ - ٢٦، بتوسط بحوث في الملل والنحل، ج ١ ص ١٦٠.
(٢) العبادة وحقيقة العبودية، عن ابن تيمية لصائب عبد الحميد، ص ١٥٤.

النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا. قال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل، ثم قال رسول الله ﷺ بيده فنبذهما ثم قال: فرغ ربكم من عمل العباد. فريق في الجنة وفريق في السعير[1].

الأمويون وعقيدة الجبر:

إن هذه الأحاديث التي تدعو إلى عقيدة الجبر وتجعلها عقيدة إسلامية يرجع المحققون وضع أغلبها زمن الأمويين، لأنهم وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان كانوا فرسان هذه العقيدة والداعين لها. فالجبر كما قيل أموي والدليل على ذلك ما تمتلئ به بطون الكتب التاريخية من أن ملوك بني أمية هم أول من دعى إلى عقيدة الجبر، ونشرها بين العامة، وشجعوا أعراب الرواة على الكذب على رسول الله ووضع الأحاديث في الجبر.

يقول الدكتور المصري علي سامي النشار: «كان معاوية يعلن الجبر في الشام. ثم حدث رأي المجبرة من معاوية، لما تولى على الأمر ورآهم لا يأتمرون بأمره فجعل لا يمكنه حجة عليهم وأوهم أن المنكر لفعله، قد ظلمه فقال أولم يرني ربي أني أهلا لهذا الأمر، ما تركني وإياه. ولو كره الله ما نحن فيه لغيره. ومرة ثانية لا يجد حجة لسلبه الخلافة من بني هاشم، فيضيف الأمر إلى الله تعالى وإرادته» أنا خازن من خزان الله تعالى، أعطي من أعطاه الله، وأمنع من منعه الله تعالى، ولو كره الله أمرا لغيره...

ومرة أخرى يقول: «إنما أقاتلكم على أن أتأمر عليكم. وقد أمرني الله عليكم»، وحدث من ملوك بني أمية مثل هذا القول[2]. وعليه فكل ما فعله معاوية

---

(١) جامع الأصول، ج ١٠ ص ٥١٣، رقم الحديث ٧٥٥٥، بتوسط السبحاني، ج ١ ص ١٥٧.
(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، م س، ج ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢.

من سفك للدماء المحرمة، وقتل الأبرياء من الصحابة وغيرهم، والظلم الاجتماعي الفظيع الذي ساد فترة حكمه. كان قدرا من الله وليس لمعاوية دخل فيه ولا إرادة. بل إن الله سبحانه وتعالى حسب قول معاوية، راض عن هذا الظلم - سبحانه - إذ لو لم يرضاه لغيره. أنظر إلى قوله: «لو كره الله أمرا لغيره»؟ وهو سبحانه لم يغيره إذا وحسب عقيدة الجبر فإنه فعله وإرادته؟! وهل يستطيع أحد أن يعترض على إرادة الله ومشيئته؟!.

لقد قتل بنو أمية الألوف من المسلمين ظلما وعدوانا، ونهبوا وسرقوا أموال المسلمين، كل ذلك تحت مظلة الجبر. والحق أن هذه العقيدة الفاسدة لم تكن سوى «دعوة سياسية استخدمها بنو أمية ضد العلويين وضد جمهور المسلمين كله»[١]. وفي هذه الفترة بالذات وضعت أحاديث الجبر، والتي تلقفها الحشوية وملأوا بها مصادرهم، ليعتبر أئمتهم من بعد واعتمادا عليها، بأن الجبر هو عقيدة الإسلام فيقررونه ويعتمدونه.

والأدلة على انتشار القول بالجبر في عهد الأمويين وتشجيعهم له كثيرة جدا، لدرجة أن الأمر استفحل وأوجد فتنة كبيرة بين العامة والخاصة.

والمؤرخون للفرق الإسلامية يعزون ظهور فرقة المعتزلة عندما دخل رجل إلى حلقة الحسن البصري وخاطبه بأن هؤلاء - ويقصد ملوك بني أمية - يقتلون المسلمين ويقولون إن الله كتب علينا ذلك. فهل من يفعل ذلك يعتبر مؤمنا أم كافرا؟. تقول الرواية إن واصل ابن عطاء وكان من تلامذة الحسن قد استبق شيخه في الإجابة، وقال إن من يرتكب ذلك - أي كبيرة القتل - لا يعد مؤمنا ولا كافرا إنما هو في منزلة بين المنزلتين. وقام واعتزل حلقة الحسن البصري[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٢) ويروى أن عطاء بن يسار ومعبد الجهني قالا للحسن البصري: «هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم، ويقولون: «إنما تجري أعمالنا على قدر الله»؟!

كما أن يوحنا الدمشقي الفيلسوف المسيحي الذي اعتزل خدمة الأمويين - وقد كان محاسبا لمعاوية - كان يقول ويدعي أن الإسلام ليس إلا عقيدة الجبر. ولا شك أن هذه العقيدة المنحرفة أخذها وسمع بها في بلاط معاوية أثناء خدمته، فمعاوية كان يعتقده - أي الجبر - فعلا ويعتبره من عقائد الإسلام، لذلك لما سألته أم المؤمنين عائشة عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين أجابها: «إن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم»[١].

إن الكم الهائل من أحاديث الجبر التي وضعها أتباع الأمويين وبتشجيع منهم، لم تجد طريقها فقط نحو متون الأحاديث وموسوعاته. بل تحولت مع مرور الأيام وبعد أن تلقاها الفقهاء والمحدثون بالقبول إلى عقيدة الجماهير العامة من المسلمين، حيث ملأت عليهم وجدانهم لقرون متعددة. ولقد بدأ صبح هذا الليل الجبري الطويل ينبلج شيئا فشيئا مع رفض بعض العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل السنة والجماعة تقليد الآباء في هذه المسألة، والدعوة إلى عقيدة الاختيار والمسؤولية، وتبيان الحد الفاصل بين الجبر والاختيار في الحياة الإنسانية.

يقول محمد الغزالي المفكر الإسلامي المعاصر: «لقد شاء الله - لحكمة لا نعلمها - أن يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ «فجاء من يزعم أن الحياة رواية تمثيلية خادعة! وأن التكليف أكذوبة! وأن الناس مسوقون إلى مصايرهم المعروفة أزلا طوعا أو

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ١ ص ١٦٧، بتوسط السبحاني، ج ١ ص ٢٤٠، ويذهب الشيخ أبو زهرة إلى أن الجبر قد شاع في أول العصر الأموي وكثر حتى صار مذهبا في آخره. وبين أيدينا رسالتان لعالمين جليلين عاشا في أول العصر الأموي ذكرهما المرتضى في كتابه «المنية والأمل». إحداهما لعبد الله بن عباس يخاطب جبرية أهل الشام وينهاهم عن هذا القول ويقول فيها: «أما بعد أتامرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون، يا أبناء سلف المنافقين، وأعوان الظالمين وخزان مساجد الفاسقين، هل منكم إلى مفتر على الله يجعل إجرامه عليه سبحانه وينسبه علانية إليه...» أنظر المذاهب الإسلامية، ص ١٧٢.

كرها! وأن المرسلين لم يبعثوا لقطع أعذار الجهل، ومنع الاحتجاج المرفوض، بل المرسلون خدعة تتم بها فصول الرواية أو فصول المأساة!.

والغريب أن جمهورا كبيرا من المسلمين يجنح إلى هذه الفرية، بل إن عامة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر، ولكنهم حياء من الله يسترون الجبر باختيار خافت موهوم. وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها، وكانت بالتالي سببا في إفساد الفكر الإسلامي، وانهيار الحضارة والمجتمع.

إن العلم الإلهي الذي ذكرنا شموله وإحاطته وصاف كشاف. يصف ما كان ويكشف ما يكون، والكتاب الدال عليه يسجل للواقع وحسب! لا يجعل السماء أرضا ولا الجماد حيوانا، إنه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص، ولا أثر لها في سلب أو إيجاب.

وعندما يذكرنا ربنا بهذا كله فلكي يكشف لنا جانبا من عظمته حتى نقدره حق قدره.

وعندما نتعلم من أن ما نجهل من مستقبل، هو مكشوف لديه فليس معنى هذا أن الامتحان الذي نتعرض له صوري وأننا مسوقون إلى هذا المستقبل برغم أنوفنا. إن هذه الأوهام تكذيب للقرآن والسنة، فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك. والقول بأن كتابا سبق علينا بذلك، وأنه لا حيلة لنا بإزاء ما كتب أزلا... هذا كله تضليل وإفك لقوله تعالى: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها..﴾. ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

والواقع إن عقيدة الجبر تطويح بالوحي كله. وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة. بل هي تكذيب لله والمرسلين قاطبة»[1].

***

(١) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق، ط ٥ - ١٩٨٩ م، ص ١٤٤ - ١٤٥.

وأخيرا

إن هذا التراث العقائدي الحشوي الموغل في التشبيه والتجسيم والذي جمع في مصادر وكتب، سيكتب له البقاء والحياة إلى يوم الناس هذا، بفضل عناية رجال تولوا حراسته وحفظه والدفاع عنه. بعدما احتضنته رحم المذهب الحنبلي، واعترفت السلطات في العالم الإسلامي بشرعية هذا المذهب وأحقيته في البقاء والانتشار. فكان أن ظهر ابن تيمية الحراني وهو أحد الأبناء الشرعيين لهذا المذهب، فاطلع على ذلك التراث وفحصه وآمن به، ومن ثم طفق يدعو له ويجادل خصومه ويدافع عنه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، حتى تمكن من بعثه من جديد وقد كاد يندرس، فنفخ فيه من روحه وتولاه بعنايته.

وإذا كان هذا الحشو يفتقر إلى العقلانية في أكثر جوانبه فإنه سيقوم بمحاولة عقلنته. أي الدفاع عنه في إطار جدلي يوهم المؤمن به أن لهذا الحشو بناءات شرعية وعقلية، وأن المضامين النهائية لما احتواه هذا التراث الضخم من الحشو، هي ما كان عليه الصحابة وسلف الأمة الصالح، فهو الحق وغيره الباطل لا محالة؟!.

وإذا كانت هذه الحركة البعثية والتجديدية التي عرفها الحشو على يد ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية، قد أحيط بها وأخمدت أنفاسها بعيد موت هذين الشيخين بالذات، فإن تراث الحشو كان له موعد آخر مع القدر وذلك على يد حنبلي آخر هو محمد بن عبد الوهاب النجدي الذي سيتخذ من هذا التراث - وخصوصا في قالبه الجديد الذي صنعه له أستاذه ابن تيمية - منطلقا للدعوة إلى التجديد العام في الجزيرة العربية.

الفصل الثالث

تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني الحنبلي و«عقلنة الحشو»

« وقد استمرت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط الله تعالى، ولاستخفاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق. حراني تجرد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء. متظاهرا بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أستاذ يرشده في مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتظافرا في الدفاع عن تحريف السخفاء إلا إذا كان العقل عقل صابئي والنقل نقل صبي».

الشيخ محمد الكوثري المصري مقدمة «السيف الصقيل»

تمهيد

من ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا[1]. كلمات تكاد تنفطر حزنا وكمدا ابتدأ بها المؤرخ ابن الأثير حديثه عن هجمة التتار على الدولة الإسلامية وما أحدثوه من خراب ودمار، كان له أبلغ الأثر في تقهقر الحضارة الإسلامية وانتكاستها.

انطلق الهجوم التتري على شرق الدولة الإسلامية ابتداء من (سنة ٦٠٣هـ)، وفي جمادى الأولى من (سنة ٦٦٦هـ) كان هولاكو خان القائد التتري يستعد لمغادرة بغداد بعد أن دخلها وخرب عمرانها وقتل عشرات الألوف من أبنائها. إن سقوط بغداد دار الخلافة وعاصمتها بيد هؤلاء الهمج المتوحشين قد أشاع الرعب والجزع في قلوب المسلمين في باقي الحواضر الإسلامية والتي لم يصل التتر إليها بعد، مثل الشام ومصر. ولربما كان لهذا الخوف والهلع وما تناقله الهاربون من أخبار عن شراسة ودموية التتر أثره في إثارة الهمم وإيقاظ العزائم الخائرة، كي تهب ليس فقط دفاعا عن الأرض، ولكن لمواجهة موت شبه محتوم على أيدي هؤلاء الوحوش.

لقد بدأت طلائع الجيش التتري تشرف على مداخل الشامات بعد سقوط بغداد، بل إنهم وصلوا فعلا إلى عين جالوت وغزة في فلسطين. حيث كان في نيتهم الاستيلاء على بلاد الشام، لكن يد القدر تدخلت هذه المرة لصالح المسلمين، لإنقاذ

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢ ص ٣٥٨، بتوسط الملل والنحل، ج ٤ ص ١٦.

ما يمكن إنقاذه. فالتفت الجماهير الخائفة من الموت حول الملك المظفر قطز (٦٥٩ - ٦٧٦ هـ)، حيث كان الدفاع مستميتا، لقي معه التتر الهزيمة تلو الهزيمة، بدأ معها هذا الطوفان الوحشي في الانحسار إلى أن توقف نهائيا، بموت تيمورلنك الذي أعلن إسلامه. وعليه فقد إستمر الهجوم التتري قرابة المائتي سنة تقريبا. حيث انطلق الغزو سنة (٦٠٣ هـ) وانتهى سنة (٨٠٧ هـ).

أما الحروب الصليبية فقد بدأت سنة (٤٨٩ هـ) ولم تنتهي إلا سنة (٦٦٠ هـ) عندما استطاع المسلمون استرداد كل ما استعمره الصليبيون من مدن وجيوب بحرية في فلسطين وشمال مصر. في الوقت نفسه الذي كان المسلمون في الأندلس يتعرضون لموجة الطرد والإبادة على يد الإسبان وجحافل الجيش الصليبي الأوربي. لقد مني الإسلام والمسلمون بين سنة (٥٠٠ هـ- ٩٠٠ هـ) بهزائم فظيعة حيث تكالبت عليهم الأمم وتكاثفت عليهم المحن والفتن كقطع الليل المظلم.

إنها بحق كما يقول المحقق السبحاني: شر القرون بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وضحايا لم يسجل التاريخ لواحد من الأمم مثلها[١].

***

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ٤، ص ٢٢.

ابن تيمية حياته وتحصيله العلمي

المولد والهجرة:

في جو الهزيمة الشاملة وتكالب أمم الأرض على الأمة الإسلامية، وفي ظل الفتن والمحن واختلال الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية بشكل عام، ولد أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني[1] ثم الدمشقي، الحنبلي، يوم الاثنين عاشر ربيع الأول بحران سنة إحدى وستين وستمائة(٦٦١ هـ) [2]. أي بعد خمس سنوات من سقوط بغداد في يد المغول.

تعتبر مدينة حران[3] مولد ومنشأ أحمد ابن تيمية موطن الصابئة منذ أقدم العصور. وقد استمر وجودهم بها بعد الفتح الإسلامي بالإضافة إلى الوجود

---

(١) يلقب ابن تيمية بالحراني نسبة إلى حران، واعترض صاحب القاموس على ذلك لأن النسبة إلى حران هي حرناني وهي نسبة سماعية، ويخطئ من يقول حراني وهي للنسبة القياسية. يقول الدكتور السيد الجميلي:» وقد لفت الأنظار إلى أنه ليس عربي الأصل نسبة إلى القبيلة لأن العرب تنتسب عادة إلى القبيلة، ولكن هذا لا يقدح في كرامة الرجل ولا يقلل من شأنه وعلمه بحال؟! سبحان الله تراهم عند ذكر أحمد بن حنبل يعتبرون كونه عربيا إحدى المميزات التي تنضاف إلى شخصه ولو كان الكلام عن خصم مذهبي لغمز في نسبه وعرقه!؟.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٤ ص ١٤٢، كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ

(٣) تقع حران في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات وقد كانت موطن الصابئة قبل الإسلام فيها سدنتهم السبعة عشر، وبها تل عليه مصلاهم الكبير يعظمونه وينسبونه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام. فتحها المسلمون على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وبقيت في حوزة المسلمين يتولاها أمراء الدولة التي حكمت المنطقة خصوصا السلاجقة والأيوبيين والمماليك وقد احتلها الروم أكثر من مرة ولما استولى المغول على بغداد وعقدوا العزم على غزو الشام كانت حران أولى المحطات في طريقهم لأنها بوابة الشام من جانب الموصل لذلك لم تسلم من التخريب والنهب مما دفع بسكانها إلى الهجرة والهروب عنها خوفا من القتل والنهب ومنهم أسرة ابن تيمية. أنظر للمزيد من التفصيل. معجم البلدان وأحسن التقاسيم.

المسيحي لقربها من مدينة الرها ذات الأغلبية النصرانية. حيث ولد هرقل إمبراطور الروم.

تقع هذه المدينة في صحراء الجزيرة بين دجلة والفرات زارها الرحالة ابن جبير سنة(٥٨٠ هـ) فوصف أجواءها وطبيعتها بعبارته المسجوعة. فقال: بلد لا حسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه[١] فلا يألف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه ولا تجد فيها مقيلا، ولا تتنفس فيها إلا نفسا ثقيلا، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة وتعرت أعطافه من ملابس النضارة[٢].

وإذا كانت الصراعات السياسية والمذهبية قد أوجدت لها مناطق نفوذ جغرافية عرفت عبر تاريخ الإسلام، حتى أضحت من مسلمات التاريخ. فإن منطقة حران قد إشتهرت بولائها الشديد لبني أمية، وتوارث أبناؤها هذا الولاء جيلا بعد جيل، إلى عصر ابن تيمية. هذا الولاء الذي تترجمه حادثة تاريخية مهمة وعميقة ذلك عندما أمر عمر بن عبد العزيز بوقف لعن الإمام علي بن أبي طالب على المنابر، فقد ساء أهالي حران هذا المنع وقالوا: «لا صلاة إلا بلعن أبي تراب»[٣].

وأما مذاهب أهلها فمنذ أن تقسم الناس على المذاهب كانت حران موطن الحنابلة لا ينازعهم فيها أحد. وتخرج منها علماء كثيرون فقهاء ومحدثون لا تجد بينهم غير الحنبلي إلا أن يكون مولده ونشأته بعيدا عنها[٤].

وإذا كان تقي الدين ابن تيمية ولد ونشأ في حران، المدينة التي وصفنا جغرافيتها الطبيعية والسياسية والمذهبية: فإنه سينتقل هو وعائلته للاستقرار في دمشق. وذلك

---

(١) أي برد الصباح وبرد المساء.

(٢) ابن تيمية حياته عقائده، موقفه من الشيعة وأهل البيت. صائب عبد الحميد مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط ١ - ١٩٩٤ م، ص ٢٥.

(٣) د. علي الوردي، وعاظ السلاطين، دار كوفان، لندن ط ٢، ١٩٩٥م، ص ١٦٣.

(٤) ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٢٥.

سنة (٦٦٧ هـ) فرارا من طلائع الجيش المغولي. التي أضحت على أبواب حران والمناطق المجاورة لها. في دمشق استقرت الأسرة الهاربة من بطش المغول، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة الطفل الحراني نحو التحصيل العلمي والمطالعة في كتب التراث الإسلامي. وصولا إلى مرحلة الأستاذية والتدريس في مدارس دمشق وجوامعها.

التحصيل العلمي:

لقد ولد تقي الدين بن تيمية في بيت المشيخة الحنبلية حيث حمل لواء هذا المذهب أفراد هذه الأسرة الواحد تلو الآخر. عرف منهم محمد بن الخضر بن تيمية وقد كان شيخ الحنابلة وخطيب حران طيلة حياته. ثم جاء بعده ابنه عبد الغني وابن عمه عبد السلام بن عبد الله بن الخضر المتوفى سنة (٦٥٢ هـ) وهو جد تقي الدين بن تيمية. وقد توالت سلسلة المشايخ الذين تعاقبوا على رئاسة هذا المذهب بحران إلى أن تولى الخطابة والمشيخة بها والد أحمد بن تيمية. عبد الحليم بن عبد السلام (٦٢٧ - ٦٨٢ هـ) والذي سيغادرها إلى دمشق فرارا من الغزو المغولي كما أسلفنا.

استقرت أسرة ابن تيمية في رحاب دمشق واستطاع أبوه أن يحصل على كرسي التدريس بجامعها. وما لبث أن أسندت إليه مشيخة دار الحديث السكرية في القصاعين محل سكناه[1].

تلقى ابن تيمية تعليمه الأول في حلقات أبيه الدراسية لينتقل بعدها متتلمذا على يد مجموعة من المشايخ والأساتذة، على رأسهم أحمد بن عبد الدائم المقدسي المحدث الحنبلي، وابن أبي اليسر التنوخي وعبد الرحمن بن أبي عمر ابن قدامة المقدسي الحنبلي المتوفى سنة (٦٨٢ هـ). وغيرهم من المشايخ. كما تتلمذ على يد مجموعة من النساء المحدثات مثل زينب بنت أحمد المقدسية، وزينب بنت مكي الحرانية. درس على هؤلاء جميعا وآخرين: علوم الحديث والرجال واللغة والتفسير

---

(١) ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٥٥.

والفقه والأصول. وقرأ بنفسه، ونسخ كتبا بيده منها سنن أبي داود. وكان حاد الطبع حديد الذهن، قوي الحافظة، برز على أقرانه ولما يجاوز العشرين من عمره وكان أبوه يعلمه الإفتاء ويدربه عليه ليعده لخلافته بعد موته[1].

ارتقى ابن تيمية كرسي التدريس في جامع دمشق مباشرة بعد وفاة والده وكان أول درس ألقاه في التفسير حيث حضر جمع من الطلبة والعلماء فشرح وفصل وأطال وأظهر محفوظاته وتخريجاته ومدى اطلاعه الواسع. جعل الحاضرين يستحسنون طريقته ويثنون عليه. وبذلك خطا أولى خطواته نحو الشهرة والصيت الذائع.

إستمر ابن تيمية في التدريس وإلقاء الدروس بالجامع، ولم يعد درسه يقتصر على التفسير بل تعداه، إلى الفقه الذي سيخوض ميدانه ليس كمقلد ناقل لفتاوى المذهب الحنبلي، ولكن كمجتهد له الحق في إبداء رأيه والتفرد بفتاوى جديدة لم يخالف بها المذهب الحنبلي فقط، بل خالف بها ما أجمعت عليه المذاهب الفقهية الأربعة. وإذا كانت تلك الفتاوى الجديدة التي أعلنها هي السبب الرئيس في شهرته، فإنها كانت كذلك سببا في محنته، والشرارة التي أشعلت نار الصراع المرير الذي خاضه مع مخالفيه من أتباع المذاهب الأصولية والفقهية المتواجدة على الساحة الفكرية والدينية.

وإذا كانت الفتاوى الفقهية التي تفرد بها وخالف بها جمهور الفقهاء والمقلدين للمذاهب سببا لما تعرض له من محن فإن اعتقاداته الخاصة وآراؤه الكلامية، خصوصا فيما يتعلق بالتوحيد والعدل. قد فجرت الصراع مبكرا بينه وبين خصومه من أهل السنة بالخصوص، الذين اعتبروا ما جاء به وما يدعو له لا يعدو الهرطقة والخروج عن التوحيد والتنزيه والسقوط في شراك التشبيه والتجسيم.

***

(١) المرجع السابق، ص ٥٧. اشترك ابن تيمية في تدوين كتاب في الفقه الحنبلي بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو. لذلك يعده أكثر العلماء حنبليا خالصا وكان يدافع عن الحنابلة.
وآراؤه مشتقة أصلا من المذهب الحنبلي. وهو يعتبر مذهب أحمد أمثل المذاهب الإسلامية وأقربها إلى السنة وأبعدها عن الغريب. أنظر «المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب» عبد الرزاق محمد أسود، ج ٢ ص ٢٣٣.

الفتوى الحموية وانفجار الصراع

الصفات الخبرية والنص على التجسيم:

في سنة (٦٩٨ هـ) وردت على ابن تيمية رسالة من أهل حماة يسألونه: «ما قول السادة العلماء أئمة الدين أحسن الله إليهم أجمعين في آيات الصفات، كقوله تعالى ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات. وأيضا كقوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمان» وقوله: «يضع الجبار قدمه في النار» إلى غير ذلك، وما قالته العلماء فيه، وليبسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله[1] فكان أن فأجاب بما هو نص في التجسيم[2].

أي بما تعتقده الحشوية في مسألة الصفات الخبرية. سواء ما صح منها أي ما ورد في القرآن، وما صح من سنة الرسولﷺ أو ما جاء في الأحاديث التي اختلقها الوضاعون أو مرويات أهل الكتاب وعلى الخصوص مجسمة اليهود. وقد أوردنا في حديثنا السابق[3] حول هؤلاء الحشوية مجموعة الأحاديث، معتمدهم في اعتقاد التجسيم والتشبيه، والتي سيعتمدها ابن تيمية عقيدة سلفية وسينافح عنها بكل ما أوتي من قوة بيان وحجج عقلية. وناصر فيها عقيدتهم حيث نسبوا إلى الله تعالى صفات هي من صفات الأجسام، كالوجود في جهة واحدة والاستواء على العرش حقيقة. والحركة والانتقال، وأن الوجه والأيدي والأعين والأرجل المذكورة في

---

(١) الرسالة الحموية، ص ٤٢٥، طبعت ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، ج ١.

(٢) بحوث في الملل والنحل، ج ٤، ص ٣٢.

(٣) أنظر تعريف الحشوية في الفصل الأول، وابن تيمية، مرجع سابق، ص ٥٩ – ٦٠.

بعض الآيات والأحاديث إنما هي على الحقيقة دون المجاز[(١)].

لقد كانت الفتوى الحموية السبب الرئيسي لمحنته وشهرته معا. وذلك لأن ابن تيمية سيبدأ بعرض هذه العقيدة على العامة ومن على منبر الجامع في دمشق. يقول ابن بطوطة في رحلته تحت عنوان «الفقيه ذي اللوثة»[(٢)] كان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية. كبير الشام يتكلم في الفنون، إلا أن في عقله شيئا... إلى أن قال: وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم. فكان من جملة كلامه أن قال: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من المنبر»[(٣)].

وهذه الحادثة ذكرها أكثر من واحد. إلا أنها ليست المأخذ الوحيد لدى خصومه من أهل السنة، لأن أغلبهم سيعتمد على ما ورد في الفتوى الحموية وكذا ما يتناقله الطلبة والعامة من مستمعيه في المسجد الجامع.

لقد وصلت عقيدة ابن تيمية وفتاواه مسامع العلماء المعاصرين له فقاموا للرد عليه ولبيان أن مذهبه في الصفات الخبرية، يفضي إلى التجسيم والتشبيه، وهو خلاف التنزيه الذي يعتقده أهل السنة والجماعة من الأشاعرة. كما ردوا على فتاويه الفقهية، إما لمخالفتها الإجماع - أي إجماع فقهاء المذاهب الأربعة - أو لخطئها وعدم صحتها بالمرة.

إن إعلان ابن تيمية لعقيدة التجسيم وغيرها من الآراء الفقهية المخالفة وما تبع ذلك من ردود كتابية وفتاوى مناهضة ومناقضة لما ذهب له. قد أثارت الرأي العام حوله فوقعت معها بعض الفتن، تدخلت على إثرها السلطات السياسية آنذاك

(١) ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) اللوثة بالضم: مس جنون.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥. ذكر القصة ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٥٤. أنظر ابن تيمية، صائب عبد الحميد، م س.

فعقدت لهذا الفقيه الحنبلي عدة مناظرات ومحاورات، بحضور علماء المذاهب الفقهية والأصولية وبإشراف السلطات السياسية.

يقول ابن كثير في حوادث سنة (٦٩٨ هـ): «قام عليه – أي على ابن تيمية – جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي «جلال الدين الحنفي» فلم يحضر. فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة المسمى بالحموية[١].

علماء أهل السنة يردون على ابن تيمية:

لم تهدأ ثائرة الفقهاء، مع كثرة الردود والتعرض والنقض لعقيدة هذا المجتهد الحنبلي. وذلك لأن ابن تيمية لم يتوان ولم يتراجع عن إفشاء وعرض ما يراه من آراء، وإن كانت خلاف ما تراه الأغلبية من علماء أهل السنة وفقهائهم.

ففي سنة (٧٠٥ هـ) أحضر ابن تيمية عند نائب السلطنة بالقصر واجتمع القضاة لمناقشة «عقيدته الواسطية توالت بعدها عدة مجالس وناظره علماء أهل السنة مثل الشيخ تقي الدين الهندي والشيخ كمال الدين الزملكاني، وقد انتهت هذه المساجلات الكلامية والمناظرات العقائدية والفقهية بين ابن تيمية وخصومه كما يقول ابن كثير» بأن ادعى عليه عند ابن مخلوف المالكي بأنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وأن الله يتكلم بحرف وصوت. فحكم عليه القاضي بالحبس في برج أياما، ثم نقل منه إلى الحبس المعروف بالجب. وكتب كتاب نودي به في البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقي الدين.

فانضم إلى صفه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء. وجرت فتن كثيرة منتشرة وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة[٢].

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٤ – ٢٦.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٤ ص ٤٠.

ظل الشيخ مسجونا في قلعة الجبل بمصر قرابة السنة والنصف، إلى أن أفرج عنه في ربيع الأول من (سنة ٧٠٧ هـ) لكنه لم يبرح أن أدخل سجن القضاة مرة ثانية، بدعوى إن في آرائه قلة أدب بساحة النبيﷺ. ولما أفرج عنه في مستهل (سنة ٧٠٨ هـ) أخذ للإقامة في مدينة الإسكندرية حيث وقعت بينه وبين طوائف من الصوفية مساجلات وفتن كثيرة.

عاد ابن تيمية إلى موطنه دمشق (سنة ٧١٢ هـ) فاشتغل بالتدريس والإفتاء، وبقي على حاله من إصدار الفتاوى والآراء الجديدة المخالفة لما عليه المذاهب الأربعة، سواء في الأصول أو الفروع، فعقدت له مجالس أخرى للمناظرة حبس على أثرها بالقلعة خمسة أشهر ليطلق سراحه بعد ذلك.

وفي سنة (٧٢٦ هـ) حدثت فتن كبيرة في دمشق بسبب فتواه بتحريم شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء، فأمر السلطان بإدخاله القلعة. حيث تفرغ للتأليف والرد على خصومه ومراسلة أتباعه ومحبيه. مما جعل الفتنة غير قابلة للإخماد، حتى منع الورق والدواة وأخرجت كل كتبه من عنده.

وفي ليلة الاثنين (٢٠ ذي القعدة من سنة ٧٢٨ هـ) لفظ الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية آخر أنفاسه في قلعة دمشق عن عمر يناهز الثامنة والستين عاما. ودفن بمقابر الصوفية. يقول ابن كثير: وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طباع أهل الأديان فضلا عن أهل الإسلام[1].

الفتاوى الجديدة لابن تيمية في الفقه:

لم تكن الفتوى الحموية أو القول بالجهة وما يتبع ذلك من التجسيم والتشبيه، الخلاف العقائدي الوحيد بين الشيخ ابن تيمية ومخالفيه من أهل السنة: ولكن يضاف إلى ذلك مجموعة آراء أخرى جريئة في العقائد والفقه وكذا في التاريخ. أما

---

(١) المرجع السابق، ج ١٤، ص ١٤٣.

فيما يخص الفقه فقد ذكر ابن العماد الحنبلي أهم هذه الفتاوي المخالفة وهي خمسة عشر مسألة نذكر منها.

١ - إرتفاع الحدث بالماء المعتصر، كماء الورد ونحوه.

٢ - المائع القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه حتى يتغير. حكمه حكم الكثير.

٣ - جواز التيمم خشية فوات الوقت مع توفر الماء.

٤ - تارك الصلاة عمدا لا يجب عليه القضاء ولا يشرع له.

٥ - جواز القصر في مسمى السفر طويلا كان أو قصيرا.

٦ - من أكل في شهر رمضان معتقدا أنه ليل، وكان نهارا فلا قضاء عليه.

٧ - جواز طواف الحائض ولا شئ عليها.

٨ - الحلف بالطلاق لا يقع وعليه كفارة.

٩ - الطلاق المحرم لا يقع.

١٠ - الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة.

وهذه الفتاوى التي تفرد بها عن مذهبه أو خالف بها إجماع المذاهب الفقهية الأخرى لم تكن لتثير عليه ما أثارته عليه فتواه الخاصة بالعقيدة.

بالإضافة إلى مسألة الطلاق الثلاث. والتي قال بأنها لا تقع إلا واحدة خلافا للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، الذي أخذ الجمهور عنه هذا الاجتهاد واعتمدوه.

ومن القضايا المهمة التي وقع الاختلاف حولها بينه وبين خصومه. والتي ستبعث من جديد على أيدي أتباعه وأتباع تلميذه محمد بن عبد الوهاب نذكر.

- تحديد مفهوم العبادة والشرك.

- تحديد مفهوم البدعة والابتداع في الدين وحدهما.

- التوسل والتبرك بالنبي وآثاره.

- التوسل بالأولياء والأئمة.

شد الرحال لزيارة قبر النبي أو قبور الأولياء.

- البناء على القبور والصلاة عندها سواء قبور الأنبياء أو الأولياء، وكذا النذر لأهلها، بالإضافة إلى مواضيع أخرى متفرعة عما ذكرناه من عناوين. أو قضايا أخرى تمس تاريخ الإسلام كرأيه في الصحابة ورأيه المتميز في ملوك بني أمية ودفاعه المستميت عن يزيد بن معاوية قاتل الحسين بن علي رضي الله عنه.

بالإضافة إلى قضايا أخرى فلسفية وكلامية هاجم فيها أهل السنة وغيرهم، مثل خلق القرآن والجبر والإيمان بالعلل وغيرها من المسائل الدقيقة في أبواب التوحيد والعدل. وكذا اعتراضه على بعض معتقدات الصوفية. إلى جانب حربه وهجومه على الشيعة بشكل عام والإمامية بالخصوص.

أهم هذه المعتقدات والآراء لابن تيمية، وكذا ردود خصومه أفردنا لها بحوثاً خاصة. أما فيما يتعلق بآرائه ومعتقداته الأصولية والفقهية التي خالف بها أهل السنة والجماعة، فإنا بعون الله سنفصل القول فيها، وذلك في الباب الذي عقدناه تحت عنوان السلفية وأهل السنة، على اعتبار أن أتباعه الجدد يرددون أقواله وفتاواه ويعتمدونها كفيصل بين الحق الذي معهم، وبين الضلال الذي بين يدي خصومهم أهل السنة والجماعة.

أما موقفة من الشيعة فإن باب «السلفية والإمامية» قد خصص لمعالجة هذا الموضوع الشائك، والذي تطرح قضاياه اليوم بإلحاح، حيث اختلط الحق فيه بالباطل، وصعب على ذوي الحجا فهم خباياه.

أما الآن فسنحاول أن نتتبع الخلفيات الفكرية التي جعلت هذا الشيخ الحنبلي يفتي بما أفتاه في «حمويته» أو عقيدته الواسطية والذي أثار عليه علماء أهل السنة والجماعة فاتهموه بالتجسيم والتشبيه. وكذا تسليط الضوء على محاولته لمعالجة ذلك الكم الهائل من أحاديث الحشو الذي صدر عنه، وهو الحنبلي العريق في

حنبليته. وكيف توصل إلى إضفاء نوع من العقلنة على هذا التراث الحشوي، والخروج بنتائج ومعتقدات، وضعها في قوالب نسبها إلى السلف الصالح واعتمدها من جاء بعده من (تلاميذه) على أنها مذهب السلف في العقائد، الواجب إتباعه، ضال من تنكب عن طريقه؟!.

كنا قد تتبعنا آراء المعاصرين من فقهاء علماء المذاهب الإسلامية في هذا الرجل لمعرفة القضايا المهمة التي اختلفوا معه فيها من خلال ردودهم العامة. أما تفصيل القضايا فقد أفردنا له مكانا خاصا كما ذكرنا سابقا. وأخيرا إذا كان البحث العلمي قد أوصلنا في الفصول السابقة إلى تحديد ومعرفة الجذور التاريخية والنظرية لاتجاه الحشو، وأن ما يطلق عليه اليوم «مذهب السلف» ما هو إلا نسخة معدلة مطورة لهذا الاتجاه. اكتسب شرعيته من انتسابه لمحدث مشهور، وتوالت عليه مجموعة من المحدثين ورجال الفقه، تؤسس بنيانه وتدعم صرحه، وإذا أطلق على ذلك البناء أسم «المذهب الحنبلي» فإن النسخة المعدلة منه، مع ابن تيمية وأتباعه سيختار لها عنوان أشد جاذبية وأكثر غموضا وصعوبة عند التعريف: إنه «مذهب السلف».

لقد ثبت أن الإمام أحمد ابن حنبل لم يكن فقيها بالمعنى الاصطلاحي لدى أهل السنة والجماعة، فهل كان شيخ الإسلام ابن تيمية سلفيا كما ادعى هو وادعي له؟.

أم أننا سنصل إلى نفس النتيجة التي وصلنا إليها أثناء بحثنا في تعريف مصطلح السلف؟! وهي أن «مذهب السلف» ليس سوى مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، سواء أكان في العقائد أم في الفروع. أما محاولة الجمع بين ما يمكن أن يسمى مذهب السلف أي ما اعتقده ورآه الصحابة والتابعون وجملة علماء القرون الثلاثة الأولى وما أفصح عنه لسان وقلم ابن تيمية الحنبلي؟! فنعتقد أنها محاولة فاشلة وسطحية لا يمكنها أن تعبر نهر الحقيقة إلا على جسر الكذب والتحريف والافتراء على التاريخ الإسلامي وشخصياته جملة وتفصيلا.

عقلنة الحشو

قلنا سابقا في تعريف «الحشوية» أو أهل الحشو: لقب تحقير أطلق على أولئك الفريق من أصحاب الحديث الذين اعتقدوا بصحة الأحاديث المسرفة في التجسيم من غير نقد، بل فضلوها على غيرها وأخذوها بظاهر لفظها[١] كما نزعوا إلى الفهم الحرفي لتلك الأحاديث مما أدى بهم إلى الوقوع في التجسيم الصريح، والتشبيه أي تشبيه صفات المخلوقات والأشياء المادية الجسمية إلى الله سبحانه وتعالى[٢].

لقد كان المحدثون وبسطاء الرواة الذين استهوتهم تلك الأحاديث، بادئ الأمر شرذمة مختلفة المشارب والنزعات تتقاذفهم المذاهب والتيارات. إلى أن التأم شملهم مع ظهور المذهب الحنبلي للوجود. حيث سينضمون إليه زرافات، جعلت هذا المذهب المختلق لا يعرف إلا بهم. بل أصبح الإطار المذهبي الذي يستظلون به ويصدرون عنه. لذلك نجد المؤرخ الصفدي عندما تعرض لهذا المذهب - أي الحنبلي - يقول في أتباعه «والغالب في الحنابلة الحشوية». كما أن جل المؤرخين متسالمون على وصف غالبية أتباع هذا المذهب بأنهم حشوية مجسمة[٣].

وقد احتضن هذا المذهب بالفعل، مجموعة المصادر التي احتفظت وجمع فيها تراث الحشو بكامله تقريبا وهي كما ذكرنا سابقا وأوردنا بعضا من مروياتها: كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب «السنة» للأثرم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، مادة الحشو، ج ٧، ص ٤٣٩.

(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٣) أنظر التعاريف «الحشوية».

صاحب أحمد[١]، وكتاب (السنة) للخلال، وكتاب «العلو للعلي الغفار» للذهبي المحدث، والنقض لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي[٢]. بالإضافة إلى ما اعتقدوه من فتاوي وتفاسير وآراء قال بها رؤساء المذهب وفقهاؤه. مثل ابن الزاغوني وابن حامد والقاضي أبو يعلى[٣]، وغيرهم من الحشوية الحنبلية الذين تكفل ابن الجوزي الحنبلي بالرد عليهم وتسفيه أحلامهم.

إن هذا التراث العقائدي الحشوي الموغل في التشبيه والتجسيم والذي جمع في كتب ومصادر سيكتب له البقاء والحياة بفضل عناية رجال تولوا حراسته وحفظه خصوصا لما أعتبر كتراث نظري للمذهب الحنبلي. على رغم الهجومات التي تعرض لها من طرف علماء أهل السنة وفقهائهم.

لقد ولد ابن تيمية ابنا شرعيا للمذهب الحنبلي، فنشأ وترعرع متشبعا بأجوائه العقائدية والفروعية. فكان أن اطلع على هذا الكم الهائل من الحشو وغيره من تراث المذهب الحنبلي. فدرسه وآمن به وطفق من ثم يدعو له وينافح عنه مجادلا خصومه، بفضل ما أوتي من اطلاع واسع على الكثير من مجالات المعرفة العربية والإسلامية، ليتمكن من إعطائه بعض الاعتبار الجديد، حيث كاد أن يندرس. فنفخ فيه من روحه وتولاه بعنايته.

وإذا كان مجمل ذلك التراث الحشوي يفتقر إلى العقلانية فإن ما سيقوم به ابن

---

(١) هو أحمد بن محمد الأثرم، كان من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل. كان معه تيقظ حتى نسبه يحي بن معين ويحي بن أيوب المقابري فقال: «أحد أبوي الأثرم جني» أنظر ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ص ٣٨.

(٢) إن السجزي أول من اجترأ بالقول: «أن الله لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته. فكيف على عرش عظيم» أنظر مقدمة الأسماء والصفات للبيهقي.

(٣) أغرق القاضي أبو يعلى في التشبيه عند كلامه في الصفات حتى قيل في شأنه: «لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئا لا يغسله ماء البحار؟.

أما ابن الزاغوني الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٥٢٧، فقد ألف كتابا في أصول الاعتقاد سماه «الإيضاح» قال فيه بعض العلماء: «إن فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه» أنظر بحوث في الملل والنحل، ج ٤، ص ١٢٤.

تيمية ليس إلا محاولة لعقلنته ووضعه في إطار يمكن أن يجادل به عنه لإثبات شرعيته أولا، وتزويده بمنهج ينهض به ثانيا.

فكانت المحاولة وجاءت النتائج مخيبة للآمال، غارقة في الضبابية والغموض. لم يستطع فهمها أو استيعابها أتباع الرجل فضلا عن خصومه.

ولم يشفع لتلك الآراء التي صدرت عنه هذه المحاولة - محاولة العقلنة - نسبتها إلى السلف الصالح صدقا أو كذبا، كما لم يعضدها حسم الرجل وجرأته على الفعل وادعاؤه «إجماع السلف» أو «مذهب الجمهور»، وقول «الأئمة قاطبة» أضف إلى ذلك ترسانته الإرهابية، من تكفير وتضليل وتبديع لمن رام مخالفته أورد عليه بحجة شرعية أو عقلية.

ابن تيمية وإثبات الجهة:

جاءت الفتوى الحموية التي امتحن بسببها ابن تيمية ونوظر وسجن، بمثابة إعلان عن اعتقاد الرجل الصريح والواضح بالجهة. وذلك بإثبات أن الله جل وعلا في جهة من الجهات. وهي جهة العلو. وهو معتقد الحشوية قبله، وقد ألف الذهبي كتاب العلو للعلي الغفار وأورد جملة من الأحاديث تنتصر لهذا المعتقد. يقول ابن تيمية في جواب أهل حماة. المسمى «بالعقيدة الحموية».

«فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره. وسنة رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شئ وعلى كل شئ، وإنه فوق السماء، مثل قوله تعالى. ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾، ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾... ﴿ثم استوى على العرش﴾ في ستة مواضع ﴿الرحمان على العرش استوى﴾...

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصي، مثل قصة معراج الرسول ﷺ

ونزول الملائكة من عند الله وصعودهم إليه... ثم استرسل في ذكر الآيات والأحاديث وبعض أشعار العرب وأقوال السلف.

ليجزم قائلا في تحد وجرأة قل نظيرها»... ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، ولا عن أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصا ولا ظاهرا، ولم يقل أحد منهم قط أن الله ليس في السماء، ولا أنه ليس على العرش، ولا أنه ليس في كل مكان. ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل. ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر أن النبي لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات في أعظم مجمع حضره رسول الله. جعل يقول: ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيرفع إصبعه إلى السماء، وينكبها إليهم فيقول: اللهم إشهد، غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة[1].

وبذلك يكون قد أثبت لله جهة هي جهة العلو. والذي يقرأ كلامه في حمويته، يخيل إليه أن الحق كل الحق هو ما نطق به، وأن على خصومه التسليم. لأن كل القرآن وكل السنة وكل علماء السلف وأئمة المذاهب يذهبون مذهبه. لكن الحقيقة إنك ستجد نفسك مندهشا لجرأة هذا الرجل على قول ذلك، وهاهي كتب خصومه تزخر طافحة بما تضمنته من نقول عن المصادر الحديثية وأقوال الصحابة ورجال السلف والأئمة بما يخالف ما ذهب إليه جملة وتفصيلا!.

فقد ذهب كثير من علماء السلف والخلف إلى تنزيه الله تعالى عن الجهات الست، بمعنى أنه لا تحويه جهة منها، بل كلها متساوية عنده تعالى. فالجهات الست يتصف بها المخلوق وهي «أمام وخلف ويمين وشمال وفوق وتحت» وهذه جميعها في

---

(١) العقيدة الحموية الكبرى، الرسالة الحادية عشرة، من مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية، ص ٤٢٩ - ٤٣٢، بتوسط بحوث في الملل والنحل، ج ٤ ص ١١٦.

قبضته تعالى لقوله ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقد نزه الله تعالى ذاته العلية عن المكان فقال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.

وجاء في صحيح البخاري عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه. فإن الله قبل وجهه إذا صلى»، ومعنى هذا أن الله ليس في جهة الفوقية.. وقوله عليه الصلاة والسلام «أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى في سجوده» فلو كان الله في جهة العلو لكان الإنسان في سجوده أبعد، فعلم من هذا أن الجهات كلها متساوية عند الله تعالى.

قال علي رضي الله عنه في هذا المعنى:

«إن الله قريب في بعده بعيد في قربه، فوق كل شئ، ولا يقال شئ تحته وتحت كل شئ ولا يقال شئ فوقه تعالى جنابه أن يوصف بالاستقرار على العرش أو التمكن أو المماسة، فهو مستغن عن الكون والمكان... ولما سئل الإمام أبو حنيفة وهو من التابعين عن قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قال: من حصر الله في الجهات الفوقية، أو التحتية فقد كفر، بل الاستواء معلوم والإيمان به فرض والكيف مجهول»[١]، وغير ذلك من النصوص القرآنية والحديثية وآراء علماء السلف مما سنذكره مفصلا في محله.

وإذن فقول ابن تيمية بأن نصوص القرآن والسنة وآراء جميع علماء السلف والصحابة والتابعين تؤيد اعتقاده بالجهة ليس له تفسير إلا ما قاله ابن جهبل[٢] المعاصر له: «وفي هذا الفريق «الحشوية السلفية» من يكذب على السابقين الأولين

---

(١) هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله تعالى، م س، ص ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠، بتصرف.

(٢) هو الشيخ شهاب الدين بن جهبل الحلبي الأصل ثم الدمشقي. درس فقه الشافعية وتضلع فيه وامتحنه فيه كثير من المؤرخين كالذهبي وغيره. كان معاصراً لابن تيمية يقوم بالتدريس في مدارس دمشق ولما أعلن ابن تيمية عقيدته في الجهة وامتحنه الفقهاء، قام ابن جهبل بكتابة رسالة في الرد عليه سماها. «الحقائق الجلية في الرد على ابن تيمية فيما أورده في الفتوى الحموية»، ولد ابن جهبل سنة ٦٧٠ وتوفي سنة ٧٣٣هـ

من المهاجرين والأنصار ويزعم أنهم يقولون بمقالته. ولو أنفق ملء الأرض ذهبا ما استطاع أن يروج عليهم كلمة تصدق دعواه، وتستر هذا الفريق بالسلف حفظا لرياسته والحطام الذي يجتلبه ﴿يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾، وهؤلاء يتحلون بالرياء والتقشف فيجعلون الروث مفضضا والكنيف مبيضا ويزهدون في الذرة ليحصلوا الدرة[١].

لقد تضمنت الفتوى الحموية بالإضافة إلى القول بالجهة، اعتقاد ابن تيمية الخاص فيما يتعلق بالصفات الخبرية. فكل ما جاء فيها من نقول واستدلالات من القرآن والنصوص الحديثية وآراء العلماء والفقهاء المختارة إنما يهدف إلى أن هذه الصفات يجب أن تجري على الله سبحانه بحرفيتها وظهورها التصوري دون تفصيل وتأويل، بإرجاعها إلى المعاني المجازية أو الكنائية[٢].

لقد اختلف علماء الكلام والمحدثون في تفسير الصفات الخبرية وبالخصوص ما ورد منها في القرآن الكريم وذهبوا مذاهب مختلفة منها:

الفريق الأول: يرى عدم البحث في تفسير لها باعتبارها آيات متشابهة، يجب إيكال علمها لله سبحانه وتعالى وهؤلاء هم المفوضة ولم يعرف عنهم تجاوز لهذا الموقف. إلا أنهم يعتقدون بتنزيه الله عز وجل وتقديسه عن التشبيه أو الجسمية.

الفريق الثاني: يرى أن هذه الآيات والأحاديث يجب أن تحمل على معاني تليق بتنزيه الذات الإلهية، سواء عن الحوادث أو الأجسام أو صفات المخلوقين بشكل عام. لأنه ﴿ليس كمثله شيء﴾ فالاستواء مثلا المذكور في الآية يمكن أن نحمله على الاستيلاء، وهذا المعنى تؤيده لغة العرب. وكذا «صفة اليد» فهي كناية عن القدرة. وهذا مذهب أغلب علماء الكلام وخصوصا مدرسة أهل السنة، ممثلة في الأشعري وأصحابه والماتريدي ومن تبعه.

---

(١) الحقائق الجلية في الرد على ابن تيمية، شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي، ص ٣٢.

(٢) السبحاني، م س، ص ١١٨.

أما الفريق الثالث: وهم حشوية أهل الحديث، فإنهم يذهبون إلى أن آيات الصفات وجل الأحاديث الواردة في هذا الباب يجب أن تفهم على حقيقتها بغير تأويل. على أساس أن الكلمة المستعملة إذا كانت تحتوي على معنيين تصلح للدلالة على كل منها: أحدهما قريب للذهن والآخر بعيد، يجب أن نحمل اللفظ على معناه القريب المتبادر إلى الذهن على سبيل المثال فإن الاستواء يطلق على التمكن من الشيء والجلوس عليه ويطلق كذلك على الاستيلاء. لكن دلالة الاستواء على الجلوس أقرب، فيحمل اللفظ على معناه القريب. ويلزم هذا المذهب القول بالتجسيم ما دام لا يحتمل التأويل. وأقر به بعضهم كابن الزاغوني وابن حامد وابن مسنده ممن ينتسبون إلى المذهب الحنبلي ولم يخالفوا في أن يتصف الله بالجسمية[١].

ولما كان ابن تيمية صادرا عن هذا المذهب متشبعا بآرائه، فإنه سيحاول الالتفاف على هذا القول الصريح في التجسيم. يقول في الفتوى الحموية:

«ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فيعطلون أسماءه الحسنى يحرفون الكلم عن مواضعه. أما المعطلون، - لا يقصد بهم المعتزلة أو الجهمية فقط بل كذلك كل من أول تلك الصفات من أهل السنة - فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو لائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولا وعطلوا آخرا...»[٢].

نفي التكييف أو "البلفكة":

وإذا كان المجسمة من حشوية الحنابلة يؤمنون بجري تلك الصفات على الله عز وجل بنفس حقيقتها اللغوية، لكنهم يضيفون أن صفاته تعالى لا تشبه صفة خلقه، فإن ابن تيمية سينحو في ذلك الاتجاه. إلا أنه سيبتدع فكرة نفي التكييف أو

---

(١) الحقائق الجلية، م س، أنظر الهامش ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) العقيدة الحموية، ص ٤٤٠، بتوسط السبحاني، ج ٤ ص ١١٩.

ما اصطلح عليه بـ«البفلكة» أي بلا كيف. فالاستواء عند أسلاف ابن تيمية هو الجلوس والاستقرار على العرش والمماسة له، وما يتبع ذلك من نزول وصعود كما جاء في الروايات التي يعتقدونها.

أما عند ابن تيمية فإن ذلك الجلوس والاستقرار حقيقة، لكنه جلوس واستقرار يليق بالذات الإلهية من غير تكييف ولا تمثيل.

وإذا كانت هذه هي عقيدة السلف من الصحابة والأئمة كما يدعي وقد حكاها عنهم فإنه سيدعمها. بأدلة عقلية تمثلت في استدلاله بالقياس. فإذا كنا نقول في سائر الصفات كالحياة والعلم والقدرة، بأن له سبحانه علم ليس كعلم البشر وحياة ليست كحياتهم، فلماذا لا نقول أنه له عز وجل يدا ليست كاليد البشرية ووجها ليس يشبه وجه البشر.

وهذا القياس الذي استند إليه ابن تيمية يشكل خطرا على العقائد فضلا عما أحدثه في الفقه من خلاف ومنازعات. بالإضافة إلى أن هذا القياس لا يقوم عند الاستدلال، لأنه قياس مع وجود الفارق. فالصفات كالعلم والقدرة والحياة، موضوعة لمعاني غير مقيدة بالجسمية أو المادة. أما الصفات التي وردت في الخبر كالوجه واليد والقدم فإنها موضوعة لكيفيات مادية محسوسة ومتجسدة، في وجه الإنسان أو الحيوان وما أشبه. إلا أن تؤول أو تأخذ مفهوما مجازيا آخر ليس غريبا على لغة العرب بل درجوا على استعماله، فاليد تأتي بمعنى الجارحة وتأتي بمعنى النعمة وكلا المعنيين جائز لغة، والقرآن نزل بلغة العرب واستخدم الكثير من مجازاتهم وكناياتهم. لذلك فسر أهل التنزيه اليد وغيرها من الصفات الخبرية بما وجدوه في استخدام العرب، أولا لأنه وجه من وجوه التفسير الجائز، ثانيا لسد الباب أمام كل تفسير يفهم منه إن صفات الحق تشبه أو تماثل صفات الخلق. أما أن نقول إن له يدا حقيقية لكنها لا تشبه أيدينا فإنه ركوب الصعب والخوض في غمار لجج مظلمة لا يعرف أولها من آخرها.

إن هذا المذاهب الجديد في قراءة الحشو سيبدو غريبا وغامضا وغير مفهوم لدى علماء أهل السنة القدماء والمعاصرين، فالقدماء يصمونه بالتجسيم والتشبيه وإن تستر بـ«بلا كيف» أو «البفلكة»[1].

لأن صفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغة على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية. فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالي إلى السافل، والحركة من صفات الجسم، فالكيفية مقومة لمعاني هذه الألفاظ والصفات فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يدا ورجلا بالمعنى اللغوي المتبادر عرفا، وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد طريقين.

١ - جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، وهو نفس القول بالتجسيم.

٢ - جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه:

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ فهذا هو قول المؤولة، أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية، وليس هنا معنى ثالث ينطبق على ما يتبناه ابن تيمية، وهو إجراؤها على الله بنفس مفاهيمها، لكن من غير تكييف، وذلك لما عرفت أن مفاهيمها متقومة بالتكييف والتمثيل، فلو حذفنا الهيئة والكيفية من اليد، فلا يبقى منها شيء. كما إذا حذفنا الحركة الحسية من النزول لا يبقى منه شيء. إلا إذا حملا على الكناية والتأويل...

---

(١) يقول الزمخشري في كشافه يهجو من يتستر بالبفلكة:

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة

أنظر، شرح جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقاني، ص ١١٥.

وهو ما لا يقبله ابن تيمية وأتباعه. ولو صح حمل هذه المفاهيم عليه سبحانه بالتذرع بـ«بلا كيف» و«لا تمثيل» لصح توصيفه سبحانه بكل شئ فيه أدنى كمال ونقول: إنه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا كهذه القلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة[(١)].

تهافت البفلكة:

إن ما سيصل إليه هذا المجتهد الحنبلي هو التشبيه بعينه، فهو يثبت الأعضاء والأجزاء كالتي للإنسان إلا أنه يقول: «هذا لا يشبه هذا! فهل يا ترى وجد أحدا يقول بأن الله تعالى كبعض خلقه؟ إن أكثر من قال بالتجسيم لم يقل بهذا. بل يكرر دائما ﴿ليس كمثله شئ﴾، ثم يثبت له تعالى ما أثبته ابن تيمية من الأعضاء والحالات. ثم يعود فيقول: ليست هي كأعضاء المخلوقات، ولا كحالاتهم. لكن ابن تيمية لا يرى هذا من التشبيه بل هو عنده الاعتقاد الصحيح، ويقول أن السلف إنما كانوا يذمون المشبهة الذين يقولون: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي[(٢)].

لقد أعلن ابن تيمية مذهبه هذا ليس فقط في فتوى أهل حماه. بل نشر تفاصيله من على منبر الجامع وأثناء تدريسه. ولم يفهم منه العامة إلا التجسيم الذي هو أقرب إلى أذهانهم. فعندما قال: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا، كنزولي هذا ونزل درجة على المنبر لم يقل بلا كيف، أو بلا تمثيل، لأنه كيف ومثل. وحتى لو قال ذلك فإن العامة لن تفهم ما يقصده من بفلكته تلك شيئا.

أما تلميذه ابن قيم الجوزية، فقد كان صريحا في نقله عقيدة أستاذه في أوضح صورة: يقول صاحب أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل في بيان إرخاء العمامة بين الكتفين. قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية إنه ذكر شيئا بديعا وهو أنهﷺ لما رأى ربه واضعا يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة، قال العراقي ولم نجد لذلك

---

(١) السبحاني، م س، ج ٤، ص ١٢١ - ١٢٢.

(٢) ابن تيمية، م س، ص ١٣٠، أنظر الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية.

أصلا. أقول بل هذا من قبيل رأيهما وضلالها إذ هو مبني على ما ذهبا إليه وأطالا في الاستدلال له والحط على أهل السنة في نفيهم له وهو إثبات الجهة والجسمية لله تعالى عما يقول الظالمون والجاهدون علوا كبيرا[١].

والحقيقة أن العوام معذورن في أخذهم عنه عقائد التجسيم لأن مذهبه قد استعصى فهمه على العلماء فكيف بالعوام. يقول الدكتور طه الدسوقي: وهذا مذهب في الحقيقة غير مفهوم إذ المعنى القريب من الاستواء الجلوس المادي والبفلكة تنفيه. وهضم هذه المسألة على هذا النحو صعب[٢].

أما الشيخ أبو زهرة الذي ألف كتابا حول ابن تيمية ورام الدفاع عنه في أكثر من موضع، فإنه عندما يعرض لعقيدته في الصفات يصاب بالحيرة والارتباك، يقول الشيخ: «ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع، وللإقرار بأنه في السماء، وأنه يستوي على العرش، وبين تنزيهه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث. وأن التأويل (حملها على المجاز والكناية) بلا شك في هذا يقرب العقيدة إلى المدارك البشرية، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون، وإن كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول في مكان والتنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل إلى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيما»[٣].

وخلاصة القول: إن ابن تيمية فيما بذله من جهد كبير لعقلنة الحشو أو تراث التجسيم والتشبيه، سيصل في تحقيقه ومعالجته للصفات الخبرية إلا أن:

---

(١) السيد محسن الأمين، كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، ص ١٣١. ويتابع المؤلف قوله: «ولهما – أي ابن تيمية وابن القيم – في هذا المقام من القبائح وسوء الاعتقاد ما يصم عنه الأذان ويقضي عليه بالزور والكذب والضلال والبهتان قبحهما الله وقبح من قال بقولهما والإمام أحمد وأجلاء مذهبه مبرؤون عن هذه الوصمة القبيحة وهي كفر عند كثيرين» إنتهى.

(٢) الحقائق الجلية، م س، أنظر الهامش ص ٥٦.

(٣) ابن تيمية حياته وعصره، م س، ص ٢٧٠.

المذهب الحق الذي عليه السلف الصالح إزاء هذه الصفات هو إثباتها إثباتا حقيقيا لله تبارك وتعالى[1]، وأن هذا الإثبات الحقيقي بلا كيف ولا تمثيل ولا يؤدي إلى التجسيم أو التشبيه كما يتوهم خصومه من أهل السنة والجماعة.

لقد نوقش ابن تيمية في عقيدته هذه، كما نوظر في غيرها من الفتاوي التي خالف فيها إجماع المذاهب الأربعة. بالإضافة إلى ما انفرد به عن جميع طوائف الأمة، وذلك بخصوص تحريمه شد الرحال لزيارة قبر الرسولﷺ. لقد كانت الردود سريعة ومتنوعة من طرف علماء المذاهب السنية، فمنهم من ألف كتبا ورسائل نقضت ما جاء به ابن تيمية، ومنهم من أصدر فتاوى تدينه ولا تعترف له بأي أعلمية أو اجتهاد. بل وصل الحال ببعضهم إلى تكفيره أو اتهامه بالزندقة. سنحاول تتبع بعض آراء علماء أهل السنة في الرجل سواء من عاصره أو ممن جاء بعده واطلع على عقائده.

***

(١) الدكتور أحمد بن عطية الغامدي البيهقي وموقفه من الإلهيات، المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص ٢٥٩.

آراء علماء أهل السنة في ابن تيمية

ابن جهبل: ابن تيمية يخالف الكتاب والسنة:

يقول ابن جهبل في مقدمة رده على ابن تيمية: «مذهب الحشوية في إثبات الجهة واه ساقط، يظهر فساده من مجرد تصوره، حتى قالت الأئمة: لولا اغترار العامة بهم لما صرف إليهم عنان الفكر ولا خط القلم في الرد عليهم، وهم فريقان:

فريق لا يتحاش في إظهار الحشو ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ (المجادلة ١٨)، وفريق يتستر بمذهب السلف لسحت يأكله، أو حطام يأخذه أو هوى يجمع عليه الطغام الجهلة، والرعاع السفلة، لعلمه أن إبليس ليس له دأب إلا خذلان أمة محمدﷺ.

ولذلك لا يجمع قلوب العامة إلا على بدعة وضلالة يهدم بها الدين ويفسد بها اليقين. إلى أن يقول: «ادعى – أي ابن تيمية – أنه يقول بما قاله الله ورسولهﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. ثم إنه قال ما لم يقله الله ولا رسوله ولا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ولا شيئا منه. فأما الكتاب والسنة فسنبين مخالفته لهما. وأما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار فذكره لهم في هذا الموضوع استعارة للتهويل، وإلا فهو لم يورد من أقوالهم كلمة واحدة. لا نفيا ولا إثباتا، وإذا تصفحت كلامه (أنظر العقيدة الحموية) عرفت ذلك. اللهم إلا أن يكون مراده بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مشايخ عقيدته دون الصحابة[1].

---

(١) الحقائق الجلية، ص ٣١ – ٣٢ و ٤٧ – ٤٨.

الحافظ السبكي: ابن تيمية نقض دعائم الإسلام:

أما الحافظ السبكي فيقول في خطبة كتابه «الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أما بعد فإنه لما أحدث ابن تيمية في أصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد. بعد أن كان متسترا بتبعية الكتاب والسنة، مظهرا أنه داع إلى الحق، هاد إلى الجنة، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بخلافه الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدسة، وإن الافتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى، وأن القرآن محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن، وأنه يتكلم ويسكت، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات وتعدى في ذلك إلى استلزام قدم العالم، والتزم بالقول بأنه لا أول للمخلوقات فقال بحوادث لا أول لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلوق الحادث قديما، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاث والسبعين التي افترقت عليها الأمة، ولا وقفت به مع أمة من الأمم همة وكل ذلك وإن كان كفرا شنيعا، لكنه تقل جملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع»[١].

يلاحظ في هذه المقدمة جرد لجل الآراء التي نادى بها ابن تيمية وخالف بها عقائد أهل السنة قاطبة. جعلت السبكي لا يجد حرجا في تكفيره، دون ما أحدثه في الفروع.

اليافعي: من كان على عقيدة ابن تيمية حلَّ ماله ودمه:

ويقول اليافعي في مرآة الجنان: كان ابن تيمية يقول: إن الله على العرش استوى، استواء حقيقة. وأنه يتكلم بحرف وصوت، وقد نودي في دمشق وغيرها: من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه. وقال في حوادث (سنة ٧٢٨ هـ):

---

(١) بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤ ص ٤٢.

وله مسائل غريبة أنكر عليها وحبس بسببها مباينتها لمذهب (أهل السنة) ثم (عد له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبيﷺ[١].

أبو بكر الحصيني: ابن تيمية يتبع المتشابه ويبتغي الفتن:

أما أبو بكر الحصيني الدمشقي فيقول: «فاعلم أني نظرت في كلام هذا الخبيث الذي في قلبه مرض الزيغ، المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة، وتبعه على ذلك خلق من العوام وغيرهم ممن أراد الله عز وجل إهلاكه، فوجدت فيه ما لا أقدر على النطق به، ولا لي أنامل تطاوعني على رسمه وتسطيره، لما فيه من تكذيب رب العالمين، في تنزيهه لنفسه في كتابه المبين، وكذا الازدراء بأصفيائه المنتخبين وخلفائهم الراشدين، وأتباعهم الموفقين، فعدلت عن ذلك إلى ذكر ما ذكره الأئمة المتقون، وما اتفقوا عليه من تبعيده وإخراجه ببغضه من الدين[٢].

ابن حجر العسقلاني: من العلماء من ينسبه إلى النفاق:

أما شيخ الإسلام أحمد بن حجر العسقلاني فيقول في ترجمته في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله: إن النبي لا يستغاث به، وإن في ذلك تنقيصا ومنعا من تعظيم النبي، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي ما تقدم، ولقوله أنه كان مخذولا حيثما توجه، وأنه حاول الخلافة مرارا فلم ينلها، إنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله أنه كان يحب الرئاسة، وأن عثمان كان يحب المال، ولقوله أبو بكر أسلم شيخا يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيا والصبي لا يصح إسلامه على قول[٣].

---

(١) مرآة الجنان، ج ٤ ص ٢٧٧، أنظر المرجع السابق، ج ٤ ص ٤٢ – ٤٣.
(٢) دفع شبه من شبه وتمرد، بتوسط بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤ ص ٤٥ – ٤٦.
(٣) بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤ ص ٤٧ – ٤٨.

الشيخ المولوي الهندي: لقد تجاوز ابن تيمية الحد:

وقد أجمل الشيخ المولوي عبد الحليم الهندي في «حل المعاقد حاشية شرح العقائد» كل الاعتراضات حول الشيخ قائلا: «كان تقي الدين ابن تيمية حنبليا لكنه تجاوز عن الحد وحاول إثبات ما ينافي عظمة الحق تعالى وجلاله فأثبت له الجهة والجسم. وله هفوات أخر. كما يقول، أن أمير المؤمنين سيدنا عثمان(رض) كان يحب المال وأن أمير المؤمنين سيدنا عليا(رض) ما صح إيمانه فإنه آمن في حال صباه. وتفوه في حق أهل بيت النبي صلى الله عليه وعليهم ما لا يتفوه به المؤمن المحقق وقد وردت الأحاديث الصحاح في مناقبهم. وانعقد مجلس في قلعة الجبل وحضر العلماء الأعلام والفقهاء العظام ورئيسهم قاضي القضاة زين الدين المالكي وحضر ابن تيمية فبعد القيل والقال بهت ابن تيمية وحكم قاضي القضاة بحبسه (سنة ٧٠٥ هـ) ثم نودي بدمشق وغيرها من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه...

كذا في مرآة الجنان للإمام أبي محمد عبد الله اليافعي، ثم تاب وتخلص من السجن (سنة ٧٠٧ هـ) وقال إني أشعري ثم نكث عهده وأظهر مرموزه فحبس حبسا شديدا. ثم تاب وتخلص من السجن، وأقام في الشام وله هناك واقعات كتبت في كتب التواريخ ورد أقاويله وبين أحواله الشيخ ابن حجر في المجلد الأول من الدرر الكامنة والذهبي في تاريخه وغيرهما من المحققين. والمرام إن ابن تيمية لما كان قائلا بكونه تعالى جسما قال بأنه ذو مكان، فإن كل جسم لا بد له من مكان على ما ثبت ولما ورد في الفرقان الحميد ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قال إن العرش مكانه. ولما كان الواجب أزليا عنده وأجزاء العالم حوادث عنده اضطر إلى القول بأزلية جنس العرش وقدمه وتعاقب أشخاصه الغير المتناهية فمطلق التمكن له تعالى أزلي، والتمكنات المخصوصة حوادث عنده كما ذهب المتكلمون إلى حدوث التعلقات[١]، إلى غير ذلك

(١) كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب، م س، ص ١٣٢.

من الأقوال، التي تتبع بعضها المحقق السبحاني وعرضها في موسوعته بحوث في الملل والنحل فليراجع من أراد الزيادة.

الحافظ الذهبي: لقد بلع ابن تيمية سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم:

وإذا كانت الأقوال التي عرضناها هي لخصوم الرجل من «أهل السنة والجماعة» فإن التاريخ قد حفظ لنا اعتراضا قويا لأحد المحبين له، إنه الحافظ شمس الدين الذهبي مؤرخ الشام ومحدثها الكبير. المتوفى سنة (٧٤٨ هـ) والذي بعث لابن تيمية رسالة ينصحه فيها ومما جاء فيها:

«الحمد لله على ذلتي يا رب ارحمني وأقلني عثرتي، واحفظ علي إيماني واحزناه على قلة حزني، وأسفاه على السنة وذهاب أهلها...

إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعبارتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس؟ مع علمك بنهي الرسولﷺ «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» بل أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك... يا رجل بالله عليك كف عنا، فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام، إياكم والغلوطات في الدين، كره نبيك (صلى الله عليه وآله) المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال:

«إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمي القلوب، والله قد صرنا ضحكة في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية؟ لنرد عليها بعقولنا، يا رجل! قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن والله في البدن، واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشية بتذكر وصمت بتفكر...

يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، ولا سيما إذا كان قليل

العلم والدين باطوليا شهوانيا، لكنه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه.

فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل! أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟ إلى كم تصادقها وتزدري الأبرار؟ إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟ إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك. بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار أو التأويل والإنكار أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت...

فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغي إلى وعظي، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول البتة سكت، فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعداؤك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيت منك بأن تسبني علانية، وتنتفع بمقالتي سرا فرحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي، فإني كثير العيوب، غزير الذنب، الويل لي إن أنا لا أتوب، وافضيحتي من علام الغيوب! ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين[1].

إن المتتبع لمجمل آراء علماء أهل السنة والجماعة وغيرهم في ابن تيمية يمكن أن يستنتج التالي:

---

(١) بحوث في الملل والنحل، م س، ص ٣٩ - ٤٠، نقلا عن تكملة السيف الصقيل، للمحقق المعاصر الكوثري، ص ١٩٠ - ١٩٢.

١ - لم يكن ابن تيمية إلا حشويا متسترا بتبعيته للسلف الذين جعل لهم مذهبا موحدا يرجع إليه.

٢ - سقط في أخطاء عقائدية وأصولية نتيجة دراسته للفلسفة، خالف بها ما أجمعت عليه الأمة وخصوصا علماء أهل السنة والجماعة من أشاعرة وماتريدية.

٣ - كان كثير الكذب على السلف في نقله أقوالهم وآرائهم وإجماعهم في بعض المسائل العقائدية، مع تعمده التحريف وعدم الضبط في نقل النصوص.

٤ - لم يكن أتباعه من عقلاء الأمة أو علمائها وإنما جلهم من العوام الجهلة، وقد انتصر بهم وبالسلطان فحقن دمه واكتفي فقط بسجنه إلى أن مات فيه.

٥ - عدم الاعتراف له بالأعلمية التي تؤهله للاجتهاد، فقد كان سطحيا في فهمه للنصوص، مؤمنا بظواهرها الابتدائية. وهذا خلاف ما عليه المحققون من رجال الشريعة.

٦ - إن آراءه العقائدية الشاذة ترمي به بعيدا عن الجماعة، وإذا أضفنا ما ابتدعه من فتاوي ضالة في الفقه وآرائه في الصحابة فهو إن لم يحكم عليه بالكفر الصراح فلا شك في زندقته ونفاقه[1].

٧ - لم يكن سلفيا أبدا فهو إلى الابتداع أقرب منه إلى الاتباع، فلم يخض السلف فيما خاض فيه، ولم يقل السلف ما قاله أو اعتقده.

***

(١) رد العلاء البخاري الحنفي على ابن تيمية، وقال في حقه: «إن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام فهو كافر» وذهب غيره، إلى أن «من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كان كافرا». لا تصح الصلاة وراءه. أنظر كتاب «الرد الوافر للإمام ابن ناصر الدين الدمشقي» ص ٦٠ و٢١، كما اعترض الشيخ زاهد الكوثري على هذه التسمية.

ابن تيمية والتصوف

بداية الصراع:

إحتدم الصراع بين ابن تيمية وخصومه من أهل السنة والجماعة ومقلدي المذاهب الأربعة في الشام ومصر حول قضايا التوحيد وبالخصوص الصفات الخبرية، بالإضافة إلى اجتهاداته الفقهية التي خالف فيها إجماع المذاهب الأربعة كفتواه بأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة. وإذا كان قد أدخل بسبب ذلك السجن ومكث فيه مدة. فإنه سيخوض صراعا جديدا ومتواترا مع طائفة إسلامية أخرى، لها جذورها الفكرية وامتداداتها الاجتماعية وقوتها التي يحسب لها الحساب.

وذلك عندما نفي إلى الإسكندرية حيث سيركز حملاته على الصوفية ناسبا بعضهم إلى الكفر، متهما الآخرين بالضلال وركوب البدع مما أثار عليه الشيوخ والعامة. ووقعت هناك فتن كثيرة استمرت مدة إقامته وبعدها.

موقف ابن تيمية من التصوف والحياة الروحية:

لقد اختلف الباحثون في موقف ابن تيمية من الصوفية اختلافا كبيرا فالمستشرق ماكدونالد يرى أنه العدو اللدود للصوفية والحياة الروحية سواء[(١)].

والبعض الآخر يذهب مذهبا مناقضا يثبت فيه انتساب الشيخ لإحدى الطرق الصوفية، فقد استند جورج مقدسي إلى سلسلة شيوخ ابن تيمية التي تبدأ

---

(١) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية، عبد الحفيظ بن مالك المكي، دار السلام للطباعة والنشر، ط ١ ١٩٨٨ م، ص ١٩٦.

بموفق الدين بن قدامة تلميذ عبد القادر المباشر وخريج المدرسة القادرية في بغداد[١]، ليثبت أن ابن تيمية كان قادريا، ومما يعضده ويدعم رأيه ما يوجد في كتابات ابن تيمية من تعظيم وإجلال للشيخ عبد القادر. وهو من أعمدة التصوف والصوفية، وذكره لأقواله واعترافه بكراماته والإيمان بها على اعتبار أن أخبارها وصلتنا متواترة كما يدعي الشيخ. بالإضافة إلى ذكره بعض أقطاب التصوف والاستشهاد بأقوالهم وسيرهم.

لكن الباحث في كلامه بشكل عام سيجد إلى جانب ذلك قدحه في الغزالي وابن الفارض، وتعرضه لابن عربي بالسب والتضليل والتبديع بل إلى درجة اتهامه بالكفر الصريح. كما تهجم على كثير من رجالات الصوفية وذم طريقتهم ووصفها بالابتداع في الدين، وأن الكثير مما درج عليه هؤلاء - أي الصوفية - من ذكر وحلقات وطرق مخصوصة في الدعاء والعبادة ليس له أصل في الشرع - أي القرآن والسنة -.

رأيان متناقضان:

وهذا الادعاء هو الذي أثار عليه زعماء هذا الطريق ودارت بينهم مساجلات ومخاصمات كثيرة. وإذا حاولنا تلخيص رأيه من خلال كتاباته التي بين أيدينا فسنصل إلى رأيين مختلفين ومتناقضين بل ربما وصلنا إلى آراء متعددة وغير واضحة تماما. فهو كما يرى عبد الحفيظ المكي قد تعامل بنفس الأسلوب الذي تعامل به مع الفقهاء والمذاهب الفقهية وعلماء الكلام، إذ يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة. أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم بتأثير الأفلاطونية الجديدة التي تسربت إلى الفكر الإسلامي عامة خلال ترجمة العلوم اليونانية وانحرفوا بعيدا عن الطريق الصحيح للزهد والتربية الروحية[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٨.

فابن تيمية حسب هذا الرأي لم يرفض التصوف جملة وتفصيلا وإنما انتقد ما طرأ عليه من خروج على الأهداف ومناهج تربية الإسلامية الأصيلة. يقول ابن تيمية: وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقها وباطلها. كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة[(١)].

وهذا الرأي الذي ذكره الشيخ الحراني فيه من الوضوعية ما فيه، وقد شاركه فيه عدد ممن درس التصوف وتعرض لعلاج مشكلاته العقائدية والسلوكية.

فأغلب الفقهاء يقفون موقفا معاديا لعقائد الحلول ووحدة الوجود والاتحاد التي وصم بها ما يسمى التصوف الفلسفي مع ابن عربي وابن سبعين والحلاج وعمر بن الفارض وغيرهم. وإن كان هؤلاء وأتباعهم قد جنحوا إلى التأويل، أي صرف ما يصدر عنهم من أقوال أو كتابات عن معناها الظاهري، الذي قد يفهم منه الحلول والاتحاد أو وحدة الوجود.

قد يعتقد البعض أن ما ذمه ابن تيمية في طريقة أهل التصوف هو ما يعرف عنهم من شطحات وأحوال غريبة تطرأ على بعضهم فتخرجه عن الحال المألوف، فمنهم من يتفوه بكلمات غير مفهومة حال جذبه، وقد تكون تلك الكلمات أو العبارات تخالف بمنطوقها بعض عقائد الإسلام، كما ويصدر عن بعضهم أفعال تتعارض مع ما ندبت إليه الشريعة، كتمزيق الثياب والصياح والغيبوبة لساعات بل ربما لأيام كثيرة. بالإضافة إلى طريقتهم في المأكل والمشرب. مما يجعل العوام تفتتن بهم وتروم اتخاذهم قدوة وأسوة. وما نجم عن ذلك من تعطيل لرسوم الشريعة والمدنية على حد سواء.

---

(١) المرجع السابق، نقلا عن الفتاوى، ج ١٠ ص ٨٢.

وحتى هذا الفعل منهم والذي قد يعزى إليه السبب في حملة الشيخ عليهم، تجد له في كتاباته وصفا وشرحا، فيه الكثير من الفهم والتبرير. أنظر إلى قوله يصف هذه الأحوال: «فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الغناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذورا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله، ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم»[(١)].

ومن يقرأ هذا الكلام وغيره في فتاوى الشيخ وكتبه لا يشك في موضوعية الشيخ وأنه قد أنصف القوم وتكلم بلسانهم. فهذا الذي قاله واصفا، هو أقصى ما يمكن أن يتفوه به من يروم الدفاع عن طريقة أهل التصوف وسلوكهم وحالاتهم. بل لقد سجل قلمه قولا، فصلا يمكن أن نضعه حدا أو فيصلا في الصراع المرير القائم الآن بين الصوفية أصحاب الطرق التعبدية وبين تلامذة ابن تيمية الجدد أي»السلفية»أو أتباع السلف.

يقول الشيخ: «من جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموما معيبا ممقوتا فهو مخطئ ضال مبتدع»[(٢)]. وهذه الكلمات الثلاث الأخيرة من كلام الشيخ هي نفسها الأوصاف المتداولة بين السلفيين اليوم عندما يتعرضون لأهل الطرق الصوفية، فهم في نظرهم مبتدعة ضلال مخطئون، بل إنهم غارقون في الشرك وعبادة القبور.

---

(١) مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن العاصمي النجدي، مطبعة الرياض، ط ١ ج ١١ ص ٥. ضمن جوابه عن الصوفية أنظر عبد الحفيظ المكي، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق، نقلا عن المكي، ص ٢٠٥.

والسلفية اليوم في إطلاقهم وصف الابتداع والضلال على الصوفية وأهل الطرق ليسوا مجتهدين وإنما مقلدة، يقلدون رأي إمامهم ابن تيمية فهم يصدرون عن رأيه وفتاويه ويحاكمون بها هؤلاء الطرقيين، وهذا لعمري إشكال يظهر تناقضا فظيعا للفصل في هذه القضية. لذلك قلنا سابقا إن للشيخ الحراني إزاء التصوف مواقف متناقضة وأراء غامضة. فاتباعه يضللونهم ويبدعونهم - أي الصوفية - بل يكفرون قسما كبيرا منهم، ويتهمون قسما آخر بالوقوع في الشرك وعبادة القبور، في الوقت نفسه الذي نجد البعض من أهل الطرق والصوفية يستنجد بكلام الشيخ نفسه وفتاويه لإبراء ساحة أصحابه مما يصفهم به أتباع الشيخ «السلفية الوهابية».

ينقل عبد الحفيظ المكي نصا لابن تيمية ينتصر فيه لطريقة أصحابه - الصوفية - وينزهم عن الابتداع والكفر والشرك. ويطلب من المنتسبين إلى السلفية وإلى شيخ الإسلام ابن تيمية على حد تعبيره، أن يلاحظوا ويقرأوا قول إمامهم: يقول ابن تيمية في الفتاوي: فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء وكلا في طرفي هذه الأمور ذميم والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، والمقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه[1].

وعليه فموقف السلفية اليوم الرافض للتصوف جملة وتفصيلا مذموم قطعا باعتراف ابن تيمية نفسه، بل إنهم مخطئون ومبتدعون وضلال. وبذلك يبلغ الموقف

(١) المرجع السابق، نقلا عن المكي، ص ٢٠٦.

أقصى درجات التناقض والتخبط.

وإذا أراد الباحث أن يحقق في الأمر ليرسو على بر، سيجد أن مصدر هذا التناقض الواقعي بين الأتباع والخصوم، إنما مصدره كتابات الشيخ الحراني ومواقفه العملية. فقد ذكرنا سابقا أنه قد دارت بينه وبين الصوفية ملاحم وفتن خصوصا لما كان منفيا، كما أن رأيه في ابن عربي والحلاج صريح فهو يكفر ابن عربي، وهو من هو في التصوف وتاريخ القوم. كما ذم طريقة الغزالي وكان كثير التعرض له والوقوع فيه.

كل هذا إلى جنب ما خطه يراعه في كتبه والتي ينبعث منها الهدوء والوصف الموضوعي والمعالجة العلمية الرصينة. ونعتقد إن ذلك مرده إلى نفسية الشيخ وطبعه فقد كانت تنتابه حدة ومزاج عصيب فيتهجم على خصومه لا يرى لهم في الحق نصيبا يذكر، وربما كتب أو أفتى وهو متزن المزاج هادئ البال فيكون منه خلاف ما نطق أو أفتى به في حاله الأول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد يلقي هذا التناقض الكبير في مواقف الشيخ وكتاباته ظلالا من الشك في كل ما ينسب إليه من رأي وضده. على اعتبار أن التعارض يفضي إلى التساقط. وعليه فإن كلا من السلفية والصوفية ليسوا على شئ في ما يدور بينهم من حرب ضروس. وإن كانت كفة أهل التصوف راجحة لأنهم في موقف من يدافع على نفسه أمام الهجوم السلفي الذي يصدر عن فتاوى الشيخ وآرائه ليضع القوم في خانة الابتداع والضلال أو الكفر.

البوطي يرد على ابن تيمية والسلفية:

وقد انتبه لهذا التناقض والخلط في كتابات ابن تيمية ومواقفه الدكتور البوطي وهو يعالج بعضا مما اختلف فيه الشيخ مع أهل السنة في العقائد وكذا مع الصوفية. فنراه يقول: «فالكلام الأول لابن تيمية! وهو مثبت في أكثر من موضع في كتبه ورسائله. والكلام الثاني أيضا لابن تيمية! وقد تكرر هو الآخر في أكثر من موضع

في مؤلفاته. وقد رأيت كيف أن كلا منهما يناقض الآخر مناقضة حادة... فما تفسير ذلك وسببه؟ لا أدري لذلك أي تفسير ولا سبب، ولكني أعلم أنه ما منا إلا من رد ورد عليه إلا المعصوم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم[1].

ولكن الدكتور البوطي الذي يقف حائرا أمام هذا التناقض في كلام شيخ الإسلام لا يجد بدا من الرد عليه وعلى تلامذته منتصرا للتصوف وطرائقه، عندما أخذ على نفسه أن يعالج جذور الصراع بين هؤلاء السلفية والمتصوفة.

يقول البوطي: إن هناك أعمالا ومسالك تربوية كثيرة أخرى يأخذ بها بعض الناس أنفسهم، أو يسلكون فيها تلامذتهم، ابتغاء تطهير النفس ما أمكن من هذه الرعونات، وإخضاع القلب للمشاعر والمعاني الإيمانية التي أشرنا إليها، لم يتمخض فيها وجه الصحة من حيث اتفاقها مع أحكام الشرع، كما لم يتمخض فيها دلائل الحرمة أو البطلان من حيث مخالفتها لتلك المبادئ والأحكام. فكانت بذلك أمورا اجتهادية...

فهذه المسالك والأعمال الاجتهادية، التي تتخذ سبيلا إلى التحقق بجوهر الإسلام ولبه، تضل سائغة ومشروعة، شأنها كشأن سائر الفهوم والأعمال الاجتهادية الأخرى. ولا يملك صاحب رأي فيها أن يحتج بالرأي الذي انتهى إليه على ضلال الرأي الآخر الذي انقدح في ذهن صاحبه، كما لا يملك صاحب هذا الرأي أن يبادله النظرة ذاتها...

فمن ذلك التداعي إلى حلقات الذكر في أوقات محدودة، وعلى نحو معين. فإن كثيرا ممن ينتسبون إلى المذهب المسمى «بالسلفية» ينكرون مثل هذا الذكر وينكرون على أصحابه، وينسبونهم إلى الابتداع والضلال، مستدلين بأن هذه الجلسة المحددة بهذا الشكل وعلى هذا النظام لم تكن معروفة في عصر السلف. ولا نرى شاهدا عليها في كتاب ولا سنة. غير أن الذين يتداعون إلى هذه الحلقات

---

(١) السلفية، م س، ص ١٨٦.

ويحضرونها، يحتجون بالعموم الذي يدل عليه قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ (آل عمران: آية ١٩١). وهو عموم بين لا يخرج من نطاقه إلا ما أخرجه نص آخر عن طريق الاستثناء والتخصيص، وذلك كأن يتلبس الذكر بعمل منهي عنه كالرقص والتثني. فهذا ممنوع وخارج من عموم النص القرآني العام استنادا إلى دليل حرمة الرقص والتثني...

كما إنهم يحتجون بأحاديث كثيرة ثابتة، من مثل حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم مرفوعا:»لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[(١)].

إلى أن يقول: «إن اعتداد أحد الفريقين برأيه إلى درجة تسوقه إلى تضليل الفريق الثاني ونسبته إلى الابتداع والفسق، أمر لا يقره جوهر الدين، ولا يعبر إلا عن أنانية نفسية بغيضة تقنعت - كما قلت - بقناع الدعوة إلى الدين والانتصار للحق»[(٢)].

ويستطرد الدكتور البوطي رادا على ابن تيمية الذي بدع وضلل من يذكرون الله بذكر مخصوص كذكرهم الله بالاسم المفرد (الله). وأن المنع من أن يذكر المسلمون الله بأي اسم من أسمائه لا دليل عليه، وحتى إن طرح تمت خلاف، فإن البوطي يذهب إلى أن أغلب القضايا المختلف فيها بين ابن تيمية وأتباعه من سلفية الوهابية وبين أهل الطرق الصوفية هي محل اجتهاد وخلاف. ولا يجوز بتاتا أن ينسب فريق فريقا إلى الابتداع أو الضلال فإن ذلك غلو في الانتصار للنفس والرأي ليس إلا.

أما فيما يخص المصطلحات التي درج الصوفية على تداولها بينهم مثل الوجد والفناء والشهود والحضرة، والمقامات السلوكية فإن لابن تيمية تفصيل في

---

(١) السلفية، صفحات ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢، بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٣.

شرح بعضها يحسبه المرء عند قراءته أحد أقطاب التصوف، بل لسان يتكلم عن حال.

يقول عن الفناء: «وهذا الفناء لا ينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانيا عن إرادة ما سواه وإن كان شاعرا بالله وبالسوي، وترجمته: قول «لا إله إلا الله».. والأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء الشهادة.. ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة، كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق: الموت والغشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة، حتى اختلفوا في إمكان ذلك...

وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق أو سبحاني أو ما في الجبة إلا الله[(١)]، إذا فنى بمشهوده عن شهوده وبموجوده عن وجوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن عرفانه. كما يحكون أن رجلا كان مستغرقا في محبة آخر فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال: ما الذي أوقعك خلفي؟

فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني...

وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور، وكذلك يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنب أمور السكارى، وهي شطحات بعض المشايخ كقول بعضهم: «أنصب خيمتي على جهنم» ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع وقد يكون صاحبها غير مأثوم[(٢)].

لا شك أن القارئ لهذا الكلام سيلاحظ معي أننا لو بحثنا في كتب القوم -

---

(١) القول الأول والثاني ينسب إلى العارف أبو يزيد البسطامي، أما القول الثالث فقد إشتهر به الحلاج.

(٢) مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٣٣٧، نقلا عن م س، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

المتصوفة – لمعرفة كلامهم في مثل هكذا مواضيع فإننا لن نجد شيئا يختلف عما قاله إمام السلفية وشيخها الأكبر، بل قد يعجز صغارهم على الإتيان بما جاء به من شرح وتفصيل، بل ودفاع عن حال من أصعب الأحوال التي تخبط فيه المتصوفة سلوكا وتأليفا، وهو حال الفناء. ونفس الكلام يمكننا قوله فيما يخص باقي موضوعات التصوف الأخرى وهذا واضح لمن قلب أوراق مجموع الفتاوى أو كتابه الإستقامة. دون أن يعني ذلك أنه لم يذكر بعض الاعتراضات الجزئية أو الكلية على عقائد القوم، ولكننا نجده يذكرها في إطار من التفهم والبعد عن التبديع أو التضليل. ففي كتابه «الإستقامة» عندما يتعرض لاعتقاد مشايخ الصوفية الوارد في رسالة القشيري يقول: أنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني. وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عنه ذلك. ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه[1].

وهذا النص وغيره مما ذكره في كتاب الإستقامة يحجم الاختلاف بينه وبين القوم في قضايا محدودة جدا قد تكون نفسها التي اختلف بشأنها مع أهل السنة من الأشاعرة، ما دام على حد قوله أنهم يعتقدون مذهب الأشعري.

ولكنه سيذكر كلاما غامضا بعض الشئ عندما يفضل كتاب «التعرف لمذهب التصوف» للكلاباذي عن «الرسالة القشيرية» على اعتبار أن ما ذكره الكلاباذي أقرب إلى مذهب السلف وأبعد عن الهوى والبدع. والحقيقة أن تحقيق هذا الكلام سيسقطنا في متاهات لا أول لها ولا آخر. فقد قال نفس الكلام عن تفسير الطبري بخصوص تأويل آيات الصفات الخبرية: ولما رجع الباحثون إلى هذا

---

(١) الإستقامة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود. ط ١٤٠٣. ج ١ ص ٨١، نقلا عن المكي، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

التفسير وجدوا شيئا لا قبل للشيخ به ولا يمكنه أن ينتصر لمذهبه بما جاء فيه أبدا؟!.

بالإضافة إلى أن جل المشايخ الذين ذكرهم ومدحهم وأثنى عليهم في كتابه الإستقامة ليسوا على خلاف أو عداء مع من ذمهم ونسبهم إلى الضلال والابتداع أو الكفر وعلى رأسهم ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين. فلا نعلم أن أحدا ممن أرخ لهم في كتب التصوف وذكر سيرهم أنه تعرض لهم بالشتم أو سب أو تضليل. وابن عربي الذي حمل عليه الشيخ الحراني حملة شعواء وكفر اعتقاده، يعتبر نفسه تلميذا شرعيا لهؤلاء المتصوفة والعارفين، قد سلك طريقهم ونهج نهجهم ولم يحد عنه، وهو لم يقل ولم يكتب - أي ابن عربي - إلا ما رآه وشاهده في رحلته الروحية.

ابن تيمية يرفض التصوف الأشعري:

ونعود لنؤكد شيئا مهما قد يكون مفتاحا لحل ذلك التناقض العجيب في موقف ابن تيمية من الصوفية والتصوف، فإذا كان قد تكلم بلسانهم وشرح مقاماتهم ودافع عن أحوالهم وبررها كما ذكرنا من قبل في نصوص مقتطفة من فتاواه، فإن الهجوم على بعضهم والحمل عليه بالتضليل أو التكفير قد يكون سببه وجذره يعود إلى عدائه القديم للأشاعرة. فالحنابلة - وبالخصوص الحشوية منهم - كانوا وما زالوا يكنون للأشاعرة - أهل السنة والجماعة - العداء والرفض، بسبب موقفهم التوحيدي. حيث رمى الأشاعرة حشوية الحنابلة بالتجسيم والتشبيه، وأنهم منحرفون في التوحيد، في الوقت الذي كان حشوية الحنابلة ينسبون الأشاعرة للتعطيل.

وابن تيمية إذا كان من أقطاب هذا المذهب الحشوي التجسيمي فقد نصب نفسه للدفاع عنه والانتصار له، ومما لا شك فيه أنه ورث العداوة والنفور من الأشاعرة. وعليه فإنه ربما كان ينظر إلى المتصوفة الذين صدروا عن علم الكلام

الأشعري بنفس النظرة لعلماء الأشاعرة. فهو عندما يفضل الكلاباذي يثني كثيرا على أبو عبد الرحمان السلمي جامع كلام الصوفية، لأنه وعلى حسب قول ابن تيمية «كان ينكر مذهب الكلابية ويبدعهم، وهو المذهب الذي ينصره أبو القاسم» أي القشيري في رسالته. كما يثني على أبي العباس القصاب لأن له «التصانيف المشهورة في السنة ومخالفة طريقة الكلابية الأشعرية»، وهو هنا يذكر الأشاعرة صراحة.

ومما يحير الباحث ويجعله يتخبط في الآراء المتناقضة، هو قول الشيخ الحراني في أثناء كلامه عن الرسالة القشيرية لأبي القاسم: بأنه جمع فيها متفرقات كلامهم مما يستدل به على أنهم يوافقون الأشاعرة في معتقدهم.

لكنه لا يفتئ يذكر بعد ذلك بأن جل من أرخ لهم أبو القاسم وذكر سيرتهم «لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية.. بل المحفوظ عنهم خلافها، ومن صرح منهم فإنما يصرح بخلافها...»[1].

ولعمري إن هذا اتهام خطير جدا من ابن تيمية لأبي القاسم القشيري فكيف يجرأ مؤرخ أن ينسب لطوائف من رجالات الأمة اعتقادا لم يكونوا يؤمنون به بل كانوا بخلافه. فهل يطمأن بعد ذلك لقول مؤرخ أو مصنف.

لقد كان أبو القاسم أشعريا على مذهب الخلف - خلف الأشاعرة ابن فورك والإسفراييني وغيرهم - فهل يحق له أن ينسب كذبا وزورا كل من أرخ له من رجالات التصوف على أنه كان أشعريا، أو يصدر عن رأيهم أو حتى أنه لم يعرف لبعضهم انتصاره لمذهب الأشعري أو نقضه. فكيف يحق لأبي القاسم أن يدعي ذلك كذبا وبهتانا وتحريفا للتاريخ والحقيقة؟!.

لقد كان القشيري صوفيا وسالكا للطريق وبشهادة الكثير من المؤرخين، أنه

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٥.

كان يعرف عقائد القوم ومذاهبهم وأفضل من كتب عندهم، وأوضح مكنون سرهم ودافع عن غريب قولهم وفعلهم. كل ذلك معضدا بالكتاب والسنة ليظهر أن طريق القوم هو الاتباع وليس الابتداع. فهل كان القشيري في كل ذلك مزورا للحقيقة محرفا لما عليه القوم؟! لا نعتقد ذلك أبدا، وللباحثين النظر في هذه القضية للفصل فيها؟!

إننا لن نُجانب الحقيقة إذا قلنا بأن ابن تيمية كان ينتصر للمتصوفة الحنابلة، أي من علم أنهم صدروا عن مذهب أحمد بن حنبل في العقائد خصوصا.

فهو لا يفتأ يذكر الشيخ عبد القادر[1] بكل خير ويعتمد أقواله وأفعاله. ويؤمن بكل ما يروي من كراماته بحجة أنها وصلت بالتواتر، في الوقت نفسه الذي يرفض كرامات أخرى لبعض المتصوفة بحجة أنها قصص مكذوبة وغير صحيحة. وعبد القادر هذا لا يشك أحد أنه كان حنبليا في بداية الطريق. كما أنه يستشهد بقوله في كتاب «الإستقامة» انتصارا لعقائد أحمد: فعن الشيخ علي بن إدريس إنه سئل قطب العارفين أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلي فقال: يا سيدي! هل كان لله ولي على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟ فقال:

ما كان ولا يكون[2]. وبذلك يجزم شيخ الإسلام في غلو منقطع النظير بأن تحقيق الولاية يمر عبر عقائد الإمام أحمد بن حنبل. ولست أدري ما بال القرون الأولى حيث لم يكن لابن حنبل وجود يذكر؟!

وما هي عقائد ابن حنبل التي لا بد منها ليتحقق للناس شرط الولاية من قبل ومن بعد. إننا وقد أعيانا البحث في ما نسب لهذا الرجل من عقائد، لم نجد

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الجيلي ولد سنة ٤٧٠ هـ وكان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره.. أخذ الخرقة الشريفة من يد شيخه القاضي أبي سعد المخزمي بالسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم... «كان كثيرا ما يخطو في الهواء في مجلسه على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع إلى الكرسي... وكان يفتي على مذهب الشافعي وأحمد..» أنظر مختصر طبقات الحنابلة، لابن الشطي، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) المكي، م س، ص ٢٣٥.

سوى الحشو الذي تبرأ منه علماء الإسلام بل تبرأ منه من استبصر من الحنابلة، ووصفوه بالافتراء والكذب على هذا المحدث وعلى مذهبه.

وابن تيمية الذي يعتقد هذا الغلو في كلام هذا المتصوف وكذا في إمامه ابن حنبل، لو نقل إليه نفس الكلام أو أقل منه في غيره من الناس، لاتهم القائل بالابتداع والضلال والانحراف، بل ربما أوصله إلى مشارف الكفر وحكم عليه بالوقوع فيها. لكنه ابن تيمية! ومن يجرأ على الكلام اليوم فيه وفي أتباعه فسيجد ترسانة من الأسلحة في مواجهته قوامها «ضال، مبتدع، كافر، جهمي، زنديق» وما أمضى تلك الأسلحة وأفعلها عندما يكون المال والسلطان والعامة إلى جانب هؤلاء السلفية تصديقا وانتصارا.

نرجع لنقول إن ابن تيمية حسب ما جاء في «الإستقامة» لم يكن يؤمن أن يكون الرجل وليا لله وهو صادر عن معتقد الأشاعرة يقول: حدثني أيضا الشيخ محمد بن أبي بكر بن قوام أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام يقول:

إذا بلغك عن أهل المكان الفلاني - سماه لي شيخ محمد - إذا بلغك أن فيهم رجلا مؤمنا - أو رجلا صالحا - فصدق، وإذا بلغك أن فيهم وليا لله فلا تصدق، فقلت: ولم يا سيدي؟ قال لأنهم أشعرية»[1].

وقد نقل كثيرا من الأقوال في كتابه تبعد طريق الصوفية الخلص كما يراهم أو أولياء الله الكمل، عن طرق الكلام الأشعري وأصحابه. وليتفادى الحرج إذا ما سئل عن رجالات «الرسالة القشيرية» فإنه يقول: ما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقض عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين[2].

وعليه يمكن أن يعزى أول الخلاف بين ابن تيمية الحنبلي السلفي وبين

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

المتصوفة إلى الانتماء المذهبي الأصولي بالخصوص، فمن لم ينطلق مما يسميه ابن تيمية عقيدة الإمام أحمد أو عقائد السلف، فإنه لن يصل إلى درجة الولاية الكاملة، والتي أدعيت لبعض أهل التصوف ممن لم يعرف المذهب الحنبلي لا في الأصول ولا في الفروع كما يذهب إلى ذلك القشيري.

وعقيدة الإمام أحمد هنا أو عقائد السلف شيئا يختلف عما يعرفه أبو القاسم فهو يقول في رسالته مبررا الغرض من تأليفها: «هذا ذكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة كان الغرض منه ذكرهم في هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين على تعظيم الشريعة متصفين بسلوك طريق الرياضة متفقين على متابعة السنة غير مخلين بشيء من آداب الديانة...»[1].

إذن فرجال القشيري يعظمون الشريعة ويتبعون السنن ويتشبثون بآداب الديانة. وهذا في عرف ابن تيمية فيه من الخير والحق، لكنه لا يوصل إلى درجة الولاية الكاملة. والسبب في ذلك على ما نعتقد هو عدم أخذهم بأحد الأصول المهمة وهي اعتقاد أحمد، هذا الاعتقاد الذي يمكن أن يكون مادة خصبة لمذاهب وفرق متعددة ومتناحرة؟! وبإمكان كل فرقة أن تجد السبيل النظري والواقعي لتكفير باقي الفرق الأخرى.

الشيء الثاني الذي يعزى له خلاف ابن تيمية الحراني مع رجال التصوف هو ما اعتقده أو بالأحرى أن نقول ما ظهر في منطوق كلامهم أو كتاباتهم مما يفيد في ظاهره خلاف الشريعة وما هو معلوم من دين الإسلام بشكل عام. فعندما تعرض مثلا لنقاش مسألة الفناء الصوفي وما جاء فيه من كلام أرباب العرفان، لم يكتف بإيراد كلامهم وشرحه بل انتصر لقول بعضهم وقال أنه الحق ورد كلام آخرين مع أنه حشر نفسه في مقام القوم أدرى به وبتفاصيله منه، لأنهم يعاينونه ذوقا ومشاهدة وليس عملا تعقليا يتبع فيه المنطق أو أية أداة إجرائية أخرى. فهو

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٠.

عندما يحكي مثلا خلافا وقع بين ابن عربي والشيخ شهاب الدين السهروردي حول الفناء وشهود الحقائق على ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة وهل يمكن ذلك؟! ينتصر بسرعة للشيخ السهروردي الذي جوز اجتماع الأمرين ويرفض ما نقله عن ابن عربي حكاية من أنه قال: نحن نقول عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات. والصواب مع شهاب الدين - أي السهروردي - فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد[1]. وإنما بنى ابن عربي على أصله الكفري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات. ومعلوم أن شهود هذا لا يقع فيه خطاب وإنما الخطاب في مقام الفعل[2].

والدكتور البوطي الذي استحسن كلام ابن تيمية في تحليله معاني الفناء وموقف الشريعة منها، لا يجد بدا من مخالفته والرد عليه بقوة بخصوص ما أورده في حق ابن عربي. فلا سبيل شرعي يقول البوطي لموافقة ابن تيمية على هذا الكلام. وخلاصة المشكلة أنه - أي ابن تيمية - ومن قلده في نهجه يظلون يأخذون ابن عربي وأمثالهم بلازم أقوالهم، دون أن يحملوا أنفسهم على التأكد من أنهم يعتقدون فعلا ذلك اللازم الذي تصوروه... ويضيف البوطي:

أما أن يكون في كتب ابن عربي كلام كثير يخالف العقيدة الصحيحة ويستوجب الكفر، فهذا ما لا ريبة ولا نقاش فيه. وأما أن يدل ذلك دلالة قاطعة على أن ابن عربي كافر، وأنه ينطلق في فهم (شهود الذات الإلهية) من أصل كفري هو نظرية الفيض، فهذا ما لا يملك ابن تيمية ولا غيره أي دليل قاطع عليه. فإن

---

(١) الشيخ السهروردي كان صحيح الاعتقاد في نظر ابن تيمية ليس فقط لأنه يميز العبد عن الرب ولكنه ممن امتنع عن الكلام الأشعري في بداية طريقه عملا بنصيحة الشيخ عبد القادر الصوفي الحنبلي لذلك فهو أثير لدى ابن تيمية، صحيح المذهب والمعتقد. وإن كان الأمر يتعلق بجزئية غارقة في التجريد ويصعب معرفة الحق فيها لتعسر الاتفاق على منهج واضح ما دام طريق القوم هو الذوق والمشاهدة الباطنية والتي لا يشاركهم فيها غيرهم.

(٢) السلفية، م س، ص ٢٤٠.

كتب ابن عربي تفيض بالبيانات المفصلة المكررة التي تناقض هذا الأصل الكفري. هذا بالإضافة إلى أنه قد بات معلوما ومؤكدا أن طائفة معلومة من الزنادقة الباطنية دسوا ما شاؤوا أن يدسوا في كتبه. ذكر ذلك المقري في «نفح الطيب» وأكده ابن عماد في «شذرات الذهب» وأكده في قصة طويلة الإمام الشعراني في «اليواقيت والجواهر» وذكره الحاجي خليفة في «كشف الظنون» ولا نشك في أن ابن تيمية ينبغي أن يكون في مقدمة من يعلم ذلك[١].

وكلام ابن عربي في الجملة قد أثار الكثير من الجدل فقد كفره الكثير من الفقهاء قبل ابن تيمية وبعده، كما اعتقد بولايته طائفة من فقهاء المذهب الحنبلي[٢]، بل إن قاضي قضاة المذهب الحنبلي بالديار المصرية المعروف بابن النجار كان ممن يحسب على الصوفية اعتقادا وسلوكا.

وقد كان لعدد من فقهاء هذا المذهب اعتقاد حسن في ابن عربي، وشهدوا له

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٤ – ٢٠٥، أنظر الهامش.

(٢) يقول مترجم سيرة مصطفى الشطي الحنبلي «وغلب عليه حب الصوفية أصحاب وحدة الوجود والعناية بكلامهم وطريقتهم. درس في المدرسة الباذرائية وانتفع به الطلبة في الفقه والنحو وغير ذلك».
ومنهم محيي الدين عبد القادر الشيباني المزي المعروف بابن الرجيحي... تصوف ولبس الخرقة من جماعة منهم والده «وهو شيخ الطائفة البونسية».
ومنهم الشهاب أحمد الفتوحي الشهير بابن النجار قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية..
كان في أول عمره ينكر على الصوفية. ثم لما اجتمع بالقوم من أول عمره. ومنهم أبو بكر تقي الدين بن الذباح. كان يكتب كتب الصوفية. كتب (كفاية المعتقد) لليافعي و(الفتوحات) وغيرها للشيخ الإمام الأكبر محيي الدين بن عربي قدس الله تعالى سره.
وكان يعتني بكلامه كثيرا. انظر: ص ١٤٩.
والحنابلة ممن عرف بالتصوف أو الانتساب إلى الطرق الصوفية كثير جدا ذكرتهم كتب التراجم منهم من عاش قبل ابن تيمية ومنهم من عاصره وكثير منهم جاء بعده فلم يراعوا لمذهبه بالا وظلوا منتسبين لمذهبهم الحنبلي مع اعتناقهم عقائد التصوف وسلوك أهله بل منهم من رد عليه وفند شذوذه أنظر النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل، تأليف محمد كمال الدين العامري المتوفى سنة ١٢١٤هـ وانظر ما يقوله صاحب الذيل على طبقات الحنابلة عند ترجمته لكبير الحنابلة عبد الله الهروي الأنصاري «ثم إذا انصرف إلى بيته عاد إلى المرقعة والقعود مع الصوفية في الخانقاه»، ص ٤١٠.

بالولاية وتداولوا كتبه بالنسخ والقراءة. وقد وجد مكتوبا بخط أبو بكر الذباح الحنبلي. كما أورده صاحب النعت الأكمل «بسم الله الرحمن الرحيم، سئل الإمام علامة الأنام مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس رحمه الله تعالى بما صورته: ما قول السادة العلماء شد الله بهم أزر الدين ولم بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين بن عربي وفي كتبه المنسوبة إليه كـ(الفتوحات) و(الفصوص) هل تحل قرائتها وإقراؤها؟ وهل هي من الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ أفتونا مأجورين جوابا شافيا لتحرزوا جزيل الثواب من الكريم الوهاب. فأجاب بما صورته: اللهم انطقنا بما فيه رضاك. الذي اعتقده في حال المسؤول عنه وأدين الله تعالى به أنه شيخ الطريقة حالا وعلما وإمام التحقيق حقيقة ورسما ومحيي رسوم المعارف فعلا وإسما..»[1] كما أن جلال الدين السيوطي كان يعتقد بولايته.

وعليه فحكم ابن تيمية على ابن عربي بالكفر ليس إلا رأيا خالف فيه الكثير من فقهاء مذهبه، ولا يمكن بحال أن يعتبر ذلك مصداقا للحقيقة أو هو رأي السلف برمتهم. ولكن الحقيقة أن للشيخ الحراني جرأة كبيرة على تكفير من يخالفه دون احتراز أو تريث، وقد ورث أتباعه هذه الصفة. فالسلفية الوهابية اليوم لا يجدون أي حرج في تكفير قطاعات كبيرة من مسلمي هذه الأمة بقضايا لا تعدو آخر المطاف أن تكون في أغلبها أمورا اجتهادية، إن لم نجزم بأن الحق والصواب هو ما عليه تلك الطوائف.

إن انتساب مجموعة كبيرة من فقهاء المذهب الحنبلي وعلمائه للتصوف عقيدة وسلوكا، وانخراط كثير منهم في الطرق الصوفية ولبسهم الخرقة واعتكافهم في الزوايا وأضرحة الأولياء على الذكر وإقامة الحلقات الخاصة بالدعاء. كل ذلك يصب في خانة التصوف بشكل عام. فهؤلاء أتباع المذهب الحنبلي يغرفون من نفس العين التي يشرب منها ابن تيمية. بالإضافة إلى أنهم لم يشكوا لحظة في أنهم

---

(١) النعت الأكمل. م س، ص ١٥١.

متابعون للسلف بل سلفيون أصحاب اتباع وسنة، وإن رغمت أنف الشيخ الحراني.

وعليه فكل حكم يصدر في حق المتصوفة عامة يشملهم، وكل تضليل أو تبديع أو تكفير ينالون لا محالة نصيبهم منه. بالإضافة إلى ملاحظة مهمة جدا تخص المتصوفة الذين ذكرهم الشيخ وأثنى عليهم ووصفهم بأنهم أولياء كمل وأقرب للسف والاتباع وأبعد عن الابتداع، مثل الشيخ عبد القادر السهروزدي والجنيد وغيرهم. إن هؤلاء وإن لم يشتهر عنهم كلام مثل الذي اشتهر به ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، فإنهم لا يذهبون مذهب ابن تيمية في قضايا التوسل بالأنبياء والأولياء وكذا زيارة قبر الرسول والصالحين ومجمل القضايا الأخرى التي بدع الشيخ الحراني من يقوم بها بل نسبهم إلى الشرك.

إن للصوفية اعتقادا خاصا في الرسول ﷺ لا يختلف فيه صغيرهم عن كبيرهم. ومعلوم أن تلك القضايا وغيرها كانت إحدى أهم الأسباب التي أثارت عامة أهل التصوف على ابن تيمية، فهم كباقي أهل السنة يرون أن زيارة قبر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قربة من أعظم القربات، أما التوسل بذاته المقدسة لقضاء الحوائج والمهمات فإنها من عقائدهم العملية الشائعة. وعليه فالشيخ لا يختلف مع ابن عربي وابن سبعين وعمر بن الفارض لأن في كلامهم ما يفيد الكفر بل إنه يختلف مع جملة أهل التصوف سواء من مدحهم أو الذين تعرضوا لذمه ومدحه. فهو يختلف مع هؤلاء في مسائل فيكفرهم، ويختلف مع الآخرين في مسائل فيبدعهم أو يتهمهم بالوقوع في الضلال أو الشرك.

لذلك فالمستشرق ماكدونالد كان مصيبا عندما وصفه بأنه عدو للحياة الروحية والتصوف على حد سواء. والغريب في الأمر بل من عجائب التاريخ إنه وجد في أتباعه من يعتبره قطبا صوفيا بل أحد العارفين بالله، وأن ما دار بينه وبين الصوفية من سجال إنما كان بسبب عرضه أقوالهم وسلوكهم على الكتاب والسنة. فقد حاول تشذيب أقوالهم وتطهير اعتقاداتهم من كل ما يخالف الكتاب والسنة،

وليضع قدمهم على المحجة البيضاء. والحقيقة أن هذا الادعاء فيه الكثير من التهافت لأنه يتهم طوائف كثيرة من العلماء لقرون عدة قبل الشيخ وبعده بالجهل بالكتاب والسنة والانحراف عنهما، إلا أن جاد الزمان في القرن السابع الهجري بنبوغ الشيخ الحنبلي، هذا الرجل الذي جعل من نفسه ورأيه مقياسا يعرف به الحق من الباطل! ولكننا في الأخير سنجد أنفسنا مضطرين لتكرار قول ماكدونالد في حقه لأنه أقرب إلى واقع الأمر مما يذهب إليه هؤلاء: فـ« ليس لديه من نفع لطريق الزهد أو الفلسفة أو الدين، ولم يقصد إلا نفع نفسه»[1].

إن أتباع ابن تيمية المعاصرين من السلفية الوهابية عندما يقرأون كلام شيخهم بخصوص المتصوفة وما فيه من جزم وفصل بتبديعهم أو تكفيرهم، لا يساورهم أدنى شك من أن القوم ليس لهم حظ في العلم بالكتاب والسنة، وأن قواعدهم أوهن من بيت العنكبوت. لذلك ترى الداعي السلفي لا يحدث نفسه بركوب العناء أو المشقة عندما يحاور شخصا ما ينتسب إلى إحدى الطرق الصوفية. وتراه كشيخه سريع الحكم عليهم بالضلال والابتداع وعبادة القبور.

ولكن أغلب دعاة السلفية لا ينتبهون إلى أن أغلب محاوريهم من أتباع الطرق الصوفية من عامة الناس ممن لا شأن لهم بالجدل أو معرفة جزئيات العقائد، فهم مقلدة يقلدون طرق بعض المشايخ التعبدية ليس إلا. أما علماء الصوفية ومن وضع لهذا الطريق أركانه وبنى أسسه. فإن لهم في المعرفة حظا واسعا وهم وإن كانوا قلة قليلة في زمننا هذا فإن سيرة السلف وتراثهم الفكري الضخم تكفي الخلف والأتباع اليوم ليس فقط للدفاع عن عقائدهم وطريقة سلوكهم ولكن للانتصار على خصومهم - السلفية - وبيان تهافت اعتراضاتهم وتسفيه أحلام شيخهم العلمية والاجتهادية.

---

(١) موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية. م س، ص ١٩٥.

ابن عطاء الله الصوفي يناظر ابن تيمية:

وهؤلاء الأتباع الذين ينتصرون بابن تيمية على خصومهم الصوفية ننقل محاورة سجلتها كتب التاريخ دارت بين شيخ الإسلام وبين ابن عطاء الله الإسكندري الصوفي المعروف، وذلك لمعرفة قدرة شيخهم على المناظرة ومواجهة خصومه ومدى علمه وحجته، كي يتسنى لهؤلاء الأتباع معرفة البعض من الحقيقة فيقل غرورهم ويأوون إلى رشدهم إن هم أرادوا ذلك.

صلى ابن تيمية المغرب في الأزهر وراء ابن عطاء الله الإسكندري ولما انقضت الصلاة دار بينهما هذا الحوار: وهذا نصه ملخصا:

ابن عطاء الله: ما ذا تعرف عني يا شيخ ابن تيمية؟.

قال: أعرف عنك الورع، وغزارة العلم، وحدة الذهن، وصدق القول، وأشهد أني ما رأيت مثلك في مصر ولا في الشام حبا لله أو فناء فيه أو انصياعا لأوامره ونواهيه، ولكنه الخلاف في الرأي، فماذا تعرف عني أنت؟

هل تدعي علي الضلال إذ أنكر استغاثة غير الله؟.

قال ابن عطاء الله الإسكندري: أما آن لك يا فقيه أن تعرف إن الاستغاثة هي الوسيلة والشفاعة، وأن الرسولﷺ يستغاث ويتوسل به ويستشفع؟ قال ابن تيمية أنا في هذه أتبع السنة الشريفة، فقد جاء في الحديث الصحيح (أعطيت الشفاعة) وقد أجمعت الآثار[1] في تفسير الآية الشريفة ﴿عسى أن يبعثك ربك

---

(١) هذا الإجماع غير متحقق لأن أصحابه من حشوية الحنابلة يفسرون المقام المحمود بأن الله جل شأنه سيقعد نبيه يوم القيامة معه على العرش، وقد خالفهم في ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره فهجموا على منزله وحدثت فتنة. كما أن تفسير الآية من القضايا المختلف فيها بين أهل السنة (الأشاعرة) والحنابلة لأنهم يرون أن المقام المحمود هو الشفاعة.

وبذلك يعرف حقيقة قول ابن تيمية (أجمعت الآثار). أنظر «الكامل» لابن الأثير، حوادث سنة ٣١٧هـ وما وقع بين أصحاب المروذي الحنابلة وغيرهم حول تفسير الآية.

مقاما محمودا﴾. على أن المقام المحمود هو الشفاعة.

والرسولﷺ لما ماتت أم أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما، دعا لها الله على قبرها: «الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، إغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين»[1]. فهذه هي الشفاعة، أما الاستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعالى.

وقد أمر الرسول ابن عمه عبد الله بن عباس ألا يستعين بغير الله.

قال ابن عطاء الله: أصلحك الله يا فقيه، أما نصيحة الرسولﷺ لابن عباس فقد أراد منه أن يتقرب إلى الله بعلمه لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك أن الاستغاثة استعانة بغير الله فهي شرك، فمن من المسلمين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضي، ويقدر، ويثيب ويعاقب؟! فإنما هي ألفاظ لا تأخذ على ظاهرها ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة، فكل من استغاث الرسولﷺ فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول أنت أشبعني هذا الطعام، فهل الطعام هو الذي أشبعك أم أن الله تعالى هو الذي أشبعك بالطعام؟ وأما قولك إن الله نهانا أن ندعو غيره، فهل رأيت من المسلمين أحدا يدعو غير الله؟.

إنما نزلت هذه الآية في المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله، وإنما يستغيث المسلمون محمداﷺ بمعنى التوسل بحقه عند الله، والتشفع بما رزقه الله

---

(١) وهذا الحديث رواه الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كلام طويل إلى أن قال عليه السلام: «الله الذي يحيي وهو حي لا يموت إغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين». وكبر عليها أربعا وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر. كما رواه غيره كالحاكم في مستدركه والذهبي في سيرة أعلام النبلاء والمتقي الهندي في كنز العمال.

والغريب في الأمر أنه معتمد من يجيز التوسل بالنبي وغيره من الأنبياء لأن عبارة الحديث صريحة في ذلك وقد انتبه أتباع ابن تيمية لذلك فلم يجدوا طريقا للتنصل من إفادة الحديث فراموا تضعيف سنده والطعن في رواته. لكن هيهات من أن تحجب الخفافيش ضوء الشمس الساطع.

من شفاعة، أما تحريمك الاستغاثة لأنها ذريعة إلى الشرك، فإنك كمن أفتى بتحريم العنب لأنه ذريعة إلى الخمر، وبخصي الذكور غير المتزوجين سدا للذريعة إلى الزنا. وضحك الشيخان!! واستطرد ابن عطاء الله، وأنا أعلم ما في مذهب شيخكم الإمام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من إحاطة، وسد الذرائع يتعين على من هو في مثل حدقك، وحدة ذهنك، وعلمك باللغة أن تبحث عن المعاني المكنونة الخفية وراء ظاهر الكلمات، فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقصي ما وراء الجسد لتدرك حقيقة الروح.

ثم استطرد ابن عطاء الله يقول: ثم إنك اعتمدت في حكمك على ابن عربي، على نصوص قد دسها عليه خصومه، وأما شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام فإنه لما فهم كتابات الشيخ، وحل رموزها وأسرارها، وأدرك إيحاءاتها استغفر الله عما سلف منه، وأقر بأن محيي الدين بن عربي إمام من أئمة الإسلام. وأما كلام الشاذلي ضد ابن عربي فليس أبو الحسن الشاذلي هو الذي قاله، بل أحد تلاميذه من الشاذلية، وهو ما قاله في الشيخ ابن عربي، بل قاله في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه...

قال ابن تيمية: ولكن أين تذهبون من الله وفيكم من يزعم أنه ﷺ بشر الفقراء بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، فسقط الفقراء منجذبين ومزقوا ملابسهم، وعندئذ نزل جبرئيل وقال للنبي ﷺ إن الله تعالى يطلب حظه من هذه المزق فحمل جبريل واحدة منها، وعلقها على عرشه تعالى، ولهذا يلبس الصوفية المرقعات ويسمون أنفسهم الفقراء.

قال ابن عطاء الله: ما كان الصوفية يلبسون الخرق، وهأنذا أمامك فما تنكر من هيئتي؟!.

قال ابن تيمية: أنت من رجال الشريعة، وصاحب حلقة في الأزهر.

قال ابن عطاء الله: والغزالي كان إماما في الشريعة والتصوف على السواء وقد

عالج الأحكام والسنن والشريعة بروح المتصوف وبهذا المنهاج استطاع إحياء علوم الدين.

نحن نعلم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وإن النظافة من الإيمان، وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمر قلبه بالإيمان الذي يعرفه أهل السنة.

لقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان، أشياء كالتي تنكرها الآن واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات... وادعوا أنهم تحرروا من رق الغفلات والأغلال، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أغلى الحقائق والأحوال كما وصفهم القشيري الإمام الصوفي العظيم فوجه إليهم الرسالة القشيرية، ترسم طريق الصوفي إلى الله، وهي تمسكه بالكتاب والسنة.

إن أئمة الصوفية يريدون الوصول إلى الحقيقة، ليس فقط بالأدلة العقلية التي تقبل العكس، بل بصفاء القلب ورياضة النفس، وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بحب غير الله ورسوله. وهذا الانشغال السامي، يجعله عبدا صالحا، جديرا بعمارة الأرض وإصلاح ما أفسده حب المال والحرص على الجاه والجهاد في سبيل الله.

وقال ابن عطاء الله: إن الأخذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحيانا يا فقيه، ومن هذا رأيك في ابن عربي، وهو إمام ورع من أئمة الدين، فقد فهمت ما كتبه على ظاهره، والصوفية أصحاب إشارات وشطحات روحية ولكلماتهم أسرار.

قال ابن تيمية: هذا الكلام عليك لا لك. فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق قام عليهم ليصلحهم، فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟! إنما أريد من الصوفية أن يسيروا على سنة هذا السلف العظيم من زهاد الصحابة، والتابعين وتابعيهم بإحسان، إني أقدر من يفعل منهم ذلك وأراه من أئمة الدين. أما الابتداع وإدخال أفكار الوثنيين من متفلسفة اليونان، وبوذية الهند، كادعاء الحلول والاتحاد

ووحدة الوجود، ونحو ذلك مما يدعو إليه صاحبك فهذا هو الكفر المبين.

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه: ابن عربي رضي الله عنه كان أكبر فقهاء الظاهر بعد ابن حزم الفقيه الأندلسي المقرب إليكم يا معشر الحنابلة. كان ابن عربي ظاهريا، ولكنه يسلك إلى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن!!

وليس كل أهل الباطن سواء!! ولكيلا تضل أو تنسى أعد قراءة ابن عربي بفهم جديد لرموزه، وإيحاءاته تجده مثل القشيري، قد اتخذ طريقة إلى التصوف في ظل ظليل من الكتاب والسنة، إنه مثل حجة الإسلام الشيخ الغزالي يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات، ويعتبرها انشغالا بما لا جدوى منه، ويدعو إلى أن محبة الله هي طريقة العابد في الإيمان فماذا تنكر من هذا يا فقيه؟ أم أنك تحب الجدل الذي يمزق أهل الفقه. لقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يحذر من الجدل في العقائد، ويقول (كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص الدين).

قال الغزالي: «إعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس...».

إن أداء التكاليف الشرعية في رأي ابن عربي وابن الفارض، عبادة محرابها الباطن، لا شعائر ظاهرية، فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة إذا كنت مشغول القلب بغير الله؟! مدح الله تعالى أقواما بقوله تعالى ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾، وذم أقواما بقوله: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾.

وهذا هو الذي يعنيه ابن عربي بقوله إن التعبد محرابه القلب أي الباطن لا الظاهر...

الصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته ويتكفف الناس، إنما هو الصادق الذي يهب روحه وقلبه، ويغني في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته، فلا يخاف غير الله.

ولعل ابن عربي قد أثار عليه بعض الفقهاء لأنه أزرى على اهتمامهم بالجدل في العقائد، مما يشوش على صفاء القلب، ثم في وقوع الفقه وافتراضاته فأسماهم (فقهاء الحيض) وأعيذك بالله أن تكون منهم ألم تقرأ قول ابن عربي (من يبني إيمانه بالبراهين والاستدلالات فقط لا يمكن الوثوق بإيمانه، فهو يتأثر بالاعتراضات، فاليقين لا يستنبط بأدلة العقل إنما يعترف من أعماق القلب). ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط؟!.

قال ابن تيمية: أحسنت والله إن كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لا يحمل على هذه المعاني فيما أري.

قال ابن عطاء الله: إن له لغة خاصة، وهي مليئة بالإشارات والرموز والإيحاءات والأسرار والشطحات.

ولكن فلنشتغل بما هو أجدى، وبما يحقق مصلحة الأمة فلنشتغل بدفع الظلم، وحماية العدل المنتهك، أرأيت ما فعله بيبرس وسلار بالرعية منذ خلع الناصر نفسه، فانفرد بالحكم، وإن عاد السلطان الناصر وهو يؤثرك على كل الفقهاء، ويستمع لك فاسرع إليه وانصح له[١].

لقد تعمدت إيراد هذه المناظرة شبه كاملة على طولها بين ابن تيمية وخصمه الصوفي ابن عطاء الله الإسكندري وذلك لكي يتضح لأتباع الشيخ السلفي قوة حجته وشمول اطلاعه، فهو يكاد يكون تابعا مستسلما لهذا الشيخ الصوفي، متحيرا في إيراد الحجج الناقضة لأصول المتصوفة، فهو حسب الشيخ الإسكندري مجرد «فقيه» لا يعدو فهمه ظواهر كلام الصوفية.

---

(١) الدكتور سيد الجميلي، مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ١٢ إلى ٢٠، بتصرف. وقد ذكر هذه المناظرة عدد من المؤرخين مثل ابن كثير وأوردها الأستاذ عبد الرحمان الشرقاوي. كما نقلتها مجلة المسلم الصادرة عن العشيرة المحمدية بالقاهرة عدد ٤ - ٥ الصادر في ٢٠ أغسطس ١٩٨٢م.

وقد نبه القوم كل من يطلع على كلامهم أن لا يحمله على ظاهره وأن لا يأخذهم بلازمه لأنهم أهل باطن وإشارات وقد تضيق اللغة على استيعاب ما يشعرون به أو ما يشاهدونه في رحلاتهم الروحية الباطنية. فمن الحكمة إذن الاحتراز في الحكم عليهم والاستنجاد بالتأويل عند الحاجة لتحقيق حسن الظن بعقائد القوم. خصوصا وأن أغلبهم يعتمد الكتاب والسنة منطلقا، وإنما هو الاجتهاد في العبادة وتحقيق اليقين. أما من حسب نفسه على القوم وجاهر بمخالفة صريح الكتاب أو السنة وبالخصوص على مستوى التطبيق والسلوك فإن رؤساء القوم أول من يتبرأ منه ويلفظونه خارج جماعتهم. وقد أشار الشيخ ابن عطاء الله لذلك فضرب مثلا بمن ينسب إلى الإمام أحمد بن حنبل وهو منحرف عقيدة وسلوكا فهل يذم الإمام أحمد على ذلك.

وما ورد في هذه المناظرة يدعم قولنا بوجود تناقض صارخ في آراء الشيخ ابن تيمية تجاه التصوف وقضاياه بل يمكننا أن نجزم بأن التناقض والاختلاف لازم لمجمل أقواله وفتاويه[1] في القضايا التي تناولها في كتبه. لذلك نجد الدكتور البوطي يركب ظهر هذا الاختلاف والتناقض للهروب من تكفير الشيخ الحنبلي فهو - أي البوطي - يعتقد كغيره من علماء أهل السنة والجماعة بكفر من يقول بالقدم النوعي للعالم على سبيل المثال، وقد كفر الغزالي الفلاسفة في ثلاث مسائل! إحداها القول بقدم العالم. وجل الباحثين ومنهم الدكتور نفسه يجدون إقرارا صريحا من الشيخ ودفاعا عن هذه الفكرة وعن أصحابها، لكنه ولهذا السبب كما يقول: لن نجنح إلى تكفير ابن تيمية ولا إلى تضليله. بل انطلقنا إلى النظر في ذلك من تحكيم القواعد الشرعية ذاتها. فلقد لاحظنا الأمر ذاته الذي لاحظناه في كتب الشيخ ابن عربي رحمه الله. إذ رأينا لابن تيمية كلاما آخر في أكثر من موضع يناقض كلامه

(١) لذلك كان «إذا حوقق وألزم يقول لم أرد هذا إنما أردت كذا فيذكر احتمالا بعيدا». كما يقول ابن حجر في الدرر الكامنة.

الباطل الذي أيد فيه الفلاسفة في ظلالهم الذي كان من أسباب كفرهم، بحيث لو أردنا أن نرد على ابن تيمية هذا الباطل الذي تورط فيه، لما وجدنا كلاما نرد به عليه خيرا من كلام ابن تيمية ذاته الذي كرره في عدة مناسبات أخرى[١].

إن دفاع الدكتور عن الشيخ الحراني، لا يرجح كفته ولا يضعه في مرتبة ابن عربي، وذلك لعدة اعتبارات ذكرنا بعضها سابقا وهي أن أتباع ابن عربي وغيرهم يشككون في نسبة الكثير مما ورد مخالفا لعقيدة الإسلام في كتب الشيخ الصوفي، ويرجحون أنه من وضع الزنادقة بالإضافة إلى احتمائهم بالتأويل، أي صرف ظواهر كلام الشيخ الصوفي عن لازمها اللغوي القريب لجعلها تتقارب مفهوما مع ما أتفق عليه من عقائد الإسلام.

وهناك ملاحظة مهمة يمكن أن تكون فيصلا بين موقف الشيخين. وتتمثل في أن ابن عربي لم يكن داعيا لما يكتب أو يقول، كما أنه لم يقل إن ما رآه أو كشف له عنه في تجربته الروحية هو ما يجب أن يعتقده المسلمون عامة وخاصة، وأن من لم يرى ذلك فهو ضال مبتدع كافر! بخلاف الشيخ ابن تيمية الذي جزم وفصل وادعى أن ما يراه وما يقوله هو الحق الذي لا يحيد عنه إلا منحرف، وأن على العوام معرفة ذلك واعتقاده. وقد فعل الشيخ ذلك من على منبر الجامع بدمشق كما حرر عدة مجلدات أثناء سجنه دفاعا عن عقائده وآرائه، وتعريضا بخصومه الذين وصفهم بأنهم أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة[٢]...

لقد كتب رجالات الصوفية ومحققوهم عدة ردود في الماضي والحاضر على

---

(١) السلفية، أنظر الهامش ص ٢٠٥.

(٢) الحقائق الجلية، م س، ص ١٧، وهذا التطرف في نسب المخالفين إلى الكفر والضلال يعتبر سمة من سمات الحنابلة على طول التاريخ، أنظر لقول أحدهم: قال بنان بن أحمد:
كنا عند القعنبي رحمه الله فسمع رجلا من الجهمية يقول ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ فقال القعنبي، من لا يوقن أن الرحمان على العرش استوى كما يقر في قلوب العامة فهو جهمي «والجهمي عند القوم كافر لا شك في كفره». أنظر مجموعة التوحيد، ص ١٢١.

ادعاءات ابن تيمية وانتصروا لعقائدهم وطرائق سلوكهم بما استنبطوه من الكتاب والسنة وسيرة السلف من الصحابة والتابعين. والرأي عندهم أن الشيخ ابن تيمية: «تكلم في علم لا يعلمه. ولا يعلم أصوله ولا فروعه مخالفا قوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ واتبعه آخرون فيما أخطأ فيه ولا يقف الأمر عند هذا الحد أي جهل الشيخ بموضوع حشر نفسه فيه»[١]، وأصدر فيه أحكاما جازمة أثارت الكثير من المشاكل والفتن بين فرق المسلمين وما زالت، ولكن بعض الباحثين المعاصرين يتهم الشيخ السلفي بالكذب على الصوفية وبالخصوص على ابن عربي، حيث حرف نصوصه وكلامه عند النقل والاستشهاد وكذلك أتباعه اليوم يفعلون؟!

ابن تيمية يكذب على ابن عربي:

يدعي الباحث محمود الغراب بأن «شيخ الإسلام» لم يكن أمينا على أقوال ابن عربي، ونصوصه التي نقلها جاءت محرفة. كما يشير إلى أحكامه المتناقضة بخصوص شخصيات صوفية مشهورة. ينقل محمود غراب نصا لابن تيمية اقتطفه من فتاويه ويرد عليه ويبرز من خلال ذلك كذب الشيخ وافتراءه على الحقيقة.

يقول ابن تيمية: «لما كانت أحوال هؤلاء شيطانية» كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى عليهم كما يوجد في كلام صاحب الفتوحات المكية والفصوص وأشباه ذلك يمدح الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم وينتقص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وهارون، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين كالجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري ويمدح المذمومين عند المسلمين كالحلاج ونحوه؟...[٢] يقول محمود الغراب: أما أن ابن عربي قد ذم الجنيد والتستري فإنه في فتوحاته عندما يتكلم عنه أو يستشهد بأقواله يقول «رحم الله سيد هذه

---

(١) محمود محمود الغراب، الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مطبعة بن ثابت، دمشق، ١٩٨١م، ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣.

الطائفة أبا القاسم الجنيد». وهو عندما يتعرض لذكر العلماء الذين حفظوا على الأمة أحوال نبيهاﷺ يتدرج بذكر الصحابة ثم التابعين إلى أن يقول «ومن نزل عنهم بالزمان كشيبان الراعي وفرج الأسود والمعمر والفضيل بن عياض وذي النون المصري ومن نزل عنهم كالجنيد والتستري ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهي... إلى أن يقول «حتى يعمل أنا ما خرجنا فيما نذهب إليه من الاعتبار كما أشار إليهﷺ قولا وفعلا لأن سيد هذه الطائفة أبا القاسم الجنيد يقول علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة[1].

ولا ندري هل قول الشيخ ابن عربي «سيد الطائفة» مدح أم ذم للجنيد!

ومن أين جاء ابن تيمية بقوله إن ابن عربي ذمه وفي أي موضع جاء هذا الذم!

ربما كما يقول محمود غراب، أن ابن تيمية نظر في مناقشة ابن عربي للجنيد حول المحدث والقديم، فظن أن الشيخ يرد عليه لما يعتقده هو - حسب ابن تيمية - من عدم التفريق. ومع ذلك ليس هناك أي ذم إنما هو نقاش فكري بين قطبيين صوفيين، والحق أن هذا الاستنتاج من ابن تيمية يدعم الرأي القائل بأن الشيخ تكلم في علم لا يعلم أصوله ولا فروعه إنما كان همه الرد على القوم وإن خلط أقوالهم وادعى عليهم بما هم منه براء.

وهل يرضى ابن تيمية بعقيدة الشيخ الجنيد الذي يمدحه. أعتقد أنه لو اطلع على كل ما قال به الجنيد لوصمه بما وصم به ابن عربي وغيره، فهو القائل»لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق.

أما سهل بن عبد الله التستري فإن الشيخ الأكبر إذا ذكره يقول عالمنا وإمامنا ويصفه بالحبر عند مناقشته مسألة التفريق بين مقام المعرفة، ومقام العلم الإلهي.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥.

والشيخ الأكبر كثير الذكر للشيخ التستري ومدحه والاعتراف بولايته وما وصل إليه من مقام فهو عنده «عليم أواه» و«للسيادة أهل». أما الحلاج فإن ابن عربي لم يمدحه بل قال عنه إنه سكران وليس من أهل الاحتجاج[١].

مع أن كثيرا من المتصوفة دافعوا عن الحلاج وأولوا كلامه وشطحاته وقد دافع عنه بعض فقهاء الحنابلة كذلك.

وابن تيمية حسب محمود غراب لم يقدم أي دليل من كلام الشيخ ابن عربي يمدح فيه الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم، كما لم يستدل على دعواه بانتقاص الشيخ الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى، والخلاصة أن كلام الشيخ الحنبلي «دعوى بلا بينة وفتوى بلا برهان»[٢]. وتزويرا للحقيقة وافتراءا على الشيخ ابن عربي الذي يقول في فتوحاته دفاعا عن الأنبياء جميعا وتنزيها لهم مما يصفهم به اليهود من نواقص:

«فواجب على المذكر إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المثالب ونقلة المفسرين خذلهم الله»[٣].

والحقيقة أنني أقف حائرا في تحقيق كلام رجل يسميه أصحابه «شيخ الإسلام» يفتري على رجل كلامه كله مدح في الأنبياء والدعوة لاتخاذهم أسوة،

---

(١) الفتوحات المكية، ج ٢ ص ٥٤٦، ج ٤ ص ٣٢٨. أنظر محمود غراب، م س، ص ٤٠. إذا كان الشيخ الأكبر قد وصف الحلاج بأنه سكران فإن ابن تيمية سيدعي إن الذي قال «ما في الجبة إلا الله» وهو الحلاج. كان في مقام الفناء الذي يقع فيه السكر المسقط للتمييز.

وأعتقد إن الرأيين لا يختلفان بل مقصودهما واحد ولست أدري هل هذا مدح أو ذم في الحلاج ولكن ابن تيمية مع قوله هذا يدعي إن ابن عربي يمدح الحلاج المذموم عند المسلمين وهذا من التناقض الكثير في أقوال شيخ الإسلام.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢.

وتنزيههم عن النواقص. وكتبه تطفح بهذه المعاني السامية في حقهم عليهم السلام. «وابن تيمية يدعي على الصوفية وابن عربي خاصة أنهم يفضلون خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء: يقول: ومنهم - أي الصوفية - من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته، كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب (الفتوحات المكية) وكتاب (الفصوص)، فخالف الشرع والعقل مع مخالفته جميع أنبياء الله وأوليائه»[١].

أما ابن عربي فإنه يقول: إن شرط أهل الطريق - يعني مشايخ الصوفية - في ما يخبرون عنه من المقامات والأحوال أن يكون عن ذوق ولا ذوق لنا ولا لغيرنا ولا لمن ليس بنبي صاحب شريعة في نبوة التشريع ولا في الرسالة، فكيف نتكلم في مقام لم نصل إليه أو على حال لم نذقه لا أنا ولا غيري ممن ليس بنبي ذي شريعة من الله، ولا رسول؟! حرام علينا الكلام فيه.

وقال أيضا: حضرت في مجلس فيه جماعة من العارفين، فسأل بعضهم بعضا: من أي مقام سأل موسى الرؤية؟. فقال الآخر: من مقام الشوق.

فقلت له: لا تفعل، أصل الطريق نهايات الأولياء بدايات الأنبياء فلا ذوق للولي في حال من أحوال أنبياء الشرائع، ومن أصولنا أنا لا نتكلم إلا عن ذوق، ونحن لسنا برسل ولا أنبياء شريعة، فبأي شئ نعرف من أي مقام سأل موسى الرؤية[٢]؟!.

فهل رأيت الشيخ كما يقول صائب عبد الحميد، أنصف في شئ مما ذكره، أم تراه عمد إلى أقوال ابن عربي فقلبها إلى العكس ليتخذها ذريعة إلى طعنه ورميه بالكفر والضلال[٣].

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٨٠.

(٢) الفتوحات المكية، ٢ / ٥١، أنظر ابن تيمية لصائب عبد الحميد، ص ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢.

(٣) ابن تيمية، م س، ص ١٦٦.

وهكذا هو الحال تقريبا في كل ما حكاه عن ابن عربي فهو لم ينقل عن الشيخ حرفا واحدا بأمانة حين وجده مطابقا للعقيدة الحقة. وربما يقال إنه لم يقرأ كتب ابن عربي ولكنه سمع من بعض من يثق به من خصوم ابن عربي، فقال ما قال ولعل هذا أحسن الأعذار[1].

إن ابن عربي لم ينتقص أبدا نبيا من أنبياء الله تعالى، وحاشاه أن يفعل ذلك، ولكنه انتقص بعض الفقهاء وذم طريقة بعض المحدثين والرواة الذين ينقلون عن اليهود الأكاذيب في حق الأنبياء والرسل. كما أن ابن عربي كغيره من المتصوفة خاض بعض الصراع مع الفقهاء الذين رفضوا طريقة المتصوفة الباطنية وحاروا في فهم كلامهم وحل رموزه وإشاراته، فكانوا يتهجمون عليهم وينسبونهم إلى الانحراف والضلال.

لذلك يقول الشيخ الأكبر: وأكثر علماء الرسوم عدموا علم ذلك ذوقا وشربا فأنكروا مثل هذا من العارفين حسدا من عند أنفسهم.. وأكثر العامة تابعون للفقهاء في هذا الإنكار تقليدا لهم لا بل بحمد الله أقل العامة وأما الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول إلى مشاهدة هذه الحقائق لشغلهم بما دفعوا إليه فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلا القليل منهم فإنهم اتهموا علماء الرسوم في ذلك لما رأوه من انكبابهم على حطام الدنيا وهم في غني عنه وحب الجاه والرياسة وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز وبقي العلماء بالله تحت ذل العجز والحصر معهم، كرسول كذبه قومه وما آمن به واحد منهم ولم يزل رسول الله ﷺ يحرس حتى نزل ﴿والله يعصمك من الناس﴾. فانظر ما يقاسيه في نفسه العالم بالله، فسبحان من أعمى بصائرهم حيث أسلموا وسلموا وآمنوا بما به كفروا، فالله يجعلنا ممن عرف الرجال بالحق لا ممن

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٨.

عرف الحق بالرجال[١].

أما قول ابن تيمية «لما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل» فإن كلام الشيخ الأكبر في فتوحاته ينسخه بل يمحوه ويعلو عليه يقول:

الداعي إلى الله لا يزيد على ما جاء به رسول الله ﷺ من الأخبار بالأمور المغيبة إلا أن أطلعه الله على شئ من الغيب مما علمه الله فله أن يدعو به مما لا يكون مزيلا لما قرره الشرع بالتواتر عندنا[٢] وبذلك يثبت الشيخ الأكبر تهافت آراء ابن تيمية وسطحيتها بل مخالفتها ومناقضتها لواقع النصوص كما هي موجودة في كتب أصحابها. والغريب في الأمر أن أتباع ابن تيمية اليوم «سلفية الوهابية» ينهجون نهج إمامهم في تزوير الحقائق وتحريف النصوص، مثال ذلك ما كتبه محمد حامد الفقي على هامش تحقيقه لكتاب مدارج السالكين لابن قيم الجوزية في النسخة المطبوعة في دار الكتاب العربي ببيروت عام ١٩٧٢، يقول في هامش الصفحة رقم (٦٠) من الجزء الأول ما يلي: قال ابن عربي شيخ الصوفية الناطق بلسانهم:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلف

وهذان البيتان موجودان في أربعة كتب من كتب الشيخ الأكبر ابن العربي وهي: مواقع النجوم، والتنزلات الموصلية، وكتاب المسائل، وفي الصفحة الأولى من كتاب الفتوحات المكية ولكن بالنص التالي:

(١) محمود غراب، م س، ص ٣٧، نقلا عن الفتوحات المكية.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٧، نقلا عن الفتوحات.

الـــرب حـــق والعبـــد حـــق يـــا ليـت شـعري مـن المكلـف
إن قلـــت عبـــد فـــذاك ميـــت أو قلـــت رب أنى يكلـــف[١]

وآخر يؤلف كتابا تحت اسم «التصوف بين الحق والخلق» يقدم نفسه بألقاب الباحث الحر والناقد المجرد، ويبني تحقيقه على عبارتين زورهما على الشيخ الأكبر، فيقول في الصفحة رقم (٨٧) من كتابه المذكور، يقول ابن عربي: «بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني الإلهي ولا أين يحصرها.. الخ»، ونجد هذه العبارة في الجزء الأول من الفتوحات المكية طبعة الميمنية، في الصفحة رقم (١١٨):

«بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ولا أين يحصرها لعدم التحيز.. الخ».

وأما العبارة الثانية فيقول عنها في الصفحة نفسها من كتابه أن الشيخ الأكبر يقول: «وأقرب الناس إليه – يعني إلى الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) – علي بن أبي طالب رضي الله عنه إمام العالم وسر الأنبياء أجمعين»، ولكنا نجد النص في الصفحة (١١٩) من الجزء الأول من الفتوحات «وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين».

---

(١) يتداول الصوفية صيغ أخرى لهذين البيتين منها:

الـرب رب والعـبـد عـبـد يا ليـت شعـري مـن المكلف
إن قـلـت عبـد فالعبـد ميت أو قـلـت رب أنـى يكلـف

يقول الشيخ أحمد التيجاني: «معناه إن الحق سبحانه وتعالى خلق العبد وأفاض عليه، فيض الوجود وأمده بأسرار صفاته السبع النفسية» أنظر إفادة التيجاني لمصطفى بن محمد بن علوي، ص ٢٣. وهذا يدعم كلام محمود غراب فليس هناك من الصوفية من يقول بأن العبد رب والرب عبد. بل إن ابن عربي يقول : «يستحيل تبدل الحقائق، فالعبد عبد والرب رب، والحق حق، والخلق خلق».
أنظر الفتوحات ج ٣ ص ٣٧١.

ورغم أني - يقول محمد غراب - اطلعت المؤلف شخصيا على التحريف والتزوير في النص الذي بنى عليه كتابه معتمدا على نسختين مختلفتين مطبوعتين فكان رده وهو المحقق والباحث الحر في زعمه أنه وجد هاتين العبارتين في نسخة مخطوطة في حماة، وأعاد طبع الكتاب للمرة الثانية بما فيه من المثالب والافتراءات التي أوقفته عليها.. أمثال هذين كثير، يتبعهم كل مغرور وناعق[١].

نقول هنيئا إذن لشيخ الإسلام ولأتباعه من السلفية الوهابية اليوم بما توصلوا إليه من حقائق وعقائد وآراء مبنية على فهم سطحي لنصوص القرآن والسنة وأقوال العلماء والأئمة وأرباب المدارس والفرق الكلامية والفقهية. ولم يكفهم ذلك بل راموا تحريف وتزوير أقوال القوم - خصومهم - وبهتهم بغير ما يدعون إليه.

لقد اتهم علماء أهل السنة والجماعة ابن تيمية من قبل بالكذب، وها هي شهادة محققي الصوفية بالكذب عليهم تضاف هي الأخرى في سجل الرجل، ووساما على صدره وعلامة مميزة في منهج أتباعه عندما يتناولون الخصم بالدراسة والبحث. ولا أخالهم إلا أنهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة.

فما دام الحق بين أيديهم وعنه يصدرون، إذن لا مانع من الاستنجاد بالكذب والتزوير لنصرته والدفاع عنه، والويل للحقيقة من هؤلاء، ويا حسرة على تشرذم وضياع أبناء الصحوة الإسلامية اليوم، الذين لا يجدون إلا كتب القوم يغرفون منها ويشبعون البطون، وقد غزت الأسواق والمكتبات بفضل أموال الذهب الأسود. مع تراجع مذهل لكتابات أهل السنة والجماعة ليس فقط في العقائد ولكن في شتى المواضيع المعرفية المتعلقة بالإسلام.

نرجع لنقول إن موضوع التصوف والمتصوفة قد أثار جدالات كثيرة وعميقة تابعت تاريخه منطلقا وتطورا، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه اليوم من انحسار في حلقات ذكر تقوم بها طائفة من الناس في إحدى الزوايا أو التكايا، كنوع من

---

(١) محمود غراب، م س، ص ٩ - ١٠.

الاجتهاد في العبادة وسلوك الطريق إلى الله، وما واكب ذلك من سلوكيات وأفعال وتصرفات قد أثارت بدورها موجات متتالية من الردود المختلفة والمتباينة من القبول المطلق إلى الرفض المطلق. والحق فيما نعتقد قد نطق به ابن تيمية عندما قال: «والصواب إنما هو إقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة»[1].

شرط ألا تكون هذه الموافقة للكتاب والسنة هو ما فهمه ابن تيمية وأتباعه وحدهم من الكتاب والسنة، وإنما يتم الاحتكام إلى الحق من خلال القرآن والسنة بشكل عام بعيدا عن الخلفيات المذهبية والفرق ومذاهب الرجال التي أنشأها السلطان الجائر وغذتها الأموال المغصوبة والدسائس والمكر الذي تنهد منه الجبال.

***

(١) موقف أئمة الحركة السلفية، م س، ص ٢٢٩.

ابن تيمية ليس سلفيا

كنا قد انتهينا في الباب الأول عند تعريف «السلفية» إلى أنهم ليسوا سوى حشوية الحنابلة التابعين لما استجد مع ابن تيمية من آراء وأفكار في العقائد بالخصوص، وقلنا إن ذلك يضيق لينحصر في أتباع الشيخ بالذات وهم «السلفية الوهابية»، وخلاصة رأيهم في أنفسهم أنهم أتباع السلف الصالح من هذه الأمة، أي من عاش في القرون الثلاثة الأولى من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية ورجال الحديث، الذين شهد لهم الحديث النبوي بالخيرية.

ونحن عندما وضعنا ابن تيمية في نفس الميزان الذي كان يضع فيه خصومه وينتهي إلى أنهم مبتدعة ضالون منحرفون عن السلف عقيدة وسلوكا، لم نجد له مكان بين هؤلاء السلف الذين ما فتئ يذكرهم ويدعي انتسابه إليهم. فهو وانطلاقا من مفهومه حول السلف ومذهبهم، ليس سلفيا بالمرة، وقد انتبه إلى ذلك مجموعة من الباحثين والكتاب الذين تناولوا حياته بالدراسة والتأليف وعلى رأسهم معاصريه الذين ردوا عليه.

إثارة الشبهات في أذهان العامة:

فابن جهبل الفقيه الشافعي الذي ألف رسالة في الرد على الفتوى الحموية يقول: لم ينقل عن سيد البشرﷺ ولا عن أحد الصحابة رضي الله عنهم إنه جمع الناس في مجمع عام (كما فعل ابن تيمية) ثم أمرهم أن يعتقدوا في الله كذا وكذا... إن سيد الرسل لم يقل أيها الناس، اعتقدوا إن الله تعالى في جهة العلو، ولا قال ذلك

الخلفاء الراشدون، ولا أحد من الصحابة[١].

ومن فحص وفتش وبحث وجد أن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين والصدر الأول لم يكن دأبهم غير الإمساك عن الخوض في هذه الأمور وترك ذكرها في المشاهد، ولم يكونوا يدسونها إلى العوام، ولا يتكلمون بها على المنابر، ولا يوقعون في قلوب الناس منها هواجس كالحريق المشتعل، وهذا معلوم بالضرورة من سيرهم، وعلى ذلك بنينا عقيدتنا وأسسنا نحلتنا، وسيظهر لك إن شاء الله تعالى موافقتنا للسلف ومخالفة المخالف (أي ابن تيمية) طريقتهم وإن ادعى الاتباع، فما سلك غير الابتداع[٢].

ويستطرد ابن جهبل موردا أقوال الصحابة وعلماء التابعين وسيرتهم في معالجة قضايا التوحيد الدقيقة، وأنهم كانوا يضنون بها على العوام وعلى غير أهلها، ولا يخوضون في تفاصيل ذلك إلا اضطرارا، قمعا للبدع كما وقع للأئمة كمالك والشافعي وابن حنبل وغيرهم. وإذن فابن تيمية عندما أشرك العوام في معالجة دقائق التوحيد وجزئياته لم يكن سلفيا، وإنما كان مبتدعا منحرفا عن طريق من يعتبرهم هو نفسه رجالات السلف، مع أن الذين خاضوا في قضايا التوحيد والعدل ونشروا جزئياتها بين الناس وأثاروا الشبهات والاختلافات العقائدية لم يكونوا - وحسب ابن تيمية كذلك - من السلف الواجبي الاتباع بل من مبتدعة الأمم وبالخصوص متأسلمة اليهود والنصارى وبعض رجالات الملل

---

(١) الحقائق الجلية، م س، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١، وقد أشار إلى ذلك ابن حجر الهيثمي صاحب الصواعق في كتابه الجوهر المنتظم حيث قال: «.. إن ابن تيمية تجاوز الجناب الأقدس وفرق سياج عظمته بما أظهره للعامة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم».

ويقول الشيخ محمد البرلسي في «إتحاف أهل العرفان برؤية الأنبياء والملائكة والجان. عن ابن تيمية»: وأظهر هذا الأمر على المنابر وشاع وذاع ذكره بين الأكابر والأصاغر». أنظر كشف الارتياب، م س، ص ١٣٠ - ١٣١.

والنحل المخالفة للإسلام، ومن تبعهم من المسلمين الذين روجوا شبهاتهم، كجهم بن صفوان ومعبد الجهني وغيرهم، الذين قام علماء السلف بالرد عليهم.

ابن تيمية يشتغل بالفلسفة وعلم الكلام:

لقد هاجم ابن تيمية علماء الكلام والمشتغلين به، وكذا الفلاسفة ووصف نهجهم بأنه خلاف طريقة السلف وأن القرآن قد جاء بأفضل الطرائق لتوضيح عقائد التوحيد والدفاع عنها، فلسنا في حاجة إلى هذا العلم ولا إلى مصطلحاته، لذلك حمل على أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية لانشغالهم بهذا العلم ونسبهم إلى الانحراف.

وهذا الموقف في اعتداله، وكذا الدعوة إلى عدم إعتماد أو مزج المنطق والفلسفة اليونانية بالفكر الإسلامي العقائدي، فيه الكثير من الحقيقة والصواب، وتدعمه النتائج التي توصل إليها من قاموا بهذه العملية الخطيرة، والتي أسفرت عن تلفيق وتشويش لعقائد الإسلام البسيطة والواضحة.

وقد دعا بعض علماء أهل السنة وغيرهم إلى إبعاد الفكر اليوناني ذو الجذور الوثنية عن عقائد الإسلام بشكل عام، كما اتفقوا على إلجام العوام عن علم الكلام، أي إبعادهم عن الخوض في مسائل التوحيد احترازا عليهم من الانحراف. ولكن الخلاف بين ابن تيمية وعلماء أهل السنة سينحصر في الاشتغال بعلم الكلام ذاته، ومشروعيته وجدواه. فابن تيمية ومعه الحنابلة جملة، يذمون تعلم هذا العلم والاشتغال به، أما أهل السنة فإنهم يدافعون عن هذا الاشتغال. وقد ألف شيخهم الأشعري من قبل رسالة في مشروعية تعلم هذا العلم والاشتغال به، ويبررون عملهم هذا انطلاقا من تعريفهم لهذا العلم الذي«يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٢٥، عن السلفية، ص ١٥٣.

فعلم الكلام في نظرهم بطرقه الاحتجاجية ومنهجه المنطقي أفضل وسيلة للدفاع عن عقائد السلف وأهل السنة أمام شبهات الخصوم من اليهود والنصارى وأصحاب الملل والنحل التي أصبح أهلها مواطنين في دولة الإسلام.

وإن كان الصحابة والتابعون وأئمة المذاهب الفقهية لم يعرف عنهم الاشتغال بهذا العلم، فإنما ذلك راجع للحاجة والضرورة. فالسلف لم يكونوا في حاجة إلى تعلم هذا العلم، أما الخلف فهم مضطرون لأن لا سبيل للدفاع عن عقائد الإسلام أمام شبهات الخصوم إلا به. فالخصم يعتمد الأساليب المنطقية ويستخدم اصطلاحات مستحدثة وبذلك يكثر التشويش ويتعرض عامة المسلمين وخاصتهم للاضطراب.

وابن تيمية لما أنحى باللائمة على الغزالي بسبب خوضه في تلك المصطلحات والمقاييس[١]، أو بسبب اعتماده المنطق وجعله باب العلوم ومقدمتها، كان متناقضا في رأيه وسلوكه، فهو في فتاويه يصرح بأن «مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة.. فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات، ووزنت بالكتاب والسنة بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة، وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة. كان ذلك هو الحق»[٢].

وهذا كما يقول الدكتور البوطي هو ما اتفق عليه سائر المشتغلين بعلم الكلام قديما وحديثا من أهل السنة والجماعة. فإن أحدهم لم يتبن المضامين الباطلة للفلاسفة والمناطقة اليونانين، ولكنهم لم يجدوا مناصا من استعمال اصطلاحاتهم ومقاييسهم اللفظية في عصر انتشرت فيه هذه الاصطلاحات والمقايس[٣].

---

(١) السلفية، ص ١٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى، ج ٣ ص ٣٠٧، عن السلفية، م س.

(٣) السلفية، ص ١٥٩.

أما من حيث السلوك فلا يشك أحد في أن ابن تيمية قد اشتغل بعلم الكلام والفلسفة، وقد اعتكف على قراءة كتب الفلاسفة وعلماء الكلام. وإلا كيف تسنى له معرفة آرائهم ومن ثم رد عليها، ويظهر من مجموع كتبه تبحره في هذا الميدان ومعرفته باصطلاحات القوم وهو قد استخدمها غير ما مرة، لقد تربع على موائد الفلاسفة وعلماء الكلام فشرب منها حد الارتواء، وملأ بطنه من أصناف مأكولاتها حتى التخمة وقد ظهر ذلك جليا في إنتاجه وكتاباته.

ولعمري إن أحدا ممن يعتبرهم الشيخ سلفا لم يفعل ذلك ولا عرف عنه حتى معرفته بعناوين كتب القوم، وليس الدراسة والهضم ومن ثم الرد والمناقشة، والخوض في دقائق عبارات اليونسية والفلاسفة كما يقول عنه الحافظ الذهبي معاصره مخاطبا: «يا رجل قد بلعت سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن والله في الجسد»[(١)]. وفعلا فقد كمن بعضها في جسد الشيخ، فتجرد للدفاع عنه ونشره ليس باعتباره من عقائد الفلاسفة وإنما من عقائد السلف من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية. الذين يتبرأون مما نسب إليهم ادعاء وزورا؟!.

لقد عاب ابن تيمية على «أهل السنة» اشتغالهم بعلم الكلام ونسبهم إلى مخالفة السلف في ذلك، لكنه تزود منه بما يكفيه وزيادة، فكان يحرم على غيره ما أباحه لنفسه، وبعض السذج ممن يطلقون على أنفسهم «سلفية»، قد يرد على ذلك بأن شيخ الإسلام اطلع على ذلك ليعرف الصواب من الخطأ ولما حصل له العلم بذلك أفتى بما وصل إليه من الحقيقة فيجب إذا اتباعه في ذلك لأنه هو الحق.

ونرد على هذا الحشو الفكري بأن ابن تيمية كان مبتدعا في دراسته واشتغاله بعلم الكلام والفلاسفة ولم يكن سلفيا، ولكنه لما وصل إلى ما وصل إليه من نتائج انقلب على ابتداعه وادعى أتباعه للسلف وحمل على باقي المشتغلين بهذه العلوم

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ٤، ص ٣٩.

فبدعهم وضللهم. لكن أحدا لا يقول بأن شيخ الإسلام كان ضالا مبتدعا سنوات اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة، فيكف ذلك؟!

يقول الدكتور البوطي: لقد انعكس هذا الاضطراب في كلام ابن تيمية، على أذهان كثير ممن يقرأون له، بسطحية ودون صبر أو استيعاب. فقد أخذوا يروون عنه مستدلين ومحتجين أنه أنكر الاشتغال بعلم الكلام وحذر منه، وسفه المشتغلين به والمؤلفين فيه، مع أنه قرر نقيض ذلك تماما بل إنه خاض في المباحث الكلامية، طبقا للمقاييس الفلسفية في الجزء الثالث من مجموع فتاواه، خوضا سبق به أساطين علم الكلام الذين ينهال عليهم (السلفيون) كل يوم بالهجوم المقذع والنسبة إلى الابتداع. فقد تحدث عن العلاقة بين الوجود والموجود، وعن القدرة الصلوحية والتنجيزية، في العبد، وهل توجد القدرة عند مباشرة الفعل أم قبلها، وعن الجبر والاختيار، وعن القدم بالنوع والحدوث في الجزئيات.. وأوغل في ذلك أيما إيغال. وهو مما ينأى عنه - بدون ريب - منهج القرآن وطريقته في بيان عقائد الإسلام، على حد ما يقوله ابن تيمية، ويقرره في أكثر من مناسبة[1].

وعليه فابن تيمية لم يكن سلفيا عندما اشتغل بعلم الكلام والفلسفة. وعندما أفتى بضلال من يشتغل بهما فإنما كان ذلك منه غرور علمي ليس إلا، وممارسة الأستاذية على الناس وطلبة العلم. وهذه الأستاذية التي إن قبل بها أتباعه من حشوية العوام، فإن باقي علماء الفرق والمذاهب رفضوها ولم يعتبروها إلا ادعاءا جديدا يضاف إلى ادعاءاته الكثيرة، وقد أوردنا سابقا بعضا من آراء علماء أهل السنة فيه وفي علمه واجتهاده.

لقد اطلع الشيخ الحنبلي على مجمل آراء الفلاسفة وعلماء الكلام واتخذ لنفسه رأيا ومذهبا فيما اطلع عليه ودرسه. فمن يمنع باقي الناس ممن له القدرة

---

(١) المذاهب الإسلامية، م س، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

على ذلك مثل الشيخ أو أكثر ليسلك مسلكه ويكون لنفسه رأيا ومعرفة شخصية بتلك المواضع. هذا مع حسن الظن بما وصل إليه «شيخ الإسلام» من حقائق وأحكام بخصوص عقائد الرجال والفرق، وإن كان هناك شبه إجماع على أن الشيخ الحنبلي لم يكن أمينا في نقله كلام خصومه وعقائدهم كما هي عليه حقيقة. كما أوضحنا قبل ذلك مع أهل السنة والصوفية.

وإذن هل يطمأن إلى آرائه واستنتاجاته. بل إن الأمر يزداد تعقيدا وصعوبة عندما نتفحص كتابات الشيخ فنجد له في القضية الواحدة رأيين متناقضين تماما، أو مجموعة آراء مختلفة وغامضة. فأيهم نتبع حتى نكون بذلك سلفيين غير مبتدعين ولا ضالين؟!.

ابن تيمية يقول بقدم النوع الأساسي:

لقد كان بعض الحنابلة يشكوا من أن أصحابه قد انقطعوا إلى الرد على الملحدين انقطاعا أداهم إلى الإلحاد[١]، وقد وقع ابن تيمية بدوره في شراك الفلاسفة ومتاهاتهم وظهرت أعراض الإدمان على أفكارهم كما ذكر الحافظ الذهبي، في بعض المعتقدات الشاذة للشيخ الحنبلي. ذكر البوطي منها مسألتين: الأولى عندما كتب تعليقه على كتاب (مراتب الإجماع) فقد ذكر ابن حزم أنهم اتفقوا أن الله عز وجل وحده لا شريك له، خالق كل شئ غيره. وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شئ غيره معه. ثم خلق الأشياء كلها كما شاء. علق ابن تيمية (رحمه الله) على كلام ابن حزم بقوله: «قلت: أما اتفاق السلف وأهل السنة والجماعة على أن الله وحده خالق كل شئ فهذا حق. ولكنهم لن يتفقوا على كفر من خالف ذلك. فإن القدرية الذين يقولون إن أفعال الحيوان لم يخلقها الله، أكثر من أن يمكن ذكرهم من حين ظهرت القدرية في أواخر عصر الصحابة إلى هذا التاريخ، ثم قال: «وأعجب من

---

(١) أنظر رسالة الذهبي لابن تيمية، وقوله إن ابتلاع سموم الفلسفة يدمن عليه الجسد، وأنظر رد البوطي على ابن تيمية بخصوص تسلسل الحوادث وقدم النوع الأساسي.

ذلك حكاية الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شئ غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء»[(١)].

لقد أنكر ابن تيمية الإجماع الذي ذكره ابن حزم والقاضي بتكفير من نازع أنه سبحانه لم يزل وحده ولا شئ غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء وبعدما أورد كلام علماء الكلام والفلاسفة في هذه المسألة. انتهى إلى ما قرره الفلاسفة من أن الأشياء حادثة بالعين والجزئيات ولكنها قديمة بالنوع وسلسلة التوالدات، وأكد ذلك بقوله: «ولكن فرق بين حدوث الشيء المعين، وحدوث الحوادث شيئا بعد شئ» أي فالأول هو الحادث بعد أن لم يكن، أما سلسلة الحوادث المتوالدة شيئا بعد شئ - على حد تعبيره - فهي قديمة مستمرة[(٢)].

فابن تيمية الذي يكفر خصومه لأدنى المواقف الاجتهادية التي قد يخالفهم فيها، يرى أنه لا يوجد إجماع من السلف وأهل السنة والجماعة على كفر من زعم أن الله وحده ليس خالق كل شئ. ودليله على عدم وجود هذا الإجماع أن القدرية يعتقدون - على حد قول ابن تيمية - أن أفعال الحيوان لم يخلقها الله...

فلئن كان القدرية أو أي فئة أخرى غيرهم. يعتقدون أن ثمة خالقا سوى الله تعالى أوجد شيئا ما من العدم بقدرة مستقلة غير مستمدة من الله عز وجل، فهو كافر بدون أي خلاف ولا ريب. غير أني - يقول البوطي - ما سمعت وما رأيت إلى هذا اليوم إن القدرية يعتقدون أن أفعال الحيوان لم يخلقها الله! وها هي كتب الفرق والملل والنحل أمامنا، ولم أجد في شئ منها مثل هذا النقل عنهم[(٣)].

وينتهي الدكتور البوطي في نقاشه لابن تيمية إلى أن الشيخ الحنبلي قد دافع عن إحدى أهم أفكار الفلاسفة، وهي القول بقدم النوع الأساسي وحدوث الأعيان

---

(١) السلفية، ص ١٦٤.

(٢) السلفية، ص ١٦٦.

(٣) السلفية، ص ١٦٧.

الجزئية، فلنا أن نقرر مع ابن تيمية بأن المادة الأولى للمكونات كانت قديمة ولم تستحدث وأنها تشترك مع الله اشتراكا ذاتيا في صفة القدم(١).

وهذه إحدى العقائد الثلاثة التي كفر الغزالي بها الفلاسفة. وهناك نقطة جديرة بالاهتمام وهي تعليق الدكتور على الأدلة التي ساقها الشيخ الحراني من السنة لإثبات ما يذهب إليه. لأنه بذل جهدا شاقا متكلفا لينتقي من الروايات الثلاث الصحيحة التي وردت عن النبي في هذا الموضوع ما هو أقرب إلى التناسب مع رأيه هذا، فيرجحها على الروايتين الآخرتين ويشطب عليهما بالوهب والبطلان(٢)، ودون أي مسوغ لهذا الترجيح. فقد ورد في البخاري في كتاب (بدء الخلق) بلفظ «كان الله تبارك وتعالى ولم يكن شئ غيره»، وورد في رواية أبي معاوية في كتاب ذاته «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شئ». وورد في كتاب التوحيد بلفظ «كان الله ولم يكن شئ قبله».

ولما كانت الروايتان الأوليتان أصرح في الرد على الفلاسفة الذين أثبتوا حوادث لا أول لها، أي أثبتوا ما يسمونه القدم بالنوع، فقد اختار ابن تيمية أن

---

(١) السلفية، ص ١٦٨.

(٢) الحقيقة أن هذه العملية هي أصل الاختلاف بين ابن تيمية وباقي خصومه، خصوصا من أهل السنة والصوفية. فهو كان ينتصر لجميع آرائه التي اختلف فيها معهم بترجيحه أو فهمه الخاص لحديث ومن ثم يروم تضعيف الأحاديث التي يستند إليها مخالفوه ويعتمدونها فالحديث الصحيح الذي يمكن أن يتخذه القوم عمدتهم في الاستدلال لا يجد الشيخ الحراني حرجا في الطعن فيه سندا أو متنا. بينما يعتمد هو على أحاديث قد لا يعتد بها الجمع الكبير من العلماء ورجال الحديث فهو القائل: «كم من حديث صحيح، ومعناه فيه نزاع كثير» ولكنه كان يفصل في هذا النزاع ويدلي برأيه فيه والويل لمن خالف ما يجئ به الشيخ فإنه لا محالة ضال مبتدع أو كافر منحرف عن ملة الإسلام والسلف الصالح.

لذلك كان الحافظ الذهبي يشكو منه ذلك «إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح والله بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك. بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوي؟» أنظر تكملة السيف الصقيل للكوثري المعاصر، ص ١٩٠ - ١٩٢.

يشطب عليهما ويرجح عليهما رواية «... ولم يكن قبله شئ»[(١)].

وقد أشار إلى ذلك ابن حجر في فتح الباري وعلق عليه بأن لا مسوغ للترجيح ما دام «الجمع يقدم على الترجيح»[(٢)].

والنتيجة أن «شيخ الإسلام» تطوح في هذه المسألة وتخبط وتقاذفته أمواج الفلسفة فرمت به بعيدا عن السلف اعتقادا وسلوكا. وإن كان الدكتور البوطي لم يجنح إلى تكفيره صراحة كما صرح الغزالي بكفر الفلاسفة الذين يعتقدون بقدم العالم، فإن شيخ الإسلام قد كفاه تعمد ذلك عندما قال في إحدى رسائله حول معنى الاستواء وبعض آيات الصفات: «ثم يقال لهؤلاء:

إن كنتم تقولون بقدم السماوات والأرض ودوامها، فهذا كفر، وهو قول بقدم العالم»[(٣)].

ونرجع مرة أخرى إلى التناقض في كلام الشيخ وكتاباته ليتبين لنا أن الحقيقة السلفية أو مذهب السلف عند الشيخ، كائن برأسين كل منهما ينطق بخلاف الآخر. ونرجو من أتباعه اليوم أن يحيلونا على الصواب في هذا الاختلاف والتباين علنا نستحق أو نظفر بالانتساب إلى مذهب السلف، هذا المذهب الذي لا يحيد عنه إلا زائغ مبتدع ضال.

الإعتقاد بالعلة الأرسطية خلافا لأهل السنة:

أما المسألة الخلافة الثانية التي ذكرها البوطي، فهي اعتقاده. خلافا لأهل السنة من الأشاعرة بالتحديد[(٤)]، بالعلة الأرسطو طاليسية، فهو يحمل على

(١) السلفية، ص ١٧٠.

(٢) فتح الباري، ج ١٣ ص ٣١٨ - ٣١٩، أنظر، م س.

(٣) السلفية، ص ١٧٢.

(٤) للمعتزلة والشيعة الإمامية رأي آخر في هذه المسألة. وهو الذي يرجحه ابن تيمية وينتصر له. يقول الإمامية في هذا الباب: «مما يجب الاعتقاد به هو توحيد الله في أفعاله ومعنى التوحيد الأفعالي إن جميع

الأشعري ومن تبعه من المالكية والشوافع والحنابلة وغيرهم الذين أنكروا الأسباب وقالوا بأن الله يفعل عند الشئ لا به. فالماء ليس سببا في إنبات الزرع، وإنما هو فعل الله عندما يلتقي الماء بالزرع. وهذه من المسائل التي اختلف فيها علماء الإسلام ومفكروه. وابن تيمية يقف هنا في صف فلاسفة الإسلام مثل الفارابي وابن رشد القائلين بوجود أسباب كامنة في الأشياء كقوى أودعها الله فيها. فهي بمثابة الأسباب والعلل لمسبباتها[1].

وإذا كان ابن تيمية قد آمن بالأسباب والعلل وذلك انطلاقا من عداوته لأهل السنة والجماعة كما يدعي الدكتور سامي النشار، فإن الشيخ الحنبلي سيعتبر إنكار هذه الأسباب مخالفة صريحة لما جاء به القرآن «والسنة وإجماع السلف»[2]. هذه المخالفة التي سيرفضها أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أن الباء في بعض الآيات القرآنية مثل «فأنزلنا به الماء» و«فأخرجنا به من كل الثمرات» لا تفيد السببية الحقيقية، وإن اعتقاد ذلك «كفر وشرك بالله عز وجل باتفاق الملة وبدلالة النصوص القرآنية القاطعة[3].

الأفعال صادرة منه تعالى ولا مؤثر في الوجود غيره، بل التأثير بالاستقلال له لا لغيره. إلا أن جعل التأثير لله ليس معناه سلب التأثير عن العلل الأخرى التي جعل الله لها التأثير. أن تأثير العلل الأخرى ليس بالاستقلال بل يستند إلى الله تعالى، وبعبارة علمية أن تأثيرها ليس في عرض تأثير الله بل في طوله. معنى أن الله أجرى النظام على هذه الكيفية، وكما ورد في الحديث عنهم عليهم السلام «أي أئمة أهل البيت»: «أبى الله أن تجري الأمور إلا بأسبابها». ولكن هذه الأسباب تستمد سببيتها منه تعالى ولذا ورد: «اللهم يا سبب من لا سبب له يا سبب كل ذي سبب يا سبب الأسباب من غير سبب». فالأسباب والعلل لها تأثير لا كما يزعم الأشاعرة أنه لا تأثير لها، لأن ذلك خلاف ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تنص على أن لهذه العلل تأثير في معلولاتها، إلا أن تأثيرها ليس من لدن نفسها بل مستمدة من الله». أنظر توحيد الصدوق وصفات الله عند المسلمين، للشيخ حسين العايش، ص ٧٧.

(١) السلفية، ص ١٧٣.

(٢) الرد على المناطقة لابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٩ ص ٢٨٧، أنظر، المرجع السابق ص ١٧٤.

(٣) السلفية، ص ١٧٥.

طبعا نحن هنا لا ننتصر لرأي الدكتور البوطي على إطلاقه وإنما أوردنا هذه المسألة الشائكة، والتي أدلى الشيخ الحراني بدلوه فيها، فقط لتأكيد ما ذهبنا إليه من أن الشيخ قد خاض غمار الفلسفة وعلم الكلام وأنه أبحر بعيدا جدا عن شاطئ السلف. على الأقل كما يفهم هو من مصطلح السلف.

وأصحابه اليوم عاجزون تماما عن إيجاد مستند تاريخي يثبت أن الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب الفقهية، قد اشتغلوا بهذه المواضيع الفلسفية والكلامية الدقيقة، فضلا عن الدراسة والتحليل وترجيح الآراء والانتصار لبعضها دون الآخر، كما فعله الشيخ الحنبلي! والحقيقة أننا لا نعيب عليه ذلك فطلب العلم ونشدان الحقيقة فرض عقلي وشرعي.

وإنما المذموم هو أن نحرم على الناس ما أبحناه لأنفسنا. وأن نمنعهم من تذوق لذة المعرفة والبحث، كما أن احتكار الحقيقة فيه من الغرور والتطاول على الحقيقة ما فيه. ولا شك أن التعدد في الآراء والاستنتاجات يغذي ميدان المعرفة وينعشه، وإنما الحكمة ضالة المؤمن. ولا يمكن لأحد أن يصد باب المعرفة والبحث بحجة أن بعضا من الصحابة لم يفعلوا ذلك أو أن النتائج التي نتوصل إليها لم يعرفها هؤلاء أو غيرهم من السلف.

لقد أجمع الباحثون على أن «شيخ الإسلام» قد توصل في معالجته لكثير من قضايا العقائد إلى ما لم يرد عن السلف. أو عرف عنهم، وكتب التاريخ ونصوصه شاهدة على ذلك. وهذا الكلام قد انتبه إليه أصدقاء الشيخ قبل خصومه. أنظر إلى قول الحافظ القسطلاني وهو يعالج مسألة خلق القرآن:

«العجب ممن ينتمي إلى أهل السنة ويتعرض للاقتداء بالسلف الصالح منهم ويعتمد على ما ورد في الكتاب والسنة كيف يخالف قوله قولهم وينتهي إلى ما لم يرد عن السادة المقتدى بهم، من الخوض في كيفية الكلام فيزيد فيه - بحرف وصوت - ولم يرد ذلك في كتاب ولا سنة، ويستدل على إثبات المقطوع به

بالمظنون من الأحاديث المتضادة المتون»[١].

أما إذا رجعنا إلى القضايا الأخرى التي اختلف حولها الشيخ الحراني مع خصومه من أهل السنة والصوفية، مثل تحريمه شد الرحال لزيارة قبر الرسول أو التوسل بذاتهﷺ أو مفهومه الخاص بالشرك والتوحيد، ودعاء الأنبياء والصالحين وزيارة قبورهم والاعتكاف عندها للعبادة وغير ذلك من القضايا.

فإن الباحثين يقولون بأن أحدا قبل الشيخ لم يوليها الاهتمام الذي أولاه لها الشيخ، وقد درج السلف والخلف قبل ابن تيمية على شد الرحال لزيارة قبر الرسول وقبور الأولياء والصالحين، والتوسل بذاتهﷺ وبناء الأضرحة على قبور الصالحين والعبادة عندها، كما أنهم فهموا قضايا التوحيد والشرك بخلاف ما ذهب إليه الشيخ. وتراث الصحابة والتابعين والأئمة كان وما زال معتمد الجمهور فيما يعتقدونه ويسلكونه، طيلة سبعة قرون خلت. إلى أن بزغ نجم الشيخ الحنبلي فخالفهم وأنكر سلفيتهم.

وإنما مبلغ علم الشيخ أنه انتقى لنفسه أحاديث وروايات، ورجحها على كثير غيرها، وأضاف إليها فهمه الخاص، معضدا بأقوال منقولة عن بعض الأئمة والفقهاء، حيث شكى الكثير من الباحثين قديما وحديثا عدم أمانة الشيخ في نقله كلامهم. بل صرح بعضهم بكذب الشيخ وافترائه، مثل الشيخ شهاب الخفاجي والقسطلاني.

فقد ادعى ابن تيمية مثلا بأن الحكاية التي رواها أبو حسن علي بن فهر في كتابه فضائل مالك وأوردها أيضا القاضي عياض في «الشفا» وهي: «أن مالك أمر أبو جعفر المنصور باستقبال قبر النبيﷺ والدعاء عنده»، لا تصح عن مالك وإنما هي مفتراة عليه. والذي دعى الشيخ الحنبلي لقول ذلك ليس التحقيق العلمي. لأن أصحاب مالك يقولون بأن إسناد الرواية صحيح. وليس فيه كذاب أو وضاع.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري، ص ٢٠٢.

ولكن الشيخ لما ابتدع له مذهبا بعدم تعظيم القبور كان يدفع كل ما يرد عن السلف من أقوال أو أفعال يفهم منها التعظيم. فهو، يقول الشيخ الزرقاني المالكي: إذا لم يجد له شبهه واهية يدفع بها زعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه، مباهتة ومجازفة وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله[1]. وهكذا تتوالى الردود على الشيخ من طرف علماء وفقهاء المذاهب الأربعة لتبرئة السلف مما يدعيه مذهبا لهم.

إن مذهب الشيخ الحراني عند التحقيق ليس إلا مجمل اجتهاداته وترجيحاته وأفكاره المتباينة، وضعت في قالب سماه وأطلق عليه «مذهب السلف» أو ما كان عليه السلف وهم من عاش في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام.

***

(١) الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، رئيس محكمة الحقوق العليا في بيروت سابقا. شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ، ضمن كتاب علماء المسلمين والوهابيون، لحسين حلمي الاستانبولي، ص ١٨٧.

وأخيرا

لقد حاولنا في هذه العجالة تسليط الضوء على حياة وسيرة هذا الرجل الذي شغل معاصريه من الفقهاء والعلماء كما شغل السلطة السياسية، وذلك لما كانت تُحدثه فتاواه وآراؤه من فتن وصراعات يتورط فيها العوام أغلب الأحيان، فيحدثون الشغب والقلاقل.

كما أن أفكاره التي تم إحياؤها على يد تلميذه النجدي وقامت عليها دولة في شبه الجزيرة العربية اليوم، قد جعلت التاريخ يعيد نفسه في بعض الفصول.

فقد انتشرت آراء الشيخ الحنبلي في أرجاء واسعة من العالم الإسلامي بفضل الطباعة والنشر والدعم المالي الكبير، والحرص الشديد لأتباعه على إيصال كتبه وآرائه إلى الأوساط المتلقية في العالم الإسلامي.

فانتشرت الفتن وعمت البلوى، وتجند علماء أهل السنة بادئ الأمر للرد على الشيخ وأتباعه. وبعث ونشر كل ما قيل حول آرائه من نقض وردود. بالإضافة إلى تأليفات جديدة. لكن الانحصار أصاب هذه الحركة، ليس فقط بسبب طوفان الكتب التي تنشر هذا المذهب وتدعو له، والتي أغرقت سوق الكتاب الإسلامي، حيث يطبع قسم كبير منها طباعة فاخرة ويوزع بالمجان وخصوصا «مجموع فتاوى الشيخ». ولكن بسبب الإرهاب الفكري الذي يمارسه القائمون على هذه الدعوة – السلفية – وذلك برمي خصومهم بالابتداع والضلال والكفر، ومحاولة تشويه سمعتهم لدى أبناء الصحوة الإسلامية الذين انجر كثير منهم لاعتناق هذه الأفكار ظنا منه أنه يتبع السلف الصالح وأنه يبتعد بذلك عن الانحراف والشرك.

أرجع لأقول بأن البحث في حياة الرجل وأفكاره ليست بالأمر الهين، لكثرة الآراء المتناقضة المسطرة حوله في كتب التاريخ. لكن تراثه وما خطه يراعه، بالإضافة إلى ما عليه أتباعه اليوم، لا يدع مجالا للشك من أن ما وصمه به خصوصه هو الواقع والمطابق للحقيقة تماما.

لقد كان الرجل واسع الاطلاع على تراث الفرق الإسلامية لكنه لم يكن دقيقا ولا مختصا. إنما قارئا سطحيا، لذلك وقع في الأخطاء، سواء عندما أراد أن يجعل من نفسه حكما وميزانا، أو عندما اجتهد لنفسه آراء مخالفة لما عليه جمهور العلماء وإن كان قد أصاب في بعضها[١].

فقد استطاع كل فريق خاصمه ابن تيمية أن يثبت تهافت كلام الشيخ في حقه وتناقضه وعدم معرفته بكلام خصومه. لذلك اتهموه بالكذب والتزوير وعدم الأمانة في النقل، وقد أوردنا بعضا من حججهم في ذلك. كما أجمعوا على أن الشيخ كان سطحيا وظاهريا في معالجته لكثير من قضايا الفكر الإسلامي المختلف فيها.

أما حدة الصراع والرفع من وتيرته لدرجة إدخال الشيخ للسجن والحكم بضلاله وكفره، فإن ذلك راجع لسلوك الشيخ وموقفه الحاد من خصومه في الرأي، واعتداده بنفسه لدرجة الغرور الممقوت. يقول جلال الدين السيوطي في وصف حال الشيخ الحنبلي، «وقد تعبت في رزيته وفتنته حتى مللت في سنين متطاولة فما وجدت قد أضره في أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا بالكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار»[٢]. والسيوطي لم يكن عدوا لابن تيمية، وإن خالفه في كثير من القضايا[٣]. لكنه كان

(١) كمسألة رفض حكم الطلاق الثلاث وأنه لا يقع إلا طلقة واحدة، وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي اجتهد هذا الحكم الذي خالف فيه النصوص وما كان عليه الرسول والصحابة.

(٢) علماء المسلمين الوهابيون، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٣) من بينها احترامه لابن الفارض الصوفي الذي ذمه ابن تيمية وعاداه لأنه يعتقد بوحدة الوجود فقد كان السيوطي يعتقده وألف جزءا سماه «قمع المعارض لابن الفارض». أنظر القول الجلي للصفي البخاري.

مصيبا فيما وصف به الشيخ.

زد على ذلك حدة في الطبع وجفاء وغلظة في التعامل مع من جعلهم خصوماً له. وقد حاول البعض أن يرجع هذه الحدة والمزاج الصعب والمتقلب إلى كون الشيخ لم يتزوج طيلة حياته. ولا شك أن الكبت الجنسي كما أثبت العلم المعاصر، يضغط على الأعصاب ويؤثر عليها، فيتعرض الإنسان على أثر ذلك لموجات عصبية حادة. وهذا القول لا شك أن فيه بعضا من الصحة ويمكن أن يكون مفتاحا لحل لغز التناقض الحاد في أفكار الشيخ وأحكامه.

فقد عثر الباحثون - كما أشرنا إلى ذلك سابقا - على أحكام وآراء متناقضة له في المسألة الواحدة. فهو حينا يعالج القضية بهدوء وتفهم وكأنه تلميذ يشرح كلام أستاذه بصدق وأمانة، وتراه حينا آخر مندفعا لا يلوي على شئ مجردا خصومه من كل فضيلة أو علم ناسبا إياهم إلى الضلال والابتداع أو الكفر، بل مجرد تلامذة لفلاسفة اليونان الوثنيين أو أتباع بوذية الهند وأنباط الفرس.

ونحن نقول بعد متابعة شاملة لحياة الشيخ ومذهبه وسيرة أصحابه، بأن الحدة والمزاج الصعب والجاف الذي يتكلم عنه الباحثون يجدون تفسيره في مسألتين مهمتين بالإضافة إلى الكبت الجنسي أو كونه عاش وحيدا دون أهل أو زوجة.

المسألة الأولى: تتمثل في البيئة الجغرافية التي فتح الشيخ فيها عينيه وتربى ونشأ، وهي مدينة حران التي وصفها الرحالة ابن جبير بقوله: «ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه - أي بلد حران - ولا تجد فيها مقيلا، ولا تتنفس فيها إلا نفسا ثقيلا، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة»[1]. فلا شك أن هذه البيئة الصحراوية الجافة كان لها تأثير على نفسية الصبي، وهذا معلوم بالضرورة فأخلاق وسلوكيات البدو الذين يعيشون في الصحاري والقفار تكون جافة غليظة، بخلاف سكان الحواضر

(١) ابن تيمية حياته عقائده، م س، ص ٢٥.

والبوادي الخصبة حيث الأنهار والبساتين والأشجار الكثيفة. وهذا من تأثير الطبيعة والجغرافية على الإنسان، وهي مسلمة علمية وعرفية.

وعندما هاجر الصبي من حران، استقر به المطاف في دمشق فأكمل نشأته فيها حتى بلغ من الكبر عتيا، لكن مياهها وبساتينها لم تزده إلا جفاء وخشونة.

المسألة الثانية: ترجع إلى المذهب الحنبلي فقد ولد الشيخ ابن تيمية في بيت المشيخة الحنبلية واستمر يرتع وينمو في أحضان هذا المذهب إلى أن تولى رئاسته. والصفة المميزة والخاصة لأتباع هذا المذهب كانت وما زالت تتمثل في الجفاء والغلظة، وقد وصفهم ابن عقيل الحنبلي قائلا: «قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالطة وغلظت طباعهم عن المداخلة...»[١]. ويقول صاحب النهج الأحمد: «فقد كنا في عهد الصبا نسمع الرجل يصف رجلا آخر فإذا أراد أن ينعته بضيق الصدر والتزمت وصلابة الرأي وعدم انقياده للحديث يلقى إليه قال «أنه حنبلي» ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يذكرون هذه العبارة في مثل هذا المعرض[٢].

هذا الجفاء والغلظة كانت السبب في كثير من خلافاتهم مع علماء وفقهاء المذاهب الإسلامية الأخرى. فقد كان الحنابلة يرون أنفسهم بمنأى عن سائر طوائف العلماء فلا هؤلاء يقبلون عليهم أو يتحدثون عنهم فيما بينهم أو فيما يؤلفون من كتبهم، حديث من يريد تجلية الحقائق العلمية ويكشف اللثام عن خباياها. ولاهم يختلطون بهؤلاء أو بغيرهم من أهل الولايات وذوي الأقدار في الدولة[٣].

وإذا كانت صفة الحنابلة هي كما ذكرنا، فإن «شيخ الإسلام» سيتربع على كرسي مشيختهم وسيكون محط رحال اقتدائهم وتقليدهم بعدما تشبع بأصول

---

(١) إسلام بلا مذاهب، م س، ص ٤٣١.

(٢) النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد، مجير الدين العليمي، ج ١ ص ٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١.

المذهب وفروعه وتزيا بزي أصحابه ومؤسسيه، لذلك نعتقد أن الجفاء والحدة والخشونة قد رضعهما الشيخ من ثدي المذهب فامتزج لحمه ودمه بهما وظهر ذلك واضحا في سلوكه ومعاملاته.

ولنا أن نسأل الشيخ وهو العليم بمذاهب السلف وسيرهم، هل كان السلف الصالح جفاة غلاظا ذوي خشونة وحدة بالغة؟! لا شك أن الشيخ سيقلب لنا صفحات التاريخ ليأتي لنا بما يدعم رأيه وسلوكه، لكننا لن نحشر في نقاش طويل معه ومع أتباعه حول هذه القضية وسنرد عليه بقول الخليفة عمر بن الخطاب «حسبنا كتاب الله» وقد جاء فيه: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[1].

وأخيرا لا يمكننا أن نسترسل في نقاش الرجل والإحاطة بفكره وحياته أكثر مما أوردناه، وذلك مخافة التطويل، لكننا سنختم قولنا بعتاب مر ورد على ألسنة الباحثين المعاصرين ممن تناولوا حياته. هذا العتاب الذي يمكن تلخيص عبارته كالتالي: لقد أشعل الرجل حروبا وفتنا داخلية بين المسلمين وشغل العلماء والسلطات السياسية في مصر والشام عن معالجة جروح هذه الأمة التي لم تكن قد التأمت بعد من خراب بغداد والشرق الأقصى الإسلامي على يد المغول وما تعرض له المسلمون من إبادة جماعية هناك. وانطلاق الحملة الصليبية الحاقدة في الغرب الإسلامي وتهجير أهل الأندلس وتنصيرهم.

ففي الوقت الذي كان حريا عليه وعلى باقي العلماء، تنبيه المسلمين للملمة أوضاعهم وأن يأخذوا العبرة بما وقع لهم من مآسي كان الشيخ يثير الفتن الداخلية بفتاويه الشاذة التي تصدع البنيان الداخلي للأمة، حيث يتحول الاستعداد لجهاد العدو المتربص بالإسلام والمسلمين إلى اقتتال بين طوائف المسلمين وسفك دماء بعضهم البعض بفتاوي جريئة تكفر البعض وتبدع وتضلل الآخرين.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

وهكذا اجتمعت سيوف المغول في الشرق ومحاكم التفتيش في الغرب معضدة بفتاوى «شيخ الإسلام» في الشام ومصر بتبديع وتضليل وتكفير المسلمين، لتجهز على ما تبقى من حضارة كان يراد لها ولدعاتها الأوائل أن يسودوا العالم وأن تسود معهم قيم الحق والعدل والإنسانية، ليكون الدين لله وحده ولكي لا يعبد على الأرض سواه عز وجل.

وكم كان ابن عطاء الله الإسكندري مصيبا ومحقا عندما أشار على الشيخ ابن تيمية بأن يشتغل بما هو أجدى، بدفع الظلم وحماية العدل المنتهك، وتقييد أيدي الحاكم الظالم عن نشر الفساد والظلم في الرعية. لكن لا حياة لمن تنادي؟!.

وهكذا ذهبت جهود الشيخ الحنبلي وفتاواه أدراج الرياح فلم ينته المسلمون على شد الرحال لزيارة قبر نبيهم عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وطلب الشفاعة منه والدعاء عند قبره وقبور الأولياء، وبناء المساجد والأضرحة قرب قبور الصالحين. كما أن علماء أهل السنة لم يشكوا لحظة في توحيد إمامهم الأشعري وأنه خلاصة التنزيه والرد الوافر على من إعتقد التجسيم والتشبيه.

لكن آراء الشيخ بقيت محفوظة في بطون الكتب وعلى رفوف المكتبات، إلى أن قيض لها من أيقظها من مرقدها، وبعثها بعد قرون من الاندراس، حيث ذل لها ظهر السيف والسلطان فاتخذته مطية، لتجوب بلاد نجد والحجاز وما جاورهما من بلدان، معلنة بذلك، قيام الدعوة لمذهب الحشو السلفي، وبداية انتشاره في الآفاق، على يد فقيه حنبلي جديد، تتلمذ على كتب أستاذه وشيخه ابن تيمية الحراني وتشبع بأفكاره وآرائه واعتقدها وظن أنها الحقيقة، والمحجة البيضاء التي لا يحيد عنها إلا ضال أو منحرف.

إنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحنبلي النجدي زعيم الحركة السلفية المعاصرة ومؤسس دعوتها، وهو موضوع الفصل القادم إن شاء الله.

***

الفصل الرابع

محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي وقيام الدعوة السلفية الحشوية

«... زعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذي ابتدعه إخلاص التوحيد والتبري من الشرك، وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة، وأنه جدد للناس دينهم وحمل الآيات التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد...».

أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة

تمهيد

كان ابن قيم الجوزية[1] من تلامذة الشيخ ابن تيمية ومن أكثر الناس التصاقا به لدرجة أنه أدخل معه السجن في القلعة. ولما توفي الشيخ تحمل التلميذ المخلص مهمة جمع تراث أستاذه والحفاظ عليه، بل تنقيحه وترتيبه وتبويب مسائله وإغناء مواضيعها بالشرح والتفصيل والتأليف. كل ذلك، ضم إلى تراث الحنابلة بشكل عام وحوفظ عليه من صروف الأيام، إلى أن أدركته يد العناية فتلقفه طالب علم حنبلي فشرب منه حتى الثمالة وتشبع بمقاصد أفكاره ومعاني آرائه واتخذها لنفسه

---

(١) يقول ابن حجر في الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه.. واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة. فلما مات أفرج عنه، وأمتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه».

ويقول الشيخ محمد الكوثري المصري كان «دائبا على إذاعة شواذ شيخه، متوخيا – في غالب مؤلفاته – تلطيف لهجة أستاذه في تلك الشواذ، لتنطلي وتتفق على الضعفاء، وعمله كله التلبيس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحراني... ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصر، ونونيته، وعزوه من الدلائل على أنه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بنقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أناس، وأستدل فيها بأخبار غير صحيحة على صفات الله سبحانه، وقد ذكره الذهبي في المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسيني ولا ابن فهد ولا السيوطي في عداد الحفاظ في ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارئ بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية في زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيمة لأهل العلم بالحديث، كـ«المورد الهني في شرح سير عبد الغني» للقطب الحلبي ونحوه.

ولولا محلى ابن حزم و«أحكامه» و«مصنف» ابن أبي شيبة و«تمهيد» ابن عبد البر، لما تمكن من مغالطاته وتهويلاته في «أعلام الموقعين». أنظر للمزيد بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤، ص ٥٢ – ٥٣.

طريقا ومذهبا، وحين استغاث بالفرصة كي يصدع بما وعى، أغاثه الزمان بها، فطفق يدعو لما ارتضاه دينا واحتواه عقله يقينا.

فكان بدء قيام الدعوة «السلفية الجديدة» التي اتخذت من بلاد نجد منطلقا. حيث عضد السيف القلم فانتشرت الدعوة، ولبست أفكار الشيخ الحراني حللا جديدة، ونزعت عنها أسمالها البالية، وظهرت للوجود دولة تدافع وتنافح عن أفكار الشيخ الحنبلي وتتخذها مذهبا في الدين وأساسا للشرعية السياسية.

***

محمد بن عبد الوهاب الحنبلي
من طلب العلم إلى تأسيس دولة

مولده وتحصيله العلمي:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة سنة (١٧٠٣/١٧٠٤ م)، على اختلاف في سنة مولده. وتلقى دروسه الأولى على يد أبيه قاضي العيينة، حيث أخذ عنه الفقه الحنبلي. وقد كان حسب من أرخوا له كثير المطالعة لكتب التاريخ والتفسير والحديث والعقائد، خصوصا كتب الشيخين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية.

غادر الشيخ بلاد نجد بعد زواجه متوجها إلى الحج، ليزور المدينة بعد ذلك، حيث أخذ العلم عن الشيخ عبد الله بن إبراهيم. وفي البصرة درس على الشيخ محمد المجموعي. وبدأ في نشر بعض أفكاره في التوحيد، فتجمع عليه أناس من رؤسائها وغيرهم فآذوه أشد الأذى وأخرجوه منها وقت الهجيرة ولحق شيخه منهم بعض الأذى: فلما خرج الشيخ من البصرة وتوسط في الدرب فيما بينها وبين بلد الزبير أدركه العطش وأشرف على الهلاك(١).

لكن رجلا من أهل الزبير أدركه وعطف عليه لأنه كان يرتدي زي رجال الدين فسقاه الماء وأركبه حتى وصل به إلى الزبير. أراد الشيخ مواصلة سفره إلى الشام ولكنه لم يكن يملك من الزاد ما يكفي للسفر إلى الشام لذلك عقد العزم على

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر النجدي، مكتبة الرياض الحديثة، ج ١، ص ٨.

التوجه إلى مدينة «الأحساء» ثم مدينة حريملة التابعة لنجد[1].

إستقر الشيخ محمد في حريملة وبدأ ينشر أفكاره المتعلقة بالتوحيد والشرك وتقديس الأولياء. فوقع بينه وبين أبيه مجادلات ومعارضات. ولم يكد ينتهي من تأليفه كتاب «التوحيد» حتى كان صيته قد ذاع بين القبائل والمدن النجدية. يقول ابن غنام: «إشتهر حاله في جميع بلدان العارض في.. العيينة والدرعية ومنفوحة.. وكان الناس عند ذلك حزبين وانقسموا فيه فريقين فريق أحبه وما دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه وفريق أنكر عليه[2].

إنطلاق الدعوة:

إنطلق الشيخ محمد بعد وفاة والده الشيخ عبد الوهاب يدعو لعقيدته على نطاق واسع، مما أثار تذمر بعض سكان حريملة فهموا بقتله لكنه نجا ففر هاربا إلى العيينة حيث استقبله رئيسها عثمان بن حمد بالترحاب والتكريم. فعرض الشيخ عليه»ما قام به ودعا إليه وقرر له التوحيد وحاوله على نصرته وقال: إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجدا وأعرابها[3].

---

(١) مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم. العلامة جعفر السبحاني (ص ١٣ - ١٤). يفيد «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» إن ابن عبد الوهاب توجه في رحلته وهو في السابعة والثلاثين من العمر. أمضى ست سنوات تقريبا في البصرة وخمس سنوات في بغداد وحوالي السنة في كردستان وسنتين في همدان (إيران) وفي بداية عهد نادرشاه انتقل إلى أصفهان حيث أمضى سبع سنوات. وعاش في قم ومدن إيرانية أخرى، فقضى ستة أشهر في حلب وسنة في دمشق وبعض الوقت في القدس وسنتين في القاهرة ثم وصل إلى مكة وعاد إلى نجد وأمضى سنة ونصفا أو سنتين في اليمامة. وفي سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧ / ١٧٣٨ الميلادية) استقر في العينية. وتوفي في سنة (١٢١٢ هـ- (١٧٩٧ / ١٧٩٨ م) ويؤكد مؤلف هذا الكتاب «مجهول»، إن محمد بن عبد الوهاب كان يغير اسمه طوال الوقت ففي البصرة اسمه عبد الله، وفي بغداد أحمد وفي كردستان محمد وفي همدان يوسف» أنظر تاريخ العربية السعودية، فاسيليف، ص ٧٦.

(٢) تاريخ نجد، ابن غنام حسين، ج ١ ص ٢٩ - ٣٠، بتوسط تاريخ العربية السعودية.

(٣) عنوان المجد، م س، ص ٩.

إستفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذا الدعم الكبير الذي منحه له رئيس العيينة ومن تبعه من رجالها فأمر بقطع بعض الأشجار التي كان الأهالي يعظمونها ويعتقدون ببركتها، فزاد أمره اشتهارا، جعل الشيخ يقصد ضريح قبر زيد بن الخطاب فهدم قبته بمساعدة عثمان بن حمد نفسه وستمائة من رجاله. وقد كادت الحرب أن تقع بينهم وبين أهل الجبيلة الذين أرادوا منع الشيخ وأصحابه من ذلك لكنهم تخلوا عن الدفاع عن القبة فهدمت.

كان لحادثة رجم المرأة الزانية التي قيل أنها اعترفت أمام الشيخ ابن عبد الوهاب، صدى واسعا في القرى والمدن المجاورة. مما دفع برئيس الأحساء والقطيف سليمان بن محمد الحميدي لكي يبعث برسالة إلى رئيس العينية يأمره بقتل الشيخ. وهدده بقطع خراجه إن لم يفعل. لكن عثمان بن حمد لم ينفذ أمر رئيس الأحساء واكتفى بالطلب من الشيخ أن يغادر إلى حيث شاء قائلا: «ليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا فشأنك ونفسك وخل بلادنا»[١].

وصل الشيخ ابن عبد الوهاب الدرعية بعد خروجه من العيينة، فالتقى ببعض رجالها. وقرر لهم، كما يقول «ابن بشر» التوحيد واستقر في قلوبهم، فأرادوا أن يخبروا محمد بن سعود «أمير الدرعية» ويشيروا عليه بنصرته فهابوه فأتوا إلى زوجته موضى وكانت ذات عقل ومعرفة، فأخبروها بمكان الشيخ وصفة ما يأمر به وينهي عنه. فوقر في قلبها معرفة التوحيد وقذف الله في قلبها محبة الشيخ. فلما دخل عليها زوجها محمد أخبرته بمكانه، وقالت إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله لك. فاكرمه وعظمه واغتنم نصرته[٢].

عمل أمير الدرعية بما أشارت عليه زوجته فتوجه إلى الشيخ ورحب به وأكرمه. وأمنه على نفسه وبشره بالنصرة والدفاع. يقول ابن بشر النجدي:

---

(١) نفسه، ص ١١.

(٢) عنوان المجد، م س، ص ١١.

«ثم أخبره الشيخ بما كان عليه الرسول اللهﷺ وما دعا إليه وما عليه أصحابه رضي الله عنهم من بعده وما أمروا به وما نهوا عنه، وإن كل بدعة بعدهم ضلالة. وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله وأغناهم به وجعلهم إخوانا.

ثم أخبره بما عليه أهل نجد اليوم من مخالفتهم بالشرك بالله تعالى والبدع والاختلاف والجور والظلم.

فلما تحقق محمد «يقول ابن بشر» معرفة التوحيد وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وابشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد. ولكن أريد أن أشترط عليك اثنين، نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله وفتح الله لنا ولك البلدان أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. والثانية: إن لي على الدرعية قانونا آخذه منهم في وقت الثمار وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئا. فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك. الدم بالدم والهدم بالهدم. وأما الثانية فلعل الله يفتح لك الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها[1]».

كان لاتفاق الشيخ والأمير والبيعة السياسية التي ربطت بينهما، آثارها الواقعية والعملية، تمثلت في وضع اللبنات الأولى لقيام الدولة السعودية الأولى، وانتشار النفوذ السياسي لأسرة آل سعود على جميع قرى نجد ونواحيها. في الوقت الذي كانت فيه الدعوة «الوهابية أو السلفية» تنتشر بسرعة بين فئات واسعة من أبناء نجد خاصة، يدعمها السيف في أغلب الأحيان، وتخضع لها رقاب البدو مخافة القتل أو النهب. لأن شعار الحركة الناهضة «الدم بالدم والهدم بالهدم» الذي سيتجسد على المستوى الواقعي بالجهاد في سبيل الله، جهاد عصابة مسلمة موحدة لمن حولها من القبائل المشركة والغارقة في عبادة الأولياء والقبور والأشجار والشمس وباقي الظواهر الطبيعية؟!!.

---

(١) نفسه، ص ١٢.

لقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ابنا شرعيا للمذهب الحنبلي، لكنه اختار طريق أستاذيه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. وآمن بما استجد عند هذين الشيخين من آراء وأفكار، وخصوصا مفهومهما حول التوحيد وتصورهما لقضاياه. فلم يكن الشيخ مجددا في هذا الميدان وإنما كان مقلدا، يتبع خطى أستاذه ابن تيمية لا يحيد عنها قيد أنملة. وإنما فضله ينحصر في بعض الشروحات والتفريعات، وإلباسه حللا جديدة لأفكار أستاذه القديمة وتطعيمها بحجج إضافية. فضلا عن بعثها وإحياء ما اندرس منها. والدعوة إليها بحد السيف ومحاولة جعلها ميزانا يحاكم به عقائد خصومه من أهل نجد أولا وباقي العالم الإسلامي آخر المطاف[1].

لذلك لم يجد خصومه صعوبة بادئ الأمر في الرد عليه لأن تراث الرد على أستاذه ما زال حيا محفوظا في أغلب جوانبه. فالشيخ حنبلي حشوي جديد يدعو إلى التجسيم والتشبيه، والأخذ بظواهر النصوص.

كما أن مجمل فتاوى أستاذه المتعلقة بالشفاعة وزيارة قبور الأنبياء والأولياء والدعاء عندها، لا تصح ولا يجوز إطلاقها لوجود ما يخالفها في النصوص القرآنية والحديثية. أما تكفير من يقوم بذلك أو رميه بالشرك فإن ذلك محض غلو، ركبه الشيخ وأتباعه لغزو قبائل نجد وأعرابها ونهب ممتلكاتهم وقتل رجالهم بحجة أنهم كفار حلالٌ دمهم وماهم.

---

(١) لكن الشيخ ادعى انفراده بمعرفة التوحيد دون غيره من العلماء بل زعم أن أحدا قبله لم يعرف معنى لا إله إلا الله. يقول: «فمن زعم من علماء «العارض» أنه عرف معنى «لا إله إلا الله» أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت أو زعم عن مشايخه عن أحد عرف ذلك.

فقد كذب وافترى، ولبس على الناس، ومدح نفسه بما ليس فيه، فاتقوا الله عباد الله ولا تكبروا على ربكم ولا نبيكم واحمدوه سبحانه الذي من عليكم ويسر لكم من يعرفكم بدين نبيكم «صلى الله عليه وسلم»، أنظر، السعوديون والحل الإسلامي، ص ٩٥ - ٩٦.

وبالجملة فقد وجدت أفكار الشيخ ابن تيمية أخيرا وبعد قرون طريقها نحو التطبيق الواقعي والانتشار الفعلي، بفضل إيمان وعزم تلميذه ابن عبد الوهاب، وسيف محمد بن سعود أمير الدرعية الذي اعتنق هذه الأفكار وحمل على عاتقه إيصالها إلى باقي بلدان نجد، باسم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام والتوحيد.

***

انتشار الدعوة الوهابية «السلفية»

إعلان الجهاد على المشركين:

إنطلقت دعوة الشيخ كما يقول صاحب «عنوان المجد» بين أبناء الدرعية الذين كانوا في غاية الجهل والشرك الأصغر والأكبر ورفض شرائع الإسلام.

فعلمهم الشيخ أحوال الإسلام وأركانه وعرفهم مبادئ التوحيد والبعث. كما عرفهم برسول الإسلام محمدﷺ وبالغاية التي بعث من أجلها وهي محاربة الشرك وإفراد الألوهية والربوبية لله وحده. ثم بعث رسله وكتبه إلى رؤساء البلدان وعلمائها يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك.

ولما اطمأن الشيخ لمسيرة الدعوة في الدرعية وأقبل عليه بعض المهاجرين من القبائل المجاورة وكثر عددهم،»أمر الشيخ بالجهاد وحضهم عليه فامتثلوا.

فأول جيش غزا سبع ركايب فلما ركبوها واعجلت بهم النجايب في سيرها سقطوا من أكوارها لأنهم لم يعتادوا ركوبها. فأغاروا، أظنه على بعض الأعراب، فغنموا ورجعوا سالمين[1].

أنطلق الغزو والجهاد في سبيل الله لمحاربة المشركين والكفار من أبناء القبائل وأعراب البادية من سكان نجد أولا. والذين حكم الشيخ ابن عبد الوهاب بكفرهم وأقنع أتباعه «المسلمين» بذلك. يقول الشيخ في رسالة أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد، الأولى: أن الكفار الذين قاتلهم

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤ - ١٥.

رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرزاق المدبر، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى ﴿قل من يرزقكم﴾ الآية. الثانية: أنهم يقولون ما دعونا الأصنام وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة ﴿والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، الثالثة: أنه ﷺ ظهر على قوم متفرقين في عباداتهم فبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم الأنبياء والصالحين وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر فقاتلهم ولم يفرق بينهم. الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركا من الأولين لأن أولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعو الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾[1].

ويقول في رسالة كشف الشبهات: «... إن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم، وعرفت التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور ملكا كان أو نبيا أو وليا أو شجرة أو قبرا أو جنيا، لا الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما مر وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ «السيد»»[2].

بهذا الفهم لمعاني التوحيد في القرآن وما جاءت به الآيات الخاصة بالمشركين، وما رآه وشاهده الشيخ في نجد وحولها من شعائر الاهتمام بقبور الصالحين والأولياء. انطلق يكفر معاصريه ويصفهم بأنهم أغلظ شركا من الأولين. وإذا كان محمد رسول الله ﷺ قد بعث لمحاربة مشركي قريش وغيرهم حتى رجعوا عن غيهم،

---

(١) كشف الارتياب، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٥، هناك مغالطة وتجني على الحقيقة فليس معنى (السيد) الإله، فليس في لغة العرب هذا المعنى، كما أن من يؤمن بأي «سيد» إذا سألته عنه سيقول لك «السيد» فلان ابن فلان النبي أو الولي أو العالم، وعلى هذا المفهوم درج العلماء والعامة.

فإن الشيخ ابن عبد الوهاب سيسلك طريق الرسول نفسه، إذ لما حصلت له النصرة وعضده السيف أعلن الجهاد والغزو في سبيل الله.

هل ارتد المسلمون فعلا؟:

أما الشيء المستغرب هنا والمشكل، فليس في فهم الشيخ آيات التوحيد والشرك في القرآن، وهل ينطبق ذلك على معاصريه من أبناء نجد وقبائل البدو أم لا؟ وإنما يُطرح سؤال كبير حول الإسلام بشكل عام في عصر الشيخ. أي القرن الثاني عشر الهجري.

هل كان هناك مسلمون في الجزيرة العربية وما حولها من العراق والشام ومصر وباقي الأقطار الإسلامية الأخرى؟ لأنهم لو كانوا كما وصف الشيخ «أهل نجد». فإنهم لا محالة كفار مشركون ومرتدون. فليس هناك بلدة في ديار الإسلام تخلو من مشهد أو ضريح لولي أو نبي أو صحابي يزار ويصلى عند قبره، وترفع الأيدي ضارعة بالدعاء إلى الله عنده طالبة شفاعته. وهذا معلوم بالضرورة الواقعية ومعمول به في بلاد الإسلام باستثناء القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية الذي يحكمه الآن أتباع الشيخ، لأنهم هدموا أغلب الأضرحة والقبب التي كانت منصوبة على قبور الصحابة والأولياء.

وإذن فالحكم بكفر معاصري الشيخ من المسلمين وارتدادهم وكونهم أصبحوا مشركين لا يخص بلاد نجد كما يحاول البعض أن يعلل دعوة الشيخ للجهاد، كما فعل الرسولﷺ من قبل مع مشركي مكة والقبائل العربية زمن الجاهلية.

فالناشر لكتاب «عنوان المجد» عندما يجد أن ابن بشر مؤلف الكتاب وهو وهابي سلفي يصف أهل نجد «بالجهل والضلال»، يقول محاولا تفسير ذلك:

«هذه العبارة ربما استشكلها من لم يطلع على الحال الأولى في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وما صاروا عليه بعد دعوته فكانت عبادة

غير الله والتحاكم إلى الطواغيت وإنكار ما علم من الدين بالضرورة كالبعث بعد الموت موجودة بكثرة خصوصا في البوادي»[١].

فحسب هذا الناشر فإن أهل نجد كانوا قد ارتدوا عن الإسلام فعلا، لأنهم بصريح العبارة عبدوا غير الله وأنكروا البعث. ويكفي ذلك لإعلان كفرهم وارتدادهم عن الإسلام. ولكن هذا الرأي والوصف لحال نجد خصوصا، لا نجده عند غير أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب من المؤرخين. فلم يذكر أحد ممن كتب حول أوضاع المسلمين في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر وما قبله أن الناس في نجد وما حولها قد كفروا وارتدوا عن الإسلام، اللهم إلا شرذمة من المستشرقين والرحالة الأوربيين الذين زاروا المنطقة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع العشر.

يقول: فولني: «فالبدو القاطنون على الحدود مع العثمانيين يتظاهرون بأنهم مسلمون لاعتبارات سياسية، ولكنهم ضعيفو الإيمان وتدينهم ضعيف إلى درجة يعتبرون معها كفرة ليس لديهم نبي ولا قانون. وهم بأنفسهم يعترفون بأن دين محمد فوق مستواهم. فكيف نقوم بالوضوء إذا كنا لا نمتلك ماء؟

وكيف نقدم الصدقة إذا كنا لسنا أغنياء؟ وما حاجتنا إلى الصيام في شهر رمضان إذا كنا صائمين طوال العام؟ ولماذا نذهب إلى مكة إذا كان الله موجودا في كل مكان؟»[٢].

وهذا المستشرق مع أنه يصف البدو بأنهم كفرة في الواقع إلا أنه يقول إنهم يتظاهرون بالإسلام. ونحن لا نعرف ماذا يقصد بهذا التظاهر. هل أنهم يشهدون الشهادتين ويعترفون بالإسلام دينا سماويا؟ وإن كانوا كذلك فهم لا شك مسلمون. مع أن مظاهر الاحترام لقبور الأولياء والأنبياء وشد الرحال إليها تعتبر مظهرا من مظاهر الإيمان، وهذا مما لم يذكره المستشرق ولا أشار إليه.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢.

(٢) تاريخ العربية السعودية، م س، ص ٨٥.

أما إذا رجعنا إلى النصوص الوهابية الكثيرة الواصفة للواقع الاجتماعي والديني آنذاك وخصوصا في نجد، فسنجد المؤرخ ابن غنام يقول بصريح العبارة... كان غالب الناس في زمانه - أي ابن عبد الوهاب - متضمخين بالأرجاس متلطخين بالأنجاس... فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين وخلعوا ربقة التوحيد والدين... وكثير منهم يعتقد النفع والإضرار في الجمادات كالأحجار والأشجار. ولعب بعقولهم الشيطان... وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه إلى سواه وزادوا على أهل الجاهلية[١].

ومع إيراد هذه النصوص تكون الصورة قد اتضحت، فأهل نجد كباقي مسلمي المناطق الأخرى في دار الإسلام لم يكفروا بمعنى إنهم ارتدوا عن دين الإسلام، ورفضوا رسالة النبي محمد بن عبد الله ﷺ، أو أحد الأركان المقومة للإيمان كما ذكر مؤرخو الوهابية.

وإنما كان كفرهم منطلقا من اهتمامهم بأضرحة الأولياء والصالحين واعتقادهم البركة في بعض الأماكن من أشجار وأحجار، وطلبهم الشفاعة من الأنبياء وعلى رأسهم الرسول محمد ﷺ، وباقي الأولياء من الصحابة وغيرهم. وهذا لم يكن حال نجد لوحدها وإنما هو واقع الأمة الإسلامية منذ وفاة الرسول ﷺ وإلى يوم الناس هذا. يدعم قولنا التاريخ المكتوب والسيرة العملية والواقعية للمسلمين في العالم قاطبة. ويدل على ذلك أيضا سيرة الشيخ نفسه.

فقد روى ابن بشر أن الشيخ محمد وقف يوما عند الحجرة النبوية عند أناس يدعون ويستغيثون عند حجرة النبي ﷺ فرآه محمد حياة فأتى إليه فقال الشيخ: ما تقول في هؤلاء؟ قال: «إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون»؟!.

وإذن لم يكن الحال الذي وصفه الشيخ وأتباعه من الشرك والكفر يخص بلاد

(١) نفسه، ص ٨٣.

نجد وأعرابها. وإنما الواقع الإسلامي برمته انطلاقا من مكة والمدينة. وعليه فالحكم بالكفر والشرك قد شمل الجميع. وإذا كان الخلف قد ورث ذلك عن السلف فإن الحكم واحد يشمل السلف والخلف جميعا. فهم شركاء في الإرتداد عن الإسلام والانحراف عن طريق التوحيد.

أما ما يذهب إليه مؤرخو «السلفية» وأتباع الشيخ من تهويل واقع الشرك والانحراف العقائدي الذي كان قد أصاب نجد فإنما هو لتبرير صوت السيف والدماء التي أهرقت في بلاد نجد وغيرها، والأموال التي سلبت من أصحابها بحجة أنهم كفار مشركون! فالسيف الذي أراق دماءهم هو سيف الجهاد الإسلامي، وهو نفسه السيف الذي أراق دماء مشركي العرب في الجاهلية؟!.

لقد حكم الشيخ ابن عبد الوهاب على القبائل المجاورة للدرعية بالشرك والكفر، فجهز أتباعه لغزوها وفتح بلدانها. فانطلقت حملات الجهاد في سبيل الله ونشر التوحيد وتعليم البدو أركان الإسلام[1]..

---

(١) هناك تبرير عجيب لضرورة تكفير المسلمين وقتلهم وأخذ أموالهم، أورده مؤرخ السعودية المعاصر الصحفي محمد جلال كشك في كتابه (السعوديون والحلل الإسلامي). يقول هذا المحقق المصري «هل لو علموهم أن غير «الإخوان» مسلمون وهم يعرفون، أن القاتل والمقتول في النار... أكان يقوم جيش الإخوان أو تتحرر وتقوم مملكة ابن سعود؟!». أنظر لهذا الدجل العجيب يقول بصراحة أنه لو لم يلقن البدو والإخوان إن من حولهم من المسلمين كفار أو مشركون لما انطلقوا لجهادهم وفتح بلدانهم ولو لم يفعلوا ذلك لما قامت لأسرة آل سعود مملكة ودولة. وإذن بإمكان أي أسرة أو أي مجموعة تريد أن تقيم دولة أو ملكا عضوضا في الوطن الإسلامي أن تعلن إن كل من يخالفها أو يناوئها أو لم يدخل تحت لوائها فهو كافر حلال الدم والمال. وإذن فهذا الكفر ليس كفرا عقائديا كفرا بالله ورسله وكتبه وأنما هو كفر سياسي كفر بإرادة الرجال وأهوائهم وأطماعهم وحملهم بتأسيس الدول والمملكات؟! ومن يقرأ كتاب هذا الصحفي المصري الذي قدمه هدية للأسرة المالكة في السعودية يجد دجلا وتزييفا للحقائق ومكرا تنهد منه الجبال. فالحقائق أصبحت أكاذيب وإشاعات، ولبست الأكاذيب مسوح الحقيقة والواقع، لدرجة يصعب معها معرفة الفصل بين الحقيقة والكذب. وقد استخدم هذا الصحفي المبرز كل قدراته الكتابية والتعبيرية لتغليف الحقيقة بحجب كثيفة من الضباب. والحقيقة أنه وصل إلى مبتغاه وزيادة؟!.

يوميات الغزو الوهابي:

لكن ابن بشر مؤرخ الحركة الوهابية لم يتكلم عن طرق وحجم نشر التوحيد والإسلام بين البدو أثناء الغزو الوهابي، وإنما إقتصر على ذكر غزوات «المسلمين» وهجومهم على القبائل وما حصل من القتل والنهب وقطع النخيل والتخريب. يقول مثلا: «... سار عبد العزيز رحمه الله تعالى غازيا بجميع المسلمين وقصد بلد ثادق ونازلهم وحاصرهم ووقع بينهم قتال وقطع شيئا من نخيلهم فأقام على ذلك أياما، وقتل من أهل البلد ثمانية رجال، وقتل من المسلمين ثمانية رجال»[1].

ويقول: «غزا عبد العزيز إلى الخرج فأوقع بأهل الدلم وقتل من أهلها ثمانية رجال ونهبوا بها دكاكين فيها أموال. ثم أغاروا على أهل بلد نعجان وقتلوا عودة بن علي ورجع إلى وطنه ثم بعد أيام سار عبد العزيز بجيوشه إلى بلد (ثرمدا) وقتل من أهلها أربعة رجال وأصيب من الغزو مبارك بن مزروع. ثم أن عبد العزيز كر راجعا وقصد (الدلم) و(الخرج) فقاتل أهلها وقتل من فزعهم سبعة رجال وغنم عليهم إبلا كثيرا...

غزا عبد العزيز منفوحة وأشعل في زروعها النار؟! وأخذ كثيرا من حللهم وغنم منهم إبلا كثيرا وقتل من الأعراب عشرة رجال»[2].

«فأغار عليهم وهم على جراب ماء معروف بين سدير والدهناء فاستأصل جميع أموالهم، وقتل منهم نحو الثلاثين رجلا...»؟!.

ويستمر ابن بشر في ترديده كلمات مثل: غزا رحمه الله، قتل الميلمون، غنم المسلمون وأسروا، صرموا النخيل وأحرقوا الزروع.. إلى غير ذلك!!

ولعمري إن هذا دأب الكثير من المرتزقة المحترفين لفن الكتابة في مصر والمستعدين لعمل أي شئ في سبيل المال والامتيازات المادية، وقد استفاد السلفيون كثيرا من هؤلاء، فإليهم يعزى بحق انتشار الفكر الوهابي والسلفي في الآفاق البعيدة؟!.

(١) عنوان المجد، ص ٣٤.

(٢) نفسه، ص ٤٣.

وليس هناك ما يشير على الأقل في «تاريخ ابن بشر» أن هذه الحرب كانت مقدسة، وأنها في سبيل نشر الإسلام والتوحيد. إلا بعض الإشارات النادرة جدا مثل قوله: «بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة» و«دخلوا بسبب ذلك في الطاعة والجماعة».

ولكن يفهم من سرده للأحداث بأن الجيش الوهابي كان إذا استولى على بلدة أو قرية ودخل أهلها في طاعتهم يرسل إليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب من يعلمهم التوحيد، أو رجلا من طلبته يصلي بهم الصلوات الخمس. ولكن هؤلاء «المطاوعة» أو رجال الدعوة الجديدة لم يكن مرغوبا فيهم، ولم تتعامل القبائل والقرى التي دخلت تحت طاعة الوهابيين، معهم معاملة المصلحين أو المبشرين للإسلام والتوحيد الحقيقي. بل كان ينظر إليهم بكثير من الاستهزاء والسخرية. خصوصا إذا علمنا أن تلك القرى والقبائل لم تكن تخلو من فقهاء وطلبة العلم سواء من الحنابلة أو غيرهم من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى.

لذلك نجد تلك القبائل التي خضع رجالها قسرا وخوفا على أنفسهم وأموالهم، يتحينون الفرصة لإخراج هؤلاء الدعاة من بين ظهرانيهم. وقد سجل التاريخ الوهابي طرد الكثير من أئمة الصلاة والدعاة الوهابيين من قبل القبائل بل قتلهم في بعض الأحيان. وقد كان ذلك يعتبر ارتدادا ونقضا للبيعة، فيرسل الوهابيون جيشهم لمحاربة المرتدين فيعملون فيهم السيف ويأخذون أموالهم ويهدمون بيوتهم.

والحقيقة أننا إذا أردنا أن نفهم واقع الجهاد في سبيل الله الذي أعلنه الشيخ وأتباعه على قرى نجد ونواحيها ممن ارتدوا عن الإسلام وأصبحوا كفارا ومشركين. لا بد من فهم طبيعة العلاقات القائمة بين مختلف القبائل في نجد وغيرها من المناطق الصحراوية الشاسعة في شبه الجزيرة العربية. هذه المناطق التي كان وما زال يقطنها جماعات من البدو، سواء أكانوا رحلا يبحثون عن الكلأ والمراعي. أو من استقر منهم في بعض الواحات واشتغل بالزراعة وتربية المواشي والإبل، وقد

استطاع هؤلاء تأسيس بعض القرى والمدن الصغيرة التي تحتضن ساكنة مستقرة إلى حد ما.

مفهوم الحرب والجهاد عند البدو:

يصف فاسيليف حياة البدو في الجزيرة العربية قائلا: كان البدو، في ظل انعدام السلطة المركزية القوية، يقومون بالغزوات دوما. وكانت الماشية عرضة للنهب في الغالب، ويشمل النهب أدوات بيوت الشعر والأسلحة والألبسة والعبيد. وكانت سلع التجار تسلب منهم، كما تسلب من الحضر مختلف المحاصيل والأدوات الزراعية.

وكتب بوركهاردت يقول: «إن القبائل العربية في حالة حرب دائمة تقريبا فيما بينها، ونادرا ما يحدث أن تتمتع قبيلة ما بلحظة من السلام المشترك مع سائر جيرانها. إلا أن الحرب بين قبيلتين نادرا ما تستمر طويلا، فالصلح يعقد بسهولة ولكنه يخرق لأتفه الأسباب. وإن أسلوب خوض الحرب هو أسلوب الأنصار، فالمعارك الشاملة نادرة. والهدف الرئيسي لكلا الطرفين المتحاربين هو مباغتة العدو بهجوم غير متوقع ونهب مخيمه.

وكتب فولني عن غزوات البدو يقول: «لما كان الأعرابي نهابا أكثر مما هو محارب فهو لا يسعى إلى إراقة الدماء. وإنه يهاجم فقط من أجل النهب والسلب.

ويؤكد فاسيليف بأن الغزو يعتبر عملا نبيلا جدا، وكانت الرغبة في النهب تثير دوما حماس البدو. وكانت المشاركة في الغزوات طوعية، ولكن المحاربين في الواقع، وخصوصا الشبان، ما كان بوسعهم رفضها. فالامتناع عنها ينطوي على خطر الإتهام بالجبن وتضييع الاحترام لدى الأقارب وأبناء القبيلة...

بنتيجة الغزوات يستطيع البدوي الفقير بعد غارة موفقة واحدة أن يصلح أحواله المالية بل ويمكن أن يغدو موسرا. وكانت الغزوات مصدرا لإثراء وجهاء القبائل. فإليهم يرد أكبر وأفضل جزء من الغنائم. ويتزعم الغزوات الشيوخ أو

العقداء. وتفرد للشيخ حصة حتى إذا لم يشارك في الغزوات وليس من قبيل الصدفة إن غنائم الغزوات تعتبر من أهم مداخيل وجهاء البدو[١].

هذا الوصف المجمل والشامل لعلاقة البدو فيما بينهم، يمكنه أن يسلط الضوء. ويشرح لنا طبيعة الغزوات الوهابية على باقي القرى والقبائل في بلاد نجد وما حولها. فالبدوي نهاب بطبعه، يدفعه فقره وحاجته إلى السطو المباغت على العدو «القبيلة المجاورة»، وإذا ما نجحت مهمته رجع غنيا موسرا بعدما كان يتلظى بنار الفقر، كما أن هذا الغزو يضع البدوي في مقام الحماسة والشجاعة فيسجل له بعض الافتخار والانتصارات الشخصية. وقد كان لهذه القيم سوق رائجة في عالم البداوة والترحال.

أما المآسي والمظالم التي كانت تنجم عن هذا الغز والغزو المضاد فإنها كانت تغذي وتعمق الأحقاد والكراهية بين أبناء القبائل التي سيفرض عليها آخر المطاف أن تخوض حروبا دائمة مع جيرانها، فإما النصر والتفوق وبسط الهيمنة وإما إخلاء الساحة نهائيا بأن تتعرض القبيلة إلى هجوم مباغت يأتي على الأخضر واليابس فيها فيقتل جل رجالها ويتشرد الباقي بين القبائل الأخرى.

ونحن إذا رجعنا وتتبعنا غزوات الجيش الوهابي سنجدها لا تختلف كثيرا عن غزوات البدو الذين تكلمنا عنهم ووصف المؤرخون حالتهم. بفارق واحد فقط هو إعطاء هذا الغزو والنهب صفة الجهاد في سبيل الله. أي إعطاؤه المشروعية الدينية، هذه المشروعية التي تدعمه وتقويه وتضمن استمراره.

فما كان لأهل الدرعية وأتباع الشيخ ابن عبد الوهاب مثلا أن يستمروا في غزواتهم الكثيرة لولا الخلفية الدينية الشرعية التي كان الشيخ يمدهم بها. فما يقومون به ليس غزوا بدويا ظالما، وإنما هو الجهاد في سبيل الله. لذلك أطلق الشيخ على أتباعه اسم «المسلمين» أو «الموحدين»، ووصف باقي القبائل وأعراب البادية

(١) تاريخ العربية السعودية، م س، ص ٤٧ – ٤٨.

بأنهم كفار ومشركون حلالو الدم والمال. وقد أوهم الشيخ أتباعه بأنه يشبه الرسولﷺ فقد بعثه الله لقوم يعبدون الأصنام والجن والملائكة ويتخذونهم شفعاء وآلهة. فدعاهم إلى التوحيد أولا، ثم لما تمكن من محاربتهم وهدم أصنامهم جهز الجيوش بمن معه من المؤمنين والمهاجرين وسلطهم على المشركين في غزوات متتالية. فقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم وامتلك أموالهم. ووزعها على المحاربين المسلمين.

وهذا بالفعل ما قام به الشيخ وأقنع أتباعه بصحة المقارنة فانطلقت الفتوحات الإسلامية من جديد ليس من المدينة المنورة هذه المرة ولكن من الدرعية في بلاد نجد قرن الشيطان كما وصفها الحديث النبوي الشريف وبلد مسيلمة الكذاب.

لكن واقع هذه الغزوات وكما صوره لنا مؤرخو الوهابية أنفسهم، لا يترك مجالا للمقارنة بين غزوات الرسولﷺ وبين غزوات الشيخ الحنبلي وأتباعه من أعراب نجد. نرجع لاستنطاق النصوص لمعرفة حقيقة هذا الادعاء.

حقيقة الجهاد الوهابي:

ونبدأ أولا ببعض الوقائع الحربية في فجر الدعوة لنعرف حقيقة هذا الجهاد في سبيل الله وهل يمكن مقارنته بجهاد الرسول وصحابته في فجر الإسلام!؟.

يقول ابن بشر: سار عبد العزيز غازيا بالمسلمين وقصد ناحية الجنوب فأغار على بوادي آل مرة وأخذ عليهم إبلا كثيرة فتكاثرت عليهم أفزاع البوادي فرسانا وركبانا وصارت هزيمة على المسلمين[1]. وهذا النص كما لا يلاحظ القارئ ليس فيه إشارة أبدأ إلى ما يفيد أن الغزو كان في سبيل الله ومن أجل الدعوة إلى التوحيد لأن الأمير أغار على البوادي وأخذ إبلهم فاجتمع أصحاب المال ومن أنجدهم فاستخلصوا منه أموالهم وانهزم «المسلمون». ولم يقل المؤرخ أنه بعث لهم

(١) عنوان المجد، ص ٦٦.

من يبشرهم بالعقيدة الصحيحة وأنهم أبوا وأعلنوا الحرب على «المسلمين» فقام هؤلاء بالدفاع عن أنفسهم كما كان الرسولﷺ وصحابته يفعلون.

لقد دامت الحرب التي شنها الوهابيون على مدينة الرياض قرابة سبعة وعشرين عاما، كان الجيش الوهابي يهاجم هذه المدينة ويحاصرها ويهدم أسوارها ويقطع نخيلها ويحرق زروعها ويقتل كل من يوجد خارج أسوارها ساعة الغزو. لكن هذه المدينة صمدت بصمود رئيسها دهام بن دواس، وكان الغرض من هجوم الوهابيين هو السيطرة على هذه المدينة التي تقرب من الدرعية ليس إلا. فلا توجد نصوص تاريخية أخرى تفند رأينا هذا. ويثبت من خلالها الدعوة الدينية أو إرسال المبشرين إلى هذه المدينة لدعوتهم إلى التوحيد والإسلام. وإنما انطلقت الحروب والغزوات بغتة لكنها تميزت بإصرار منقطع النظير من طرف أمير الدرعية لامتلاك هذه المدينة مهما كلف ذلك من خسائر أو مظالم.

أنظر ما يقول ابن بشر في تاريخه يصف سيطرة الوهابيين أخيرا على الرياض وكيف تمت. لما سمع دهام بن دواس رئيس الرياض بقدوم عبد العزيز والجيش الوهابي غازيا الرياض للمرة الأخيرة، جمع عياله وأهله وقرر الهروب من المدينة وقبل أن يغادرها طلع على الناس من قصره وخاطبهم قائلا: «يا أهل الرياض إن هناك لي مدة سنين أحارب ابن سعود والآن سئمت من الحرب وتركتها له. فمن أراد أن يتبعني فليفعل وإلا فليجلس مكانه في البلد.

ففر أهل الرياض في ساقته الرجال والنساء والأطفال لا يلوي أحد على أحد، هربوا على وجوههم إلى البرية في السهباء قاصدين «الخرج» وذلك في فصل الصيف، فهلك منهم خلق كثير جوعا وعطشا.

ذكر لي «يقول ابن بشر» إن الرجل من أهل الرياض يأخذ العرب ويجعل فيه ماء ويحمله على ظهره والعرب لا يمسك ماء والإبل عنده ولا يركبها وتركوها خاوية على عروشها الطعام واللحم في قدوره والسواني واقفة في المناحي وأبواب

المنازل لم تغلق. وفي البلد من الأموال ما لا يحصى، فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلا فساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون. ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطا يحفظون ما فيها. وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والطعام والأمتاع وغير ذلك وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلا[1].

هذا نموذج آخر يصف أسلوب سيطرة «جيوش المسلمين» الوهابيين على المدن والقرى في نجد وكيف كانوا يدعون إلى التوحيد والإسلام في مدن خاوية على عروشها هرب منها أهلها خوفا من بطش «المسلمين» فابتلعتهم الصحراء وقتلهم العطش والجوع، لكنهم مع ذلك لم يسلم متأخرهم من سيف الغزاة؟!.

إذا كان هذا هو الجهاد في سبيل الله فليقدم لنا الوهابيون دليلا واحدا ولو من مصدر ضعيف على أن الرسولﷺ قام بمثل ذلك في غزواته. وإن كانﷺ نبيا ورسولا مبعوثا بالحقيقة ويحارب الكفار والمشركين حقيقة وليس ظنا، وقد كانوا بدؤوه بالحرب وقتلوا أصحابه.

وهو وإن كان قد حاربته مكة طويلا ووقفت في وجه دعوته فإنه لما فتحها لم يهرب أصحابها منها وهم أعداؤه وأعداء الوحي، ولم يعمل فيهم السيف بل قال قولته الشهيرة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، بل جيش منهم كثيرا وغزا بهم مباشرة وفيهم من لم يؤمن بدعوته بعد.

هذا من جهة ومن جهة أخرى بماذا يفسر هروب أهل الرياض قاطبة، النساء والأطفال حتى أدركهم الموت جوعا وعطشا في البرية؟ لو كان الغزو في سبيل الله لبعث «المسلمون الجدد» من يؤمن الناس على أرواحهم ويدعوهم للإسلام والتوحيد. لكن الحقيقة أن أهل الرياض كانوا يعرفون شراسة الجيش الوهابي ووحشيته، ولا شك أن أخبار غزواتهم كانت تصلهم أولا بأول، كما خبروهم مباشرة في حرب دامت سبعة وعشرين عاما.

---

(١) عنوان المجد، ص ٦٠ – ٦١.

فالرعب والخوف هو الذي أخرج سكان الرياض عن بكرة أبيهم وتركوا متاعهم للغزاة.

ونحن هنا نتسائل واضعين علامة استفهام كبيرة. حول قول المؤرخ «فساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون»؟ هل القانون الإسلامي في الحرب يبيح قتل الهارب وتتبعه خصوصا إذا كانوا من الأطفال والنساء. هذا إذا سلمنا بأن أهل الرياض كانوا كفارا مرتدين ومشركين وهذا ما رفضه علماء أهل السنة قاطبة ولم يعترفوا به.

وأين هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عالم السلف ومجدد الدين، هل كان يفتي بقتل الهارب من الحرب، الأطفال والنساء، وقطع الأشجار وحرق الزروع؟!.

لقد تميزت الحروب الوهابية بالشراسة والدموية ولم تكن تحترم فيها لا القوانين الإسلامية المتعارف عليها، ولا غيرها من الأعراف الإنسانية. فليس هناك سوى الخضوع الفوري للغزاة وإما القتل والنهب والسلب وإذا كانت بعض القرى والقبائل استسلمت بسرعة وبخسائر قليلة فإنما يرجع ذلك إلى الرعب الذي كان ينشره «المسلمون الوهابيون» أثناء غزواتهم.

مثال ذلك، إنهم كانوا يباغتون القرى والمدن في الصباح الباكر ويقومون بإطلاق الرصاص دفعة واحدة باتجاه القرية أو المدينة مما يحدث دويا هائلا يرتج معه الوضع داخل القرية المحاصرة فيسود الخوف وتسقط الحوامل حملها.

يقول ابن بشر: أتوا بلاد حرمة في الليل وهم هاجعون... فلما انفجر الصبح أمر عبد الله على صاحب بندق يثورها، فثوروا البنادق دفعة واحدة فارتجت البلد بأهلها وسقط بعض الحوامل، ففزعوا وإذا البلاد قد ضبطت عليهم وليس لهم قدرة ولا مخرج[١].

(١) نفسه، ص ٦٧.

وهذه الطريقة في إرهاب سكان المدن والقرى لم تكن نادرة حتى يقال إنما هي بعض من أخطاء الغزو والفتوحات. ولكنه الأسلوب المفضل الذي سلكه رجال الغزو الجديد. وتاريخ غزوات الرسول يبرأ من هكذا غزو. اللهم إلا ما وقع في غزوات بني أمية مثل هجومهم على المدينة المنورة واستباحتها قتلا ونهبا وهتكا لأعراض النساء حتى ولدت بنات الصحابة والتابعين من الزنا، فيما سمي بوقعة الحرة. أو غزو معاوية بن أبي سفيان بعض المناطق الإسلامية عندما رفض بيعة الخليفة الشرعي، فقتل جنوده المسلمين الأبرياء وذبحوا الأطفال في حجور أمهاتهم ونهبوا وسلبوا.

ولكن الفرق بين بني أمية والجيش الوهابي أن بني أمية كانوا يفعلون ذلك في سبيل الملك والإمارة، فكانوا لا يتورعون عن ارتكاب المجازر والفظائع بحق العرب والمسلمين في سبيل هدفهم. وكانوا يعلنون ذلك صراحة، فلما دخل معاوية بن أبي سفيان العراق خاطب أهلها قائلا: «إنما حاربتكم لأتأمر عليكم». وإذن فهي الحرب السياسية لتحصيل الملك والحكم واستعباد الجماهير العريضة المستضعفة.

أما الوهابيون فكانوا يدعون أن حربهم في سبيل الله ومن أجل الدعوة للتوحيد والإسلام. لكن سيرتهم في الحرب وواقع فتوحاتهم يكذب هذا المدعى، فالإسلام وشرائعه في الجهاد لا تقبل أبدا أسلوب هؤلاء الغزاة. ولا يمكن أن يتحمل الإسلام مظالمهم للناس والخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات التي ألحقوها بمجموع القبائل في نجد أولا وأطراف العراق والشام وشمال اليمن ثانيا.

هذه الحرب ليست مقدسة:

إنطلاقا من الحقائق التي ذكرها الباحثون والرحالة حول طبيعة البدوي وأنه طماح للسلب والنهب سواء انطلق من شريعة أو دفعت به الحاجة والفاقة وحب الغنى إلى الهجوم على غيره من الغرباء والأعداء. والمقارنة بين حروب البدو قبل إعلان محمد بن عبد الوهاب دعوته وحروب أتباعه مع خصومهم من البدو بعد

ذلك، يمكن أن نسجل مماثلة تامة في الأسلوب والنتائج. اللهم إلا دخول العنصر الديني وإقحامه في هذه الحرب الظالمة لتبريرها وإلباسها ثوب المشروعية لضمان استمراريتها. والتغطية على أنهار الدماء التي تراق أثناء ذلك.

وعليه يمكننا أن نجزم بكل صراحة واطمئنان تعضدنا وقائع الغزو الوهابي ويومياته. بأن الحرب الوهابية التي أعلنها ابن عبد الوهاب وأتباعه على قبائل نجد وقراها لم تكن حربا مقدسة وفي سبيل الله، لنشر التوحيد والإسلام بين المشركين والكفار. وإنما كانت حربا بدوية على شاكلة الحروب البدوية السابقة، أولا، ثم أخذت بعدا جديا بفضل أيديلوجية الشيخ الخاصة بالشرك والارتداد، ومحاولة نشر الإسلام من جديد. لتوضع في خدمة تأسيس دولة سياسية جديدة تطمح للسيطرة على مجمل أراضي شبه الجزيرة العربية.

وإلا فلم يحدثنا التاريخ الإسلامي أن الرسول ﷺ وصحابته كانوا يهجمون على القرى والمدن، يقتلون الناس ويغنمون إبل القوم ومواشيهم ويحرقوا زروعهم ويقطعوا نخيلهم ثم يرجعوا من حيث أتوا لتقسيم الغنائم، الخمس منها لبيت المال، ويقسم الباقي للراجل سهم وللفارس سهمين. دون أن يكون للدعوة ونشر الإسلام أي مكان في هذا الغزو والفتح. نستحضر بعض الوقائع التاريخية للغزو الوهابي ليتضح لنا انعدام الحس الدعوي أو الديني في هذه الغزوات.

يقول ابن بشر: «في رمضان صار سعود بن عبد العزيز بالجنود المنصورة من جميع نواحي نجد وبواديها وقصد الشمال وأغار على سوق الشيوخ وقتل منهم قتلى كثيرة وانهزم منهم أناس وغرقوا في الشط»؟!.

الهجوم على كربلاء ونهب ضريح الإمام الحسين عليه السلام:

يقول: ثم دخلت (سنة ١٢١٦ هـ) وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين. وذلك في ذي القعدة

فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت. وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبة وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد. واليواقيت والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل. ثم إن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض فجمع الغنائم وعزل أخماسها وقسم باقيها في المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان ثم ارتحل قافلا إلى وطنه[1].

---

(١) عنوان المجد، ص ١٢١ – ١٢٢. ويقول الدكتور همايون همتي: «وفي داخل المدينة ارتكبوا الكثير من الأعمال الوحشية من تدمير ونهب وفساد، فكانوا يقتلون كل من يصادفهم من دون أية رحمة ولا شفقة، ونهبوا جميع الدور. لم يغامرهم في هذه المذبحة أي عطف على الشيخ والشاب والصغير والكبير والمرأة والرجل، بحيث لم ينج أحد من قسوتهم البربرية»، أنظر، الوهابية نقد وتحليل، ص ١٤٨.

يقول الباحث رايمون في تقرير له حول فاجعة كربلاء: «رأينا مؤخرا في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الإمام الحسين مثالا مرعبا على قساوة تعصب الوهابيين. فمن المعروف أنه تجمعت في هذه المدينة ثروات لا تعد ولا تحصى وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي، لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا من الفضة والذهب والأحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة... وحتى تيمورلنك صفح عن هذه الحضرة، وكان الجميع يعرفون إن نادر شاه قد نقل إلى ضريح الإمام الحسين وضريح الإمام علي قسما كبيرا من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدم معه ثروته الشخصية وهاهي الثروات الهائلة التي تجمعت في الضريح الأول تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمد طويل.

فقد كانوا دوما يحلمون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجاحهم لدرجة أن دائنيهم حددوا موعد تسديد الديون في ذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه أحلامهم. وها قد حل هذا اليوم في الأخير وهو (٢٠ نيسان – أبريل ١٨٠٢ م) فقد هجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الإمام الحسين وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات تركوا ما تبقى للنار والسيف. وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعا بسيوف هؤلاء البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء أنهارا.. وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك أكثر من أربعة آلاف شخص...

وكتب السيد محسن الأمين عن وقعة الحاج اليماني يقول في هذه السنة (١٣٤١ هـ). إلتقى الوهابيون بالحاج اليماني وهو أعزل من السلاح وجميع آلات الدفاع وهم في الطريق وأعطوهم الأمان ثم غدروا بهم فلما وصلوا إلى سفح جبل مشى الوهابيون في سفح الجبل واليمانيون تحتهم فعطفوا على اليمانيين وأطلقوا عليهم الرصاص حتى قتلوهم عن بكرة أبيهم وكانوا ألف إنسان ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال[1].

وطبعا غنموا واستولوا على ما كان عندهم وقسموه بينهم للراجل سهم وللفارس سهمان. وهؤلاء الذين قُتلوا لم يكن لهم ذنب سوى حج البيت امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى؟!

الجيش الوهابي يقتل سدنة الكعبة:

وفي سنة (١٣٤٢هـ) غزا الجيش الوهابي الحجاز والطائف التي: «دخلوها عنوة واعملوا في أهلها السيف فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى قتلوا منها ما يقرب من ألفين بينهم العلماء والصلحاء وأعملوا فها النهب وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر له الأبدان وتتفطر له القلوب نظير ما فعلوه في المرة الأولى. وممن قتلوا من المعروفين الشيخ عبد الله الزواوي مفتي الشافعية بصورة فظيعة وقتلوا جملة بني شيبة سدنة الكعبة المكرمة كانوا مصطافين في الطائف وجاءت الأخبار بارتكابهم فظائع لا يليق ذكرها و«توجهوا إلى بندر الحديدة ونازلوا أهلها فأخذوها عنوة واستولوا على غالب البلد، وكان أهلها قد بلغهم مسير تلك الجنود فحملوا خفيف

ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من أربعة آلاف جمل.

وبعد النهب والقتل دمروا كذلك ضريح الإمام وحولوه إلى كومة من الأقذار والدماء.

وحطموا خصوصا المنابر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب، أنظر أرشيف السياسة الخارجية لروسيا (١٨٠٣ الإضبارة ٢٢٣٥ ص ٣٨ - ٤٠) نقلا عن تاريخ العربية السعودية، لفاسيليف، ص ١١٦ - ١١٧.

(١) كشف الارتياب، ص ٥٣ - ٥٤.

أموالهم في السفن وركب فيها أكثر الرجال فأخذ طامي ومن معه ما وجدوا فيها من المال والمتاع ودمروها وقتلوا من أهلها قتلى كثيرة وقبض عمال سعود أخماس الغنائم وساروا بها إلى الدرعية[١].

وعلى نفس المنوال استمرت الغزوات والفتوح في أطراف العراق والشام وداخل الجزيرة العربية، يقوم الجيش الوهابي بالهجوم بغتة فيقتل الرجال ويسلب المواشي والإبل والخيول وجميع الأموال التي يهرب عنها أصحابها.

أما النخيل فقد كان مصيره القطع والتصريم وقد صرموا في إحدى غزواتهم ألف نخلة.

ولما حاصروا الأحساء تركوا إبلهم وخيولهم تعيث فسادا في الزروع والنخيل وقطفوا الغلال وحملوها معهم وهذا بشهادة مؤرخهم ابن بشر. وفي بعض الأحيان كانوا يهجمون بغتة فينهبون ما جاؤوا من أجله، أي المواشي والإبل ثم يفروا هاربين إلى ديارهم، فيجتمع أصحاب المال وتنجدهم البوادي القريبة فيلحقون الجيش الوهابي ويستردون أموالهم كما وقع مع عرب الفرع من قبيلة حرب سنة ١٣٤٠هـ.

إذن أين هو صدى الدعوة إلى الإسلام والتوحيد في قتل سكان كربلاء واستباحة أموالهم ثم الخروج بها هربا إلى الدرعية واقتسامها كمغانم؟ في الوقت الذي يكتب فيه الشيخ أحمد الكرمانشاهي الذي عاصر هذه الحملة وأرخ لها قائلا: «وعند الزوال عادوا إلى الدرعية من دون سبب ظاهر».

وإذن كانت غزوات الأعراب والبدو من أجل النهب والسلب ليس إلا. ولم نسمع شيئا عن التبشير للعقيدة الجديدة في البصرة وبلد الزبير[٢]، حيث قتل

---

(١) نفسه، ص ٥٥.

(٢) يقول ابن بشر يصف هجمة الوهابيين على بلد الزبير: «وانزعج أهل الزبير انزعاجا عظيما وصعد النساء في رؤوس السطوح ووقع فيها الضجيج، وأسقط بعض الحوامل، فأقام محاصرهم نحو اثني عشرة

الأبرياء في مساكنهم وسرقت مواشيهم وإبلهم وقطعت أشجارهم؟ وأين هي الدعوة لمذهب السلف الخالي من البدع والشرك عند أطراف الشام حيث كانت الحوامل تسقط حملها من الهول والرعب. وهل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك تعني قتل ألف حاج من اليمن وتخريب الطائف ونقل أموالها ومتاع أهلها خارجا وإرساله إلى الدرعية.

نعم قد يكون للدعوة واقع عملي نقله مؤرخو الغزوات الوهابية بشكل عرضي وهم يتكلمون عن نشاط الشيخ ابن عبد الوهاب الذي لم يشارك في هذه الغزوات وإنما كان مرابطا في الدرعية يدرس الطلبة في المسجد ويلقنهم مبادئ التوحيد الجديد.

هذا المشهد الذي لا يمكن أن يتكرر في غير الدرعية مقر المهاجرين وطلبة العلم والمجاهدين.

إن العمل الوحيد الذي كان يواكب عمليات السلب والقتل والنهب المنظم من طرف الجيش الوهابي والذي يمكن أن يعطيه صبغة دينية تمثل في هدم الأضرحة والقباب والقبور المبنية وتخريب بعض المزارات والمشاهد التاريخية، الشئ الذي جعل المراقبين الأوربيين الذين كانوا يتابعون الوضع عن كثب داخل الجزيرة العربية يصفونهم بـ«هادمي المعابد». فكانوا إذا تمكنوا من بلدة أو قرية أخذوا ممتلكات أصحابها وقتلوا من يقف أمامهم أو يبدي دفاعا أو معارضة ثم يميلوا على المشاهد والأضرحة إذا وجدت فيهدمونها.

يمكن أن نستثني مكة والمدينة حيث لم يعملوا في أهلهما السيف كما فعلوه مع باقي القرى والمدن وذلك للاعتبارات الواقعية لهاتين المدينتين المقدستين. دون أن يعني ذلك أنهم لم يسفكوا الدم الحرام، بل بالعكس فقد قتل خلق كثير حول هاتين

يوما. حصد جميع زروعهم ورجع قافلا إلى وطنه. ثم سار إلى البصرة ونزل عندها المسلمون على جنوبها ونهبوا فيه وقتلوا قتلى». أنظر عنوان المجد، ص ١٣٢ و ص ١٤٢.

المدينتين، ولما حاصر الوهابيون مكة وطال حصارهم عدمت الأقوات بالكلية وأكل الناس الأدوية كبزر الخشخاش وزبيب الهوى والصمغ والنوى وبزر الحمر وشربوا الدم وأكلوا الجلود والسنانير والكلاب وكل حيوان[١]. ولما استطاعوا أخيرا دخول مكة هدموا كل الأضرحة والقباب والمعالم التاريخية التي كان المسلمون قد حافظوا عليها منذ قرون.

أما الأعمال الدينية الجليلة التي قام بها الأمير السعودي، لما دخل مكة فهي جمعه الناس وتعليمهم أركان الإسلام ومبادئه وتعليمهم الصلاة والزكاة. وأخبرهم بأن الخمر والزنا حرام كما شرح لهم التوحيد وأظهر لهم معالم الشرك ليجتنبوها[٢]؟!!.

أما في المدينة المنورة فإنهم لم يستطيعوا هدم قبر الرسول ﷺ وإن كانوا على وشك أن يفعلوا لكن نهضة العالم الإسلامي أخافتهم فأحجموا واكتفوا بسرقة

---

(١) نفسه، ص ٢٨، ويؤكد ابن بشر ذلك فيقول: «بيع فيها لحوم الحمير والجيف بأغلى ثمن. وأكلت الكلاب وبلغ رطل الدهن ريالين ومات خلق كثير عندهم جوعان»، أ نظر عنوان المجد، ص ١٣٥.

(٢) «لما دخل الأمير السعودي مكة وجمع أهلها خطب فيهم طويلا ومن جملة كلامه:
«أحمدوا الله الذي هداكم للإسلام وأنقذكم من الشرك وأنا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله وتوالون من والاه وتعادون من عاداه في السراء والضراء والسمع والطاعة ثم جلس فبايعه الشريف عبد المعين ثم المفتي ثم القاضي ثم بقية الناس على طبقاتهم. ثم قال انتظروني بعد صلاة العصر بين الركن والمقام لأبين لكم الدين وشرائط الإسلام ثم انصرف.
فلما كان العصر اجتمعوا فصعد على ظهر زمزم ومعه المفتي فجعل يعلمه وهو يعلم الناس ويقول: إعلموا أيها الناس أن الأمير سعودا يقول لكم إن الخمر والزنا حرام (إلى آخر ما قال) مما لا يجهله أحد ثم قال لهم في غد اهدموا القبب والأصنام حتى لا يكون لكم معبود غير الله» أنظر المرجع السابق.
لا أدري كيف يمكن فهم هذه المهزلة. في مكة القاضي والمفتي ويحج إليها آلاف المسلمين سنويا لأداء فريضة الحج وفيهم علماء أهل السنة وفقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى والأمير السعودي القادم من نجد أرض البداوة والجهل يعلمهم أركان الإسلام ومبادئ التوحيد ويأمرهم بحمد الله لأنه أنقذهم من الشرك بفضل هذا الأمير؟!.

مقتنيات الحجرة النبوية من جواهر وهدايا ثمينة وأموال، كل ذلك غنمه «المسلمون» من أيدي الكفار والمشركين في مدينة رسول الله ﷺ.

والذي يطلع على ما كتبه مؤرخهم ابن بشر كوثيقة وشهادة حفظها التاريخ، سيجد أن: مجموعة من البدو يتزعمهم فقيه حنبلي - حكم على باقي المسلمين بالكفر والارتداد وأباح دماءهم وأموالهم - قد انطلقوا من نجد يجوبون القرى والمدن الآمنة في غزوات شرسة يقتلون الرجال والنساء والأطفال ويستحوذون على الممتلكات ويخربون المعالم المدنية، تحت شعار الجهاد في سبيل الله. ثم يرجعون من حيث أتوا يتقاسمون المغانم والأسلاب.

وقد ترك لنا ابن بشر تصويرا رائعا لحال الدرعية قبل بداية الغزو وبعده وكيف تحولت حال الفاتحين الجدد ومدينتهم من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش.

«كانوا في أضيق عيش وأشد حاجة وابتلوا ابتلاء شديدا فكانوا في الليل يأخذون الأجرة ويحترفون، وفي النهار يجلسون عند الشيخ في درس الحديث والمذاكرة، وأهل الدرعية يومئذ في غاية الضعف وضيق المؤنة.

ولقد رأيت الدرعية بعد ذلك في زمن سعود رحمه الله تعالى وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المحلى بالذهب والفضة الذي لا يوجد مثله والخيل الجياد والنجايب العمانيات والملابس الفاخرة وغير ذلك من الرفاهيات ما يعجز عن عده اللسان ويكل عن حصره الجنان والبنان، ولقد نظرت إلى موسمها يوما في مكان مرتفع وهو في الموضع المعروف بالباطن، بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود المعروفة بالطريق ومنازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ.

ورأيت موسم الرجال في جانب وموسم النساء في جانب. ومُوسم اللحم في جانب وما بين ذلك من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام والبيع والشراء

والأخذ والإعطاء وغير ذلك وهو مد البصر[١].

وإذن فقد كان فاسيليف محقا في وصفه عندما كتب يقول: «كانت حملات الوهابيين تحت راية تجديد الدين تستهدف تحقيق مهمات دنيوية بحتة تتلخص في زيادة ثروات حكام الدرعية ووجهاء الجزيرة المرتبطين بها (وجهاء نجد بالدرجة الأولى). ويدل ما كتبه مؤرخو الجزيرة والرحالة الأوربيون على أن الغزو ظل هو الطريق الرئيسي لحصول الوجهاء والأعيان على الثروة. وكتب المؤرخ الوهابي ابن بشر يقول، بعد أن عدد الضرائب التي وردت إلى الدرعية: «وما ينقل إليها من الأخماس والغنائم أضعاف ذلك».

كانت غزوات الوهابيين الأولى تنتهي بالاستيلاء على بضع عشرات من الإبل والأغنام ونهب الحقول أو بساتين النخيل. أما في سنوات أوج قوتهم فقد كانت غنائمهم تبلغ عشرات الآلاف من رؤوس الماشية المنهوبة.

وفي عام ١٧٩٦ م بعد دحر قوات شريف مكة وقع في أيدي الوهابيين (٣٠ ألف من الإبل و٢٠٠ ألف من الأغنام والماعز). ويقول ابن بشر أنه عندما تم في عام (١٧٩٠ - ١٧٩١) دحر قبائل مطير وشمر حصل الوهابيون على «غنائم كثيرة من الإبل والغنم والأثاث والأمتعة». وسرعان ما تعرض سائر البدو لمثل هذا المصير. فقد كان الوهابيون يطاردونهم يومين أو ثلاثة «ويأخذون منهم الأموال ويقتلون الرجال». إن المصنفات التاريخية العربية غاصة بوقائع من هذا النوع كما يقول فاسيليف.

وكما هو حال الغزوات البدوية كان النهب الوهابي يسفر عن تجريد القبائل المستضعفة ليس فقط من المنتوج الزائد بل وكذلك من قسم كبير من المنتوج الضروري، وغالبا ما يحكم على السواد الأعظم من السكان المنهوبين بالموت جوعا[٢].

---

(١) عنوان المجد، ص ١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤ - ١٣٥.

ستكثر إذن المغانم والأسلاب، كل ذلك على حساب الآلاف من المستضعفين والمظلومين فمنهم من قتل ومنهم من أصبح فقيرا معدما، لا يجد ما يقتات به، والكثير منهم فقد أبناءه وأسرته. وللقارئ أن يتصور حجم المأساة والظلم الذي حاق بسكان البوادي والقرى ومدن الجزيرة العربية في غفلة من سلطة مركزية قوية داخل الجزيرة لضعف أمراء الحجاز ومكة عن الوقوف أما الاجتياح البدوي الوهابي أو تحجيمه. في الوقت نفسه الذي كانت فيه الإستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية تعيش في ليل دامس من المؤمرات والخلافات السياسية. وفي محاولة لمعالجة الهجوم الأوربي الذي بدأ يلتهم أطراف الإمبراطورية ويخطط لاقتسام تركة الرجل المريض.

حكم قتال المشركين في الإسلام:

بقي أن نذكر ملاحظة هامة جدا بخصوص الغزوات الوهابية وفتحهم البلدان والقرى. هذه الملاحظة تخص حكم قتال المشركين والكفار، فمن المعلوم أن المسلمين الأوائل كانوا في فتوحاتهم وحربهم ضد الكفار والمشركين يقتلون المحاربين من الرجال ويسبون الذرية والنساء بالإضافة إلى اغتنام الأموال بكل أصنافها. والجيش الوهابي لا شك أنه انطلق في هجومه وفتوحاته من أن خصومه كفار مشركون لذلك أباح دماءهم وأموالهم، فكان الوهابيون يقتلون رجال البوادي والقرى ويغنمون أموالهم. ولكن ما بال النساء «الحريم» والأطفال وكيف كان الغزاة الجدد يتعاملون معهم؟!.

سبي النساء والأطفال:

من خلال كتاب «عنوان المجد» الذي أرخ لغزواتهم لا توجد أي فكرة حول هذا الموضوع إلا النزر القليل عندما يذكر المؤلف فرار القبائل من مساكنهم وأن الأطفال والنساء كانوا يهيمون على أنفسهم في البرية فكان الكثير منهم يلقى حتفه. بالإضافة إلى وصفه حالة النساء من الرعب والهول وأن بعضهن يسقطن

حملهن أثناء الغزو والمباغتة. لذلك لا بد من طرح السؤال التالي؟.

هل كان الجيش الوهابي يسبي النساء والأطفال؟!.

يقول السيد محسن الأمين: «أما سبي ذراري المسلمين فهو مقتضى قواعد المذهب الوهابي الذي أساسه ومبناه ومحوره الذي يدور عليه، التسوية بين عبدة الأصنام وبين المسلمين في الإشراك بالعبادة. وقد صرح الصنعاني في تطهير الاعتقاد في عدة مواضع بما يدل على ذلك حيث قال: ومن فعل ذلك (أي الاستغاثة وما يجري مجراها) لمخلوق فهذا شرك في العبادة وصار من تفعل له هذه الأمور إلها لعابديه وصار الفاعل عابدا لذلك المخلوق وإن أقر بالله وعبده فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك وعن وجوب سفك دماءهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم. وقال في موضع آخر فمن رجع وأقر، حقن عليه دمه وماله وذراريه ومن أصر فقد أباح الله منه ما أباح لرسول اللهﷺ من المشركين.

وحكى الجبرتي في تاريخه في حوادث (سنة ١٢١٧ هـ). أنهم أي الوهابية لما دخلوا الطائف قتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال. قال: وهذا دأبهم مع من يحاربهم.

وعن كتاب التوضيح لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب أنه قال: وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأن يتخذوهم عبيدا[1]. وإذن فمقتضى المذهب الوهابي، أن حكم إباحة دماء الرجال يتبعه إباحة سبي النساء والأطفال واتخاذهم عبيدا لأنهن نساء المشركين وذراريهم. فما دام الحكم قد صدر بكفر القبائل وشركهم وتحركت الجيوش لغزوهم، فلا بد من إمضاء الحكم الإسلامي فيهم كاملا.

إلا إذا كان هناك إستثناء مثلا كون النساء «الحريم» والأطفال ليسوا مشركين. وهذا لم يقل به منظرو الوهابية أو السلفية الأوائل. طبعا نقل عن بعضهم أنهم لا يرون سبي النساء والصبيان. وهذا تناقض ومن أغرب الأحكام في

---

(١) كشف الارتياب، ص ١٤١ - ١٤٢.

اجتهادات البدو، فالرجال كفار مشركون دمهم حلال، وأموالهم حلال جائزة الأخذ كغنائم الجهاد. ولكن الأطفال والنساء لا يشملهم هذا الحكم. ولست أدري أين كان يذهب أطفال والنساء المئات من الرجال الذين قتلوا في الغزوات وخصوصا تلك الغزوات التي قتل فيها معظم الرجال «المشركون»؟! هل كان الوهابيون يتركونهم في العراء لا يمسونهم بسوء فكانوا يجدون طريقهم إلى القرى المجاورة خصوصا إذا أفلحوا في الوصول إليها ولم يموتوا جوعا وعطشا؟! أم أن الجيش الوهابي كان يسوقهم إلى الدرعية ويخلي سبيلهم؟! أم ترى ماذا كان يفعل بهم؟!.

كما قلت سابقا الأخبار عن وضع «الحريم» والأطفال خلال فترة الجهاد الوهابي غير متوفرة وأكاد أشك وتنتابني الريبة في صحة الكتب الوهابية التي أرخت لهذه الغزوات، كـ«عنوان المجد». فليس هناك أي مانع من تنقيته وتنظيفه من جميع الأخبار المتعلقة «بالحريم» والأسباب كثيرة جدا لدى المؤرخين وخلف المؤرخين وخلف الوهابية سواء رجال الدين أو السياسيين.

فلا شك أن موضوع «الحريم» يعتبر حساسا جدا لدى المسلمين قاطبة والبدو بشكل خاص، لذلك كان التكتم على أخباره من الضرورات المهمة.

وإلا هل يعقل أن يخوض الجيش الوهابي مئات الغزات ويقتل آلاف الرجال دون أن يتعرض للنساء والأطفال، هذا الجيش الذي كان يعتقد بأن أعداءه مشركون وكفار كل شئ لديهم حلال الأرواح والأموال؟! إلا إذا كان أفراد هذا الجيش قد بلغوا من الورع والتقوى مبلغا كبيرا، بالإضافة إلى معرفتهم بحكم الحرمة وعدم جواز التعرض للنساء والأطفال. وهذا لا نملك الجرأة لتأييده، لأن غالبية الجيس الوهابي الفاتح كانت متكونة من الأعراب وبدوان نجد، من هم أبعد الناس عن الحضارة والعلم. ولن يقبل أحدهم أن يقارن نفسه بما كان عليه السلف من الورع والتقوى بل سيقولون أنى لنا ما كان عليه السلف فقد كانوا خير القرون اعتقادا وعملا.

لكن قسما من هؤلاء السلف وعلى رأسهم صحابة هم عند الوهابية أمراء للمؤمنين لما دخلوا المدينة المنورة لم يتورعوا عن نساء الصحابة وبنات التابعين، بل فسقوا بهن وهتكوا أعراضهن وولدت الكثيرات منهن سفاحا؟! وهؤلاء السلف لم يكونوا فاتحين ولم يعتقدوا في أهل المدينة أنهم كفارا أو مشركين.

وإنما رفضوا بيعة يزيد بن معاوية الفاسق وأخرجوا واليه من المدينة فكان مصيرهم ما دونه التاريخ.

لكن التاريخ الوهابي لا يذكر شيئا عن وضع الحريم في الغزوات الإسلامية والتوحيدية الجديدة وكأن القرى والمدن المفتوحة أو إن صح التعبير «المنهوبة» كانت خلوا من النساء والأطفال. طبعا نحن لم نعتمد على مصادر غير الوهابيين لنتمكن من معالجة هذه القضية بموضوعية، وإن كانت بعض المصادر المحايدة قد ذكرت المصير الفظيع الذي عرفه الكثير من النساء اللائي جلبن إلى بيوت الوهابيين وقصورهم.

ومع ذلك فنحن قد ندعم قول بعض علماء الوهابيين بأنهم لم يأمروا بسبي النساء. وذلك لفهم وشعور شيخهم وزعيمهم الأول بحساسية[1] موضوع «الحريم» عند البدو، لذلك أمر أتباعه بعدم التعرض لهن بشكل مباشر. وإلا فالنظرية واضحة وصريحة ولا يمكن أن يستثنى النساء والأطفال من حكم الكفر والشرك. اللهم إلا إذا كان الشيخ يقول بإسلامهم وإيمانهم دون الرجال وهذا لم نعثر له على أصل يمكن أن يستشهد به.

---

(١) تنبعث هذه الحساسية من كون علماء أهل السنة لم يقتنعوا بأن سكان الجزيرة العربية كانوا مشركين أو كفار وإن ما فهمه ابن عبد الوهاب من التوحيد ليس هو الحقيقة وعليه فإذا كان الوهابيون يسبون النساء ويأخذهن مغانم وملك يمين، فإن فروجهن لا تحل لهؤلاء لأنهن مسلمات. ولا يصح الدخول بهن ومن فعل ذلك فإنه يكون زانيا ومعتديا وأطفال هؤلاء المسلمات المقتول أزواجهن أو آباؤهن ليسوا أبناء شرعيين. ونحن نعتقد أن الشيخ ربما قد يكون انتبه لهذا المشكل العويص لذلك منع من سبي النساء اللهم إلا ما كان يقع هنا وهناك بشكل عشوائي وغير منظم مما يقع عادة أثناء الغزوات والحروب؟!.

ولكن هناك إشارة ذكرها ابن بشر يمكن أن تثير النقاش وتفتح الباب واسعا أمام التكهنات والآراء المختلفة. وذلك عند ذكره مماليك الأمير الوهابي سعود بن عبد العزيز فقد ذكر أن «مماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك»[١].

وعندما أراد ذكر الإماء ظهر خلط وخبط أظنه متعمد للتحريف لكن الناشر استدرك ذلك في الهامش قائلا: هنا خلل ولعله ألف ومائتان الذكور والإناث. والذكور خمسمائة[٢].

وإذا فقد كان عدد الإماء في قصره سبع مائة جارية. وهذا رقم لا أعتقد أن السلطان عبد الحميد كان قصره يحتويه، وذلك لتغير الظروف الواقعية ونحن الآن في القرن الثالث عشر الهجري وقد تراجعت تجارة الرقيق إلى أبعد حد، خصوصا إذا علمنا بانحصار الفتوحات الإسلامية. أما أن توجد سبع مائة جارية وأمة في قصر زعيم الوهابية آنذاك وهو لم يتجاوز بجيشه وسط الجزيرة العربية فإن الأمر يدعو للاستفهام وطرح التساؤل. فمن أين حصل هذا الأمير على هذا الكم الهائل من الجواري، ونحن نعلم واقع الدرعية قبل بداية الفتوحات وكيف أن أهلها كانوا يعيشون في ضنك العيش.

أرجع لأؤكد على أن موضوع «الحريم» قد اكتنفه الكثير من الغموض أثناء الفتوحات الوهابية انطلاقا من النظرية أو الحكم الشرعي الذي أباح دماء الرجال وأموالهم فقط على حد ادعائهم، وعفى عن النساء والأطفال. مع أن الكل، رجالاً ونساءً وأطفالاً، كانوا في حكم الكفار والمشركين؟!.

لكن من كتب عن الفتوحات الوهابية من أهل السنة والجماعة ذكر صراحة سبيهم للنساء، يقول مفتي الشافعية في مكة المكرمة: «وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم»[٣].

---

(١) عنوان المجد، م س، ص.

(٢) المرجع السابق.

(٣) السيد أحمد بن زيني دحلان، فتنة الوهابية، ص ٣.

يبقى كما قلنا سالفا فموضوع «النساء والأطفال» يثير الكثير من التساؤلات ولا نود الخوض في تفاصيله أكثر مما فعلنا لأنه لا يعتبر موضوعنا الرئيسي.

علماء أهل السنة يكفرون الوهابية:

طبعا لم يقف المجتمع الإسلامي في شبه الجزيرة وعلى رأسه علماء المذاهب الأربعة مكتوفي الأيدي أمام هذا الغزو الوهابي «السلفي»، بل واجهوه بالسيف والقلم، حيث انطلقت موجات متتالية من الردود تفند مذهب الشيخ الوهابي وتنقضه، وتحكم بانحرافه وضلاله وصولا إلى تكفيره وتكفير أصحابه والحكم عليهم بالقتل. وقد أرسل ابن عبد الوهاب بعض رجاله إلى مكة والمدينة لمناظرة علماء أهل السنة. «فلما وصلوا إلى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تمسكوا به، رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها، وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم مسخرة، كحمر مستنفرة، فرت من قسورة ونظروا إلى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات، فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهم»[1].

لذلك كان حكام الحجاز من الشرفاء عندما يردون هجوما وهابيا ويقتلون بعض رجاله، يعلقون رؤوسهم في مداخل مكة على اعتبار أنها رؤوس «خوارج» وهي الصفة التي أطلقها علماء أهل السنة على هؤلاء الوهابية، وأكثروا من الاستشهاد بالأحاديث للتدليل على أنها تشملهم وتخصهم، وسنذكر بعضا من أدلتهم.

توالت الردود الفكرية لتعرض مفهوم التوحيد لدى أهل السنة، والرد على المفهوم الجديد الذي يقول به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أخذ بعضا منه من

---

(١) نفسه، ص ١١.

شيخه ابن تيمية، وكانت أولى الردود القوية ما كتبه أخو الشيخ سليمان بن عبد الوهاب. وقوة هذا الرد تكمن أساسا في أن الشيخ سليمان كان حنبليا مثل أخيه، كلاهما ينطلق من موروث الحنابلة الفكري وله معرفة واسعة بكتب ابن تيمية وابن القيم الجوزية كذلك. لذلك جاء الرد قويا وصريحا في أن الوهابية قد أساؤوا فهم تراث ابن تيمية، بل إنهم تقولوا عليه وأولوا كلامه بما يخدم أغراضهم ويدعم أهواءهم. وإن كلام الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لا يمكن ركوبه للوصول إلى ما وصل إليه الوهابيون من تكفير عامة المسلمين وحربهم وإباحة دمائهم وأموالهم وذراريهم.

الشيخ سليمان يرد على أخيه محمد بن عبد الواهب:

كان أول إعتراض قدمه الشيخ سليمان على أخيه هو عدم إعترافه باجتهاده وأنه لم يحقق شروط الاجتهاد وإنما كان مدعيا ومخالفا لما عليه سيرة المذهب الحنبلي. وما قرره ابن القيم في أعلام الموقعين من أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة ما لم يجتمع فيه شروط الاجتهاد ومن جميع العلوم». وبعد أن يعرض الشيخ سليمان شروط الاجتهاد وما اتفق عليه العلماء قاطبة في هذا الباب. يقول: «لو ذهبنا نحكي من حكى الإجماع لطال وفي هذا كفاية للمسترشد وإنما ذكرت هذه المقدمة لتكون قاعدة يرجع إليها فيما نذكره فإن اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه، وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر. هذا وهو لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال أهل الاجتهاد ولا والله عشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهال[1]».

(١) الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، سليمان بن عبد الوهاب النجدي، ص ٧.

وإذن فالشيخ لم يكن مجتهدا حتى يتسنى له الاستنباط أو تحمل آراؤه على محمل الاجتهاد، وأنما التف حوله بعض الجهال من البدو الذين لم يكونوا يعلمون شيئا. لذلك لما ناظر علماء الحرمين تلامذة الشيخ الوهابي أفحموهم وحكموا عليهم بالضلال وحبسوهم.

أما بخصوص تكفير عامة المسلمين وأهل نجد بالخصوص لأنهم ارتدوا إلى الشرك وعبدوا القبور والأولياء والملائكة والجن فإن الشيخ سليمان وهو نجدي كذلك ويعرف ظروف البلد وعقائد أهلها لا يرى أن ما يقوم به الناس هناك من طلب الشفاعة واحترام القبور والحج إليها شركا، أو ردة عن الإسلام. كما يفند ادعاء أخيه وأتباعه من أن أهل نجد قد نبذوا أصول التوحيد ومبادئ الإسلام. يقول: إنكم الآن تكفرون من شهد أن لا إله إلا الله وحده وأن محمدا عبده ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت مؤمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله ملتزما لجميع شعائر الإسلام، وتجعلونهم كفارا وبلادهم بلاد حرب فنحن نسألكم من إمامكم في ذلك وممن أخذتم هذا المذهب عنه؟![1].

من أين لكم أن المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إذا دعا غائبا أو ميتا أو نذر له أو ذبح لغير الله أو تمسح بقبر أو أخذ من ترابه إن هذا هو الشرك الأكبر الذي من فعله حبط عمله وحل ماله ودمه..

فإن قلتم فهمنا ذلك من الكتاب والسنة، قلنا لا عبرة بفهومكم ولا يجوز لكم ولا لمسلم الأخذ بفهومكم فإن الأمة مجمعة كما تقدم أن الاستنباط مرتبة أهل الاجتهاد المطلق. ومع هذا لو اجتمعت شروط الاجتهاد في رجل لم يجب على أحد الأخذ بقوله دون نظر. قال الشيخ تقي الدين: من أوجب تقليد الإمام بعينه دون نظر إنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل[2].

---

(١) نفسه، ص ٩.

(٢) نفسه، ص ١٠.

ثم يعرض لآراء أهل العلم وعلماء الإسلام ومن بينهم ابن تيمية وابن قيم الجوزية من أنهم لم يقولوا بأن من فعل مثل هذه الأعمال كافر حلال الدم والمال أو مرتد، وقد كانت هذه الأعمال بمرأى ومسمع علماء الإسلام كافة ولا يخلو قطر إسلامي منها ومع ذلك فلم يعلم أنهم أجروا على أصحابها أحكام غير المسلمين من المرتدين والكفار وهذا مسطر في التواريخ المعتمدة.

مكة والمدينة ليستا بلاد حرب:

كما يشير الشيخ سليمان إلى أن الوهابيين اعتبروا أرض الحرمين الشريفين بلاد حرب وأهلها مشركين وكفارا وهذا يتنافى مع ما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن الحرمين ستظل بلادا إسلامية ولن تعبد فيها الأصنام أبدا.

كما لن تطأها جيوش الدجال آخر الزمان لأن العناية الإلهية تحفظها. أما ما يتشبث به الوهابيون وهو ذريعتهم لتكفير المسلمين، كالنذر لأهل القبور والذبح لغير الله وسؤال غير الله فإن الشيخ سليمان يرد على ذلك من كلام ابن تيمية، الذي يعتبر النذر لأهل القبور نذر معصية لا يجوز الوفاء به ولم يقل إن فاعله كافر أو مرتد. كما ذكر ابن القيم هذا النذر في فصل الشرك الأصغر من المدارج. وأما الذبح لغير الله فقد ذكروه في المحرمات وليس في المكفرات. إلا إذا كان للأصنام كعبادة صريحة مثل ما يفعله عباد الكواكب والأقمار.

محمد بن عبد الوهاب لم يفهم كلام ابن تيمية:

والشيخ ابن تيمية وصف من يقوم بذلك من المسلمين بالجهال ولم يصفهم بالكفر أو الإرتداد. أما سؤال غير الله فقد فصل الشيخ ابن تيمية فيه وفرعه ولم يعتبر ذلك شركا إلا من سأل من غير الله ما هو خاص به سبحانه مثل الغفران وإدخال الجنة والتصرف في نواميس الكون. أما التبرك والتمسح بالقبور فإن من أهل العلم من عده في المكروهات ومنهم من قال بحرمته، ولم يقل أحد منهم إن من

فعل ذلك كان مشركا أو كافرا. يسترسل الشيخ سليمان في رده على استنباطات أخيه محمد متهما إياه بعدم فهم كلام ابن تيمية وأنه كان خاطئا عندما تأول كلام الشيخ وفهمه بخلاف ما أراده خصوصا ما ذكر في «الإقناع» من أن ابن تيمية حكم بكفر من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم.

يقول الشيخ سليمان: «لكن البلاء من عدم فهم كلام أهل العلم، لو تأملتم العبارة تأملا تاما لعرفتم أنكم تأولتم العبارة على غير تأويلها ولكن هذا من العجب تتركون كلامه الواضح وتذهبون إلى عبارة مجملة تستنبطون منها ضد كلام أهل العلم وتزعمون أن كلامكم ومفهومكم إجماع. هل سبقكم إلى مفهومكم من هذه العبارة أحد؟ يا سبحان الله ما تخشون الله...»[1].

وهذا اتهام واضح وصريح بأن الوهابية قد حرفوا بعض كلام الشيخ ابن تيمية وحملوه أكثر مما قصد به الشيخ. كل ذلك في سبيل تكفير المسلمين والحكم عليهم بالردة لاستحلال دمائهم وأموالهم ورفع راية الجهاد وحمل السيف لتأسيس ملك جديد مستقل عن الإمبراطورية الإسلامية العثمانية.

وخلاصة الكلام كما يقول الشيخ سليمان: «وأما هذه الأمور التي تكفرون بها المسلمين فلم يسبقكم إلى التكفير بها أحد من أهل العلم ولا عدوها في المكفرات بل ذكرها من ذكرها منهم في أنواع الشرك وبعضهم ذكرها في المحرمات ولم يقل أحد منهم أن من فعله فهو كافر مرتد[2] طبعا هذا السجال داخل المذهب الحنبلي وإلا فإن علماء باقي المذاهب الإسلامية الأخرى لم يذكروا ذلك في أنواع الشرك أو المحرمات وإنما لهم رؤية أخرى لهذه الأعمال والأفعال ولهم استدلالهم الخاص على ذلك سندرجه عند تفصيل هذه المواضيع في فصل «السلفية وأهل السنة».

---

(١) نفسه، ص ١٤.

(٢) نفسه، ص ١٦.

وإذا كان الشيخ سليمان قد رفض أي ادعاء بالاجتهاد أو قدرة على الاستنباط لدى أخيه الشيخ محمد، وأنه كان قاصرا في استيعاب كلام الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأورد لذلك نصوصا وأقوالا لهذين الشيخين تفهم بخلاف ما ذهب إليه زعيم الوهابية، فإن الشيخ سليمان ومعه كافة علماء المذاهب السنية آنذاك سيصفون الحركة الوهابية بأنها حركة «خارجية» ليس بالمفهوم السياسي أي بمعنى شق عصا الطاعة والخروج على الحكومة الشرعية فقط. ولكنها خارجية بالمعنى العقائدي. تماثل حركة الخوارج التي ظهرت بعد حادثة التحكيم بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان. والتي حاربها الإمام علي وقتل جل أفرادها في معركة النهروان.

وعند الرجوع إلى الأحاديث النبوية التي تنبأت بخروج هذه الطائفة ووصفت حال أصحابها وأباحت سفك دمائهم لأنهم من أخطر الفتن التي سيعرفها تاريخ الإسلام. أقول انطلاقا من تلك المواصفات التي جاءت في الأحاديث المدونة، توصل علماء أهل السنة إلى أن الحركة الوهابية إنما هي حركة خارجية شكلا ومضمونا، وأن الأحاديث النبوية تكاد تنطق صارخة بما عليه هذه الحركة - الفتنة - وأصحابها. خصوصا استباحتهم دماء المسلمين وتأويلهم الآيات التي نزلت في المشركين وجعلها تنطبق على المسلمين، ومروقهم من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

يقول ابن عباس لا تكونوا كالخوارج تؤولوا آيات القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب والمشركين، فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهكوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بالعلم بما نزل في القرآن. وكان ابن عمر يرى الخوارج شرار الخلق، قال إنهم عمدوا في آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين[١]. وجاء في الحديث إنهم كلاب أهل النار، وإنهم يقتلون أهل الإسلام. وقال صلى الله عليه وآله يقرأون القرآن يحسبونه لهم وهو عليهم.

---

(١) نفسه، ص ٨.

أوجه الشبه بين الوهابية والخوارج:

وقد ذكر السيد محسن الأمين مجمل نقاط الالتقاء بينهم وبين الخوارج كما ذكرها غيره من العلماء متفرقة في كتبهم التي ردوا بها على هذه الفرقة نذكر منها:

١ - إن الخوارج قد رفعوا في حربهم للمسلمين شعار (لا حكم إلا لله) وهي كلمة حق يراد بها باطل. كذلك الوهابيون شعارهم لا دعاء إلا لله لا شفاعة إلا لله. لا توسل إلا بالله، لا استغاثة إلا بالله، ونحو ذلك، كلمات حق يراد بها باطل. كلمات حق لأن المدعو والمتوسل به حقيقة لدفع الضر وجلب النفع والمغيث الحقيقي وما لك أمر الشفاعة هو الله. يراد بها باطل وهو منع تعظيم من عظمه الله بدعائه والتوسل به ليشفع عند الله تعالى ويدعوه لنا، وعدم جواز التشفع والاستغاثة والتوسل بمن جعله الله شافعا مغيثا وجعل له الوسيلة.

٢ - إن الخوارج كانوا متصلبين في الدين مواظبين على الصلوات وتلاوة القرآن والبعد عن المحرمات المذكورة في القرآن. كذلك الوهابيون متصلبون في الدين يؤدون الصلاة لأوقاتها ويواضبون على العبادة ويطلبون الحق وإن أخطأوه ويتورعون عن المحرمات حتى بلغ من تورعهم أنهم توقفوا في استعمال التلغراف.

٣ - إن الخوارج قد كفروا من عاداهم من المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا ذراريهم وقالوا إن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر؟ كذلك الوهابيون حكموا بشرك من خالفهم معتقدهم من المسلمين واستحلوا ماله ودمه وبعضهم استحل سبي الذرية.. وجعلوا دار الإسلام دار حرب ودارهم دار إيمان تجب الهجرة إليها. وحكموا بقتال تارك الفرض وإن لم يكن مستحلا كما في الرسالة الثانية من رسائل الهدية السنية ونقلوه فيها أيضا عن ابن تيمية.

٤ - استند الخوارج في شبهتهم على ظواهر بعض الآيات والأدلة التي زعموها دالة على أن كل كبيرة، كفر. كذلك الوهابيون استندوا في هذه الشبهة إلى ظواهر بعض الآيات والأدلة التي توهموها دالة على أن الاستغاثة والاستعانة بغير

الله شرك وعلى غير ذلك من معتقداتهم كما يظهر من استشهاداتهم بالآيات التي لا دلالة فيها على معتقداتهم.

٥ - إن الخوارج لا يبالون بالموت ويقدمون على الحرب لأنهم رائحون بزعمهم إلى الجنة حتى إن بعضهم طعن برمح فمشى والرمح فيه إلى طاعنه فقتله وهو يتلو ﴿وعجلت إليك ربي لترضى﴾. كذلك الوهابيون يظهرون بسالة وإقداما ولا يبالون بالموت لأنهم بزعمهم رائحون إلى الجنة ويقولون في حروبهم مع المسلمين.

هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها

٦ - كان الخوارج على جانب من الجمود والغباوة فبينما هم يتورعون عن أكل ثمرة ملقاة في الطريق ويرون قتل الخنزير الشارد في البر فسادا في الأرض، تراهم يرون قتل الصحابي الصائم وفي عنقه القرآن طاعة لله تعالى ويكفرون جميع المسلمين ويرون كل كبيرة كفرا. ولقيهم قوم مسلمون فسألوهم من أنتم وكان فيهم رجل ذو فطنة فقال اتركوا الجواب لي قال نحن قوم من أهل الكتاب استجرنا بكم حتى نسمع كلام الله ثم تبلغونا مأمننا فقالوا لا تغفروا نعمة نبيكم فأسمعوهم شيئا من القرآن وأرسلوا معهم من يوصلهم إلى مأمنهم.

كذلك وقع للوهابيين مثل ذلك عندما دخلوا الطائف وقتلوا أهلها وسلبوهم أموالهم وقتلوا مفتي الشافعية الشيخ الزواوي وأبناء الشيبي. إلا الشيخ عبد القادر الشيبي سادن الكعبة، فقد نجا من الإخوان بحيلة طريفة. فقد أجهش بالبكاء عندما وقع في أيديهم فلما سلوا السيف عند رأسه سأله بعضهم لماذا تبكي أيها الكافر؟ فأجاب الشيخ: أبكي والله من شدة الفرح أبكي يا إخوان لأني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله إلا أن أموت مؤمنا موحدا. الله أكبر، لا إله إلا الله... وقد أثر هذا الكلام في الإخوان فبكوا لبكاء الشيخ، ثم طفقوا يقبلونه ويهنئونه بالإسلام[1].

---

(١) نجد وملحقاتها، ص ٣٣٣.

والوهابيون الذين يحرمون الترحيم والتذكير لأنه بزعمهم بدعة ويتوقفون في التلغراف لعدم وقوفهم على نص فيه، ويحرمون التدخين ويعاقبون عليه، تراهم يكفرون المسلمين ويشركونهم ويستحلون أموالهم ودماءهم ويقاتلونهم بالبنادق والمدافع لطلبهم الشفاعة ممن جعل الله له الشفاعة وتوسلهم بمن له عند الله الوسيلة.

٧ - *كما أن الخوارج قال بمقالتهم جماعة ممن ينسب إلى العلم لظهورهم* بمظهر مقاومة الضلال ورفع الظلم الذي لا شك أنه كان موجودا. كذلك الوهابيون قال بمقالتهم جماعة ممن تنسب إلى العلم لظهورهم بمظهر رفع البدع التي لا شك في وجودها في الجملة. لكن بعض أهل العلم غير رأيه فيهم بعد ما تبين له حقيقة أمرهم، مثل الأمير اليمني الصنعاني الذي نظم قصيدة في الإشادة بالحركة الوهابية لما وصله خبرها بأنها تحارب البدع يقول في مطلعها:

سلام على نجد ومن حل في نجد   وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

لكنه لما تحقق من أعمال وأفعال هذه الحركة. أنشد قائلا:

رجعت عن القول الذي قلت في النجدي   فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي

أما الشيخ محمد عبده المصلح والزعيم السلفي فإنه قد عرف حقيقة حالهم منذ البداية لذلك كان موقفه منهم واضحا رغم ما سمعه عنهم من حربهم للبدع والضلالات، لأنه كان يعلم تورطهم في البداوة والجمود وبعدهم عن الاجتهاد والمدنية.

٨ - إن الخوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية كما وصفهم الرسول صلى الله عليه وآله، وفي رواية يتعمقون في الدين حتى يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية، كذلك الوهابيون أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بإسناده عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وآله قال: اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال:

اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا وفي نجدنا قال هنالك الزلازل والفتن منها، أو قال بها يطلع قرن الشيطان.

وأخرج البخاري في كتاب الفتن عن ابن عمر ذكر النبي صلى الله عليه وآله اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا يا رسول الله في نجدنا فأظنه قال في الثالثة هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان. وأخرجه الترمذي في المناقب. وقد أخرج أصحاب المسانيد عدة أحاديث بهذا المعنى وفيها إشارة واضحة على ظهور الفتن من بلاد نجد. وبالفعل فقد خرج منها مسيلمة الكذاب وكذا القرامطة الذين أخذوا الحجر الأسود من الكعبة. وقد أطال الشيخ سليمان في رده على أخيه محمد بن عبد الوهاب «زعيم الوهابية» في الاستشهاد بهذه الأحاديث وغيرها مبينا أنها تنطبق على حركتهم وتصف فتنتهم. وإذا كان أغلب رؤساء الخوارج من بني تميم كشبث بن ربعي ومسعر بن فدكي، وذي الخويصرة فإن الشيخ ابن عبد الوهاب يلتقي معهم في هذا الأصل فقد أجمع المؤرخون على أنه كان من قبيلة تميم.

٩ - إن الخوارج قد عمدوا إلى الآيات الواردة في الكفار والمشركين فجعلوها في المسلمين والمؤمنين، كذلك الوهابيون جعلوا الآيات النازلة في المشركين منطبقة على المسلمين.

١٠ - كان الخوارج سيماهم التحليق أو التسبيد. وعن «النهاية» في حديث الخوارج، التسبيد فيهم فاش وهو الحلق واستئصال الشعر. وقد جاء في أخبار كثيرة ذكر قوم سيماهم التحليق كقوله صلى الله عليه وآله: «إن أناسا من أمتي سيماهم التحليق يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». يخرج ناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى قوسه. قيل ما سيماهم قال سيماهم التحليق. رواهما البخاري. وعن علي، في آخر الزمان قوم

يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية سيماهم التحليق (رواه النسائي) في الخصائص. وفي خلاصة الكلام، في قولهﷺ سيماهم التحليق تنصيص على هؤلاء الخارجين من المشرق التابعين لمحمد بن عبد الوهاب لأنهم كانوا يأمرون من اتبعهم أن يحلق رأسه، لا يتركونه يفارق مجلسهم إذا تبعهم حتى يحلقوا رأسه قال:

ولم يقع من أحد قط من الفرق التي مضت أن يلتزموا مثل ذلك. فالحديث صريح فيهم.

يقول السيد أحمد بن زيني دحلان: «كان السيد عبد الرحمان الأهدل مفتي زبيد يقول لا حاجة إلى التأليف في الرد على الوهابية بل يكفي في الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم «سيماهم التحليق» فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم. واتفق مرة إن امرأة أقامت الحجة على ابن عبد الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت، أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث إنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغي لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لأن شعر رأس المرأة زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا[1].

١١ - كان الخوارج يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان كما أخبر النبيﷺ عنهم كما جاء في السيرة الحلبية. والوهابيون يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ولم ينقل عنهم أنهم حاربوا أحدا سوى المسلمين أو قتلوا أحدا من أهل الأوثان. وفي قتلهم أهل الطائف أولا وآخرا بلا ذنب وقتلهم أهل كربلاء(سنة ١٢١٦ هـ)، وغزوهم بلاد الإسلام المجاورة لهم كالعراق والحجاز واليمن وشرقي الأردن وغيرها وقتلهم من ظفروا به من المسلمين وقتلهم ألف رجل من اليمانيين جاؤوا لحج بيت الله الحرام (سنة ١٣٤٠ هـ)، وذبحهم لهم ذبح الأغنام. وعدم غزوهم لأهل الأوثان وقد امتلأت الأرض كفرا وإلحادا، وتوجيه

---

(١) فتنة الوهابية، م س، ص ١٩.

بأسهم وحربهم كله إلى المسلمين خاصة بعدما ضعفت قواهم واستعمرت بلادهم وممالكهم وصار الإسلام غريبا في وطنه.

١٢ - كان الخوارج كلما قطع منهم قرن نجم قرن كما أخبر عنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وكذلك الوهابيون كلما قطع منهم قرن نجم قرن. فقد حاربهم محمد علي باشا واستأصل شأفتهم ووصل ولده إبراهيم باشا إلى قاعدة بلادهم الدرعية وأخربها، ثم نجم قرن لهم بعد ذلك وقطع ثم نجم وقطع مرارا[١].

الوهابية فرقة مبتدعة:

وإذا كان الشيخ سليمان قد اتهم أخاه وأتباعه بتحريف كلام الشيخ ابن تيمية وعدم فهمه، فإنه سيستحضر نصوصا صريحة من كلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية في أن الوهابية فرقة مبتدعة، لأنها اتخذت تكفير المسلمين شعارا لها وجعلت دارهم دار حرب. يقول الشيخ ابن تيمية: ومن البدع المنكرة تكفير الطائفة وغيرها من طوائف المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وهذا عظيم لوجهين.

أحدهما: إن تلك الطائفة الأخرى قد لا يكون فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفرة لها بل قد تكون بدعة الطائفة المكفرة لها أعظم من بدعة الطائفة المكفرة. وقد تكون نحوها وقد تكون دونها وهذا حال عامة أهل البدع والأهواء الذين يكفرون بعضهم بعضا وهؤلاء من الذين قال الله فيهم ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ﴾.

الثاني: أنه لو فرض إن إحدى الطائفتين مختصة بالبدعة والأخرى موافقة للسنة لم يكن لهذه السنة أن تكفر كل من قال قولا أخطأ فيه فإن الله تعالى قال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾[٢].

---

(١) كشف الارتياب، بتصرف، من ص ١١٤ إلى ١٢٦.

(٢) الصواعق الإلهية، ص ٣٠.

والشيخ ابن تيمية عندما تكلم عن المعتزلة والجهمية ووصفهم بالتعطيل الذي هو شر من الشرك عنده يقول: فالإمام أحمد ترحم عليهم واستغفر لهم وقال ما علمت أنهم مكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا جاحدون لما جاء به، لكنهم تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال ذلك(١).

إنهم يخالفون معتمد المذهب الحنبلي:

وعليه فالإمام أحمد بن حنبل لم يكن يرى كفر أهل البدع ولو وصل بهم ذلك إلى التعطيل في نظره. وهذا هو معتمد المذهب الحنبلي. قال في مختصر الروضة: الصحيح أن من كان من أهل الشهادتين فإنه لا يكفر ببدعة على الإطلاق ما استند فيها إلى تأويل يلتبس به الأمر على مثله وهو الذي رجحه شيخنا أبو العباس ابن تيمية(٢).

ويسترسل الشيخ سليمان في رده على اجتهادات أخيه وأتباعه وبيان مخالفتهم لما عليه المذهب الحنبلي برمته، وما جاء عن الشيخين ابن تيمية وابن القيم. وذلك بعرض كلام هذين الأخيرين وبسطه ومناقشته ومقارنته مع ما يقول به الوهابية، ليصل آخر المطاف إلى أن «حقيقة الأمر أنكم ما قلدتم أهل العلم ولا عباراتهم وإنما عمدتكم مفهومكم واستنباطكم الذي تزعمون أنه الحق من أنكره أنكر الضروريات. وأما استدلالاتكم بمشتبه العبارات فتلبيس.

ولكن المقصود إنما نطلب منكم أن تبينوا لنا وللناس كلام أئمة أهل العلم بموافقة مذهبكم هذا وتنقلون كلامهم إزاحة للشبهة وإن لم يكن عندكم إلا القذف والشتم والرمي بالفرية والكفر فالله المستعان، لآخر هذه الأمة أسوة بأولها الذين أنزل الله عليهم، لم يسلموا من ذلك(٣).

---

(١) نفسه، ص ٣٦.

(٢) نفسه، ص ٤٧.

(٣) نفسه، ص ٤٦.

لقد كانت الردود كثيرة وعنيفة وإنما اقتصرنا على رد الشيخ سليمان بن عبد الوهاب لأنه حنبلي المذهب كأخيه زعيم الوهابية، وأعرف بحال نجد وأخبار أهلها. وإلا فإن علماء المذاهب الإسلامية قد هرعوا للتأليف والرد على الوهابية، وتوالت الردود لتنجم عن كم هائل جدا سيطلع القارئ على بعضه بعد قليل. ليعرف إن قوة الحركة الوهابية إنما كانت تتمثل في السيف وحركة الهجوم والقتل والنهب المنظم الذي كان ينطلق من الدرعية ليجوب أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها في غفلة من السلطة العثمانية التي يصفها مفتي الشافعية بأنها كانت في تلك السنين في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم[١].

ومع ذلك فقد توالت الأخبار على عاصمة الدولة الإسلامية - الإستانة - تصف هجومات البدو من الوهابية وإشاعتهم الرعب والفساد في الجزيرة وكثرة الخسائر في الأرواح والأموال التي ذهبت ضحية قتلهم وسلبهم. كل ذلك جعل السلطة السياسية في الإستانة تتحين الفرصة لتصفية الحساب مع عصابات البدو. وفعلا سيتم لها ذلك وستجتمع الجيوش الإسلامية من تركيا ومصر والعراق وشمال إفريقيا، وسينطلق الغزو المضاد من مصر لاستئصال هذه الحركة الخارجية، حيث ستصل هذه الجيوش بعد حروب طويلة ومتفرقة إلى الدرعية عاصمة الوهابية وقاعدة انطلاقهم الديني والعسكري، لتخربها وتقتل وتأسر أمراء هذه الدعوة. وبذلك تشتت شملهم وانحصرت دعوتهم إلى حين.

***

(١) فتنة الوهابية، ص ١٣.

العالم الإسلامي في مواجهة
الدعوة الوهابية « السلفية »

الهزيمة العسكرية:

كانت الأخبار عن غزوات الوهابية وتوسع سيطرتهم داخل الجزيرة العربية وما أحدثوه من قلاقل وسفك للدماء ونهب للأموال. تصل إلى عاصمة الدولة الإسلامية في الإستانة من طرف ولاتها في الشام وبغداد ومصر. وكذا أشراف الحجاز وولاة الحرمين الذين تضرروا كثيرا من توسع الوهابيين الذين سيسيطرون أخيرا على مكة والمدينة وباقي مناطق الحجاز. كما أن منع الوهابيين باقي المناطق الإسلامية من الحج، وفرض ضرائب جديدة مقابل السماح بدخول مكة، كل ذلك، بالإضافة إلى حجم الخسائر التي تكبدتها المدن والقرى التي دخلها الوهابيون فاتحين، أو ناهبين مثل مدينة كربلاء التي سرقت أموال الضريح بها وكانت فوق العد والحصر. وكذا مسروقات الحجرة النبوية، وما تعرضت له الآثار الإسلامية بشكل عام من هدم وتخريب.

كل ذلك جعل الحكومة في الإستانة تتأهب وتستعد للقيام بحملة كبيرة لاستئصال هذه الفتنة المدمرة التي بلغ شررها الحرمين الشريفين. ولأن الخليفة في الإستانة كان يعتبر نفسه حامي الحرمين الشريفين، والمسؤول عن الدفاع عنهما وصيانتهما. لذلك كان من الضروري استعادتهما إلى حظيرة الدولة العلية.

الحملة العسكرية الأولى:

كلفت الحكومة التركية والي مصر محمد علي بالتجهيز للقيام بحملة عسكرية داخل الجزيرة العربية للقضاء على الحركة الوهابية واستعادت الحرمين الشريفين.

وبعد اكتمال التجهيز انطلقت الحملة من مصر بقيادة طوسون بن محمد علي، الذي وجد صعوبات جمة في اختراقه أواسط الجزيرة، بل استطاع الجيش الوهابي أن يهزمه في إحدى المعارك هزيمة منكرة. والسبب يعود كما يقول بعض المؤرخين إلى عدم تفهم طوسون بادئ الأمر الطبيعة الجغرافية للمناطق التي نزل بها وحارب فيها بالإضافة إلى عدم اهتمامه بالعلاقات مع شيوخ القبائل وجماعات البدو الذين اصطدم بهم في طريقه.

لكن مع تفهمه لهذه المشاكل وتصحيحه للأوضاع عسكريا وعلى الساحة القبلية، استطاع أن يتوغل بعيدا عن الساحل حيث تم الإنزال أول مرة. فاستلم المدينة المنورة من يد الوهابيين بعد قصف عنيف. في الوقت الذي انسحب الجيش الوهابي من مكة المكرمة وتوالت الانسحابات وهروب أمراء الوهابية من المناطق التي احتلوها، كعثمان المضايفي الذي فر من الطائف. ولم تمضي أيام كثيرة حتى استلم الجيش المصري غالب مناطق الحجاز. لأن القبائل والقرى كانت تتعاون معهم وذلك لكراهيتها الجيش الوهابي. وانهزم الوهابيون إلى نجد حيث نظموا عدة غارات على الحجاز لكنها لم تكن مجدية. وعندما توفي الأمير سعود بن عبد العزيز الوهابي كانت مناطق الحجاز وعمان والبحرين وجزءا من أراضي تهامة قد خرجت من سيطرتهم. ورغم أن الأمير الجديد للدرعية عبد الله بن سعود قد أبدي حزما وشجاعة لمواصلة المقاومة ضد الجيش المصري للاحتفاظ بما بقي، إلا أن الخرق كان قد اتسع على الراقع وذلك بسبب القلاقل التي دبت في القرى والقبائل التي كانت تحت سلطة آبائه. حيث التجأ الكثير منهم إلى طلب النجدة والدخول في طاعة الفاتحين الجدد.

الأمير الوهابي يستسلم:

ولما كثر الضغط على الوهابية واشتد عليهم الحصار من كل جانب استسلم الأمير عبد الله بن سعود للصلح مع طوسون بن محمد علي أن لا يتدخل الجيش

المصري في نجد وأن يصبح الأمير الوهابي من ضمن رعايا السلطان العثماني. وعلى إثر ذلك انسحب الجيش المصري دون أن يخترق قلب نجد أو يقضي على الوجود الوهابي بصفة نهائية.

الحملة الثانية:

وصلت أنباء عن خرق الوهابيين لشروط الاتفاقية وتحركهم لاستعادة بعض المواقع، فجهز لهم محمد علي جيشا آخر بقيادة ابنه إبراهيم باشا وكانت الوجهة هذه المرة دخول نجد والسيطرة عليها، لذلك كانت التعزيزات التي وصلت أرض المعركة قوية ومتتالية لأن الجيش الوهابي أبدى بسالة ومقاومة كبيرة. لكن ذلك لم يمنع من سقوط الواحات والمدن داخل نجد في أيدي الجيش المصري الواحدة تلو الأخرى، إما عنوة وإما استسلاما. وبما أن الحرب كانت سجالا في بعض المناطق وأن الظروف المناخية لم تكن في صالح الجيش المصري فإن الخسائر في صفوفه كانت مهمة رغم الانتصارات التي كان يحققها، لذلك كان تعاملهم قاسيا جدا مع الوهابيين عندما كانوا ينتصرون عليهم.

الجيش المصري يدمر الدرعية:

وصل الجيش المصري مشارف الدرعية وحاصرها ووقعت بينه وبين الوهابية حروب شرسة دفاعا عن هذه القاعدة التي انطلقت منها الحركة الوهابية بادئ الأمر، إلا أن وضع المقاومة الوهابية كان إلى التدهور يوما بعد يوم. جعل الأمير الوهابي عبد الله يطلب المفاوضات ومن ثم الاستسلام للجيش المصري بعد ستة أشهر من المعارك الطاحنة.

وقد أقام إبراهيم باشا في الدرعية سبعة أشهر ثم أمر بتدميرها فأصبحت أثرا بعد عين[1]. وكتب إبراهيم باشا إلى القاهرة والإستانة بأن الوهابيين خسروا (١٤

(١) آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، جبران شامية، ص ٦٩، نقلا عن بحوث في الملل والنحل ج ٤، ص ٣٧٩.

ألف من القتلى) و(٦ آلاف من الأسرى ومن بين الغنائم ٦٠ مدفعا)[١].

وإذا أضفنا ما خسروه في الهجمة الأولى على يد طوسون في مناطق متفرقة في الحجاز فإن خسائر الوهابيين كانت فادحة حقا ويكفي أن (٤ آلاف) أذن اقتطعت من الوهابيين وأرسلت إلى القاهرة وأعدت لإرسالها إلى الإستانة[٢]. كما قتل قرابة العشرين من عائلة آل سعود وغيرهم من عائلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو آل الشيخ كما كان يطلق عليهم.

أخذ الجيش معه كثير من الأسرى الوهابية وعلى رأسهم الأمير عبد الله بن سعود الذي أرسل إلى الإستانة حيث عرض على السلطان هو ومن معه. يقول السيد أحمد بن زيني دحلان: ولما وصل عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة في شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضا في نواح متفرقة[٣].

وقبل قتله قدم بعض ما سرقه الجيش الوهابي من الحجرة النبوية من مصاحف ومجوهرات، لأن الباقي كان قد وزع على البدو. الذين باعوا أسلابهم من هذه المجوهرات وما نهب من ضريح الإمام الحسين في الأسواق الهندية. ولا بد لنا أن نشير بمناسبة ذكر ضريح الإمام حسين أن الأمير الوهابي الذي هجم على

---

(١) تاريخ العربية السعودية، ص ١٨٦.

(٢) نفسه، ص ١٨٣. واكب هذا الغزو المضاد للقضاء على الوهابية عمليات نهب وقتل واسعة النطاق قام بها الجيش الغازي لدرجة إن النساء أسرن وبعن سبايا كما يدعي المؤرخ الجبرتي. والمهم إن الحركة الوهابية كانت فتنة كبيرة حلت بنجد والحجاز وأطراف الجزيرة العربية عند قيامها وأثناء القضاء عليها. ولا يمكن التكهن بالحجم الحقيقي للخسائر في الأرواح والأموال التي مني بها الناس في ذلك القرن ناهيك على خراب التراث الإسلامي وتدمير المعالم والآثار التاريخية لنبي الإسلام والصحابة ومن تلاهم من قرون. وإذا أضفنا إلى ذلك ما أحرق من كتب في الطائف تكون الكارثة مفجعة ومأساوية تذكر بهجوم التتار على بغداد وتخريبها.

(٣) فتنة الوهابية، ص ١٨. مثل عثمان المضايفي القائد العسكري الوهابي الذي أرسل إلى الإستانة فقطع رأسه. وهذا كان مصير أغلب قادتهم وأمرائهم على الأقاليم التي سيطروا عليها.

الضريح وخربه وسرق محتوياته قد لقي حتفه مباشرة بعد ذلك في الدرعية وهو يؤدي الصلاة، حيث طعنه رجل قيل أنه من أهل كربلاء قتل الوهابيون عائلته أثناء هجومهم[1].

وبذلك يكون قد لقي جزاءه العادل، وقد سجل لنا التاريخ بكثير من العبرة كيف أن قاتلي الإمام الحسين بن علي قد قتلوا بعده شر قتلة ولم يعد البلاء أحدا منهم بل حصدهم غضب المنتقم الجبار سبحانه وتعالى واحدا بعد آخر. وفيما فعله الوهابية في كربلاء والمدينتين المقدستين مكة والمدينة عبرة لمن اعتبر، فقد حل بهم الجزاء العادل لأن الله سبحانه يمهل ولا يهمل، وقد رجعت الدرعية إلى عهدها الأول بل إلى أسوء منه لأنها دمرت عن آخرها حتى نبت العشب في بيوتها المخربة. هذه المدينة التي كانت توزع فيها أموال المسلمين المسلوبة والمنهوبة، ومنها تنطلق جيوش البغي لتقتل الرجال وتسبي النساء والأطفال وتشيع الفساد والضمار داخل الجزيرة العربية وخارجها.

يقول الشيخ محمد جواد مغنية: وطغى إبراهيم باشا وبقي في البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبد الوهاب.

وأجلى الكثير من رجالهم ونساءهم وأطفالهم من الديار ونفى الكثير منهم إلى مصر. وكان هذا جزاءا وفاقا لما فعلوه من قبل بأمة محمد ﷺ من المظالم

---

(١) يقدم محمد جلال كشك مؤرخ آل سعود تحليلا غريبا لغزو الوهابية مدينة كربلاء ونهبها:
يقول: «إنها كانت خطوة محتومة لا بد من وقوعها بموجب أهداف الحركة وطموحها لتحرير العالم الإسلامي كله. وفقا لابن سندي مبتدئة بجيرانها العرب». ونحن نتساءل:
تحرير العالم الإسلامي من ماذا؟ وهل يكون هذا التحرير الوهمي على فرض صحته الهجوم المباغت على المدن ونهبها وقتل رجالها ونسائها وأطفالها، ثم تجميع كل ما تقع عليه اليد من أموال والهروب بها إلى نجد لاقتسامها دون أن تترك هذه الغزوة أدنى صدى ديني أو تحريري؟ والغريب في هؤلاء الكتاب المرتزقة أنهم يدعون أشياء ويخترعون أهدافا لا يعرفها أصحاب الشأن. وهذا مؤرخ الوهابية ابن بشر لم يذكر أية إشارة قد تدعم قول هذا المؤلف. والحقيقة أنك إذا لم تستح من الكذب والتزوير فاكتب وقل ما شئت!!..

والمآثم، وما ارتكبوه من الخيانة لله وكتابه، وللنبي وسنته، وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلي بأظلم وأغشم[1].

لكن الجزاء العادل الذي منيت به هذه الحركة وأتباعها لم يكن ليعوض الخسائر المأساوية في التراث الإسلامي حيث هدمت مساجد أثرية وأضرحة ومعالم كانت تضفي على تاريخ الإسلام نوعا من الواقعية والأصالة، فقد خسر المسلمون في أنحاء العالم جزءا كبيرا من تراثهم لا يمكن لليد البشرية أن تعوضه أبدا أبدا!؟.

بقية السيف:

لقد كان المسلمون الأوائل كلما قطعوا قرنا للخوارج نجم قرن آخر، وإذا كانت بقية السيف تجد طريقها سريعا نحو النمو والتكاثر. فإن قرنا آخر سينجم لهذه الحركة خصوصا على المستوى السياسي. حيث رجع بعض المشردين من عائلة آل سعود للمطالبة بملك أجدادهم. أما الحركة الدينية الوهابية فإنها ظلت كامنة تنتظر الربيع كأوراق الشجر لتبعث من جديد وعلى نطاق واسع جدا.

وإذا كانت الدولة السعودية الثانية قد أصابها التحلل والاندثار بعد مدة فإن هذه الأسرة كانت على موعد مع القدر فجر هذا القرن، حيث تجددت المطالبة بملك الآباء والأجداد من طرف فرع من فروعها، فكان أن خدمته الظروف السياسية العالمية وكذا وضع الجزيرة العربية. حيث أجهز على تركة الرجل المريض - الإمبراطورية العثمانية - وإلى غير رجعة، وأحاط الاستعمار الغربي بمجمل التركة وبدأت ليالي مظلمة من الدسائس والمؤامرات لتأسيس عدة دويلات أو ملكيات مستقلة، بدل الجسم الكبير الذي أصابه التصدع والانحلال.

فظهرت للوجود دولة آل سعود من جديد لتبسط نفوذها على نجد والحجاز

---

(١) هذه هي الوهابية، ص ١٢٩، نقلا عن بحوث في الملل والنحل للسبحاني، ج ٤ ص ٣٨٠.

ومناطق شاسعة من أرض الجزيرة العربية. ومعها نجم قرن الحركة الوهابية الدينية من جديد والتي استفادت بدورها من جزء من الثروات الهائلة التي اكتشفت في هذا البلد - وبالخصوص النفط أو الذهب الأسود - فأعيد نشر أفكارها بقوة في طول الجزيرة وعرضها. ثم صدرت إلى العالم الإسلامي، وتلقفتها أيادي وعقول أبناء الصحوة الإسلامية، ليس باعتبارها بعض اجتهادات الشيخ ابن تيمية وتلامذته من أبناء المذهب الحنبلي، ولكن باعتبارها الحقيقة الإسلامية الوحيدة. حقيقة ما كان عليه الرسول والصحابة والتابعون وأئمة السلف، وليس بعد الحقيقة سوى الضلال والانحراف والكفر؟!.

وإذا كان اللقاء الذي جمع بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود في الدرعية والبيعة التي ربطتهما، قد نجم عنه حركة ودولة وصفنا بعض أحوالها وذكرنا يوميات من زمانها وما قدمته للمسلمين داخل الجزيرة العربية وخارجها وما آل إليه أمرها. فإن اللقاء الثاني الحالي والقوي، والذي جمع بين المؤسسة الدينية الوهابية والمؤسسة السياسية للبيت السعودي، قد نجم عنه ظهور دولة ملكية سياسيا، سلفية (حشوية) دينيا.

دولة يقول عنها الكاتب والصحافي سمير كرم: «في وجودها في هذا الزمان لغز، في اعتمادها على حماية أكبر ديمقراطية في العالم، بينما هي واحدة من أظلم الدكتاتوريات في العالم لغز. في المفارقة بين قداسة موقعها وفجور عمقها لغز. هي منا، أرضا ولغة وتراثا وتاريخا، ولكنها ضدنا نضالا وسياسة وأهدافا..

وقفت دائما ضد كل ما هو مع التاريخ في تطوراتنا منذ أن قامت كدولة... وحدها بين كل بلدان العالم تملك كل أدوات التقدم، أفضل ما توفره الأموال من تكنولوجيا متقدمة، فيما لا تزال سياسيا واجتماعيا عند حافة مرحلة المجتمع العبودي»[1].

---

(١) مجلة الكفاح العربي، عدد ٨٤٧، ٢٤ / ١٠ / ١٩٩٤ زاوية حادة، ص ٢١. ليست مهمة هذا الكتاب التعرض للسياسة الداخلية أو الخارجية للملكة العربية السعودية ولا لمحاكمة الوضع السياسي هناك.

الردود الفكرية:

قلنا سابقا بأن انطلاق هذه الحركة - أي الوهابية - في نجد وإعلانها الجهاد المقدس وغزوها ديار المسلمين قتلا ونهبا. كان بخلفية أنهم كفار مشركون، ارتدوا عن الدين الإسلامي الحنيف وعبدوا القبور والأولياء والأنبياء. وقد اتخذت هذه الحركة من مظاهر بناء الأضرحة على قبور الأنبياء والأولياء وزيارة الناس لهم والدعاء عندهم وكذا طلب الشفاعة منهم أو التوسل بهم، دليلا على صحة اتهامها المسلمين بالشرك والكفر.

ومع بداية توسعها العسكري وإلى أن سيطرت على الحرمين الشريفين، وما قام به أتباعها من هدم لكل الأضرحة والمزارات والمشاهد التي بناها المسلمون هناك عبر القرون الماضية، انطلقت موجة من الردود على هذه الفرقة المنحرفة والتي وصفها علماء المذاهب الإسلامية بأنها فرقة خارجية تتخذ تكفير المسلمين مطية لغزو بلادهم واستباحة أموالهم وأرواحهم وصولا إلى تأسيس ملك عضوض.

علماء أهل السنة والإمامية وغيرهم يردون على الوهابية:

انطلقت جل الردود والكتابات من توضيح مفهوم التوحيد لدى أهل السنة والجماعة وقضاياه التفصيلية، وأن ما قرره الأئمة من السلف يختلف عما تدعو إليه هذه الفرقة. وأن مستندها في أفكارها الشاذة إنما هو تراث ابن تيمية الحراني الحنبلي وآراؤه التي رد عليها علماء عصره وفندوها، وصولا إلى تكفيره وتكفير من إعتقد عقيدته، لأنه كان يدعو إلى التجسيم صراحة.

أما بخصوص مسائل الشفاعة والزيارة والتوسل وبناء القبور والعبادة قرب

وإنما البحث يتعلق بطائفة دينية ومذهب فكري في تاريخ الإسلام المعاصر. وتعرضنا لبعض القضايا السياسة الخاصة بهذه الأسرة إنما تبرره الضرورة المنهجية لعلاقة هذه الطائفة بالأسرة المالكة اليوم في شبه الجزيرة العربية التي تستمد شرعيتها السياسية الدينية من هذا المذهب.

مشاهد الأنبياء والصالحين. فإن مجمل الردود قد أتت بما يخالف مذهب الوهابية وشيخهم الحراني، سواء من السنة الشريفة أو القرآن الكريم أو أقوال السلف الصالح وأئمة المذاهب وسيرة عامة المسلمين.

لقد كانت الردود كثيرة ومتنوعة وعلى رأسها كتابات الحنابلة الذين وقفوا في وجه هذه الحركة، وأعلنوا انحرافها عن المذهب الحنبلي وتحريفها وعدم فهمها لما قاله الشيخ ابن تيمية وما كتبه في مصنفاته. والشئ الملاحظ في هذه الردود هو تنوع المرجعيات واختلافها عند من قاموا بالرد على «فتنة الوهابية».

فبالإضافة إلى الحنابلة هناك فقهاء الشافعية والمالكية والأحناف، وفيهم مؤرخون وعلماء أصول ومفتون كبار، زد على ذلك مجموعة من رواد التصوف الطرقي الذين حاربتهم، الوهابية «السلفية» ورمتهم بالضلال والانحراف. فقاموا بإعداد ردود كثيرة ومتنوعة. كما شارك في هذه الحملة علماء وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية، بالإضافة إلى مؤلفات فكرية عامة ألفها مفكرون إسلاميون لمعالجة بعض الظواهر الاجتماعية والسلوكية والفكرية التي نجمت عن انتشار الفكر الوهابي بشكل واسع بين أبناء الصحوة الإسلامية.

سنقوم بعرض ببلوغرافي لبعض ما ألف في الرد على الوهابية «السلفية» ليتبين للقارئ الكريم مدى حجم هذه الردود وكثرتها مع أننا لم نستطع إحصاء كل ما كتب في هذا الميدان خلال هذا القرن لتعذر ذلك علينا. ولكن ما جمعنا يكفي لإعطاء فكرة لدى الباحث، كما يمكن أن يستنتج منه عدة قضايا.

طبعا كانت من بين الردود كتابات قديمة أعيد طبعها وتحقيقها، وتخص الردود التي ألفت ضد الشيخ ابن تيمية الحنبلي. لأن البعض وجه سهام نقده إلى الشيخ الحراني بالذات لأنه مفرخ هذه النحلة ومن وضع بيضها في عش الفكر الإسلامي.

ومنهم من تعرض للذهب الحنبلي بشكل عام لأنه الرحم الذي يصدر عنه كل من دعا ويدعو لمثل هكذا آراء ومعتقدات. والنتيجة هذا الكم الهائل من

الردود والمؤلفات، والتي لا تجد طريقها إلى المكتبات والتوزيع إلا نادرا، لسيطرة الفكر الوهابي على أغلب المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي السني بالذات. وكذا السيطرة على دور النشر والهجمة الإعلامية لتشويه سمعة كل من يحاول أن يكتب عن الحقيقة خلافا للوهابية (السلفية). وصولا إلى المضايقة الفعلية والتهديد بالتصفية الجسدية.

***

قائمة الكتب التي ألفت في الرد على الوهابية[1] « السلفية »

– الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية، للشيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدي وهو أخو الشيخ محمد زعيم الوهابية.

– الرد على محمد بن عبد الوهاب، لمحمد بن سليمان الكردي الشافعي، أستاذ ابن عبد الوهاب وشيخه. ذكر ذلك ابن مرزوق. أنظر خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام(٢/ ٢٦٠ طبع مصر).

– فتنة الوهابية، للسيد أحمد بن زيني دحلان فقيه ومؤرخ ومفتي الشافعية في مكة.

– الدرر السنية في الرد على الوهابية، للمؤلف نفسه أحمد بن زيني دحلان [مطبوع].

– الصواعق والرعود، للعلامة عفيف الدين عبد الله بن داود الحنبلي. قال العلامة علوي بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقاريض أئمة علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء وغيرهم. تأييدا له وثناء عليه. ثم قال: لو وقفت عليه قبل هذا ما ألفت كتابي هذا. ولخصه محمد بن بشير قاضي رأس الخيمة بعجمان.

---

(١) أنظر مجلة تراثنا، نشرة فصلية، تصدرها مؤسسة آل بيت لإحياء التراث، العدد ٤ السنة ، ٤ شوال ١٤٠٩هـ معجم ما ألفه علماء الإسلام للرد على خرافات الدعوة الوهابية السيد عبد الله محمد علي . أنظر كذلك بحوث في الملل والنحل للسبحاني (ج ٤)، فقد ذكر كثيرا من هذه المؤلفات كما أن عدد كبيرا من هذه الكتب والعناوين هي من مصادر هذا الكتاب وفي حوزة المؤلف.

- تهكم المقلدين بمن ادعى تجديد الدين، للعلامة المحقق محمد بن عبد الرحمان ابن عفالق الحنبلي، وقد ترصد فيه لكل مسألة من المسائل التي ابتدعها ورد عليها بأبلغ رد، وقد ضمن كتابه هذا ملحقا يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية. كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها إلى محمد بن عبد الوهاب، منها شطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «والعاديات» وألمح في ذيلها إلى عجزه عن الجواب عن أدناها فضلا عن أجلها.

- فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب، أحمد بن علي البصري الشهير بالقباني. أنظر إيضاح المكنون ١٩٠/٢ والتوسل بالنبي لابن مرزوق (ص ٢٥٠).

- رسالة في الرد على الوهابية، للعلامة عبد الوهاب بن أحمد بركات الشافعي الأحمدي المكي.

- الصارم الهندي في عنق النجدي، للشيخ عطاء المكي. ذكره ابن مرزوق في «التوسل بالنبي».

- رسالة في الرد على الوهابية، للشيخ عبد الله بن عيسى المويسي.

- رسالة في الرد على الوهابية، للشيخ أحمد المصري الأحسائي.

- السيوف الصقال في أعناق من أنكر على الأولياء بعد الانتقال، لأحد علماء بيت المقدس. ذكره ابن مرزوق في «التوسل بالنبي» (ص ٢٥٠).

- السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر، للسيد علوي بن أحمد الحداد، طبع في نحو مائة ورقة ذكره ابن مرزوق في التوسل بالنبي (ص ٢٥٠).

- رسالة في الرد على الوهابية، للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبد اللطيف الأحسائي.

- تحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، للعلامة عبد الله بن إبراهيم ميرغني الساكن بالطائف.

- الإنتصار للأولياء الأبرار، للعلامة طاهر سنبل الحنفي، حكى السيد علوي المذكور آنفا أنه رآه عند مؤلفه بالطائف.

- مجموعة أجوبة وردود نظما ونثرا، لأكابر علماء المذاهب الأربعة، لا يحصون. من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها. حكى عنها السيد علوي أيضا، وذكر أنه أتى بها إليه رجل من آل ابن عبد الرزاق الحنابلة. الذين يقطنون الزرارة والبحرين.

- قصيدة في الرد على الوهابية، للسيد المنعمي رد بها على ابن عبد الوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤوسهم، مطلعها:

أفي حلـق رأس بالسـكاكين الحـد حديث صحيح بالأسانيد عن جدي

- مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام، للعلامة السيد علوي بن الحداد المتقدم، طبع سنة ١٣٢٥هـ بالمطبعة العامرية وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه.

- كتاب لشيخ الإسلام بتونس، المحقق إسماعيل التميمي المالكي المتوفى سنة ١٢٤٨هـ وهو في غاية التحقيق والأحكام. نقض فيه رسالة لابن عبد الوهاب طبعت في تونس.

- رسالة مسجعة محكمة، للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسي، طبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين في الرد على الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لابن عبد الوهاب.

- قصيدة، للشيخ غلبون الليبي، رد بها على قصيدة الصنعاني التي مدح بها عبد الوهاب، تقع في أربعين بيتا، مطلعها:

سلامي على أهل الإصابة والرشد وليس على نجد ومن حل في نجد

وهي مذكورة في سعادة الدارين.

– قصيدة، للسيد مصطفى المصري البولاقي يرد فيها أيضا على قصيدة الصنعاني التي ذكرت في المصدر السابق، تقع في مائة وستة وعشرون بيتا مطلعها:

بحمد ولي الحمد، لا الذم أستبدي وبالحق لا بالخلق، للحق استهدي

– قصيدة، للسيد الطباطبائي البصري، يرد فيها على قصيدة الصنعاني، وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر في إرجاع الصنعاني عن غيه الذي وقع فيه، حتى بلغ به الأمر إلى إنشاء قصيدة يعلن فيها توبته مما بدر منه مستهلها:

رجعت عن القول الذي قلت في نجد فقد صح لي عنه خلاف الذي عندي

– سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية والظاهرية، للعلامة الشيخ إبراهيم السمنودي المنصوري المتوفي في العقد الثاني من هذا القرن، وقد طبع في مجلدين.

– شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق، للشيخ يوسف النبهاني. طبع في مجلد.

– الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق، للعلامة الشيخ جمال صدقي الزهاوي. طبع في مصر سنة ١٣٢٣هـ

يقول مؤلفه: «قاتل الله الوهابية إنها تتحرى في كل أمر تكفير المسلمين مما يثبت أن همها الأكبر هو تكفيرهم لا غير، فتراها تكفر من يتوسل إلى الله تعالى بنبيه ﷺ ويستعين باستشفاعه إلى الله تعالى على قضاء حوائجه، وهي لا تخجل إذا تستعين بدولة الكفر على قضاء حاجتها التي هي قهر المسلمين وحربهم وشق عصاهم».

– إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق، للشيخ المشرفي المالكي الجزائري.

– رسالة في جواز التوسل، للشيخ المهدي الوازناي مفتي فاس رد فيها على محمد بن عبد الوهاب في منعه ذلك.

غوث العباد في بيان الرشاد، للشيخ مصطفى الحمامي المصري. مطبوع.

– جلال الحق في كشف أحوال أشرار الخلق، للشيخ إبراهيم القادري الإسكندري، وهو كتاب جيد طبع في الإسكندرية سنة ١٣٥٥ هـ

– البراهين الساطعة، للعلامة الشيخ سلامة العزامي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ

– النقول الشرعية في الرد على الوهابية، للشيخ حسن الشطي الحنبلي الدمشقي، مطبوع.

– رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمد حسنين مخلوف. مطبوعة.

– المقالات الوفية في الرد على الوهابية، للشيخ حسن قزبك، مطبوعة.

– الأقوال المرضية في الرد على الوهابية، للعلامة الفقيه عطاء بن إبراهيم الكسم الحنفي، ذكرها الأستاذ عمر رضا كحالة أنظر معجم المؤلفين، ٢٩٣/١٠.

– الردود على محمد بن عبد الوهاب، للشيخ المحدث صالح الغلابي المغربي. قال السيد علوي حداد: كتاب ضخم فيه رسالات وجوابات كلها من العلماء أهل المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، يردون على محمد بن عبد الوهاب بالعجب. أنظر «التوسل بالنبي» لابن مرزوق.

– الرد على الوهابية، للشيخ محمد صالح الزمزي الشافعي إمام مقام إبراهيم بمكة المكرمة.

– إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، لأحمد بن أبي الضياف. رد فيه على الوهابية. أنظر الوهابية البكري (ص ١٦).

– الأجوبة النعمانية عن الأسئلة الهندية، في العقائد لنعمان بن محمود خير الدين الشهرباني الآلوسي، البغدادي الحنفي المتوفى سنة ١٣١٧هـ إيضاح المكنون ٢٩/١.

- الإسلام والإيمان، في الردود على الوهابية طبعه حسين حلمي باسلامبول ١٩٨٦م.

- الأصول الأربعة في ترديد الوهابية، لمحمد حسن جان صاحب السرهندي مجددي المتوفى سنة ١٣٤٦هـ طبع في آمرتسر بالهند وأعاد طبعه حسين حملي باسلامبول، ١٩٧٦ م.

- الأوراق البغدادية في الجوابات النجدية، للشيخ إبراهيم الراوي البغدادي الرفاعي رئيس الطريقة الرفاعية ببغداد. طبع في مطبعة النجاح ببغداد ١٣٤٥هـ) وأعاد طبعه حسين حلمي في تركيا ١٩٧٦ م.

- البراءة من الاختلاف في الرد على أهل الشقاق والنفاق والرد على الفرقة الوهابية الضالة، للشيخ علي زين العابدين السوداني طبع بالسودان.

- البصائر لمنكري التوسل بأهل المقابر، محمد الله الداجوي الحنفي الهندي. طبعه حسين حلمي، اسلامبول ١٩٧٥ م.

- البيت المعمور في عمارة القبور، للسيد علي تقي بن أبي الحسن النقوي اللكهنوي المتوفى سنة ١٤٠٨هـ) طبع بالهند ١٣٤٥.

- تاريخ الوهابية، لأيوب صبري باشا الرومي، صاحب مرآة الحرمين. أنظر إيضاح المكنون ٢١٨/١.

- تجريد سيف الجهاد لمدعي الاجتهاد، للشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي وهو أستاذ ابن عبد الوهاب وشيخه وقد رد عليه في حياته. ذكره ابن مرزوق في «التوسل بالنبي»ص ٢٤٩.

- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، لمؤلف مجهول حققه أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت، ١٩٦٧ م.

- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، أحمد زيني دحلان المطبعة

الخيرية القاهرة ١٨٨٨. ذكر فيه بعضاً من أخبار الوهابية وحروبهم.

- التحفة الوهبية في الرد على الوهابية، للشيخ داود بن سليمان البغدادي النقشبندي الحنفي، المتوفى سنة ١٢٩٩ م. إيضاح المكنون ١/٢٦٣.

- تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد، للشيخ محمد بخيت المطبعي الحنفي من علماء الأزهر طبع في مصر ١٣١٨ م وأعاد طبعه حسين حلمي باسلامبول، ١٤٠٥م.

- التوسل، للمفتي محمد القادري الهزاروي. طبعه حسين حلمي باسلامبول، ١٩٨٤ م.

- التوسل بالموتى. طبع بتركية ١٩٧٦ م.

- التوسل بالنبي والصالحين وجهلة الوهابيين، لأبي حامد بن مرزوق الدمشقي الشامي. طبعه حسين حلمي سنتي ١٩٧٥ و١٩٨٤.

- التوضيح عن توحيد الأخلاق في جواب أهل العراق. على محمد بن عبد الوهاب. لعبد الله أفندي الراوي مخطوط في جامعة كمبردج/ لندن باسم «رد الوهابية» ومنه نسخة في مكتبة الأوقاف/بغداد.

- الحقائق الإسلامية في الرد على المزاعم الوهابية بأدلة الكتاب والسنة، لمالك ابن الشيخ محمود مدير مدرسة العرفان بمدينة كوتبالي بجمهورية مالي الإفريقية طبع عام ١٤٠٣هـ وأعاد طبعه حسين حلمي في إسلامبول سنة ١٤٠٥هـ

- الحق المبين في الرد على الوهابيين، للشيخ أحمد سعيد السرهندي النقشبندي. هدية العارفين ١/١٩٠ ومعجم المؤلفين ١/٢٣٢.

- الحقيقة الإسلامية في الرد على الوهابية، عبد الغني بن صالح حمادة أدلب سنة ١٨٩٤ م.

- الرد على الوهابية، لإبراهيم بن عبد القادر الطرابلسي الرياحي التونسي المالكي من مدينة تستور المتوفى سنة ١٢٦٦هـ) أنظر معجم المؤلفين ١/ ٤٩.

- الرد على الوهابية، لعبد المحسن الأشيقري الحنبلي مفتي مدينة الزبير بالبصرة. معجم المؤلفين، ١٧٢/٦.

- الرد على الوهابية، لعمر المحجوب مخطوط بدار الكتب الوطنية/ تونس برقم ٢٥١٣ ومصورتها في معهد المخطوطات العربية/ القاهرة.

- الرد على الوهابية في تحريم بناء القبور، للشيخ عبد الكريم الزين المتوفى سنة ١٣٦٠هـ)

- رد وهابي، للمفتي محمود بن المفتي عبد القيوم. طبع حسين حلمي/ اسلامبول، ١٤٠١هـ)

- رسالة في الرد على الوهابية، للشيخ قاسم أبي الفضل المحجوب المالكي. ضمن «إتحاف أهل الزمان» لأحمد بن أبي الضياف ذكره البكري ص ١٦.

- رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمد حسين مخلوف. مطبوعة.

- الرسالة الردية على الطائفة الوهابية، لمحمد عطاء الله المعروف بعطا الرومي من كوزل حصار. معجم المؤلفين، ٢٩٤/١٠.

- رسالة في تحقيق الرابطة، للشيخ خالد البغدادي. طبع ضمن «علماء المسلمين والوهابيون» في إسلامبول ١٩٧٣م.

- الرسالة المرضية في الرد على من ينكر الزيارة المحمدية، لمحمد السعدي المالكي نسخة فريدة. كذا ذكره كوركيس عواد في «ذخائر التراث العربي في مكتبة جستربيتي - دبلن» مجلة المورد العدد الأول السنة الأولى رقم ٥ من المجموعة ٣٤٠٦ تاريخها ٨٣٠.

- سبيل النجاة عن بدعة أهل الزيغ والضلالة، للقاضي عبد الرحمان قوتي طبع بتركية/ إسلامبول، ١٩٨٥ م.

- سيف الجبار المسلول على أعداء الأبرار، لشاه فضل رسول القادري. طبع بالهند وأعاد طبعه حسين حلمي في اسلامبول ١٩٧٩ م.

- السيف الهندي في إماتة طريقة النجدي، للشيخ عبد الله بن عيسى الصنعاني اليمني. هدية العارفين ٤٨٨/١.

- إيضاح المكنون ٣٧/٢.

- شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق، للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني. رئيس محكمة الحقوق في بيروت. طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣ م.

- صدق الخبر في خوارج القرن الثاني عشر. في إثبات أن الوهابية من الخوارج، للشريف عبد الله بن حسن باشا بن فضل باشا العلوي الحسيني الحجازي، أمير ظفار. طبع باللاذقية. الذريعة ٢٩/١٥.

- صلح الإخوان في الرد على من قال على المسلمين بالشرك والكفران.

في الرد على الوهابية لتكفيرهم المسلمين. للشيخ داود بن سليمان النقشبندي البغدادي المتوفى سنة ١٢٩٩هـ هدية العارفين ٣٦٣/١. إيضاح المكنون ٧٠/٢.

- ضياء الصدور لمنكر التوسل بأهل القبور، لظاهر شاه ميان الهندي. طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة، ١٤٠٦هـ

- العقائد الصحيحة في ترديد الوهابية النجدية، للخواجة حافظ محمد حسن خان السرهندي طبع في آمرتسر الهند عام ١٣٦٠ هـ وأعاد طبعه حسين حلمي في لإسلامبول ١٣٩٨هـ

- العقائد التسع، للشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي الحنفي النقشبندي.

طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣ م.

- عقد نفيس في رد شبهات الوهابي التعيس، لإسماعيل أبي الفداء التميمي التونسي الفقيه المؤرخ. معجم المؤلفين ٢/٢٦٣.

- علماء المسلمين والوهابيون، جمعه حسين حلمي ايشيق وطبعه في مكتبته باسلامبول سنة ١٩٧٣ م.

- مجموع من خمس رسائل في الرد على الوهابية وهي:

أ - الميزان الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعراني المصري.

ب - شواهد الحق للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رئيس محكمة الحقوق في بيروت لبنان.

ج - العقائد النسفية. للشيخ عمر بن محمد الحنفي.

د - من معربات مكتوبات. للشيخ أحمد بن عبد الأحد الفاروقي الحنفي النقشبندي.

هـ سالة في تحقيق الرابطة للشيخ خالد النقشبندي.

- غوث العباد ببيان الرشاد، للشيخ مصطفى الحمامي المصري. مطبوع.

- فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب، للشيخ سليمان بن عبد الوهاب أخ محمد مؤسس الوهابية. وهذا أول كتاب ألف ردا على الوهابية. إيضاح المكنون ٢/١٩٠. معجم المؤلفين ٤/٢٦٩.

- فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب، لأحمد بن علي البصري الشهير بالقباني إيضاح المكنون، ٢/١٩٠، التوسل بالنبي لابن مرزوق.

- فصل الخطاب في نقض مقالة ابن عبد الوهاب، للشيخ محمد بن عبد النبي النيسابوري الإخباري المتوفى سنة ١٢٣٢، إيضاح المكنون ٢/١٩١. الذريعة ١٦/٢٢٩.

- فضل الذاكرين والرد على المنكرين، لعبد الغني حمادة. طبع في سوريا/ إدلب سنة ١٣٩١هـ

- قصيدة في رد الوهابية، للشيخ عبد العزيز القرشي العلجي المالكي الأحسائي. عدة أبياتها (٩٥ بيتا).

- لفحات الوجد من فعلات أهل نجد.

في الرد على عقيدة أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. لمحسن بن عبد الكريم بن إسحاق المتوفى سنة ١٢٦٦هـ مخطوط في جامع الغربية ٣٠ مجاميع و ٤٠ مجاميع مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن: ١٤٢.

- المدارج السنية في رد الوهابية، عامر القادري، معلم بدار العلوم القادرية. كراجي باكستان. طبع عام ١٩٧٧. وأعاد طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة ١٩٧٨ م.

- المسائل المنتخبة، للقاضي حبيب الحق بن عبد الحق. طبع في تركيا سنة ١٤٠٦هـ)

- المقالات الوفية في الرد على الوهابية، للشيخ حسن قزبك. مطبوع ذكره ابن مرزوق في التوسل بالنبي (ص ٢٥٣).

- المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية، لإسماعيل التميمي التونسي. مخطوط بدار الكتب الوطنية في تونس رقم ٢٧٨٠ ومصورتها في معهد المخطوطات العربية/ القاهرة. ذكره أحمد بن أبي الضياف في «إتحاف أهل الزمان». أنظر: «الوهابية» للبكري (ص ٣٩).

- المنحة الوهابية في الرد على الوهابية، للشيخ داود بن سليمان النقشبندي البغدادي المتوفى سنة ١٢٩٩ م. طبع في بومباي سنة ١٣٠٥ م وأعاد طبعه حسين حلمي في اسلامبول سنة ١٩٧٨ م معجم المؤلفين العراقيين ١/ ٤٣٨.

- من معربات المكتوبات، للشيخ أحمد بن عبد الأحد القادري النقشبندي الحنفي طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في اسلامبول ١٩٧٣ م.

- المواهب الرحمانية والسهام الأحمدية في نحور الوهابية، للشيخ أحمد الشيخ داود. معجم المؤلفين العراقيين ١/٨٤.

- الميزان الكبرى، لعبد الوهاب البصري طبع مع «علماء المسلمين والوهابيون» في إسلامبول ١٩٧٣ م.

- النقول الشرعية في الرد على الوهابية، للشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي. طبع في إسلامبول ١٤٠٦، ذكره البكري (ص ٢٣ - ٤٠).

- هكذا رأيت الوهابيين، لعبد الله محمد طبع أول مرة في بيروت دار التحدي وطبع مرة أخرى في طهران في مكتبة السعادة (عام ١٤٠٢).

- وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، لأبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني الجزائري المتوفى سنة ٨١٠هـ)

- الوهابية في نظر علماء المسلمين، لإحسان عبد اللطيف البكري. وقد اعتمدنا عليه في هذه القائمة. طبع مكررا. والطبعة الرابعة نشرتها مكتبة السيد المرعشي، رقم ١٤٠٨هـ)

- صلح الإخوان في الرد على من قال على المسلمين بالشرك والكفران، للشيخ داود بن سليمان البغدادي. هدية العارفين ٢/٧٠.

- يهود لا حنابلة، للشيخ الظواهري شيخ الأزهر.

- ضلالات الوهابية وجهالة المتوهبين، عيدان الحاج وصيف بن الحاج محمد من علماء الشافعية بالأزهر. ذكر إنه شرع في تأليفه للرد عليهم.

- تحذير أحباب الأولياء من مقاربة دعوة التفرق والجفاء.

عدد في الرد على الوهابية أصدره المعهد التيجاني للمذاكرة بالقرآن والحديث

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهابية ﴾

وعلومهما بأم درمان - السودان.

- صاروخ الغارة، للشيخ محمد الطاهر يوسف التيجاني المالكي الأشعري مطبوع بالسودان.

- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر - دمشق ١٩٨٨ م.

- اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كذلك.

- نقض فتوى الوهابية، للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء النجفي، (١٢٩٤ - ١٣٧٣هـ) طبع بالمطبعة العلوية/ النجف ١٣٤٥هـ أنظر الذريعة.

- الآيات البينات في قمع البدع والضلالات في ذكر المواكب الحسينية وردود على الوهابية والطبيعية والبابية، وما يخص الوهابية باسم «رسالة نقض فتوى الوهابية».

للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء النجفي، (١٢٩٤ - ١٣٧٣هـ). طبع المطبعة العلوية/ النجف (١٣٥٤هـ) أنظر الذريعة.

- الآيات الجلية في رد شبهات الوهابية، للشيخ مرتضى كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٩٣١م، معجم المؤلفين العراقيين ٣ /٢٩٤ [جزءان].

- الأرض والتربة الحسينية، للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء النجفي.

- إزاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة، للشيخ عبد الله بن محمد حسن المامقاني المتوفى سنة ١٣٥١. المطبعة المرتضوية/ النجف ١٣٤٥ هـ طبع مع كتابه «مخزن اللآلي». الذريعة ٥٢٨/١، رقم ٢٥٧٥.

- إزهاق الباطل في رد الوهابية، لإمام الحرمين. الميرزا محمد بن عبد الوهاب آل داود الهمداني الكاظمي المتوفى سنة ١٣٠٣. الذريعة ٦٢/١١.

- الإسلام السعودي الممسوخ، للسيد طالب الخرسان نشر جماعة المدرسين في قم/١٤٠٩هـ

- إهداء الحقير معنى حديث الغدير إلى أخيه البارع البصير في دفع بعض أوهام الوهابية، للسيد مرتضى بن أحمد الخسرو شايعي. طبع في النجف ١٣٥٣. طبع في النجف ١٣٥٣. الذريعة ٤٨٢/٢ رقم ١٨٩٤.

- بحوث مع أهل السنة والسلفية، للسيد مهدي الحسيني الروحاني. رد فيه على مقالة لإبراهيم السليمان الجهمان. نشر المكتبة الإسلامية، سنة ١٣٩٩.

- البراهين الجلية في دفع شبهات الوهابية ودفع تشكيكاتهم، للسيد محمد حسن آغا مير القزويني الحائري المتوفى سنة ١٣٨٠هـ طبع بالمطبعة العلوية/ النجف ١٣٤٦هـ وأعاد طبعه مطبعة الآداب/ النجف ١٣٨٢هـ وأعادت طبعه دار الغدير، بيروت ١٣٩٤هـ

- تجديد كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، للسيد حسن الأمين.

- التحفة الإمامية في دحض حجج الوهابية، للسيد محمد حسن الحاج آغا مير القزويني الحائري المتوفى سنة ١٣٨٠هـ

- الذريعة ١٦٠/٢٦.

- جوابات الوهابيين، للسيد محمد حسين بن كاظم بن علي بن أحمد الموسوي. الكيشوان النجفي، المتوفى سنة ١٣٥٦هـ الذريعة ٢١٣/٥.

- جواز إقامة العزاء لسيد الشهداء للسيد علي بن دلدار علي النقوي اللكهنوي الهندي المتوفى ١٢٥٩هـ

- جواز العزاء للحسين عليه السلام، بلغة الأردو للسيد ظفر حسن الأمروهي.

– جواز لعن يزيد أشقى بني أمية ردا على بعض الأموية، للشيخ هادي بن الشيخ عباس آل كاشف الغطاء المتوفى ١٣٦١هـ.

– الدر المنيف في زيارة أهل البيت الشريف، لأحمد بن أحمد المصري ألفه سنة ١٢٦٧هـ في كتب المكتبة الخديوية/ مصر. كشف الظنون. عمود ٤٥٣. الذريعة ٧٩/٨.

– دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى. في رد فتاوى الوهابيين بهدم البقاع المحترمة للعلامة الشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ طبع في النجف الأشرف في المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٥ م. الذريعة ٢٠٧٦/٨.

– دعوة الحق إلى أئمة الخلق، للسيد محمد هادي بن السيد علي البجستاني الحائري المتوفى سنة ١٣٦٨هـ في مجلدين طبع الأول سنة في بغداد في مطبعة النجاح والثاني مخطوطة أعده للطبع سبط المؤلف السيد محمد جواد الحسيني الجلالي رقم.

– معجم المؤلفين ٤٢٣/٣٠-٤٢٤.

– الرد على الوهابية، للشيخ مهدي جواد البلاغي، المتوفى سنة ١٣٥٢. قال في الذريعة ٢٣٦/١٠: «رأيته بخطه في كتبه في النجف الأشرف. وهذا يعني أنه غير مطبوع.

– الرد على الوهابية، للسيد محمد بن محمود الحسيني اللواساني المعروف بالعصار. المتوفى سنة ١٣٥٦ . الذريعة ٢٣٦/١٠.

– الرد على الوهابية، للشيخ محمد علي الأوردبادي بن أبي القاسم النجفي طبع سنة ١٣٤٥ هـ الذريعة ٢٣٦/١٠.

– الرد على الوهابية، للشيخ مهدي بن محمد علي الأصفهاني ولد ١٢٩٨هـ مطبوع.

- الرد على فتاوي الوهابيين، للسيد حسن الصدر الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٤هـ طبع لأول مرة في بغداد سنة ١٣٤٤هـ وثانيا في لكنهو الهند ١٣٥٤هـ بترجمة المؤلف بقلم السيد علي تقي اللكهنوي الهندي. معجم المؤلفين العراقيين ٣٢٠/١.

- رد الفتوى بهدم قبور الأئمة في البقيع، للشيخ محمد جواد البلاغي المتوفى سنة ١٣٥٢هـ مطبوع، معجم المؤلفين العراقيين ١٢٤/٣.

- رسالة في هدم المشاهد، للسيد أبي تراب الخونساري المتوفى سنة ١٣٤٦هـ الذريعة ٢٠١/٢٥.

- التبرك، للشيخ علي الأحمدي الميانجي.

- التوحيد والشرك، للعلامة جعفر السبحاني، مطبوع.

- بحوث في الملل والنحل، للعلامة جعفر السبحاني، خص الجزء الرابع لمعالجة مذهب ابن تيمية في العقائد وكذا تلميذه ابن عبد الوهاب. وهو من أهم ما كتب ردا على الوهابية.

- السيف الحيدري في جواز تقبيل ضريح الحسين بن علي عليه السلام.

بالفارسية لولايت علي بن غلام رسول رد فيه على «الصراط المستقيم». لعبد الحي. الذريعة ٢٨٦/١٢.

- شبهات الوهابية، لحسن بن أبي المعالي، مطبوع في النجف.

- الشيعة والوهابية، للسيد مهدي ابن السيد صالح القزويني الكاظمي نزيل البصرة المتوفى سنة ١٣٥٨هـ الذريعة ٢٧٤/١٤.

- شؤون الشيعة والوهابية، للسيد محمد مهدي القزويني الكاظمي المتوفى سنة ١٣٥٨هـ مطبوع في النجف، معجم المؤلفين العراقيين ٢٥٣/٣.

- صفحة عن آل سعود الوهابيين وآراء علماء السنة في الوهابية، السيد

مرتضى الرضوي طبع بطهران سنة ١٤٠٨هـ

- الصوارم الماضية لرد الفرقة الهاوية وتحقيق الفرقة الناجية في الإمامة، السيد محمد المهدي بن الحسن القزويني الحلي المتوفى سنة ١٣٠٠هـ الذريعة ٩٣/١٥.

- صواعق محرقة في علائم الظهور ورد الوهابية في تخريب البقاع المتبركة، للشيخ أبي الحسن بن محمد الدولت آباد المرندي النجفي طبع طهران ١٣٣٤ شمسية [بالفارسية]. الذريعة ٩٤/١٥.

- العقود الدرية. منظومة شعرية في الرد على الوهابية.

من نظم الإمام السيد محسن الأمين العاملي الشامي. طبعت مع كتابه كشف الارتياب.

- غفلة الوهابية عن الحقائق الدينية، للسيد مهدي القزويني الكاظمي. الذريعة ٥٩/١٦.

- الفصول المهمة في مشروعية زيارة النبي والأئمة. للشيخ مهدي الساعدي العماري النجفي، الذريعة ٢٤٦/١٦.

- هكذا رأيت الوهابيين، عبد الله محمد.

- كشف الارتياب في رد عقائد بن عبد الوهاب، للسيد محسن الأمين العاملي الشامي المتوفى سنة ١٣٧٢هـ طبع في صيدا وبيروت، ورتبه ابنه مع مقدمة مفصلة بعنوان «تجديد كشف الارتياب»، الذريعة ٣٠٢/١٥.

- كشف النقاب عن عقائد ابن عبد الوهاب، للسيد علي نقوي اللكهنوي الهندي، المتوفى سنة ١٤٠٩هـ طبع المطبعة الحيدرية النجف ١٣٤٦، الذريعة ٦٥/١٨.

- كفر الوهابية، للشيخ محمد علي القمي الكربلائي الحائري، المتوفى سنة

١٣٨١هـ معجم المؤلفين ٢١٧/٣.

- الكلمات الجامعة حول المظاهر القرآنية، للميرزا محمد علي الأردوبادي النجفي، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ الذريعة ١١٤/١٨، رقم ١٦١.

- المشاهد المشرفة والوهابيون، للشيخ محمد علي السنقري الحائري، المتوفى سنة ١٣٥٤هـ طبع بالمطبعة العلوية/ النجف ١٣٤٥هـ الذريعة ٣٨/٢١، معجم المؤلفين العراقيين ٢١٠/٣.

- مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم، للشيخ جعفر السبحاني: ترجمة إبراهيم أركوازي. طبع طهران الإرشاد الإسلامي، سنة ١٩٨٦م. - مكة.

للدكتور الشيخ هادي الأميني، نشر مكتب نشر العلم والأدب. طهران/ ١٤٠٨هـ

- المناهج الحائرية في نقض كتاب الهداية السنية، للسيد محمد حسن الحاج آغا مير الموسوي القزويني الحائري، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ

- منهج الرشاد لمن أراد السداد في الرد على الوهابية، للشيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير، طبع في النجف المطبعة الحيدرية سنة ١٣٤٣هـ

- منظومة في الرد على الوهابية [في ١٥٠٠ بيت].

مطلعها:

لا ريب أن مكون الأكوان ذو حكمة بشهادة الإتقان

للشيخ عبد الحسين الخيامي العاملي، المتوفى سنة ١٣٧٥هـ الذريعة ١١٠/٢.

- المواسم والمراسم في الإسلام، للسيد جعفر مرتضى العاملي، بحث حول مشروعية ومحبوبية إقامة مراسم الاحتفال في الأعياد أو مظاهر الحزن في المآتم.

- الهادي في جواب مغالطات الفرقة الوهابية.

رد على «كشف الشبهات» لمحمد بن عبد الوهاب، للشيخ محمد الفارسي الحائري الدليمي، مطبوع بالمطبعة العلوية - النجف الأشرف ١٣٤٦هـ الذريعة ٢٣٦/١٠، معجم المؤلفين العراقيين ٢٢٣/٣.

- الهدية السنية في إبطال مذهب الوهابية، للسيد محمد حسن الحاج آغا مير القزويني الموسوي الحائري، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ الذريعة ٢١٠/١٥.

- هذه هي الوهابية، للشيخ محمد جواد مغنية العاملي، المتوفى سنة ١٤٠٠هـ طبع بيروت، وأعيد طبعه في طهران ١٩٨٧م.

- الوجيزة في رد الوهابية، لعلي بن علي رضا الخوئي، المتوفى سنة ١٣٥٠هـ الذريعة ٥١/٢٠.

- الوهابية في الميزان، للشيخ جعفر السبحاني، مطبوع في قم سنة ١٩٨٧ م، نشرته جماعة المدرسين/ قم.

- وهابيان، لعلي أصغر فقيهى [بالفارسية]، مطبوع في طهران ١٩٧٣ م.

- وهابيت وريشه هاي آن، لنور الدين المدرس جهاردهي، [بالفارسية]، طبع في طهران ١٩٨٤ م.

- وهابيها، للسيد إبراهيم السيد علوي، [بالفارسية]، طبع في طهران.

- نقد وتحليل بيرامون وهابيگري.

الدكتور همايون همتي، منظمة الإعلام الإسلامي، [بالفارسية]، طهران سنة ١٣٦٧هـ ش.

- فلسفه عزاداري، لغلام حسين بن محمد ولي، مطبوع [بالفارسية].

- فرقه وهابي وباسخ به شبهات آنها.

ترجمة كتاب «البراهين الجلية»، [بالفارسية]، للسيد حسن الحاج آغامير القزويني الحائري، ترجمة الشيخ علي دواني مع مقدمة، طبع بطهران الإرشاد الإسلامي، سنة ١٣٤٧.

= دليل واقعي در جواب وهابي، للسيد حسين عرب باغي طبع إيران، [بالفارسية]، الذريعة ٨/٢٦٢.

– تحليل نو بر عقائد وهابيان.

أي تحليل جديد لعقائد الوهابيين. لمحمد حسن الإبراهيمي، [بالفارسية]، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم سنة ١٣١٧ ش.

= أين است آئينه وهابيت، للسيد إبراهيم السيد علوي، [بالفارسية]، طبع في طهران.

– آئين وهابيت، للشيخ جعفر السبحاني، باللغة الفارسية، طبع في قم عامي (١٩٨٤ – ١٩٨٥م).

– إكمال السنة في نقض منهاج السنة، للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي المعروف بالكيشوان، المتوفى سنة ١٣٥٨، الذريعة ١٠/١٧٦.

– إكمال المنة في نقض منهاج السنة، للشيخ سراج الدين حسن بن عميمي اليماني اللكهنوي الشهير بالشيخ خدا حسين، المتوفى سنة ١٣٥٣م، الذريعة ٢/٢٨٣، رقم ١١٤٨.

– الإنصاف والانتصاف لأهل الحق من الإسراف في الرد على ابن تيمية الحنبلي الحراني.

تم تأليفه سنة ٧٥٧ هـ توجد نسخة منه في المكتبة الرضوية مشهد، رقم ٥٦٤٣، وأخرى في مكتبة ملي/ طهران رقم ٤٤٨٥، وثالثة في مكتبة كلية الحقوق/ طهران رقم ٢١٣٠.

- البراهين الجلية في ضلال ابن تيمية، للسيد حسن الصدر الكاظمي، المتوفى سنة ١٣٥٤هـ كتاب ضخم أقام الأدلة فيه على ضلاله بأقواله وأفعاله وبشهادة علماء السنة الأشعرية وحكمهم عليه بالزيغ. وقد أحصى سيئاته ومخالفاته للإجماع الأمة، واستطرد لذكر ابن القيم والوهابيين فكشف حالهم وأبان ضلالهم بما لا مزيد عليه. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ٢٠، الذريعة ٧٩/٣.

- خير الحجة في الرد على ابن تيمية في العقائد، لأحمد بن الحسين بن جبريل شهاب الدين الشافعي، هدية العارفين ١٠٨/١.

- دفع شبه التشبيه في الرد على جهلة الحنابلة، لأبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي المتوفى سنة ٥٩٧هـ

- دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد لتقي الدين الإمام أبي بكر الحصني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩هـ طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي/ القاهرة ١٣٥٠هـ وهو رد على ابن تيمية وآرائه الفاسدة في العقائد كالتجسيم، وتعرض لمسألة زيارة القبور بتفصيل.

- الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية، للشيخ علي بن عبد الكافي شيخ الإسلام التقي معاصر ابن تيمية. رد عليه في حياته وبعد وفاته بعدة مصنفات.

- الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية، لمحمد بن علي الشافعي الدمشقي كمال الدين المعروف بابن الزملكاني. كشف الظنون ٧٤٤/١، هدية العارفين ١٤٦/٢، معجم المؤلفين ٢٢/١١.

- رد على ابن تيمية، لأحمد بن محمد الشيرازي أبو القاسم كمال الدين. معجم المؤلفين ١٥٠/٢.

- الرد على ابن تيمية في الاعتقادات، لمحمد حميد الدين الحنفي الدمشقي الفرغاني. معجم المؤلفين ٣١٦/٨.

- الرد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، لعيسى بن مسعود المنكلاتي. معجم المؤلفين ٣٣/٨.

- رد على الشيخ ابن تيمية، للشيخ نجم الدين بن أبي الدر البغدادي. كشف الظنون ١٥٢٧/٢.

- الرد على المشبهة في قوله تعالى ﴿الرحمان على العرش استوى﴾.

للقاضي بدر الدين ابن جماعة محمد بن إبراهيم الشافعي. المتوفى سنة ٧٣٣هـ كشف الظنون ٨٣٩/٢.

- الردود الستة على ابن تيمية في الإمامة، للسيد عبد الله بن أبي القاسم البلادي البوشهري، مطبوع، الذريعة ٢٣٨/١٠.

- رسالة في الرد على ابن تيمية في التجسيم والاستواء والجهة، للشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيى الكلابي الحلبي، المتوفى سنة ٧٣٣، شذرات الذهب ١٠٤/٦، طبقات الشافعية ١٨١/٥، معجم المؤلفين ٢٠١/٢.

- رسالة في الرد على ابن تيمية في الطلاق، لمحمد بن علي المازني، معجم المؤلفين ٣١/١١.

- رسالة في مسألة الزيارة في الرد على ابن تيمية، لمحمد بن علي المازني، معجم المؤلفين ٣١/١١.

- السيف الصقيل في رد ابن تيمية وابن القيم الجوزية، لتقي الدين السبكي طبع في مصر مع تكملة للمحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري.

- السيوف المشرفية لقطع أعناق القائلين بالجهة والجسمية، لعلي بن محمد الميلي الجمالي التونسي المغربي المالكي، هدية العارفين ٧٧٤/١، إيضاح المكنون ٣٧/٢.

- شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام، للشيخ أبي الحسن على تقي الدين السبكي الشافعي قاضي القضاة، طعن في ابن تيمية وقال عنه

«المبتدع»، كشف الظنون ٨٣٧/١ باسم «رد على ابن تيمية»، هدية العارفين ٧٢١/١.

- فرقان القرآن بين جهات الخالق وجهات الأكوان، للشيخ سلامة العزامي القضاعي الشافعي، رد فيه على القائلين بالتجسيم ومنهم ابن تيمية والوهابية، طبع بمصر باهتمام محمد أمين الكردي، في مقدمة كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي، وأعادت طبعه دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- المقالة المرضية في الرد على ابن تيمية، لقاضي قضاة المالكية تقي الدين بن عبد الله محمد الأقناني.

- منهاج الشريعة في الرد على ابن تيمية، للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي، المعروف بالكيشوان، المتوفى سنة ١٥٨ هـ طبع في جزئين في النجف ١٣٤٧ هـ الذريعة ١٧٦/١٠. معجم المؤلفين ٢٥٤/٣.

- نجم المهتدين برجم المعتدين في رد ابن تيمية، للفخر ابن المعلم القرشي.

- الحقائق الجلية في الرد على ابن تيمية، للشيخ شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي، مطبوع، بتحقيق الدكتور الدسوقي حبيشي.

- إعتراضات على ابن تيمية، لأحمد بن إبراهيم السروطي الحنفي، معجم المؤلفين ج ١٤٠/١.

- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين «أحمد بن تيمية وأحمد بن حجر».

للشيخ نعمان بن محمود الآلوسي، إيضاح المكنون ٢٦٣/١، معجم المؤلفين ١٠٧/١٣.

- وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى، العلامة نور الدين السمهودي، المتوفى سنة ٩١١هـ مطبوع

- الإعتقاد بفناء الجنة والنار في الرد على ابن تيمية وابن القيم

الجوزية القائلين بفناء النار، لتقي الدين السبكي تحقيق وتعليق طه الدسوقي حبيش.

- ضلالات الوهابيين جهالة المتوهبين، عيدان الحاج وصيف، من علماء الشافعية بالأزهر الشريف.

- الجوهر المنظم في زيارة قبر النبي الأكرم، أحمد بن حجر الشافعي.

- رسالة رد شبهات الوهابية. صدر الدين أبو موسى الصدر.

- المقالات السنية في كشف ضلالات أحمدّ بن تيمية، للشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي، طبع دار المشاريع، بيروت ١٩٩٤.

***

الوهابية "السلفية" والدولة السعودية
من الاتفاق إلى الاختلاف

الإتفاق:

لا يمكن للباحث أن يدرس تاريخ الحركة الوهابية وتطورها بمعزل عن الدولة السعودية ورجالاتها خصوصا في الميدان السياسي، والعكس كذلك صحيح. إذ لا يمكن فهم سلوك هذه الأسرة بدون استحضار المذهب الوهابي. فالدولة السعودية لم تكن لتظهر إلى الوجود أول مرة لولا الحركة الوهابية، وهذه الأخيرة لم يكن يتسنى لها الانتشار الذي عرفته قديما وتعرفه حديثا دون الدعم والمساندة اللتان تقدمهما هذه الدولة لها.

والنتيجة إن كلا منهما يدعم الآخر، يقويه ويمد في عمره، ولا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر لضمان استمراريته، اللهم إلا إذا تحدثنا عن القوة الذاتية في الأفكار والايديلوجيات والتي تدعم بقاء الحركة الفكرية بعيدا عن بقاء الدول أو فنائها.

لقد انطلقت كل من الحركة والدولة في مرحلة تأسيس وانتشار منذ أن التقى محمد بن عبد الوهاب الفقيه الحنبلي بالأمير محمد بن سعود، حيث تولى الأخير قيادة الجيوش للغزو والجهاد وفتح بلدان الكفار والمشركين ثم الرجوع إلى الشيخ ابن عبد الوهاب ليضع بين يديه الغنائم. لكن مهمة الشيخ لم تكن منحصرة في انتظار الغنائم وتقسيمها، ولكنه كان منشغلا بالتدريس وجلب الطلاب وتلقينهم الفهم الجديد للتوحيد والإسلام بشكل عام، في حركة بعثية وتعليمية على نطاق واسع. وهؤلاء الطلاب والتلاميذ هم من كان يضمن انتشار الحركة واتساعها ومعرفة باقي القبائل لما تدعو له.

كما أن هؤلاء الطلبة أو الأتباع الذين أخذوا عقائدهم الجديدة على يد الشيخ ابن عبد الوهاب نفسه كانوا يمثلون الركيزة الأكثر قوة في ضمان السيطرة العسكرية للأسرة الحاكمة على القبائل والبلدان المفتوحة.

فقد كانوا يتوزعون على عدة مناصب أولها منصب إمام مسجد حيث يصلي «الوهابي» بالناس خمس صلوات وكذا إمامة الجمعة. بالإضافة إلى وظيفة الوعظ والإرشاد ونشر العلم في المساجد مما يعطي الحركة مجالا واسعا للتأثير والانتشار. ومن ثم الاطمئنان للغزاة والركون إليهم. وإذا أضفنا وظيفة القضاء وجمع الزكاة والتي كانت حكرا على دعاة الوهابية، عرفنا حجم السيطرة الدينة التي كانت بيد هذه الحركة.

وعليه فقد كانت الحركة ممثلة في شخص زعيمها ابن عبد الوهاب تمثل الشريان الحقيقي الذي يغذي بقاء الدولة ويدعم استمراريتها. فهي تمدها بمحاربين أقوياء مسلحين بالإيمان بأن خصومهم كفار ومشركون حلال دمهم ومالهم. وإن ما يقومون به هو عين الجهاد الذي قام به النبيﷺ والصحابة.

فهم إذن أمام إحدى الحسنيين إما النصر والغنائم وإما الاستشهاد والجنة. وهذه العقيدة قد رفعت معنويات الجيش بشكل كبير وجعلته يحقق انتصارات كبيرة ويوسع جغرافية الدولة بشكل سريع جدا. كما أن الحركة كانت وكما ذكرنا تعد وتنشئ الإداريين الجدد الذين كانت الدولة في حاجة لهم مثل القضاة وجباة الضرائب.

حالة الوفاق التام:

ولما كانت الفتوحات في تصاعد مستمر والمغانم متوفرة وكثيرة خصوصا مغانم قبر الحسين رضي الله عنه، ومسروقات الحجرة النبوية الشريفة ومئات الألوف من الأغنام والخيول والإبل التي وصلت الدرعية بعد ما انتزعت وسرقت من أصحابها في الحجاز أو أطراف الشام والعراق. أقول لما كان الوضع الاقتصادي جيدا للغاية كانت أمور الحركة والدولة تسير في أحسن الظروف. فالقضاة

والمؤذنون وأئمة المساجد والدعاة «المطاوعة»، كل يجد ما يكفيه من بيت مال المسلمين وأجورهم جارية بالإضافة إلى امتيازات شخصية تخص الشيخ ابن عبد الوهاب وعائلته لأنهم كانوا في الحقيقة يتقاسمون السلطة بطريقة ما مع آل سعود.

فلم يكن الأمير السعودي الحاكم مطلق التصرف في دولته بل كان من الضروري أن يرجع إلى رأي واستشارة الشيخ أو علماء الوهابية بعد ذلك وعلى رأسهم أبناء الشيخ وأحفاده.

وعليه يمكن أن يقال بأن الدولة السعودية الأولى قد سجلت حالة الوفاق التام بين الحركة والدولة وكان كل واحد منهما يدعم الآخر ويقوي جانبه الدولة بالأموال وما تحققه جيوشها من توسع جغرافي يضمن للوهابية مزيدا من الانتشار. والحركة تمد الدولة بالموظفين والإداريين والجنود وتمد الجيش بالدعم العقائدي ليستمر في الغزو والنهب والتوسع.

وهكذا استطاعت الحركة الوهابية الدينية ليس فقط إعطاء الشرعية السياسية للدولة السعودية بل شكلت خيوط تماسكها وقوتها، فلا يمكن بتاتا الكلام عن دولة سعودية دون حركة وهابية.

وإذا كان العالم الإسلامي قد تدخل أخيرا للقضاء على هذه الدولة بعد ما وصل السيل الزبى وسالت الدماء أنهارا في الحجاز والحرمين الشريفين وأطراف العراق والشام، وتمكن فعلا من تدمير دولتهم وتخريب مقر ملكهم «الدرعية» وتهجير الكثير من أفراد عائلة آل سعود وآل الشيخ. فإن الحركة الوهابية لم تعرف الهزيمة النهائية ولم يتمكن الجيش الإسلامي (المصري والتركي) من إجتثاث جذورها في بلاد نجد، وما كان له أن يقدر على ذلك. إذ كانت المهمة منحصرة في القضاء على دولة تثير الفتن والقلاقل بجيوشها البدوية.

أما الوهابية فكانت قد وجدت طريقها إلى عقول وقلوب الكثير من شبان نجد وشيوخها وانتشرت كتب الشيخ ابن عبد الوهاب ورسائله بين الطلبة هناك. ولا نعتقد

أن الضربة العسكرية وإن كانت قوية قد أثرت على إيمان من كان قد آمن بعقائد التوهب آنذاك. ولم يتهم «العقيدة الجديدة» بأنها سبب ما حل بالقرى والمدن من خراب، سوى من لم يكن قد آمن بها وإنما كان خاضعا لقوة السيف. أما الأتباع المخلصون للعقيدة الجديدة فقد اتهموا أنفسهم والتزامهم الديني وأرجعوا الهزيمة إلى «الذنوب» التي اكتسبها المجتمع الوهابي آنذاك فاستحق العذاب وخربت بلده وقضي على دولته.

هذه «الذنوب» التي لم يبين لنا المؤرخ ابن بشر ما هي وما طبيعتها. وإن كان سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم من كبائر الذنوب، لكن لا أظن أن ابن بشر يقصد ذلك، لأن ذلك في عرفه جهاد في سبيل الله.

لكن الجيش الإسلامي وإن لم يقض على الحركة الوهابية فإنه بلا شك استطاع أن يخرب الجهاز أو الإطار الذي كان يجمع الوهابية. وبعد الهزيمة وتهجير آل الشيخ إلى مصر لم يعد هناك من محور يلتف حوله أتباع هذه الحركة التي لم تكن قد تشكلت كمؤسسة دينية واضحة المعالم، كما لم تظهر شخصية فاعلة أو متميزة يمكنها أن تلعب دور المحور الذي يعيد تجميع ما تفرق، وإنما ظلت الوهابية موجودة بشكل عام لدى بعض الطلبة والمشايخ الذين لم يرتدوا عن تعاليمها. بل استمر تلقينها ودراسة بعض كتب الشيخ ابن عبد الوهاب، لكن على نطاق ضيق وبشكل فردي. ولو استمر الأمر على ذلك لكانت اليوم في حكم المندثر الذي عفا عنه الزمان. لكن قرنا سياسيا سينجم لهذه الحركة من جديد ومعه ستلبس الحركة الوهابية ثوبها الجديد وستنطلق فاتحة غازية مرة أخرى.

الحركة الوهابية والدولة السعودية الثانية:

مع الدولة السعودية الثانية التي حاول إحياءها تركي ابن أخي عبد العزيز (١٢٣٩ - ١٢٥٠م) لم يكن للوهابية شأن يذكر.

أولا: لأن الدولة نفسها لم تكن قائمة كما كانت قبل ذلك فلم يستطع أمراء آل سعود الذين رجعوا بعد الهروب الجماعي عند خراب الدرعية أن يعيدوا

ممتلكاتهم الجغرافية، وإن استطاعوا السيطرة على الرياض فإنهم لم يجاوزوها إلا قليلا، خصوصا وأن قيادات محلية أخرى كانت قد قويت في غيابهم وعلى حساب هزيمتهم، كما أن الجيش المصري لم يكن قد غادر الساحة بعد وما زالت مصر مهتمة بالحجاز ونجد.

لذلك دخل الأمراء السعوديون في حروب جزئية كثيرة كان هدفها الأول استرجاع بعض ممتلكاتهم ليس إلا، لكن الحظ لم يسعفهم آخر المطاف حيث خرج آخر أمرائهم عبد الرحمان بن فيصل من نجد[(١)]. وبعد تنقله من بلد إلى بلد استقر به الحال في الكويت حيث استظافه حاكمها ابن الصباح وضل منفيا هناك بضع سنين إلى أن كبر ابنه عبد العزيز الذي سيعيد الكرة مرة أخرى لاسترجاع ملك الآباء والأجداد.

والذي يهمنا نحن هو أن الدولة السعودية الثانية لم يسجل بها أي تحرك وهابي ديني دعوي مثلا، ولم نسمع عن نغمة الجهاد في سبيل الله ولا عن دعم علماء الوهابية لهذه الدولة أو انضمامهم إليها. فكل وقائع هذه الدولة الثانية منحصرة في هجومات وهجومات مضادة على هذه البلدة أو هذه القرية دون فائدة ترجى في الأخير. لذلك يصعب علينا أن نتكلم عن علاقة ما بين الحركة الوهابية وأسرة آل سعود في هذه الدولة.

الإنتصار الجديد:

إستطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن بمساعدة ابن الصباح حاكم الكويت أن يجهز فرقة محاربة دخل بها إلى نجد وتسلل منها إلى الرياض التي سقطت في يديه بعد قتل أميرها وذلك سنة ١٩٠٢ م. وبعد أن بويع له فيها بالإمارة بدأ بتحركات عسكرية لاسترجاع ملك آبائه وأجداده وقد ساعدته الظروف الدولية أيما

---

(١) انتهى وجود دولة السعوديين الثانية رسميا في أواخر عام ١٨٨٧ م، أنظر فاسيليف، م. س.

مساعدة. خصوصا الدعم البريطاني الغير مباشر عن طريق ابن الصباح.

لأن بريطانيا كانت تريد أن تضعف الإمارات داخل الجزيرة والتي كانت تتعاون مع الأتراك، خصوصا إمارة حائل. وبذلك استطاع عبد العزيز أن يسترد في فترة وجيزة بعض المناطق في نجد، ويحقق انتصارات أثارت الكثير من المخاوف والقلق لدى الدولة العثمانية التي أرسلت وحدات عسكرية لحربه لكنها فشلت فشلا ذريعا آخر المطاف وانتصر عبد العزيز. مما ساعد على انضمام قبائل جديدة إليه، وبدأ وضعه يتحسن أمام آل الرشيد المدعومين من طرف الدولة العثمانية وكذلك في مواجهة حاكم الحجاز.

لم يكن لدى عبد العزيز سند متين وواسع بالقدر الكافي في أواسط الجزيرة رغم نجاحاته الأولى. فلم يكن يتمتع بدعم الدعوة الدينية السياسية التي رصت صفوف السكان وجعلتهم يلتفون حول آل سعود في عهد أجداده[1] أي إن حركة عبد العزيز هذه من احتلال الرياض، ومحاولة استعادة ملك الآباء لم تكن لها أي انطلاقة دينية، إنما هو الملك والصراع من أجله. وإلى حدود سنة ١٩١٢ م لم يكن هناك أي صدى ديني أو دعوي في حركة عبد العزيز العسكرية والسياسية وإنما غدا مثله مثل باقي الأمراء في الجزيرة العربية وبلاد نجد يصارع من أجل السيطرة على أكبر مساحة من تلك المنطقة.

ظهور حركة الإخوان:

في تلك الأثناء ظهرت في نجد حركة الإخوان، ومن المستبعد أن يكون عبد العزيز من واضعي فكرة الإخوان أو من مؤسسي هذه الحركة. فإن المؤسسين الروحيين للحركة هم قاضي الرياض عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف من آل الشيخ وقاضي الأحساء الشيخ عيسى والمدعو عبد الكريم المغربي الذي وصل إلى

---

(١) فاسيليف، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

الجزيرة العربية في أواخر القرن التاسع عشر واستقر في منطقة صارت فيما بعد هجرة الأرطاوية[١].

كانت بداية ظهور هجر الأرطاوية عندما قررت بعض القبائل الاستقرار قرب وادي يقع في طريق القوافل بين القصيم والكويت. وذلك للاشتغال بالزراعة ودراسة التوحيد. حيث باع قسم من قبيلة مطير بعض إبلهم وخيامهم وانضم إليهم فخد من قبيلة حرب. فانطلقوا في بناء البيوت وأعلنوا الاستقرار.

وبعد مدة من نجاح هذه العملية انتشرت فكرة «الهجر» هذه فظهرت في نجد «هجر» متعددة مثل هجرة في «الغطغط» أنشأتها قبيلة عتيبة، واستمرت القبائل في إنشاء هجر خاصة بها حتى بلغ عددهم سنة ١٩٢٣م اثنان وسبعون هجرة.

وفي هذه «الهجر» بدأت حركة دينية نشيطة لبعث عقائد الوهابية. يقول حافظ وهبه:»قرأوا من آية الإخلاص لله ودينه... وآية الإيمان الصحيح التخلص من كل ما يشم منه رائحة الجاهلية، فأخذوا يبيعون إبلهم وأغنامهم، وينقطعون في الهجر للعبادة وسماع السيرة النبوية، وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم. وتاريخ انتشار الإسلام في جزيرة العرب. فوجدوا أن حياتهم الأولى تشبه حالة الإسلام في حياته الأخيرة. فعكف أكثرهم على تعلم مبادئ القراءة وحفظ شئ من القرآن والحديث[٢].

اختلف المؤرخون في تحديد سنة ظهور هذه الحركة الجديدة. فالسعوديون يحاولون التأكيد على أن عبد العزيز هو الذي أسس حركة الإخوان، وبعض المؤرخين قال إنه أسسها في عام ١٩١١، وآخرون قالوا سنة ١٩١٢ م وقسم ثالث قال سنة ١٩١٣ م. والدكتور غسان سلامة يذكر أن الحركة أسست عام ١٩١١م

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٠..

(٢) انظر: حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين.

وأشار إلى أن عبد العزيز وراءها[١].

كما يذهب محمد المانع مترجم الملك عبد العزيز إلى ذلك حين يقول:

«في سنة ١٩١٢م قام بإحياء الحركة الدينية التطهيرية التي أنشأها محمد بن الوهاب في القرن الثامن عشر[٢]. لكن محمد جلال كشك والذي يعتبر من بين المطلعين على أسرار تاريخ آل سعود لا يقول بذلك وإنما يذهب إلى أن هذه الحركة. ظهرت براعمها تلقائيا، كما هو الحال في كل الإرهاصات الكبرى في التاريخ. أما دور الملك عبد العزيز «فهو الذي أعطاها شكلها ومضمونها، وهو الذي غير بها التاريخ، وأدخلها التاريخ»[٣]، ولمعرفة ماذا يقصد كشك بشكلها ومضمونها، يقول جمال زكريا قاسم: «في أواخر عام ١٩١٥م راع ابن سعود تضخم هذه الحركة مما وضعه أمام حلين إما أن يقضي عليها أو يصبح زعيما لها وبالتالي تتاح له فرصة استغلال حماسة أتباعها في تدعيم نفوذه في الجزيرة العربية وسواحل الخليج. وقد اختار ابن سعود الأمر الثاني رغم تحذيرات عبد الله بن جلوي حاكم الأحساء، الذي نصحه فيما يقال بالتخلي عن هذه الحركة التي شبهها بنار تلتهم كل شئ أمامها.

وفي عام ١٩١٦ م أصدر ابن سعود أمره القاضي بانخراط جميع قبائل نجد في صفوف الحركة الجديدة وأن يدفعوا له الزكاة بصفته إمامهم الشرعي[٤].

وبالتالي فالملابسات أصبحت واضحة. حركة الإخوان انطلقت بعيدة عن الملك عبد العزيز الذي كان منشغلا بتوسيع رقعة ملكه بعدما سيطر على الرياض. ولما دخل الأحساء وهي منطقة غنية وكبيرة أصبح يملك القوة والسيادة التي تجعله

(١) السياسة الخارجية السعودية، ص ٤٣.

(٢) توحيد المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٠٤ هـ ص ٧١.

(٣) السعوديون والحل الإسلامي، ص ٥٥٧.

(٤) الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ص ٩٠.

يراقب كل حركة داخل نجد أو خارجها، ولم يكن من مصلحته أن يهمل حركة دينية قوية بدأت في الانتشار وتحمل العقيدة الوهابية، وهو يعرف حق المعرفة ماذا تعني حركة وهابية. إذ لو برز فيها قائد يستطيع تجميع أفرادها حوله فسيعني ذلك بداية الجهاد والفتوحات. لذلك كان عبد العزيز ذكيا عندما حاول التقرب إلى شيوخ هذه الحركة واستمالتهم ومن ثم احتواء الحركة ككل، التي تحولت إلى قوة عسكرية ضاربة سيرجع لها الفضل في ما حققه الملك عبد العزيز من توسع واسترجاع لما ضاع من ملك الأجداد، وصولا إلى استرجاع الحجاز والحرمين الشريفين.

في هذه الأثناء يمكن أن نتكلم عن وفاق شبه تام بين الحركة الوهابية الجديدة وبين الدولة السعودية الثالثة. أما الخلافات التي كانت تقع بينه وبينهم فلم تكن تعدو ملاحظات قاسية على شكل الإمام الجديد ولباسه وبعض تصرفاته أو ليونة التزامه بتعاليم الدين واجتهادات الوهابية. لكن هذه الاعتراضات كانت تشكل ضغطا نفسيا دائما للملك ولأفراد أسرته ولضيوفه خصوصا مبعوثي بريطانيا العظمى والذين كان الوهابيون يجهلون سبب قدومهم وبقائهم في بلاد عبد العزيز.

إرهاصات الاختلاف:

كان الخلاف حول هؤلاء الأجانب وعلاقة الملك ببريطانيا من أهم أسباب الخلاف الذي بدأ يظهر بين الملك وشيوخ الوهابية، فهؤلاء لم يكونوا يطيقون بقاء الكفار بين ظهرانيهم ولا يجيزون التعامل معهم. وعندما شارك شكسبير القائد العسكري البريطاني في إحدى حروب الإخوان الجهادية وكان قد استقدمه عبد العزيز معه، امتنع الإخوان عن القتال وكاد الاختلاف أن ينفجر بينه وبينهم. لكن المعركة انتهت بقتل شكسبير في ظروف غامضة.

المهم إن الإخوان كانوا ساخطين جدا على التعامل مع الإنجليز. والحقيقة أنهم لم

يكونوا يعلمون شيئا. كانوا قوة عسكرية بدوية تريد أن تحارب أن تغزو أن تنهب وتقتل وتغنم الأموال والسلاح ليس إلا. كل ذلك باسم الجهاد وقتال الكفار في العراق والشام واليمن والحجاز. أما ابن سعود فقد كان يعلم الظروف المحيطة به جيدا كان يعرف إن بريطانيا قوة عظمى تراقب الوضع في الجزيرة العربية ككل. وكانت كل يوم تحقق انتصارات فعلية باقتطاع أطراف تركة الرجل المريض الذي أجهز عليه. وهكذا استطاعت بريطانيا أن تبسط نفوذها على العراق وعلى الكويت وإمارات الساحل الخليجي بالإضافة إلى تقاسمها مع فرنسا الانتداب على الشام.

أما داخل الجزيرة فكانت بريطانيا تراقب الوضع وتستعد لدعم أي منتصر بشرط أن يكون منضويا تحت حمايتها. وقد كان من رأى المستشارين البريطانيين أن ابن سعود يمكن أن يكون رجل الجزيرة بدل الشريف حسين الذي خذلوه بعد ما طمع في أن يكون ملك العرب المرتقب.

المهم كانت بريطانيا منذ البداية تنظر بعين العطف والرضا لعبد العزيز ولولا مساعدتها المالية والعسكرية[1]، لما كان عبد العزيز قد حقق ما حقق. لكن بريطانيا كانت لها شروطها والتزاماتها. هذه الشروط والالتزامات التي لم يكن الوهابية يعرفونها أو يقيمون لها أي وزن، لكنهم ودون أن يعلموا حقيقة الوضع كانوا يجاهدون عندما كانت بريطانيا تعطي الضوء الأخضر لعبد العزيز وكانوا يتوقفون عندما كانت بريطانيا تأمر بذلك.

يقول فاسيليف بعدما وصل عبد العزيز والجيش الإخواني إلى بلدة تربة واستولوا عليها وعلى مناطق أخرى، وصل من جدة رسول في (٤ تموز ١٩١٩ م) يحمل رسالة من المعتمد البريطاني: «أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن

(١) إبان الحرب العالمية الأولى وافق ابن سعود على الحماية البريطانية واستلم معونات شهرية من الحكومة البريطانية وادعى بأن ذلك مجرد جزية كالتي كان المسيحيون يدفعونها للخلفاء الأوائل، أنظر فاسيليف، ص ٢٧٤.

تعودوا إلى نجد حالما يصل إلى يدكم كتابي هذا وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود، وإذا أبيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعد كل معاهدة بينكم وبيننا ملغية وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية»، وطلب الإنجليز من عبد العزيز أن لا يتحرك نحو الطائف. وعندما استلم أمير الرياض هذا الإنذار أدرك بأنه تمادى كثيرا، فعاد إلى الرياض في الحال. وأمر الإخوان بأن يغادروا الواحات في هذه المنطقة واستبدلهم بفصيل وصل من منطقة حائل كما أعاد أمير تربة السابق إلى منصبه[١].

لقد كان من الصعب على الإخوان فهم هذه الدسائس والمؤامرات فليس هناك تراجع في الجهاد والفتوحات ولا نعلم كيف استطاع إقناعهم بالرجوع إلى الرياض؟.

لكن الإخوان كما قلت سابقا لم يكونوا يعلمون من سياسة بريطانيا في الجزيرة شيئا، حتى المعاهدات التي أبرمها ابن سعود مع بريطانيا لم يكونوا يعلمون عنها شيئا. كما لم يكونوا يعلمون أن جهادهم وهجومهم على جبل شمر وحائل كان بإيعاز من بريطانيا لأن إمارة حائل كانت موالية للدولة العثمانية.

الإخوان كانوا يجاهدون فقط عندما يؤمرون بذلك لتحقيق إحدى الحسنيين، الجنة أو الغنائم. لكنهم في الحقيقة كانوا يخدمون سياسة بريطانيا ويتبعون تعليماتها حرفا حرفا. لذلك لما بدأ الخلاف يستعر بين عبد العزيز وقادة الإخوان وخالفوا أوامره وبدأوا الغزو والجهاد على جنوب العراق تحركت بريطانيا بقوة وأمرت عبد العزيز بوقف هذه الهجومات التخريبية. لكن عبد العزيز لم يستطع إيقافهم فورا لأن الأمر كان قد خرج من يده.

---

(١) فاسيليف، ص ٢٩٧ – ٢٩٨.

بداية الاختلاف

يمكن أن يقال بأن قادة الإخوان بالخصوص كانوا يراقبون أعمال أميرهم ويعدون عليه الأخطاء. فعندما رسمت بريطانيا الحدود بينه وبين الكويت والعراق والأردن التزم عبد العزيز بهذه الحدود لكن الجيش الوهابي لم يفهم هذه العملية التي أفقدته مناطق واسعة للغزو والنهب لأن أهلها كفار، كما أن الحدود الجنوبية كانت قد رسمت تقريبا. وهكذا لم يعد للجيش الوهابي عمل يؤديه. ثم جاءت حادثة المحمل المصري الذي حاول الوهابيون التعرض له أثناء الحج فأطلق ضابط مصري عليهم النار فقتل (٢٥) منهم، لكن عبد العزيز لم يقم بما كان الوهابية ينتظرون منه، بالإضافة إلى تذمر بعضهم من سياسة عبد العزيز في الحجاز، وموقفه من الشيعة في الأحساء، والقطيف لأنهم - أي الوهابية - أشاروا عليه بأن يفرض عليهم الإسلام أو يجليهم عنه البلد لأنهم كفار مشركون.

فلا شك أن الغنى الذي كانت تتمتع به المنطقة، كان يسيل له لعاب البدو وكانوا يتمنون أن يقبل الأمير بالهجوم عليهم بغتة لقتلهم عن بكرة أبيهم. لكن عبد العزيز كان يعلم مخاطر ونتائج هذه العملية لذلك لم يكن ليذهب مع الإخوان بعيدا في هذه القضية.

الإخوان يقدمون قائمة المؤاخذات:

والنتيجة أن بعضا من قادة الإخوان كانوا يرجون كثيرا من تعاونهم مع ابن سعود لكنهم حصدوا العاصفة خصوصا فيصل الدويش شيخ قبيلة مطير الذي كان يأمل أن يجعله عبد العزيز حاكما للمدينة. وكذلك ضيدان بن حثلين شيخ العجمان، وشيخ عتيبة سلطان بن محمد بن بجاد. هؤلاء الثلاثة سيجتمعون في مطلع سنة ١٩٢٦ م ليقدموا قائمة بمجموع النقاط التي يؤاخذون فيها ابن سعود:

كانت في مجملها بالإضافة إلى ما ذكرناه. التعرض صراحة للتعامل مع الإنجليز بلد الكفار وكيف يسافر فيصل بن عبد العزيز إلى لندن للتفاوض معهم. كما ذكرت القائمة رفضهم لبعض الرسوم الجمركية المفروضة على نجد، وتساءلوا

عن سبب حضر التجارة مع الكويت بالإضافة إلى مشاكل الحدود مع العراق والأردن ومشكل الرعي هناك. كما رفضوا ما سموه تسامح عبد العزيز مع الشيعة «الكفار» في الأحساء.

والشئ الغريب الذي طالب به زعماء الإخوان هو رفضهم إدخال التلفون والراديو إلى البلد لأن ذلك بدعة لم تكن على عهد السلف، ثم إن هذه الوسائل ستساعد الأعداء على السيطرة على بلاد المسلمين. كما رفضوا إدخال السيارة، وفعلا أحرقت أول شاحنة ظهرت في مدينة الحوطة[1].

تعامل عبد العزيز مع هذه المطالب والاعتراضات بشيء من المرونة، أما مشكل التلفون فقد قرئ فيه القرآن وسمع البدو ذلك فقالوا لا بأس به.

وبذلك استطاع عبد العزيز أن يحتوي الوضع بعد عدة اجتماعات عامة حضرها رؤساء الإخوان. لكن الحقيقة أن هؤلاء الرؤساء لم يكونوا قد اقتنعوا نهائيا بالتسليم لعبد العزيز.

الإخوان يتابعون الغزو:

فيصل الدويش سيعلن الجهاد على العراق وسيسقط بعض القتلى من رجال الشرطة العراقية، مما جعل البريطانيين يردون بقوة، حيث استخدموا الطائرات. لكن الإخوان لم يثنهم ذلك بل هجموا على الكويت كذلك. مما زاد الوضع تأزماً بين بريطانيا وآل سعود الذي لم يكن مسيطرا تماما على هذه الحركة.

كانت لهذه الغزوات الموفقة للإخوان صدى في نفوسهم، جعلهم يفكرون في القضاء على ملك ابن سعود الذي آثر مصالحه الشخصية على الإسلام.

والذي سالم الكفار - العراقيين - وتعامل مع البريطانيين. وهكذا اشتعلت نجد من جديد وبدأت الغزوات الداخلية والفتن مما ينذر بحرب أهلية.

---

(١) فاسيليف، ص ٣٢٢.

ابن سعود يهزم الإخوان:

لكن ابن سعود كان يهيء نفسه لمواجهة الإخوان الذين اصطدم معهم في معركة السبلة في ٣١ مارس ١٩٢٩ م. وبذلك بدأت حركة الإخوان في الاندحار والانهزام. إلا أن رؤساء الإخوان لم يقتلوا في هذه المعركة بل فر كل واحد إلى بلده. أما ابن بجاد فقد استسلم للملك وحبس ومات في سجن الأحساء، وأما ضيدان بن حثلين فقد قتل في مؤامرة دبرها له أمير الأحساء ابن جلوي. أما فيصل الدويش فإنه لما برء جرحه أعاد الغزو للعراق بل إنه استطاع مع العجمان أن يقطعوا الطريق بين الرياض والهفوف، لكن الثوار كانوا على موعد مع سلسلة من الهزائم انتهت بإخماد الانتفاضة وهروب فيصل الدويش إلى الكويت هو وبعض زعماء الإخوان المندحرين الذين ستسلمهم بريطانيا إلى عبد العزيز بعد مفاوضات جرت بين الطرفين.

وضع زعماء الإخوان في سجن الرياض حيث ساعدهم الحراس كما يقول فاسيليف على الموت فلقوا حتفهم. وفي كانون الثاني ١٩٣٠م اعتبر إن الانتفاضة أو ثورة الإخوان قد انتهت إلى غير رجعة.

الثورة تهدد الدولة:

إن الانتفاضة أو الثورة المسلحة من أهم نقاط الاختلاف والتعارض الذي وقع بين الحركة الوهابية والأسرة السعودية منذ نشأتها الأولى. والمؤرخون سواء منهم المخالف لآل سعود أو المناصر يؤكدون على أن الخلاف كان لا بد أن يقع، لأنه من باب الاختلاف بين الدولة والثورة. كان عبد العزيز تهمه الدولة وبقاؤها وكان يعلم بالأخطار المحدقة بما حققه من انتصارات وفتوحات، ولم يكن الإخوان يفهمون ولا يراعون ذلك إذ كان جل همهم منصبا في جهاد الكفار والمشركين من مسلمي العراق. لذلك كان الحد من تحركهم العسكري هو أساس خلافهم مع عبد العزيز بالإضافة إلى سياسة الملك في الحجاز بعد ما استولوا عليه. لقد كان الإخوان

يتصرفون بغلظة وجلافة وكانوا يسيئون معاملة الحجاج. وتقع بسبب ذلك مشاكل لم يكن يتيسر حلها إلا بتخفيف حدة الإخوان والضغط عليهم. كل ذلك كان يزيد في الطين بلة.

أما تحجرهم وعدم قبولهم باستخدام بعض الأدوات الصناعية مثل التلفون والإذاعة وغير ذلك، فنعتقد أنه لم يكن سببا رئيسا في خلافهم مع الملك لأنهم بدو بعيدون عن الحضارة ولا بد أنهم سيعرفون آخر المطاف قيمة تلك الأشياء فيستأنسون بها استئناسهم بالبنادق الآلية بدل السيوف، وكذا المدافع والسيارات التي ركبوها أخيرا.

ومهما يكن من تعصبهم وشدة بعدهم عن الحضارة فإن دخولهم الأمصار المتمدنة مثل الحجاز والشام وكذا العراق كان كفيلا بالحد من خشونتهم وتطرفهم الحماسي. ونحن مع محمد أسد عندما أكد على أن «لو أتيح لهم إرشاد وتعليم صحيحان، فإن ورعهم الديني العميق كان خليقا به أن يمكنهم من توسيع أفقهم، وأن يصبحوا مع الزمن النواة لانبعاث جزيرة العرب كلها انبعاثا صحيحا»[1]. طبعا في كلام محمد أسد شيء من المبالغة في التفاؤل لأن النظرية الوهابية تمتلك قصورا ذاتيا إذ لا يعدو تفكيرها قضايا التوحيد التي فهمت بطريقة منحرفة وغير صحيحة وأدى ذلك إلى وصم جميع المسلمين بالكفر والشرك.

كما أن استمرارية الوهابية وإتاحة الفرصة لها بعد ذلك لكي تتطور لم ينجم عنه تطور مهم، والواقع المعاصر دليل على ما نقول. بل يمكن أن نسجل شهادة للتاريخ بأن انتشار الفكر الوهابي اليوم يشكل انتكاسة عظيمة للفكر والإبداع

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي، ص ٦١٣. قد يكون في هذا الكلام بعض الصحة وبعد النظر لأن السلفيين الذين يدرسون في الجامعات وتعرفوا على جوانب عديدة من الفكر الإسلامي العام خارج إطار «الوهابية والمذهب الحنبلي» والتقوا بالمفكرين والعلماء من العالم الإسلامي بدا واضحا مدى تطورهم ونضجهم في التعامل مع قضايا الفكر والمجتمع وهؤلاء هم الذين يتزعمون الآن المعارضة الفعلية للدولة ويوجهون لها انتقادات قوية وصائبة.

الإسلامي. فالوهابيون مع تطورهم وانفتاحهم على العالم لم تتغير مواضيع بحثهم ونقاشهم، فليس هناك في عالم الفكر الإسلامي سوى «القبور، والتوسل وعذاب القبر، والتداوي بالأعشاب والحبة السوداء، وكذا جزئيات الطهارة والصلاة وغيرها من المواضيع البسيطة»؟!.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الصدام بين الإخوان والملك كان ضروريا.

لأنهم بدأوا يزعجون الدولة ورجالها وبدأوا يثيرون للملك المشاكل الكثيرة، بل إنه هو نفسه قد ضاق بهم ضرعا لكثرة تدخلهم في تصرفاته وسلوكه، فكان لا بد أن يصطدم معهم، لقد أنهوا مهمتهم، وتم استغلال حماستهم بنجاح وقد آن الأوان للتخلص منهم ووضع حد لانضباطهم وجعلهم رعية مسالمة وصالحة تخضع لسياسة الدولة وتعاليم الملك بصرامة وحرفية.

ونحن نعتقد أن هذا الطرح جاء نتيجة لتطور طبيعي سرعت خطواته بساطة الإخوان وسذاجتهم وعدم معرفتهم بتعقد القضايا السياسية من حولهم. لذلك خسروا المعركة باكرا وانسحبوا من الساحة، لإفساح المجال للدولة كي تأخذ مكانها في خضم الصراعات الإقليمية والدولية آنذاك[1].

---

(١) يقول محمد جلال كشك «زعم فيلبي أن الوهابية في المرحلة الأولى فقدت زخمها عندما توسعت فوق طاقتها فانهزمت... وهكذا خسروا الأرض والحركة، بينما كان عبد العزيز أكثر ذكاء في نظر فيلبي! لأنه قاد حركة الوهابيين حتى بنوا مملكة في حدود معقولة، ثم تخلص منهم في الوقت المناسب، دون أن يخسر شبرا واحدا من أرضه فقد استخدم نفس الشعار إن في تكوين الأرطاوية والغطغط وحركة الإخوان. وتخير الوقت المناسب تمام لفتح الحجاز ولكن كان عليه أن يقتل فرنكنشتاين قبل أن يقتله» ويقصد بفرنكنشتاين «حركة الإخوان» وفيلبي الذي يقول عنه كشك زعم هو أعرف بخبايا الأمور وما كان عليه الوضع داخل الجزيرة أثناء قيام الدولة السعودية الثالثة لأنه كان ملازما للملك عبد العزيز ومستشاره الخاص والمبعوث السري لبريطانيا العظمى لمراقبة الوضع عن كثب.

وأشير هنا إلى أن الكتاب الغربيين والمبعوثين لمهام خاصة في العالم الإسلامي، وإن اتهموا بتحريف بعض الحقائق أو عدم فهم الظواهر الاجتماعية، أسبابها ومحركاتها فإنهم أقل تزلفا بكثير من الكتاب العرب عندما يتعلق الأمر بالكتابة حول القيادات السياسية العربية بل أكثر عقلانية وبعدا عن الميتافيزيقا في وصفهم وتحليلهم للواقع الشخصي والنفسي والعملي لهذه القيادات أو الأحزاب.

لقد ظهر الجيش الإخواني وحركته العسكرية آنذاك كعدو لباقي المجتمعات الإسلامية التي كانت تصارع الاستعمار. وخصوصا الحجاز الذي استولوا عليه وكان سببا في بداية القضاء عليهم. كما أنهم ظهروا بمظهر من يريد أن يقف في وجه التطور وحركة التاريخ. وكأنهم أرادوا ألا يتغير الوضع المدني والحضاري في الجزيرة العربية، لأن ذلك محض بدعة ومخالفة لما كان عليه السلف في الملبس والمأكل وشكل الحياة الاجتماعية برمتها. لذلك كان لا بد أن ينهزموا أمام التطور الزاحف[1].

وإذا كانت حركة الإخوان لم تصل إلى مبتغاها فإن مما لا شك فيه أنها قد أثارت انتباه الملك عبد العزيز وشغلته، كما ظهرت خطورتها على الدولة. لذلك كان لا بد من القيام بعمل ما للحد من أهمية هذه الحركة وتقليم أظافرها وخلق إطار للتحكم بها. لذلك يعتبر تأسيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضعها تحت إشراف علماء من آل الشيخ، بداية السيطرة الفعلية على المؤسسة

---

(١) من المؤكد إن الإخوان كانوا يشكلون ضغطا نفسيا مستمرا لرجال الدولة ومستشاري الملك من الأجانب وكان الكثير من هؤلاء يكنون لهم الكراهية وينظرون إليهم بعين الازدراء والاستهزاء لكن لم يكن باستطاعتهم مواجهتهم وهم في عز قوتهم ويتحكمون في مصير الدولة لكن لما قضي عليهم ظهرت البغضاء وما تخفي الصدور إلى العلن.

يقول شاعر آل سعود الذي سماه كشك «بولس» فيهم:

حسبوا الحقد والتعصب دينا	أي دين يبقى مع البغضاء
يا غلاة الإخوان ضيقتم الدين	وزغتم عن منهج الحنفاء
ما رأيتم منها سوى الكبت	والحقد وإبداء نقمة وازدراء
وانتقاصا من الشوارب	والثوب وميلا لغزوة وعداء
قد عرفناكم جنود مليك	فمتى صرتم جنود السماء
كان صعقا لابن الدويش	وسلطان بجاد و«عصبة الخبثاء»
شهداء الجهل! كم من غبي	مات من أجل فكرة جوفاء
عبثا تطلب الشراب طهورا	إن كان الخبيث من كيان الأناء

أنظر السعوديون والحل الإسلامي. ص ١١ – ١٢.

الدينية وتأطيرها في مؤسسات. وقد وجد عبد العزيز هذه التجربة جديرة بأن تشمل سائر أنحاء البلاد فأسس في الرياض مديرية الأمر بالمعروف صيف ١٩٢٩ م، حينما بلغت انتفاضة الإخوان ذروتها[١].

وبذلك بدأ عصر تحكم الدولة في نشاط المؤسسة الدينية واحتوائها بالكامل، والإشراف على أعمالها ومراقبة تطورها وصولا إلى تدجينها نهائيا وجعلها في خدمة السياسة الداخلية والخارجية لملوك الدولة المتعاقبين.

وقد سجل هذا الوضع ظهور المؤسسة التقليدية. إلى جانب نمو معارضات شخصية علمائية أو قطاعية تمس فئة واسعة من المتعلمين والأتباع السلفيين، الذين بدأوا معارضتهم السرية والعلنية للمؤسسة الدينية التقليدية التي وصفوها بأنها غارقة في أحضان الدولة وفاقدة للاستقلالية. وكذا معارضتهم للدولة بصراحة وقوة.

توسع نشاط المؤسسة الدينية الوهابية:

كان لاكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية أثره البالغ على جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية. فإلى جانب قيام مؤسسة دينية متكاملة ومنظمة ومتفرعة إلى عدة مؤسسات. كان للدعم المالي الذي حصل عليه أصحابها دور بارز في توسيع نشاط الحركة الدينية وانتشارها داخل المملكة وخارجها. ومع تأسيس الجامعات الإسلامية وتدريس المذهب الوهابي بها زاد انتشار الأفكار الوهابية، وأعتنقها الكثير من أبناء العالم الإسلامي الذين التحقوا بهذه الجامعات. وعليه تمثل فترة الستينات والسبعينات ذروة النشاط الوهابي. كما سجلت الفترة انسجاما شبه كامل بين المؤسسة الدينية الوهابية وبين الدولة السعودية.

---

(١) فاسيليف، ص ٣٢٥.

طبعا أسفرت الطفرة النفطية على تغير كبير في الحياة الاجتماعية داخل الجزيرة وأخذ البدو نصيبهم الأوفر منها. وانتشرت ظواهر الترف على نطاق واسع خصوصا في أوساط العائلة المالكة. لكن المؤسسة الدينية وعلمائها التقليديين لم يولوا اهتماما كبيرا لهذه الظواهر والمتغيرات وهم في غمرة الانتشار والانتصار الكبير الذي بدأت تعرفه الحركة الوهابية خارج المملكة.

لكن المتعلمين والطلبة الجدد في الجامعات وخصوصا المتدينين منهم كانوا يراقبون الوضع ويشعرون بثقل المتغيرات وخصوصا على المستوى السياسي. لذلك يمكن أن نقول أن حركة مناهضة بدأت تختمر داخل المؤسسة الدينية التقليدية وإن كانت المعارضة خارجها ستتخذ طابعا جديا وأكثر فاعلية

تبلور الاتجاه الديني المعارض:

فحتى نهاية عقد السبعينات لم تكن الحكومة قد وعت بصورة دقيقة المخاطر الناجمة عن تبلور اتجاه ديني منشق عن المؤسسة الدينية الرسمية، لكن حادثين مهمين أجبرا السلطة على إعادة النظر في أولوياتها الأمنية وسياستها الداخلية. وكان الحادث البارز على هذا الصعيد هو احتلال المسجد الحرام في الأول من محرم ١٤٠٠هـ الموافق للحادي والعشرين من نوفمبر ١٩٧٩م من جانب حركة دينية معادية للعائلة المالكة. أما الثاني فكان، التظاهرات الواسعة في مدن المنطقة الشرقية والتي ظهرت على أثرها حركة نشطة جدا هي منظمة الثورة الإسلامية، التي نادت يومها بإسقاط العائلة المالكة وإقامة نظام ديمقراطي، وإقرار الحريات المدنية، وقد فسرت الانتفاضة في المنطقة الشرقية بأنها نتيجة لشعور الأكثرية الشيعية التي تسكن المنطقة، بالاضطهاد الطائفي والحرمان من الحقوق السياسية، وقد قمعت بشدة.

حادث اقتحام الحرم المكي:

لكن الحادث الأول، أي اقتحام المسجد الحرام[1]، كان أشد تأثيرا وأحدث

(١) قبل حلول فجر يوم الثلاثاء المصادف لرأس السنة، واختتام القرن الرابع عشر والموافق ٢٠ / ١١ / ١٩٧٩ م، تحركت جماعة جهيمان العتيبي (قرابة ٦٠٠ مسلح أو أكثر)، وفق خطه انتهت باحتمائها في المسجد الحرام. وبمجرد ما وصل الخبر إلى السلطات السعودية صدر بيان حول الحادث جاء فيه: «اغتنمت زمرة من الخارجين على الدين الإسلامي، صلاة فجر يوم الثلاثاء ١ / ١ / ١٤٠٠هـ وتسللت إلى المسجد الحرام ومعهم بعض الأسلحة والذخيرة وقدموا أحدهم إلى جموع المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام بمكة لأداء صلاة الفجر مدعين لهم بأنه المهدي المنتظر ونادوا المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام للاعتراف به بهذه الصفة وتحت وطأة السلاح منهم. وقد قامت السلطات المختصة باتخاذ كافة التدابير للسيطرة على الموقف. وبناء على فتوى من العلماء جميعا اتخذت الإجراءات لحماية أرواح المسلمين المتواجدين بالمسجد الحرام».

وقد توالت التصاريح والبيانات المتناقضة والمختلفة والتي أظهرت حجم الارتباك السعودي وحجم المفاجأة التي أحدثها هؤلاء الثوار السلفيون، فإلى جانب وصفهم بأنهم زمرة خارجة عن الدين الإسلامي، وصفهم وزير الخارجية السعودي بأنهم «مجموعة من المتعصبين والمهووسين» أما الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز. أمير منطقة المدينة فقال: «إن هذه الفئة المارقة الضالة قد أرادت التفرقة بين المسلمين وفتنتهم في عقيدتهم «واعتبرهم الملك خالد «كفرة» في برقية بعث بها إلى ملك المغرب. وقد بلغت التصريحات درجة من التشنج والحدة حين اعتبر الأمير مشعل بن عبد العزيز جماعة جهيمان السلفية بأنهم صليبيون يقول: «إن حادث الحرم الشريف استمرار للحرب ضد الإسلام منذ الحروب الصليبية حتى الآن» كما وصفوهم بالخوارج.

والنتيجة أن الحكومة السعودية حاولت جهدها أن تغطي على أخبار هذه الجماعة سواء من حيث انتمائهم أو مطالبهم وذلك تجنبا لأي تعاطف اجتماعي معهم، فهم مجموعة سدج مهووسون وليست لهم أية مطالب سياسية سوى مبايعة ما يسمونه المهدي. وعند الرجوع إلى كتابات زعيم الجماعة جهيمان العتيبي نجده قد استبق الأحداث عندما قال: «وإن خالفتهم - يعني الحكام السعوديين - قتلوك بشبهة يسكتون بها الأرنب فيقولون هو خارجي مع أن أرنبهم لا تعرف معنى الخارجي».

لقد حاولت الحكومة السعودية والصحافة التابعة لها تشويه صورة جماعة جهيمان السلفية والتكتم على مطالب أصحابها السياسية والتغييرية. أن أول رسالة صدرت عن الجماعة كانت بعنوان (الإمارة والبيعة والطاعة وكشف تلبيس الحكام على طلبة العلم والعوام) وهي لجهيمان العتيبي. ومما جاء فيها تحت عنوان: «فصل في شروط الخليفة والإمام الذي تجب بيعته وطاعته» يقول: (إعلم أن من يكون خليفة على المسلمين وإماما لهم يشترط فيه شروط: الأول: أن يكون مسلما، والدليل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. الثاني: أن يكون من القريش. الثالث:

صدمة عنيفة في الوسط الديني والسياسي، فقد ظهر لأول مرة أن ما كان يعتقد من نفوذ واسع للمؤسسة الدينية في الأوساط الشعبية مجرد خيال، كما أن الثوار أنفسهم هاجموا بشدة كبار علماء الدين المتحالفين مع العائلة المالكة واعتبروهم موظفين

أن يكون مقيما للدين. وعلى هذا لا يجوز عقد البيعة لمن لم يتوفر فيه هذه الشروط... واليوم إنما يحكم المسلمين الملك الجبري الذي ليس مبنيا على البيعة وقد خالف شرع الله في عدة أمور منها. أن الحكام فيه ليسوا من قريش، أنهم لا يقيمون الدين بل يهدمونه ويحاربون أهله، أنهم لا يأخذون البيعة من رعيتهم بصفقة اليد وثمرة القلب وطوعه واختياره بل بالجبر والقهر... ثم يضيف قائلا: «فأنت تعلم أن الطاعة لا تجب إلا لمن يقودنا بكتاب الله، أما من يقود المسلمين بالأنظمة المختلفة والقوانين ولا يأخذ من الدين إلا ما وافق هواه فهذا لا سمع له ولا طاعة، وقد عرفت بطلان بيعته فيما تقدم...».

وعليه فإن حركة جهيمان العتيبي كانت ثورة سلفية مناهضة للحكم السعودي رافضة له، داعية لتغييره، لأنه لا يقوم على الشرعية الدينية. وليست مجموعة مهووسة غارقة في السذاجة والغلو كما وصفها الأمراء السعوديون وإعلامهم.

لقد أعلن الإخوان في خطبهم من إذاعة الحرم أهدافهم وتناقلتها وسائل الإعلام وفيها مطالب صريحة بإسقاط النظام السعودي باعتباره أشاع الفساد. وهدم الدين الإسلامي، ووالى الأمريكان، وتلاعب بثروة الشعب، واختلس أراضيه، وسخر ثروته النفطية لخدمة الولايات المتحدة... وطالب «الإخوان» بقطع النفط عنها وإقامة نظام جمهوري. وقد جاء في صحيفة «لوموند» الفرنسية بتاريخ ٣ / ١٢ / ١٩٧٩ م عن مشاهد جزائري قوله: «إن أحد المتمردين كان يحمل مكبر صوت، أعلن فيه إن الثوار يهدفون إلى النضال ضد فساد النظام وضد التدهور الأخلاقي والاجتماعي الذي يعم البلاد.. سنقاتل حتى الموت لنشهد العالم الإسلامي على الاضطهاد الذي يعاني منه الشعب السعودي».

ضلت جماعة جهيمان العتيبي السلفية صامدة ومسيطرة على المسجد الحرام مدة نصف شهر تقريبا. إلى أن تيسر للحكومة السعودية حسم هذا الوضع الخطير الذي جعل سمعة المملكة في الحضيض، وذلك بمشاركة قوات فرنسية وأردنية وكذا خبرات أمريكية. ولولا القوة الفرنسية المتخصصة لما استطاع السعوديون تحقيق الانتصار على الإخوان وتحرير الحرم بعد أكثر من نصف شهر.

أما حصيلة المعركة بين السلفيين والحكومة فكانت كما اعترف النظام ٣١٨ مجموع القتلى من الإخوان والقوات النظامية والحجاج، و٥٦٠ جريح. إلى أن الصحافة العالمية قد ذكرت أرقاما مغايرة ومختلفة تماما. ومهما يكون فإن حادث الحرم المكي كان بادرة سلفية خطيرة عمقت الصراع بين آل سعود والحركة الوهابية السلفية. وإشارة إلى استمرارية الخلاف الذي بدأ بين الإخوان والملك عبد العزيز عندما اتهموه بالانحراف عن الأهداف الوهابية وموالاة النصارى. أنظر لمزيد من التفاصيل في هذه حادثة مجلة صوت الطليعة العدد ٢٢ أيار ١٩٨٠ / رجب ١٤٠٠. أحداث الحرم بين حقائق والأباطيل.

عند من أسموهم بأئمة الكفر، وقالوا أنهم «باعوا آخرتهم بدنيا آل سعود» كما جاء في أحد بياناتهم[١].

وقد ذكرت صحيفة «لوموند» إن أحد الحجاج المراكشيين قد أكد بعد عودته إلى الرباط: «إن العملية قامت من أجل الاحتجاج ضد سياسة القمع التي يتعرض لها السعوديون» ثم أوضح الحاج قائلا: إن أحد المتمردين المسلمين تكلم مؤكدا: إن هذه العملية الانتحارية إنما قامت من أجل إثارة انتباه العالم الإسلامي إلى الإضطهاد والقمع الذي يقع أهالي السعودية ضحايا لهما، وإثارة انتباهه إلى التدهور الاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي الذي يعاني البلد منه، ولفت نظر هذا العالم إلى سوء إدارة الحكام المالية للبلاد[٢].

وحينما قامت الإدارة العامة للاستخبارات بمتابعة شخصية من ولي العهد - يومذاك - الأمير فهد، بدراسة أبعاد هذه الحركة، اكتشفت إن الجامعات الدينية التي أقامتها الحكومة كانت هي التربة التي نشأت فيها هذه الحركة وترعرعت، كما تبين لها إن ما يوجد في البلاد ليس فقط حركة الإخوان التي قادها جهيمان العتيبي، بل ثمة تسع حركات سرية أخرى على الأقل وبعضها استطاع تجنيد عدد من الأتباع يصلون إلى عدة آلاف، وكان الذين خرجوا مع العتيبي قد بلغوا حسب بعض التقديرات (٢٠٠٠ مقاتل) باستثناء الذين استطاعوا الفرار بالتعاون مع رفاق لهم في الحرس الوطني الذي أوكلت إليه محاصرة المسجد في الأيام الأولى.

وقد أدى هذا الحادث إلى سقوط مريع لمصداقية المؤسسة الدينية فيما يتعلق بأداء الوظائف التي تريدها الحكومة منها. وهي بالتحديد ضمان تأييد الشارع

---

(١) وهم بهذا الاعتقاد يكونون أكثر التزاما بحرفية كلام شيخهم محمد بن عبد الوهاب الذي يقول في مجموعة التوحيد (ج ١ ص ١٤١) «واكفروا بالطواغيت وعادوهم، وأبغضوهم وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم أو لم يكفرهم، أو قال ما علي منهم. أو قال: ما كلفني الله بهم فقد كذب هذا على الله وافترى، فقد كلفه الله بهم وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم ولو كانوا إخوانهم وأولادهم».

(٢) صحيفة لوموند الفرنسية، في ١ / ١٢ / ١٩٧٩، نقلا عن صوت الطليعة، ص ٢٥.

للحكم واعتبار كونه يتمتع بالمشروعية الدينية في سياساته. كما أنه أدى من ناحية أخرى إلى إثارة الجدل في أروقة العائلة المالكة حول فائدة وجود مؤسسة دينية بهذا الحجم ما دامت عاجزة عن احتواء التعبيرات المخالفة للحكم والتي تنطلق من منطلقات دينية[١].

تطور الفكر الوهابي:

طبعا جاء هذا الحادث ليعلن بداية القطيعة بين عماء المؤسسة الدينية الرسمية وبين التيار العلمائي والطلابي الذي تكون في الجامعات الجديدة بعيدا عن توجيهات المشايخ التقليديين. هذا التيار الذي تأثر بالحركة الإسلامية العالمية وتعرف على بعض إنتاجها الفكري سواء عن طريق الكتاب أو عن طريق الأساتذة من غير السعـوديين والوهابيين الذين استقدمتهم الدولة للتدريس. كما أن عددا من قيادي الحركات الإسلامية من مصر وسورية قد زاروا البلاد والتقوا بهذا التيار.

لذلك جاء وصف الحكومة لهذه الحركة متهافتا ومتناقضا فقد وصفتهم بالمتطرفين وبالمهووسين دينيا. بل لقد أطلق عليهم إنهم مجموعة مجانين. لكن الحقيقة أن هذه الحركة كانت تنم عن تطور ملموس في الفكر الوهابي ونضج أتباعه، فالمنشورات التي وزعها جهيمان وأتباعه تضمنت تحليلا سياسيا للوضع داخل البلاد، واتهمت صراحة نظام الحكم بأنه غير إسلامي وأنه لا بد من تغييره. وتكلمت البيانات بتفصيل عن نظام الحكم في الإسلام والبيعة والمشروعية السياسية، وقد كان طموح الحركة كبيرا لولا الظروف الغامضة التي أحاطت بفشلها، كما يمكننا أن نسجل بأن لولا تدخل الفرق العسكرية الغربية المختصة، وخصوصا الفرنسية لما سهلت السيطرة على الحركة داخل الحرم، ولكان الوضع قد

(١) مجلة الجزيرة العربية، فبراير ١٩٩١ م، موضوع بعنوان «دراسة في التطور المعاصر للتيار السلفي في المملكة»، بقلم توفيق الشيخ، ص ٤١.

انفجر خصوصا مع تأكيد وجود امتدادات للحركة داخل الحرس الوطني.

وعليه تكون حادثة الحرم المكي إحدى نقاط الخلاف الدموية بين الدولة السعودية وبين أتباع الحركة الوهابية، على غرار حركة «الإخوان»التي قضى عليها الملك عبد العزيز، بفارق واحد متميز وهو الإفصاح عن تطور ونضج سياسي عرفه العقل الوهابي العام مع هذه الحادثة.

كما أن هذه الحادثة قد رسخت وعمقت الانفصال بين التيار الوهابي العام داخل الجامعات خصوصا، وبين المؤسسة الدينية التقليدية الموالية للحكومة.

هذا الانفصال الذي سيظل بمثابة برميل بارود ينتظر أية شرارة لينفجر من جديد. وبالفعل فقد أصاب هذا البرميل عدة شرارات قامت بتفجيره المرة تلو الأخرى. وسنذكر مثالين معاصرين يمثلانِ ذروة الاختلاف بين الحركة الوهابية والدولة السعودية، المثال الأول صدور «مذكرة النصيحة التي بعث بها علماء الوهابية إلى الحكم». والمثال الثاني هو قيام مجموعة من العلماء بدون استشارة الحكومة بإعلان تأسيس لجنة للحقوق الشرعية.

حرب الخليج الثانية وانكشاف الأوراق السرية:

لم تكن الحرب العراقية الإيرانية قد ساعدت التيار الوهابي السلفي على تجميع قوته والظهور بمظهر القوة فقط - خصوصا وقد ساهمت الحرب الطائفية والمذهبية ضد إيران والشيعة في إيجاد محور يجمع شتات هذا التيار - بل أدت هذه الحرب الضروس إلى بروزه كقوة فاعلة ومساهمة في الحرب إلى جانب الحكومة التي تدعم العراق ماليا وعسكريا. لذلك فقد سجل نشاط كبير ومحموم في الكتابة والنشر وإلقاء الخطب، كلها تصب في تكفير الشيعة وتحذير المسلمين من خطر الفرس والمجوس القادم والزاحف من إيران.

لدرجة أنك إذا سألت شيخا سلفيا عن مسألة جزئية في الوضوء لأجابك-إن

الشيعة كفار مشركون ثم بعد ذلك يعرج إلى الإجابة على سؤالك إذا بقي متذكرا. وبما أن من مصلحة الحكومة إشعال نار هذه الحرب الطائفية لأنها تمثل حاجزا صلبا للوقوف أمام انتشار أفكار الثورة الإسلامية في إيران، فإن دعمها للتيار السلفي كان قويا، وأعطيت لأصحابه الحرية في إلقاء الخطب والمحاضرات والتحرك. كل ذلك دعم هذا التيار وقوى قواعده على الأرض.

إلا أن النكسة التي حلت بالحكومات الخليجية إثر غزو صدام حسين الكويت بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية. كانت لها نتائج وخيمة جدا وعلى جميع المستويات، فالإخوة الأحباء بالأمس تحولوا إلى أعداء، كل واحد يكيل للآخر التهم، ويتهمه بالفساد والعمالة وخدمة الأعداء.

ومن المضحك المبكي أن غزو الكويت قد ساعد على كشف الأوراق بشكل فاضح ومخزي ليس فقط أوراق السياسة ولكن أوراق المؤسسات الدينية في الخليج وعلى رأسها المؤسسة السلفية. مما أحدث تناقضا وبلبلة كادت أن تعصف بالاستقرار الذي يقال أن الأنظمة والمجتمعات تنعم به هناك. لقد تحرك الإعلام الخليجي لكشف دعمه العسكري والمالي للعراق، هذا الدعم الذي ظل طي الكتمان طيلة ثماني سنوات من الحرب. كما كشفت عورات النظام العراقي وبدأ الكلام عن الاستبداد السياسي وعن الظلم وعن انتهاك حقوق الإنسان بشكل فضيع في العراق. لكن الإعلام العراقي لم يقف مكتوف الأيدي بل كشف ما عنده من ملفات سرية تخص الحكومات الخليجية وعلى رأسها المملكة السعودية.

لقد كانت هذه الحملات الإعلامية المضادة وما تضمنته من أخبار وحقائق أهم ما استفادت منه شعوب المنطقة. وإذا كان التيار السلفي حاضرا أثناء هذه المساجلات بل مساهما فيها فإن بعضا مما أصاب الحكومات قد أصابه سلبا وإيجابا. وظهر تناقضه بل كشف عن بعض عوراته، خصوصا فيما يتعلق بالحرب الطائفية والتي كان يقودها على أنها حرب الإيمان ضد الكفر، حرب العرب ضد

الفرس المجوس الذين يسعون لغزو العالم الإسلامي ونشر عبادة النار وثنائية الظلام والنور بين أفراده.

لقد تبين بعد اعتذار الحكومات الخليجية لإيران المسلمة، بأن التيار السلفي كان مسيرا لخدمة هذه الحرب مدفوعا لخوضها دعما للحرب الشاملة لإيقاف مد الثورة، ومما زاد في الطين بلة، العلم بأن هذا التخطيط لتحريك التيار السلفي ضد الثورة وضد الشيعة إنما خطط له في داخل الغرف المغلقة للدوائر الاستعمارية الغربية، وإنما كان نصيب علماء السلف «الوهابية» التنفيذ العملي، كما كان يفعل الجندي العراقي عندما يرسل القذائف صوب أهله وإخوانه في المذهب والعقيدة. في الجانب الآخر من الحدود، دون أن يكون له أدنى مبرر عقلي أو واقعي لهذا العمل سوى تنفيذ أوامر القيادة.

ومما يؤكد سذاجة التيار السلفي وتهافت أصحابه وخدمتهم لمخططات الاستعمار بشكل مجاني واعتباطي. ما سمعته بأذني قبل أزمة الخليج الثانية وأثناءها. فقد سمعت شريطا مسجلا لأحد أقطاب ودعاة التيار السلفي وهو شخصية معروفة وذائعة الصيت، إنه أحمد القطان السلفي الكويتي الذي أطنب في شريطه وأتى بألف دليل ودليل، والحرب مستعرة بين العراق وإيران على أن الإيرانيين كفار معتدون يجب إعلان الجهاد في سبيل الله ضدهم، وقد تصفح الخطيب صحيح البخاري مسلم وجاء بكل حديث يدعم دعواه وقد كنت أسمعه وهو يصيح بصوته الجهوري إني أتحدى من يأتيني بدليل خلاف ما أقول. كما يؤكد على أن مصدره هو البخاري، وعليه كان إعلان الجهاد ضد الكفار الإيرانيين من العقائد المسلم بها لدى أقطاب هذا التيار[1].

---

(١) من التناقض العجيب الذي يتخبط فيه رجالات السلفية، هو موقفهم في البداية من الثورة الإسلامية قبل أن يتبلور لدى الحكومات في الخليج موقف موحد تجاه الثورة والدولة في إيران. فقد هدد الشيخ عبد العزيز وهو سلفي كبير ووالد وزير الزراعة الدكتور عبد الرحمان آل الشيخ – في مطلع الثمانينات بالتحالف مع إيران التي كانت قد أعلنت جمهوريتها الإسلامية للتو ووجه خطابا إلى الإمام الخميني

لكن ومن غرائب الصدف وبعد اجتياح صدام حسين للكويت، فتحت الإذاعة السعودية ذات مساء وإذا بهم يذيعون محاضرة لهذا الداعية السلفي الذي كان يصطاف في السعودية هو وغيره من سلفيي الكويت وتركوا الشيعة يحاربون صدام في الكويت دفاعا عن أرض الكويت وممتلكات أصحابها.

أقول سمعت تلك المحاضرة الرنانة فأصبت بالذهول وشعرت بالغثيان. القطان هذا الرجل السلفي الذي كان يدعم الهجوم العراقي على إيران ويعتبره جهادا في سبيل الله. يقول بأن صدام حسين كافر وأنه حصل في الكويت على منشورات مكتوب فيها بأن صدام حسين قد كتب فيها أوصافه وأسماءه وعدها لتصل تسع وتسعين مرة وأنه كتب فوق هذا العدد اسمه «صدام» لإتمام المائة وكأنه يصف نفسه كما وصف الحق سبحانه وتعالى ذاته بأن له تسعة وتسعين اسما.

ويستطرد هذا الداعية السلفي بأنه حصل على تلك الأوراق التي يدعي فيها صدام حسين الألوهية، وغير ذلك مما جاء في المحاضرة مما لا أذكره الآن بالتفصيل. والنتيجة أنه ختم محاضرته بالدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، جهاد صدام والعراقيين، وطبعا تم استحضار صحيح البخاري ومسلم للتدليل على أن كلام الشيخ هو الحقيقة والصواب. وهكذا هي الحقيقة لدى السلفيين تنزع لباسها في الصيف من شدة القيض وتلبسه في زمهرير الشتاء، وتتلون في باقي الفصول وتتماشى مع الظروف والأحداث.

طبعا من تسرب لنفسه شك بعدم صحة ما نقلناه ما عليه إلا أن يبحث عن أشرطة هذا الرجل خصوصا التي كانت موجهة لدعم الحرب العراقية الإيرانية. وعليه أن يستمع إلى محاضرة الشيخ التي بثتها الإذاعة السعودية بعد الغزو، فلا

أشاد فيه بدعوته للوحدة بين فرق المسلمين، لكن العائلة المالكة سارعت إلى احتواء هذا التوجه، ومارس رجال العائلة الذين يتمتعون بمراكز حكومية ضغوطا عليه للكف عن دعواه، كما أن الحكومة حذرت العلماء الآخرين من اللقاء به مما اضطره إلى الاعتزال في بيته في الرياض حتى وافاه الأجل». أنظر مجلة الجزيرة العربية، عدد فبراير ١٩٩١ م، ص ٤١.

شك أنها سجلت على أشرطة ووزعت.

إن إيرادنا لهذه القصة، سببه الإشارة إلى ما وقع فيه التيار السلفي من تخبط أثناء الغزو العراقي للكويت، هذا التخبط الذي سيبلغ مداه عندما ستقرر الحكومة السعودية استقدام القوات العسكرية الأمريكية والأوربية لتحرير الكويت من الجيش العراقي.

استقدام الجيوش الغربية يفجر الصراع:

قلنا سابقا ونحن نستعرض أسباب الخلاف بين الدولة السعودية والإخوان الأوائل بأن التعاون مع البريطانيين «الكفار»، كان أحد أهم الأسباب المفجرة للصراع والاختلاف بينهم. وإذا كانت المؤسسة السلفية التقليدية قد أغمضت عينها بعد ذلك عن التعاون السياسي العسكري الواسع النطاق بين الدولة السعودية والغرب متمثلا في أمريكا القوة الاستعمارية الجديدة وكذا بريطانيا.

فإن استقدام جيوش هذه الدول وفسح المجال لها لتحط رحالها على أرض الجزيرة العربية قد فجر الصراع هذه المرة بشكل حاد وجدي لدرجة أن المراقبين قد راهنوا على المواجهة المباشرة.

لقد وضعت الجيوش الغربية الجرارة التي بدأ أفرادها يجوبون مدن المملكة، التيار السلفي في وضع لا يحسد عليه أبدا، هؤلاء الذين يمسون ويصبحون على سب الكفار والمشركين من المسلمين ويعلنون القطيعة التامة مع الغرب الكافر. يجدون أنفسهم وقد أحيطوا بهذا الجيش الذي استقدمه «ألو الأمر» لكي يدافع عن دولة السلفيين من هجوم مرتقب قد يشنه العراق، ولا أعلم ماذا يطلق السلفيون على شعب العراق، هل ما زالوا يعتبرونهم كفارا؟ لأن الأغلبية في الجنوب شيعية إمامية، أم مسلمين بغاة، لأن الحكومة سنية متعصبة ضد الشيعة وإن لم تكن سلفية بل بعثية لا تعير الدين أي اهتمام يذكر. مع العلم أن هجوم صدام حسين على الكويت جعله ينتقل في نظر السلفيين من الرئيس المؤمن الذي يدافع عن البوابة

الشرقية للعالم العربي، إلى رئيس يدعي الألوهية ويجب إعلان الجهاد عليه وعلى بلده.

لقد كان موقف رجال الدين السلفيين عصيبا خصوصا عندما كان «المطاوعة» ورجال الدعوة منهم يصادفون النساء الأمريكيات يتجولن في سياراتهن أو على الأقدام وهن بالزي العسكري يحملن أسلحتهن ويستعدن للمعركة دفاعا عن أتباع السلف الصالح.

ومن الحكايات المضحكة التي تناقلها الناس في المنطقة الشرقية حيث تمركز الجيش الغربي. أن سلفيا من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صادف في طريقه أمريكية سافرة بالزي العسكري فحاول إيقافها وأمرها بأن تحتشم أي تغطي رأسها ووجهها فما كان من الأمريكية إلا أن ردت عليه مستهزئة، بأن عليه أن يرجع من حيث أتى لأنها هنا للدفاع عنه ولإيقاف جيش صدام الذي إن دخل المنطقة فسوف يذهب بالنعيم والترف الذي ينعم فيه هؤلاء المطاوعة.

طبعا هذه حكاية في مقابل آلاف الحوادث التي وقعت والتي تدعو للبكاء من كثرة الضحك للمهازل التي وقعت هناك والتي لا يعلمها إلا القليل والتي أظهرت بوضوح المدى الذي وصل إليه الوعي الاجتماعي في بلد يتحكم في دينه وثقافته مجموعة من البدو لا يعرفون وهم على مشارف القرن الحادي والعشرين كيف يسير العالم من حولهم وكيف تدار عجلته ومدى التطور الحضاري الذي وصلته الأمم من حولهم. من هذه المهازل، سيارة الإنذار التي كانت تجوب الشوارع عندما يكون هناك خطر بإرسال العراق أحد صواريخه على المنطقة، ترى ماذا كان الشعب يفعل؟ كان قسم منهم يركب السيارات ويتبع سيارة الإنذار، يتبعها أينما ذهبت، فترى طابورا وراء تلك السيارة، مما يبعث على السخرية والضحك.

لقد كانت حرب الخليج الثانية بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، والسكين الذي مزق الثوب عن عورة المؤسسة السلفية أمام العالم. فانكشفت هذه المؤسسة

التي كان يتبجح رجالها بأن دولتهم «الوحيدة في العالم» التي يحكم الإسلام السلفي جميع مرافقها، وأنها من القوة والمنعة ما يثير حسد الشعوب والحكومات الإسلامية الأخرى.

وإذا كان الموقف تجاه استقدام القوات الأجنبية للدفاع عن الدولة قد أثار انقساما حادا داخل المؤسسة الدينية الرسمية وبين رجالها وأتباعها المشهورين[1]، فإن انقساما آخر سيسجل، بل إسفين سيدق في نعش العلاقة بين الرجال التقليديين لهذه المؤسسة وبين التيار السلفي العام في الجامعات والشارع. وسيتجدد الاتهام بفقدان المؤسسة الدينية الرسمية استقلاليتها بحيث أضحت مجرد ختم تؤكد به قرارات الحكومات وسياستها. وعليه فإن هذا التيار المعارض سيغتنم فرصة انفجار الحرب في الخليج ليقدم احتجاجاته بقوة وليظهر على الساحة محدثا بعض المشاكل، مما أربك الحكومة وزاد من تخبطها.

لقد تعودت كل التيارات الفكرية والسياسية داخل المملكة ومن ضمنهم التيار السلفي، على وعود بتطوير الحياة السياسية داخل المملكة، كلما حل بالدولة

---

(١) كان موقف الشيخ ناصر الدين الألباني وهو عالم سلفي متخصص بالحديث متشددا ضد التواجد الأجنبي في المملكة و«القصف الجوي ضد المسلمين المدنيين والمساجد في العراق» ودعا إلى «الجهاد لتحرير الأراضي المقدسة في الحجاز من سيطرة القوات الأمريكية والأوربية» لكن أبو بكر الجزائري الواعظ (بالمسجد النبوي) والسلفي الكبير رد عليه بعنف في خطبة في مكة المكرمة واصفا إياه بأنه لا يرى الحقائق، وأنه أغمض عيونه عن أفعال صدام، كما أكد على دعمه لمواقف الحكومة السعودية وسياستها قائلا: «إن النبي محمد عليه الصلاة والسلام قد استعان باليهود والنصارى في حروبه ضد المشركين وإن المملكة فعلت الشئ نفسه» أنظر مجلة الجزيرة، عدد فبراير ١٩٩١ م، ص ٣٩.

وللقارئ أن يتصور مبلغ التهافت! النبي يستعين باليهود والنصارى ضد المشركين؟ وهل العراقيون مشركون!؟ الإيرانيون كفار ومجوس! والعراقيون مشركون! ولا بأس من استقدام الأمريكان والأوربيين لمحاربة الكفار والمشركين ولكن ما بال السوريين والمصريين والمغاربة الذين شاركوا في الحرب ضد صدام، لا شك أنهم ليسوا سلفيين على عقيدة محمد بن عبد الوهاب وعليه فالكل يدخل في خانة الكفار والمشركين. النتيجة أن الكل في خدمة «المسلمين السلفيين» الذين لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم بل المضحك قول بعضهم الحمد لله الذي سخر لنا أمريكا!!!.

مشكل ما يستدعي وحدة داخلية، وبالفعل استبقت الحكومة الأحداث وأعلنت عن الشروع في تأسيس مجلس للشورى. وأن الملك سيعين أفراده في القريب العاجل. لكن المراقبين للسياسة الداخلية السعودية يقولون بأن الإصلاحات السياسية تظل وعودا معلقة وموضوعة في الأرشيف، يتم استدعاؤها كلما دعت الضرورة. لكن شيئا عمليا لن يقع، لأن أي إصلاح سياسي سيكون على حساب الأسرة المالكة التي يستحوذ أفرادها على جل المناصب المهمة، سواء في عالم السياسة أو الاقتصاد. لذلك لا أمل في أي إصلاح سياسي في الأمد القريب على الأقل. كما أن الفئات المنادية بالإصلاح إنما تنشد هذا التغيير الذي يقلص من مسؤوليات أفراد العائلة السعودية ويفسح المجال أمام أبناء الشعب، وأصحاب الكفاءات لتولي بعض المناصب المهمة.

مذكرة النصيحة:

في خضم هذا الوضع المتفجر قامت مجموعة من علماء وأتباع التيار السلفي وخصوصا المتنورين منهم بتقديم «مذكرة النصيحة»[1]. تحمل تواقيع أكثر من مائة من العلماء وأئمة الجمعة والدعاة وأساتذة الجامعات وقد رفعت المذكرة إلى الملك بعد أن اطلع عليها الشيخ بن باز والشيخ بن جبرين وعدد آخر من المشايخ السلفيين مثل الشيخ سفر الحوالي والشيخ سلمان بن فهد العودة والشيخ عبد الله الجلالي، الذين قاموا بتزكيتها بعد تعديل بعض فقراتها قبل أن يقوم الشيخ بن باز الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بتزكية المذكرة ومن ثم رفعها إلى الملك.

(١) تعتبر هذه المذكرة الوثيقة الثانية التي أصدرها التيار السلفي مطالبا بالإصلاح. ففي شهر مايو ١٩٩١ رفع الشيخ بن باز «عريضة الإصلاح» وقع عليها أكثر من خمسمائة شخص وكانت هذه الخطوة بداية المعارضة العلنية والمفتوحة بين السلفيين والحكومة. لكن الحكومة استطاعت أن تحتوي الأمر بسرعة مما قلل من تداعياته الإعلامية عكس ما وقع مع «مذكرة النصيحة».

تقع المذكرة في ٤٥ صفحة وتحتوي على عشرة موضوعات وهي على النحو التالي:

١ - دور العلماء والدعاة.

٢ - الأنظمة واللوائح.

٣ - الإعلام.

٤ - حقوق العباد.

٥ - الوضع الإداري.

٦ - المال والاقتصاد.

٧ - العلاقات الخارجية.

٨ - القضاء والمحاكم.

٩ - المرافق الاجتماعية.

١٠ - الجيش[١].

انطلقت «مذكرة النصيحة» من الخطاب الذي وجهه الملك بمناسبة صدور «الأنظمة الثلاثة»، حيث أكد الملك على أن مصدر التشريع في المملكة هو الإسلام وأن علاقة المواطنين بولاة الأمر تحكمها تقاليد عريقة. وأن مجالس الملك وولي عهده مفتوحة لكل المواطنين لعرض مشاكلهم وما يعانون منه.

لذلك وامتثالا - تقول المذكرة - لأوامر الله بالتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق، واستجابة لما جاء في توجيهكم لأمتكم؟ وأمرتم به من أنظمة، وانطلاقا من مسؤولية النصح لولاة الأمر نتقدم بهذه «النصيحة» التي تتضمن عرضا

---

(١) مجلة الجزيرة العربية، العدد ٢١ أكتوبر ١٩٩٢ ربيع الثاني ١٤١٣، دراسة لعبد الأمير موسى، بعنوان «مذكرة النصيحة»، ص ٣٥.

لبعض القضايا الملحة لواقع بلادنا في هذه المرحلة كما يضمن بها اقتراحات تهدف إلى تحقيق معالجة هذه القضايا وإصلاحها بما يكفل تحقيق ما يسعى إليه الجميع حاكما ومحكوما من خير ورشد لهذه البلاد وأهلها[١].

لقد اشتملت هذه النصيحة على مختارات من القضايا إذا عولجت علاجا صحيحا شرعيا من ولاة الأمر تيسر بعد ذلك معالجة سائر المسائل دونها في الأهمية والخطورة، وتضمنت عرضا ونصائح لسبل الاصلاح لهذه القضايا[٢].

المذكرة تنتقد الوضع العام في البلد:

إن أول ملاحظة يمكن للقارئ أن يسجلها وهو يتصفح هذه المذكرة، هي تعريتها ووصفها لواقع هذا البلد الذي يملك إمبراطورية إعلامية تجعل الإنسان يؤمن بالظلام وحلكة الليل وهو في عز الظهر والشمس ساطعة، لكثرة الدجل والمكر وتشويه الحقائق. لكن هذه المذكرة جاءت لتحدث ثقبا في هذا البالون المنتفخ، ولو جاءت المذكرة من مصدر معارض غير السلفيين لقيل عنه إنه محض افتراء وكذب ومن مجموعة مغرضة حاقدة تحركها أياد أجنبية تحسد المملكة على الوضع الأمني والازدهار الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيش فيه. لكن الحقيقة هذه المرة خرجت مدوية من قلب النظام، وعبر حنجرته ولا أظن أحدا يشك في ولاء ابن باز للدولة السعودية وهو الذي اطلع على المذكرة وزكاها، بل تكفل بإيصالها لأولي الأمر. من جهة أخرى: يلاحظ المتابعة والإحاطة بوضع البلد بشكل متميز مع تشريح الواقع، يظهر المدى الذي بلغه رجال هذا التيار من نضج ووعي بخلاف أسلافهم. كما أن المواضيع التي تعرضت لها المذكرة جاءت شاملة وكأنها برنامج إصلاحي حزبي متكامل. هذا البرنامج الذي لا يتهم الدولة بالقصور فقط بل يتضمن تعريضا بانحراف سياسة الدولة خصوصا الداخلية عن المطلوب.

---

(١) مذكرة النصيحة، م س، ص ٣٦.

(٢) المذكرة، ص ٣٧.

العلماء والدعاة مهمشون:

تكلمت المذكرة عن دور العلماء والدعاة بشيء من التحسر والأسى وكيف أنهم مبعدون عن أداء واجبهم وأن مكانتهم الواقعية تكاد تنحو إلى التهميش. مع أن المفروض أن «يكونوا في مقدمة أهل الحل والعقد والأمر والنهي وإليهم ترجع الأمة حكاما ومحكومين لبيان الحكم الشرعي لسائر أمور دينهم ودنياهم»[١] والحقيقة أن ما جاء في المذكرة بخصوص دور العلماء، إنما يعبر عن نجاح الدولة في تهميش المؤسسة الدينية بشكل عام. وذلك بشكل تدريجي يمكن أن يكون قد بدأ بعيد المواجهة الأولى مع الإخوان، وشعور الأسرة المالكة بخطورة رجال الدين على الملك.

لذلك فقد ذهبت المذكرة بعيدا لتأكيد هذه الحقيقة. عندما يقول كاتبوها:

«ويندر أن يستشاروا - أي العلماء - في قرارات داخلية أو خارجية هامة تحتاج إلى أحكام الشريعة وقواعد الإسلام التفصيلية حتى تكون صحيحة مشروعة، وقد لا يستجاب لفتاويهم إذا تعارضت مع توجهات قائمة لهذه القطاعات والأجهزة بل قد لا يسمح بنشرها. وكل ذلك ينبئ وقد يؤدي إلى فصل الدين عن واقع حياة الناس وعزله عن التأثير في معاشهم وما قد يترتب على ذلك من أثر خطير يهدم الأصل الذي إنما قامت الدولة له من الدعوة للإسلام وتطبيق أحكامه[٢].

وإذا أضفنا النقاط التي ذكرتها المذكرة مثل عدم استقلالية العلماء عند قيامهم بواجبهم الشرعي، والحساسية المفرطة تجاه النصح التوجيه، مما أدى إلى التضييق على الدعوة والدعاة. وظهور أساليب لم تكن معروفة في سلف هذه الدولة من فصل الدعاة أو عزلهم أو منعهم من القيام بواجبهم في كثير من الأحيان.

بالإضافة إلى قصر وسائل الإعلام في الموضوعات التي تنشر أو تكتب من

---

(١) مذكرة النصيحة، ص ٣٧.

(٢) المذكرة، ص ٣٧ - ٣٨.

طرف العلماء على المواعظ العامة والقضايا الجزئية وإحكام الرقابة على كل ما ينشر. كما أن رسالة المسجد أصبحت مقيدة بالوعظ العام، مع المنع من التطرق إلى القضايا العامة التي تهم المسلمين. وعليه تكون الصورة قاتمة ومتشائمة لوضع المؤسسة الدينية ورجالها داخل الدولة. وهذه صدمة لا يتحملها من يعتقد بأن المؤسسة الدينية ورجالها يسيرون الوضع داخل المملكة ويتحكمون في مجريات الأمور. لذلك طالبت المذكرة «برفع كافة القيود والتعليمات التي تحد من نشاطات الدعاة والعلماء والسماح لهم بالتأليف والنشر والفتاوى والخطابة والمحاضرات وتسجيل الأشرطة وعقد الندوات والحلقات العلمية دون حاجة إلى ترخيص أو إذن رسمي من وزارة الإعلام أو الأوقاف أو غيرها من أجهزة الدولة[1].

كما طالبت المذكرة بتحقيق مزيد من الاستقلالية عن أجهزة الدولة. لكن المطلب المهم والخطير والذي سيثير الكثير من التساؤلات هو تأكيدهم على «عرض جميع الأنظمة والمعاهدات المراد سنها، قبل إقرارها على هيئة كبار العلماء للتأكد من مطابقتها لقواعد الشريعة وأحكامها، وهذا المطلب لا شك أنه سيؤدي إلى أسلمة «على الأقل بالمفهوم الوهابي للإسلام» الدولة وقراراتها الداخلية والخارجية، وهي إشارة إلى أن كثير من القرارات والمعاهدات التي سنتها الدولة وعملت بمقتضاها لا تتطابق مع الشرع.

وعليه فإن: «دستور الدولة القرآن والسنة» يبقى مجرد شعار إعلامي لا غير. لكن الطريف في هذه المطالب هو دعوتهم الحكومة إلى فتح المجال أمام الدعاة والعلماء من خارج المملكة لإلقاء المحاضرات وإقامة الندوات الدينية والمؤتمرات والحلقات العلمية والمنتديات. وتسهيل إجراءات قدومهم بما يحقق التفاعل والتعاون بين علماء البلاد «وإخوانهم من العالم الإسلامي»[2].

---

(١) المذكرة، ص ٣٨.
(٢) المذكرة، ص ٣٨.

لا شك أن هذا المطلب وجيه جدا لأنه دعوة للتعرف على فكر علماء الإسلام خارج المملكة. وقد ذكرت المذكرة «العالم الإسلامي»، فهل غيّر السلفيون رأيهم تجاه المسلمين الذين كانوا قبل ذلك كفارا ومشركين، الواقع إن معرفتهم بالعالم الخارجي سواء في الجامعات أو المؤتمرات وحتى في موسم الحج قد جعلت المتنورين منهم يراجعون أنفسهم ويعترفون بإسلام المسلمين. رغم الاعتراضات التي تظل قائمة.

والمهم هو أن هذا التطور بادرة جيدة كما أن طلبهم بفسح المجال أمام علماء الإسلام لدخول المملكة يعني استقدام وعي جديد ومعرفة واطلاع بعيدا عما هو موجود داخل المملكة. ولا شك أن هذا المطلب ينذر بتغيرات عميقة داخل هذا التيار لا تكون بالضرورة في صالح الدولة.

كما تعرضت المذكرة في هذا الباب إلى عدة مقترحات لتشجيع الدعوة إلى الإسلام داخل البلد وأن تقوم السفارات خارج البلد بدور دعوي بالإضافة إلى زيادة الدعم للهيئات والمؤسسات الدينية الدعوية.

المذكرة تدعو للتحاكم إلى شرع الله:

بالنسبة لمسألة الأنظمة واللوائح، أكدت المذكرة على أن يتم التحاكم إلى شرع الله في كل مرافق الدولة وأن تلغى كل القوانين والإجراءات التي تخالف الشريعة. وبعد عرض مسهب لأنواع الأنظمة تعترض المذكرة على بعض القوانين التي جاءت بها كمثال لمخالفة الشرع. هذا المثال الذي يخص قانون قيام الشركات والذي قنن بعض الأشكال وجعلها شرعية، مع إلغائه أشكالا أخرى للتشارك وعدها غير قانونية، مع أن الحكم بجواز عمل أو حرمته إنما يصدر عن استنباط واجتهاد إسلامي «لذا فإن الرجوع إلى القانون الجنائي الفرنسي لأحكام العقوبات أو القانون المصري لأحكام الشركات مثلا والحكم بها بين الناس لا يجوز مطلقا سواء وافقت الشرع أو خالفته لأن الرجوع إليها تحكيم للطاغوت

وإيمان به ويحصل به الضلال البعيد، والكفر والفسق أو الظلم والعياذ بالله لمن فعل ذلك»[١].

تستمر هذه اللهجة الساخطة والقوية في تحليل بعض الأمثلة من الأحكام والقوانين التي تخالف الشريعة، وعليه فإن شعار «دستورنا القرآن والسنة» يصبح بلا معنى لأن التحاكم الواقعي والفعلي إنما هو للدساتير الأجنبية. الدولة بتطبيقها لقوانين غير إسلامية «تحرم بعض المباح أو تعلق فعله على إذنها وترخيصها» والنتيجة التي تخلص إليها المذكرة بعد الشرح وعرض الشواهد:

«إن معظم الأنظمة تتضمن أحكاما تشريعية منقولة عن مصادر قانونية عربية أو غربية في بلاد أخرى لا تحكم الشرع في شرائعها. فنظام الأوراق التجارية منقول عن نظام جنيف للأوراق التجارية ونظام الشركات نصت مذكرته التفسيرية على أنه مستمد من الصالح من أحكام أنظمة الدول الأخرى، نظام العمل والعمال منقول عن الاتفاقيات والأنظمة الدولية العمالية، ونظام مكافحة التزوير يتشابه في كثير من مواده وتعابيره مع القوانين الأوربية وعلى الأخص الألمانية والفرنسية...

ولذا فإن الأنظمة الحالية مستمدة في أغلبها من مصادر لا تحكم الشرع الإسلامي أصلا. وهذه المصادر لا يجوز الرجوع إليها بحال لمن آمن بالله تعالى ربا له الحكم والأمر وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا مشرعا، ولذا فإن كل ما نقل منها يعد تحكيما لغير الشرع ومخالفة صريحة له نظرا لعدم استناده إلى الأدلة الشرعية، وعدم استنباطه وإرجاعه إلى ما شرع الله تعالى بالاجتهاد الشرعي الصحيح[٢].

وإذن فقد اكتشف السلفيون فجأة أنهم يعيشون في دولة علمانية كباقي الدول العربية الأخرى. وإنما كان وما يزال عملهم مقتصرا على الدعوة إلى إرخاء اللحى

---

(١) المذكرة، ص ٣٩.

(٢) المذكرة، ص ٤٠.

وتقصير الثياب حتى يلتقيا. وإشاعة الفتن المذهبية ونشر عقيدة التجسيم. أما أنهم يعيشون في دولة إسلامية كما يدعون فمحض سراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء؟!. لكن وللحقيقة نقول إن عرضهم للقضايا الاقتصادية ومجالات الحياة العامة بالتحليل والنقد يعتبر بادرة مهمة، ستوقظ الدولة السعودية من غفوتها لأنها ستكتشف أن ضباب السذاجة بدأ في الانجلاء عن أعين السلفيين، وإن المتنورين منهم يمكنهم أن يراقبوا حركات وسكنات الدولة. ولن تنطلي عليهم بعد اليوم الموجات الإعلامية التي تزيف الحقائق وتذري الرماد في العيون.

أما في ما يخص مسألة القضاء والمحاكم، فقد أكدت المذكرة على «حصر الحكم في القضاء بشرع الله» وتجنب الازدواجية في القضاء لأن ذلك أدى إلى عزل القضاء الشرعي عن النظر في كثير من القضايا المالية وغيرها من المعاملات. كما أن القضاء الشرعي يعاني من عدم الاستقلالية، مما جعل بعض جهات الدولة تلغي الكثير من الأحكام الصادرة عنه بحجة عدم الاختصاص خصوصا وزارة الداخلية التي ذكرتها المذكرة بكثير من الحذر والريبة. وفي الأخير أشارت المذكرة إلى افتقار المحاكم الشرعية إلى التجهيزات اللازمة لأداء واجبها بفاعلية.

مقترحات المذكرة:

أما المقترحات التي قدمها السلفيون لإصلاح هذا الميدان فكثيرة نذكر منها: تأكيدهم على منع الازدواجية وإرجاع جل القضايا إلى المحاكم الشرعية دون سواها. ضمان استقلالية القضاء برفع جميع القيود والأنظمة والتعليمات التي تقف دون تحقيق ذلك. كما طالبت المذكرة برفع مستوى المجال القضائي وتطويره وذلك «بإيجاد دورات شرعية للقضاة دورية يقدمها علماء شرعيون ذو أصالة واجتهاد شرعي وأهل تجربة وأهلية من القضاة، وتتولى وزارة العدل بالتعاون مع الكليات الشرعية الإشراف عليها. وتعرض فيها أحكام الفقه ذات العلاقة وأدب القضاء وتبين فيها قواعد الأحكام وأصول تنزيلها، وأدلة الأحكام الشرعية لدى المذاهب

الفقهية الإسلامية المختلفة ومقارنة أدلتها. وذلك بهدف رفع المستوى الفقهي للقضاة[١].

وهذا المطلب الأخير يؤكد ما قلناه سالفا من أن وراء المذكرة سلفيين متنورين. لأنهم يطالبون صراحة بالاطلاع على المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة، وهذا اعتراف بإسلام أصحابها كما أن هناك حاجة إلى ضرورة توسيع الأفق الفكري الإسلامي العام بدل التقوقع في إطار المذهب الحنبلي بصيغته الوهابية وما أضافه ابن تيمية.

بل يمكننا أن نجزم بأن النضج والتطور الذي عرفه العقل السلفي من خلال هذه المذكرة إنما سببه الانفتاح على الفكر الإسلامي العام الذي عرفه السلفيون داخل الأوساط الجامعية المنفتحة والمتنوعة. فلو رجعنا إلى زعماء السلفية التقليديين لوجدنا أن ناصر الدين الألباني مثلا يصف الفقه الحنفي بأنه «إنجيل محرف» كما أن الموقف العام من المذاهب الفقهية السنية هو رفضها وعدم اعتبار ما توصل إليه أصحابها من اجتهاد في الفروع والأصول.

ومن أهم ما جاء في المذكرة بخصوص القضاء هو الدعوة إلى إنشاء «محكمة دستورية شرعية يرجع إليها في القضايا الكلية وكل ما يضمن هيمنة الشرع وسيادته على الأمة والدولة»[٢]، ونعتقد إن هذه الفكرة مقتبسة من الإيرانيين الذين أسسوا هيئة من كبار العلماء والفقهاء مهمتها مراقبة القوانين والأنظمة التي تصدرها الهيئات التشريعية المختلفة في الدولة لضمان عدم مخالفتها للشريعة.

تحديد صلاحيات وزارة الداخلية:

«ولضمان وتمكين القضاء الشرعي من حراسة وحفظ حقوق الناس من التجاوزات على حقوق الإنسان الشرعية، يجب أن تبسط هيمنة القضاء الشرعي

(١) مذكرة النصيحة، ص ٤٣.
(٢) المذكرة، ص ٤٣.

على رجال الشرطة والأمن ونواب الهيئات ومن في حكمهم، وذلك بأن تحصر قرارات إصدار أحكام بالسجن أو التوقيف لمدة تتجاوز يوما وليلة، وكذلك دخول المنازل أو القيام بعمل يترتب عليه إهدار حق من حقوق الإنسان المقررة شرعا من قبل أجهزة الضبط الجنائي أو رجال الهيئة أو غيرهم من المتنفذين، على صدور حكم بها من قاضي شرعي بذلك، وأن يمنع مطلقا كل ذلك إلا بحكم القضاء الشرعي[(١)].

وهذا المطلب يتعارض صراحة مع ما تقوم به وزارة الداخلية من أعمال منافية لحقوق الإنسان، كما يتضمن إشارة إلى ما وقع لبعض الدعاة الذين تعرضوا للتفتيش وبقوا في الحجز مدة طويلة دون أن تعرض قضيتهم على المحاكم الشرعية.

الدفاع عن حقوق الإنسان وصيانتها:

ليست هذه هي المرة الوحيدة التي ستتعرض المذكرة فيها لبعض حقوق الإنسان، بل إن فصلا كاملا ستخصصه المذكرة للكلام عن «الكرامة والحقوق الإنسانية»، وبيان موقف الشريعة من الحقوق الإنسانية. وأن الوضع الحالي لهذه الحقوق داخل المملكة يعرف انتهاكات خطيرة، فبعض موظفي الدولة والقضاة وأساتذة الجامعة يتعرضون للفصل أو تجمد رواتبهم أو ينقلون إلى مناطق نائية دون محاكمة والسبب يكون في أمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر. كما أن العديد من الدعاة والخطباء يمنعون من المساجد. بل قد يحتجزون دون محاكمة ومنهم من يمنع من السفر وتسحب جوازاتهم.

أما الأجهزة الأمنية فإنها تقوم كما تقول المذكرة: «بالتجسس والتنصت وتفتيش المنازل وفتح الرسائل والتعدي أحيانا بالضرب والعدوان وتعذيب المتهم، مخالفة في ذلك النصوص الشرعية القطعية من الكتاب والسنة، المحرمة لهذه

(١) المرجع نفسه، ص ٤٣.

الأفعال[١]. وبالجملة فإن وضع حقوق الإنسان الذي تصفه المذكرة يؤكد ويدعم التقارير التي تصدرها الهيئات العالمية لحقوق الإنسان والتي تخص المملكة. كما يشهد بصحة ما تقوله وتكتبه المعارضة الوطنية والشيعية بالخصوص.

تقول المذكرة: «إن الدولة التي ترفع لواء العقيدة الإسلامية وتطبيق شريعة الإسلام يلزمها الرجوع إلى شرع الله وحده لإقرار حقوق الناس فلا يسعها أن تقرر حقوقا للمواطنين أو الوافدين بها استنباطا من التشريعات الوضعية، ولا أن تجعل حقوق العمال نابعة من قواعد الاشتراكية، ولا أن تقرر وتمنع حقوق المرأة أو الأسرة اتباعا للفكر الرأسمالي الليبرالي أو العادات والتقاليد الجائرة المخالفة للشرع[٢]، بل الواجب في كل ذلك الرجوع إلى شرع الإسلام وحده وتحكيمه وإنفاذ كل ما قرره من حقوق للعباد[٣].

مقترحات لتحسين الوضع الحقوقي:

وبعد عرض لواقع حقوق الإنسان في المملكة وأمثلة للخروقات القائمة، تقدم المذكرة عدة مقترحات لتحسين الوضع الحقوقي الإنساني، بل إنها تؤسس بالفعل لمشروع نظام حقوقي ثم عرضه في أربعة عشر نقطة نذكر منها:

١ - إلغاء كافة التعليمات والأوامر، والأحكام في الأنظمة وفي لائحة الادعاء والتحقيق ولائحة التوقيف على الأخص، التي تجيز التعدي على حقوق الأفراد من منع من السفر، ومن تصنت أو تجسس على الرسائل والمكالمات أو تفتيش البيوت هدف إفادة التحقيق، والحظر التام لارتكاب هذه الأعمال إلا في الأحوال المخصوصة التي أجازها الشرع بالدليل الصحيح وبعد صدور حكم قضائي شرعي.

---

(١) مذكرة النصيحة، ص ٤٥.

(٢) هناك قوانين مجحفة بحق المرأة مثل منعها من سياقة السيارة، أو الزواج بغير السعودي، وكذا العمل والسفر، وغير ذلك مما لا أساس له في شريعة الإسلام.

(٣) المذكرة، ص ٤٤.

٢ - المنع المطلق لكل تصرف ينجم عنه تعذيب المتهمين أو استخدام وسائل محرمة تنتهك فيها كرامة الإنسان لانتزاع المعلومات منهم قسرا أو إجبارهم على الاعتراف من قبل أفراد شرطة الأمن أو الضبط الجنائي.

٣ - التعميم على كافة الإدارات الحكومية والأجهزة الأمنية وأجهزة الضبط الجنائي المتعددة بالامتناع عن سجـن أو إيقاف أي شخص مدة فوق يوم وليلة، أو تفتيشه أو دخول بيته أو منعه من السفر إلا بناء على أمر وإذن قاض شرعي في ذلك.

٤ - تكوين لجنة عليا مستقلة عن الأجهزة الحكومية للحقوق الشرعية ترتبط برئيس مجلس الوزراء مباشرة، يكون أعضاؤها من عدد من القضاة والعلماء والمفكرين المتميزين في دراسات وفقه الحقوق الشرعية. ويناط بهذه اللجنة الإشراف على ضمان عدم انتهاك حقوق الأفراد الشرعية من قبل الأجهزة الأمنية أو الحكومية، والمراجعة الشاملة للتعليمات والأنظمة أو التصرفات التي نجم عنها انتهاك للحقوق الشرعية المشروعة والرفع عن كل مخالفة شرعية في ذلك لإلغائها أو إحالتها إلى القضاء الشرعي المختص.

وهذا مطلب مهم جدا لأنه سيقلص من صلاحيات وزارة الداخلية ومن سلطة المخابرات بالتحديد لأنها، هي موضوع انتهاك حقوق الإنسان. هذه الحقوق التي سيتمكن الفقهاء والمفكرون من تحديدها. وكذا تجريم المتهم، أو إعلان براءته. فلا شك أن منطلقات رجال الفكر والفقه تختلف عن منطلقات رجال الأمن أصحاب المهام التنفيذية فقط.

٥ - إزالة الأنظمة والتعليمات التي تمنع الأفراد وتشترط الترخيص لهم قبل ممارسة حقوقهم المشروعة التي أباحها الشرع من نكاح أو سفر أو تعبير عن رأي، أو تكوين الجمعيات الدعوية أو نشاط النشر والتأليف والتوزيع وقصر المنع من ممارسة هذه الحقوق أو العقوبة عليها عند الاقتضاء على حكم القضاء الشرعي.

وفي هذا البند إشارة إلى مشكل يعاني منه المواطنون كافة داخل المملكة باستثناء أعضاء الأسرة المالكة وهو تحريم الزواج من النساء العربيات من غير الخليجيات إذ لا يسمح القانون بإدخالهم إلى الدولة إلا بعد إجراءات طويلة وعريضة أهمها إيصال رشوة «مبلغ مهم من المال» إلى أحد الأمراء كي يحصل المرء على إجازة بدخول المرأة. لذلك تجد الكثير من المواطنين السعوديين يتزوجون من سوريات أو لبنانيات أو مصريات أو من شمال إفريقيا ويتركون زوجاتهم في أوطانهن الأصلية ويكتفون بزيارتهن بين الحين والآخر.

ولست أدري من أين استمد النظام السعودي هذا القانون، فالأنظمة القانونية المنظمة للعلاقة الزوجية عند الغربيين «الكفار»، لا تمنع من التحاق الزوج أو الزوجة ببعضهما البعض في أي موطن يختار أحدهما الإقامة فيه بحكم عمله أو غير ذلك. لكن الدولة التي تتخذ القرآن دستورا لها تمنع من التحاق الزوجة بموطن إقامة زوجها.

والذي يجب أن يعلم وقد علمه جل المتنورين والسلفيين وغيرهم هو أن قصور الأمراء تعج بالنساء العربيات والمسلمات وغيرهن من كل بلد عربي أو إسلامي وكذا جنسيات متعددة. إما على شكل زوجات شرعيات أو خادمات أو وصائف وجواري، ويظهر ذلك جليا عندما يعرف في بعض المناسبات إن أم الأمير الفلاني لبنانية أو سورية أو مصرية أو غير ذلك.

وأخيرا ينتهي فصل الحقوق الإنسانية بمطلب مثالي لا يمكن تحقيقه في أي دولة عربية أو إسلامية وهو «تقديم دورات شرعية لرجال الأمن والمحققين والمباشرين لأعمال الاحتجاز لتعليمهم الأحكام الشرعية في مسائل التحقيق والأدلة والبينات وحقوق المسلم وأصول التعاون بين المتهمين[١]».

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

والسبب في إستحالة تحقق مثل هكذا مطلب هو حرص وزارات الداخلية في العالم الإسلامي على استخدام نوعيات من الأفراد أهم ما يجب أن يتصفوا به، بساطة وضعف إلتزامهم بالدين والأخلاق (الأخلاق الفاضلة بالمفهوم الإسلامي التقوي). كما أن أصحاب المهام الأمنية الخطيرة كمواجهة ما يسمونه الحركات الأصولية المتطرفة، يتلقون تدريباتهم في الخارج على يد أجهزة المخابرات العالمية - الغربية بالخصوص -. كما أن هناك تعاونا وثيقا بين هذه الأجهزة في العالم الإسلامي ونظيراتها في أوروبا وأمريكا. ويا حبذا لو تعاملوا مع مواطنيهم كما تتعامل أوروبا وأمريكا مع مواطنيها؟!.

لقد حاولت قد المستطاع أن أقرب القارئ من مجمل مضمون المذكرة السلفية، لأن الوضع لا يسمح بإيرادها كاملة، كما تعمدت نقل الكثير من نصوصها. وذلك لإعطاء القارئ فكرة جلية عن مدى التطور الذي عرفه قطاع من التيار السلفي العام، ليس فقط في قدرته على متابعة ما يقع داخل المملكة ولكن في قدرته على وضع الحلول وشرحها ووضعها في برنامج منظم ومتكامل، وإذا بحثنا عن السبب وراء هذا التطور! يكفي أن نعرف أن من بين مائة وسبعة من العلماء والفقهاء والخطباء والأساتذة الذين وقعوا على هذه المذكرة وساندوها ثلاثة وأربعون دكتورا في مختلف الاختصاصات.

لهذا كنا نؤكد قبل قليل بأن وراء المذكرة نخبة سلفية متنورة وبعيدة عن طريقة وعقلية السلفيين القدامى ومن بينهم ما يسمونهم «كبار العلماء» فابن باز مثلا زعيم هؤلاء الكبار وموضع ثقة الحكومة لم يكتب هذه المذكرة، وإنما لم يجد فيها ما يخالف الواقع فزكاها وتقبلها بقبول حسن ووعد بإيصالها إلى المسؤولين. وهذا لا يعني أن ابن باز لا يعرف الوضع الحقيقي الذي تعيشه البلد قبل انفجار أزمة الخليج الثانية واستقدام الجنود الغربيين إلى المملكة.

ولكنه وحسب ما نقل عنه «يعلم بما تفعله الحكومة مما يخالف الدين، لكنه

يعتقد أن مسؤوليته الراهنة هي الصمت تجاهها حتى لا يوفر لها الفرصة التي تبحث عنها لتحجيم قوة المتدينين[١].

لكن التيار السلفي المتنور وجدها فرصة مؤاتية للصراخ والتنديد وعرض المطالب، بدل الصمت، وبذلك انقسم السلفيون عامة إلى قسمين تتجاذبهم الانتقادات والصراعات، خصوصا لما علم بصدور المذكرة وتحركت الحكومة لاحتواء الموقف واستنجدت بأعضاء المؤسسة الدينية للرد على المذكرة وعلى أصحابها، وإذا كان ابن باز قد أرسل رسالة إلى الموقعين على المذكرة يؤيد ما يذهبون إليه. فإن الحكومة ستدفعه ومعه هيئة كبار العلماء للرد على «مذكرة النصيحة»، وهذا لعمري مبلغ التهافت والخنوع وفقدان الاستقلالية لدى رجال يرفعون شعار التوحيد والعبودية لله وإن لا خضوع ولا طاعة إلا لله.

ومع ذلك يرمون بأنفسهم في هوة سحيقة لا قرار لها.

تهافت المواقف السلفية:

لقد اجتمع مجلس هيئة كبار العلماء بالطائف في ربيع الأول سنة ١٤١٣هـ وأصدر بيانا يشجب فيه هذه المذكرة المرفوعة إلى «خادم الحرمين الشريفين». يقول البيان: «وبعد تأمل مذكرة النصيحة ومناقشتها رأى المجلس إصدار هذا البيان الذي يستنكر به ما اشتملت عليه هذه المذكرة من الباطل وما هو خلاف الواقع وطريقة إعدادها ونشرها، وقد عمل معدو هذه المذكرة بهذه الطريقة على ترويج أسباب الفرقة وزرع الضغائن واختلاق المثالب أو تجسيمها مع التغاضي الكامل عن كل محاسن الدولة»[٢].

طبعا لقد تابع القارئ النصوص التي اقتطفناها من هذه المذكرة ولا أظنه بعد ذلك سيوافق على ما جاء في بيان الرد. فأين هي «أسباب التفرقة وزرع الضغائن

---

(١) مجلة الجزيرة، عدد فبراير ١٩٩١ م، دراسة لتوفيق الشيخ، ص ٣٨.

(٢) مجلة الجزيرة العربية، عدد ٢١ أكتوبر ١٩٩٢ م، ص ٤٧.

واختلاق المثالب» في ما كتبه هؤلاء من وصف لواقع ملموس أتوا عليه بالشواهد والأمثلة الحية، وهل عندما تشير المذكرة على أن كثيرا من القوانين المنظمة للاقتصاد مثلا، مأخوذة من المصادر الأجنبية غير الإسلام تكون بذلك تزرع الضغائن؟! لست أدري كيف!؟.

وعندما تتكلم المذكرة عن الوضع المزري لحقوق الإنسان وما تقوم به وزارة الداخلية من خرق لهذه الحقوق، تكون بذلك تختلق المثالب. إن بيان الرد على المذكرة جاء هزيلا ومتناقضا ويثير الضحك والسخرية لدى كل من قرأ المذكرة. وهذا إن دل فإنما يدل على حقيقة مهمة وخطيرة ذكرناها في مقدمة الفصل الثاني وهيَ أن السلطات السياسية في العالم الإسلامي قد ساهمت في الماضي في صنع المذاهب والمؤسسات الفقهية والدينية، ليس لخدمة الدين والحقيقة، ولكن لتحريف هذا الدين وتزوير الحقيقة والكذب على الناس وتضليلهم وإبعاد الحقائق عن أعينهم، كي يضل الوضع على ما هو عليه من الظلم والجور والاستبداد.

يا أبناء الصحوة الإسلامية إحذروا:

واليوم تؤكد هيئة كبار العلماء السلفيين كمؤسسة دينية في المملكة السعودية هذا الواقع. فعلى أبناء الصحوة الإسلامية أن ينتبهوا إذن لكل ما يصدر عن هؤلاء العلماء الكبار من أقوال وفتاوى واستنباط. وإذا وصف الله سبحانه وتعالى مكر اليهود بأنه مما تنهد منه الجبال فإن من غير المستبعد أن تتكفل المخابرات الأمريكية والبيت الأبيض من الآن فصاعدا وقبل الآن؟! بإملاء ما يجب على أبناء الصحوة الإسلامية أن يفعلوه بل يمكنهم رسم الخط العام والخاص الذي يجب أن تسير فيه هذه الصحوة.

فالقرار قد يصدر هناك فتحمله الرجال أو الأقمار الصناعية، وقد يصل إلى المتنفذين والمتعاونين مع الغرب «عدو الصحوة» ومن ثم يجد طريقه إلى عقول رجال الدين المشرفين على المؤسسات الدينية الذين تؤدي رواتبهم الدولة وتشرف على

أعمالهم، فيتحول ذلك القرار أو الأمر إلى استنباط من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: أو اجتهاد إسلامي إذا أخطأ صاحبه فله أجر وإذا أصاب فله أجرين؟!

وهذا الواقع والمثال ليس حكرا على المؤسسة الدينية السلفية. وإنما يجد له الأمثلة والنماذج المماثلة في باقي بلدان العالم الإسلامي.

وقد وقفت يوما مذهولا وأنا أقرأ نص الحوار الذي أجرته إحدى المجلات العربية مع مفتي مصر. حيث سألته المجلة عن حقيقة التهم التي يوجهها الأصوليون «أبناء الحركة الإسلامية» في مصر للدولة من أنها تنشر الفساد بترخيصها بيع الخمور، وغضها الطرف على انتشار الدعارة المنظمة. فكان رد المفتي، استغرابا واستنكارا وقال هذا الكلام غير صحيح أنا لا أرى خمرا تباع ولا فساداً في مصر.

إن هذا الرجل الذي وضعته الدولة في موقع يمكنه أن يحلل الحرام ويحرم الحلال، يسكن برجا عاليا جدا لا يسمع فيه ضجيج المجتمع. وهو مع ذلك قد أغمض عينيه وأغلق أذنيه ولم يعد يرى أو يسمع سوى ما تمليه عليه الإرادة السياسية للحكومة القائمة. طبعا هذا الكلام عندما يسمعه جمهور الناس وخصوصا البسطاء منهم يضحكون ويستهزئون في نفس الوقت على السذاجة المتعمدة لهؤلاء العلماء والفقهاء. ولو نزل السيد المفتي ونزع لباسه الديني وسأل في الشارع أي مواطن عن مخمر أو مكان قريب يباع فيه الخمر، لدلوه على عشرات الأمكنة ولربما كان إحداها لا يبعد عن منزله سوى بضعة أمتار. أما بيوت الدعارة وأماكن بيع الهوى، فيعرفها الخاص والعام.

ونحن هناك لا نعرض لواقع انتشار الخمر وبيوت الدعارة في مصر لأن ذلك أصبح ظاهرة تعم معظم البلدان العربية في الوقت الحاضر، وهذا ليس مما أحدثه الاستعمار كما يدعي البعض، فظاهرة انتشار بيع الخمر وبيوت الدعارة ظاهرة لازمت التاريخ العربي والإسلامي منذ صدر الإسلام وإلى يوم الناس هذا. ففي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مثلا استفحلت ظاهرة الخمر في المدينة مما

استدعى البحث عن حد السكران وكيف إن الصحابة اختلفوا في تحديد هذا الحد.

إن هذه المؤسسات الدينية التي تنشؤها الحكومات يجب أن تفقد مصداقيتها عندما تتعرض للفروع وجزئيات الأمور الدينية. لأنها لو أصغي لها في هذه الأمور البسيطة، فيستخذ رجالها من ذلك مقدمة وأرضية للتعرض للقضايا الكبرى والفصل فيها، من ترجيح وتحريم أو تحليل، وهذه هي الطامة الكبرى التي تنذر بالانحراف الكبير. وقد كان بنو إسرائيل كما حكى عنهم القرآن يحرفون كلام الله وحكمه بعد ما عقلوه. وجاءت الأحاديث النبوية بأن هذه الأمة ستتبع خطأ أهل الكتاب بحيث «لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[1].

وعليه فالحكم بكفر المعارضات السياسية للأنظمة الحاكمة وإصدار الفتاوى في حق بعض المفكرين أو المصلحين لأنهم مفسدون في الأرض وغير ذلك من الأحكام الجائرة والظالمة والتي يعصى فيها الله إرضاء لرجال الحكم. يجب أن لا يأخذها المجتمع مأخذ الجد، بل يتهمها ويتهم أصحابها. وأن ينظر إليها بكثير من الشك والريبة حتى يتبين له الحق من الباطل. فإن الخوف على هذه الأمة. كما أخبر الحديث من «منافق عليم اللسان».

أرجع بعد هذا الاستطراد الطويل لمتابعة الردود الرسمية والعلمائية التي أقامتها الدولة لاحتواء تداعيات «مذكرة النصيحة» فإن البيان بعد ما شكك بالواقع الذي ذكرته، اتهم كتاب المذكرة بالارتباط بالجهات الأجنبية وباعتناق أفكار منحرفة، هذا مع العلم أن المذكرة مشحونة كعادة السلفيين - عند الكتابة - بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ويزداد الطين بلة عندما يوقع الشيخ ابن باز على هذا البيان الاستنكاري وهو الذي زكى المذكرة قبل ذلك؟! وهناك ملاحظة طريفة جدا وتتمثل في غياب عدد كبير من علماء الهيئة ورجالها عند توقيع بيان الاستنكار.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟».

فسبعة من العلماء على الأقل لم يحضروا التوقيع وتغيبوا لظروف صحية. وكأن الحمى المالطية قد اجتاحت مجلس الهيئة فجأة فأصابت مجموعة من رجاله؟!.

ومضمون البيان الاستنكاري إذا قورن بأقوال الفقهاء والعلماء والدكاترة السلفيين الذين حاورتهم جريدة «عكاظ» يبدو هادئا ويروم نحو الاتزان والتلميح بدل التصريح. فقد وصف أحد السلفيين بأن الموقعين على المذكرة هدفهم زعزعة الأمن والعبث بمقدرات المسلمين.

بل ذهب الشيخ قاسم بن علي الشماخي إلى أن أصحاب المذكرة ليسوا من الإسلام في شئ وأضاف: «إن كتابة مذكرة النصيحة ليس من الإسلام، فالإسلام برئ من مثل هؤلاء وندعو لهم بالهداية» وقال مثل ذلك الدكتور طلال البكري «مثل هؤلاء لا يفقهون من الدين شيئا ولا علم لهم بالدين».

حد الحرابة:

أما الشيخ مطر الزهراني فقد طالب ضمنيا بإنزال العقوبة بحق الموقعين على المذكرة باعتبار إن المراد بالمذكرة - حسب قوله - هو: «زعزعة النفوس وأحداث القلاقل وتفريق شمل الأمة الإسلامية في هذا البلاد... ويجب أن يعاقب فاعله وينال جزاءه إذا تحقق من هذا إن المراد به إحداث الفتنة والقلاقل» وزاد على ذلك بالقول بأن «السير وراء أنصاف المتعلمين ومدعي العلم وبعض الجهلاء فإن ذلك مفسدة يجب درؤها»[١].

وبذلك يطل «حد الحرابة»[٢] برأسه من جديد، ويحوم السيف السلفي الوهابي

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) هذا يذكرنا بالأسلوب التاريخي لتعامل الأنظمة السياسية مع أي معترض أو ناقد وكذا الحدود التي لا يمكن لرجل الدين أو المفكر أن يتجاوزها. يقول كشك: «عندما احتج فيصل الدويش على طول ثوب «الإمام» - أي الملك - أعطاه المقص وتركه يقص ما يتجاوز حد الدين. ولكن لما هدد الدويش النظام قص رقبته».

الذي قطع الكثير من رؤوس أهل السنة والإمامية، حول رؤوس فئة متنورة ولدت في قلب الدولة السلفية. فليس هناك ما يمنع من تكفير ثلاثة وأربعين دكتورا في العلوم الإسلامية، كلهم يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية شيخه وقدوته في الدين والدنيا.

لقد وقع هؤلاء وغيرهم ممن وقع على المذكرة، في المحضور، فالشيخ السلفي الشماخي يقول «إن كتابة مذكرة النصيحة ليس من الإسلام»، فكيف يحق لهم أن ينصحوا ولاة الأمر؟! وكيف سمحت لهم أنفسهم أن يقولوا أن التعذيب ومنع الخطباء من الدعوة انتهاك لحقوق الإنسان؟! إن ذلك ليس من الإسلام السلفي في شئ وهو حرام ومحضور، يجب عقاب مرتكبيه بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف لأنهم يحاربون الله ورسوله؟! وهكذا يستمر الهراء وتتلاعب الأهواء السياسية بالواقع الديني والحياتي في العالم العربي والإسلامي؟!.

لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية:

لقد أحدثت «المذكرة» ضجة إعلامية لا بأس بها وأعقبتها حركة من الردود والنقاشات، لكنها لم تصل إلى تحقيق ما توخاه» أصحابها من استنصاح ولاة الأمر، وإحداث تغيرات أو إصلاحات في المرافق التي تعاني من فساد لأن الحكومة والأمراء أداروا لها ظهرهم ولم يعتبروا إن لهؤلاء المفكرين الحق في الإملاء على الأسرة الحاكمة ما يجب أن تفعله، لذلك ستأخذ المبادرة مجموعة أخرى من العلماء والمفكرين وسيقومون بإعلان عن تأسيس «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية» في ١٩٩٣/٥/٣ م.

وبعد كتابة عريضة التأسيس وقع عليها كل من محمد الصليفيح من كبار رجال التعليم معروف بنشاطه السياسي والاجتماعي. عبد الله بن سليمان المسعري، قاضي متقاعد ورئيس ديوان المظالم «أمين اللجنة» عبد الله بن عبد الرحمان الجبرين، من كبار العلماء في المملكة وعضو رسمي للإفتاء، عبد الله الحامد، حامل الدكتوراه وعضو هيئة تدريس في جامعة الإمام.

سليمان بن إبراهيم الرشودي، أول من زاول مهنة المحاماة في المملكة. عبد الله بن حمود التويجري، أستاذ في جامعة الإمام ورئيس قسم أكاديمي فيها[١].

أما العريضة فقد جاء فيها: «فقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب حفظ كرامة الإنسان وحقوقه الشرعية، كما فرضت الشريعة على المسلمين نصر المظلوم ورفع الظلم فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، وذكر منها «نصر المظلوم» متفق عليه... ولما كان أهل العلم الشرعي وطلبته أولى الناس بالقيام بفرائض الدين فإننا نعلن في هذا البيان، استعدادنا للمساهمة في كل ما من شأنه رفع الظلم ونصر المظلوم والدفاع عن الحقوق التي فرضتها الشريعة للإنسان، جاهدين أن نتحرى الوسائل الشرعية وأن نلتزم هدي الكتاب والسنة. بناء على ذلك فإن من يرغب أن يوافينا بمظلمة أو معلومة موثقة تعين على رفع الظلم ونصرة المظلوم والدفاع عن «الحقوق الشرعية» فإننا مستعدون لاستقبالها على العناوين والهواتف المذكورة أدناه...»[٢].

وإذا كان مجلس هيئة كبار العلماء قد تصدى «للمذكرة السابقة وأصدر بيانا يندد بها فإنه سيقوم بنفس العمل بخصوص لجنة الدفاع. معلنا استغرابه واستنكاره لهذا العمل ويقرر بالإجماع عدم شرعية قيام هذه اللجنة وعدم جواز

(١) مجلة الجزيرة العربية، عدد ٢٩ يونيو ١٩٩٣ / ذي الحجة ١٤١٣ هـ ص ٦.

(٢) نقلت وكالة رويتر عن محمد المسعري قوله، إن اللجنة شكلت إثر اعتقال اثنين من رجال الدين السعوديين هما الشيخ محمد الدبيان والشيخ محمد عبود العسيري وأضاف، إن الدبيان اعتقل للمرة الثالثة في نهاية أبريل الماضي، وإن العسيري معتقل منذ عدة أشهر. ولم يذكر المسعري الآراء التي اعتقل بسببها الدبيان والعسيري، إلا أنه قال أنها لا تبرر المعاملة التي يتلقيانها. وقال إن قضيتهما لم تكن الوحيدة التي أدت إلى تشكيل اللجنة ولكن يمكن القول إنها كانت «الشرارة التي أطلقت الموضوع» واختتم المسعري تصريحه لرويتر، إن اللجنة غير مرتبطة بجماعات حقوق الإنسان في الغرب مثل منظمة العفو الدولية لأنها قائمة على العقيدة الإسلامية. لكنه أضاف إن هذا لا يمنع قيام تعاون مع هذه الجماعات في المستقبل. أنظر المرجع السابق.

إقرارها»[١]. أما الأسباب التي ذكرها البيان الاستنكاري فلا تعدو التذكير بأن المحاكم الشرعية منتشرة في المملكة وتقوم بهذا الدور. وذكر أن أصحاب هذه اللجنة يعلمون ذلك.

ولكن هذا البيان الاستنكاري نسي أن مذكرة النصيحة قد تعرضت لهذه المحاكم وانتقدتها بشدة وقدمت المقترحات لتطويرها كما أن هذه اللجنة وخصوصا مشاركة المسعري فيها وهو قاض ورئيس ديوان المظالم يؤكد حقيقة وضع الحقوق الشرعية داخل المملكة. أما بخصوص عدم شرعيتها من الناحية الدينية فإن الشيخ بن جبرين وهو أحد الموقعين على بيان التأسيس، عضو رسمي للإفتاء، ويكفي وجوده وإمضاؤه للاستدلال على شرعيتها. أما مسألة انسحابه من اللجنة بعدما أثيرت حولها الزوابع وكثرت الضغوطات على أصحابها فإن هذا الموقف يطعن في مصداقية هؤلاء العلماء الذين يقدمون رضا الحكومة على الحق، عند كل اختبار يقعون فيه سواء أكان إراديا أو اضطراريا. كما أن خروجه من اللجنة لا يسحب منها الشرعية أبدا إذا كان - هذا العالم - قد أفتى عمليا بشرعيتها وشارك فيها[٢].

كما أن هذا البيان يطرح تساؤلا كبيرا حول مفهوم «الشرعية»[٣]، فهل كل ما لا ترغب فيه الحكومة يعتبر غير شرعي؟! وما علاقة الإسلام بذلك؟!

---

(١) أفتى الشيخ بن جبرين - قبل أن ينسحب من اللجنة - بأن الأخيرة مكلفة شرعا بالدفاع عن حقوق البشر وإنصافهم من المظالم بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية أو الفكرية أو العرقية، ولذلك فإن اللجنة ستهتم بالدفاع عن كل من يتظلم لها ممن يسكنون المملكة أو يتواجدون فيها.

(٢) المرجع السابق، ص ٧.

(٣) لما اجتمع أمير الرياض بالأعضاء المؤسسين للجنة «أبلغهم على الفور تنديد العائلة الحاكمة والحكومة السعودية بمثل هذا الإجراء وطالبهم بالتراجع عنه لأنه مخالف للشرعية السياسية والشرعية الدينية في نفس الوقت. فرد أعضاء اللجنة بأنهم - وهم من الحقوقيين والعلماء - على يقين بأن هذا الأمر لا يخالف الإسلام، بل يحض الإسلام عليه ويكلف به المؤمنين به بالدفاع عن المظلومين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهددهم الأمير بأنه سيطلب من المؤسسة الدينية إصدار بيان يندد بهم ويبين حكم الشرع في مثل هذا الأمر؟! أنظر مجلة الجزيرة، عدد ٢٩ يونيو ١٩٩٣ م، ص ١٢.

فأصحاب اللجنة علماء دين! بل منهم من يعتبر من كبار العلماء والمفتين. ولو كانت اللجنة مخالفة للإسلام لما قام هؤلاء بتأسيسها. ولكن يظهر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بأن هناك مفهومان للإسلام، إسلام رسمي حكومي لا أحد يعرف كيف يتم استنباط الأحكام من خلال نصوصه؟! وما هي حدود الحلال والحرام لدى أصحابه؟ وما هي الظروف والعوامل التي تجعل من عمل ما حراماً وغير شرعي في الصباح لكنه يغدو بعد الظهر حلالا يأثم من لم يفعله!.

هذه المفارقة واكبت تاريخ الإسلام منذ فجره وإلى الآن وهي السبب في ظهور مصطلحات ومفاهيم مثل «وعاظ السلاطين» و«فقهاء النظام». لذلك لم يكن الشيخ سلمان العودة مجانبا للصواب عندما انتقد البيان الاستنكاري لقيام اللجنة ووصف العلماء الذين كتبوه بأنهم «موظفون لدى الحكومة».

الهجوم على اللجنة وأصحابها:

وإذا كانت «مذكرة النصيحة» قد أثارت استنكار الأسرة المالكة التي حاولت استيعاب تداعياتها. فإن الموقف تجاه «لجنة الحقوق الشرعية» كان صارما وغير متوقع، إذ صدرت التعليمات بفصل خمسة من أعضاء اللجنة من وظائفهم ولم يسلم ابن جبرين من الفصل من الرئاسة العامة للإفتاء رغم تراجعه وانسحابه. أما البقية فقد منعوا من التدريس بالجامعات. كما صدرت التعليمات بسحب رخص المحاماة والاستشارات وما يتعلق بها، الممنوحة لكل من عبد الله بن سليمان المسعري وسليمان بن إبراهيم الرشودي وإغلاق مكتبيهما وفروعهما في المدن السعودية[١]. بالإضافة إلى مضايقات أمنية.

وقد استدعي أمين اللجنة المسعري للتحقيق ومنع من إعطاء أي تصريح أو مقابلة مع الإعلام الأجنبي. هذه الإجراءات وغيرها قوبلت باستنكار واسع النطاق

---

(١) مجلة الجزيرة، م س، ص ٧.

داخل صفوف التيار السلفي خصوصا المؤمنين بضرورة التغيير، ومنع على أثر ذلك عدد من الخطباء من إلقاء خطبهم لأنهم نددوا بتصرف الحكومة مع أصحاب اللجنة. وإذا كانت أصداء «مذكرة النصيحة» محدودة نوعا ما فإن خبر هذه اللجنة الحقوقية قد تداولته الصحافة العالمية. كما تابعت منظمة ليبرتي الحقوقية يوميات وأخبار هذه اللجنة وأصحابها. وقد زاد اللقاء الذي عقده أعضاء من السفارة الأمريكية في الرياض مع رئيس اللجنة المسعري في زيادة الاهتمام بأخبار اللجنة ورجالها مما أربك الحكومة. وازداد الوضع الداخلي توترا مع زيادة التأييد الداخلي للجنة فقد وصلت إلى اللجنة خطابات تأييد من أكثر من أربعمائة (٤٠٠) شخصية علمية وفكرية.

إن لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية إجراء عملي لتحقيق ما دعت إليه مذكرة النصيحة، وإعادة صياغة محتوياتها بشكل وإطار آخر من خلاله سيتم استعراض كل المشاكل ومواطن الفساد في الدولة الحالية. يؤكد ذلك ما جاء في نص الحوار الذي أجرته (بي. بي. سي) القسم العربي مع سكرتير اللجنة الدكتور محمد المسعري، فقد تكلم عن «التجاوزات التي تصدر من شخصيات بارزة» وعن ضمان الحقوق المدنية للأقليات الدينية المتواجدة داخل السعودية. والتي ما فتئ علماء السلفية يلهجون بتكفيرها ورميها بالضلال والانحراف[1]. كما تعرض الحوار

---

(١) في الحجاز هناك العديد من أتباع المذاهب الأخرى بجميع اتجاهاتها. كما أن غالبية المسلمين السنة في الأحساء يتبعون المذهب المالكي شأنهم في ذلك شأن معظم الخليجيين الآخرين في الكويت وقطر والإمارات، كما أن معظم السكان في تهامة الجنوبية وعسير والباحة يتبعون المذهب الشيعي الإسماعيلي، أما في المنطقة الشرقية فإن غالبية السكان من الشيعة الإمامية. ولكل من هذه المذاهب علماء يدرسون غالبا في الخارج، ولا زال خريج الجامع الأزهر يعتبر في مساجد الحجاز أرفع شأنا من نظيره المتخرج من الجامعات الدينية السعودية، ويميل العلماء من هذه المذاهب وأتباعهم إلى التسامح عادة، كما أنهم أكثر انفتاحا على التيارات الثقافية والاجتماعية الجديدة، وربما كان مرجع ذلك هو إحساسهم بالاضطهاد، ومحدودية الفرص المتاحة لهم للتعبير عن معتقداتهم. ويتعرض هؤلاء لعداء الخط الديني التقليدي كما الخط السلفي. وقد حكم على الشيخ محمد بن علوي المالكي وهو عالم دين بارز من مكة المكرمة بالمروق من الدين، لأنه أجاز الاحتفال بالمولد النبوي الشريف..» أنظر مجلة الجزيرة العربية، عدد فبراير ١٩٩١ م، ص ٣٩.

للوعود التي قدمتها الأسرة الحاكمة بشأن تطوير الحياة السياسية، وأن شيئا لم يتحقق في هذا الاتجاه!؟ بالإضافة إلى الحديث عن الشورى والديمقراطية وفكرة التحديث العام، والمجتمع المدني.

لقد عرف تأسيس هذه اللجنة صدى واسعا في الداخل والخارج، وإن كانت الحكومة قد تعاملت معه بخشونة وصراحة. إلا أن ذلك لم ينه الموضوع، لأن بعض أعضاء اللجنة سيغادرون المملكة إلى الغرب للإعلان عن استمرارية اللجنة. ومتابعة أصحابها الأهداف التي أعلنوها عند التأسيس، لذلك فموضوع هذه اللجنة ما زال حيا ولم تستطع الحكومة أن تقبره. بل بين الحين والآخر تتعرض وسائل الإعلام العالمية لأنشطة هذه اللجنة وأخبارها؟!.

الخلاف في تصاعد مستمر:

بعد هذا التتبع المقتضب لمسيرة الوفاق والاختلاف بين الأسرة السعودية والحركة الوهابية، يتبين أن الخط الخلافي الذي تأسس على قاعدة اتفاقية في تصاعد مستمر نحو المواجهة والاختلاف الحدي، مع ملاحظة، ليس فقط حجم الصراع وتوسعه ولكن نوعية الصراع ونضجه، لأن مما لا شك فيه أن أسباب الخلاف التي فجرت الصراع بين الإخوان والملك عبد العزيز في النصف الأول من هذا القرن، ليست هي نفسها التي تضمنتها مذكرة النصيحة. كما أن فكرة تأسيس لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية تعتبر تجاوزا للفكر السلفي الوهابي التقليدي. كما وقد أفصحت هذه المعارك والصراعات على انشقاقات في التيار السلفي العام، وميزت المؤسسة الدينية الرسمية المستوعبة من طرف الحكومة، عن الفئات المتنورة التي ولدت داخل هذا التيار والتي تربت داخل الجامعات وتعرفت على العالم الخارجي.

لكننا سنسجل بكل أسف وحسرة انحصار هذا الخط التنويري داخل التيار السلفي ومحاصرته من طرف المؤسسة التقليدية وعلمائها والحكومة المتربصة والخائفة من هذا التطور. أما أسفنا فبسبب انتشار الدعوة السلفية في أوساط

الصحوة الإسلامية بشكل مثير، ومدى الوعي الذي تنشره هذه الدعوة داخل هذا الوسط، فالاهتمامات التقليدية لهؤلاء السفليين المنتصرين والذين يتلقون الدعم والتأييد الحكومي لا تعدو، إرخاء اللحى وتقصير الثوب والاهتمام بالجزئيات الفقهية أثناء الدعوة.

بالإضافة إلى إثارة الفتن المذهبية ورمي فئات واسعة من المسلمين بالكفر والشرك، لأنهم لا يقلدون المذهب الوهابي في الفروع والأصول. أما هذا الخط السلفي المتنور فقد أظهر من خلال إنتاجه وتصريحات أصحابه أنه يحتضن وعيا متقدما بعض الشيء في معالجته لقضايا المسلمين العامة[1]، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحررا بعض الشيء من جزئيات وشكليات لم يستفد منها المسلمون سوى ضياع الطاقات وإهدار الإمكانيات، وتفجير الصراعات والأحقاد الطائفية لا غير.

***

(١) إن ما تحدثنا عنه من تطور في الوعي السياسي والاجتماعي لدى هذه الفئة المتنورة من الوهابية (السلفية) قد شمل الكثير من القضايا إلا أن موقفهم الطائفي لم يتغير وخصوصا تجاه المذهب والمجتمع الإمامي الذي يسمونهم (رافضة) مع أن الدولة السعودية نفسها سجلت تغيرا ملحوظا في موقفهم بعد حرب الخليج الثانية. فأحد رجالات هذا التيار الجديد وهو الشيخ فهد سلمان العودة اعتبر في محاضرته (أسباب سقوط الدول) المذهب الشيعي مذهبا باطنيا خبيثا، وقال إن اليهود والنصارى كان لهم دور في نشوء الفرق (الروافض والخوارج) ويقول الدكتور سفر الحوالي في رسالة مطولة له: «... يجب على علمائنا الكرام التنبيه إلى الخطر الرافضي القادم، وبيان فداحة الخطأ الذي تقع فيه الحكومة السعودية عندما تؤيد المعارضة العراقية الرافضية وتسميها (المعارضة الإسلامية)، وتصف آيات الله خلالها بأنهم علماء الإسلام، في حين تهاجم بلا هوادة جبهة السودان وجبهة الجزائر وأمثالها من الحركات الإسلامية التي مهما أخطأت فهي لا تقارن بخطر الرافضة».
عجيب! إن لهؤلاء السلفية تصورا غريبا تجاه الشيعة الإمامية، لا أحد يعلمه! فأي خطر يمثله هؤلاء الشيعة؟ وعلى من؟ وكيف؟ فالحقيقة الوحيدة التي يعرفها أبناء الصحوة الإسلامية هي أن الشعب الإيراني وشيعة لبنان هم أعداء الغرب وأمريكا، وأنهم وحدهم لا غير يمكنهم أن يهددوا مصالح الغرب الاستعماري والوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية، ولا أدل على ذلك من أن كل البنادق أسكتت إلا بندقية الشيعي اللبناني الذي ما زال يصوبها تجاه إسرائيل وعملائها في جنوب لبنان؟!.

السلفية دعوة عالمية

لقد كان لانتصار الحركة الوهابية المسلحة وسيطرتها على مكة والمدينة، المدينتان المقدستان اللتان يحج إليهما عشرات الألوف من المسلمين كل سنة، أثره الفعال والمهم في انتشار الفكر الوهابي خارج الجزيرة العربية. وعليه فقد غدا موسم الحج السنوي الفرصة الأكثر حيوية لدعاة الوهابية لنشر مذهبهم في التوحيد ومحاربة بدع التوسل والاستغاثة؟!.

فإلى جانب الخطب المنبرية والجلسات التفقيهية والوعظية المنظمة بمناسبة الحج، اهتم القائمون على الدعوة الوهابية بنشر كتب الشيخين ابن عبد الوهاب وابن تيمية. وعدد كبير من الكراسات والمحاضرات التي تشرح أصول المذهب الوهابي التوحيدي الجديد، وتوزيعها مجانا على الحجاج. كما أن التصرفات الغريبة والشاذة التي كانت تصدر من بعض دعاة الوهابية أو القائمين على رعاية الأماكن المقدسة كانت تثير ردود فعل مختلفة في طرف الحجاج وخاصة عندما كان الوهابيون يمنعونهم من التقرب إلى ضريح الرسول ﷺ بحجة أن ذلك «شرك» وإن من تمسح بالقبر أو وضع يده على الشباك المحيط بالقبر الشريف، فقد أشرك. وينادون على من يفعل ذلك يا مشرك؟! كل هذه التصرفات كانت تثير لدى الحجاج تساؤلات عدة تدفع المتعلمين منهم للسؤال والبحث. وقد تعرف الكثير منهم على العقائد الوهابية من جراء ذلك.

أما انتشار الوهابية في دول العالم الإسلامي فيعزى إلى طائفة من العلماء والفقهاء زاروا مكة والمدينة للحج فتعرفوا على عقائد الوهابية والتقوا معها في مسألة محاربة البدع والخرافات العقائدية التي كانت منتشرة، ومن ثم شكلوا النواة

الأولى للدعوة الوهابية في بلدانهم لما رجعوا من حجهم. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الطلبة الذين استوعبتهم الجامعات الدينية الوهابية، المؤسسة لتعليم المذهب الحنبلي وعقائده. ولقد كانوا فعلا رسل المذهب وسفراءه في بلدانهم، ومن ثم بدأت أفكار الشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب تعرف طريقها نحو العالمية.

كما أن الدولة السعودية وبحكم تعلقها بالشرعية «الدينية السياسية» وارتباطها بالدعوة الوهابية، قد بذلت جهودا كبيرة لدعم هذا المذهب ونشره داخل الجزيرة وخارجها. وقد خصص لهذا الغرض ميزانية ضخمة تصرف على طباعة الكتب الخاصة بالعقيدة الحنبلية «بصيغتها الوهابية». يقول الدكتور صالح بن عبد الله: وكم لهم من يد طولى في نشر كتب السلف الصالح وطباعتها وبذل الأموال الطائلة على التعليم ونشر الإسلام في الآفاق... فمنذ الملك عبد العزيز وكتب السلف تطبع وتنشر وتوزع مجانا، وهذه مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، والدرر السنية. ومجموعة فتاوى ابن تيمية وكتب ابن القيم وكتب الفقه والتفسير والحديث في ذلك بين أيدينا شاهدة على آثارهم[١].

لقد اغنانا هذا الكاتب عن التعليق على قوله «نشر كتب السلف الصالح» فقد أوضح المقصود بذلك السلف الصالح! أي ابن تيمية وابن قيم الجوزية.

أما كتب الحديث فقد نشروا وطبعوا كل الكتب التي تدعم عقيدة التشبيه والتجسيم والتي هي من تراث الحنابلة خاصة. وقد أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ونقلنا عنها بعض الأحاديث الخاصة بهذا الموضوع.

وهذا النشر والطباعة لتراث الحنابلة وتوزيعه مجانا، لم يقتصر فيه على المملكة الوهابية نشرا وتوزيعا. وإنما تمت الاستفادة من أغلب دور النشر في مصر وبيروت ودمشق وبغداد والهند. وبذلك اتسعت رقعة التوزيع لتحيط بالسوق

---

(١) د. صالح بن عبد الله بن عبد الرحمن العبود. عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، المجلس العلمي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ١ ١٤٠٨هـ ص ٦٢٣.

العربية والإسلامية للكتاب. وبما أن الكتاب السلفي الوهابي لا يشكل أية مشكلة بالنسبة لجهات المراقبة على الكتاب الإسلامي في الوطن العربي بالخصوص، فقد أغرقت الأسواق بهذا الكم الهائل من «كتب السلف الصالح». والتي أصبح من المتعذر عدم وجود بعضها ضمن مكتبات أبناء الصحوة الإسلامية.

كما تجدر الإشارة إلى أن المراكز الثقافية التابعة للحكومة السعودية والمنتشرة في جميع الدول الإسلامية تقوم بدور فعال في هذا المجال خصوصا تزويد الطلبة بفتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

بالإضافة إلى المراكز الإسلامية التي دأبت الدولة السعودية على افتتاحها في العواصم الدولية وتزويدها بالكتب السلفية والخطباء والعلماء الوهابية. وإذا أضفنا إلى ذلك ظهور تيارات حركية سلفية داخل العالم الإسلامي، تابعة للمؤسسة الدينية السعودية. تكون الصورة قد اكتملت حول حجم ظاهرة الدعوة السلفية التي واكب ظهورها وانتصارها وسيطرتها على الحجاز والمدينتين المقدستين. بروز وتشكل الصحوة الإسلامية العالمية، حيث أدى التأثير السلبي على هذه الصحوة إلى إجهاض كثير من مشاريعها المستقبلية، وسقوط أتباعها في متاهات عقائدية وخلافية عمقت حالة التمزق والتشرذم داخل الجسد الإسلامي.

***

(١) قامت مؤخرا سفارة المملكة العربية السعودية في الرباط بطباعة فتاوي ابن تيمية على نفقتها. وذلك لتوزيعها على المؤسسات الإسلامية أو من يطلبها من الطلبة والباحثين.

أسلوب الدعوة

يوميات المذهب الحنبلي في الدعوة:

لا بد لمن أراد أن يعرف طرق ووسائل الدعوة «لمذهب السلف» أن يستحضر الماضي، ونقصد به تاريخ المذهب الحنبلي. لأن من لم يعرف طريقة الحنابلة في الدعوة لمذهبهم لا يمكنه أن يحيط بكل مظاهر الدعوة السلفية المعاصرة. أو أن يعرف أساليب أصحابها في نشر أفكارهم وبث معتقداتهم.

وقد احتفظ لنا التاريخ بعدة وقائع تصف حركة هؤلاء الحنابلة وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وكيف كانوا يجوبون الأسواق في تظاهرات مفاجئة يهجمون خلالها على المواخير وبيوت الغناء والرقص في بغداد، ويحدثون جلبة وفوضى، تستدعي تدخل الجيش السلطاني لإعادة الأمن وتفريق جماعات العوام المشاركة في هذا العمل الدعوي والاستنكاري.

لكن الأمر لم يكن ليقف عند هذا الحد، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل تعداه كما يقول صاحب النهج الأحمد: «لكنهم تجاوزوا ذلك كله، وذهبوا إلى محاربة من يخالفهم في بعض الآراء سواء في ذلك المسائل الأصولية أو المسائل الفروعية»[1].

مثل محاربتهم للأشاعرة وإعلان تكفيرهم والتهجم على علمائهم. فقد

---

(١) النهج الأحمد، ج ١ ص ٣٧. يقول المؤلف: «فقد كنا في عهد الصبا نسمع الرجل يصف رجلا آخر، فإذا أراد أن ينعته بضيق الصدر والتزمت وصلابة الرأي وعدم انقياده للحديث يلقى إليه قال «إنه حنبلي» ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يذكرون هذه العبارة في مثل هذا المعرض»، ص ٢١.

تعرضوا لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي وكفروه، وحملوا على ابن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير ومنعوا من دفنه لما مات، فكان أن دفن في داره ليلا. يقول ابن خزيمة «ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»[١]. أما ابن عقيل الحنبلي فله معهم قصة طويلة ذكرها أصحاب التواريخ. لقد كان ابن عقيل يتردد على بعض شيوخ المعتزلة ويأخذ عنهم ولما علم الحنابلة بذلك، وقيل أنهم اطلعوا على كتب له فيما تعظيم للمعتزلة وترحم على الحلاج. طلبوه وأرادوا أذيته، فاختفى عنهم مخافة التنكيل به. لكن الرجل لم يستطع الاستمرار في الاختفاء» فكتب بخطه كتابا يقر على نفسه بالخطأ ويبرأ منه ويعطي إمام المسلمين الحق في التنكيل به إذا ظهر منه فيما بعد شئ مماثل لما كان عليه[٢].

لكن لا بد من الإشارة إلى أن هذا الإرهاب الفكري والعقائدي، لم يجعل ابن عقيل يتنازل عن أفكاره ومعتقداته، وإن كان قد كتب توبته منها. فقد ذكر ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة. عند ترجمته لابن عقيل بأنه كان «يظهر منه في بعض الأحيان نوع انحراف عن السنة، وتأول بعض الصفات.

ولم يزل فيه بعض ذلك إلى أن مات رحمه الله»[٣].

وإذن فقد كانت توبته تقية وخوفا من الحنابلة. وابن رجب عندما يقول «وتأول لبعض الصفات» إنما يعني مخالفته لاعتقادهم التشبيه والتجسيم، وقد تبرأ من هذه العقيدة ابن الجوزي كذلك وهو من الحنابلة ورد على عامة أهل المذهب. كما تعرضوا ليحيي بن معين وعلي المدني وغيرهم من علماء وفقهاء المذاهب الإسلامية. فهذا عبد الله الأنصاري الهروي الذي كان يوصي الناس بأن يتحنبلوا

(١) المرجع نفسه، ج ١ ص ٣٨، عن العبر، للذهبي ج ٢ ص ١٤٦.
(٢) نفس المصدر، ص ٣٧.
(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٣.

«يلعن الأشعري» والأشاعرة، لأنهم لا يعتقدون إن الله عز وجل في السماء و«إن القرآن في الصحف»[١].

وقد كان الأحناف والشوافع معه في بلاء مستمر، وكانوا يقولون: «نحن في يد هذا الرجل في بلية من استيلائه علينا بالعامة»[٢].

أما إذا رجعنا إلى «الكامل في التاريخ» لابن الأثير فسنجد أن فتنا كثيرة وقف وراءها الحنابلة بحجة الدعوة إلى مذهبهم أو محاربة من لا يعتقد نحلتهم.

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣١٧ هـ: «وفيها وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي الحنبلي وبين غيرهم من العامة، ودخل كثير من الجند فيها. وسبب ذلك أن أصحاب المروذي قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ هو أن الله يقعد النبي صلى الله عليه وسلم معه على العرش، وقالت الطائفة الأخرى إنما هو الشفاعة فوقعت الفتنة، واقتتلوا فقتل بينهم قتلى كثيرة»[٣]. وهذه ليس الفتنة الوحيدة التي ذكرها ابن الأثير بل هناك حوادث دامية كثيرة أشعل نارها الحنابلة باسم الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وراح ضحيتها عشرات القتلى.

لقد طال النزاع والصراع بين الحنابلة والشافعية وتعمقت الكراهية بين الفريقين. لدرجة أن الحنابلة كانوا يقفون في الطرقات ويترصدون الشوافع وينكلون بهم ضربا وتهجما، كل ذلك بقي أثره الواضح في التاريخ والكتابة والفكر. يقول صاحب النهج الأحمد: كل فريق منهما يؤلب على الفريق الآخر حتى صارت

---

(١) مختصر طبقات الحنابلة، لابن الشطي، ص ٧٠، قال أبو الحسن الكوفي شيخ الشافعية في بلاده: أنه - أي الهروي - أنشد في معرض النصيحة لأهل السنة:

كـن إذا ما حاد عن حد الهدى أشعـري الرأي شيطـان البشر
شـافعي الشـرع سني الحـلا حنبـلي العقـد، صوفي السير

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) الكامل ج ٨ ص ٨٣، أنظر النهج الأحمد، ص ٣٨.

الكراهية التقليدية أنه إذا كتب فيما بعد واحد من الشافعية عن واحد من الحنابلة، غمزه ونال منه. إن لم يستطع بصريح العبارة فلا أقل من الكناية والتحريض، وكذلك لو كتب واحد من الحنابلة عن الشافعية، وكتب التراجم مليئة بالأمثلة والشواهد[١]. ومن يتصفح «المنتظم» لسبط ابن الجوزي يستغرب بل يستهول حجم الفتن وكثرتها والتي كان الحنابلة يشعلونها بين الحين والآخر. فتارة مع أهل السنة من الأشاعرة وتارة مع الشيعة، أما أسباب الخلاف فالمسائل العقائدية والخصوصيات المذهبية. والبادئ دائما لإشعال هذه الفتن والتعدي على الآخرين هم «حشوية الحنابلة».

لقد أحدث الحنابلة جفوة بالغة بينهم وبين سائر الفرق كما يقول صاحب النهج الأحمد بسبب أسلوبهم في الدعوة، حيث الخشونة والعنف والإرهاب من أبرز سمات تحركاتهم الدعوية. بالإضافة إلى انتصارهم بالعوام والطبقات الدنيا من المجتمع، حيث يسود الجهل والأمية ويصعب على أي عاقل فضلا عن المفكر أو العالم أو يوصل بعض الحقائق إلى عقول هؤلاء العامة، أو أن يمد جسرا للتفاهم معهم وتوضيح الأمر لهم، بشكل تستوعبه عقولهم البسيطة. ولقد كان الحنابلة يدركون ذلك جيدا ويستفيدون من العامة لتحقيق انتصارات مذهبية.

لقد وصف الحنابلة أنفسهم بأنهم «قد تقلصت أخلاقهم عن المداخلة».

لذلك فقد اتسمت دعوتهم بالعنف والشدة والإرهاب، يقول الشيخ محمد أبو زهرة «وفي سبيل دعوتهم يعنفون في القول. حتى إن أكثر الناس لينفرون منهم أشد النفور»[٢].

---

(١) النهج الأحمد، ص ٤٠.

(٢) المذاهب الإسلامية، م س، ص ٣٥٤، وجاء في البداية والنهاية لابن كثير، إن الحنابلة في بغداد عام ٤٤٧ هـ قوى جانبهم على الأشاعرة وخالوا بينهم وبين شهود الجمعة والجماعات كما حاول الحنابلة منع الشافعية من الجهر ببسم الله الرحمان الرحيم، والترجيع في الأذان والقنوت، وكادت تحصل فتنة كبيرة لولا أن حملوا على السكوت آخر الأمر. ج ١٢، ص ٦٦، أنظر على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية، ص ٣٤.

وهذا الأسلوب في الدعوة هو الذي يفسر سبب انحصار المذهب الحنبلي في التقليد واقتصاره على مناطق محدودة مثل بغداد ونجد ودمشق. ويمكن أن يلاحظ بوضوح أن ساكنة هذه المناطق وخصوصا بلاد نجد قد عرف عنهم الجلافة والغلظة والخشونة، رسختها وزادت في حدتها الطبيعية الصحراوية القاسية.

وإذا رجعنا إلى دعاة السلفية «حشوية الحنابلة» اليوم فسنجد أن هذه الصفات الشاذة تلازمهم ملازمة الظل للجسد. وأنها من أهم ما ورثته طبيعتهم عن المذهب والتراث الحنبلي. وبالخصوص ما اكتسبوه من سلوكيات زعيمهم الأول وصاحب نحلتهم «الشيخ ابن تيمية»، الذي أجمع المؤرخون بأنه كان حاد المزاج خشنا في تعامله مع خصومه. لدرجة اتهام مخالفيه بما ليس فيهم بل الكذب عليهم وتحريف أقوالهم، وتزوير كلامهم ومعتقداتهم.

وقد عزى بعض الباحثين عند ذكره هذه الحدة إلى عزوف الشيخ عن الزواج طوال حياته. ونضيف نحن إلى ذلك، تأثير الطبيعة على نفسية الشيخ فهو من مواليد مدينة حران التي وصفها ابن جبير بأنها بلد «قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة».

وعليه فحياة الشيخ ابن تيمية وسلوكه يمكن أن تنضاف كعامل من العوامل التي أنتجت ظاهرة الخشونة والجفاء لدي السلفية المعاصرين. فالتقليد لا يشمل فقد الأفكار وأنما يتجاوزه إلى التأثر بالسلوكيات والأفعال.

أسلوب الدعوة السلفية اليوم:

أما إذا ذهبنا نستقصي عن حال الرجل الذي أحيي الفكر السلفي في الأزمنة الحديثة ووضعه محل التطبيق. ونشر ما اندرس منه وبعث رفاته، لنعرف كيف كان يدعو الناس إلى أفكاره ومذهبه، فإننا لسنا في حاجة لخصومه ليصفوا لنا واقع الحال، بل نحيل أنفسنا إلى ما كتبه يراعه. يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في إحدى رسائله معترفا: «أنا في بعض الحدة» والحق - يقول جلال كشك - أنها

كانت حدة أكثر من المعتاد في الدعاة وقد ظلت ملازمة لتلاميذه وحركته بل تضاعفت»[١].

ولا شك أن هذه الحدة قد أهرقت بسببها دماء بريئة، وتعرض من جرائها خلق كثير للظلم والعدوان، ومن يراجع يوميات الدعوة الوهابية في فجر انتصاراتها الكبرى. سيرى التطبيق العملي لهذه الحدة، وكيف تعامل الوهابيون مع «المشركين» من أبناء الإسلام، وكيف كانوا يمارسون الدعوة لمذهبهم التوحيدي. فقد كانوا كما يقول الشاعر أبو تمام «السيف أصدق إنباء من الكتب».

لقد استخدم السلفيون «حشوية الحنابلة» قديما وحديثا ترسانة من المصطلحات والأوصاف والنعوت، ما فتئوا يرمون بها كل من يخالفهم في الفروع أو الأصول. وهذه الترسانة يمكن تلخيصها بـ«جهمي، ضال، منحرف عن السنة، رافضي، مشرك، مبتدع، صوفي، طرقي، قبوري، عابد الأصنام والأوثان، كافر، زنديق» وهلم جرا.

وهذه المصطلحات بما تتضمنه من مفاهيم عقائدية مختلفة يستخدمها السلفيون اليوم لوصف المسلمين ممن يشهد لله بالوحدانية ويؤمن بالرسل واليوم الآخر!!. أنظر مثلا لما يقوله داعية سلفي وهابي معاصر وهو عبد الرحمان بن حسن بن عبد الوهاب مجيبا عن سؤال: يقول: «فقد وردت علينا أسئلة من عمان، صدرت من جهمي ضال يستعجز بها بعض المسلمين»[٢]. أنظر كيف حكم على السائل بأنه جهمي «أي معتزلي أو منزه لا يؤمن بالتجسيم أو التشبيه» ضال!. ويمكننا أن نذكر ملاحظة انتبه لها بعض المفكرين. وهي التضارب والاختلاف لدى السلفيين في فهم هذه المصطلحات التي ينبزون بها خصومهم. فقد علق أحدهم على قول السلفية القدامي في حق ابن جرير الطبري «بأنه رافضي ملحد» بقوله:

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي، ص ١٠٠.

(٢) مجموعة التوحيد، ص ٥٥.

إن هؤلاء لم يعرفون أبدا معنى الرفض أو الإلحاد، ولو سئلوا عن ذلك لما وفق أغلبهم في الإجابة، وهذا الشيخ عبد الرحمان يقول: «جهمي ضال» مع أن الجهمي في عرف أكثر متقدميهم كافر أو زنديق، لأنه معطل، وليس ضالا فقط؟!.

ونحن نستغرب جدا كيف حكم هذا الشيخ الداعية على السائل بأنه «ضال جهمي» مع أن أسلوب الدعوة يقتضي التعامل بالحكمة، وإيصال الحقيقة للناس بأحسن السبل وأفضلها، مما يدفع الناس للالتفاف حول الحقائق واعتناقها، وليس النفور منها والابتعاد عنها. هذا إن كان ما يدعو له السلفيون فعلا يدخل في خانة الحق المحض الذي لا يجوز الاختلاف حوله أو الشك فيه.

ولكن ماذا نقول لهؤلاء! إنه أسلوب في الدعوة، متميز وخاص بهذه الطائفة يرثه خلفهم عن سلفهم، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أو يقطع دابر هذه الدعوة وتندثر مع الزمن كما ذهبت كثير من الملل والنحل والدعوات. وابتلعها بطن التاريخ.

لقد كان خطر هذه الفئة المتميزة في التاريخ الإسلامي القديم والحديث محدودا ومنحصرا. أولا لأنه لم تكن لهم دولة تنصرهم وتتبنى عقائدهم جملة وتفصيلا وإن كان الخليفة العباسي المتوكل[1]، قد انتصر لهم وسلطهم على خصومه وخصومهم. لكن حركتهم لم تمتد طويلا. أما الآن وبعد قيام دعوتهم وانتصار دولتهم، وما تبذله هذه الدولة من أموال طائلة في دعم هذا المذهب ونشر تراثه الفكري والعقائدي. فإن الأمر أصبح يشكل ظاهرة متميزة ينتشر صداها كل يوم عبر وسائل الإعلام في العالم الإسلامي حيث تتفجر الفتن المذهبية والطائفية في أكثر من منطقة في العالم الإسلامي.

(١) يقول أبو بكر الخوارزمي «ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وقد هبت لأهلها رويحة، ودالت لها دولة. كما أتفق المختار للكيسانية. والمعتصم والواثق للمعتزلة. والمتوكل للنواصب والحشوية» رسائل أبي بكر الخوارزمي. ص ١٧٨. أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية لمهدي الروحاني، ص ١١١.

إشعال الفتن المذهبية:

ففي مصر والسودان والمغرب على سبيل المثال يخوض السلفية صراعات مريرة مع الصوفية وأتباع الطرق، يستخدمون فيها جل المصطلحات التي تزودهم بها ترسانتهم الدعوية: من ضال ومبتدع، إلى كافر، وهلم جرا. ولأتباع السلفية جرأة كبيرة في استخدام هذه المصطلحات، دون اعتبار لخطورتها على الوضع الاجتماعي العام. لذلك انتشرت البغضاء والأحقاد بين هذه الطائفة وبين قطاعات واسعة من الصوفية وأتباع الطرق، الذين لا تجد بلدا إسلاميا وخصوصا في إفريقيا يخلو منهم.

يحدثك بعض المشرفين على هذه طرق والمنضوين تحت لوائها بمرارة وغضب، متسائلا عن الخلفيات الحقيقية التي تحرك هؤلاء الناس، وكيف تناسوا أولم يعلموا أن الطرق الصوفية هي التي أدخلت الإسلام إلى وسط إفريقيا وأدغالها، وهي التي أشرفت وما زالت على عملية ترسخه وتعميق جذوره في أكثر من بلد إفريقي؟ فكيف يجرؤ هؤلاء «السلفية» على نسبتنا إلى الكفر والشرك والخروج عن الإسلام، ونحن كنا وما زلنا دعاته والحريصين على نشره!؟.

والواقع إن انتشار المد السلفي في بلدان إفريقيا المسلمة ودخول دعاة السلفية إليها قد أثار فتنا وصراعات كبيرة ساهمت في تمزق المجتمع الإسلامي هناك. أما أمهات المسائل العقائدية المختلف حولها بين السلفية وغيرهم من أتباع الطرق فهي لا تتجاوز مسألة الاحتفال بعيد المولد النبوي. أو حلقات الذكر الخاصة التي درج الصوفية على القيام بها. هاتان المسألتان هما في الأغلب الأعم منطلق دعاة»السلفية لتبديع وتكفير خصومهم الصوفية. في الوقت الذي يعتبر أصحاب الطرق الصوفية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من شعائر الإسلام. أما حلقات الذكر فهي عندهم جزء من العبادة والتعبد العام امتثالا لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات، آية ٥٦.

الصراعات الفقهية داخل المساجد:

أما الصراعات داخل المساجد وإثارة الشغب، فحدث ولا حرج فقد أصبحت من الظواهر السلبية العامة، التي يشتكي منها المصلون. وهذا الصراع داخل المساجد لا يقتصر على الصوفية وأتباع الطرق. بل الخلاف محتدم مع جميع أبناء الصحوة الإسلامية ممن يتمذهب بغير المذهب الحنبلي، ولا يتخذ أفكار ابن تيمية وابن عبد الوهاب النجدي عقائد له.

ومواضيع الخلاف هنا مع أهل السنة والجماعة تتجاوز العقائد لتشمل الاجتهادات الفقهية والفتاوى المذهبية. فهم كما يقول الشيخ أبو زهرة المصري: «يفرضون - أي علماء الوهابية - في آرائهم الصواب الذي لا يقبل الخطأ. وفي آراء غيرهم الخطأ الذي لا يقبل التصويب»[1]. وبذلك يتم عرض مشكل التقليد والتمذهب على بساط البحث والمناقشة. بين أوساط العامة فترى أنصاف المتعلمين والجهلة من العوام يخوضون في نقاش هذه الأمور ويفصلون في كثير من قضاياها الشائكة بكل حزم وجرأة. في الوقت الذي يرى أكثر العلماء، قديما وحديثا مثل هكذا مواضيع، لا يجوز أن يخوض فيها العوام بل تقتصر معالجتها على ذوي العلم والاختصاص.

وعليه فإن الدعوة الوهابية اليوم زيادة على أسلوبها الخاص والمتميز في الدعوة بالسب والتبديع والتكفير، تضع بين يدي العوام قضايا خلافية كثيرة ليفصلوا فيها. مع العلم أنها كانت إلى وقت قريب حكرا على ذوي الاختصاص ولا تناقش إلا داخل المدارس العلمية.

وإذا كان العوام قاصرين على فهم أو معالجة القضايا العلمية والفكرية المتعلقة بالدين الإسلامي، فإنهم يستنجدون في غالب الأحيان، بالقوة والشغب والعنف، لإقناع خصومهم بما يؤمنون به من عقائد وأفكار، بثها فيهم دعاة السلفية،

---

(١) المذاهب الإسلامية، ص ٣٥٥.

أو توصلوا إليها بمفردهم نتيجة قراءة حديث في كتاب، أو شرح لآية في تفسير. وعليه فلنا أن نتصور حجم الاختلاف، وكثرة الآراء والأهواء المتضاربة، وما يتبعه من زيادة الفوضى الفكرية والعقائدية التي بدأت تعصف بواقع الصحوة الإسلامية اليوم. وقد عجز علماء أهل السنة في معالجة هذا الوضع واكتفوا بالصراخ والتنديد ونقد هذه الظاهرة.

يقول الدكتور البوطي: «لقد تركوا – أي دعاة السلفية – سبيل الدعوة إلى الله وإلى دينه وأعرضوا عن المنحرفين وما هم فيه من ضلال وشكوك وغي، وانطلقوا يتصدون لكل متدين يخالفهم في اجتهاداتهم أو يصر على تمسكه بمذهب إمام من الأئمة الأربعة، أو يعلن عن ضعفه عن الاجتهاد وحاجته إلى التقليد، فيثيرون معهم جدالا لا نهاية له، وينتهون بهم إلى شحناء لا مسوغ لها، يتهمونهم بالضلال، ويرمون أئمتهم بالجهل، ويصفون كتبهم بالصدأ والانحراف..»[(١)].

ومن يتتبع جل القضايا والمسائل الأصولية والفروعية التي يختلف حولها «السلفية» وأهل السنة والجماعة بالخصوص. يجد أن المذهب الحنبلي بصيغته المعدلة والجديدة مع ابن تيمية وابن عبد الوهاب. يريد أن يفرض نفسه على المجال الديني الإسلامي العام، مع إلغاء جميع المذاهب الفقهية والأصولية الأخرى، ولكن ولمزيد من التضليل وتزوير الحقائق في أعين أبناء الصحوة الإسلامية، يتم تحقيق ذلك عبر الدعوة إلى «مذهب السلف الصالح» هذا المذهب الذي لا يعرف له تاريخ أو جغرافية أو تاريخ ولادة. لكن الحقيقة الصارخة رغم التدجيل وإلباس الباطل مسوح الحق هي أن «مذهب السلف» ليس سوى المذهب الحنبلي معززا بما استجد مع ابن تيمية وتلامذته من آراء، يريد أن يبتلع المذاهب الإسلامية الأخرى. وأن يصفيها بدعوى الحق والباطل واتباع السلف، ومحاربة البدع والشرك، ونشر التوحيد، والإسلام النقي الصافي من الشوائب والانحرافات والشرك.

---

(١) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، ص ٩٠.

السيطرة على المجال الديني والدعوي:

والنتيجة التي يريد القائمون على هذه الدعوة الوصول إليها، هي تحقيق السيطرة والتوجيه للشأن الديني العام في العالم الإسلامي والتحكم به. ومن ثم التحكم في ظاهرة الصحوة الإسلامية التي أصبحت تشكل الهم الاستراتيجي الأكبر لجميع دوائر الأمن في العالمين الشرقي والغربي، ومن ضمنهم بلا شك مجمل الحكومات الإسلامية.

علما بأن هذا التحكم في المجال الديني والسيطرة عليه سيؤدي بالضرورة إلى التحكم في المجال السياسي العام. فالمؤسسة الدينية الوهابية «السلفية» التي تباشر حركة الدعوة وتمدها بما تحتاجه من كتب وفتاوى، هي مؤسسة مملوكة لأسرة آل سعود الحاكمة في الرياض. تأتمر بأمرها وتنتهي بنهيها، وتخضع في النهاية لمفردات الاستراتيجية السياسية لهذه الدولة. وأي انتصار للدعوة السلفية في أرجاء العالم يمكن أن تستثمره بالنتيجة السياسة السعودية إقليمياً وعالمياً.

وبالتالي فأي تحكم أو توجيه للصحوة الإسلامية اليوم لا يمكنه أن يخلو من التأثير السياسي المباشر أو غير المباشر للدولة السعودية. ولا أحد ينكر مدى التشابك والعمق الذي يميز علاقة الدولة السعودية بالغرب في المجالين السياسي والاقتصادي. وإذن فمسألة انحراف الصحوة الإسلامية عن أهدافها، أو توجيهها خلاف ما يريده لها أبناءها المخلصون، تبقى مسألة تثير الكثير من التساؤلات ويلفها الغموض.

ويكفي أن نعلم أن القرآن قد صرح وفي قوله الصدق والحق، بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم؟!.

نشر الجهل داخل الأوساط الإسلامية:

وخطورة هذه المسألة وتداعياتها ظهرت جلية في الجزائر. فالصحوة الإسلامية هناك يشرف عليها دعاة وقادة ينتمون للتيار السلفي. وارتباطهم بما

تصدره المؤسسة السلفية في السعودية والكويت من كتب وفتاوي، يشكل إحدى الدعائم المهمة في دعوتهم وحركتهم، بل يمكن اعتبار الساحة الجزائرية المستهلك الأول لفتاوي «شيخ الإسلام» كما أن أطنانا من الكتب والكراريس السلفية المنتجة في الخليج بشكل عام، تجد طريقها إلى المتلقي الجزائري.

لكن وفي الوقت الذي يتغذى سلفيو الجزائر بالمنتوجات السلفية السعودية تراهم يناهضون ويعادون الحكومة السعودية، وينتقدون سياستها الداخلية والخارجية ويتبرأون منها. ولو تفكر هؤلاء القادة أو الأتباع في هذه المعادلة الصعبة لوجدوا أنفسهم في خضم الاستراتيجية السياسية السعودية يخدمونها ويتماشون معها خطوة خطوة، خصوصا موقفهم من باقي المذاهب السنية والشيعة وإيران.

فأغلب السلفيين في الجزائر لم يكن يعرف مثلا أن هناك، لا نقول طائفة بل مجتمعا شيعيا داخل المملكة العربية السعودية. وأن الطائفية والصراع المذهبي متفجر هناك وعلى أشده تغذيه الحكومة وتستفيد منه أيما استفادة.

وعليه فالأطنان من الكتيبات والفتاوى التي وصلت الجزائر ووزعت مجانا، كان الغرض منها خلق رأي عام ضد الشيعة والتشيع وسد الطريق على أبناء الصحوة الإسلامية هناك كي لا يعرفوا بعض حقائق التاريخ، ومن ثم توجيههم مستقبلا لضرب المذاهب المناهضة للاستعمار وعلى رأسها التشيع والشيعة، العدو المهم للغرب وللمملكة الوهابية في العصر الحاضر.

ولقد أثمرت هذه السياسية وأينعت زهورها ووجدت أرضا خصبة من الجهل والغلظة والجفاء فنبتت أشواك الحقد والكراهية للتشيع، وبذلك حجب عن أبناء الصحوة هناك حقيقة غدت كالشمس في واضحة النهار.

تحريف مسار الصحوة الإسلامية:

هذا مثال أوردناه للإشارة إلى خطورة تحكم المؤسسة الوهابية السعودية في توجيه الصحوة الإسلامية، ومدى تأثيرها السلبي عليها، خدمة لأهداف سياسية

محلية أو عالمية. والضحية هم أبناء الصحوة، الذين تمارس عليهم سياسة التجهيل باسم الدين. وينحرفون عن الأهداف الرئيسية إلى قضايا جزئية خلافية في الفروع. لا تسمن ولا تغني اللهم إلا صرف الجهد والطاقة والزمن في ما لا طائلة من ورائه. لذلك قال الدكتور البوطي وهو الرجل الذي خبر دعوتهم ورد عليهم في أكثر من موقع وكتاب. بأنهم تركوا سبيل الدعوة إلى الله وانطلقوا يتصدون لكل متدين. ولا شك إن إلهاء أبناء الصحوة بقضايا فروعية، جزء لا يتجزء من خطة تحريف الصحوة عن أهدافها، والمتمثلة في الإحياء الحضاري الإسلامي العام والدعوة إلى الالتزام بالإسلام واتخاذ شريعته مصدرا وقانونا ينظم جميع مجالات الحياة في العالم الإسلامي.

والذي يزيد الطين بلة، ونحن هنا نتكلم عن أسلوب الدعوة عند هؤلاء السلفية، ليس فقط المواضيع المطروحة للنقاش والجدل داخل المساجد وعلى المنابر. ولكن الأسلوب الخاص الذي يستخدمه هؤلاء في دعوتهم ونقاشهم.

وإذا كان القرآن يحث على الدعوة بالحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن. فإن دعاة السلفية - إلا ما ندر - يفسرون بالتي هي أحسن، بالسب والقدح والشتائم والاستهزاء واتهام الخصم أي كان بالتهم الباطلة. ونشر الأكاذيب الرخيصة والتافهة، كل ذلك خدمة للدعوة السلفية وتحذيرا وتخويفا لكل من سولت له نفسه معارضة هؤلاء بلسانه أو قلمه.

ولكي لا يقال إننا مجانبون للحقيقة، بتهويل حجم هذه الظاهرة الدعوية السلفية. فلا بأس من إيراد بعض النصوص لعلماء ومفكرين يشتكون من هكذا أسلوب ينسبونه لدعاة الحركة السلفية. أنظر مثلا لما يقوله أحد المفكرين في مقام النصيحة للدكتور البوطي الذي يخوض معهم صراعا مريرا: يقول:

«حاذر أن يستزلك هؤلاء إلى مستواهم المعروف في الجدل فإن في أفئدتهم من الحقد على جمهور المسلمين سلفهم وخلفهم ما يجعلهم ينهشون في عرض كل

من يخالفهم[١]. ولقد أطال الدكتور البوطي الشكوى في كتبه من رموز السلفية الذين يردون عليه. فهم لا يعرفون من النقاش العلمي سوى:

«السباب والشتائم المتسعرة المحمومة»[٢].

معاناة مشتركة:

ولو رجعنا إلى كتب الرد على السلفية، التي ألفها علماء من أهل السنة والجماعة أو الصوفية أو الشيعة الإمامية. فسنجد معاناة مشتركة بين هؤلاء الكتاب والعلماء. وإجماعا مطلقا على أنهم يتعرضون شخصيا أو بشكل عام تتعرض مذاهبهم وعلماؤهم للسب والشتم المنظم من طرف دعاة السلفية.

وكيف أن البعض نأى بنفسه بعيدا عن مناقشتهم أو جدالهم. لأنه لم يجن من ذلك سوى أن نهش السلفيون عرضه وعرض مذهبه الذي ينتمي إليه.

يقول مهدي الحسيني الروحاني وهو أحد علماء الإمامية الذين كتبوا ردودا على السلفية «إن تلك الفرقة – الحنابلة – لا تريد من وراء مخاصمتها لنا، وجدالها معنا إلا أن ترشدنا إلى خصائصها المذهبية بالتهويش والسب، والكذب، الكذب الصراح، والافتراءات العظيمة التي يبرأ منها الشيعة ويتنزهون عنها»[٣].

والرجل عندما يقول «الكذب الصراح» يعلم تمام العلم ماذا يقصد ولنا وقفة مع «الكذب السلفي» وما المقصود منه، وتطبيقاته الواقعية وأمثلة على ذلك، عندما نتكلم عن «السلفية والشيعة الإمامية». لأن هذه الفرقة الأخيرة كان لها النصيب الأكبر في الهجوم السلفي المعاصر، كما أن حصتها من «الكذب السلفي» جاءت متميزة. ويشير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء إلى أسلوب آخر في الدعوة يمارسه السلفية. بل إن

(١) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٢) نفسه، ص ١٠٩.

(٣) بحوث مع أهل السنة والسلفية، المكتبة الإسلامية، ط ١ ١٩٧٩ م، ص ٨ – ٩.

انتشار الفكر السلفي يكاد يرجع لهذا الأسلوب دون غيره، وإن رمنا الموضوعية قلنا بأنه الأسلوب الأنجع الذي استغلته المؤسسة السلفية للوصول إلى عمق الحواضر الفكرية والدينية في العالم الإسلامي السني. هذا الأسلوب هو الدعم المالي وشراء الرجال من كتاب، وعلماء وصحفيين ومؤسسات علمية وفكرية وإعلامية، وصولا إلى شيوخ القبائل ورؤساء العشائر كما حدث في اليمن.

السيف والريال:

يقول الشيخ كاشف الغطاء «لو كنا نعلم أنهم يقنعون بالحجة البالغة ويخضعون للأدلة القاطعة، لملأنا الطوامير من الحجج الباهرة التي تترك الحق أضحى من ذكاء، وأجلى من صفحة السماء ولكن سلطان نجد له حجتان قاطعتان عليهما يعتمد، وإليهما يستند، ولا فائدة إلا بمقابلتهما أو بأقوى منهما. وهما: الحسام البتار والدرهم والدينار، السيف والسنان، والأحمر الرنان، هذا لقوم وذلك للآخرين»[1]. وقوله «الحسام البتار» إشارة إلى الانتشار الأول للفكر السلفي الوهابي في الجزيرة العربية ونجد، حيث ركبت الدعوة السلفية مطية الجهاد المسلح والفتوحات العسكرية ولم يكن هناك احتكام إلا للسيف والبندقية وقد ذكرنا ذلك مفصلا فيما مضى.

ولا يشك أحد من المطلعين والمتابعين اليوم لحركة المد السلفي في دور المال «والريال» في نشر الفكر الوهابي السلفي، والكتاب المرتزقة في مصر والشام وباكستان والهند يعرفون ذلك جيدا، ولولا هؤلاء المرتزقة لما كان للفكر السلفي هذا الوجود الكبير على الساحة الإسلامية، لأن علماء الوهابية في نجد لا يحسنون الكتابة ولا يتقنون فن التعبير والتحليل. وليس لهم. تاريخ عريق - لبداوتهم - في صنع الأيديلوجيات. والدعوة لها وتزوير الحقائق وتجبيرها لخدمة هذه النحلة أو ذاك المذهب.

---

(١) مجلة تراثنا، العدد الرابع (١٣) السنة الثالثة، شوال ١٤٠٨ هـ ص ١٨٦.

وللحقيقة والتاريخ نقول إن بعض الكتاب والصحفيين في بلد الكنانة «مصر» لهم قدرة رهيبة على صنع المذاهب الفكرية والسياسية والدفاع عنها وإيجاد الحجج العقلية والنقلية لتثبيتها. ونحن ندعي ونؤكد أن لولا هؤلاء وغيرهم، لما تجاوز الفكر الوهابي بلاد نجد، وفي أحسن الظروف شبه الجزيرة العربية، وحتى إن تعدى هذه الحدود، فإن حلل البداوة ولهجة العراء القاحلة وجفاء نفوس ساكنيها كانت كفيلة بتقزيمه وانحصاره وتقلص امتداده في الآفاق البعيدة.

طبعا لسنا في حاجة إلى أدلة واستشهادات لدعم هذه الحقيقة - حقيقة دور المال الوهابي السعودي في نشر الفكر السلفي - ولكننا نحيل القارئ إلى ما تداولته الصحف العربية أثناء أزمة الخليج الثانية واحتلال العراق للكويت، فقد انتشر خبر قطع المعونات والإمدادات المالية (السعودية) على فئات عريضة ومؤسسات في مصر، وذلك بسبب موقفها من استقدام الجيوش الغربية لإخراج صدام من الكويت.

ولا شك أن الكل يعلم مقدار ضخامة وحجم الأموال السعودية التي تصرف على المؤسسات الإعلامية والدينية في العالم كي تتماشى مع الاستراتيجية السياسية والدينية السعودية. ومن يريد الأمثلة الحية لذلك فليراجع يوميات منظمة «المؤتمر الإسلامي» السعودية مقرا وتمويلا. وليلق نظرة سريعة على قراراتها وتوصياتها والأهداف البعيدة التي من أجلها أسست هذه المنظمة الإسلامية الفاعلة على الساحة اليوم.

نشر الطائفية البغيضة:

لن نسترسل طويلا في وصف أسلوب الدعوة السلفي المعاصر، هذا الأسلوب الذي ورثه الخلف عن السلف، والذي يجعل من العنف والتهجم على المخالفين ورميهم بكل أنواع السباب والشتائم ونهش أعراضهم، النهج القويم الذي يتم من خلاله نشر عقائد وأفكار دعاة السلفية. فإثارة الفتن ونشر البغضاء بين فئات

المجتمع الإسلامي. وتعميق الخلافات المذهبية وصولا إلى الطائفية البغيضة، غدت من مميزات التحرك السلفي. فحيث تستعر نار الطائفية والخلافات المذهبية، تجد هناك دون شك أو ريب عقل سلفي وهابي حنبلي يؤجج هذه النار ويمدها بالوقود كي تشتعل أكثر وتدوم. ولا شك أن هذه النار قد أحرقت مساحات واسعة من أراضي التفاهم والتسامح التي كانت سائدة بين مجمل الفرق والمذاهب الإسلامية. خصوصا بين الشيعة والسنة.

فلم يسمع عن قلاقل واضطرابات بين التجمعات السكانية الشيعية والسنية. مثلا في مناطق تواجدهم معا إلا بعد ما نفخ العقل السلفي في بوق الطائفية البغيض[1]. فبدأ السني يسمع من أفواه الدعاية السلفية أن الصوفية وأتباع الطرق كفار ومبتدعون وأن الشيعي كافر مرتد يسب أصحاب النبي محمدﷺ في المقابل وجد الشيعي نفسه محاصرا بدعاوي التكفير والردة أينما حل وتوجه. ولنا أن نتصور حجم المأساة، ففي باكستان والهند والعراق تعيش الملايين من الناس في تداخل وانسجام، تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. يتزاوجون في ما بينهم، ويستحل الشيعي مأكل ومشرب السني ويحرم دمه وماله وعرضه. لكن هذا الانسجام تحول في الآونة الأخيرة وخصوصا في باكستان والهند إلى تباغض وأحقاد، راح ضحيتها عشرات القتلى من الطرفين وأحرقت المساجد، وكذا الأمر مع أتباع الطرق الصوفية وأتباع باقي المذاهب الفقهية. وما زالت نار الفتنة يتصاعد لهيبها ويكبر حجمها، دون أن يكون هناك أمل في إخمادها أو التقليل من انتشارها.

---

(١) يقول حمزة الحسن: إن معظم الحروب الطائفية التي نشهدها في كل مكان في العالم إنما مولت بأموال النفط السعودي، بل إن الحروب السنوية في باكستان لم تترها إلا الجماعات المتحالفة والمدعومة من السعودية، وقد وصل أعلام آل سعود الطائفي إلى كل الدنيا، إذ أن مهمة المؤسسات الدينية الرسمية السعودية ومهمة أعلام السعوديين، هو إثارة الفتنة والبلبلة في صفوف المسلمين لكي يدعوا بعدئذ أنهم حماة «السنة» وما هم كذلك. الشيعة في المملكة العربية السعودية، مؤسسة البقيع لإحياء التراث، ط١ ١٩٩٣م، ج ٢ ص ١٤٩.

فالأطنان من الكتب والفتاوى في تكفير الصوفية والشيعة والتهجم على مذهبهم تنزل إلى الأسواق باستمرار وتتابع. والفضل كل الفضل لأموال النفط السلفي التي توزع وتدفع بسخاء لكل مرتزق يستطيع أن يغذي هذه المعركة الخسيسة، بين فئات المجتمع الإسلامي الواحد.

السلفية يكفرون زعماء الصحوة الإسلامية:

وإذا كان الإسلام والقرآن يدعو إلى الوحدة وتجنب أسباب الاختلاف وتحجيمها إن وجدت. فإن الدعوة السلفية الوهابية تدعو إلى التفرقة ونبذ الوحدة وتمزيق جسد الإسلام الاجتماعي، وإذا كان القرآن الكريم قد أكد على الدعوة بالتي هي أحسن واستمالة قلوب المخالفين وإيصال الحق لهم بأفضل الطرق. فإن دعاة السلفية يدعون إلى مذهبهم بالتي هي أسوء وأعنف.

والويل كل الويل لمن يختلف معهم في قضية أصولية أو فروعية، فردا كان أم مجتمعا.

فإنه لو سلم من بطشهم المباشر واعتدائهم. فإنه لن يسلم أبدا من حدة ألسنتهم وجلافة طباعهم، والتظافر عليه بالكذب والبهتان وافتراء التهم الخطيرة. وهذا الأسلوب هو السبب في خوف كثير من علماء أهل السنة وإعراضهم عن الرد والتأليف تفنيدا لمعتقدات هذه الفرقة السلفية الحنبلية.

وقصة الشيخ محمد الغزالي ليست بعيدة عنا فقد ألف هذا المفكر الإسلامي المعاصر كتابا بعنوان «السنة بين أهل الفقه والحديث» تعرض فيه لعلاج أمهات القضايا الفكرية التي تعصف بساحة الصحوة الإسلامية. ومن بينها ضمنا أسلوب الدعوة السلفي. فما شعر الرجل إلا ودعاة السلفية ينهالون عليه من كل جانب نقدا وتجريحا وتسفيها. وقد سمعت أن البعض منهم دعاه للتوبة وتأليف كتاب جديد يتبرء فيه من الأفكار والآراء التي أوردها في هذا الكتاب.

لكني لا أعلم كيف انتهت القصة وهل تاب الرجل أم لا زال مارقا عن الحق «السلفي»، نائيا بنفسه بعيدا عنه، لكني على يقين أنه لم يؤلف كتابا جديدا بعد، ينفي فيه آراءه السابقة. كما أنني أشك في قبولهم توبته، لأنه لن يلتزم إطلاقا بشروط التوبة لديهم. وهذا يذكرنا بموقف الخوارج الذين طلبوا من الإمام علي أن يثوب بعد أن يعترف حقا بأنه كفر.

وفي المغرب الأقصى ألف أحد السلفيين كتابا تهجم فيه على زعيم حركة العدل والإحسان الإسلامية الشيخ عبد السلام ياسين وقيل إنه كفره فيه. وذلك يرجع في ما يظهر للطابع الصوفي والطرقي الذي يتحلى به هذا الشيخ، أو لانتصاره لبعض العقائد والسلوكيات الصوفية والطرقية. وهكذا فقد عمت الفتن المذهبية وتعمقت الكراهية والطائفية بين طوائف المسلمين. ويمكن أن نعلن ونؤكد أن أبناء الصحوة الإسلامية اليوم يخوضون حربا ضروسا فيما بينهم[1]. والجبهة الداخلية التي كانت إلى وقت قريب متراصة وقوية في مواجهة الغرب وحضارته الغازية، هي اليوم أقرب إلى التخاذل والانهيار.

---

(١) من الأمثلة الأكثر وقعا على النفس، الحديث الذي أدلى به سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لمجلة (المجاهد) التي يصدرها المجاهدون الأفغان... حيث سأله مجري المقابلة (سلطان عبد المحسن الخميس): من خلال معرفة سماحتكم بتاريخ الرافضة ما هو موقفكم من مبدأ التقريب بين أهل السنة وبينهم؟.
أجاب الشيخ: «التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة غير ممكن، لأن العقيدة مختلفة، فعقيدة أهل السنة والجماعة توحيد الله وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، وأنه لا يدعى معه أحد... والرافضة خلاف ذلك، فلا يمكن الجمع بينهما، كما أنه لا يمكن الجمع بين اليهود والنصارى والوثنيين وبين أهل السنة، فكذلك لا يمكن التقريب بين الرافضة وبين أهل السنة لاختلاف العقيدة التي أوضحناها».
وسئل الشيخ مرة أخرى: وهل يمكن التعامل معهم – الشيعة – لضرب العدو الخارجي كالشيوعية وغيرها؟.
أجاب الشيخ: «لا أرى ذلك ممكنا، بل يجب على أهل السنة أن يتحدوا وأن يكونوا أمة واحدة وجسدا وأحدا، وأن يدعوا الرافضة أن يلتزموا بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الحق...
تجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث موجه للمجاهدين الأفغان، الذين يواجهون الحكم الشيوعي، وبينهم نسبة غير قليلة من الشيعة تصل إلى ٣٠ ٪ من السكان تشاركهم في الجهاد... فافهم لماذا لم يتوفق المجاهدون حتى الآن في مسعاهم؟! الشيعة في المملكة العربية السعودية، ج ٢ ص ٣٩٨.

ويكفي أن نعلم أن الإنتاج الفكري الإسلامي الذي كان منصبا في بداية هذا القرن على معالجة قضايا المسلمين العامة واقتراح سبل النهضة الحضارية، والانعتاق من قيود الاستعمار، ومواجهة التخلف، قد تحول إلى معالجة قضايا أخرى، مذهبية جزئية قتلتها المذاهب الإسلامية الفقهية بحثا وتصنيفا. وأنتهي منها بتقرير كل مذهب لاجتهاد معين وقف عنده وألزم أصحابه باتباعه.

انتكاسة الفكر الإسلامي المعاصر:

لكن موجة الصراع الجديد بين السلفية وباقي خصومها قد دفع الكثير من المؤلفين والعلماء إلى بذل جهد كبير في إعادة إنتاج هذه القضايا مرة ثانية في حلل جديدة. وبعثها للتداول والنقاش، فظهرت كتب كثيرة في وصف صلاة الرسول ﷺ ووضوئه. وما كان عليه السلف في الملبس والمأكل، ونوقشت جزئيات الطهارة والنجاسة، وكأنها تعرض لأول مرة على المسلمين. كما أثيرت من جديد، بعض القضايا الأصولية والعقائدية كمسألة الصفات الإلهية وموقف السلف منها وكيفية اعتقادهم بها. وصولا إلى إحياء الطب النبوي والتداوي بالأعشاب والدعوة إلى الرجوع لتناول الأعشاب بدل الأدوية التي تنتجها المختبرات العلمية لأنها بدع غربية، ولم يعرفها السلف الصالح؟!.

كل هذا الزخم الفكري الجديد شكل بحق، وباعتراف كثير من المفكرين الإسلاميين، انتكاسة للفكر الإسلامي المعاصر، الذي بدأ واعدا ومبدعا في عملية الإحياء الحضاري الإسلامي العام. وسجل باعتراف الخصوم. خطوات متميزة في بعض إبداعاته وهو يعالج إشكالات النهوض، والخروج من مأزق التخلف العام، رغبة في وضع قطار النهضة الإسلامية على مساره الحقيقي لتحقيق الإقلاع الحضاري والعلمي للأمة. كي تأخذ مكانها اللائق بها بين الأمم، ويعود الإسلام للواجهة كدين ورسالة خالدة، لا بد من إيصالها لجميع أبناء البشرية أفرادا وجماعات لتخرجهم من ظلام الجهل والكفر إلى نور الإيمان وعدل والإنسانية الحقة.

لكن موجة الدعوة السلفية ظهرت فجأة، كقدر أريد به إيقاف هذه المسيرة النهضوية والإبداعية في الفكر والحياة الإسلامية. فبدلا من معالجة القضية الاقتصادية وإثراء البحث والنقاش حول المنهج الإسلامي الاقتصادي لتحقيق العدالة والتكافل الاجتماعي، مثلا. يتحول الجهد الفكري والمالي لمناقشة فكرة عذاب القبر، وحجم الحيات والعقاب التي سيجدها الإنسان هناك، حالما يصل إلى تلك الحفرة. ونحن عندما نأتي بهذا المثال نطلب من القارئ أن يمر وهو في طريقه إلى عمله، على أية مكتبة إسلامية اليوم، ليرى حجم وكثرة هذه الكتب التي تناقش عذاب القبر وتصور أهواله ومصائبه، والعقل السلفي هو الذي يؤلف ويكتب وينشر ويهتم بهذه المواضيع! أما الاقتصاد والسياسية أو العلم أو كل ما يتعلق بمصير المسلمين الدنيوي، وما يتخبطون فيه من مشاكل ومحن وإحن. فلا أظن أن المكتبة السلفية يهمها أن تحتوي على كتب تعالج مثل هكذا قضايا. لماذا؟! لست أدري! ربما ذلك يدخل في البدع ومخالفة ما كان عليه السلف الصالح؟! ومعلوم أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!!. والله نسأل أن يعيذنا وإياكم من كل ضلالة!!

وأخيرا نود من دعاة السلفية وكبار علمائها وفقهائها، أن يجيبونا على هذا السؤال بكل هدوء وموضوعية: هل استخدم الرسول أثناء دعوته أسلوب العنف والسب والشتم؟! وهل كان كبار الدعاة من السلف، يثيرون الأحقاد والبغضاء بين المسلمين ويثيرون الفتن المذهبية والطائفية؟!.

نرجوا من هؤلاء الدعاة أن يحيلونا على وقائع التاريخ المكتوب في مصادره المعتمدة لدى الأمة. بشرط أن ألا تقتصر هذه الوقائع على يوميات الدعوة السلفية الحنبلية، وسيرة دعاتها الكبار. كابن تيمية وابن عبد الوهاب. لأننا نعلم سلفا أن هذه الوقائع واليوميات هي المصدر الرئيسي والثري الذي يستقي منه دعاة السلفية اليوم عقائدهم وأفكارهم وسلوكياتهم في الحياة والدعوة.

***

إنهم يحرفون التراث

طرق تحريف السلفية للتاريخ الإسلامي:

عندما تحدثنا عن وقائع الاختلاف والمناظرات التي وقعت بين ابن تيمية وخصومه من أهل السنة والجماعة وباقي الفرق. قلنا: بأن هناك شبه إجماع لدي أصحاب هذه المذاهب والفرق بأن «شيخ الإسلام» لم يكن أمينا في نقل آرائهم وعقائدهم، التي أجهد نفسه في الرد عليها. وهذا الادعاء بعدم الأمانة في النقل والتحريف المتعمد لكلام الخصوم. لم يكن دون دليل، بل استطاعت كل فرقة أو مذهب أن يستدل وأن يأتي بنص من مذهبه واعتقاده يخالف ما ادعاه أو نقله ابن تيمية عنه. لذلك كان هناك إجماع على اتهام «شيخ الإسلام» بالكذب! هذا الكذب الذي تمثل في التحريف المتعمد لتراث الخصوم عند النقل والاستشهاد.

الإجماعات الوهمية عند ابن تيمية:

والذي يرجع إلى «فصل ابن تيمية» سيجد الأمثلة على هذا التحريف الصريح. فعلماء أهل السنة والجماعة مثلا، يقولون إن «شيخ الإسلام» حكى عن السلف أقوالا وإجماعات وتفسيرات لا وجود لها في الواقع. كما حكى على لسان بعض الأئمة ما لم يتفوهوا! ولو قالوا شيئا من ذلك فأتباعهم أدرى وأعلم بذلك!.

مثلا يقول ابن تيمية: «إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مئة تفسير. فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات

الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»[١].

لقد ادعى ابن تيمية إن أحدا من الصحابة لم يتأول شيئا من آيات الصفات، وعندما يرجع الباحث لكتب التفسير يجدها زاخرة بنقل تأويلاتهم.

فهذا الطبري الذي مدح ابن تيمية تفسيره ووصفه في فتاويه بأنه تفسير ليس فيه بدعة. يقول: اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي، فقال بعضهم هو علم الله تعالى ذكره.

ذكر من قال ذلك: أبو كريب وسلم بن جنادة، عن إدريس، عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كرسيه علمه.

وعن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «كرسيه» علمه. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾[٢].

فحين يجزم الشيخ تقي الدين ابن تيمية قائلا: لم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات، يفتتح الطبري تفسيره بتأويل الصحابي الجليل ابن عباس على خلاف ما يذهب إليه الشيخ ابن تيمية، فهو يذهب إلى ما جاءت به الحشوية من أخبار ذكرها الطبري بعد قول ابن عباس، مفادها إن الكرسي هو موضع القدمين من العرش، أو هو العرش الذي يقعد عليه الله تعالى شأنه، فلا يفضل منه مقدار أربع أصابع، وله أطيط كأطيط الرحل الجديد[٣].

وقد نقل الطبري وغيره من المفسرين كثيرا من تأويلات الصحابة والتابعين

(١) تفسير سورة النور، ابن تيمية، ص ١٧٨ - ١٧٩. عن ابن تيمية لصائب عبد الحميد ص ١٢١.

(٢) تفسير الطبري، ج ٣ ص ٧، بتوسط «ابن تيمية» لصائب عبد الحميد ص ١٢٢.

(٣) ابن تيمية، صائب عبد الحميد، ص ١٢٢.

«السلف». لآيات الصفات. ومن أراد أن يعرف صدق ابن تيمية من كذبه فليراجع كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي فإنه عرض لكل التأويلات السلفية والخلفية.

وعلى هذا المنوال تم مراجعة أحكام «الشيخ الإسلام» وأقواله. فظهر للمحققين من كل مذهب، أن كلام الشيخ هو خلاف الحقيقة. بل هو التحريف بعينه لتراث المسلمين وتعميم الجهل ونشر الأكاذيب بين السواد الأعظم من الأمة، الذين لا يستطيعون التحقق من الأمر ومعرفة الصواب.

وهو أسلوب بالتالي في الدعوة للعقيدة السلفية «الحشوية». فالمسلم مثلا، عندما يسمع أن السلف من الصحابة والتابعين لم يعرف عنهم أنهم أولوا صفة من هذه الصفات. وأنهم أثبتوها دون تأويل، سيركن إلى تفسير ابن تيمية وأتباعه، الذين يثبتونها حقيقة. وبالتالي ستنتشر عقيدة التجسيم والتشبيه، على أنها إحدى الحقائق العقائدية الإسلامية.

ويؤكد الدكتور البوطي ذلك، خلافا لما جاء به ابن تيمية فيقول: ليس صحيحا أنه لا يوجد في السلف من جنح في تفسير آيات الصفات أو بعض منها إلى التأويل التفصيلي[1]. ففي السلف حسب الدكتور من جنح إلى التأويل التفصيلي ولم يكتفي بالإجمال فقط. من ذلك ما صح من تأويل الإمام أحمد «جاء» في قوله عز وجل ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: آية ٢٢) بمعنى: وجاء أمر ربك، أما يقول سبحانه وتعالى ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (النحل آية ٣٢)[2]. وقد أورد الدكتور البوطي بعضا من أسماء السلف، الذين أولوا الصفات.

بل ذهب إلى أن ابن تيمية نفسه سقط في التأويل عندما قال بأن الوجه الوارد في الآيات ليس من الصفات.

---

(١) السلفية، م س، ص ١٣٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٤.

ادعاءات لا نصيب لها من الصحة:

ويتكلم البوطي كذلك عن نقل غير صحيح وادعاء على «القدرية» بأنهم يعتقدون بأن أفعال الحيوان لم يخلقها الله. كما ذكر ابن تيمية عنهم يقول الدكتور: «غير أني ما سمعت وما رأيت إلى هذا اليوم أن القدرية يعتقدون أن أفعال الحيوان لم يخلقها الله! وها هي ذي كتب الفرق والملل والنحل أمامنا ولم أجد في شئ منها مثل هذا النقل عنهم. ثم رأيت العلامة المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري قد سبقني إلى البحث عن هذا النقل الغريب وأصله، فكتب تعليقا عليه: «لم نر من صرح بذلك منهم في كتاب من كتبهم. وإلزام الشئ غير القول به»»[1].

وإذا رجعنا إلى المدافعين عن التصوف فسنجد محمود غراب يتهم شيخ الإسلام بالكذب على ابن عربي، ويورد نصوصا واضحة في ذلك، وكيف أن «شيخ الإسلام» زور على الشيخ الأكبر أقوالا مفتراة لا وجود لها فيما كتبه زعيم الصوفية. وقد أوردنا بعضها فيما تقدم.

أما إذا بحثنا في كتب «شيخ الإسلام» لمعرفة رأيه في الشيعة والتشيع فلن نصطدم بالتحريف فقط. ولكن سنجد الإفتراء والكذب الصراح، وتزوير الحقائق الواضحة، واللف والدوران لإنكار الكثير مما سطرته أقلام المؤرخين من وقائع. وقد ألف محققو الشيعة كتبا في ذلك وأزاحوا الستار عن كل أكاذيب «الشيخ» وتحريفاته. ولنا وقفة مع هذا الموضوع في الفصول القادمة.

تضعيف الأحاديث النبوية المخالفة للمذهب:

ولابن تيمية طرق متعددة في تحريف الحقائق التي تخالف مذهبه، وتقف بالتالي كحجر عثرة أمام إدعائه «الإجماع السلفي»، أو عدم وجود ما يخالف رأيه ومعتقده في تراث الأمة الفقهي أو الأصولي. من هذه الطرق والأساليب تضعيف

---

(١) نفسه، ص ١٦٦ - ١٦٧.

الأحاديث النبوية التي تنطق صراحة بخلاف رأيه ومذهبه. وإن كانت ضمن كتب الصحاح. وقد أشار الحافظ الذهبي لذلك عندما قال مخاطبا ابن تيمية: «يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو التأويل والإنكار»[1].

وهذا التضعيف من طرف الشيخ، لا يرجع إلى علل حقيقية في الأحاديث التي ينكرها. وإنما ذنبها أنها تنطق بخلاف معتقد الشيخ. أما مستنده في هذا التضعيف، فهو جرأته الكبيرة على قول ذلك. لدرجة تجعل العامة تعتقد أن للشيخ مستندا قويا لكن الحقيقة بخلاف ذلك تماما.

انتقاء الأحاديث الموافقة فقط:

كما أن للشيخ أسلوبا آخر اكتشفه المحققون، وهو انتقاء الأحاديث الخاصة بموضوع معين فما كان منها يصب في عقيدته ظاهرا أخذ به وقدمه وصححه أما إذا وجد في نفس الباب أحاديث أخرى يظهر منها خلاف ذلك، فترى الشيخ يضرب عنها صفحا وكأنها لم توجد. وإن وقع وتعرض لبعضها أو أوردها في محل نقاشه، فإنه سرعان ما يرجح الأحاديث الداعمة لمعتقده ويترك غيرها، دونما سبب علمي لهذا الترجيح. بل قد يكون البحث الموضوعي في صالح الجمع بين الروايات والخروج برأي انطلاقا من ذلك. وقد استشنع – يقول الدكتور البوطي – ابن حجر رحمه الله هذا التصرف الذي لا مسوغ له من ابن تيمية مع أنه من المعتدلين في تقويم أفكاره وبين فئتي المتعصبين له والمتعصبين ضده[2].

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ٤ ص، ٤٠، نقلا عن تكملة السيف الصقيل للمحقق الكوثري، ص ١٩٢.

(٢) السلفية، ص ١٧١. يقول البوطي: «إن ابن تيمية رحمه الله يعلم ما هو معلوم لدى جميع علماء أصول الفقه، من أن الترجيح إنما يلجأ إليه عند التعارض وعدم إمكان الجمع.

فأما إن كان الجمع بين الروايات ممكنا بل لا تعارض بينهما، فيجب المصير إليه ويمنع من الإلغاء والترجيح».

رفض الأحاديث والروايات الصحيحة:

وأنظر مثلا إلى أسلوب «الشيخ» وهو يعالج»مسألة الدعاء مستقبلا قبر الرسولﷺ. فهو لما كان ينكر ذلك، ولا يراه جائزا، وكان يدعي الإجماع السلفي على ذلك، وأن أحدا من الصحابة والتابعين أو الأئمة لم يفعله! تراه يصطدم بقول الإمام مالك ابن أنس الذي نقل عنه أنه أجاب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لما سأله، بأن يستقبل القبر الشريف ويدعو. قال: «لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله. فماذا كان موقف شيخ الإسلام من هذا النقل عن رجل يعتبره من أئمة السلف!؟ بكل هدوء وبساطة يقول الشيخ:»أمر منكر لم يقل بن أحد ولم يرد إلا في حكاية مفتراة على الإمام مالك»!

وهذه الحكاية المفتراة عند ابن تيمية أوردها القاضي عياض رحمه الله تعالى هنا، ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه. فقوله أي ابن تيمية إنها أمر منكر كذب محض ومجازفة من ترهاته، وقوله: لم ينقل ولم يرو باطل. فإن مذهب مالك وأحمد والشافعي رضي الله تعالى عنهم استحباب استقبال القبر الشريف في السلام والدعاء وهو مسطر في كتبهم[(١)].

وهذه القصة كما يقول الشيخ يوسف النبهاني ذكرها القاضي عياض بإسناد صحيح. والإمام السبكي في «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» والسمهودي في «خلاصة الوفاء» والعلامة القسطلاني في «المواهب اللدنية»، والعلامة ابن حجر في «تحفة الزوار والجوهر المنتظم» وقال ابن حجر في المنتظم جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه». وقال العلامة الزرقاني في «شرح المواهب» رواها ابن فهد بإسناد جيد[(٢)].

---

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ، الشيخ يوسف النبهاني، ضمن مجموع «علماء المسلمين والوهابيون»، ص ١٨٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٦.

ونحن إذ نورد هذا المثال، فقط ليعلم القارئ حقيقة ادعاء ابن تيمية بأن هذه الرواية كذب وافتراء على مالك. في الوقت الذي يجمع أئمة المذهب المالكي وغيرهم على صحتها وصحة سندها. لذلك لم يجد الشيخ شهاب الخفاجي غضاضة في اتهام شيخ الإسلام بـ«الكذب المحض والمجازفة». أما نحن فنعتبر ذلك محاولة رخيصة لتحريف تراث الإسلام والمسلمين، والكذب على الحقيقة.

ولو استطاع كل مدع لرأي أو تابع لمذهب أن يثبت صحة معتقداته وخطأ ما يعتقده غيره فقط بمجرد الادعاء أن أفكار خصومه غير صحيحة. أو أن سندها غير صحيح دون أي بحث علمي. فلن يتيسر الركون لأي مذهب ونحلة، أو اعتناق عقائدها وأفكارها، وسيكون ذلك بمثابة إعلان عن انتهاء جميع المذاهب والأديان. لإن الشك والارتياب في صحة المنقول والمكتوب سيشمل كل التراث الفكري والعقائدي لهذه المذاهب والأديان[1].

الفهم السطحي لأفكار المخالفين:

وهناك أساليب أخرى استخدمها «شيخ الإسلام» وأدت إلى تحريف تراث المسلمين نذكر منها: الفهم السطحي لعقائد بعض الفرق وأفكار أصحابها، وقد وقع ذلك مع «الصوفية» بالخصوص. فالفهم السطحي قد يؤدي عند الاستنتاج والمقارنة إلى أفكار وتقريرات لا يرضاها أصحاب المذهب ولا يؤمنون بها. ومن ثم فقد يعتبر»الشيخ»فهمه لمعتقدات القوم هو ما هم عليه حقيقة، فيتكلم باسمهم ويرد عليهم، بالتبديع والضلال تارة، والكفر والزندقة تارة أخرى. والحقيقة أن الشيخ سيكون عند ذاك رادا على نفسه مسفها لأحلام فهمه.

---

(١) يقول الدكتور محمد عوض الخطيب: «إنهم يختارون بعض الأحاديث ويفسرونها بمعزل عن القرآن الكريم أو عن غيرها من الأحاديث. ومن أجل قطع الطريق على إمكانية مناقشتهم في هذا المجال فهم يلجأون إلى أسلوب التهويل فيستخدمون تعبير «أجمع العلماء» وينفون مخالفة أحد لما ذهبوا إليه، وعند الاضطرار الشديد يرمون رواة الأحاديث التي تخالف ما يدلون به بالوضع والكذب». صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ص ٦٩.

والمشكل هنا يصبح خطيرا عندما يعلن «الشيخ الحنبلي» فهمه على المنبر. وتتلقاه الجماهير الأمية على أنه الحق. أو ينشر ذلك في كتب وكراريس وتوزع مجانا على أبناء الصحوة الإسلامية اليوم، على أنها فتاوى شيخ الإسلام وزعيم «دعوة السلف». وكم من عراك نشب في مسجد أو قسم دراسي بين أبناء الصحوة انطلاقا مما ذكرنا. فأتباع الدعوة السلفية لا يشكون أبدا في صدق إمامهم وصحة ما بين أيديهم، وغيرهم يجد ذلك محض كذب وافتراء، ويتبرأ ويبرئ مذهبه من هذا الفهم أو النقل. وتبقى القضية معلقة دون حل لأن كلا الطرفين لا يعرف الخطأ الذي نجم عن هذا الفهم السطحي السريع لشيخ الإسلام، تلاه حكم جرئ وقاطع لا يحتمل التأويل أو المراجعة. وهذه إحدى المحن والمعاناة التي يشكو منها مخالفو مذهب السلف.

ومن الصور والمواقف المضحكة والمبكية معا أن تجد شابا داخل مسجد ما يعلن أمام الملأ بأنه يشهد حقيقة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه يؤمن بكل ما جاء في القرآن ويعتقد بكل شرائع الإسلام. لكن شابا أو جماعة، يردون عليه بأنه كافر مرتد، لأن شيخ الإسلام حكم بكفر الشيعة وارتدادهم[1]، أو أنك جهمي معطل (أي منزه) والجهمي كافر. أو أنك تعتقد في الأولياء وتستشفع بهم ومن يفعل ذلك فهو مشرك كافر حلال الدم والمال.

وتستمر المعاناة، فأغلب أتباع الحركة السلفية من العوام أو أنصاف المتعلمين، ممن يصعب عليهم التحقيق والتدقيق أو المطالعة العامة، كي تتضح لهم الحقائق، إلا النزر القليل، وهؤلاء لما فعلوا ذلك وجدوا أنفسهم خارج الموكب السلفي، بل من أشد أعدائه وخصومه، بعد ما كانوا من أتباعه ودعاته. وكم كان الحافظ الذهبي

---

(١) يقول أحد قيادي جبهة الإنقاذ الجزائرية: و«الجبهة الإسلامية المسلحة سلفية عقيدة ومنهجا وسلوكا وموقفها من الشيعة معروف، وهو الحكم عليهم بالردة والخروج عن شرائع الإسلام». جريدة الحياة اللندنية، ٤ أيلول سبتمبر ١٩٩٤ م، ص ٤.

صادقا في وصفه وهو يتكلم على أتباع «شيخ الإسلام» آنذاك عندما قال: فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف طالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل[1].

وهذه الأوصاف تكاد تنطبق على أتباعه اليوم كذلك. خصوصا كونهم من العوام وقليلي الفهم أو خفيفي العقل. مع وجود فئة قليلة متنورة وصادقة الإيمان والسلوك. وإنما وجودهم ضمن الحركة السلفية لأنهم تعرفوا عليها على أنها الإسلام الصحيح، وما كان عليه السلف الصالح. وأغلبهم ليس لديه معرفة أو اطلاع على المذاهب الإسلامية الأخرى. ومشاكل التعدد والاختلاف بين الفرق الإسلامية، أو كيف ظهرت ومن يقف وراءها ويدعو لها. فهم يتعبدون بالقرآن ويتبعون هدي خير الأنام. أما دهاليز المذاهب وخفايا عقائدها، وسير رجالاتها، فهم بمنأى عن معرفة ذلك، ولن يسمح لهم - وإن رغبوا في ذلك - بمعرفة مثل هكذا مواضيع، فقد وضعت أمامهم مئات الحواجز للحيلولة دون هذه المعرفة. أقلها منع الكتاب المخالف من دخول الأسواق والمجتمعات التي يسيطر عليها السلفيون.

السلفيون يجيزون الكذب على خصومهم:

نرجع إلى أساليب تحريف التراث لدى الشيخ الحنبلي السلفي وأتباعه لنؤكد هذه المرة حقيقة أخرى من الحقائق الغامضة للتحريف السلفي. وهذه الحقيقة تنبش في حفريات المذهب الحنبلي لمعرفة جذور وأسباب هذا التحريف المتعمد الذي تبين أن ابن تيمية نفسه لم يكن مبتدعا له، وإنما مقلدا لبعض المشايخ الذين ينتحلون النسبة للمذهب الحنبلي. وأول ما يصادفنا ونحن ننقب حول هذه الجذور،

---

(١) بحوث في الملل والنحل، ص ٤٠. عن تكملة السيف الصقيل للمحقق الكوثري المعاصر. ويقول محمد هادي الأميني يصف المجتمع الوهابي المعاصر: «فالجهل لم يزل فيهم حاكما مع التقدم والتطور الحاصل في العالم اليوم للحركة العلمية». أنظر «مكة» ص ٢٨٩.

إطلاق الإمام السبكي مصطلح «الخطابية» على الحنابلة. حيث نقل إن كلتا الفرقتين ترى جواز الكذب على من خالفهم في العقيدة»[١].

وهذا الاستحلال للكذب على الخصوم يجعلنا دون شك نعتبره القاعدة الأولى التي تستند إليها عملية تحريف التراث. وتدعمها شبهة تافهة، تتلخص في أنه إذا كان الحق والصواب معنا وبين أيدينا فإن الخطأ كل الخطأ عند خصومنا. وإذن لا بأس بوصفهم بكل ما هو خطأ أو يصب في الخطأ، وافتراء الأكاذيب حولهم وحول عقائدهم وأفكارهم. من هنا انطلقت موجة الكذب على الخصوم والمخالفين، وتحريف كل حقيقة لديهم وإلباسها لبوس الضلال والانحراف[٢]. فتارة يتم إنكار بعضا من آراء القوم عمدا، لكي لا تكون لهم أي فضيلة تواكب الحق. وتارة يضاف للخصوم معتقدات وأفكار وهم منها براء ليشنع عليهم بها.

الكذب على الشيعة:

نأخذ مثلا، تعمد كتاب السلفية اليوم وصف الشيعة الإمامية بأنهم يقولون بتحريف القرآن ويعتقدون ذلك، وأن لهم مصحفا آخر غير الذي بين أيدينا

---

(١) بحوث مع أهل السنة والسلفية، م س، ص ٢٦١.

يقول السبكي: «وقد بلغ الحال بالخطابية... وهم المجسمة في زماننا، فصاروا يرون الكذب على مخالفيهم في العقيدة، لا سيما القائم عليهم بكل ما يسوءه في نفسه وماله.. وبلغني إن كبيرهم استفتى في شافعي أيشهد عليه بالكذب فقال ألست تعتقد أن دمه حلال؟ قال:

نعم: فما دون ذلك دون دمه فاشهد وادفع فساده عن المسلمين. قال السبكي فهذه عقيدتهم يرون أنهم المسلمون وأنهم أهل السنة، ولو عدوا عددا لما بلغ علماؤهم لا عالم فيهم على الحقيقة مبلغا يعتبر، ويكفرون علماء الأمة ثم يعزون إلى الإمام أحمد بن حنبل، وهو منهم برئ..» أنظر طبقات الشافعية، ج ١ ص ١٩٣. والمرجع السابق، ص ١٨٨.

(٢) أنظر كيف يتعامل الحنابلة مع الحقائق الواضحة عندما يعرضها خصومهم وكيف يزورون التاريخ. «عن أبي علي النجاد: بينما أنا ذات يوم إذ دخل رجل من أهل البدع ومعه مصحف فجعل يقرأ منه سورة الأحزاب فلما انتهى إلى هذه الآية ﴿وقرن في بيوتكن﴾» أطبق المصحف وقال: إيش نعمل في هذه وعائشة قد خرجت. قلت: إنها لم تخرج من بيتها قال: وكيف ذاك؟ قلت: لأن بيوت أبنائها بيتها؟!.

يسمونه «مصحف فاطمة»، وعندما تسأل علماء الشيعة الإمامية وكتبهم، هل قضية تحريف القرآن في عقائدكم؟! وهل لكم حقيقة قرآن آخر تسمونه «مصحف فاطمة»؟.

يردون عليكم، أن عقائدنا مكتوبة ومسطرة في الكتب المطبوعة فانظر فيها لترى بأم عينيك مجمل عقائدنا، ولا بأس أن تتحقق من كتب القرآن التي في مساجدنا وبيوت عوام الشيعة وخواصها فأغلب نسخها مطبوع في الرياض وتحت إشراف علماء الوهابية ودعاة السلفية. وهكذا تصطدم أمواج الكذب السلفي بصخور الحقائق هنا وهناك.

الكذب على الصوفية:

ويكتب دعاة السلفية عن الطرق الصوفية أنهم يرقصون ويستخدمون آلات الغناء في حلقات ذكرهم «الشيطاني». وإن منهم من يصل إلى حالات الوجد لأنه يمارس الرقص العبادي وهو سكران. وينسبون إليهم معتقدات وأفعالا ينفر منها الذوق السليم وترفضها الفطرة. وإذا ما حاولت معرفة حقيقة الأمر وجدت هنا لك رجالا يذكرون الله بطرق مخصوصة، وفيهم الكثير ممن يحرص على التقوى والورع، ويسلك سبيل العبادة حتى يأتيه الله باليقين. أما إذا وجد شخص أو جماعة ممن لبس عليهم إبليس وسقطوا في بعض الممارسات التي لا يقرها الشرع، فإن محققي الصوفية وكبار رجالات الطرق التعبدية، ينكرون عليهم ويتبرأون من سلوكياتهم ولا يعتبرونهم ممثلين للطرق الصوفية، بل منحرفين ليس إلا.

وهل من العدل أن نأخذ الجماعة بسلوك فرد منحرف فيها؟! أو أن ننسب لجماعة ما هي براء منه. ولو اتخذنا هذا الأسلوب السلفي منهجا لنا لاتهمنا جميع دعاة السلفية في نجد مثلا بممارسة اللواط والشذوذ الجنسي، لأنه وجد من بينهم من يُدمن على هذا الفعل المنكر، بل لجاز لنا أن نتهم المجتمع الوهابي في السعودية بأنه يبيح اللواطة. وذلك لاستفحال هذه الظاهرة الشاذة هناك.

ولم يعد الأمر خافيا على أحد فوسائل الإعلام تتناقل بين الفينة والأخرى أخبارا وفضائح تتهم بعضا من رجالات أهل نجد بهذه التهمة الشنيعة[1].

لقد تبين بعد التحقيق والبحث أن كثيرا من دعاة المذهب الحشوي الحنبلي كانوا يمارسون التحريف وذلك بالكذب عند النقل أو التفسير للنصوص.

وهذا يخص ابتداءا عقائدهم. وقد قلنا سابقا بأن مجمل عقائد الحشو مستوحاة من أحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ وأخذ أعراب الرواة عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، واعتمدوها دون غيرها من الأحاديث الصحيحة. هذا من جهة، أما إذا أضفنا إلى ذلك استحلالهم الكذب على خصومهم كما يقول الإمام السبكي. فلنا أن نتصور جحم هذا التحريف الذي لحق بتراث الإسلام والمسلمين على أيدي هذه الفرقة.

هذا التحريف الذي تعددت طرقه واختلفت أشكاله وصعب على غير المحققين معرفته. وقد تتبعنا منذ زمن ليس بقصير كتابات هؤلاء القوم من دعاة السلفية وكتابها واقتنينا كثيراً من كتبهم، وخصوصا التي تناقش وتعالج القضايا المختلف فيها بينهم وبين أهل السنة والشيعة الإمامية. وعند المراجعات الكثيرة والمقارنات المتعددة بين ما يوردونه وبين ما يقوله ويثبته خصومهم تبين لنا كما ظهر لغيرنا من المحققين إن كتب «دعاة السلفية» مملوءة بالكثير من التحريفات

---

(١) ذكرت الصحف في السنة الماضية، أن مديرا في مدرسة ابتدائية في منطقة نجد قد اعتدى جنسيا على تلميذ مصري، فقدم أبوه وهو دكتور شكوى مرفقة بشهادة طبية إلى المسؤولين. لكن مدير المدرسة كما قال بعض المطلعين كان له من يدعمه، فرفضت دعوى الدكتور المصري ولم تقبل الشهادة الطبية التي قدمها، وقيل له أن ابنه كان يحلم، مع أن أعراض المرض قد ظهرت على الطفل الذي كان مدير المدرسة يناوله أقراصاً مخدرة قبل أن يفعل فيه. لقد أحيط بالدكتور المصري من كل جانب وضاقت به الأرض لأنه أتهم بالقذف وأدخل السجن على أثر ذلك. وأخيرا طرد من السعودية ورجع إلى بلاده مصر التي حدثت فيها ضجة إعلامية كبيرة بسبب هذا الظلم الذي تعرضه له الدكتور وابنه. لدرجة أن بعض محلات في مصر وضعت يافطة على مدخلها كتب عليها ممنوع دخول الكلاب والسعوديين. والحقيقة أن هذه الحادثة تبرز وبوضوح شكل ومضمون العدل في مملكة السلف الصالح.

والمغالطات، ليس فقط لتراث خصومهم وما هم عليه من عقائد وأفكار. ولكن تبين أن منظري السلفية يستنجدون في كثير من الأحيان بطرق تحريفية مخصوصة لدعم عقائدهم والاستدلال على صحتها.

أساليب متعددة لتحريف الحقائق:

وقد تتبعت هذه الطرق للكشف عنها ولكي يصبح الحديث عن التحريف السلفي للتراث الإسلامي حقيقة موضوعية لا غبار يحجب رؤيتها. ولكي يصار إلى معالجة هذه الظاهرة الخطيرة المستفحلة في تاريخ الإسلام المعاصر، ويأخذ أبناء الصحوة الإسلامية حذرهم، ليعيش من عاش على بينة.

فما أكثر التزييف والتحريف وقلب الحقائق في هذه الحضارة الغربية المهيمنة. لكن الأمر هنا خطير جدا ولا يمكن أن يتغافل أو يسكت عنه، لأنه يتعلق بالدين والعقيدة. والكل يعلم ماذا يعني الدين في الحياة البشرية اليوم وتأثيره وأهميته على مستقبلها غدا. وسنحاول أن نذكر بعضا من أساليبهم في التحريف وقلب الحقائق. مع إيراد الأمثلة على ذلك من خلال إنتاجهم الفكري وسلوكهم الدعوي العملي.

أول ما يلاحظ المرء وهو يقرأ كتبهم وهم يردون على خصومهم، طعنهم في الأحاديث التي يرويها خصومهم ويعتمدونها في معتقداتهم. وهذا الطعن يكاد يكون منصبا على السند، فترى الكاتب السلفي يهرع إلى كتب الجرح والتعديل ليؤكد أن فلانا الراوي مطعون وقد قدحه رجال الجرح والتعديل.

ويورد أقوالهم فيه. مع العلم وهذا حاصل أن المحقق السلفي، يغض طرفه نهائيا عن أقوال المدح والتعديل التي قد توجد لنفس الراوي. ولكن لما كان الغرض هو الإسقاط، فإنه لا يأتي بما يدل على خلافه. علما أن أقوال علماء الجرح قد تختلف وتتناقض في وصف شخص أو راوي وبالتالي، لا يمكن الجزم النهائي بعدم عدالته. حتى يصار إلى رفض الحديث أو تضعيفه.

الطعن في السند:

ويجب أن نشير هنا إلى ملاحظة، وحقيقة تاريخية مهمة وهي إن أغلب علماء الجرح والتعديل قد كانوا حنابلة أو ممن يتعاطف مع عقائد الحنابلة وآرائهم الفقهية. وعليه فلا بد من وضع علامة استفهام كبيرة حول هذا الاستنجاد بكتب الجرح والتعديل، ونخص بالذكر ميزان الاعتدال للذهبي، والذي يكثر السلفيون من الاستشهاد به.

كما يجب أن نعرف أن هذه الطريقة لو طبقت على مجمل الأحاديث المروية عن الرسولﷺ فسنجد أنه من النادر أن نحصل على حديث يسلم رواته جميعا من القدح والجرح أو إشكال ما آخر. ولو اتبع أصحاب المذاهب الفقهية والأصولية هذا الأسلوب وعملوا به بصرامة ودقة لانهارت كثير من فتاواهم وقواعدهم المذهبية في الأصول والفروع.

أما إذا ما أخذنا بهذا الأسلوب وعالجنا به ومن خلاله الأحاديث التي بني عليها السلفيون عقائدهم فلن يبق للسلفيين مستمسك من حديث أو تفسير يمكنه أن يشكل عمودا فقريا لمذهبهم. فمعتمداتهم الحديثية موصوفة بأنها واهية ومكذوبة عن الرسول ﷺ، خصوصا ما جاء منها عن متأسلمة اليهود والنصارى. لأنهم كانوا يتكلمون عن معتقداتهم وليس عن عقائد الإسلام.

وهذا الأسلوب في التركيز على السند وقدحه يلجأون إليه كثيرا وهم يخاصمون الشيعة الإمامية ويردون عليهم، خصوصا عندما يستند هؤلاء إلى ما رواه أصحاب السنن والصحاح من أحاديث تصب في تأييد عقائد الإمامية.

الترجيح دون مرجح:

ويتفرع عن هذا الأسلوب. طريقة الاستدلال وإيراد الأحاديث التي يكون في سندها ضعف حقا. وعدم ذكر الأحاديث الأخرى في نفس الموضوع والباب.

وقد يكون الحديث ضعيفا بلفظ معين لكنه مروي بلفظ آخر صحيح وسنده قوي. وقد أشار الدكتور البوطي لهذه الطريقة حين علق على تضعيف الشيخ ناصر الدين الألباني(سلفي كبير معتمد لديهم في تحقيق الأحاديث) لحديث رواه بلفظ معين. يقول البوطي: «وإنما هو ضعيف بهذا اللفظ فقط، أما أصل الحديث فقد رواه البخاري بطريق صحيح.. وإذا كان للحديث الواحد طريقان فلا ينبغي الاقتصار في تخريجه على ذكر الضعيف منهما لما فيه من الإيهام»[1].

والحقيقة أن هذا ليس إيهاما فقط وإنما تحريفا وكتما للحق. ولعل الشائع لديهم اليوم هو انتفاء الأحاديث الخاصة التي تدعم مذاهبهم الفروعية والأصولية. وعدم ذكر أو التعرض لغيرها بالمرة. لدرجة تجعل القارئ لا يعلم بوجود سوى ما ينشرونه في كتبهم. وانظر مثلا عندما يتكلمون عن صفة صلاة النبيﷺ فإنك لن تجد حديثا يخالف ما عليه المذهب الحنبلي، وإن كان صحيح السند عند غيرهم بل ذكرته الصحاح لدى أهل السنة والجماعة.

وإذا ما تم ذكر بعضها أو تعرض له، فلأجل الطعن في سنده وتجريح رواته.

لا شك أنه سيطول بنا المقام، لو أردنا أن نأتي بالأمثلة على كل ما ذكرناه من كتب السلفية. فالمهم عندنا أن يعلم القارئ هذا الأسلوب. ويعرف خلفيته ونتائجه. ففي أغلب الأبواب والمواضيع التي ينتصر السلفية فيها لرأي مخصوص أو عقيدة متميزة تجد عشرات الأحاديث والنصوص التي تخالف ما يذهبون إليه، وهذه النصوص تكون في الغالب الأعم صحيحة ولا غبار على متنها أو سندها. لذلك حذار أن يصار إلى اعتبار عدم إيرادها من طرف هؤلاء الدعاة، عدم وجودها بالمرة. فهذا تجاوز وقفز على الحقائق. ولقد سمعنا شيخ السلفية الكبير «ابن تيمية» قبل قليل وهو يدعي عدم وجود أي نص أو قول يؤول فيه الصحابة آيات الصفات. ولما رجعنا إلى أقرب تفسير وجدنا العكس تماما؟!

---

(١) اللامذهبية، ص ١٣٦.

التحريف المباشر للنصوص والأقوال:

ومن الأساليب التحريفية الأخرى التي يستخدمها دعاة السلفية اليوم بكل وقاحة وتجني على العلم والحقيقة. تحريفهم نصوص وأقوال علماء الإسلام، فقد يعمدون وهم في مقام الاستدلال على فكرة أو اعتقاد معين، إلى إيراد أقوال العلماء وخصوصا ذوي الشهرة العلمية منهم ويجعلونها بمثابة استشهادات داعمة ومقوية لما يريدون إيصاله للقارئ. ولما يراجع المحقق هذا النقل يجد أن هؤلاء الأئمة المنقول عنهم بريئون مما نسب إليهم. وأن ما فعله دعاة السلفية هو التحريف المباشر لكلامهم. بالحذف أو التقديم والتأخير.

على وزن من يستدل على عقاب المصلين بقوله تعالى ﴿ويل للمصلين﴾ وقد كشف الدكتور البوطي وهو يناقش بعضهم حول: دعوى تحريم التقليد التي يدعون إليها اليوم ويستدلون عليها بألف دليل ودليل، على أنهم تصرفوا في نصوص للشاطبي وابن حزم، واقتطفوا من كلامهما بطريقة فجة غير علمية ما نصروا به دعوتهم. مما يجعل القارئ يعتقد أن علماء الإسلام مجمعون على هذا الأمر. يقول البوطي بعد ما أورد كلامهم وكيفية نقلهم عن الأئمة وما حذفوه من كلامهم وما أثبتوه: «لا بد أن نتوجه إلى من لا يزال يثق بهذا الرجل(ناصر الدين الألباني) وبطانته، من جماعات المسلمين ومثقفيهم سائلين ومستفسرين: ما حكم من يعمد إلى مثل هذه العبارة لأحد المؤلفين: «فما ذهب إليه ابن حزم حيث قال إن التقليد حرام و.. إنما يتم فيمن له ضرب من الاجتهاد» فيحذف ما الموصولة من صدر العبارة ويحذف خبرها الآتي من ورائها ثم يأخذ حشو هذه العبارة وحدها مستشهدا بها عازياً إياها لذلك المؤلف ليعزز بها دعواه؟!.. وقد رأيت فيما مضى صنيعه المشابه لهذا بكلام الشاطبي رحمه الله..

ويضيف الدكتور قائلا: لو كان جهلا - وما هو بجهل - لقلنا: هي زلة وسيتعلم الرجل بعدها. ولو كان سهوا - وما هو بالسهو - لقلنا ما أعجبها صدفة! سهو وجاء على قدر المدعي تماما!!.

ونعود فنسأل هؤلاء الإخوة: ما هو حكم الله فيمن ينطق نصوص المؤلفين بعكس ما قالوا كي يوهموا الناس بأن لهم مستندا على صدق دعاويهم؟ ما هو حكم الإسلام فيمن يفعل ذلك؟؟[1].

لكن الدكتور لا يجرؤ على وصفهم بالكذب، وتحريف تراث المسلمين.

لكن يتمنى لو لم يحشر في هذه الزاوية الضيقة يقول: «كان بوسعي أن أضرب صفحا عن كشف هذا التزييف العجيب والخطير، وأن أمر من جنب هذا اللغو بترفع وإعراض.. ولكن أمانة الله والعلم والخلق تدعوني إلى أن أنبه جماعات المسلمين إلى هذا الصنيع العجيب الذي يتلبس به من يدعون الناس إلى اتباعهم، وإلى ائتمانهم على دينهم، ورواية الأحاديث عن نبيهم، وقد أكون متجنيا في كلامي هذا، فليعمد القراء إلى كتاب حجة الله البالغة في المكان والصفحة المشار إليهما ثم ليأخذوا كتاب «المذهبية المتعصبة هي البدعة» (الرد السلفي على كتاب البوطي) وليفتحوا صفحة (٢٨٧) وليقرأوا ثم ليقارنوا.. ثم ليأخذوا من ذلك العبرة التي ينبغي أن يأخذها أي عاقل[2].

الغاية تبرر الوسيلة:

ولقد أثبت الدكتور في أكثر من موقع كذب بعض دعاة السلفية الكبار وتحريفهم في النقول بشكل مباشر وصريح. وكأنهم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة. فما داموا وصلوا إلى الحق، فلا مانع من الكذب على العلماء وتزوير

---

(١) المرجع نفسه. هامش ص ١٣٤. ويقول الدكتور البوطي: «والغريب أن صاحب الكراس (الخجندي السلفي) عزا إلى كمال بن الهمام كلاما طويلا غير هذا لم يقله، ولم يتفوه به.

وأنما هو « كلام ذكره ابن أمير الحاج في شرحه للتحرير، واسم كتابه « التقرير والتحبير» وقد اختلط الأمر على «العلامة» صاحب الكراس، فأسند الكلام الذي ساقه إلى ابن الهمام، وهو لم يقله أصلا، وأسند إليه كتابا اسمه التقرير والتحبير، وهو لم يؤلف كتابا بهذا الاسم أصلا». أنظر المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.

كلامهم ليتماشى مع دعاويهم. والغريب هنا حقا، هو استشهادهم بقول عالم أو فقيه في مسألة معينة واعتماد هذا القول والاستشهاد به. في الوقت نفسه الذي يكون السلفيون قد حكموا على نفس العالم أو الفقيه بالضلال أو الكفر. لأنه معطل أو لأنه يختلف معهم في مسألة عقائدية. وقد شكا الدكتور البوطي كذلك من كذبهم عليه وهو حي يرزق. كما أثبت كذب المعصومي الكاتب السلفي على الدهلوي[(١)].

الحذف والتحوير عند النقل:

ويتكلم السيد الميلاني وهو يناقش كتاب «المرتضى» لأبي حسن الندوي السلفي الهندي المعاصر عن تحريف وتحوير متعمد في النقل عند الاستدلال.

فالكاتب الندوي ينقل عن ابن كثير ويقول قال ابن كثير. ولما يدقق الباحث الميلاني في هذا النقل يقول: «إلا أننا لما راجعنا الجزء والصفحة المذكورتين وجدنا عنوان ابن كثير هكذا فصل في مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار. ولم نجد فيه هذا النص المذكور في كتاب المؤلف!!

ومن شاء فليراجع. والنص هو «قال ابن كثير؟ آخى النبي ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف»[(٢)].

وفي هذا الكتاب الذي كتبه المؤلف لغرض في نفسه، الكثير من التحويرات واللف والدوران الذي لا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى الغرض منه.

فالعنوان «المرتضى» أو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. لكن ثلث الكتاب في مدح وبيان مواقف رجال آخرين. وما تبقى ليس إلا إعادة كتابة بعض الأحداث المهمة في تاريخ الإسلام، وفقا لما يراه أتباع المذهب السلفي.

---

(١) يقول البوطي: «إن ما نقله المعصومي عن الدهلوي في كتابه الإنصاف، كلام مكذوب عليه، لم يثبت لا في الأنصاف ولا غيره» اللامذهبية ص ١٣١.

(٢) مجلة تراثنا، العدد ١ (٤٣) السنة التاسعة محرم ١٤١٤ هـ ص ٣٨.

تنقية كتب التراث من النصوص والأحاديث المخالفة للمذهب:

أما أخطر الطرق التي يسلكونها في عملية التحريف هذه، فهي محاولاتهم الجادة والمتكررة لتنقية كتب التراث الإسلامي من كل ما يخالف العقيدة السلفية. وبما أنهم يملكون الأموال الضخمة ويستطيعون إعادة طباعة هذه الكتب والمصادر، وشراء سكوت أصحاب المطابع. فإنهم خطوا خطوات مهمة في هذا المجال. وقد ظهرت هذه التنقية والغربلة لتراث المسلمين في أشكال متعددة منها.

١ - حذف الأحاديث غير المرغوب فيها من المصادر والكتب. وإعادة طبعها دون الإشارة إلى ذلك، وقد انتبه المحقق الكوثري وهو يراجع كتاب «الأسماء والصفات للبيهقي» إلى أن الحديث الذي ذكره أبو بكر الصامت الحنبلي وقال رواه عبد الله بن أحمد في السنة. قد اختفى من النسخة المطبوعة. يقول الشيخ الكوثري: «ولم أجده في المطبوع فلعل المشرفين على طبعه حذفوه استفضاعا له»[(١)].

وإذا كان هذا الحديث أعدم لأنه يشنع عليهم. فإن حديث «الدار» الذي رواه أغلب أهل السنن، ينتصر لعقيدة الإمامة الشيعية لذلك فقد اختفى من الطبعة الثانية من كتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل. وقيل إن السلفيين تدخلوا لدى الناشر وأغدقوا عليه الأموال فحذفه من الطبعة الثانية بعد ما ذكره المؤلف في الطبعة الأولى. وهذا الحديث لكونه صحيح السند، وصريح العبارة. فقد كان يزعج كل من يجده في طريقه وهو يكتب في السيرة النبوية، وخاصة أعداء الإمامة وأهل البيت. ومن ضمنهم بلا شك دعاة السلفية. أنظر إلى ابن كثير المؤرخ وهو يتعرض لهذا الحديث مضطرا فلما وصل إلى قوله ﷺ» على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم «نقله بهذه الصورة» على أن يكون أخي وكذا وكذا»[(٢)].

---

(١) الأسماء والصفات، تحقيق الكوثري، هامش ص ٣٥٦.

(٢) البداية والنهاية، ج ٣ ص ٤٠. وقد يكون ابن كثير ذكر الحديث كاملاً لكن المشرف على الطباعة انتبه له فحذفه بهذه الطريقة؟!

وابن كثير هذا كان أكثر ميلا لعقيدة التجسيم والتشبيه «السلفية» في تفسيره. لذلك تجدهم يدعون للاهتمام بهذا التفسير وتقديمه على غيره. كما أن موقفه من الشيعة الإمامية كان معروفا وهو النقض عليهم. لذلك لجأ إلى هذا التحريف. ولكن الحديث لحسن حظه وحظنا موجود في باقي المسانيد الحديثية. وقد رواه أكثر من واحد، ونقله مجمل الكتاب المعاصرين.

طبعات جديدة ونظيفة لصحيح البخاري:

وعملية حذف الأحاديث من المسانيد وكتب السنن. أصبحت مشهورة، فهناك في الأسواق الآن كتب حديثية لا تخلو من الحذف والنقص المتعمد. وخصوصا صحيح البخاري الذي صدرت له طبعات سلفية منقحة وجديدة، وقد طالتها يد التحريف. وقد حدث أكثر من مرة أن احتدم النقاش بين أبناء الصحوة الإسلامية. حين يذكر أحدهم في معرض الاستدلال، حديثا ينسبه إلى صحيح البخاري فيرد الآخر بأن لا وجود لهذا الحديث في صحيح البخاري، وبالفعل يستنجد بنسخة تخلو من هذا الحديث. وعند المراجعة تبين أن هناك نسخا محرفة موزعة في الأسواق وخصوصا تلك التي طبع فيها صحيح البخاري على شكل كتب وأجزاء صغيرة لتسهيل - على حد زعم أصحابها - الاستفادة من هذا السفر الضخم. وقد وزعت على نطاق واسع، ولا شك أنها وزعت بالمجان كذلك.

وقد ذكر لي بعضهم إن هذه النسخة قد وزعت في فرنسا وأنه عرف ذلك عندما احتدم النقاش بينه وبين شخص آخر فاستدل بحديث رواه البخاري، هذا الحديث الذي خلت منه النسخة الموزعة. ولهذا السبب يمكن أن نفسر أخذ الدكتور التيجاني السماوي - وهو متشيع معاصر - لنسخته من الصحيح، عندما أراد أن يناقش قاضيا استدعاه، وذلك خوفا من أن يطلع عليه القاضي بنسخة أخرى تخلو من شواهد الاستدلال.

وقد ذكر الداعية الإمامي السيد علي البدري أنه كان يحفظ الأحاديث من

مصادرها، ويحفظ معها الطبعة والسنة ودار النشر لأنه حدث خلاف كبير وتحوير في طبعات جديدة. لذلك فقد بدأ البعض من أبناء الصحوة الإسلامية يبحث عن طبعات قديمة، لصحيحي البخاري ومسلم عساها تكون قد نجت من التحريف والتزوير. ومن عجيب ما سمعت أن شيعيا إماميا في السعودية هجمت على منزله المخابرات وفتشت مكتبته ولم يأخذوا منها سوى نسخة قديمة من صحيح البخاري كان قد اقتناها من خارج المملكة؟!.

إن من المؤسف حقا أن أحدا من المفكرين، إلى حد الآن لم يقم بمتابعة هذه الظاهرة التحريفية لتراث الأمة. وذلك بمراجعة على الأقل مصادر الحديث المعروفة التي طبعت. سواء داخل المملكة السلفية أو خارجها، ومقارنتها بنسخ قديمة أو مخطوطة لمعرفة مدى التزام هؤلاء بالنزاهة والأمانة في حفظ التراث الديني للأمة. وإن كنا نشعر بنوع من الارتياح وعدم الخوف على هذا التراث من الضياع، لأن مطابعا ومكتبات في القاهرة واستنبول وطهران والنجف الأشرف تحتضن هذا التراث، وتحرص على طباعته وإخراجه للناس دون زيادة أو نقصان.

كما أن المكتبات الشخصية لعلماء أهل السنة والشيعة الإمامية، تحتوي على النسخ الأصلية لأهم مصادر التراث الإسلامي. ولكن المشكل هو في قدرة الحركة السلفية اليوم على إغراق الأسواق بالنسخ الجديدة والمعدلة، وبيعها بأسعار رخيصة أو توزيعها بالمجان، مما يجعل أبناء الصحوة الإسلامية يقتنونها ويعتمدونها دون غيرها.

طبعات محرفة لمغني ابن قدامة وصحيح مسلم:

وأخيرا يقول محمد نوري الديرثوي: إن «التحريف وحذف الأحاديث شأن السلفية وديدنهم. إن نعمان الآلوسي حرّف تفسير والده المكرم علامة العراق الشيخ محمود الآلوسي «تفسير: روح المعاني» ولولا تحريفه لكان التفسير الفريد وجامع الجوامع. وأما الحذف والسلخ للعبارات والأحاديث فحدث عنه ولا حرج:

لقد طبعوا المغني لابن قدامة الحنبلي فحذفوا منه مبحث الاستغاثة. وطبعوا شرح صحيح مسلم فسلخوا منه أحاديث الصفات.

هذا ما عثرنا عليه من خيانتهم العلمية وقبيح عملهم، وسيحاسبهم الله على سوء صنيعهم وهو مطلع عليه وإن خفي عنا[١].

إن عملية حذف الأحاديث من أمهات الكتب الحديثية عملية تحريفية مضللة وخطيرة، لكن كشفها يمكن أن يكون متيسرا وذلك بمقارنة النسخ بعضها ببعض.

اختصار أمهات الكتب والمصادر:

لكن العقل السلفي اكتشف طريقة أخرى لإلغاء الأحاديث والروايات المخالفة. وهذه الطريقة كان قد عمل بها قديما. فالكتب التي تكون ضخمة يقوم العالم أو الفقيه باختصارها. وهكذا ظهرت «المختصرات» في جميع الميادين الفكرية. اختصرت كتب التاريخ الطويلة، كما اختصرت موسوعات الحديث، وشمل هذا الاختصار أيضا كتب الفقه والأدب.

أما الآن فإننا نعتقد أن عملية الاختصار التي يقوم بها بعض كتاب السلفية وراءها ما وراءها؟! خصوصا اختصار السيرة النبوية وكتب الحديث[٢].

---

(١) محمد نوري الشيخ الديرثوي، ردود على شبهات السلفية، مطبعة الصباح ط ١ - ١٩٨٧ ص ٢٤٩.
ويقول في الصفحة ١١١ عن نعمان الآلوسي أنه «كان على عقيدة ابن تيمية وحرف تفسير والده (روح المعاني) بعد وفاته وحشاه بآراء ابن تيمية وأمثاله. وجاء في ذيل مقالات الكوثري لأحمد خيري قوله في نعمان:» وهو ليس بأمين على طبع تفسير والده، ولو قابله أحدهم بالنسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راغب باشا باسطنبول. وهي النسخة التي أهداها إلى السلطان عبد الحميد خان - لوجد ما يطمئن إليه. على ما في «تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم»: للعلامة الكوثري، مطبعة الأندلس بحمص، ص ٤٢٥.

(٢) أنظر مختصر صحيح مسلم للمنذري ومقدمة الشيخ ناصر الدين الألباني السلفي وما ذكره في هذه المقدمة من الحط على المذاهب الفقهية وخصوصا المذهب الحنفي.
والسلفيون يغتنمون مثل هذه المقدمات لنشر الفكر السلفي.

وهذه العملية وإن كانت علمية في الأصل ولا إشكال على ممارستها.

فإنها قد تصبح مدخلا يلج منه السلفيون للقيام بعملية تحريفية واسعة النطاق.

فقد يحذفون من السيرة النبوية كل ما لا يتناسب مع مذهبهم. كما يتم تشطيب وإلغاء الأحاديث التي يتشبث بها خصومهم. وعليه سيظهر مختصر صحيح البخاري لا يجد فيه المخالف للسلفية أي مستند. وهكذا بالنسبة للسيرة النبوية، ففضائل أهل البيت مثلا، سيتم التخلص منها بيسر وسهولة.

أما كتب التواريخ فلا نشك أنها ستصبح أموية أكثر من اللزوم. لأن من يعتقد في يزيد ابن معاوية الفاسق أنه كان أميرا للمؤمنين واجب الطاعة. لن يرضى بما كتبه المؤرخون في وصف حاله من الفسق والفجور وصولا إلى الكفر[(١)].

ولا شك أن هذه المختصرات ستكون بمثابة إعادة كتابة التاريخ وفقا لأهواء حشوية الحنابلة. ولو تسنى لهم أن يفعلوا ذلك تحت جنح الظلام وينشرون نتائجه في الأوساط الإسلامية المتلقية، فإن الكارثة ستكون مهولة، وعملية التحريف ستبلغ مداها الأقصى. وستتحول الأكاذيب والخرافات في تاريخ الإسلام إلى حقائق تعتنقها الملايين من المسلمين.

---

(١) يقول الكاتب والصحفي نبيل فياض: في الإطار التدجيلي ذاته. صدر عن «وزارة المعارف - المكتبات المدرسية» في تلك الدولة الوهابية. كتابا حمل عنوان «حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية» مليئا بالأكاذيب، يهدف أصلا إلى غسل عقول الأطفال، وتهيئتهم كي يتحملوا «شرعيا» مظالم الحاكم مهما كان فاسدا، فاسقا. فما هي حقائق أمير المؤمنين هذا، الذي خرج منتصرا من كل معاركه مع معارضيه من المسلمين؟ قال ابن كثير: «اشتهر يزيد بالمعازف وشرب الخمور، والغناء والصيد واتخاذ القيان والكلاب والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخمورا. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به... إلى أن قال: وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل أن بسبب موته إنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته». ابن كثير. البداية والنهاية ٨ / ٢٣٦. أنظر، يوم انحدر الجمل من السقيفة، الطبعة الثالثة ١٩٩٥ م، ص ١٤، ١٥، ١٧.

وستصبح الأحاديث المكذوبة والمختلقة صلب العقائد الإسلامية. ولا ضير إذن من أن يعيد التاريخ نفسه. فلولا مثل هكذا عمل، لما أصبح عيسى ابن مريم إلها يعبد في الأرض بدل الله عز وجل. وها هي الملايين اليوم تعتنق المسيحية أو الصليبية وتتدين بدين لا علاقة له بنبي الله عيسى عليه السلام بالمرة.

ونحن إذ نحذر من هذه «المختصرات» نؤمن بوجودها في تاريخ الإسلام.

ولكن ذلك العهد ولى، حيث كان يمكن الركون إلى صدق أصحابها وموضوعيتهم. أما الآن فإن «دعاة السلف» يكذبون على الأحياء الذين يعاصرونهم وينسبون إليهم أقوالا وأفعالا هم بريئون منها. وإذا كانوا يستحلون الكذب على خصومهم فلا مانع لديهم من تصحيح التاريخ، وتنظيف كتب الحديث من كل ما يرفضه الفكر السلفي.

فعلى أبناء الصحوة الإسلامية أن يأخذوا حذرهم، وأن ينتبهوا جيدا لمثل هذه المختصرات. وأن يبحثوا عن هوية الكاتب المذهبية، ومصدر الطباعة والنشر. وإن كنا ندرك صعوبة ذلك، لأن المئات من المرتزقة يقومون بهذا العمل لصالح المؤسسة السلفية، ولا يمكن معرفتهم. وكذا دور النشر، فإن هناك صعوبة واقعية في تحديد ميول أصحابها ومن يدفع لهم المال لقاء فعلهم هذا. وبالجملة فإن الاطلاع الشامل والقراءة المتنوعة لكتب الأصدقاء والخصوم كفيلة بإيضاح الطريق أمام المخلصين من أبناء الصحوة الإسلامية.

البحوث الجامعية في خدمة التحريف:

وفي نفس السياق أي تنقية التراث الإسلامي مما يخالف مذهب «حشوية الحنابلة» أو السلفية، نجد دراسات وبحوثاً لنيل شهادات عليا من الجامعات السلفية قد أخذت على نفسها محاكمة بعض الكتب المهمة التي تنشر عقيدة أهل السنة والجماعة بالخصوص. ومحاولة الرد عليها وتوجيه محتواها بطريقة تتناسب في النهاية وعند الاستنتاج العام مع ما يذهب إليه السلفية من عقائد وآراء. نذكر على

سبيل المثال كتاب «البيهقي وموقفه من الإلهيات» للدكتور السلفي أحمد بن عطية الغامدي الأستاذ المساعد في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

السلفيون يحاكمون التراث الإسلامي:

فمما لا شك فيه أن كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي هو أحد أمهات الكتب في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة من الأشاعرة. وهو في الوقت نفسه وثيقة مهمة لبيان كذب شيخ الإسلام «ابن تيمية» في كثير من أقواله وإجماعاته وتقريراته العقائدية. لأن البيهقي ذكر مجمل الأحاديث والروايات وأقوال الصحابة والتابعين، والأئمة «السلف» فيما يخص موضوع الصفات الإلهية وموقف السلف منها، تأويلا وإثباتا أو تعطيلا. الشئ الذي جعل دعاة السلفية يقفون أمام مصدر تراثي ثري بالمعلومات والنقول عن الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب، ينقض عقيدتهم ويسفه آراءهم.

بل إن الاطلاع على هذا الكتاب يظهر مدى تهافت العقيدة السلفية.

لذلك اتجهت حراب السلفية لطعنه. وذلك بإعادة قراءته ومحاكمته على ضوء مذهب «السلف». ومنهج الدكتور في هذه القراءة والمحاكمة هو عرض كل المسائل التي ذهب البيهقي فيها مذهبا يخالف عقيدة ابن تيمية. ثم الرد عليها بما يقوله السلف ودحض حجتها. ويجب أن يعلم أن المقصود من السلف في طول الكتاب وعرضه هو رأي ابن تيمية لا غير وللقارئ أن يراجع ليتأكد من صدق ذلك.

يقول الدكتور السلفي»كان في تعليقاته – أي البيهقي – وإيضاحه لمسائل العقيدة، قد رضي أن يكون المذهب الأشعري هو السائد على آرائه. مع استقلاله عن الأشاعرة ببعض الآراء في مسائل مهمة متبعا طريقة السلف فيها وراضيا بمذهبهم[١] وطريقة السلف هنا هي رأي ابن تيمية لا غير. يقول الدكتور: «ثم إن

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات، الدكتور أحمد بن عطية بن علي الغامدي، ط ٢ المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي المملكة العربية السعودية، ص ٥٨.

البيهقي - رحمه الله - ينكر أن يكون كلام الله تعالى بحرف وصوت.. وهو بهذا يتفق مع الأشاعرة.. أما السلف فإنهم يقفون من رأي البيهقي في مسألة الحرف والصوت موقفا معاكسا لأنهم يرون أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت»[١]. وعند التحقيق تجد أن هذا الرأي لشيخ الإسلام. وأنه هو المقصود بالسلف.

مثال آخر لمحاكمة الدكتور كتاب «الأسماء والصفات»، فبعد ما يعرض لكلام البيهقي بخصوص قدم القرآن، ورأي أهل السنة في ذلك يقول «وهذا الرأي الذي تبناه البيهقي يخالف ما عليه سلف الأمة في هذه المسألة، حيث يرون إن كلام الله تعالى قديم النوع حادث الآحاد. وإن الله متكلم متى شاء كيف شاء»[٢]، وهذا الرد يكاد يكون حرفيا نقلا عن ابن تيمية. وهكذا دواليك. فكلما جاء البيهقي برأي يخالف ما عليه السلفية رد عليه الدكتور بقول ابن تيمية وحتى وإذا وجد رأي يدعم العقيدة السلفية لغير شيخ الإسلام، فإن الدكتور الباحث يعدل عنه لرأي الشيخ. يقول في معرض نقاشه لأحد المسائل «مع أنه رأي لبعض السلف كما ذكرت إلا أنني اخترت القول بالتفصيل الذي ارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله»[٣].

وهكذا تتم محاكمة تراث المذاهب الإسلامية بميزان وحيد وقاطع هو رأي ابن تيمية «السلف»، فما وافق رأي «شيخ الحنابلة» فهو رأي السلف الصالح وهو الحق المحض. وما خالف ذلك فهو ليس رأي السلف وهو الباطل المحض.

والدكتور المؤلف عندما يذكر آراء ابن تيمية ويصفها برأي «السلف» وقول السلف. إنما يؤكد ما توصلنا إليه في المقدمة عند التعاريف، بأن مذهب السلف ليس سوى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية مضافة إلى المذهب الحنبلي.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) نفسه، ص ٢١١.

(٣) نفسه، ص ٣٣٢.

وهذه الأمثلة التي جئنا بها ونحن نناقش مسألة التحريف. إنما تدخل ضمن هذا الباب - تحريف التراث - فعندما يقول المؤلف أن رأي السلف في هذه المسألة كذا، يتبادر لذهن القارئ العادي أنه يقصد الصحابة أو التابعين أو أئمة الإسلام ممن عاش في القرون الثلاثة الأولى من عمر الإسلام. لكن الحقيقة أن هذه الكلمة»السلف»لا تعني أكثر من «رأي ابن تيمية لا غير» وهذا تحريف وتزوير وتلفيق، بخلاف الحقيقة والواقع. وإيهام القارئ بصحة رأي «السلفيين» لأنه منسوب لأناس يفترض أنهم أعلم، لأنهم أقرب عهدا برسالة الإسلام. والاستهانة برأي علماء المذاهب الأخرى عندما يعلم القارئ بأنها تخالف آراء السلف.

ونحن على يقين بأن دعاة السلفية اليوم لو تنازلوا عن لقب «السلف» وأتباع السلف، ودعوا لآرائهم ومعتقداتهم كما هي عليه حقيقة. آراء وأفكار فقهاء وأتباع المذهب الحنبلي وبالخصوص آراء ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية، فإن أبناء الصحوة الإسلامية سيجدون أنفسهم أمام مجال واسع ورحب للاختيار والمقارنة بين اجتهادات العلماء وآرائهم في جميع المذاهب الأصولية والفروعية.

ولن تكون الساحة حكرا آنذاك على رأي مخصوص لمجتهد واحد. كما أن الادعاء بأن الحق المطلق والمحض هو إلى جانب مجتهد دون آخر تصبح دعوى تحتاج إلى الكثير من الأدلة. وطبعا هذا لن يكون في صالح الدعوة السلفية.

ولو علم أبناء الصحوة الإسلامية في أنحاء العالم أن سلفيتهم لا تتجاوز تقليد المذهب الحنبلي في الفروع والأصول. وإنهم آخر المطاف يشكلون شريحة من أتباع فقيه حنبلي عاش في القرن السابع ليس إلا. فمن المؤكد أن موجة الدعوة السلفية ستعرف انحصارا كبيرا وتقهقرا عظيما، لأن أحدا عند ذاك لن يستطيع أن يثبت بأن ابن تيمية كان أعلم وأفهم للإسلام من أبو الحسن الأشعري. هذا الرجل الذي ولد ومات في الزمن السلفي حقا. وكذا لن تجد من يجرؤ على مقارنة هذين الرجلين بجعفر بن محمد الصادق الإمام السلفي الكبير الذي كان يقول: «عن أبي عن

جدي.. عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ويدرج الحديث. وقد شهد له الأعداء قبل الخصوم بالأعلمية والتفوق. وغير ذلك من الحقائق التي يحاول ضباب الدعوة السلفية أن يحجبها عن عيون أبناء الصحوة الإسلامية.

يقول العلم، ويرى السلف؟!:

وقبل أن أنتقل إلى مناقشة وإيراد أسلوب آخر من أساليب هذه الفئة في تحريف تراث المسلمين. تحضرني قصة ترجع إلى زمن بعيد. كنت يومها طالبا في الثانوية العامة وكان مدرس مادة الفلسفة ماركسيا، ولما كان المنهج يتضمن دراسة الفلسفة الماركسية فقد وجد هذا الأستاذ الفرصة لنشر أفكاره والدعوة إليها، وقد كنت إلى جانب بعض الطلبة نتصدى له أثناء النقاش ونرد على أفكاره ونفندها. لذلك كان هذا الأستاذ يجد صعوبة بالغة في إيصال ما يريد إيصاله إلى باقي الطلبة، من مدح للأفكار الماركسية. لذلك فقد غير أسلوبه في العرض والمناقشة. وعندما بدأ يشرح «المادية الجدلية» ليثبت مبدأ التناقض الطبيعي والتغير الدائم، كان يقول «لقد أثبت العلم كذا» و«يقول العلم كذا»، وكنا نحن نقف مشدوهين أمام قوله «لقد أثبت العلم كذا، ويقول العلم» لأن أحدا لا يجرؤ على مخالفة العلم. في الوقت الذي كان يتكلم فيه عن قوانين المادية الجدلية.

وفي إحدى الحصص وهو يتكلم عن العلم وكيف إن التناقض في الطبيعة قانون علمي و.. و.. و.. «تذكرت قول السيد باقر الصدر الذي ذكر في كتابه «اقتصادنا» إن بعض الماركسيين عندما يكتبون أو يتكلمون عن المادية الجدلية يقولون يقول «العلم» وأثبت «العلم» ويقصدون بذلك «المادية الجدلية الماركسية» وليس العلم بمعنى ما يصدر من نتائج عن البحوث العلمية في المختبرات ومعاهد البحث والدراسة.

فهم يعتقدون بأن جدلية ماركس المادية هي قانون علمي. وقفت حائرا هل

أسأل الأستاذ ماذا يقصد بالعلم؟! وانتابني الشك والخوف معا فقد يكون يقصد بالعلم حقيقة وليست «المادية الجدلية»، وبالتالي سأضع نفسي في موقف حرج لا أحسد عليه، ربما كانت له عواقب وخيمة على علاقتي بهذا الأستاذ. لكني تحررت من الشك والتردد واتجهت بسؤالي نحوه قائلا. ماذا يقصد الأستاذ بـ«العلم» عندما يقول «لقد أثبت العلم»؟! وما كدت أنهي سؤالي، حتى فوجئت بالأستاذ وقد وقف باتجاهي قائلا لي بلهجة عامية ما معناه: إن كنت قد عرفت المقصود فالزم الصمت! وفعلا التزمت الصمت. وأنا أحمد الله في نفسي بأني وفقت في الكشف عن هذا الأسلوب التزويري لإيصال العقائد والأفكار إلى الناس.

لا شك أن القارئ قد أدرك المقارنة التي من أجلها تعمدت ذكر هذه القصة الواقعية. فإذا كان الماركسيون يدعون إلى آراء ماركس تحت عنوان «يقول العلم» فإن دعاة المذهب الحنبلي الحشوي يدعون إلى آراء ابن تيمية الحراني تحت عنوان «مذهب السلف» وكلاهما يريد أن يحرف الحقائق ليصل إلى عقول العامة والخاصة. فما دامت الغاية تبرر الوسيلة فلا بأس من سلوك هذه الطرق الملتوية وركوب هذه المطايا المضللة. لكن الأسلوب الأخطر، الذي نجم عنه تحريف واسع النطاق، وتغييب الكثير من الحقائق لم يكن في حذف الأحاديث عند الطباعة، أو الاختصار فقط.

إعادة كتابة التاريخ:

ولكن موجة التأليف والكتابة في المواضيع الإسلامية العامة. التي لجأت لإعادة كتابة التاريخ بطريقة انتقائية. يحرص فيها المؤلف على ذكر ما اتفق عليه سلفا من خصائص المذهب وميوله السياسية وآرائه العقائدية. لقد كان المؤرخ القديم موسوعيا يضم في تأليفه كل الآراء تقريبا. فيجمع مجمل الأحاديث والأقوال المختلفة في الحادثة الواحدة. وفي الغالب الأعم لا يقوم بالترجيح أو التحقيق إلا نادرا. وكذا كان المنهج في موسوعات الحديث النبوي. لكن الكتابات الحالية التي

تغزو الأسواق، شديدة الانتقاء والتنقية من الشوائب غير المرغوب فيها. وصولا إلى تحريف الحقائق، والإيهام الذي يجعل القارئ يستنتج بعض الأفكار والآراء بخلاف ما هي عليه في الواقع.

فلو تعرض بعضهم للحديث عن الخلافة مثلا وكيف تمت البيعة لأبي بكر الصديق. سيكتب بأن المسلمين بعد وفاة رسول الله اجتمعوا قاطبة وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه قائلين: لقد ارتضاه الله لديننا فكيف لا نرضاه لدنيانا، وكان الرسول صلى الله عليه وآله قد قدمه للصلاة أثناء مرضه. ثم يمر مرور الكرام على هذه الحادثة، بعد ما يكون قد أغرق في المدح وبيان فضائل الرجال. لدرجة تحسبه يتكلم عن الملائكة المعصومين وليس عن البشر الخطائين.

أما إذا ما رجعت إلى مصادر التاريخ لتطلع على أحداث انتقال الخلافة إلى أبي بكر الصديق فستجد خلافا شديدا بين الصحابة وتناحرا ومؤامرات شخصية وجماعية أودت بقتل بعض الصحابة. وإن عمر بن الخطاب مثلا كان قد اعتبر خلافة أبا بكر فلتة وقى الله المؤمنين شرها. إلى ذلك من الأخبار والحكايات التي تطعن في أي إجماع مدعى. وعندما يتكلم عن حادثة مقتل عثمان، يكتب عن مظلومية هذا الخليفة الذي كانت الملائكة تستحي منه. وأن مجموعة من شداد الآفاق هجموا عليه في منزله وقتلوه ظلما وعدوانا.

وعليه يتم اختصار أحداث التاريخ بشكل عجيب. ولا يعرف القارئ سوى أن الخليفة الثالث قد قتل مظلوما. أما أنه كان ظالما وأنه خص قرابته بالولايات المهمة. ووزع عليهم أموال المسلمين، وما نشأ عن ذلك من ظلم للرعية. وغير ذلك من المظالم الكثيرة التي سجلها التاريخ. وسجل كذلك ردة الفعل الاجتماعية على هذا الظلم. فقد شارك في قتل عثمان بعض الصحابة وأبنائهم، وأم المؤمنين عائشة كانت تنادي اقتلوا نعثلا فقد كفر. وقد شارك محمد بن أبي بكر الصديق في قتله وإن لم يكن قد باشر ذلك، فقد أمر به وغير ذلك من الأحداث المؤلمة؟!.

عالم تتقاسمه الخرافة والمثل:

والغريب في هذه الكتابات، أنها تكتب تاريخا رائعا من الإجماعات والتسالم والتكامل والتعاضد بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسولﷺ. كما وتتكلم عن أغلب من أطلق عليهم «صحابة» وكأنهم ملائكة لم ولن يخطئوا. فلم يصدر عنهم إلا الخير والصلاح. مما يجعل القارئ ترتسم في ذهنه صور مثالية عن هؤلاء الرجال وعن حقبتهم وتاريخهم، صور ملائكية هي أقرب إلى عالم الخرافة من عالم الحقيقة والواقع.

وكأن هؤلاء الكتاب يكتبون عن عالم يحلمون به، عالم خال من الشرور والأهواء والمصالح الشخصية. ولكن المشكلة هنا ليس في الحلم أو الرغبة في عالم مثالي ملائكي يسود فيه الحق والخير. ولكن عندما نتكلم عن هذا الحلم أو المثال على أنه وجد على الأرض وتمثل في نماذج الصحابة ومجتمعهم، خصوصا بعد وفاة الرسولﷺ. مما يجعل أبناء الصحوة الإسلامية ينشدون هذا الحلم، الذي يعتبرونه واقعا حدث ذات يوم ويمكن إعادته أو تكراره. في الوقت الذي تكون حقيقة هذا الواقع مسطورة ومختلقة على الأوراق فقط.

وهذه الكتابات المزيفة للواقع هي التي جعلت أبناء الصحوة الإسلامية يحلمون بالخلافة الراشدة، ويسعون لإعادة نموذجها المثالي. لكن هيهات، هيهات!! إن الواقع ليس كما يسطره الكتاب اليوم. والذي قيل إنهم يفعلون ذلك، لإعادة الاعتبار للذات المسلمة. وإخراج المسلم من حلقة اليأس الذي يعيش فيه، نتيجة الهزيمة الحضارية. وذلك بالحديث عن تاريخ حضاري مشرق. كما أن هذا الأسلوب أستخدم لدعم المواجهة الحضارية بيننا وبين الغرب. وخلق سد منيع أمام الغزو القيمي الغربي، وذلك بخلق الانطباع بالتفوق الأخلاقي والقيمي للحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية المعاصرة.

ونحن وإن كنا لا نمانع من تقوية الجبهات الداخلية والخارجية للأمة في

مواجهتها الحضارية الشاملة مع الغرب. فإننا لا نرضى أن يكون ذلك على حساب الحقيقة وتزييف الوقائع، وهذا لا يقتصر على مثال «الخلافة الراشدة» ولكن على مجمل التاريخ الإسلامي.

إن عرض الجانب المضئ من تاريخنا، وغض الطرف عن الجانب المظلم، يعد تحريفا للواقع والتاريخ. ولن يثمر سوى ردة فعل قاسية، إذ ما اطلع أبناء الصحوة على حقائق الأمور؟. إنهم يتكلمون عن واقع اجتماعي لا وجود له إلا في خيال من يكتب عنه، ويتكلمون عن ورع وصدق وعلم «أمير المؤمنين»[1] فلان الخليفة، وأنه كان يصلي ألف ركعة في اليوم وكان يواسي الفقراء وينصف المظلومين، في الوقت نفسه الذي يكون صاحب هذه الأوصاف المذكورة أحد طغاة التاريخ الإنساني، قد قام كرسي خلافته على جماجم الآلاف من المظلومين والضحايا من الرجال والنساء والأطفال.

---

(١) أنظر ما يقوله السلفي عمر بن أحمد الأحمد عن الخليفة العباسي المتوكل على الله «لقد شبه بعض المؤرخين عصر المتوكل بعصر الصديق لقتله أهل الردة لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين، وبعصر عمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية، وقد أظهر الحسنة بعد البدعة، وأخمد أهل البدعة وبدعهم بعد انتشارها واشتهارها فرحمه الله... رحم الله الخليفة المتوكل رحمة واسعة الذي قتل سنة (٢٤٧ هـ)، فلقد حرص على توحيد كلمة المسلمين، لأنهم يد واحدة على من ناوأهم وعاداهم وعادى طريقة السلف طريقة أبي بكر وعمر وهي الطريق الحق، فعليك بها وإياك وبنيات الطريق". مجلة الأصالة العددان ١٥-١٦، ١٥ ذي القعدة ١٤١٥هـ ص٩٣.

إن هذا الخليفة الذي يترحم عليه هذا السلفي المعاصر كان طاغية عصره وقد ذكر المؤرخون عن مجونه وإدمانه الخمر وفسقه الكثير، بالإضافة إلى أنه كان ناصبياً يبغض الإمام علي بن أبي طالب وأهل بيته. وقد اتفق العلماء على أن المبغض لأهل البيت في حكم الكافر. أما قوله «نصر الحق ووحد كلمة المسلمين» فلا مصداق له سوى أن هذا الخليفة أوقف امتحان الفقهاء والعلماء في قضية «خلق القرآن». وانتصر لأهل الحديث «الحشوية منهم بالخصوص» أو ما يسمى اليوم السلفية. يقول أبو بكر الخوارزمي: ليس من فرق الإسلام فرقة إلا وقد هبت لأهلها رويحة، ودالت لها دولة كما اتفق المختار للكيسانية والمعتصم والواثق للمعتزلة. والمتوكل للنواصب والحشوية». رسائل أبي بكر الخوارزمي ص١٧٨. ولكي يعرف القارئ حقيقة هذا الخليفة الذي يترحم عليه السلفية اليوم ما عليه إلا أن يراجع مصادر التاريخ المعتمدة ليرى كيف عاش وكيف قتل ومن قتله ولماذا؟!.

ولا بد أن أشير هنا إلى أن أبناء الصحوة الإسلامية إن لم ينتبهوا لهذه الحقائق، فبسبب الأوضاع التي يعيشونها. فالمظلوم يحب سماع قصص العدل، ويكون أقرب الناس إلى تصديقها وإن كانت خيالية. لأنها تعالج ولو بشكل وهمي ما يعانيه من ظلم، وتفتح أمامه باب الأمل في تحقيق العدالة الاجتماعية غدا.

لقد اتسع الخرق على الراقع في هذا الميدان. وهناك مئات العناوين والكتب التي تتعرض لتاريخ الإسلام أو حياة الصحابة والخلفاء، أغلبها لا يستفيد من الوقائع المسطورة في المصادر المهمة إلا بمقدار قد لا يتجاوز النصف. كما أن إعادة كتابة التاريخ من طرف أستاذة ومفكرين مصريين[1] بالخصوص جاءت مبسترة وتنقصها حقائق مهمة كثيرة، كان من السهل على هؤلاء الكتاب إدراجها أو الإشارة إليها. لكن الغاية كانت كما ظهر بعد ذلك، أن هؤلاء تعمدوا أخفاء هذه الحقائق أو الوقائع. أما عذرهم فهو كما قيل، عذر أقبح من ذنب.

طرق ملتوية وغامضة:

ويمكن أن نضيف كذلك إلى وسائل تحريف التراث. تلك الكتب الفخمة التي يؤلفها الكتاب السلفيون ردا على أهل السنة والصوفية أو الشيعة الإمامية.

فهي إلى جانب تعمد التحريف المباشر، والكذب عند النقل، وتحرير النصوص، تسلك طرقا ملتوية وغامضة في نقض حجج القوم. والمهم أن هناك إجماعا حقيقيا على أن كتب الرد السلفي على أهل السنة والإمامية لا يمكن اعتبارها ردودا علمية. فاقرب هذه الكتب - الردود - إلى الموضوعية تعني خلوها بعض الشيء من السب والشتم والقذف. أما الكذب والتحريف فإنها تكاد لا تمتلئ إلا به. وعلى من يريد معرفة طرقهم التحريفية أن يأخذ الكتاب الأصلي ويقرأه بجانب كتاب الرد السلفي.

---

(١) نذكر منهم أحمد أمين في سلسنته التاريخية ضحى الإسلام وفجر الإسلام وظهر الإسلام وغيرها.

ونعتقد أن قارئا نبيها ومتوسط الاطلاع، يستطيع أن يكتشف حيل القوم وألاعيبهم. كما أن كثيرا من هذه الكتب تؤلف بأسماء مزورة لا وجود لها.

ويظهر ذلك يقينا في الكتب الضخمة الكثيرة المصادر والاستشهادات فإن أكثر من مؤلف وربما مجموعة كاملة من المفكرين قد اشتركوا في تأليفها.

فبعض الأعمال تتطلب سنين طويلة من البحث والكتابة، وإذا ما كلف بها شخص واحد. وقد أشار الدكتور البوطي إلى هذه المسألة عندما شك في كتاب «المذهبية المتعصبة هي البدعة» الذي ألفه بعض السلفيين - قد يكون لناصر الدين الألباني السلفي السوري أو مجموعة - لكنه طبع باسم سلفي معين.

لذلك لم ينس الدكتور البوطي - وقد تأكد من الأمر - أن يشير إلى ذلك في آخر كتابه حيث قال: «وبعد فليسامحني الأخ الذي دمغ المؤلفون كتابهم هذا باسمه، إن لم ألتفت إليه بشيء من القول»[1].

وبعد، لا يمكن أن ندعي أننا عرفنا كل الطرق والوسائل التي استخدمها بعض السلفيين في تحريف التراث وتزوير حقائقه. فمما لا شك فيه أنهم ابتدعوا ويبتدعون كل يوم وسائل جديدة، لإبراز عقائد واجتهادات المذهب الحنبلي، والترويج لها، على أنها الحقائق الإسلامية المطلقة. وأنها المذهب الحق الذي يجب اعتناقه واتباعه ونبذ ما سواه.

لكننا استطعنا أن ننبه القارئ وخصوصا أبناء الصحوة الإسلامية إلى خطورة ما يقوم به بعض دعاة السلفية اليوم. وأن هذه العملية التحريفية الكبيرة للتاريخ والحقائق الإسلامية. تعتبر السبب الحقيقي وراء التعصب المذهبي المقيت، وانتشار الفتن الطائفية، وما يتبع ذلك من تمزيق لوحدة الأمة الاجتماعية والدينية.

***

(١) اللامذهبية، ص ١٤٠.

السلفية وجهة نظر بدوية

بين حران ونجد:

عرف الإسلام عبر تاريخه الطويل تفسيرات وتأويلات متعددة، نشأت عنها المدارس الفقهية والأصولية المختلفة. وكان لكل مدرسة جذورها الفكرية والواقعية التي تغذيها وتصبغها بلون خاص، يؤكد خصوصيتها وتميزها.

والمدرسة السلفية كاجتهاد ووجهة نظر في الإسلام، لها ما يميزها كذلك.

وأهم ما لا حظه الباحثون، الجذور العميقة لأصحابها في البداوة. فإذا كانت «حران» مسقط رأس ابن تيمية، الأب الشرعي للحركة السلفية. فإن «نجد» ستكون ليس فقط مولد الزعيم السلفي الثاني للسلفية والقائم بأمر دعوتها. ولكن موطن هذه الحركة والرحم الطبيعية التي تفرخ الأتباع والأفكار.

أما أهم ما يجمع بين حران ونجد فإنها الطبيعة الصحراوية. حيث الجفاف والبعد عن المدنية، لذلك تميز سكانها بالعراقة في البداوة، ولم تعرف المنطقتان على طول التاريخ الإسلامي أية حركة مدنية واسعة أو تمركز عمراني حضاري، خصوصا بلاد نجد التي كانت وما زالت موطنا لقبائل البدو الرحل الذين يتنقلون بحثا عن الكلأ والخضرة طوال السنة.

ونحن عندما نسلط الضوء على الخلفيات الجغرافية والبشرية للحركة السلفية، نفعل ذلك للكشف عن جذور بعض الظواهر الفكرية والسلوكية التي تتميز بها هذه الحركة، والتي لا يمكن معرفتها وتحليلها، إلا بإرجاعها إلى منطلقاتها الأصلية. والبداوة الصحراوية بالخصوص لها مميزات خاصة يعرفها كل من درس حياة البدو

الصحراويين أو عايشهم. فقساوة الطبيعة وشظف العيش، والبحث الدائم والمستمر على المرعى والماء، وما يتبع ذلك من حياة عدم الاستقرار والمخاطر الدائمة، كل ذلك ينطبع على سلوكيات الأفراد - البدو - ويظهر جليا في معاملاتهم وتفكيرهم. فالجفاء والغلظة والقسوة وبساطة المعرفة والحرمان من إيجابيات المدنية والحضارة، كلها صفات وأوضاع يعرفها هؤلاء البدو، ويتمثلها صغيرهم بعد كبيرهم.

لذلك لما كانت نجد منطلق الدعوة السلفية وكان أبناؤها هم جند هذه الحركة وأتباعها ودعاتها. كان لزاما أن تصطبغ هذه الحركة بكل صفات البداوة وعلى رأسها الغلظة والخشونة، بالإضافة إلى ضعف المستوى العلمي والفكري والذي يكون عادة بسيطا بل سادجا وبدائيا: يقول محمد أسد في كتابه (الطريق إلى مكة): «.. إن كثيرا من مفاهيمهم - أي الوهابية - كانت بدائية، وأن حماستهم الدينية كثيرا ما قاربت الغلو»[1]. ولا شك أن الغلو الذي عرفوا به وواكب حركتهم سببه القصور المعرفي الواضح. فلم تكن نجد قديما ولا حديثا حاضرة علمية، ومن أراد من أهلها أن يكسب حظا من العلم والمعرفة كان يهاجر إلى العراق أو الشام ومصر وكذا المدينة المنورة.

الخشونة وضيق الأفق:

وإذن فقد كانت بلاد نجد في فجر انطلاق الحركة الوهابية غارقة في الجهل والأمية والسذاجة المعرفية. لكن وبعد فترة قصيرة من الزمن سيصبح أبناء هاته

---

(١) الشيعة في المملكة العربية السعودية، حمزة الحسن، ج ٢ ص ١٣٣. ويقول صاحب النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية، عبد القادر الكيلاني الإسكندراني: «إن أتباع بن عبد الوهاب ربما يلتمس لهم عذر بأنهم جماعة قاطنون في بلاد نجد وهم بعيدون عن عالم الحضارة. لم يزالوا على البساطة والسذاجة في الفطرة. قد ساد عليهم الجهل وغلب عليهم الجفا وخشونة الطبع، لا يعرفون شيئا من العلوم العقلية ولا خاضوا في غمار الفنون العربية ولم يميزوا بين المنطوق والمفهوم بل ترى علماءهم الذين يزعمون أنهم على شيء ليس لهم وقوف على العلوم العربية اللهم إلا شيء من مبادئها..» ص ٧.

المنطقة وفجأة، علماء وفقهاء ودعاة للإسلام وعقيدة التوحيد. ليس فقط ضمن مجالهم الجغرافي، الصحراوي الضيق، ولكن لأبعد من ذلك شرقا وغربا. حيث بدأت محاكمة الإسلام والمسلمين معا، انطلاقا من معارف هؤلاء الدعاة الجدد. فما ارتضوه حقا فهو الحق، وما جهلوه فهو الباطل الذي يجب أن يرفض ويزول بحد السيف. يقول الدكتور محمد عوض الخطيب:

«انطلقت الوهابية من نظرة خاصة للإسلام احتوت على الحد الأقصى من التزمت وضيق الأفق، مسيئة الظن بالمسلمين إلى درجة اعتبارهم، بشكل مسبق مشركين وكافرين»[١].

وضيق الأفق والتزمت الذي عرف به دعاة الوهابية لم يكن بسبب المزاج الصحراوي فقط ولكن بسبب بساطتهم المعرفية وسذاجتهم الفكرية وضعف بضاعتهم في الفكر الإسلامي. يقول السيد محمد سليم الإسكندراني: «إني اجتمعت بكثير من علمائهم فوجدتهم من الجهل بمكان ومن العلم بمعزل»[٢].

وقد استغل ابن سعود هذا الجهل وهذه البساطة في فهم الإسلام عندما رسخ في أذهانهم أن حربهم للمسلمين مقدسة، حرب الموحدين ضد الكفار والمشركين وبذلك ضمن توسع مملكته وسيطرته على الحجاز وأطراف العراق والشام، وقد انتبه محمد أسد لذلك، عندما أشار إلى أن ابن سعود بقي قانعا بتعريف الإخوان إلى أبسط مبادئ الثقافة الدينية والدنيوية. والحق أنه لم يعرفهم إلى شئ من هذا، إلا بمقدار الذي بدأ ضروريا للحفاظ على حماستهم وغيرتهم، بكلمة أخرى لم ير ابن سعود في حركة الإخوان إلا وسيلة لبلوغه القوة واستتباب الحكم»[٣].

وهذه السياسية السعودية تجاه الوهابية ما زالت سارية المفعول. حيث يتم استغلال

---

(١) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ص ١٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٦.

(٣) الشيعة في المملكة العربية السعودية، ج ٢ ص ١٣٢.

دعاتها وعلمائها لخدمة السياسة الخارجية السعودية، وخصوصا لإثارة الفتن المذهبية والطائفية. وتحريف وتمييع أهداف الصحوة الإسلامية، وإشغال المفكرين الإسلاميين بالقضايا والمسائل الجزئية والهامشية في حياة الأمة. بينما يواصل الغرب والشرق التهامه الحضاري العام والاقتصادي بالخصوص لإمكانيات الأمة وثرواتها.

الفتن والخصومات المستمرة:

إن سياسة إشغال العقل الإسلامي في مناقشة القضايا الفقهية الجزئية، وبعض القضايا الأصولية المختلف فيها. والتي كتب حولها الكثير قديما، وفصل في الكثير منها، على أساس الإطارات المذهبية المتنوعة. لا يمكنها أن تأتي بطائل اليوم. سوى عرقلة مسيرة الصحوة الإسلامية، وتشويه صورتها أمام العالم، ولو بقي الأمر مقتصرا على الوضع في «نجد» وما حولها لهان الأمر، لكن ركوب الدعوة السلفية وسائط الإعلام المختلفة وانتشار دعاتها في بقاع العالم، كسياسة دينية سعودية قد جعل سلبيات هذه الظاهرة تنتشر كما تنتشر النار في الهشيم. والنتيجة كانت عدة آثار مست جسد الأمة الديني والاجتماعي. يقول الدكتور البوطي متحدثا عن بعض هذه الآثار السلبية لانتشار السلفية في العالم.

«الأذى المتنوع البليغ الذي انحط في كيان المسلمين من جراء ظهور هذه الفتنة المبتدعة، فلقد أخذت تقارع وحدة المسلمين، وتسعى جاهدة إلى تبديد تآلفهم وتحويل تعاونهم إلى تناحر وتناكر. وقد عرف الناس جميعا أنه ما من بلدة أو قرية في أي من أطراف العالم الإسلامي. إلا وقد وصل إليها من هذا البلاء شظايا. وأصابها من جرائه ما أصابها من خصام وفرقة وشتات. بل ما رأيت أو سمعت شيئا من أبناء هذه الصحوة الإسلامية التي تجتاح اليوم كثيرا من أنحاء أوربا وأمريكا وآسيا، مما يثلج الصدر ويبعث على البشر والتفاؤل، إلا ورأيت أو سمعت بالمقابل من أخبار هذه الفتنة الشنعاء التي سيقت إلى تلك الأوساط سوقا، ما يملأ الصدر كربا ويزج المسلم في ظلام من الخيبة الخانقة والتشاؤم الأليم..

ويضيف الدكتور متحدثا عن معاناة بعض الدعاة الإسلاميين المعاصرين من جراء هذه الفتنة السلفية قائلا: كنت عندما أسأل كلا منهم عن سير الدعوة الإسلامية في تلك الجهات، أسمع جوابا واحدا يطلقه كل من هؤلاء الأخوة على إنفراد، بمرارة وأسى، خلاصته: المشكلة الوحيدة عندنا هي الخلافات والخصومات الطاحنة التي تثيرها بيننا جماعة السلفية.

ويضيف قائلا: «ولقد اشتدت هذه الخصومات منذ بضع سنوات، في مسجد واشنطن إلى درجة ألجأت السلطات الأمريكية إلى التدخل، ثم إغلاق المسجد لبضعة شهور. ولقد اشتدت هذه الخصومات ذاتها واهتاجت، في أحد مساجد باريس، منذ ثلاث أعوام، حتى اضطرت الشرطة الفرنسية إلى اقتحام المسجد، والمضحك المبكي بآن واحد. أن أحد أطراف تلك الخصومة أخذته الغيرة الحمقاء لدين الله ولحرمة المساجد، لما رأى أحد الشرطة داخلا المسجد بحذائه، فصاح فيه أن يخرج وأن يخلع حذاءه. ولكن الشرطي صفعه قائلا: وهل ألجأنا إلى اقتحام المسجد على هذه الحال غير كم أيها السخفاء؟!.

وفي إحدى الأصقاع النائية – يقول البوطي – حيث تدافع أمة من المسلمين الصادقين في إسلامهم عن وجودها الإسلامي، وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتهام بالشرك والابتداع، لأنهم قبوريون توسليون ثم تتبعها الفتاوي، المؤكدة بحرمة إغاثتهم بأي دعم معنوي أو عون مادي! ويقف أحد علماء تلك الأمة المنكوبة المجاهدة، ينادي في أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجبا لأخوة يرموننا بالشرك، مع أننا نقف بين يدي الله كل يوم خمس مرات، نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: آية ٥). ولكن النداء يضيع ويتبدد في الجهات، دون أي متدبر أو مجيب![1].

---

(١) السلفية، م س، ص ٢٤٤ – ٢٤٥. كان المؤلف ممن استضافتهم رابطة العالم الإسلامي سنة ١٤٠٦ هـ للمشاركة في الموسم الثقافي وهناك التقى بالعديد من المفكرين والدعاة الذين نقلوا له معاناتهم مع الحركة السلفية.

وكيف يجد هؤلاء العلماء آذانا صاغية لدى دعاة السلفية، اليوم، وقد قتلوا بحد السيف في الربع الأول من هذا القرن الألوف من المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً. دون أن يعرف هؤلاء الضحايا ما هي جريمتهم بالضبط. سوى ادعاء السلفيين عليهم بأنهم كفار ومشركون، ولو كان فيهم علماء المذاهب الإسلامية الأخرى، ويتعبدون انطلاقا من فتاوى مذاهبهم.

لكن البداوة إذا تسربلت بالجهل، وتعممت بالقسوة والغلظة، فلا مجال لمناهضتها أو مناقشة أصحابها بالحكمة والموعظة الحسنة، ومقارعتهم الحجة بالحجة. لأن الجهل حاجز سميك يمنع أنوار العقل والفهم من اختراقه. وعليه تكون الفتنة العمياء والظلمات الدامسة. وإذا أضفنا إلى ذلك سياسة شريرة وعقول ما كرة تدعم هذا الجهل بالمال والثروة للإبقاء عليه ولاستمراريته، فإن الآثار السلبية لهذا الوضع ستكون مدمرة وغاية في الخطورة.

ما تدعو إليه الحركة السلفية:

في النصف الأول من هذا القرن عندما كانت الحركة الوهابية تبني دولتها في شبه الجزيرة العربية. كان الغرب والإنجليز بالخصوص، ساسة ومفكرين يتابعون يوميات هذه الحركة ويدرسون أفكار رجالها وعقائدهم. لكي يعرفوا مدى خطورتها، سياسيا على توسعهم الاستعماري. لذلك جاءت العلاقات السياسية المتميزة بين بريطانيا العظمى زعيمة الاستعمار آنذاك وبين الحركة الوهابية الناهضة، بمثابة ضوء أخضر لانتشار هذه الحركة واستمراريتها على المستويين السياسي والفكري.

وهذا الضوء الأخضر كان قراراً استراتيجياً انبنى على تقارير ودراسات مهمة حول الحركة الوهابية.

فمن بين الدراسات حول الحركة الوهابية، هناك دراسة قام بها الميجور ديكسون المعتمد السياسي البريطاني في البحرين، والذي زار المنطقة والتقى

بالزعماء السياسين للحركة، كما اطلع على وضع الحركة الديني والدعوي، مما هيأ له الفرصة لمعرفة حقيقة ما تدعو إليه الحركة الوهابية. وقد لخص أفكارها كالتالي:

١ - تدخين التبغ خطيئة مميتة، وإذا رأى الأخ شخصا يدخن فإنه يعتدي عليه بالضرب وربما قتله.

٢ - يجب أن يكون المنزل من طابق واحد.

٣ - يجب أن يحافظ على بساطة العيش واللباس.

٤ - يجب ارتداء عمامة بيضاء بدل العقال كعلامة على أنك من الإخوان.

٥ - لا يرد السلام والتحية إلا لأخ آخر.

٦ - إذا التقى كافر أو مشرك - حسب تصنيفهم - بجماعة من الإخوان في الشارع فإن الآخرين يغطون وجوههم بأيديهم، بدل أن يفسدهم ويلوثهم المشهد[1].

إن هذه الأفكار وغيرها من المبادئ التي شمر السلفيون ساعد الجد وأبلوا بلاءا حسنا في تبليغها ونشرها بين مواطنيهم أولا، وخارج الجزيرة بعد ذلك، هي التي جعلت الغرب الاستعماري كما قلنا سابقا ممثلا في بريطانيا، ليس فقط يغض البصر عن هذه الحركة بل يدعمها سياسيا ويحرص عليها.

التكنولوجيا والبدع:

وهي مع ذلك الحركة الأولى التي وجهت بنادقها إلى الجسد الإسلامي بحجة معالجته من المرض. فكان أن أجهزت على ما تبقي من روح التماسك والوحدة فيه. كل ذلك يجد تبريره في الجهل وسذاجة البداوة، التي كانت تحرك هذه الحركة منذ البداية. ولولا أن اليد السياسية كانت قوية وقادرة على حسم الكثير من

---

(١) حمزة الحسن، م س، ج ٢ ص ١٣٧.

الأمور لصالحها. لكانت مملكة آل سعود اليوم عبارة عن متحف أثري يقصده الباحثون لدراسة أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي سادت القرون الوسطى.

فالإخوان كانوا قد رفضوا استخدام التكنلوجيا، وامتنعوا عن التعامل مع كثير من الأجهزة والأدوات الحديثة. بحجة أنها بدع لم تكن على عهد السلف الصالح باستثناء البنادق والبارود التي أنسوا بها واستخدموها. ولا ندري لماذا هذا الاستثناء؟ أما التلفون والسيارة والبرق والإذاعة فإنها من بدع الكفار، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

لكن انفجار النفط في بلادهم وأهميته الاستراتيجية للغرب جعلت ركب المدنية ينزل بفنائهم بقوة، محاولا اختراق سكون الصحراء الأبدي. وبذلك خضع البدو لعمليات تغيير قسري، لم تتجاوز الإطار الشكلي في الغالب الأعم.

أما تغيير العقلية البدائية وصقلها بالعلم والمعرفة، فإن الأسرة الحاكمة رأت أن ذلك قد يشكل عليها خطرا ما في المستقبل. لذلك تم التركيز على محو الأمية فقط بادئ الأمر، وأتبعه بعد ذلك خطوات بطيئة جدا في نشر المعارف الإنسانية العامة، وإلى كتابة هذه السطور هناك مواد علمية مهمة ممنوع تدريسها في المملكة.

وهكذا وباسم الإسلام السلفي الوهابي تم اغتيال المعرفة الإنسانية الشاملة واحتكر الكتاب السلفي الساحة الثقافية. واعتبر أي ترويج لكتاب أو فكرة مخالفة للوهابية، بمثابة جريمة يعاقب عليها القانون والمجتمع. وبذلك تعمقت البداوة وازدادت قيمها السلبية رسوخا في مجتمع يعاني سلفا من التخلف الحضاري، وتأخره عن ركب المدنية المعاصرة.

الوهابية لأبناء الشعب فقط:

وللحقيقة فقط نقول إن الوهابية للشعب. لأبناء البدو، أما أبناء الأمراء والملوك والطبقة العليا الحاكمة، فإنهم يدرسون في كبرى الجامعات العالمية، العلوم

السياسية والإدارية والاقتصادية ويغرفون من معين الحضارة الغربية. وقد يكون القليل منهم من يعرف ماذا يعني صحيح الترمذي أو مسند أبي هريرة.

لكنهم يحسنون طبعا لهجة البدو ويلبسون العقال والكوفية ويمكنهم أن يبدأوا «الإخوان» بالسلام وينطقون البسملة في بدايات خطاباتهم. وهذا يكفي أتباع السلف للاعتراف بهم كأمراء للمؤمنين وخدام للحرمين الشريفين وهلم جرا.

إن مأساة العالم الإسلامي اليوم لا تتمثل في الهيمنة الاستعمارية الغربية عليه، وخلق العقبات والعراقيل أمام تقدمه فقط. ولكن في انتشار موجة البداوة التي انطلقت من بلاد نجد وصحراء الجزيرة العربية. فبدل من استيراد التكنلوجيا والتعرف على أسس المعرفة البشرية للنهوض والسير قدما في ركاب التقدم والمدنية. تصدر للعالم الإسلامي البداوة الصحراوية، حيث الأحقاد والتعصب وقصر النظر والسذاجة المعرفية والبساطة الفكرية.

الانتكاسة الكبرى:

لقد بدأت الصحوة الإسلامية طريقها واعدة ومبشرة بمستقبل زاهر للإسلام والمسلمين. لكنها الآن كحمار الطاحونة تدور في مكانها لا تراوحه.

لم نعد نطرح على أنفسنا السؤال المهم كيف ننهض؟ وكيف نتحرر من قبضة الاستعمار الاقتصادية والسياسية والفكرية؟ بل أصبحت مشاكلنا، وانبرى كتّابنا للتأليف في مواضيع حلق اللحية، وطول الثوب ولونه والحذاء وشكله حتى يتناسب مع ما كان عليه السلف الصالح!؟.

والعصا والمسواك، وركوب الدواب؟! ليت الخرق اتسع لهذا الحد؟ بل انتشرت الفتن الطائفية والمذهبية بين فئات المجتمع الإسلامي الواحد، حيث وقف الكفار والمشركون والمبتدعون والصوفية والرافضة وأصحاب المذاهب في صف، وجماعة السلف في الصف المقابل. وانطلقت الحروب ومعارك الجهاد والجهاد المضاد، ففي ككل تجمع إسلامي تنشب معارك طاحنة بين هاتين الفئتين. ولا مجال لإيقاف هذه

الحروب في الأمد القريب على الأقل ما دام النفط يضخ من الخليج والمؤسسة الدينية السلفية تأخذ نصيبها من ريعه لتنفقه في دعم هذه الحروب وتأجيج نارها.

لقد صدق ذلك المفكر الذي قال، نحن العرب لم نستفد من هذا البترول إلا القليل القليل، فالقسم الأكبر منه يذهب إلى الغرب ليزداد قوة وتسلطا علينا. والبقية الباقية تستخدم لدعم الشر ونشر الفساد في عالمنا العربي، فالأمراء وأغنياء البترول ينشرون الرذيلة ويدعمون الاستبداد والطغيان أينما حلوا. أما علماء الدين الذين يحصلون على نصيبهم من هذا النفط فإنهم ينشرون الأحقاد والبغضاء ويعمقون شرخ الطائفية والمذهبية.

أما الإسلام والفكر الإسلامي فإنه يعيش الانتكاسة الكبرى والضمور الواضح من يوم بدأ الإنتاج السلفي الوهابي يتسرب إلى أسواق الكتاب والمجلة والإذاعة. وما على القارئ إلا أن يقصد أقرب مكتبة منه، ليتصفح العناوين المعروضة. فلا محالة سيجد الغلبة لكتب: أهوال يوم القيامة، القيامة رأي العين، عذاب يوم القيامة. عذاب القبر، منكر ونكير. السحرة والجن، حوار مع جني مسلم، التداوي بالأعشاب، الحبة السوداء. فضائل السواك. حكم تقصير الثوب. حكم قص الشوارب.. والقائمة طويلة وطويلة جدا...

أما الكتب التي تعالج واقع المسلمين الاقتصادي والسياسي أو الاجتماعي، وتحلل وتدرس الظواهر السلبية للتخلف العام الذي نعيشه. فإنها قد اختفت من واجهات المكتبات. ويظهر أن المطابع لم تعد تطبع شيئا منها لأن الطلب عليها قد قل ولا أحد من الموزعين مستعد لتحمل أعباء الخسارة المالية إذا غامر بإصدار مثل هكذا كتب ودراسات.

وهكذا وفي خلال فترة قصيرة وتحديدا بعد زمن الطفرة النفطية، تم تصدير نموذج التخلف الفكري والواقع المعرفي داخل المملكة السلفية إلى باقي الحواضر الإسلامية. ولولا الاختلافات السياسية والأيديلوجية بين الأنظمة العربية الحاكمة

لكانت الطامة الكبرى، لأن هذا الاختلاف فسح المجال للتنوع والحرية الفكرية. بخلاف الواقع السلفي المعاش داخل الجزيرة. ومع ذلك فإن إغراق السوق الإسلامية بالكتاب السلفي كان متيسرا جدا خصوصا بعدما انتبهت الحكومات العربية إلى أن الفكر السلفي وقضاياه الخاصة التي ينشرها ويلوكها، يمكن أن تشكل عائقا أمام الصحوة الإسلامية التي بات انتصارها يزعج تلك الحكومات.

ثوب قصير ونعل ولحية:

أما أفضل مثال لانتشار الفكر السلفي خارج حدوده، وسيطرته على توجيه الصحوة هناك. فيمكن أن يقال بأن الساحة الجزائرية كانت المجال الأرحب الذي انتشر فيه الفكر السلفي. وذلك لعدة أسباب منها. أن الجزائر كانت خاضعة للهيمنة الثقافية الفرنسية لعقود من الزمن، ولما حققت استقلالها اتجهت حكومة الاستقلال نحو التعريب، وقد تبع هذا التعريب موجة من الصحوة الدينية. فكانت السلفية ومعها المؤسسة الدينية سباقة لاكتساح الساحة وإفراغ أطنان من الكتب السلفية، ووزعت فتاوى ابن تيمية مجانا، كما التحق عدد كبير من الطلبة الجزائريين بالجامعات السعودية. فانتشر الفكر الوهابي السلفي على نطاق واسع واصطبغت الصحوة هناك بالصبغة السلفية البدوية.

حيث ترك الشباب الجزائري المسلم لحاهم تطول وتكبر دون أي ترتيب أو تنسيق، ولبسوا الثياب والدشاديش البيضاء ورفعوها فوق الكعب. حتى كادت تصل الركب ولبسوا النعال بدل الأحذية، واتخذ بعضهم لنفسه عصا يتكئ عليها. كل ذلك إحياء للسنة واتباعا لطريق السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

وهكذا انتشرت في الجزائر بعض المشاهد المضحكة المبكية، وبعض المظاهر القبيحة كذلك، والتي ركزت الصحافة الفرنسية - بالخصوص - على تصويرها ووضعها على أغلفة الصحف، صور تثير الاشمئزاز والخوف لدى المسلمين قبل غيرهم.

إنك تجد الشاب في مقتبل العمر، يترك لحيته تكبر وتطول دون أن يحلقها أو يرتبها لأن ذلك حرام قد يسقط فاعله في الكفر، فترى مجموعة شعيرات في ذقنه قد طالت بشكل يثير الضحك، بينما انتشرت شعيرات صغيرة ومتفرقة على باقي أطراف وجهه. وإذا أضفنا إلى ذلك شكل اللباس الذي يوحي بالفقر والدروشة، تكتمل الصورة. صورة الشكل السلفي للإنسان المسلم. وما يزيد في الطين بلة أن أي انحراف عن هذه الصورة بترتيب اللحية أو اقتناء ثياب أنيقة ومحترمة مسايرة للوضع الاجتماعي العام، يعني خروج على سنة السلف الصالح، وهذا يعني السقوط في الابتداع ومن ثم تنفتح طريق الكفر أمامه.

هذا هو الإسلام السلفي الذي انتشر في الجزائر وكان يوجه الصحوة الإسلامية هناك ثوب قصير أبيض، ونعال، ولحية أكثر ضلالا من الأعشاب البرية المتوحشة. أما شعار الدولة الإسلامية، والدعوة إلى قيام حكومة إسلامية الذي رفعته جبهة الإنقاذ، كبرى الحركات الإسلامية هناك. فكان مغامرة غير محسوبة النتائج.

فرغم الضجيج الإعلامي حول انتصار هذه الجبهة في الانتخابات، وما قيل عنها وحولها فإن الوقوف أمام وصولها إلى سدة الحكم لم يكن بسبب المؤامرات الغربية الفرنسية والإقليمية فقط. ولكن بسبب مواقف هذه الحركة وأعمال وأقوال أصحابها. لقد كنت أتابع أحداث الجزائر وأراقب الوضع عن كثب. ولما تأكدت من أن الفكر السلفي هو المحرك والخلفية الدينية لهذه الحركة، شعرت بخيبة أمل، تنبأت يومها بمصير هذه الحركة وهي في أوج انتصارها. وقد كتب على واجهة المبنى الإداري لبلدية الجزائر. «بلدية الجزائر الإسلامية» وأخبرت بعض رجالات هذه الجبهة بأنكم لن تصلوا إلى الحكم.

لكني لم أفصح عن رأيي بصراحة، لم أعلن أمامهم عن السذاجة السياسية التي كانت تدار بها معركة الانتخابات. ولا قلت له أن الفكر السلفي الذي تعتمدونه

هو أول عائق لديكم للوصول إلى الحكم، ومتابعة مسيرة الإنماء والتقدم في الجزائر. وإذا لم أستطع أن أعبر عن رأيي صراحة هناك. فإن ذلك بسب الخوف، لأن إلقائي مثل هكذا رأي في الأوساط السلفية الجبهوية كان يعني إصدار فتوى من أحد المراهقين الفقهاء - وما أكثر الفقهاء والمجتهدين في أوساط الشباب السلفي - بكفري وزندقتي، وإن لم أقتل فلا محالة سأتعرض للإهانة.

إن طبع الجزائري فيه حدة، وجاء الفكر السلفي لينمي هذه الحدة ويزيد عليها الجفاء، والغلظة الصحراوية. كل الظواهر السلفية السلبية الموجودة داخل المجتمع السلفي في الجزيرة العربية انتقلت إلى هناك. فلم يعد هناك مجال للنقاش بالحكمة والموعظة أو بالتي هي أحسن، بل أصبح شعار النقاش «بالتي هي أخشن». أي فكرة أو أي رأي يخالف ما يقـول به ابن تيمية أو ابن قيم الجوزية أو أتباعه من وهـابية نجد. يعني الانـحراف والشرك والكفر ثم لا يبقى سوى إعلان الجهاد.

لذلك كان الخوف والإرهاب هو سيد النقاشات مع أتباع السلف.

والغريب في الأمر أن السلفيين في بقاع العالم إذا ما حاورتهم لا يسمعون منك، إنهم يقفون كالأصنام أمامك، وعندما تنهي كلامك وتعرض فكرتك، ينطلق الرد، دون اعتبار لما قلته أو عرضته ولـو كان الحق فيه أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أما إذا عرجت على المساجد لسماع الخطب المنبرية هناك فإنك ستصاب بالحسرة والألم. لقد أكد الفقهاء قديما على أن المتصدي للدعوة يجب أن يكون عالما عارفا بأحوال الدعوة ومتطلباتها. لكن الفكر السلفي يجعل من العوام علماء دون مشقة تذكر! افتح صحيح البخاري أو مسلم ثم اقرأ الحديث، وبعد ذلك فأنت فقيه. لك أن تفتي في الدماء والأموال والأعراض؟!.

كان بعض الخطباء يرفعون أصواتهم عالية «يا فرنسا جيش محمد آت»،

وآخر يعلن في الملأ سننتقم من فرنسا عندما نصل إلى الحكم. ويصرخ آخر سنقضي على العلمانيين والمتفرنسين في هذا البلد. ويقول آخر سنعلن الجهاد على المنطقة الفلانية في الجزائر لفتحها من جديد؟! وهكذا. دعوات للحرب والجهاد والصراع مع الداخل والخارج، جبهات متعددة مفتوحة قبل أن يستلم هؤلاء الحكم، فكيف سيكون الوضع لو وصلوا إلى سدة الحكم فعلا؟ هذا السؤال كان كثيرا ما يطرحه بعض المتنورين من مثقفي الجزائر! لكن دون إجابة واضحة؟!.

لقد طرد أحد المرشحين - كما نقل لي بعض أبناء الجبهة - من منصبه في بلدية فازت بها الجبهة. وكان ذنبه وخطيئته الكبرى أنه لبس لباسا أوروبياً (أي بنطلون وجاكيت) وهذه ليست نكتة ولكن حقيقة. إلى غير ذلك من المهازل والمضحكات؟!.

وجهة نظر بدوية:

إن الفكر السلفي «وجهة نظر بدوية» في تاريخ الإسلام، لا يمكنها أن تنشئ دولة أو تؤسسن مدنية أو حضارة. ولا يعتقدن معتقد أن الدول السلفية تسيرها عقول سلفية: لأن الأسر الحاكمة لا علاقة لها بالفكر السلفي، لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمـون[١]. وأنا شخصيا لم أر أميرا قد أطلق لحيته أو لبس ثوبا أبيضا قصيرا، بل غالبيتهم يرفلون في الثياب الغربية الفاخرة ويحلقون لحاهم، وأما كبار السياسيين فيبقون بعضا منها، بشكل أنيق ومرتب. بخلاف دعاة السلفية وأتباعهم الذين يبدعون ويكفرون من وضع

---

(١) ينقل ديكسون في كتابه «الكويت وجاراتها»: إن أحدا من الذين عرفوا ابن سعود لا يستطيع أن يتهمه شخصيا بالتعصب الوهابي، أو بالهيجان والاندفاع الديني الأعمى، الذي كان يحقن به أتباعه من الإخوان، فقد كان في المناسبات - وحسب ما يلائم أغراضه - يتظاهر أمام أتباعه بأن له نفس نظرتهم. أنظر حمزة الحسن. م. س، (ج ٢ ص ١٣٨) ويقول فاسيليف: «كان لفيصل ثمانية أولاد بعث خمسة منهم للدراسة في المدارس والجامعات الأمريكية واحدا إلى أوكسفورد وآخر إلى كلية ساندهيرست العسكرية الملكية البريطانية». أنظر تاريخ العربية السعودية ص ٤٠٦.

المقص على لحيته لترتيبها[1].

كما أن النظام السياسي يسير البلاد على المستوى الاقتصادي والإداري والعلاقات الخارجية، بعيدا عن الفكر السلفي أو رجالاته. والسلفيون علماء ومواطنين يعلمون أن أرامكو، شركة أمريكية تستخرج النفط وتعالجه وتوزعه في الأسواق وتسلم الحكومة نصيبها من الأرباح. هذه الأرباح التي يحصل دعاة السلفية على نصيب منها، يجعلهم يعيشون في بحبوحة من العيش، ويمارسون الدعوة إلى نحلتهم على نطاق واسع.

وإلا فلو أعطيت السلطة لرؤساء هؤلاء البدو. لكانت الدولة السلفية اليوم يضرب بها المثل في التخلف المدني والحضاري العام.

يقول الغزالي وهو الكاتب الإسلامي الذي خبر دعوتهم ودخل معهم في صراع فكري وجدالي ما زال مفتوحا إلى اليوم: قلت لأحد الحنابلة «السلفيين» إنني أتعلم من الغزالي وابن رشد ومن أبي حنيفة وابن تيمية فنظر إلي مستنكرا يحسب أني أؤيده وحده! علينا - يقول الغزالي - أن ندرس الجهد العقلي للبشر قاطبة فذاك يعيننا على إحقاق الحق وإبطال الباطل حين نصدر باسم الإسلام بعض الأحكام[2].

---

(١) لقد سمعت من بعض السلفيين الجزائريين أنهم يكفرون المفكر الإسلامي مالك ابن نبي لأنه كان يحلق لحيته وكان متزوجا من فرنسية «مسلمة». أنظر لهذه العقلية الساذجة.

كيف يمكنهم أن يستفيدوا من هذا المفكر الكبير الذي استفادت منه الحركة الإسلامية برمتها وكتبت حوله الدراسات المهمة. وهم يكفرونه فقط لأنه كان يحلق لحيته؟! أنهم يأخذون عن ابن تيمية وابن قيم الجوزية اللذان توفيا قبل سبعة قرون. ويديرون ظهورهم لمفكر تحسس وعانى مشاكل الجزائر والوطن الإسلامي بشكل عام، وقدم دراسات جادة وآراء مهمة للخروج من هذا التخلف العام على جميع المستويات؟!.

(٢) محمد الغزالي بحث بعنوان «المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر» مقدم إلى الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ص ٦. أنظر مجلة الكلمة، العدد العاشر، ١٩٩٦م.

والغزالي هنا يشير إلى ضيق الأفق المعرفي والعلمي الذي يراد للصحوة الإسلامية أن تدخل نفقه. فهناك فتاوى وأفكار لا يعرف أصحابها، لكنها تأتي من نجد أو الرياض أو الكويت لا محالة. تدعو أبناء الصحوة للاقتصار على دراسة كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية فقط. للتعرف على الإسلام الصحيح. أما باقي الإنتاج الفكري الإسلامي، فهو ضلال وانحراف يجب الابتعاد عنه وإهماله. فمثلا تسمعهم يروجون «من لم يقرأ كتب ابن قيم الجوزية ليس له حظ من العلم». أو يدعون إلى الاقتصار على تفسير ابن كثير دون غيره. وغير ذلك من الأفكار والمبادئ الهدامة التي تؤدي إلى نكوص المجتمع الإسلامي وتعميق تخلفه وانحداره الحضاري.

تشويه صورة الإسلام:

أما تشويه الإسلام، في نظر أهله أولا وخصومه ثانيا، فحدث ولا حرج.

فاعتناق الإسلام في أوروبا وأمريكا، يعني أولا وقبل كل شيء لبس دشداشة بيضاء ونعل وإطلاق اللحية، والظهور بمظهر الدروشة والفقر. أما من حيث الأحكام الإسلامية ومبادئ الدين. فإن الخرق قد اتسع على الراقع، وقد ترسخ لدى الغربيين بفضل الفكر والممارسة السلفية بأن الإسلام دين دموي لا إنساني يدعو إلى القتل والإرهاب وعدم التسامح. وهو إلى جانب ذلك عدو لدود لنصف المجتمع أي عدواً للمرأة.

يقول محمد الغزالي: بلغني أن مسؤولا في جماعة إسلامية اقتربت من الحكم يوما فقال: لن تخرج النساء من البيوت بعد اليوم! وهذا وعيد أخرق!

كان يجب أن يقول سنلزم الرجال والنساء آداب الإسلام، ولن نسمح بالتبرج وإثارة الغرائز.. أما أن يخطب متحمس طائش فيقول: لا تخرج المرأة من البيت إلا إلى الزوج أو القبر، فهذا كلام فارغ يدفع الإسلام ثمنه مصادرة لعقائده وتعاليمه كلها.. ويضيف قائلا:

إن الحضارة الإسلامية ليست هذا اللغو!! إنه ضيق العقل وضحالة المعرفة واختلال الفطرة واعوجاج الخطو، لا يمكن أن يتم إسلام، أو تزدهر حضارة ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[(١)].

ويقول في موضع آخر: لقد سمعت أحد المنتمين إلى السلف يقول: إن الانتخابات بدعة! ولا أدري بم يفسر أن الرسول المعصوم نزل على الشورى فيما عالج من شؤون الحرب والسلام؟ هل إرغام الجماهير وسوقها بالقوانين الاستثنائية والانتخابات المزورة هو الإيمان والتقوى؟![(٢)].

ولو أردنا أن نتابع كل آرائهم وأفكارهم التي شوهت الإسلام وانحرفت بالصحوة الإسلامية لطال بنا الكلام. يقول الدكتور محمد الخطيب: «فهم يطبقون الأحكام الإسلامية بطريقة جائرة ظالمة مثيرة للاشمئزاز والاستغراب وتعود على الدين الحنيف بأسواء الأثر. فقطع الأيدي والأرجل بل قطع الرؤوس من الأمور السائدة والمتمادية وهي تجري بناء على أحكام قضاة جهلة وبعد تحقيقات يقوم بها شرطة أميون. كما تصدر تشريعات أحيانا مجانبة للإسلام نصا وروحا.

ويضيف قائلا: ففي كل يوم جمعة تجري في مدن المملكة المختلفة عمليات تنفيذ العقوبات لمن لا سند له من الأمراء أو من السفارات الهامة، بطريقة تدل على وحشية بالغة تسمح لأعداء الإسلام بوصفه بأشنع النعوت[(٣)]. أما الشيخ محمد مرعي الأنطاكي فيقول: «كنا نسمع عن الوهابية بأنهم يقيمون الحدود ويجرون

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦. في حوار مع فاطمة المرنيسي أجرته معها مجلة «حدث الخميس» الفرنسية ونقلته جريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية سئلت: فيم تعارض بلدان الخليج التطلعات الديمقراطية للمغرب العربي؟. فأجابت: «إنها تفرز ثقافة تمجد البلادة والخضوع اللامشروط للفرد العربي، إلى الزعيم والخليفة، وهذا ليس الإسلام، بل فقط تأويله المبلد للذهن، والحالة هذه أن هذا التأويل المبلد يغرق بلدنا عن طريق وسائط الاتصال». أنظر نص الحوار، جريدة الاتحاد الاشتراكي، بتاريخ.. ١ - ماي - ١٩٩٢م، ص ١٠.

(٣) صفحات من تاريخ الجزيرة التربية، م س، ص ١٥٤.

الأحكام الشرعية تماما، فهاجرنا إلى الحجاز، وتخللنا بينهم مدة فوجدنا الأخبار التي وصلتنا من القطر الحجازي كانت خلاف الواقع.

فإنهم أضر على الإسلام من كل شئ وقد شوهوا سمعة الإسلام بأعمالهم وأفعالهم وبسوء فتاوى علمائهم»[١].

إن مسيرة انتشار الفكر السلفي الوهابي في العالم الإسلامي هي مسيرة تعميم البداوة، وخصوصا الجانب السلبي في سلوكيات أهلها، فالحقد والتعصب البغيض، وعدم قبول الحق أو الركون إلى أحكام العقل والمنطق، هي من أخلاقيات البداوة حيث يسود الجهل والأمية. والبعد عن المدينة والحضارة. أما الجفاء والغلظة في التعامل والسلوك، فإن ذلك من تأثير الصحراء القاحلة.

إن الفكر السلفي الذي أنتجته البداوة وتروجه أموال النفط اليوم يعتبر بمثابة الضربة القاضية للفكر المتنور الذي انطلق مع بدايات هذه القرن، وكان فعلا المؤسس الحقيقي لهذه الصحوة الإسلامية، التي أصبحت وكأنها لا تراوح مكانها.

ولقد أصاب الدكتور علي شريعتي عندما قال: «إن مجتمعا وضيعا غير واع، حتى وإن كان له دين متطور راق فإنه لن يتمكن من الرقي، بل يحط من مستوى دينه الراقي. ويضعه في قوالبه الملوثة الضيقة ويمسخه... ولهذا يضيف شريعتي، عندما خطب السيد جمال الدين الأفغاني في فرنسا في «كوليج دو فرانس» وتحدث عن الإسلام بالمستوى السامي الذي كان يفهمه هو تعجب «أرنست رينان»، تعجب من معنى الدين بشكل عجيب. ثم جاء واعترف اعترافه المشهور: «الإسلام دين الإنسان، وإني قد فهمت الآن إن قيمة كل دين ترتبط بقيمة شعور وإدراك أتباع ذلك الدين»[٢]...

---

(١) المستبصرون، غلام أصغر البجبوري، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٢) الإنسان والإسلام، د. علي شريعتي، دار الصحف للنشر، ط ١ - ١٤١١ هـ ص ٦٤ - ١٦٦. ويقول محمد جواد مغنية: «إن الإسلام لو وقف عند فهم الوهابية وتفكيرهم لما تقدم خطوة إلى الأمام، ولما

إن مفكري الصحوة الذين لم يتغذوا على الفكر السلفي كانوا قد وضعوا الأسس الاستراتيجية للنهوض الإسلامي العام في جميع الميادين، وعلى كل المستويات، وبدأ التطبيق والممارسة بخطا واعدة. ولولا خروج الفكر السلفي من صحراء الجزيرة العربية ومحاولته ابتلاع الساحة الإسلامية وأبنائها بالمال وأساليب أخرى ماكرة. لكان لهذه الصحوة اليوم شأن آخر. ولكانت قد خطت خطوات مهمة في سبيل إقامة صرح الحضارة الإسلامية. أما ما نشاهده اليوم فإنه يدعو للأسى والخيبة وربما اليأس في بعض الأحيان. لأن لا مجال لإعادة الوحدة الاجتماعية داخل الوطن الإسلامي، وقد انتشرت موجة التكفير.

انهيار الوحدة الاجتماعية:

فأهل السنة المتشبثين بتقليد المذاهب الفقهية كفار؟! والصوفية وأهل الطرق التعبدية كفار!؟ والشيعة بكل طوائفهم كفار؟! وباقي الفرق الإسلامية الأخرى كفار كذلك؟! وقد تعمقت الأحقاد وانتشرت البغضاء فكيف يمكن التفكير في وحدة اجتماعية قوية يمكنها أن تدعم المشروع الإسلامي النهضوي المرتقب.

إن شعار الإسلام هو الحل الذي أطلقه المفكرون الأوائل للصحوة الإسلامية. لم يعد يلقى ذلك الاهتمام الذي عرفه في البداية.

فالحل الإسلامي اليوم لا يعني سوى، قطع الأيادي وإطلاق اللحى وتقصير الثوب. والرجوع عن كثير من المكتسبات المدنية والحضارية، ليس فقط على مستوى الشكل. بل قد يتعدى ذلك إلى الحقائق العلمية والمسلمات المعرفية، فبعض السلفيين يشكك في صعود الإنسان للقمر، وأن هذه الفكرة ربما كانت من حيل الغرب التي يروجها بين المسلمين. كما أفتى ابن باز الزعيم السلفي في وقت

كان للمسلمين هذا التاريخ الخطير الشهير الذي أرغم الأجانب والأباعد على الاعتراف بأن رسالة محمد بن عبد الله هي أم الحضارة الحديثة..» هذه هي الوهابية، ص ٦٩.

متأخر بكفر من قال بكروية الأرض[1].

وأخيرا فإن مهازل الدعوة السلفية وسلبياتها لا يكاد يخلو منها مكان أو تجمع إسلامي. فالحرب الطائفية في الهند وباكستان، وأخبار حرق المساجد وقتل الأبرياء تملأ الصحف العالمية والمحلية، كل ذلك في سبيل نشر مذهب السلف الصالح. أما إذا نظرت إلى الواقع العام داخل المملكة السلفية. فستجد البغضاء والحقد الأعمى ينشران ضلالهما، حيث يحاصر السلفيون قطاعات واسعة من الشعب المسلم داخل الجزيرة بفتاوي الكفر والضلال والشرك وترفع نداءات الجهاد والغزو والاستئصال العرقي والعقائدي لمجموعات شعبية عريضة. ذنبها أنها لا تتبنى وجهة نظر الحنابلة السلفيين تجاه عقائد الإسلام وقيمه.

أما واقع المعارضة لهذا الطوفان الفكري البدوي، فلا يبشر بخير، لأن المؤسسات الفكرية والمدارس الدينية لمفكري أهل السنة والجماعة، تعرف تراجعا وإخفاقا. فلم تعد الحكومات تعيرها ذلك الاهتمام الذي كانت تحضى به أيام دول الخلافة، حيث كانت هذه المدارس تدعم الشرعية السياسية لتلك الدول. لذا فقد استغل القائمون على الدعوة السلفية هذا الواقع، فأجهزوا على المعارضة التي يمكن أن تنبعث من تلك المؤسسات والمدارس، فهل يجرؤ من يتقاضى منحا شهرية مغرية، وتسهيلات للحج والعمرة، على كتابة رسالة أو كتاب في الرد على ضلالات هؤلاء وانحرافاتهم، وإظهار أن الحق خلاف ما يدعون إليه، مع أن الكثير من علماء الأزهر بالخصوص، لا يؤمنون بتاتا بصحة ما يعتقده السلفية. ولكن أغلبهم يجد نفسه مضطرا للسكوت إما خوفا ورهبة وإما طمعا في رضا القوم.

---

(١) حمزة الحسن، م س، ج ٢ ص ١٣٧. جاء في مجلة روز اليوسف المصرية عدد ٢٢٩٨ ص ٥٢: «في سنة ١٩٢٧ م قامت في المملكة العربية السعودية ضجة بين علماء الدين على تعليم الرسم واللغات والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويتها». مع أن الأرض مسطحة وساكنة، واللغة ذريعة للوقوف على عقائد الكفار والرسم تصوير وهو محرم أنكره علماء السلف. أنظر تجارب مغنية ص ٣٠٢.

وبالجملة، هناك شبه إجماع على وضع الرأس في الرمال والانحناء للعاصفة كي تمر بسلام.

طبعا هذا الكلام ليس على إطلاقه تماما لأن مجموعة من رجالات أهل السنة والصوفية قد أخذوا على أنفسهم الوقوف أمام الطوفان، حيث صدرت عدة كتب ودراسات في الرد على عقائد السلفية وآرائهم الشاذة. لكن الكثير منها يضيع في زحمة مشاكل الطباعة والنشر والتوزيع والمضايقة.

وما دامت سياسة الترهيب والترغيب والإغراء المادي المباشر، ممثلة في كراسي التدريس داخل الجامعات السلفية. وإغداق المنح السخية على الطلبة، وتشجيعهم على دراسة هذا المذهب والانتصار له. فإن مستقبل الصحوة الإسلامية لا يمكنه أن يبشر بخير.

إن نشر الفكر الوهابي السلفي على نطاق واسع داخل الوطن الإسلامي، يعني بكل بساطة ومع الأسف الشديد، وإجهاض الصحوة الإسلامية، وانحرافها عن الطريق السليم، حيث النهضة والانبعاث الحضاري العام الذي ما زال المفكرون المتنورون داخل هذه الأمة يعملون على ترسيخ أسسه، وإزاحة كل العقبات والعراقيل من أمامه وعلى رأسها انتشار الفكر السلفي البدوي الساذج.

***

الباب الثاني

أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية

الفصل الأول

مع أهل السنة

«أي صلح بيننا إنما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دنيا أو قسمة ميراث أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم فهم يزعمون أننا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر فأي صلح بيننا..».

أبو جعفر الشريف الحنبلي

التنزيه أم التشبيه

الصفات الخبرية ومشكل التأويل:

تعتبر مسألة الصفات الإلهية من بين القضايا التي انفجر الخلاف حولها مبكرا بين المسلمين ويرجع ذلك، أولا: «إلى مجموع الآيات التي تعرضت لذكر صفات الله جل وعلا. بالإضافة إلى الكم الهائل من الأحاديث التي رويت عن الرسول، سواء ما صح منها أو ما تبين اختلاقه وكذبه. وتسرب إلى المسلمين عبر انتشار عقائد أهل الكتاب، حيث قام متأسلمة اليهود والنصارى بنشر كميات كبيرة من أحاديثهم وتصوراتهم العقائدية المنحرفة.

ولما جمع هذا التراث وبدأت عملية المعالجة والتمحيص، اختلفت الفئات الإسلامية من فقهاء ومحدثين وعلماء وكلاميين في هذه المعالجة. وظهرت الفرق والمذاهب على إثر ذلك، وسبب هذا الاختلاف يرجع إلى المنطلقات المنهجية لكل فرقة أو مذهب.

فحينما اكتفى الرواة والمحدثون بجمع هذه الروايات والإيمان بها جملة وتفصيلا، دون أي تفسير يخرجها عن معانيها اللغوية الابتدائية، ذهب بعض الفقهاء وعلماء الكلام إلى إقحام المنهج العقلي في معالجتها، ليس فقط على مستوى التحقيق في صحة سندها أو ضعفه. بل البحث في معانيها وما يمكن أن يؤدي إليه الفهم الأولي والظاهري للغتها. على اعتبار إن هناك آيات محكمات يعضدها العقل. يمكننا الرجوع إليها عند أي التباس فهمي يعرض لنا ونحن نقرأ الآيات المتشابهة، أو ما ورد في بعض الأحاديث. ويمكن أن يفهم بشكل يمس عقيدة التوحيد والتنزيه الإسلامية.

وإذا كانت المذاهب والفرق الكلامية أو الأصولية قد افترقت عند هذه المعالجة وما أثمرته من نتائج، مثلت الفواصل والاختلافات الحقيقية. فإننا سنحاول تسليط الضوء بشكل مختصر حول أهم الاختلافات في المنطقات والنتائج بين المدرسة السلفية «الوهابية» ومدرسة أهل السنة والجماعة، لأن البحث يخصهما فقط.

ليس لأتباع السلفية الوهابية اليوم آراء خاصة أو جديدة تختلف عما ذكره ابن تيمية شيخ المدرسة وزعيمها. فكل ما هناك من بحوث ودراسات معاصرة لا تعدو النقل المباشر لتراث الشيخ أو إعادة كتابته وشرحه، لذلك سنحصر النقاش والاستدلال عند آراء الشيخ وكتبه. أما مدرسة أهل السنة والجماعة فلا شك أن الإمام أبو الحسن الأشعري وتلامذته هم من أخذ على نفسه تمثيل هذه المدرسة والتحدث باسمها دون إغفال المدرسة الماتريدية وتلامذتها، كوجه ثان لعملة واحدة هي مدرسة أهل السنة والجماعة في العقائد والأصول.

موقف ابن تيمية من الصفات الخبرية:

انفجر الصراع وظهر الاختلاف بين زعيم السلفية وأهل السنة من الأشاعرة خصوصا، عندما نشر ابن تيمية «العقيدة الحموية» جوابا على سؤال أهل حماة حول الصفات الخبرية. حيث ذهب إلى أن الآيات المتشابهة مثل ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ وقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ وغيرها من الآيات، تدل على أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شئ وعلى كل شئ، و(أنه فوق السماء) كما استدل بأحاديث النزول وقصة المعراج ونزول الملائكة وصعودهم. بالإضافة إلى مجموعة الأحاديث الصريحة في أن الله في السماء وفوق عرشه.

يقول الشيخ «إن الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين: أن الله سبحانه على العرش استوى، وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام، إلا من اجتالتهم الشياطين عن

فطرته»[1]. ثم يذكر بأن السلف جميعهم والأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء لم يخالف أحدهم لا نصا ولا ظاهرا في أن الله في السماء وفوق العرش.

وقد كرر ابن تيمية ما اختاره في باب الصفات الخبرية في غير واحد من آثاره، فقال في الواسطية: «وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة، حيث يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فاغفر له».

وقولهﷺ: «يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر كلاهما يدخل الجنة». وقولهﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه».

وقوله «والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه».. وقوله ص: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته».

وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، علي على خلقه، وهو معهم أينما كانوا»[2] وهذا الفهم عند ابن تيمية لا يؤدي إلى أي تشبيه أو تجسيم. بل هو التوحيد المحض[3].

وإذا أضفنا إلى ذلك تراث حشوية الحنابلة بكل ما تضمنه من ذكر وتفسير

(١) العقيدة الحموية الكبرى، الرسالة الحادية عشرة من مجموع الرسائل الكبرى. لابن تيمية نقلا عن السبحاني، م س، ج ٤ ص ١١٦.

(٢) العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الكبرى، ص ٣٩٨ - ٤٠٠. عن السبحاني بتصرف.

(٣) كما يعلق الشيخ محمد أبو زهرة.

للصفات الخبرية سواء ما جاء في القرآن أم ذكرته الأحاديث، فإن المحصلة النهائية لدى الطرفين لا تعدو أن تكون الإيمان والإقرار بأن جميع الصفات الخبرية يجب أن تفهم حرفيا وأن نعتمد ظهورها التصوري الابتدائي، دون الالتجاء إلى محاولة التأويل، أو البحث عن معاني مجازية أو كنائية قد تكون مشروعة لغة ومستعملة في الخطاب العربي عامة والقرآني على وجه الخصوص.

آراء الفرق الإسلامية في الصفات الخبرية:

الذي يراجع مواقف الفرق الإسلامية بخصوص أخبار الصفات يجدها كما قال ابن الجوزي الحنبلي على ثلاث مراتب:

أحدها: إمرارها على ما جاءت، من غير تفسير ولا تأويل، إلا أن تقع ضرورة، كقوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾ أي جاء أمره، وهذا مذهب «السلف».

والثانية: التأويل وهو مقام خطر. إلا ما كان على نحو المثال المتقدم، وإنما تكمن خطورة التأويل في الافراط فيه إلى حد التعطيل.

أما الثالثة: القول فيه بمقتضى الحس (أي إجراء المعنى بحسب الظاهر)، وقد عم جهلة الناقلين، إذ ليس لهم حظ من علوم المعقولات التي يعرف بها ما يجوز على الله تعالى، وما يستحيل، فإن علم المعقولات يصرف ظواهر المنقولات عن التشبيه، فإذا عدموها تصرفوا في النقل بمقتضى الحس»[(١)].

أما قول ابن الجوزي بالنسبة لمن كان يؤمن بإجرائها دون تفسير أو تأويل إلا اضطرارا: «وهذا مذهب السلف» فالمقصود به مجموعة من رجالات السلف وليس كلهم، لوجود من ذهب إلى تأويل، - وإن علم عن أكثرهم التفويض - كابن عباس وغيره من الصحابة. أما تأويل ﴿جاء ربك﴾ بجاء أمره فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل. أما من نهج التأويل وخاض غماره بشكل كامل، فهم بلا

(١) دفع شبه التشبيه، م س، ص

شك المعتزلة، وتبعهم بعد ذلك أغلب تلامذة الأشعري إلا في القليل من المواضع. ويبقى القسم الأخير وهو موقف حشوية أهل الحديث والحنابلة الذين تشبثوا بمعاني الألفاظ حسب ظواهرها. وهذا ما يعبر عنه بالتكييف، وعليه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبيه - خذلهم الله سبحانه - وهو يستلزم أن يكون سبحانه جسما، أو جسمانيا جالسا على كرسي جسماني، ناظرا من عرشه إلى تحته كنظر الملك الجبار إلى عبيده وغلمانه[١].

الـ"بلا كيف"؟:

أما إذا بحثنا عن ابن تيمية وأين موقفه في هذه المراتب الثلاث، فإننا فسنجده ينطلق من المرتبة الثالثة، ليقوم بتعديل أو «عقلنة» لمنطلقاتها، وصولا إلى تأكيد أحقيتها وسلامتها، ومن ثم جعلها مذهبا للسلف الصالح.

فالصفات الواردة في الآيات أو الأحاديث لا بد من إجرائها على نفس المفاهيم اللغوية الظاهرية الابتدائية، والإيمان بمدلولاتها التصورية، لكن «بلا كيف». والفرق بين هذا القول والقول الأول، هو أن القول الأول يثبت المعاني مع الكيفية، وهذا القول يثبتها بنفس المعاني لكن بلا تكييف»[٢].

فالاستواء على العرش والجلوس عليه عند ابن تيمية حقيقة، كل ما هناك أننا نجهل الكيف!. وهذا الكيف لا شك أنه يليق بجلال الله وعظمته. وعلى هذا المنوال يمكن أن نفهم باقي الصفات الخبرية التي اختلف حولها. وعليه فإذا كان بسطاء الحشوية لا يتبرمون من التجسيم أو التشبيه، بل يعتقدونه ويدافعون عنه. فإن ابن تيمية جاء ليعدل هذا الوضع. لأن هذه التهمة التي طالما رددها خصوم الحنابلة والسلفية، كانت تقض مضجعه فاهتدى إلى فكرة «بلا كيف» أو البفلكة.

(١) السبحاني، مرجع سابق ج ٤ ص ١١٩.

(٢) نفسه، ص ١١٩.

لكن أهل السنة ومعهم أهل التنزيه لم يقتنعوا بهذه العقلنة الجديدة للحشو. لأن القول بعدم التأويل وإجراء الصفات الخبرية على معانيها اللغوية الحقيقية لا يمكنه إلا أن يؤدي إلى التجسيم والتشبيه.

وأن «البلا كيف» لا يمكن أن تحل المشكلة أبدا.

وذلك لعدة أسباب. أولا:»إن هذه الصفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغة على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالي إلى السافل، والحركة من صفات الجسم.

فالكيفية مقومة لمعاني هذه الألفاظ، فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يدا ورجلا بالمعنى اللغوي المتبادر عرفا. وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد طريقين:

١ - جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، فهو نفس القول بالتجسيم.

٢ - جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (سورة المائدة، آية ٦٤).

فهذا هو قول المؤولة أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية[١]. وعليه فلا يمكن فهم هذه الصفات إلا باستحضار كيفياتها لأنها مقومة لها، أما إذا ألغينا هذه الكيفيات فلن يبقى من هذه الصفات شئ يدل عليها أو يميزها. فهل يمكن أن نتصور النزول دون حركة وتنقل من مكان لآخر؟!.

ثانيا: لو جاز أن نقول أن لله يدا ورجلا لكن لا نعرف كيفيتهما، والمهم إن هذه الكيفية كما يليق بجلاله وعظمته. لجاز لنا كما يقول الباحث السبحاني «توصيفه بكل شئ فيه أدنى كمال، ونقول: إنه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا

(١) نفسه ص ١٢١ - ١٢٢.

كالقلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة[١].

وعليه فإن نظرية ابن تيمية الجديدة تلازمها الجهة والتجسيم. وهذا ما استنتجه علماء أهل السنة وغيرهم.

لا ضير من التأويل:

والمدرسة الأشعرية في عرف أصحابها إنما جاءت كوسطية بين الحشوية الذين سقطوا في التشبيه والتجسيم ومعهم ابن تيمية، وبين المعتزلة الذين تطرفوا في التنزيه فسقطوا في التعطيل. وإذا كان الأشاعرة قد ركبوا قطار التأويل فإن حجتهم التي اتكأوا عليها، كانت اللغة العربية، لسان التنزيل نفسه. حيث وجدت الآيات المتشابه أو آيات الصفات. فإذا كان القرآن قد نزل بلغة العرب واستخدم تراكيبهم واعتمد مفاهيمهم اللغوية. فإن العرب قد عرف عنهم استخدامهم الكبير للمجاز والكناية.

فأي صفة وضعت لمعنى جسمي محدد، قد ينقلها المجاز إلى معنى آخر ليس غريبا عن الاستعمال العربي، بل نجد له الشواهد الكثيرة. لذلك لا ضير من التأويل ضمن هذه الحدود اللغوية المتعارف عليها، خصوصا وأن ذلك سيؤدي إلا تجاوز كل الشبهات والإشكالات في مجال التوحيد. وبذلك نكون قد أرجعنا المتشابه إلى المحكم. ﴿ليس كمثله شئ﴾ آية محكمة في كتاب الله، وهي تفيد التنزيه المطلق عن كل تشبيه أو تجسيم.

لكن ابن تيمية وأتباعه يرفضون التأويل ويعتبرونه طريقا نحو التعطيل. إلا أن أهل السنة اعتبروا ذلك من ابن تيمية أول المؤاخذات العلمية. فاتهموه بالكذب وتزوير حقائق التاريخ، لأنه نفى أن يكون السلف قد سلكوا درب التأويل، أو أولوا شيئا من الصفات الخبرية، وهذا خلاف الواقع. فهو عندما يقول: «لم أجد

(١) المرجع السابق، ص ١٢٢.

لساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف»[١] يبدأ ابن جرير الطبري بقوله وهو يفسر الآية ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ «اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي فقال بعضهم هو علم الله تعالى ذكره»[٢]. ثم يذكر تأويل ابن عباس، بعد ذلك يعرض لأحاديث الحشوية التي ترى أن الكرسي هو موضع القدمين من العرش، أو هو العرش ذاته الذي يجلس عليه الله سبحانه وتعالى، وقد مر معنا في البحوث السابقة ذكر أحاديثهم في ذلك.

ويستمر الطبري في عرض مجمل التأويل لآيات الصفات. يقول مثلا في قوله تعالى ﴿وهو العلي العظيم﴾ قال بعضهم: يعني بذلك: وهو العلي عن النظير والأشباه. وأنكروا أن يكون معنى ذلك هو العلي المكان. وقالوا غير جائز أن يخلو منه مكان، ولا معنى لوصفه بعلو المكان، لأن ذلك وصفه بأنه في مكان دون مكان[٣].

وإذا كان ابن تيمية يصف تفسير الطبري بأنه لا يروي عن المتهمين وأنه يخلو من البدعة. فإنه يرى بأن تفسير ابن عطية من أرجح التفاسير. فماذا يقول ابن عطية في تفسيره: «أثبت ابن عطية ما نقلناه عن الطبري من تفسير ابن عباس للكرسي، وتفسير (العلي)، ثم قال في أخبار الحشوية التي رواها الطبري بعد هذا، وبها تمسك ابن تيمية، قال ابن عطية ما نصه: هذه أقوال جهلة مجسمين، وكان الواجب أن لا تحكى!»[٤].

وهذا التناقض هو الذي دفع العلامة الشيخ يوسف الدجوي إلى القول:

---

(١) تفسير سورة النور، لابن تيمية، ص ١٧٩، عن صائب عبد الحميد، م س، ص ١٢١.

(٢) تفسير الطبري، أنظر المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٣) تفسير الطبري، ج ٣ ص ٩، أنظر المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤) ابن تيمية، مرجع سابق، ص ١٢٤.

«ومن عجيب أمر هذا الرجل أنه إذا ابتدع شيئا حكى عليه إجماع الأولين والآخرين كذبا وزورا. وربما تجد تناقضه في الصفحة الواحدة فتجده في منهاجه مثلا يدعي أنه ما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي ثم يقول: وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون وبعد ذلك يحكي اختلافا لحق الصحابة في أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء. وبينما تراه يتكلم بلسان أهل الحق المنزهين إذا بك تراه أنقلب جهميا وسمى كل من لا يقول بذلك معطلا وزنديقا وكافرا وقد جمع تلميذه ابن زفيل سفاهاته ووساوسه في علم أصول الدين في قصيدته النونية[1]».

الصفات المختلف فيها عند ابن عربي:

أما موقف أهل السنة = الأشاعرة بالخصوص - من هذه الصفات فقد أجمله البيهقي في الأسماء والصفات، وسنعود إليه بعد ما نعرض لما قاله ابن عربي في «القواصم من العواصم» حول أهم صفة اختلف حولها السلفية «الحشوية» وأهل السنة وباقي المنزهين.

الاستواء:

يقول: فلما قال ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ كان المطلوب هنا ثلاث معان: معنى الرحمان ومعنى الاستواء، ومعنى العرش.

فأما الرحمان فمعلوم لا خلاف فيه ولا كلام. وأما العرش فهو في العربية لمعان. فأيهما تريدون؟ ولفظ استوى معه محتمل لخمسة عشر معنى في اللغة فأيها تريدون، أو أيها تدعون ظاهرا منها؟ ولم قلتم أن العرش ها هنا المراد به مخلوق مخصوص؟ فادعيتموه على العربية والشريعة؟ ولم قلتم إن معنى استوى قعد أو جلس فتحكمون باتصاله به، ثم تقولون إنه أكبر منه من غير ظاهر، ولم يكن

---

(١) صفات الله عند المسلمين، م س، ص ٦١.

عظيما بقدر جسمي حتى تقولوا أنه أكبر أجزاء منه؟ ثم تحكمتم بأنه أكبر منه بأربع أصابع تحكم لا معنى له[1].

وقال المحدث ابن المعلم في نجم المهتدي: إعلم أرشدنا الله وإياك أن العلماء انقسموا في تأويل ﴿الرحمان على العرش استوى﴾ قسمين: فريق أول التركيب وفريق أول الإفراد، وهؤلاء على قسمين: قسم أول استوى وقسم أول العرش. ثم سرد ابن المعلم تلك المعاني الخمسة عشر عازيا كل معنى منها إلى قائله من الأئمة، كالأشعري وأبي منصور وأبي إسحاق الإسفراييني وعبد القاهر التميمي وأبي جعفر السمناني، وإمام الحرمين وغيرهم.

وتلك المعاني نحو الملك واستئثار الملك، واستواء الحكم، والاستيلاء المجرد عن معنى المغالبة والإقبال. القصد والإتقان، وعلو العظمة والعزة، وعلو القهر والغلبة إلى غير ذلك من المعاني المذكورة في الجزء الخامس من نجم المهتدي.

ثم قال ابن المعلم: فقد ظهر لكم، أيدكم الله هذه التأويلات، فأيها ترجح عندكم فاحملوا اللفظ عليه، فإن الظاهر منفي بإجماع علماء السنة فلله الحمد على اتباعهم.

وقال إمام الحرمين في النظامية: اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر، فرأى بعضهم تأويلها[2] وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى، وليس هذا ما يفرح به

(١) الأسماء والصفات، تحقيق الكوثري، أنظر الهامش ص ٤٠٥، وقال البغدادي في الفرق بين الفرق «وقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إن الله تعالى خلق العرش إظهارا لقدرته، لا مكانا لذاته. وقال أيضا: قد كان ولا مكان وهو الآن على ما كان». أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية، ص ١٠٣.

(٢) يقول أحمد أمين: «إن الأشاعرة يقولون إن المتشابهات يعلم تأويلها الله والراسخون في العلم. أما الآيات التي ورد فيها اليد والوجه... فهي مجازات من معان ظاهرة، فاليد مجاز عن القدرة والوجه عن الوجود، والعين عن البصر. والاستواء عن الاستيلاء. واليدان عن كمال القدرة، والنزول عن البر والعطاء، والضحك عن عفوه تعالى..». أنظر ظهر الإسلام، ج ٤ ص ٩٤.

المشبهة - كما يقول الشيخ الكوثري - لأنه ينص على التفويض، وهو مذهب السلف، وأما المشبهة فلا يقولون بالتفويض، بل يحملونها على الاستقرار والجلوس والحركة ونحوها مما هو شأن الأجسام تعالى الله عن خيالات الوثنية.

والخلف يخرجونها على معان لا تنافي التنزيه على طبق استعمالات العرب، من غير تحكم على مراد الله تعالى، فالسلف والخلف متفقون على التنزيه والبعد عن التشبيه[1].

أما ابن حزم وهو ممن يتكلم باسم السلف فيرى «أن معنى قوله تعالى ﴿على العرش استوى﴾ أنه فعل فعله في العرش وهو انتهاء خلقه إليه، فليس بعد العرش شيء»[2].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ابن تيمية وغيره من السلفيين المعاصرين الذين يعتقدون بالاستواء حقيقة، يستشهدون بقول الإمام مالك بن أنس: حيث سئل عن الاستواء، فرد»الاستواء معلوم والكيف مجهول؟ «إلا أن أهل السنة يرفضون هذه العبارة وما يمكن أن تشير إليه من معنى. فقد روى اللالكائي في شرح السنة بالسند أن الإمام قال في جوابه: «الاستواء مذكور، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» إلى آخره. فمن رواه «الاستواء معلوم والكيف مجهول» ينبغي أن ترد روايته إلى هذا المعنى، يعني الاستواء معلوم الورود في الكتاب، فيرجع إلى قوله في الرواية السابقة «الاستواء مذكور» وقوله: والكيف مجهول. أي لا تعلم له ماهية بالمعنى المتعارف، ولا يعقل له وجود فيما يتعلق بجناب الحق جل وعلا..»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٢) نفسه، ص ٤٠٩ أنظر الهامش.

(٣) فرقان القرآن بين صفات الخلق وصفات الأكوان، مقدمة الشيخ سلامة القضاعي الشافعي، ملحق بالأسماء والصفات، ص ١٦ - ١٧.

أما السلفية فسر اختيارهم لرواية «الاستواء معلوم والكيف مجهول» فلأنهم يفهمون من «معلوم» أي المعروف والظاهر وهو الجلوس على العرش. أما «والكيف مجهول» فهذا يناسبهم عندما يقولون «بلا كيف» فنحن نجهل كيفية جلوسه سبحانه وتعالى على عرشه، لكن يضيفون، بما يناسب عظمته وجلالته[1].

إن الاختلاف بين السلفية وأهل السنة، أشاعرة وما تريدية، لم يقتصر على صفات العلو والاستواء بل شمل جميع الصفات الخبرية. ففي الوقت الذي أول أهل السنة مجمل الصفات وتوقفوا في بعضها رافضين أن تكون من بين الصفات كما توهم مخالفوهم. نجد أن الحنابلة ومعهم ابن تيمية زعيم السلفية يثبتونها حقيقة، ولا مجال لإقحام التأويل فيها، فقط أضافوا بلا كيف وبلا تشبيه.

ونعرض الآن بعض هذه الصفات ليرى القارئ مدى الاختلاف بين المدرستين، وسنعتمد كما أسلفنا كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي الأشعري. بقراءة الدكتور السلفي المعاصر أحمد بن عطية الغامدي.

صفة الكلام:

اختلف الأشاعرة والسلفية في صفة الكلام. أما الأشاعرة فينكرون أن يكون

(١) لابن تيمية كلام صريح كان يقوله في خطبه، لكنه لم يذكره بنصه في كتبه التي وصلتنا فمن ذلك: ما نقله ابن بطوطة وابن حجر العسقلاني، أنه قال وهو علي المنبر: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا. ونزل. أنظر رحلة ابن بطوطة ص ٩٥. والدرر الكامنة (١ / ١٥٤) وما نقله أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) و(النهر) من أنه قرأ في (كتاب العرش) لابن تيمية ما صورته بخطه: أن الله تعالى يجلس على الكرسي، وقد أخلى مكانا يقعد معه فيه رسول الله. ولكن هذا الكلام الذي نقله يوسف النبهاني في (شواهد الحق (ص ١٣٠) عن كتاب (النهر) لأبي حيان، ونقله صاحب كشف الظنون في كتابه (ج ٢ / ١٤٣٨) قد حذف من كتاب (النهر) المطبوع، كما حذف غيره من الكلام الذي تناول فيه عقائد ابن تيمية! ولكن ابن تيمية قد دافع عن هذا المعنى بإصرار من غير أن يذكر الجلوس النبي معه على العرش، وذلك في كتاب (منهاج السنة ١ / ٢٦٠ - ٢٦١). أنظر ابن تيمية في صورته الحقيقية. صائب عبد الحميد ص ١٨ - ١٩.

الله تعالى تكلم بحرف وصوت. أما السلفية فيرون «أن الله تعالى تكلم بحرف وصوت إلا أن كلامه سبحانه وتعالى لا يشبه كلام خلقه، ولا صوته يشبه أصواتهم كما ذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية»[(١)].

الرؤية:

أما في الرؤية فقد اتفقوا معا على إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

لكن هذا الاتفاق لم يكن تاما من جميع الوجوه. يقول الغامدي:»الواقع أن ثمة مسألة مهمة تتعلق بهذه القضية هي مسألة الجهة لأن السلف حين أثبتوا الرؤية، أثبتوا الجهة أيضا لأنها لازمة لها أما البيهقي ومعه أصحابه الأشاعرة فقد أثبتوا الرؤية ونفوا لازمها...

أما ابن تيمية فيرى أن: «هذا القول انفرد به هؤلاء الأشاعرة دون بقية طوائف الأمة، وأن هذا معروف الفساد ضرورة ولأجل ذلك ذهب بعض حذاقهم إلى موافقة المعتزلة فيما ذهبوا إليه من نفي للرؤية والجهة معا، وتفسير الرؤية بأنها زيادة انكشاف وليست رؤية حقيقية»[(٢)].

والسبب في رفض الأشاعرة مسألة الجهة واضح، لأنه يؤدي إلى الاعتقاد بأن الله في جهة مخصوصة ومعينة، وهذا سيؤدي إلى التجسيم لا محالة. أما أهل السلف فهم كما مر معنا يؤمنون بأن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته وأنه – سبحانه وتعالى عما يقولون – موجود في جهة العلو. وقد دافع ابن تيمية على هذه العقيدة بحماس منقطع النظير.

---

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات، م س، ص ٢٠٤. ولأبي الحسن المقدسي جزء يرد فيه على أحاديث الصوت حيث إستوفى في جزئه الكلام على الأحاديث التي استدل بها القائلون بالحرف والصوت، وأبدى عللها بحيث لا تقوم لها قائمة في الاستدلال بها على ذلك المعتقد الباطل» أنظر هامش الأسماء والصفات، ص ٢٠٢.

(٢) البيهقي ووقفه من الإلهيات، ص ٣١٤ – ٣١٥.

صفة الوجه:

بخصوص صفة الوجه الواردة في الآيات يرى الأشاعرة ومعهم ابن الجوزي تأويلها. ففي دفع شبه التشبيه، يذهب ابن الجوزي الحنبلي إلى أن المراد بالوجه «الذات» وينسب هذا التأويل للإمام أحمد بن حنبل كذلك.

لكن الدكتور الغامدي يرد عليه قائلا: «أما قول السلف فهو كما قال ابن خزيمة: «نحن نقول وعلماؤنا جميعا في الأقطار أن لمعبودنا عز وجل، وجها كما أعلمنا الله في محكم تنزيله[1].

وقد ذهب علماء أهل السنة في شرح حديث «إن الله خلق آدم على صورته» إلى أن المقصود إنما هو صورة آدم، ليس هو على صورة الرحمان. أما السلفية فيقول عبد الوهاب الحنبلي: «من لم يقل إن الله خلق آدم على صورة الرحمان فهو جهمي»[2] والجهمي عندهم كافر.

ويرى السلف، على رأسهم ابن خزيمة، أن لله سبحانه وتعالى عينان ينظر بهما. أما الجويني والبغدادي والرازي وغيرهم من أساطين الأشاعرة، فيؤولون صفة العين الواردة بالرؤية أو الحفظ والكلاءة. وصرح الشيخ الكوثري من المعاصرين بأن من قال بأن لله عينان ينظر بهما فهو مشبه قائل بالجارحة.

بالإضافة إلى استشكالهم على ورود صفة العينين لأن القرآن لم يذكر عينين اثنين كما لدى الإنسان[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(٢) طبقات الحنابلة، م س، ص ١٥٤.

(٣) يقول المحقق الكوثري: لم ترد صفة التثنية في الكتاب ولا في السنة، وما يروى عن أبي الحسن الأشعري من ذلك فمدسوس في كتبه بالنظر إلى نقل الكافة عنه، وأما من قال: له عينان ينظر بهما فهو مشبه قائل بالجارحة تعالى الله عن ذلك. وابن خزيمة وابن حامد شيخ أبي يعلى جد مسكين في هذه المباحث. وقال ابن حزم: لا يجوز لأحد أن يصف الله عز وجل بأن له عينين لأن النص لم يأت بذلك. أنظر الأسماء والصفات، تحقيق الشيخ الكوثري، ص ٣١٣.

صفة اليد:

وكذا صفة اليد التي أولوها بالقدرة، وهذا بخلاف - كما يقول الغامدي السلفي - ما أجمع عليه السلف من حمل اليد على الحقيقة في جميع مواردها[١].

أما باقي الصفات والتي جاء أغلبها في أحاديث ضعيفة ومختلف في صحتها، مثل:

الأصابع[٢] الساعد والذراع[٣] والرجل والجنب والقدم[٤] والحقو.. فإن أهل السنة لم يثبتوها بل مالوا بها إلى التأويل تارة، وعلى الطعن في الأحاديث التي تضمنت هذه الصفات تارة أخرى. على اعتبار إنها من مرويات أهل الكتاب، تلقفها جهال الرواة وجمعها المحدثون دون دراية. أما المذهب الحق - يقول الغامدي

---

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات، للغامدي، ص ٢٥٥.

(٢) قال ابن حزم يشرح الحديث الوارد: بين أصبعين بمعنى بين تدبيرين ونعمتين من تدبير الله عز وجل ونعمه، إما كفاية تسره وإما بلاء يأجره عليه. والأصبع في اللغة النعمة. وقلب كل أحد بين توفيق الله وجلاله وكلاهما حكمه عز وجل.

(٣) يقول بن الجوزي الحنبلي في» منهاج الوصول إلى علم الأصول» حديث عبد الله بن عمر وقوله في خلق الملائكة من نور الذراعين والصدر، وفي لفظ من نور ذراعيه وصدره، لا يثبت عنه ولو ثبت أحتمل أن يكون مخبرا به عن أهل الكتاب وقد كان عبد الله بن عمر ينظر في كتب الأوائل.. أما حمله على صفات الحق فقبيح، لأنه لا يجوز أن يخلق من صفات القديم محدث لأن هذا هو التبعيض الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام.

(٤) قال ابن الجوزي: «قال أبو عبيد الهروي، عن الحسن البصري أنه قال القدم هم الذين قدمهم الله لها من شرار خلقه وأثبتهم لها. وقال أبو منصور الأزهري: القدم الذين تقدم القول بتخليدهم في النار، يقال لما قدم قدم، ولما هدم هدم. ويؤيد هذا قوله: وأما الجنة فينشأ لها خلقا. ووجه ثان أن كل قادم عليها يسمى قدما. فالقدم جمع قادم. ومن يرويه بلفظ الرجل فإنه يقال رجل من جراد فيكون المراد يدخلها جماعة يشبهون في كثرتهم الجراد». أما أهل السلف فيقول ابن الزاغوني الحنبلي في شرح الحديث «يضع الجبار قدمه في النار»: إنما وضع قدمه في النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لا أحترق. قال ابن الجوزي: «وهذا تبعيض وهو من أقبح الاعتقادات...». أنظر البيهقي، تعليق الكوثري، ص ٣٢٩ - ٣٥٠.

- الذي عليه السلف الصالح إزاء هذه الصفات هو إثباتها إثباتا حقيقيا لله تبارك وتعالى[١].

ليس هناك إلا التنزيه بالتفويض أو التأويل:

وخلاصة الكلام في هذا الباب هو أن أهل السنة وعلى رأسهم الإمام الجويني والرازي والغزالي وباقي الأشاعرة، لا يثبتون الصفات الخبرية وإنما يؤولونها. لأنهم يرون أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم. كما أن الأدلة عليها ظنية[٢]، لأنها تتمثل في مجرد ظواهر شرعية، وهذه معارضة عندهم بما يعتبرونه أدلة قطعية وهي الأدلة العقلية[٣].

ويؤكد محققوهم المعاصرون على أن السلف والخلف قد اتفقوا «على تنزيه الله سبحانه عن مشابهة صفات الخلق، وليس هناك إلا التنزيه مع التفويض أو التنزيه مع التأويل عند أهل الحق سلفا وخلفا، فمن سدس القسمة لترويج بدعته فقد راوغ وجعل القسم قسيما»[٤].

أما ابن تيمية ومن تبعه من السلفيين قديما وحديثا، فإنهم يصرون على «الإثبات الحقيقي لجميع الصفات إثباتا لا تأويل فيه ولا تفويض، ولا تشبيه»[٥].

---

(١) البيهقي للغامدي، ص ٢٥٩.

(٢) كان البيهقي يعتقد بأن الأحاديث التي وردت فيها مجمل هذه الصفات، أحاديث آحاد ظنية السند والمتن. لذلك لا مانع من تأويليها خصوصا وظواهرها تؤدي إلى الوقوع في التشبيه أو التجسيم. إلا أن الدكتور الغامدي يرد عليه بقوة ويعتبر أن رفض أحاديث الآحاد وعدم الاحتجاج بها في مجال العقيدة قضية خطيرة، والقول بها مرفوض تمام الرفض، لأنه قول مبتدع لم يقل به أحد من سلف هذه الأمة، ولم يخطر لأحدهم على بال.

ويلزم من هذا القول الخاطئ رد مئات الأحاديث الصحيحة... أنظر المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٣) البيهقي وموقفه من الإلهيات، ص ٢٢٨.

(٤) الأسماء والصفات، الهامش ص ٣١٤.

(٥) البيهقي للغامدي، ص ٣٣٢.

يقول الشيخ عبد الجواد ياسين الصباغ: «والعجب ممن يعيب التأويل ويدعي أن السلف ما كانوا يؤولون، وقد بين أبو نصر القشيري رحمه الله الشناعة التي تلزم نفاة التأويل...

ثم قال رحمه الله: وقد نبغت نابغة من الرعاع لولا استنزالهم للعوام لأجللت هذا الكتاب «التذكرة الشرقية» عن تلطيخه بذكرهم، يقولون: «نحن نأخذ بالظواهر ونحمل الآيات الموهمة تشبيها والأخبار الموهمة حدا وعضوا على الظاهر ولا يجوز أن نطرق التأويل إلى شئ من ذلك. ويتمسكون على زعمهم بقول الله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾، هؤلاء والذي أرواحنا بيده أضر على الإسلام من اليهود والنصاري والمجوس وعبدة الأوثان، لأن ضلالات الكفار ظاهرة يتجنبها المسلمون، وهؤلاء أتوا الدين والعوام من طريق يغتربه المستضعفون. فأوحوا إلى أوليائهم بهذه البدع وأحلوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء والجوارح والركوب والنزول والاتكاء والاستلقاء والاستواء بالذات والتردد في الجهات...

فمن أصغي إلى ظاهرهم يبادر بوهمه إلى تخيل المحسوسات فاعتقد الفظائع فسال به السيل وهو لا يدري...

ويقول الشيخ الصباغ أيضا: «إن الذين يحرمون التأويل هم المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه وقد صدق الشاعر حين قال فيهم:

قل للمشبهة الذين تجاوزوا ... حجج العقول بكل قول منكر

يا ويلكم قستم صفات إلهكم ... بصفاتكم هذا قياس الأخسر

أيقاس صانع صنعة بصنيعه ... أيقاس كاتب أسطر بالأسطر

هيهات يشبه صانع لصنيعه ... هيهات تشبه صورة لمصور

هذا المحال ومن يقول بقوله ... فهو الكفور على جهنم مجتري

مـن قـال إن الله يـشبه خلقـه كانـت مقالتـه مقالـة مفتـري
أو قال إني في التكلم مثله فهـو الكفـور بـلا محالـة فاحـذر(١)

وعليه فإذا كان السلفيون يتهمون أهل السنة بالتعطيل، فإن أهل السنة يتهمونهم بالتشبيه والتجسيم. وقد درج كل منهما على تكفير الآخر بناء على ذلك.

الوهابية وأهل السنة.. التكفير المتبادل:

إن الاختلاف بين ابن تيمية والوهابية (السلفية) وبين أهل السنة، لا يقتصر على ما ذكرناه، بل تعداه إلى قضايا كثيرة ومتفرعة من التوحيد والعدل والإيمان. يقول الشيخ السلفي أبو بطين: «إن أكثر أهل الأمصار اليوم أشعرية، ومذهبهم في صفات الرب سبحانه وتعالى موافق لبعض ما عليه المعتزلة الجهمية، فهم يثبتون بعض الصفات دون البعض، فيثبتون الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وينفون ما سوى هذه الصفات بالتأويل الباطل. مع أنهم وإن أثبتوا صفة الكلام موافقه لأهل السنة(٢). فهم في الحقيقة نافون لها، لأن الكلام عندهم هو المعنى فقط. ويقولون حروف القرآن مخلوقة لم يتكلم الله بحرف ولا صوت. فقالت لهم الجهمية هذا هو نفس قولنا. إن كلام الله مخلوق لأن المراد الحروف لا المعنى..

ومذهب السلف قاطبة أن كلام الله غير مخلوق. وإن الله تعالى تكلم بالقرآن حروفه ومعانيه، وأن الله سبحانه وتعالى يتكلم بصوت يسمعه من يشاء،

(١) جريدة اللواء الأردنية، عدد ١١٥٦ السنة الرابعة والعشرون، ٢٨ / حزيران / ١٩٩٥م. مقال بعنوان «إثبات جواز التأويل للنصوص الواردة مما يوهم الجسمية والأعضاء» بقلم الشيخ عبد الجواد ياسين الصباغ، ص ١٥.

(٢) أنظر فصل التعاريف الصراع على لقب «أهل السنة والجماعة».

والأشعرية لا يثبتون علو الرب فوق سماواته واستواء على عرشه، ويسمون من أثبت جهة العلو والاستواء على العرش مجسما مشبها. وهذا خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة - أي السلفية - فإنهم يثبتون صفة العلو والاستواء والأشاعرة وافقوا الجهمية في نفي الصفة، لكن الجهمية يقولون كان ولا مكان فهو على ما كان قبل أن يخلق المكان[١].

ثم اتهم أبو بطين الأشاعرة بنفي الرؤية، كما وردت في القرآن والأحاديث. وينتقد رأيهم في الإيمان فيقول: والأشعرية يوافقون أهل السنة في رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، ثم يقولون أن معنى الرؤية إنما هو زيادة علم يخلقه الله في قلب الناظر ببصره، لا رؤية بالبصر حقيقة عيانا، فهم بذلك نافون للرؤية التي دل عليها القرآن وتواترت بها الأحاديث عن النبي ﷺ، ومذهب الأشاعرة أن الإيمان مجرد التصديق ولا يدخلون فيه أعمال الجوارح.

قالوا إن سميت الأعمال في الأحاديث إيمانا، فعلى المجاز لا الحقيقة. ومذهب أهل السنة والجماعة إن الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وقد كفر جماعة من العلماء من أخرج العمل عن الإيمان[٢].

وبعد أن فند الشيخ أبو بطين آراء الأشاعرة، خطأ من عدهم من أهل السنة وقال: إذا عرفت ذلك عرفت خطأ من جعل الأشعرية من أهل السنة كما ذكره السفاريني في بعض كلامه، ويمكن أنه أدخلهم في أهل السنة مداراة لهم لأنهم اليوم أكثر الناس، والأمر لهم، والله أعلم، مع أنه دخل بعض المتأخرين من الحنابلة في بعض ما هم عليه[٣].

---

(١) مجموعة من الرسائل والمسائل النجدية، رسائل وفتاوى الشيخ عبد الله بن عبد الرحمان أبي بطين، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٣) نفسه، ص ١٧٩. وانظر الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث الدكتور محمد كامل ظاهر، دار السلام، بيروت ط ١ - ١٩٩٣ م، ص ١٨٠ - ١٨١.

ابن تيمية يكفر الغزالي وإمام الحرمين:

أما العلامة الشيخ سلامة القضاعي شيخ الشافعية بمصر: فيقول في تقرير التوحيد الذي عليه أهل السنة والجماعة: «أن يكون الله منزها عن التركيب وقبول الانقسام وكل ما هو من خصائص المادة والأجسام، بذلك نطق كتاب الله لقوم يسمعون، ونادت بهذا آياته من ألقى إليهما السمع وهو شهيد.

وعلى ذلك أطبق أهل السنة الذين لم يصابوا بما أصيب به أهل الهوى من مرض التشبيه والتجسيم الذي أصيب به اليهود من قبلهم، ووقع فيه النصارى من بعدهم، والعجب أنك ترى إمام المدافعين عن بيضة أهل التشبيه وشيخ إسلام أهل التجسيم[١]، ممن سبقه من الكرامية وجهلة المحدثين الذين يحفظون وليس لهم فقه فيما يحفظون، أحمد بن عبد الحليم المعروف بـ(ابن تيمية) يرمي إمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي بأنهما أشد كفرا من اليهود والنصارى في كتابه (الموافقة) المطبوع على هامش منهاجه لقولهما بالتنزيه وهما ينفردا به، بل هو قول المحققين من علماء الملة الإسلامية من الصحابة فمن بعدهم[٢].

---

(١) ليس في وصفه بهذا الوصف خلاف للحقيقة والواقع فهو القائل: «ليس في كلام الله، ولا سنة رسوله، ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين، والأكابر من أتباع التابعين من ذم المشبهة، ونفى مذهب التشبيه. وإنما اشتهر هذا من جهة الجهمية... وقال أيضا فمن المعلوم:
أن الكتاب والسنة والإجماع لم تنطق بأن الأجسام كلها محدثة، وأن الله ليس بجسم، ولا قال ذلك إمام من أئمة المسلمين، فليس في تركي لهذا القول خروج عن الفطرة، ولا عن الشريعة». حاشية التبصير، ص ٩٤ - ٩٦، نقلا عن ابن زكنون الحنبلي في الكواكب الدرية عن ابن تيمية.
أما القاضي أبي بكر الباقلاني فيقول: «إن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون القديم سبحانه جسما قيل له: لما قدمناه من قبل. وهو أن حقيقة الجسم أنه مؤلف مجتمع بدلالة قولهم:
«رجل جسيم» و«زيد أجسم من عمر» وعلما بأنهم يقصرون هذه المبالغة على ضرب من ضروب التأليف في جهة العرض والطول، ولا يوقعونها بزيادة شئ من صفات الجسم سوى التأليف. فلما لم يجز أن يكون القديم تعالى مجتمعا مؤتلفا. وكان شيئا واحدا تبت أنه ليس بجسم». التمهيد، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٥٧م ص ١٩١.

(٢) صفات الله عند المسلمين، م س، ص ٦٢. عن فرقان القرآن.

وأجاب الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر على سؤال من يعتقد ثبوت جهة الفوقية لله سبحانه وتعالى ويدعي أن ذلك مذهب السلف. قائلا: «إن مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنيون أن الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث مخالف لها في جميع سمات الحدوث. ومن ذلك تنزهه عن الجهة والمكان كما دلت على ذلك البراهين القطعية.. إلى أن يقول: هذا وقد خذل الله أقواما أغواهم الشيطان وأزلهم واتبعوا أهواءهم وتمسكوا بما لا يجدي فاعتقدوا ثبوت الجهة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا واتفقوا على أنها جهة فوق..

وممن نسب إليه القول بالجهة من المتأخرين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي من علماء القرن الثامن في ضمن أمور نسب إليه خالف الإجماع فيها عملا برأيه وشنع عليه معاصروه بل البعض منهم كفروه ولقي من الذل والهوان ما لقي»[1].

وأخيرا نرجع لنقول إن الخلاف بين أهل السنة والسلفية الوهابية متشعب وعميق في مجال العقائد. بدأ في المنهج والمنطلقات وانتهى وتعمق مع النتائج. والسبب يرجع ليس فقط لمشكل المتشابه في الآيات، لأن هناك محكمات جلية واضحة يمكن الاحتكام إليها. ولكن للكم الهائل من الأحاديث التي تأكد للمحققين أنها من مدسوسات أهل الكتاب وأقوال الكذبة من الأعراب وغيرهم.

لذلك وقع الخلاف فذهبت كثير من الفرق ومنهم الأشاعرة إلى تأويل ما جاء في تلك الأحاديث من صفات قد تشوش مفهوم التوحيد والتنزيه. وإن كان غيرهم قد ضرب بها عرض الحائط، ولم يعتمدها في مبحث العقائد بالمرة. أما الفريق الآخر من المحدثين والحشوية والسلفية فإنهم تشبثوا بها وانطلقوا منها لرسم صورة التوحيد الإسلامي الحقيقي كما يدعون.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤ – ٦٥.

أما رفضهم للتأويل فقد أوقعهم في تخبط واضطراب لا يمكن للتنابز بالألقاب واتهام الآخرين بالتعطيل والزندقة أو الكفر والضلال أن يستر عورته.

يقول صائب عبد الحميد: إن الجمود على ما يفهم من ظاهر اللفظ لأول وهلة يعد أكبر الخطأ، وليس هو شأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم. ففي قوله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ هل قال أحد أن الحبل هنا هو ما نفهمه من لفظ الحبل. فعلينا أن ننتظر حبلا بأوصاف خاصة يتدلى من جهة الفوق كما يريد الحشوية، لنعتصم به؟!.

إنهم أجمعوا هنا على تأويل الحبل بمعاني أخرى، فقالوا: هو الإسلام أو القرآن، أو الثقلان كتاب الله وعترة رسوله، اللذان ورد الأمر بالتمسك بهما.

إن من ينكر ضرورة التأويل في أمثال هذه الألفاظ فقد ارتكب جهلا وخطأ كبيرا.. وإن من ينكر تأويل السلف لآيات الصفات فقد افترى عليهم فرية كبيرة[1].

وعلى ذكر الصحابة وأهل البيت لا بأس من أن نختم كلامنا في هذه القضايا الشائكة. بكلام سيد العارفين وأمير الموحدين والمنزهين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي يقول في خطبة الأشباح: «الحمد لله الذي لا يفره المنع والجود، ولا يكديه الإعطاء والجود، إذ كل معط منتقص سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه، وهو المنان بفوائد النعم..

الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شئ قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شئ بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال...

فانظر أيها السائل: فما دلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضئ بنور

---

(١) ابن تيمية في صورته الحقيقية، الغدير، بيروت ط ١ ١٩٩٥ م، ص ٢٠.

هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله سبحانه. فإن ذلك منتهى حق الله عليك، واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيب، ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين.

إلى أن يقول: «فأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين﴾ كذب العادلون بك. إذ شبهوك بأصناهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزأوك تجزئة المجسمات بخواطرهم. وقدروك على الخلقة المختلفة القوى، بقرائح عقولهم. وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول، فتكون في مهب فكرها مكيفا، ولا في رويات خواطرهم فتكون محدودا مصرفا»[1].

***

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١. باختصار، تعرف بخطبة الأشباح. خطبهاعليه السلام على منبر الكوفة وذلك أن رجلا أتاه فقال له: يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثلما نراه عيانا لنزداد له حبا وبه معرفة. فغضب ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهله، فصعد المنبر وهو مغضب متغير اللون، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله ثم قال: الخطبة.

التوحيد أو الشرك

التوحيد عقيدة الإسلام:

إتفق المسلمون بجميع طوائفهم على ضرورة التوحيد، لأن دعوة الأنبياء إنما جاءت لتؤكد التوحيد وتنفي الشرك والشريك مع الله سبحانه وتعالى.

الذي ﴿ليس كمثله شئ﴾ وله الأسماء الحسنى. وإذا كان علماء الإسلام قد فصلوا في مباحث التوحيد وعدوا مراتبه، فإن الخلاف قد نشأ في فهم بعض هذه المراتب. وعلى رأسها التوحيد في «العبادة»، الذي يعتبر اليوم أساس النزاع بين السلفية ومخالفيهم من أهل السنة والإمامية.

أما مراتب التوحيد التي ذكرها العلماء في مباحثهم فهي:

١ - التوحيد الذاتي: ومصداقه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ سورة الإخلاص.

٢ - التوحيد في الخالقية: والمقصود به أن الخالق والفاعل الحقيقي والأصيل هو الله سبحانه وتعالى. وأن الأسباب والمؤثرات الطبيعية إنما هي إرادته سبحانه. يقول عز من قائل: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ (المؤمن آية ٦٢).

٣ - التوحيد في الربوبية: والمراد به أنه سبحانه هو المدبر الوحيد لهذا العالم، أما الأسباب والمخلوقات فتدبيرها غير مستقل عنه سبحانه بل بإذنه وأمره. يقول عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس آية ٣).

· أما ما جاء في بعض الآيات من نسب بعض التدابير للملائكة أو لغيرهم، مثل قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أو قوله عز وجل ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ (النازعات، الآية ٥) وغير ذلك من الأمثلة حيث ينسب الفعل إلى غير الله. فإن هذا لا يعتبر تعارضا أو تناقضا لأن هذه الأمور «كالرازقية والتدبير والتوفي». «قائمة بالله على نحو لا يكون لله فيها أي شريك فهو تعالى يقوم بالأصالة وعلى وجه «الاستقلال»، في حين أن غيره محتاج إليه سبحانه في أصل وجوده وفعله، فما سواه تعالى يقوم بهذه الأفعال والشؤون على نحو «التبعية» وفي ظل القدرة الإلهية.

وبما أن هذا العالم هو عالم الأسباب والمسببات وأن كل ظاهرة لا بد أن تصدر وتتحقق في مجراها الخاص بها المقرر لها في عالم الوجود، ينسب القرآن هذه الآثار إلى أسبابها الطبيعية... ويشير القرآن إلى كلا هاتين النسبتين في قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال، الآية ١٧)[1].

٤ - التوحيد في التشريع: حيث الحاكمية التشريعية منحصرة فيه سبحانه، فهو الذي يشرع، يحلل أو يحرم. يقول سبحانه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف، الآية ٤٠). وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة، الآية ٤٤).

٥ - التوحيد في الطاعة: ويعني أن الله وحده تجب طاعته وامتثال أوامره.

أما طاعة الأنبياء الواردة في الآيات فإنها بإذنه يقول. سبحانه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (النساء، الآية ٦٤). فإطاعة النبي وأولي الأمر، والوالدين وغيرهم إنما لأجل إذنه وأمره سبحانه ولو لاه لم تكن لتجز طاعتهم،

---

(١) التوحيد والشرك، الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الفكر الإسلامي، ط ٢، ص ٢٩، ١٩٨٦ م.

والانقياد لأوامرهم. وعلى الجملة فهاهنا مطاع بالذات، وهو الله سبحانه، وغيره مطاع بالعرض وبأمره[١].

٦ – التوحيد في الحاكمية، والمراد منه هو: أن جميع الناس سواسية، فلا ولاية لأحد على أحد بالذات، بل الولاية لله المالك الخالق، فمن مارس الحكم في الحياة يجب أن يكون بإذنه، قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ﴾ (الأنعام، الآية ٥٧)[٢].

٧ – التوحيد في العبادة: أي حصر كل أنواع العبادة في الله عز وجل فلا معبود سواه. وقد وقع الاختلاف هاهنا في تحديد بعض المظاهر، هل تعتبر عبادة أم لا، كالتكريم والاحترام وغير ذلك مما وقع الجدال حوله بين السلفية الوهابية وبين أهل السنة والإمامية. لقد اعتبر السلفيون إن ذلك شرك في العبادة، ومن ثم انطلقوا لتكفير غالبية المسلمين وتشريكهم والحكم عليهم بالتالي بالضلال واستباحة الدماء.

لذلك يقول الباحث السبحاني: «إن المفتاح الوحيد لرد شبه الوهابيين هو تحديد العبادة وتمييزها عن غيرها»[٣] لأن الموحدين مجمعون على عدم جواز عبادة غير الله. لذلك لا بد من معرفة حقيقة بعض الأعمال والأفعال حتى لا يقع الخلط، وننسب غالبية المسلمين للشرك أو الكفر.

التوحيد عند السلفية:

ويضيف: «إن الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد وهما التوحيد الربوبي والتوحيد الألوهي ويفسرون الأول بالتوحيد في الخالقية، والثاني بالتوحيد في العبادة، وكلا الاصطلاحين خطأ. أما الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير المربوب

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.
(٢) بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤ ص ٦٦.
(٣) التوحيد والشرك، ص ٣٥.

وإدارته، وأن وظيفة الرب الذي هو بمعنى الصاحب. إدارة مربوبه، كرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إليها. فالتوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية، وإن كان ربما تنتهي الربوبية إلى الخالقية. وأما الثاني، أعني التوحيد في الألوهية فهو مبني على أن الإله بمعنى المعبود، ولكنه خطأ، بل هو ولفظ الجلالة بمعنى واحد، غير أن الأول كلي والثاني علم لواحد من مصاديق ذلك الكلي[(١)].

ويقول أبو حامد في إبطاله هذا التقسيم «لم يقل أحمد بن حنبل لأصحابه: إن التوحيد قسمان: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإن من يعرف توحيد الألوهية لا تعتبر معرفته لتوحيد الربوبية، لأن هذا كان يعرفه المشركون، وهذه عقيدة الإمام أحمد مدونة في مصنفات أتباعه، في مناقبه لابن الجوزي وفي غيره، ليس فيه هذا الهذيان. وكذا لم يقل أي واحد من أتباع التابعين لأصحابه، ولا أي صحابي من أصحاب النبيﷺ ورضي عنهم: إن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإن من لم يعرف توحيد الألوهية لا يعتد بمعرفته لتوحيد الربوبية، لأن هذا يعرفه المشركون، فلو اجتمع الثقلان مع ابن تيمية على إثبات هذا التقسيم عند أي واحد منهم لا يستطيعون، وإني أتحدى كل من له إلمام بالعلم أن ينقل لنا هذا التقسيم المخترع ولو برواية واهية»[(٢)].

مفهوم العبادة:

جاء في المعاجم العربية تعاريف عدة لكلمة عبادة. فابن منظور يفسرها «بالخضوع والتذلل» أما الراغب في «المفردات» فيقول «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل»، ويعرفها الفيروزآبادي بـ(الطاعة). لكن جميع هذه التعاريف ما هي إلا نوع من التعريف بالمعنى الأعم لأن الطاعة أي الخضوع وإظهار التذلل ليست - على وجه الإطلاق - عبادة، لأن خضوع الولد أمام

(١) بحوث في الملل والنحل، م س، ج ٤، أنظر الهامش، ص ٦٧.

(٢) راجع براءة الأشعريين ج ١ ص ٩٦. أنظر ردود على شبهات السلفية، م س، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

والده، والتلميذ أمام أستاذه والجندي أمام قائده لا يعد عبادة مطلقا مهما بالغوا في الخضوع والتذلل[١]. وهنا آيات متعددة تصف هذا الخضوع ولا تعتبره عبادة. مثل ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ (البقرة، الآية ٣٤) فكان سجودهم له تعظيما وتكريما. ولم يكن عبادة له أو جعله شريكا لله.

وقوله تعالى في قصة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ (يوسف، الآية ١٠٠).

وكذا تذلل المؤمنين لبعضهم البعض. وعليه فلا يكون الخضوع ضعيفه وشديده عبادة إلا إذا دخل فيه عنصر قلبي خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية:

١ - الإعتقاد بألوهية المعبود.

٢ - الإعتقاد بربوبيته.

٣ - الإعتقاد باستقلاله في الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد[٢].

ويتضح من ذلك أن مقوم العبادة ليس العمل أو الفعل الظاهري، ولكن الاعتقاد القلبي الباطني. فالمشركون على عهد الرسول وقبله كان منهم من يعتقد بألوهية معبوده كأحد الآلهة الصغيرة إلى جنب الإله الكبير. لذلك قال المشركون للرسول كما حكى عنهم القرآن ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ (سورة ص، الآية ٥). ومنهم من كان يعتقد بأن معبوده له التدبير الفعلي المستقل، لذلك عبده وطلب منه ورجاه. ومنهم من كان يعلم بأن معبوده مخلوق لله، لكنه مستقل الفعل يمكنه أن يرزق أو يضر وينفع لذلك توجه له بالعبادة.

---

(١) التوحيد والشرك، م س، ص ٥١.

(٢) بحوث في الملل والنحل، ج ٤، ص ٦٨ - ٦٩.

والذي يتأمل في الآيات التي نزلت في المشركين مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الصافات، الآية ٣٥) أو قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر، الآية ٩٦). يعلم أن وصفهم بالمشركين يرجع لكونهم يعتقدون أن أصنامهم وأوثانهم آلهة من دون الله، لها وجود مستقل وتستحق العبادة والخضوع وتقديم الطاعات المختلفة. لأنها تضر وتنفع وترزق، وتملك الشفاعة. لذلك جاءت الآيات القرآنية لتنفي هذه الاعتقادات والإيمان الخاطئ في هذه المعبودات المختلفة. يقول تعالى مخاطبا المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ (العنكبوت، الآية ١٧).

ويقول سبحانه: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء، الآية ٥٦).

ويقول في نفي الشفاعة عن آلهتهم المزعومة: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ (مريم، الآية ٨٧).

وهناك نوع آخر من الشرك ذكره القرآن وهو يصف أهل الكتاب. وهو الاعتقاد بأن الله قد فوض لبعض الرهبان أو الأحبار مهمة التشريع. فكان أتباعهم يتعبدون بهذه التشريعات ويعتمدونها في الحلال والحرام. قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة، الآية ٣١) وجاء في الحديث إنهم لم يصوموا لهم ولا صلوا لهم ولكن أحلو لهم الحرام وحرموا لهم الحلال فاتبعوهم.

وهنا آية يمكنها أن تكون فيصل التفرقة بين ما كان عليه المشركون زمن الرسول وبين أي فعل أو عمل أو اعتقاد قد يصدر عن المسلمين اليوم ويصفه الوهابية والسلفية بالشرك أو يجعلونهم ومشركي قريش سواء، كما نطق بذلك محمد بن عبد الوهاب النجدي.

كما توضح هذه الآية بجلاء حقيقة اعتقاد المشركين وما كانوا عليه من انحراف إيماني. يقول تعالى يصف المشركين بعد ما أدركوا حقيقة معبوداتهم وأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الشعراء، الآية ٩٧ - ٩٨).

وهذه التسوية لا تختص بتوجيه العبادة أو المشاركة فيها. ولكن باعتقادهم بأن لآلهتهم خصائص الألوهية إما كلها أو بعضا منها. كما ذكرنا قبل قليل.

وإلى هنا يكون مفهوم العبادة الذي يترتب عليه الشرك والإشراك قد اتضح للقارئ. فهل هناك من المسلمين اليوم من يعتقد في الأنبياء أو الأولياء والمشايخ. أنهم مساوون لله؟ أو أنهم آلهة وأرباب من دون الله؟! يملكون الضر والنفع والشفاعة، ويستقلون بالفعل والتأثير؟! أو يدبرون هذا الكون إما بشكل كامل أو مشاركة مع الله؟!.

إن الملاك في تمييز التوحيد عن الشرك أمر واحد وهو الاعتقاد بالألوهية والربوبية، أو كون الفاعل مستقلا ومفوضا إليه الأمر[1]. وإذن ما هي شبهات هؤلاء الوهابية، التي جعلتهم يتهمون المسلمين بالشرك. ويضعونهم مع مشركي العصر الجاهلي في خانة واحدة.

تعتبر القضايا مثل: الشفاعة والتوسل وزيارة القبور والدعاء عندها - وما يتفرع عن ذلك - من أهم المباحث التي انطلق منها السلفية لاتهام المسلمين بالشرك، فهم لما وضعوا للعبادة ملاكات جديدة غير الملاك الذي اتفق عليه المسلمون قاطبة، أدخلوا الكثير من مظاهر هذه القضايا ضمن دائرة الشرك، واعتبروا فاعلها مشرك منحرف عن عقيدة التوحيد. سنلقي نظرة موجزة حول هذه القضايا، أما من أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى المصادر الكثيرة جدا في هذه المواضيع بالخصوص.

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

التوسل:

التوسل من وسلت إلى ربي وسيلة أي عملت عملاً أتقرب به إليه، وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي تقربت به إليه[١]. وقال الجوهري في الصحاح: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير والجمع: الوسل والوسائل[٢]. وكل شئ يعتمده الإنسان للوصول إلى هدف يعتبر وسيلة.

وقد تعارف العقلاء بالفطرة أو التجربة على ركوب الوسائل المختلفة لتحقيق الغايات المتعددة، وهذه إحدى السنن الكونية الظاهرة، التي لا تخفى على أحد.

أما المقصود به في الشرع،»أن يقدم العبد إلى ربه شيئا ليكون وسيلة إلى الله تعالى لأن يتقبل دعاءه ويجيبه إلى ما دعاه[٣]. وقد وضع الشارع طرقا معينة للتوسل وشرعها واعتبر أي خروج عنها أو ابتداع طرق جديدة أمر مرفوض في الدين معاقب عليه في الآخرة.

وقد عرف السلف والخلف من المسلمين هذه الطرق واتبعوها ولم ينكر عليهم أحد، إلى أن ظهر ابن تيمية الحنبلي في القرن الثامن فناقش بعضا من هذه الطرق ورفضها، وعد من يسلكها مشركا. وقد تبعه الوهابيون من بعده، وأشاعوا الفتن وطعنوا في سلامة عقيدة المسلمين.

أما التوسلات المشروعة فهي:

١ – التوسل بأسماء الله وصفاته. ودليله قوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف، الآية ١٨٠).

---

(١) الخليل، ترتيب المعين مادة «وسل».

(٢) الجوهري، الصحاح، ج ٥ مادة» وسل» أنظر التوسل لجعفر السبحاني، ص ١٧.

(٣) التوسل، جعفر السبحاني، ص ١٨.

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنكِ أنت لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد فقال النبي: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»(١). والأحاديث في ذلك كثيرة، وليس هناك خلاف في هذا التوسل بأسمائه وصفاته سبحانه.

٢ - التوسل بالقرآن الكريم: وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين، أنه مر على رجل يقص، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله يقول:

«اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى به قبل أن يجئ قوم يسألون به الناس»(٢). وورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن فيقول: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار»(٣).

٣ - التوسل بالأعمال الصالحة، حيث يتقرب الإنسان إلى ربه بأحسن عمل عمله، وقد تظافرت الأحاديث عن الرسول في ذكر هذا التوسل، أهمها حديث النفر الذي انطبق عليهم الغار فاتفقوا على أن يدعو كل واحد منهم بأحسن عمل عمله، فلما فعلوا ذلك فرج الله عنهم ونجاهم. وقد رواه البخاري في صحيحه وهو حديث مشهور(٤).

٤ - التوسل بدعاء الرسول: وهو من أعظم الوسائل وأخصها، لأن الرسول الأكرم مستجاب الدعوة مقبول عند ربه ومرسله. وقد أشار القرآن إلى هذه

---

(١) الترمذي، الصحيح، ج ٥، ص ٥١٥. الحديث رقم ٣٤٧٥. أنظر، م س، ص ٢٢.

(٢) المسند، ج ٤، ص ٤٤٥. أنظر، م س، ص ٢٦.

(٣) الإقبال لابن طاوس الحلي، ص ٤١.

(٤) الصحيح، ج ٤، ص ١٧٣، كتاب الأنبياء.

الخاصية. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء، الآية ٦٤). والآيات القرآنية التي نزلت في الرسول صلى الله عليه وآله وسيرته العطرة تشهد بأن للرسول صلى الله عليه وآله مقاما كريما وعظيما. فهو ليس كأحد من الناس أو كأحد من المؤمنين، لأن الوهابية والسلفية يساوون دعاءه بدعاء غيره من المؤمنين وهذا خطأ فاحش وسوء أدب في حقه عليه السلام، وجهل بتاريخ الرسالات، ومكانة الأنبياء.

لقد استجاب الله لدعاء نبيه نوح بهلاك قومه. وحكم أنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا، فجاء الطوفان. وكذلك سائر الأنبياء وعلى رأسهم خاتمهم محمد بن عبد الله الذي قال الله في شأنه ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾.

٥ - التوسل بدعاء المؤمن: وقد جاء في القرآن إن الملائكة يستغفرون للمؤمنين. وكذا المؤمنين يستغفرون لبعضهم البعض، وفي الأحاديث حث على دعاء المؤمن لأخيه، بل إن ذلك من أسباب تعجيل الإجابة.

إلا أن الوهابية وإن كانوا يؤمنون بصحة التوسل بدعاء النبي فإنهم يشترطون حياته، فدعاؤه كان مجديا في حياته أما بعد موته فلا يصح دعاؤه ولا يجوز وهو طريق إلى الشرك. وهذا الاعتقاد مبني على موت الأنبياء وانقطاع صلتهم بالدنيا تماما. وهذا خلاف ما جاء به القرآن وما فهمه وعلمه علماء الصحابة والتابعين. وإذا كان الشهداء - بنص القرآن - أحياء في عالم البرزخ يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من الكرامة والنعيم فبالأولى أن يكون الأنبياء كذلك، فهم أفضل من الشهداء، وهذا ما فهمه الصحابة. فدعاء النبي صلى الله عليه وسلم حيا كدعائه ميتا، وقد جاءت الأحاديث بهذا المعنى.

ففي صحيح البخاري في باب كيفية فرض الصلاة وملاقاة النبي - ليلة الإسراء - الأنبياء: من آدم وإدريس وموسى، وعيسى وإبراهيم تكلمه معهم سلام

الله عليهم... وفي سنن النسائي وإحياء العلوم: قال رسول الله ﷺ إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغون من أمتي السلام. وقال: أكثروا على من الصلاة، فإن صلاتكم معروضة علي. قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال: إن الله تعالى قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حي يرزق. وقوله: فنبي الله حي يرزق. ظاهر في العموم، لأن الإضافة تفيده فإذا كان الأنبياء والشهداء أحياء يرزقون.

ويشهدون الصلاة والسلام ممن يصلي عليهم من قريب أو بعيد، فكيف لا يشهدون نداء من يناديهم، واستغاثة من يستغيث بهم؟. وقال رسول الله ﷺ علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي. وفي إحياء العلوم: أن الله وكل ملكا يسمعني أقوال الخلائق[1].

ومما يؤكد ذلك ما رواه البيهقي وابن شيبة أن «الناس أصابهم قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث إلى قبر النبي ﷺ وقال: يا رسول الله استق لأمتك فإنهم هلكوا. فأتاه الرسول في المنام وأخبره بأنهم يسقون» ووجه الاستدلال هنا ليس الرؤيا، ولكن طلب الاستسقاء من الرسول وهو ميت[2].

في الجوهر المنظم: ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه، لأن التوجه من الجاه، وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاها، والاستغاثة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا

---

(١) سعادة الدارين، لإبراهيم السمهودي، ص ١٨٣، بتوسط، صفحات من تاريخ الجزيرة، العربية، م س، ص ٨٩.

(٢) البراهين الجلية في رفع تشكيلات الوهابية، السيد محمد حسن الموسوي، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط ٢ ١٩٧٧ م، ص ٣٣ – ٣٤.

يقصد بهما أحد منهم سواه، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه[(١)].

والذي يراجع سيرة السلف من الصحابة والتابعين يجدهم يتوسلون بدعائه ﷺ في حياته وبعد مماته ولا يفرقون بين ذلك. قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام» إن الحافظ أبا سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه ما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ...﴾ الآية، وقد ظلمت، وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غفر لك. انتهى[(٢)].

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسين السامري الحنبلي في المستوعب «باب زيارة قبر النبي ﷺ» وذكر آداب الزيارة، وقال: ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء.

منه: اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك مستغفرا، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ﷺ وذكر دعاء طويلا[(٣)].

وخلاصة الكلام أن الوهابية يمنعون من التوسل بالأنبياء حال وفاتهم لأنهم يعتقدون أن البرزخ مانع من الاتصال وهذا بخلاف القرآن والسنة وسيرة المسلمين

---

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق، يوسف بن إسماعيل النبهاني، ضمن علماء المسلمين والوهابيون، ص ١٦٨.

(٢) التوسل، ص ٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٨، نقلا عن وفاء الوفا للسمهودي، ج ٤ ص ١٣٦٢.

سلف عن خلف، اللهم إلا ابن تيمية ومن تبعه. كما يقولون بأن الميت لا يسمع وقد انقطع عمله عن الدنيا ويستدلون ببعض الأحاديث والآيات لإثبات صحة هذه الشبهات. والذي يجب أن يعلم أنهم عندما ينتقون بضع أحاديث قد يدل ظاهرها أو فهمها الابتدائي بأنها تدعم مذهبهم، فإنهم يضربون كشحا عن مئات الأحاديث الصحيحة. التي تخالفهم، والتي يعتد بها مخالفوهم. بل إن الكثير من معتمداتهم الحديثية وجهت لها سهام الطعن والتضعيف. أما استدلالهم بالآيات فإنه يرجع إلى فهم خاطئ بخلاف علماء التفسير وأرباب العلم.

إن التوسل بذوات الأنبياء والصالحين. وبالأمكنة الفاضلة كالكعبة. وبالأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر. والتوسل إلى الله بجاه بعض الصالحين وحرمتهم أو الإقسام على الله تعالى بالمتوسل بهم، كلها توسلات باطلة وممنوعة عند الوهابية، لأنها إما شرك صريح أو طريق إليه. حججهم كما أسلفنا الفهم الخاطئ للعبادة ولمعنى الشرك المذكور في الآيات القرآنية الواصفة لحال المشركين أولا، ولأنهم رأوا بعض العامة يتوسعون في الكلام ويأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ويطلبون من الصالحين أحياءا وأمواتا أشياءا جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى. ويقولون للولي إفعل لي كذا وكذا، وربما يعتقدون الولاية في أشخاص لم يتصفوا بها، بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة، وينسبون لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالا ومقامات ليسوا بأهل لها، ولم يوجد فيهم شئ منها. فإنما أراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعا للإيهام وسدا للذريعة...

وإذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة، فما الحامل لكم على تكفير الأمة عالمهم وجاهلهم خاصهم وعامهم، وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقا؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة وتأمروهم سلوك الأدب في التوسل، مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازي مجازا عقليا كما يحمل على ذلك قول القائل: هذا الطعام أشبعني وهذا الماء أرواني وهذا الدواء

نفعني، فإن ذلك كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلي. فإن الطعام لا يشبع والمشبع هو الله تعالى[1].

يقول الشيخ النبهاني: «والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، كما دلت عليه الأحاديث السابقة لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيرا ولا خلقا ولا إيجادا ولا إعداما ولا نفعا ولا ضرا إلا لله وحده لا شريك له... وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات فإنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ونحن نقول ﴿الله خالق كل شئ﴾، ﴿والله خلقكم وما تعلمون﴾، فهؤلاء المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات هم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات. فهم الذين اعتقدوا تأثير غير الله تعالى، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾[2].

الشفاعة:

أجمع علماء الأمة الإسلامية على أن النبي ﷺ أحد الشفعاء يوم القيامة، مستدلين على ذلك بقوله سبحانه ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ (الضحى، الآية ٥) والذي أعطي هو حق الشفاعة الذي يرضيه، وبقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء، الآية ٧٩) واتفق المفسرون على أن المقصود من المقام المحمود هو الشفاعة.

وقال القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ). مذهب أهل السنة هو جواز الشفاعة عقلا ووجودها سمعا بصريح الآيات وبخبر الصادق وقد جاءت الآثار

---

(١) شواهد الحق، م س، ص ١٥٩.

(٢) شواهد الحق، ص ١٥٨ - ١٥٩.

التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها[١].

وقال الإمام أبو حفص النسفي (ت ٥٣٨ هـ): والشفاعة ثابتة للرسل والأخيار في حق الكبائر بالمستفيض من الأخبار. وقد أيد التفتازاني في «شرح العقائد النسفية» هذا الرأي وصدقه دون أي تردد أو توقف[٢].

وقال ابن تيمية الحراني الدمشقي (ت ٧٢٨ هـ): للنبي ﷺ في يوم القيامة ثلاث شفاعات إلى أن قال: وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار وهذه الشفاعة له ﷺ ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم في من استحق النار أن لا يدخلها ويشفع في من دخلها[٣].

وقال محمد بن عبد الوهاب: (زعيم الحركة السلفية) وثبتت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ يوم القيامة ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد. ونسألها من المالك لها والآذن فيها بأن نقول: اللهم شفع نبينا محمد فينا يوم القيامة أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك، أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم إلى أن قال: إن الشفاعة حق في الآخرة، ووجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته، بل وغيره من الشفعاء إلا أن رجاءها من الله، فالمتعين على كل مسلم صرف وجهه إلى ربه. فإذا مات استشفع الله فيه نبيه[٤]. وإذا كان الكل قد أجمع على أن الشفاعة من أصول الإسلام فإن الخلاف بين أهل السنة وغيرهم وبين الوهابية سيختص ببعض معانيها وتطبيقاتها.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، ج ٣ ص ٣٥.

(٢) العقائد النسفية، ص ١٤٨.

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى، ج ١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٤) الهدية السنية، الرسالة الثانية ص، ٤٢ انظر الأقوال السابقة في الشفاعة، جعفر السبحاني، الشفاعة في الكتاب والسنة، صفحات ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ بتصرف.

ذهبت الوهابية إلى أن: «الشفاعة للأنبياء والأولياء منقطعة في الدنيا، وإنما هي ثابتة لهم في الآخرة، فلو جعل العبد بينه وبين الله تعالى وسائط من عباده يسألهم الشفاعة كان ذلك شركا، وعبادة لغير الله تعالى، فاللازم أن يوجه العبد دعاءه إلى ربه ويقول: اللهم اجعلنا ممن تناله شفاعة محمدﷺ ولا يجوز له أن يقول: يا محمد اشفع لي عند الله. محتجين بقوله تعالى ﴿وأن المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ وقوله سبحانه: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾»[1].

إن الإشكال الذي تستند إليه الوهابية والناجم عن الآيات الشريفة التي تحصر الإذن بالشفاعة بالله عز وجل ينتهي بتفسير آيات القرآن بعضها ببعض، بأن نعتبر أن الشفاعة لا تمنح إلا لمن أذن له الله وبما أن بعض الأنبياء حسب ما يؤكد القرآن الكريم قد شفعوا للآخرين فهذا يعني أن الله قد أذن لهم بهذه الشفاعة فمارسوها وحضوا أتباعهم على طلبها. وقد وردت الأحاديث العديدة المتواترة عن الرسولﷺ تؤكد شفاعته لأمته، وإيصائه للمسلمين بطلب الشفاعة منهﷺ عند الله عز وجل[2].

من هذه الأحاديث قولهﷺ: «خيرني ربي بين أن أدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة». رواه الترمذي وابن حنبل وابن ماجة.

وقولهعليه السلام: «... فقولوا إنا نشفع برسول الله» رواه ابن حنبل في (المسند ١٨٤/٢). هذا ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم الشفاعة لغيره أيضا فيقول: «ادعوا الشهداء فليشفعوا لمن أرادوا» رواه ابن حنبل (٥/١)[3].

إن الاستشفاع الذي عليه المسلمون خلفا عن سلف إنما هو على قسمين:

---

(١) البراهين الجلية، م س، ص ١٩.

(٢) صفحات من تاريخ الجزيرة العربية، م س،، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٩.

أحدهما، أن يقدموا النبي أو الولي الوجيه عند الله أمام طلب الحاجة، بأن يقسم على الله به وبحقه في الفضل والإيمان والطاعة لله، كما جاء في حديث ابن عمر في توسل آدم وما روي: من أن النبيﷺ علم الضرير التوجه إلى الله بهﷺ وأن يطلب من الله أن يشفعه فيه، كما أسنده أحمد عن عثمان بن حنيف، وكذا ابن ماجة والترمذي وصححه، وكذا الحاكم في مستدركه والسيوطي في جامعه، وكما رواه البخاري من استسقاء عمر بالعباس وتوسله إلى الله به.

وثانيهما، أن من له حاجة إلى الله يطلب من النبيﷺ أن يسأل الله قضاءها ويرجو منه أن يشاركه في الدعاء إلى الله، ومسألة تلك الحاجة منه جل وعلا، يفعل ذلك السائل اعتمادا على وجاهة الشفيع عند الله وقربة من الله تعالى. وأن المسلم الذي يؤدي الشهادتين مخلصا هو الذي أذن الله لنبيه بالشفاعة له. كما دلت عليه روايات البخاري والترمذي وابن ماجة وكذا روايتا الحارث ابن قيس وأبي سعيد عنهﷺ.

هذا هو ما عند المسلمين في التوسل والاستشفاع لا غيره، وقد جاء به الكتاب والسنة، ومن نسب غير ذلك إليهم فقد افترى عليهم، إما جهلا بما عليه المسلمون من توسلهم واستشفاعهم اعتمادا على الكتاب والسنة، وإما عنادا لرسول الله وأوليائه في بقاء كرامتهم في الإسلام ولياقتهم للاستشفاع بأحد القسمين المذكورين، وإما تمويها وتلبيسا على بعض العوام للاستعانة بهم على ما حرمه الله من دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم[١].

وأما شبهتهم في المنع من النداء، فقالوا: إن النداء والخطاب للجمادات والغائبين والأموات من الشرك الأكبر الذي يباح به الدم والمال، ولا مستند لهم في ذلك، بل الأحاديث الصحيحة الصريحة في بطلان قولهم هذا، وزعموا أن النداء للأموات والغائبين والجمادات يسمى دعاء وإن الدعاء عبادة، بل الدعاء

(١) البراهين الجلية، م س، ص ٢٧ – ٢٨.

مخ العبادة، وحملوا كثيرا من الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الموحدين...

وهذا كله منهم تلبيس في الدين وتضليل لأكثر الموحدين، فإنه وإن كان النداء قد يسمى دعاء كما في قوله تعالى ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ لكن ليس كل نداء عبادة، ولو كان كل نداء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات. فيكون كل نداء ممنوعا مطلقا، وليس الأمر كذلك. وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقدون ألوهيته واستحقاقه العبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه. فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى واعتقاد التأثير لغير الله تعالى، أما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته ولا تأثيره فإنه ليس عبادة، ولو كان لميت أو غائب أو جماد، وذلك وارد في كثير من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة.

والأحاديث الواردة عن النبيﷺ في زيارة القبور في كثير منها النداء والخطاب للأموات كقوله: «السلام عليكم أهل القبور، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون». وهي أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وقد تقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف يا رسول الله إني جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي[1].

من خلال هذا العرض الموجز لمسألتي التوسل والشفاعة والجوانب المختلف فيها بين أهل السنة والإمامية وبين أتباع السلفية اليوم، يتبين بما لا مجال للشك فيه أن الوهابية (السلفية) كالخوارج سابقا، أخذوا كل الآيات التي نزلت في المشركين فطبقوا مضامينها على ما يفعله المسلمون اليوم فكان فهمهم لهذه الآيات بسيطا وظاهريا، كما أداروا ظهورهم لمئات الأحاديث الصحيحة التي تخالف ما يذهبون

---

(١) شواهد الحق، م س، ص ١٧٢ – ١٧٣.

إليه، وعمدوا إلى تضعيفها والطعن في سندها، ولو صح لهم ذلك، فإنه يصح لخصومهم الطعن بدورهم في بعض الأحاديث التي يستند إليها هؤلاء الوهابية (السلفية)، وعليه فإن الحقيقة ستضيع لا محالة.

إن الوهابية يستندون حقيقة إلى المظاهر التي تلبس بها العوام عند ممارستهم للتوسل والشفاعة سواء بالرسولﷺ أو بباقي الأنبياء والصالحين. هذه المظاهر التي توحي بالشرك في العبادة، مما جعل أبناء الصحوة الإسلامية ينطلي عليهم هذا الفرق الدقيق فيهرعون زرافات للاعتقاد بمذاهب السلفية خوفا من الشرك وطلبا للتوحيد.

ولكنه التعبد والاعتقاد بالظواهر والمظاهر، وإغفال الأهم الذي هو الباطن والاعتقاد القلبي. فكم من منافق يلبس قصير الثياب ويرخي لحيته ويقف في الصفوف الأمامية عند الصلاة ويؤدي كل الحركات والأقوال المطلوبة، ويلهج بالإيمان والتقوى وهو ألد الخصام ومأواه جهنم وبئس المصير.

زيارة القبور وشد الرحال إليها:

أفتى ابن تيمية بتحريم شد الرحال لزيارة الصلحاء والأنبياء والأئمة مستدلا بما ورد من النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة[(١)].

وقالت الوهابية لا تجوز زيارة قبور الأئمة ولا تشد الرحال من الأماكن البعيدة لأجل زيارة قبر النبيﷺ وأنها من الشرك وعبادة لغير الله تعالى[(٢)].

أما أهل السنة والإمامية فاتفقوا على جواز زيارة القبور، ويظهر ذلك لمن راجع الكتب الفقهية الحديثية. ويكفي في ذلك ما أفتى به أئمة المذاهب الأربعة حيث جاء في كتاب «الفقه على المذاهب الأربعة» ما يلي: «زيارة القبور مندوبة

(١) بحوث في الملل والنحل، ج ٤ ص ١٣٧.
(٢) البراهين الجلية، ص ٦٤.

للاتعاض وتذكر الآخرة، وتتأكد يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها.

وينبغي للزائر الانشغال بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى، وقراءة القرآن للميت فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، إلى أن قال: ولا فرق في الزيارة بين كون المقابر قريبة أو بعيدة، بل يندب السفر لزيارة الموتى خصوصا مقابر الصالحين، وأما زيارة قبر النبيﷺ فهي من أعظم القرب»[١].

ومن الروايات التي تحث على زيارة القبور قولهﷺ: «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه فزوروها فإنها تذكر بالآخرة». رواه الخمسة إلا البخاري واللفظ للترمذي. ولا تنحصر الروايات الواردة في هذا المجال بهذا، بل هناك روايات متضافرة جمعها العلامة السمهودي في كتابه «وفاء الوفاء»[٢].

أما الحديث الذي تشبث به ابن تيمية والوهابية فقد تعرض له العلماء بالشرح والتحليل وأوضحوا المقصود منه. فقد روي عن الرسولﷺ أنه قال:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجد النبيّ، والمسجد الأقصى» رواه البخاري عن أبي هريرة.

وهذا الحديث الذي تمسك به الوهابيون والسلفية لا يدل على حرمة شد الرحال إلى زيارة القبور، والأماكن والمشاهد المشرفة، وذلك لأن الاستثناء الوارد في الحديث مفرغ قد حذف فيه المستثنى منه، فكما يمكن أن يكون تقدير المستثنى منه: «لا تشد الرحال إلى مكان من الأمكنة» يمكن أن يكون تقديره:

«لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد». ولكن المتعين هو الثاني لكون الاستثناء متصلا وهو يقتضي تقدير «المسجد» بعنوان مستثنى منه، لا غيره.

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة، ج١ ص٤٢٤-٤٢٥، آخر كتاب الصلاة. أنظر التوحيد والشرك، م س، ص٢٠٦.
(٢) التوحيد والشرك، ص ٢٠٧.

أضف إلى ذلك يقول الشيخ السبحاني: «أن الضرورة قاضية بجواز شد الرحال إلى طلب التجارة، وإلى طلب العلم، وإلى الجهاد، وزيارة العلماء والصلحاء، وإلى التداوي والنزهة، وأن المسلمين في مواسم الحج يشدون الرحال إلى عرفة والمزدلفة ومنى.. هذا مضمون الحديث ومعناه ومع ذلك لا يفهم من هذا الحديث وأشباهه حرمة السفر إلى باقي المساجد، بل هي ظاهرة في أفضلية هذه المساجد على ما عداها بحيث بلغ فضلها أن تستحق شد الرحال والسفر إليها للصلاة فيها. أما سائر المساجد فليس لها هذا الشأن.

كما أن النهي عن شد الرحال إلى سائر المساجد دون الثلاثة ليس نهيا إلزاميا بل هو للإرشاد إلى عدم ترتب ثواب وافر على التوجه إلى سائر المساجد.

ويدل على ذلك أن الرسولﷺ كان يشد الرحال إلى غير المساجد المذكورة في الحديث كما في صحيح البخاري: ففي باب إتيان مسجد قباء راكبا وماشيا»عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قباء راكبا وماشيا»[١].

أما الدليل على زيارة قبر الرسولﷺ وقبور الصالحين وغيرهم، فنذكر منها:

روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال النبيﷺ: من جاءني زائرا لا تعمله (تحمله) إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة.

وروي أيضا عن عبد الله بن عمر عن النبيﷺ أنه قال: من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي.

وأما فعله، فقد روي عن طلحة بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله يريد قبور الشهداء إلى أن قال: فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور إخواننا[٢].

---

(١) صحيح البخاري، ج ٢ ص ٦١، أنظر التوحيد والشرك، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ بتصرف.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، ج ١، ص ٣١١.

أما الإجماع فإطباق السلف والخلف، لأن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ﷺ، وأن منهم من يفعل ذلك قبل الحج، قال السبكي: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين إن ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مر السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عز وجل، ومن تأخر فإنما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه، وود لو تيسر له، ومن ادعى إن هذا الجمع العظيم مجمع على الخطأ فهو المخطئ[1].

وأقوال علماء أهل السنة في استحباب الزيارة لقبر الرسول كثيرة جدا وقد تتبع بعضها المحقق الأميني وجمعها في موسوعته القيمة منها:

قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادي الحنبلي المتوفى (سنة ٥١٠ هـ) في مناسكه: إذا كمل لك حجك وعمرتك على الوجه المشروع، لم يبق بعد ذلك إلا إتيان مسجد رسول الله للسلام على النبي والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين.

وقال الإمام ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي، المتوفى سنة (٧٣٧ هـ) في (المدخل) في فصل زيارة القبور (١: ٢٥٧)، أما عظيم جناب الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فيأتي إليهم الزائر، ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة.

وقال القاضي شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري المتوفى (سنة ١٠٦٢ هـ)

---

(١) بحوث في الملل والنحل، م س، ص ١٤٢ - ١٤٣.

في شرح الشفا (٥٦٦/٣) واعلم أن هذا الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد» هو الذي دعا ابن تيمية ومن معه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفا مستقلا وهي منعه من زيارة قبر النبي وشد الرحال إليه، وهو كما قيل:

لمهبط الوحي حقـا ترحل النجب وعند ذاك المرجى ينتهي الطلب

فتوهم أن حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها.

وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في تكملة السيف الصقيل (ص ١٥٦):

ولم يخف ابن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة النبيﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام ابن الوفاء ابن عقيل الحنبلي - وحاشاه عن ذلك - راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى والتوسل به، كما هو مذهب الحنابلة، ثم ذكر كلامه وفيه القول باستحباب قدوم المدينة وزيارة النبيﷺ وكيفية زيارته(١).

إلى ذلك من الأقوال والأدلة التي تنقض ما يذهب إليه السلفيون الآن، ويلبسون به على غالبية أبناء الصحوة الذين لا يعرفون عن تراث أهل السنة والإمامية شيئا يذكر في هذه المباحث والقضايا، فيتصورون إن الحق هو ما يكتبه دعاة السلف، خصوصا وكتبهم تمتلئ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات السلفية الموهومة واتفاق أهل العلم الذين لا يعرف من هم وأين كتبهم(٢). فضلا عن طباعة

(١) الغدير، ج ٥، ص ١٠٩ - ١٢٥، وقد نقل أربعين كلمة عن أعلام المذاهب الأربعة. وما نقلناه نحن فعن السبحاني، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٤٥ - ١٤٨.

(٢) يقول سليمان أخو محمد بن عبد الوهاب زعيم السلفية:» ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من علومهما ولا يبالي من خالفه. وإذا طلبت منه أن تعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه ومن خالفه فهو عنده كافر. هذا وهو - يقصد أخوه محمد - لم يكن فيه خصلة واحدة من خصال الاجتهاد، لا والله عشر واحدة ومع ذلك راج كلامه على كثير من الجهال» أنظر صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث. ص ١٥٦.

أنيقة متعددة الألوان والزخارف، ونشر مجاني على نطاق واسع جدا. في الوقت الذي تمنع الكتب الإسلامية التي تخالف السلفية وتحارب وتجمع من المعارض والمكتبات.

إن الخلاف حول هذه الأمور العقائدية متشعب ومتفرع، فليس ما ذكرناه هو كل ما اختلف حوله. بل هناك قضايا أخرى متفرعة عما ذكرناه لا يسعنا أن نأتي بها هنا لأنها قتلت بحثا وتمحيصا، وألف فيها الكثير من الكتب، ذكرنا مجملها عند حديثنا عن الردود الفكرية على الوهابية في الفصل الرابع، فمن أراد أن يتوسع في هذه المباحث فليراجع أحد تلك المصادر كي يشفي غليله.

وما ذكرناه كان الغرض من ورائه تقديم بعض الأمثلة حول هذه القضايا المختلف حولها وأن لأهل السنة أدلة قوية وراجحة في كل ما يعتقدونه أو يفعلونه في هذه المباحث بالذات، لا يقوم ولا يثبت الاختيار «السلفي» أمامها، بل ينهدم بنيانه وينقض صرحه. ونحن نجزم بأن غالبية أبناء الصحوة الإسلامية اليوم إذا ما تقبلوا عقائد السلفيين فإنما خوفا من الشرك وهروبا من مظاهره التي يرون غالبية العوام من أهل السنة متلبسين بها. بالإضافة إلى قلة الاطلاع والمعرفة الحقيقية بهذه المواضيع.

من هذه القضايا، البناء على القبور، والنذر لأصحابها، والعبادة عند القبور والأضرحة، والقسم بغير الله. وغير ذلك من المسائل العقائدية التي وضعها السلفيون في خانة الشرك. وقد فصل أهل السنة القول فيها وانتصروا بحجج القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح.

بالإضافة إلى قضايا أخرى اعتبرها السلفيون بدع محدثة لم تكن على عهد السلف الصالح. مثل الاحتفال بالمولد النبوي الشريف. بل إن هؤلاء قد توسعوا في مفهوم البدعة ليشمل الكثير من المستجدات في المأكل والمشرب وسائر الوسائل المادية المستخدمة في الحياة العامة. ولم يفرقوا بين الابتداع المحرم في الدين والمنهي

عنه، والذي يجعل الفعل أو العمل مطلوبا بل واجبا دينيا، وبين الفعل المباح سواء أكان له أصل في الشريعة أم لا. فكثير من الأعمال والأفعال التي يصفها الوهابيون بالبدعة، لها أصل في الشريعة، وهي إما مندوبة أو مباحة. وكما قلنا سابقا فهذه المباحث قد قيل فيها الكثير فلا داعي للإطالة بذكرها أو إعادة بحثها[١].

***

(١) نحيل القارئ إلى بعض الكتب المهمة والجامعة التي تنتصر لعقائد أهل السنة والإمامية في هذه المباحث. مثل: وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى للسمهودي، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي. وتكملة السيف الصقيل للمحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري. والتبرك لعلي الأحمدي.

اللامذهبية

السلفية والنهي عن تقليد المذاهب الفقهية:

ليست اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية كما يقول الدكتور البوطي فحسب، ولكنها تهدد وحدة المجتمعات الإسلامية وتماسك الفئات الفكرية والدينية فيها، وترسم للصحوة الإسلامية صورة مظلمة مخيبة للآمال وباعثة على اليأس لأي تغيير مهم يمكن أن يعرفه الوطن الإسلامي. كيف ذلك؟!.

لا بد وقبل الدخول في مناقشة هذه القضية، أو عرض آراء علماء أهل السنة والإمامية فيها. من تحرير محل النزاع كما يقول الفقهاء. ومحل النزاع هنا يبدأ بالفتوى أو التقرير الذي يروج له دعاة السلفية بين أبناء الصحوة ومضمون ذلك.

قولهم»لا يجوز للمسلم التزام مذهب معين من المذاهب الأربعة ومن فعل هذا فقد كفر، وضل عن صراط الإسلام. وإن عليه أن يأخذ من الكتاب والسنة مباشرة»[1].

ويضيفون: «إن المذاهب أمور مبتدعة حدثت بعد القرون الثلاثة، فهي ضلالة بدون شك»[2]. كما أن اتباع الكتاب والسنة هو اتباع لمعصوم. أما تقليد المذاهب واتباعها فهو اتباع غير المعصوم.

وبناء على ذلك فقد ذهب محمد سلطان الخجندي المدرس السلفي بالمسجد الحرام وهو صاحب الأقوال السابقة إلى نعت المقلدين للأئمة المجتهدين بالحمق

---

(١) اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

والجهل والضلال. وبأنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا وبأنهم ممن قال الله عنهم ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ وبأنهم ﴿الأخسرون أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[(١)]. بل أنه تمادى كغيره من السلفيين في السب والقدح الجريح. وراح يشبه المقلدين لمذاهب الأئمة بالحمر المستنفرة، ويصفهم بالدجل والمعاندة والوصول ولكن إلى الشيطان[(٢)].

المذاهب الفقهية صنعتها السياسة:

لقد اتضحت صورة الخلاف أمام القارئ، فالسلفيون يرفضون المذاهب الفقهية الثلاثة ولا نقول الأربعة لأنهم يناصرون جل ما يذهب إليه المذهب الحنبلي في الفروع مع إضافات قليلة، زادها ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. مع العلم أنهم لا يأخذون بما قاله ابن تيمية بخصوص فتوى الطلاق الثلاث. لأنه خالف السلف - أي عمر بن الخطاب - فيها. كما يرفضون المذهب الفقهي الإمامي جملة وتفصيلا. والسبب في هذا الرفض ليس فقط لأن هذه المذاهب قد أنشأتها السياسة، لأنه ما من مذهب من هذه المذاهب المعروفة إلا وللسياسة فيه اليد الطولى.

فمذهب «الحشوية» آباء السلفية المعاصرين لم يكن لينهض على رجليه ويقف يصارع خصومه وينتصر عليهم، لولا دعم الخليفة المتوكل لأصحابه والانتصار لهم وقتل خصومهم. وهذا مسطر في كتب التاريخ، ولا يحتاج إلى دليل. أما المذهب السلفي المعاصر فإنه نشأ وترعرع في أحضان الدولة السعودية، ولولا كونه أحد دعائم الحكم في هذه المملكة اليوم لما استطاع أن يبني له صرحا من المؤسسات والدعاة الذين يبشرون بآرائه عبر العالم.

وإذن ففكرة رفض هذه المذاهب لكونها من صنع السياسة منتقض على نفسه لأن المذهب السلفي أشد التصاقا بالمصالح السياسية للدولة السعودية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣ نقلا عن كراس وزعه السلفيون، كتبه السلفي المذكور قبل قليل.

المذاهب الفقهية بدعة:

أما كون هذه المذاهب حدثت بعد القرون الثلاثة وهي بذلك مبتدعة، فهذا لا يصح، ويعبر عن جهل بالتاريخ الإسلامي. يقول الدكتور إبراهيم حسن: «... إن العصر العباسي الأول كان عصر أئمة مذاهب السنة الأربعة وهي مذهب أبي حنيفة. ومذهب مالك. ومذهب الشافعي، ومذهب ابن حنبل. وقد ظهر في العصر العباسي الثاني بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب في الفقه، ولكن لم يقدر لها الاستقرار والذيوع أمام المذاهب الأربعة[١].

ويكفي أن نعرف أن الإمام أحمد بن حنبل وهو آخر الأئمة الأربعة توفي (سنة ٢٤١ هـ) أي قبل أن ينتصف القرن الثالث. أما مالك فتوفي (سنة ١٧٩ هـ). إذن فقد عاش هؤلاء الأئمة ضمن القرون الثلاثة التي وصفها الحديث المعتمد لدى السلفية، بالخيرية. وقد انتشرت خلال هذه القرون وعرفت لها أتباعا ومقلدين. ويكفي أن يعلم أن قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد كان أبو يوسف صاحب أبي حنيفة وناشر مذهبه. ولن نستمر في صرد المعلومات التاريخية التي قد يعرفها طالب المرحلة الثانوية إن لم نقل قبل، فما بال علماء السلفية يجهلون أو يتجاهلون هذه الحقائق[٢].

على العوام أن يستنبطوا الأحكام الفقهية:

ولنعود إلى صلب الموضوع، وهو أن دعاة السلفية يرفضون تقليد المذاهب الأربعة ويأمرون الناس جميع الناس بأن يأخذوا أحكامهم مباشرة من الكتاب والسنة، ويقولون إن ذلك أمر يسير سهل لا يحتاج أكثر من الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود وجامع الترمذي والنسائي، وهذه الكتب مشهورة يمكن تحصيلها في

---

(١) تاريخ الإسلام، دار إحياء التراث العربي، ج ٣ ص ٣٤٧.

(٢) إن قولهم في المذاهب الفقهية بأنها بدعة ظهرت بعد القرون الثلاثة الأولى ينطبق فعلا على المذهب الحنبلي الذي يصدرون عنه فقد» نقل عن الإمام الغزالي إن الاعتراف بفقه الحنابلة كان حوالي سنة (٥٠٠ هـ) ، أنظر بحوث مع أهل السنة والسلفية، ص ٢٠١.

أقرب وقت، فعليك بمعرفة ذلك، يقول الخجندي السلفي: وإذا لم تعرف أنت ذلك وسبقك إليه بعض إخوانك وفهمك باللسان الذي أنت تعرفه، لم يبق لك بعد هذه عذر.. أما إذا تعددت الرواية عن رسول الله ﷺ في بعض الأمور ولم تعلم المتقدم والمتأخر ولم يتبين التاريخ، فعليك أن تأتي بكلها، تارة بذا، وتارة بذلك[1]».

وعليه فإن العامة بعد ما يرفضون تقليد المذاهب الأربعة لأنها بدعة وضلال وكفر، عليهم أن يشتروا موسوعات الحديث ويعتكفوا على استنباط الأحكام منها مباشرة، في الصلاة والزكاة وسائر المعاملات. وإذا ما وجدوا تعددا في الروايات فعليهم أن يأخذوا بها كلها، «تارة بذا، وتارة بذلك» كيف يكون ذلك؟! وهل يمكن أن يقوم العامة بهذا العمل؟!.

قد يقول هذا السلفي إن المقصود ليس العامة لأن غالبيتهم جهال أميون.

وإذن يقصد طلبة العلم؟ أي علم؟ هل طلبة العلم الشرعي؟ أم كل من يقرأ ويستطيع أن يفهم الأحاديث والروايات؟!.

إن هذا الكلام متهافت، ومن الصعوبة على العاقل أن يناقش الحمق أو يجادل من لا يفقهون حديثا. وقد فهم أبناء الصحوة الإسلامية من هذا الكلام أن يرفضوا كل ما هم عليه من تقليد المذاهب الفقهية، وراح أغلبهم يقرأ ويفتش في صحيح البخاري ومسلم عن الأحاديث ليعمل بمضمونها، خصوصا في الصلاة وبعض القضايا المتفرقة.

وانتشرت بذلك الجدالات والنقاشات التي لا تنتهي، في كل تجمع، وفي كل مدرسة أو جامعة تجد الجدال قد احتدم حول رواية أو حديث يأمر بعمل ما أو ينهى عنه، البعض يرفض والآخر يشكك في صحة النقل أو المصدر، والبعض الآخر يصف الحديث بالضعف، أو يشكل على فهم الناقل وشرحه.

---

(١) اللامذهبية، م س، ص ١٥، نقلا عن الخجندي.

وهكذا لن تجد داخل الجماعة الواحدة من يتفق مع»أخيه في الله»في قضية أو مسألة فقهية أو أصولية. وقد تعدى الأمر إلى تفسير القرآن وشرح آياته.

وإذا كان كل واحد غير مستعد للتنازل عن رأيه أو فكرته ونقله. فإن النتيجة الواقعية والمشاهدة هي انتشار الاختلافات الفقهية والأصولية على نطاق واسع جدا. يستحيل معه بعد ذلك جمع هذه الآراء أو الاجتهادات المتناقضة ضمن إطار واحد أو أطر متعددة لكن واضحة المعالم. فلقد أصبح كل طفل أو مراهق أو شيخ طاعن في السن مجتهدا في الدين الإسلامي برمته. يقرأ كتب الحديث ويطالع التفاسير ويأخذ منها ما شاء له أن يأخذ، ويترك ما شاء له أن يترك، دون قيد أو شرط أو حتى حسيب أو مرجع يمكن أن يعرض عليه اجتهاده لتصويبه أو تقييمه. ويزداد الطين بلة عندما نعرف أن أغلب من يقوموا بهذا العمل - أي الاجتهاد على الطريقة السلفية - لا يحسنون تلفظ جملة بالعربية دون خطأ، فحضهم من قواعد العربية هزيل جدا، أما اطلاعهم على لغة العرب وأساليبها ومعاني مفرداتها، فأهزل وأضعف.

لكنهم يستطيعون القراءة وقد يفهمون مجمل الكلام الوارد في الآية أو الحديث. ومع ذلك فقد تحول الواحد منهم بين عشية وضحاها إلى مجتهد كامل الاجتهاد بل مفتيا، يفتي في الأموال والأعراض والأرواح بجرأة وحرية لم يشتهر بها الأئمة الأربعة الذين قال أحدهم «لا أدري نصف العلم».

وكانوا يتهربون من الفتوى هروبهم من الأسد كما قيل. وكانوا إذا ما سئلوا عن ذلك، قالوا لقد كان الصحابة قبلنا يتهربون من الفتوى وهم أعلم منا وأعرف بالإسلام وبالقرآن والحديث. أما تلامذة هؤلاء السلفية فإنهم لا يجدون حرجا في الحكم أو القضاء في مسائل دقيقة. تحتاج إلى المختصين في الشريعة الإسلامية.

لكن الأدهى والأمر، ليس قيام بعض الطلبة وأنصاف المتعلمين بالاجتهاد والإفتاء فقط. ولكن دخول العوام من الفعلة والحرفيين والتجار في هذا الباب.

فما دام قد أصبحوا سلفيين: أطلقوا لحاهم وقصروا ثيابهم وكحلوا عيونهم، فإن شروط الاجتهاد قد كملت فيهم. وليس أصعب على العالم من نقاش هذه الطبقة الجديدة من المجتهدين. يقول الدكتور البوطي:

إن هؤلاء الذي نحب أن نرشدهم إلى الجادة والسبيل القويم، ليس فيهم من يقبل تقليد أي إمام من الأئمة الأربعة وأنما الكل يزعم الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، وطالما رأينا أشباه الأميين من هؤلاء الناس وأن أحدهم لا يقبل على أي حال فتوى إمام من الأئمة الأربعة حتى نكشف له عن دليل هذا الإمام والحديث الذي اعتمده، ثم نشرح له بعد ذلك قوة الدليل وصحته وسند الحديث ومستوى رجاله، كأنه خبير حقا بعلم السند والأدلة والرجال، فإما صحح مذهب هذا الإمام بعد ذلك أو شطب عليه بالتخطئة والتسفيه![١].

مذاهب فقهية بالآلاف:

وعليه فإننا اليوم أمام مذاهب فقهية تعد بالآلاف، فكل سلفي، عالم بالشريعة أو أمي هو مشروع مذهب فقهي وأصولي متكامل. وليس ذلك مبالغة منا لأن الواقع يشهد بصحة ما نقول وزيادة.

وهناك ملاحظة أود أن أشير إليها وهي أن الصحوة الإسلامية قبل أن يستلم الوهابيون زمام توجيهها كانت قد انطلقت من الفكر الإخواني المصري في الغالب الأعم، وهذا الفكر كان يدعو أبناءه إلى الالتحاق بالمدارس والكليات العلمية، والاجتهاد في التحصيل العلمي الطبيعي لكي يعرف عامة المسلمين والغرب أن الإسلام دين العلم والتقدم. وليس كما يشاع عنه أنه دين الخرافات والتخلف. لذلك فقد شهدت فترة السبعينات سيطرة الإسلاميين الفعلية على المقاعد الأولى في الكليات العلمية وبرز منهم متفوقون ونابغون في الطب وعلوم الفيزياء

(١) اللامذهبية، أنظر الهامش، ص ١٥.

والرياضيات. وكان هؤلاء إلى جنب ذلك إسلاميين يشاركون في النشاط الدعوي والإسلامي العام.

لكن الانتكاسة التي عرفها هذا الفكر المتنور والضربة المؤلمة التي وجهها له غزو الفكر السلفي للساحة الإسلامية، قد حولت اتجاه أبناء الصحوة، فبدل الالتحاق بالمعاهد والكليات العلمية، ثم التوجه والانكباب على كليات الشريعة والدراسات الإسلامية خاصة. بل أصبح متعارفا لدى أبناء السلفية الابتعاد عن دراسة العلوم العصرية واللغات الأجنبية لأن ذلك لا يقرب إلى الله(١).

ونحن عندما نشير إلى هذه الحقائق بالذات، فإنما للإشارة إلى أن الكثير من أبناء الصحوة الإسلامية الذين تأثروا بالفكر السلفي وكانوا يتابعون دراساتهم في المدارس أو الجامعات وينتسبون للمعاهد والكليات العلمية. فحضهم من علوم العربية بسيط، ومعرفتهم بالشريعة وتاريخ الإسلام هزيلة. لكنهم وبفضل الفكر السلفي أصبحوا مجتهدين، يتصفح الواحد منهم كتب الحديث ويأخذ منها ما يشاء من أفكار وأحكام، ثم يبدأ في الدعوة والتبليغ وممارسة ما قرأه وما اعتقده. وهذه الفئة صعبة المراس في النقاش، وغير مستعدة للتنازل عما تؤمن به. أما إذا ذكرت لهم سند الحديث وفقه متنه، أو أن اختيار العلماء بخلافه لأنه معلول، بالنسخ أو معارضته لأقوى منه؟ فإن كلامك هذا ستذروه الرياح، لأن آذان القوم قد ملئت وقرا فهم صم عمي لا يعقلون.

إن رفض السلفية لتقليد المذاهب الفقهية، وإعلانهم فتح باب الاجتهاد لكل قارئ غير مختص يمكنه أن يطلع على كتب الحديث والتفسير، تجعل من هذا القارئ مجتهدا. صاحب رأي وفكرة لا يمكنه أن يتنازل عنها بسهولة، خصوصا إذا

---

(١) يقول صاحب كتاب العقيدة الوسطية، وهو سلفي معاصر معلقا على قول عمر بن الخطاب» ما تعلم رجل الفارسية إلا وخب، وما خب رجل إلا ونقضت مروءته "، يقول هذا السلفي:» بلغ يا أخي هذا الكلام للذين يتعلمون اللغة الإنجليزية؟!.

علمنا أن غالبية أبناء الصحوة في سن الشباب، حيث تكثر الأمراض الثقافية، والتسابق على الريادة المعرفية، فالشاب منهم غير مستعد للتنازل عن فكرته أو رأيه ليعتنق فكرة صديقه الذي لا يكبره سنا، بل قد يكون أصغر منه؟. وهكذا تضيع الحقيقة، وتنتشر الخلافات والجدالات كقطع الليل المظلم، تلف الساحة الإسلامية مجتمعا ودينا.

فتح باب الاجتهاد:

إن الشبهة التي قد تكون معتمد السلفية، والحجة البالغة التي تستند إليها دعوتهم «اللامذهبية» هي في إعلان فتح باب الاجتهاد الذي أغلقته السياسة، وهذا المشروع كان قد أعلنه عدد من علماء أهل السنة ومثقفيهم، وما زالت الدعوة طرية، تدور حولها النقاشات وتعقد لها المؤتمرات، والكل متفق على أن فتح باب الاجتهاد شرط ضروري لتحقيق الإقلاع الحضاري العام للأمة الإسلامية، أضف إلى ذلك ضرورة الاجتهاد في الدين والحياة.

وبالفعل فقد أثمرت هذه الدعوات، الكثير من النتائج وعلى جميع الأصعدة. وإن لم تكن كافية، لكن التجربة قد انطلقت منذ مدة ليست قصيرة، والزمن كفيل بتحويل كمها إلى كيف جديد وواعد.

كما أن دعوات التعصب للمذاهب الفقهية، والالتزام الحرفي بكل ما جاءت به أو احتضنته كتب أصحابها، لم تعد تجد آذانا صاغية. فقد أجمع أئمة هذه المذاهب على أنه «إذا صح الحديث فهو مذهبي». وعليه فتشبث أي مقلد (عالم أو أمي) برأي إمامه أو مذهبه الذي يخالف ما ثبت من الحق، أو ما توصل إليه المحققون من صواب وحقائق جديدة غابت عن الأئمة، يعتبر تقهقرا للوراء وانتصارا للجهل ليس إلا. ومخالفة صريحة لأصول المذهب.

وهذه الفئة المتعصبة في تقليد المذاهب ليست ذات شأن اليوم، وسيجرف

التغيير والتطور بقاياها الأخيرة. لأن الاجتهاد أصبح ضرورة للإحياء الديني والحضاري العام.

طبعا وجد من يتعصب لهذه المذاهب، بل يدعي كفر من لم يقلدها، أو خرج عنها، بحجة كذا أو كذا. لكن زلزال الاجتهادات سيحطم كل تلك البناءات الزائفة. والمهم أن علماء أهل السنة مقتنعون بالجملة على فتح باب الاجتهاد وممارسته. للإجابة أولا على كل المستجدات، وبيان رأي الإسلام فيها. ثم لترتيب وضع المذاهب من الداخل، فما هو مخالف للحق والواقع يتجاوز أو يشطب عليه. أما غير ذلك فيستفاد منه كثروة اجتهادية فقهية وقانونية لا تمتلكها أمة أخرى غير أمة الإسلام.

ونحن عندما نقول فتح باب الاجتهاد، نخص أهل السنة بالذكر، لأن باب الاجتهاد لم يغلق عند الشيعة الإمامية في يوم من الأيام، ولا يزال مفتوحا. والفقه الشيعي الإمامي مشهود له في الأوساط العلمية والأكاديمية بمواكبة المستجدات العامة على الساحة الإسلامية.

وإذا كان أهل السنة يدعون لفتح باب الاجتهاد ويمارسونه، فأين يكمن المشكل مع السلفية الذين يدعون بدورهم إلى الاجتهاد، والذي سيؤدي بالضرورة إلى رفض الكثير من فتاوى وآراء المذاهب الفقهية القديمة. إن الخلاف بينهما في شروط الاجتهاد ومواصفات المجتهد.

فالذين ناصروا في الماضي فكرة إغلاق باب الاجتهاد، تحججوا بقلة العلماء وسيطرة أنصاف المتعلمين على الواقع الديني آنذاك. ولو سمح لمثل هؤلاء بالاجتهاد لانهدمت أركان الدين، ونسفت أصول الشريعة. لذلك كان العلاج في وقف الاجتهاد كما قيل وادعي؟!.

وأهل السنة اليوم عندما ينادون بفتح باب الاجتهاد، لا يقصدون أن يكون ذلك في متناول أطفال المدارس وشباب الصحوة الإسلامية. من المراهقين وأنصاف

المتعلمين. وإنما يؤمنون بأكثر الشروط التي وضعها القدماء للاجتهاد بخلاف السلفية الذين يدعون عامة الناس للاجتهاد وتحصيل الأحكام الدينية من مصادرها الأصلية (الكتاب والسنة).

شروط الاجتهاد:

يقول محمد نوري «إن الاجتهاد أمر مشروع بإجماع من يعتد بأقوالهم من علماء المسلمين، وثبت بالسنة المطهرة، ولكن لأهله..»[1].

قال الأسنوي: شرط الاجتهاد كون المكلف متمكنا من استنباط الأحكام الشرعية. ولا يحصل هذا التمكن إلا بمعرفة أمور:

(أحدها) كتاب الله تعالى، ولا يشترط معرفة جميعه، كما جزم به الإمام الرازي وغيره، بل يشترط أن يعرف منه ما يتعلق بالأحكام، وهو خمسمائة آية كما قاله الإمام. قال: ولا يشترط حفظه عن ظهر قلب، بل يكفي أن يكون عارفا بموقعه حتى يرجع إليه في وقت الحاجة.

(الثاني) سنة رسول الله ﷺ، ولا يشترط أيضا فيها الحفظ ولا معرفة الجميع.

(الثالث) الإجماع فينبغي أن يعرف المسائل المجمع عليها حتى لا يفتي خلاف الإجماع.

(الرابع) القياس. فلا بد أن يعرفه ويعرف شرائطه المعتبرة، لأنه قاعدة الاجتهاد، والموصل إلى تفاصيل الأحكام التي لا حصر لها.

(الخامس) كيفية النظر فيشترط أن يعرف شرائط الحدود والبراهين، وكيفية تركيب مقدماتها، واستنتاج المطلوب منها، ليأمن من الخطأ في نظره.

---

(١) ردود على شبهات السلفية، ص ٣٤٣.

(السادس) علم العربية من اللغة والنحو والتصريف، لأن الأدلة من الكتاب والسنة عربية الدلالة، فلا يمكن استنباط الأحكام منها إلا بفهم كلام العرب إفرادا وتركيبا، ومن هذه الجهة يعرف العموم والخصوص، والحقيقية والمجاز[١]، والإطلاق والتقييد، وغيره.

(السابع) معرفة الناسخ والمنسوخ، لئلا يحكم بالمنسوخ المتروك.

(الثامن) معرفة حال الرواة، إلا أن أحوالهم في زماننا تعرف من الكتب المؤلفة في ذلك..»[٢].

هذه هي شروط الاجتهاد عند أهل السنة والتي لا يعرف عنها مجتهدو السلفية من العوام وأنصاف المتعلمين شيئا. وهي شروط علمية لا بد من تحصيلها ليتمكن المجتهد من استنباط الأحكام والقول في دين الله بعلم وهدى.

أما الشيعة الإمامية فيرون أنه يجب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الاجتهاد في غير الضروريات من عباداته ومعاملاته ولو في المستحبات والمباحات أن يكون إما مقلدا أو محتاطا بشرط أن يعرف موارد الاحتياط، ولا يعرف ذلك إلا القليل، فعمل العامي غيرُ العارف بمواضع الاحتياط من غير تقليد باطل[٣].

---

(١) يقول محمد نوري الديرثوي:» بلغنا أن عبد العزيز بن باز الضرير، رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، كان يدرس في الحرم النبوي على ساكنه الصلاة والسلام، وتطرق يوما لموضوع الحقيقة والمجاز، وادعى استحالة وقوع المجاز في الكتاب والسنة، بحجة أنه لا يقصد منه معناه الحقيقي، فهو إذن كذب، والكذب محال الوقوع في الكتاب والسنة، فقام أحد المسلمين السوريين الموجودين هناك وقال: ما رأي الأستاذ في قوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو من الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾، يعني أنه إذا فسرنا الأعمى بفاقد البصر على الحقيقة، ولم نقل: أن المراد به من كان قلبه أعمى عن إدراك الحق، على المعنى المجازي فماذا يكون مصيرك يوم القيامة وأنت فاقد البصر في الدنيا؟ قال: فبهت وسكت» أنظر المرجع السابق، ص ٣٤٧، الهامش.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٦ - ٣٤٧. عن نهاية السؤل، للأسنوي: ٣ / ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) تحرير الوسيلة، آية الله العظمى السيد روح الله الموسوي الخميني، ج ١، فروع التقليد، ص ٥.

ويقول الشيخ السبحاني: «للاجتهاد مؤهلات وشرائط محررة في محلها، أعظمها وجود ملكة قدسية يقتدر معها الإنسان على استخراج الفروع عن الأصول، وأما الإفتاء بالحكم على ضوء النص الصريح الوارد فيه فليس إلا مرتبة ضعيفة من الاجتهاد. والاجتهاد المطلق يستدعي ذهنا وقادا مشققا للفروع ومستخرجا إياها من الأصول إلى غير ذلك مما يقوم به أئمة الفقه»[1].

وبما أن باب الاجتهاد لم يقفل عند الإمامية، فإن عامة الشيعة ومتعلميهم وطلبة العلوم الشرعية يقلدون الفقهاء المجتهدين. فكل فقيه وصل درجة الاجتهاد بعد تحصيل شروطه، يحق له أن يكتب فتاويه ويصدرها على شكل مسائل مرتبة ومبوبة تشمل جميع القضايا الدينية والحياتية، من الوضوء والطهارات، إلى أدق المسائل والمشكلات التي تواجه المسلم الشيعي في حياته اليومية.

لذلك من النادر جدا أن يخلو البيت الشيعي من هذه الكتب الخاصة بالمسائل والفتاوي. وعليه فالخلافات والاختلافات في الفروع الفقهية تكاد تنعدم في المجتمع الشيعي الإمامي، لأن غالبية الناس تقلد الفقهاء المجتهدين، وهم بكثرة في الحوزات (المدارس) العلمية. ولن تجد قارئا أو مفكرا أو عالما مهما بلغ علمه وثقافته يفتي الناس في الأمور الفقهية إن لم يكن فقيها مجتهدا مشهودا له بالفقاهة والعلم. فتجد الرجل منهم متبحرا في علوم العربية وله ثقافة إسلامية واسعة، لكنه يقلد أحد المراجع - الفقيه المجتهد - ويحتفظ لنفسه بنسخة من فتاويه ليتعبد بها.

هناك بالطبع اختلافات بين المقلدين الذين تتقاسمهم مرجعيات متعددة، لكن المجتمع الإمامي يعيش انسجاما على مستوى التعبد والالتزام بالواجبات الإسلامية. كما كان عليه أهل السنة سابقا، هذا الفريق يقلد الإمام مالك، وهذا الفريق يقلد الشافعي، وآخر يقلد مجتهدا ثالثا.

---

(١) السبحاني، م س، ج ١ ص ٣١٣.

هناك مذاهب اجتهادية محددة وواضحة المعالم، يقف وراءها فقهاء ومجتهدون حرفتهم الفقه، وشغلهم الاجتهاد والاستنباط، ودراسة العلوم الإسلامية للتبحر فيها واستيعاب قضاياها.

فالإمامي إما أن يكون مقلدا مهما كانت درجة أعلميته وثقافته. وإما مجتهدا يستطيع استنباط الأحكام لنفسه أو لغيره من المقلدين. أما ما هو موجود الآن في مساجد ومنتديات غير الشيعة، من الاختلافات الكثيرة حول الوضوء والصلاة واللباس والأكل وغير ذلك. فلا وجود له بتاتا لدى الإمامية.

إن الدعوة إلى نبذ التقليد، ومطالبة الناس بأخذ الأحكام الدينية مباشرة من الكتاب والسنة، دعوة فيها الكثير من المغالطات، لكن يراد بها أن تحقق بعض الأهداف، وهي فعلا سائرة نحو تحقيق ذلك.

وهي بدعة منكرة لم يعرفها السلف الصالح الذين وضعوا أسس الاجتهاد والتقليد. ولم يسمع من أحدهم أنه طلب من كافة الناس أن يقرأوا الأحاديث والتفاسير، وأن يعملوا بما يصلون إليه. ولكن علم أن الجاهل منهم كان يرجع للعالم، كانت الناس ترجع للصحابة بعد رسول اللهﷺ يسألونهم الحكم ورأي الإسلام في كل قضية، وكذا من التابعين، وليس التقليد سوى ذلك، رجوع الجاهل للعالم، ولما ظهر الأئمة والفقهاء المختصون قعدوا القواعد، و أصبح الاجتهاد علما دقيقا ومتفرعا، غير متيسر لأي كان أن يبلغ درجته.

وهذه معلومات تاريخية تملأ بطون الكتب ولا يمكن التنكر لها.

ويكفي أن نذكر السلفية بما قاله زعيمهم وإمام مذهبهم أحمد بن حنبل بخصوص الاجتهاد. فعن الحسين بن إسماعيل قال: قيل لأحمد بن حنبل وأنا أسمع: يا أبا عبد الله كم يكتب الرجل حتى يمكنه أن يفتي؟ يكفيه مائة ألف؟

قال: لا، قيل له: مائتا ألف؟ قال: لا، قيل: ثلاثمائة ألف؟ قال لا، قيل:

أربعمائة ألف؟ قال: لا، قيل: خمسمائة ألف؟ قال: أرجو»[١].

فهذا إمام السلفية يرجو لمن كتب نصف مليون حديث أن يتمكن من الإفتاء. ودعاة السلفية يطلبون من العامة وأنصاف المتعلمين ممن لم يقرأ في حياته أربعين حديثا نبويا، أن يجتهد ويأخذ الأحكام بنفسه من المصادر؟!.

إن سيرة ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وما كتباه بخصوص التقليد والاجتهاد، لا يمكن أن يستدل بهما على ما تدعو السلفية إليه اليوم. لأن ابن تيمية إذا كان قد رفض تقليد الأئمة الأربعة فلأنه رأى في نفسه القدرة على الاجتهاد، وقد كان واسع الاطلاع على كتب الحديث والفقه، مشتغلا بتحصيل هذين العلمين وغيرهما. ومهما قيل عن اجتهاداته فإنه لم يكن عاميا وكذا تلميذه، وهما معا متفقان على أن الجاهل يرجع للعالم، وأن العامي لا بد له من الرجوع إلى الفقيه العالم إذا أراد معرفة مسألة معينة، لأنه قاصر على الوصول إليها وحده!.

إن النقاش في هذه القضية مستفيض وشائك، لكن يمكن اختصاره في جملة واحدة وهي قوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

وأبناء الصحوة الإسلامية إذا لم يكن الواحد منهم مختصا، فقيها مجتهدا، فهو لا يعلم، وعليه الرجوع إلى أهل الذكر. إلى العلماء والفقهاء. ولا يكفي فهمه للحديث إن كان قارئا، فقد يكون الحديث ضعيفا. قد يكون هناك حديث أو أحاديث أخرى في نفس القضية تنسخ هذا الحديث وتلغي مضمونه، وقد يحتاج الحديث إلى معرفة سبب وروده لكي يعرف مضمونه وقصده بالتحديد وقد؟ وقد؟. وإلا علينا أن نلقي بكتب علوم الحديث وعلوم القرآن، وعلوم العربية وغيرها في البحر، لأن لا فائدة من ورائها!؟.

والذي يطلع على واقع الصحوة الإسلامية في هذا الميدان بالذات، لا يسعه إلا أن يدعو لتقليد المذاهب، بل يتعصب في الدعوة لها. وذلك لأن الخرق قد اتسع على الراقع في أمور جزئية كان قد انتهى منها. فكما قال ذلك الفقيه المالكي إن

---

(١) طبقات الحنابلة، م ص ١٠٠ - ١٠١.

القبض في الصلاة ووضع اليد على الأخرى له سبعة عشر صورة فأيهم نأخذ بها؟! وعندما تدخل مسجدا من المساجد تكاد لا تجد شخصا يتفق مع غيره في وضع اليد، التي تبدأ أوضاعها من تحت الصرة وإلى العنق؟!.

أما فهم أحكام الإسلام ومقاصد الشريعة فإن المراهقين يتصدرون المجالس لبيان حكم الإسلام في أدق القضايا المرتبطة بمصير الأمة الإسلامية، وفي جرأة لم يعرف التاريخ لها مثيل، يفصلون ويحكمون، دون الرجوع إلى مصدر عليم.

وتحضرني قصة رواها لي أحد الأصدقاء عن داعية سلفي شاب، استطاع أن يقنع فرنسيا بالإسلام وفعلا اطلع هذا الفرنسي على بعض الكتب وانشرح صدره لاعتناق الإسلام. وبعد أيام من اعتناق هذا الرجل للإسلام، جاءه هذا السلفي وأخبره - وقد كان الفرنسي يعمل مصورا ويعشق مهنته - بأن عليه أن يترك مهنة التصوير، لأن هذه المهنة محرمة في الإسلام. ناقش الفرنسي هذا الداعية السلفي في حكم الإسلام، وهل حقيقة أنه يحرم ولا يجوز الاشتغال بمهنة التصوير الفوتغرافي، فكان رد السلفي حاسما قاطعا، إن دخولك في الإسلام يعني إلغاء مهنتك. فما كان من الفرنسي إلا أن تراجع عن اعتناقه للإسلام لأنه يحب مهنته ولا يرى أي تعارض بينها وبين الإيمان بالله أو اعتناق الإسلام.

إن فقه السنة ومعرفة مقاصد الشريعة، والاطلاع على تاريخ التشريع يجلى الغموض حول الكثير من القضايا المختلف فيها، ولا يتم ذلك بالنسبة للأغلبية إلا بسؤال أهل الذكر كما قال تعالى.

وقد سئل أمير أهل الذكر على بن أبي طالب يوما عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود» فقال عليه السلام: إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار..»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة، للشيخ محمد عبده، منشورات الأعلمي، ج ٤ ص ٥.

أنظر فقه الحديث، عندما يسأل الناس علماء هذه الأمة وعارفيها. ولو قرأ هذا الحديث سلفي من نجد، لطفق يكفر كل من يتشبه باليهود في مظهرهم.

أما عندما يقرأ السلفيون بعض الأحاديث الواردة في المرأة والتي نعتقد أن الكثير منها لا يحكي رأي الإسلام، وإنما وجهة نظر الأعراب الذين اختلقوا هذه الأحاديث ونسبوها للرسولﷺ. فإن الدهشة والعجب تملكنا، فهم يمنعونها من سياقة السيارة ومن العمل إلا في النادر، بل منهم من لا يؤمن بتعليمها أو تحصيلها العلم، وذلك لوجود أحاديث في ذلك خوفا عليها من الفتنة. وغير ذلك مما يعرفه الجميع.

إن الدعوة إلى تجاوز المذاهب الفقهية، قد أحدثت بلبلة كبيرة في الساحة الإسلامية وفتحت الأبواب للأهواء المختلفة والمتضاربة لكي تصبح دينا يتعبد به، وحكما شرعيا في الأرواح والأموال والأعراض.

ففي الجزائر ومصر اليوم شباب مراهق يصدر فتاوى القتل بسهولة ويسر.

والفضل للمنهج السلفي الذي جعل منهم فقهاء مجتهدين دون عناء يذكر، والفضل كذلك وفي الأساس يرجع لابن تيمية الحراني قدوة هؤلاء الشباب ومثالهم المحتذى. لذلك لم يعد الحقيقة ذلك الكاتب المصري الذي قال إن ابن تيمية هو الذي قتل أنور السادات!!.

أما عن الأهداف الاستراتيجية التي سيصل إليها دعاة اللامذهبية فهي بالنتيجة القضاء النهائي على المذاهب الفقهية والأصولية لأهل السنة، فالمذهب الحنبلي السلفي في طريقه لابتلاع هذه المذاهب. وهذه الفوضى الفقهية والفتوائية إنما تعبر عن مرحلة انتقالية، مرحلة الهدم من أجل البناء. هذا البناء الجديد الذي يراد له أن ينطلق من مملكة السلفيين، ويتحكم في جميع أطراف الرقعة الجغرافية والدينية لأهل السنة والجماعة.

أما الشيعة الإمامية فإن السلفيين لم ولن يستطيعوا أن يخترقوا سدهم المنيع،

مهما طبعوا من كتب وروجوا من أكاذيب حول كفرهم ويهوديتهم وعدائهم للإسلام والمسلمين.

إنما الخوف على مذاهب أهل السنة التي بدأت فعلا تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لكن السلفيين لن يتركوا الساحة السنية تنعم بهذه الفوضى الفقهية طويلا، لأن الغرض من هدم المذاهب القديمة لتحل محلها المذاهب الجديدة،، مذاهب تصنع في نجد والرياض، وتوزع على باقي أنحاء العالم الإسلامي. ومن يخالف أو يجادل أو يرفض ويعترض فإن ألف وسيلة ووسيلة قد وجدت وتوجد لإسكاته وإزاحته من الطريق، ومن بينها بلا شك جنود معاوية الغارقة في العسل.

وأخيرا نقول لضحايا المكر السلفي: «إن البسطاء الذين تركوا تقليد الأئمة المجتهدين لم يخرجوا من ربقة التقليد، وإنما هم قلدوا أناسا منحرفين، فاستبدلوا الذي هو خير بالأبعد وجعلوا تحذير الرسول عليه الصلاة والسلام عن أخد الدين والعلم من أمثال هؤلاء المنحرفين، وراءهم ظهريا.

روى مسلم عن ابن سيرين مقطوعا «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم» [صحيح مسلم، ١٤/١]. وروى الإمام أحمد عن شداد بن أوس: أن النبيﷺ قال: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[١].

(١) أنظر المسند، ج ٤، ص ١٢٣ و ٢٠٤، ردود على السلفية، م س، ص ٣٤٥.

الفصل الثاني

مع الشيعة الإمامية

«لو كنا نعلم أنهم يقتنعون بالحجة البالغة، ويخضعون للأدلة القاطعة، لملأنا الطوامير من الحجج الباهرة التي تترك الحق أضحى من ذكاء، وأجلى من صفحة السماء. ولكن سلطان نجد له حجتان قاطعتان عليهما يعتمد، وإليهما يستند، ولا فائدة إلا بمقابلتهما أو أقوى منهما، وهما الحسام البتار والدرهم والدينار..».

الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء

جذور الصراع

محنة الشيعة والتشيع:

تشهد الساحة الإسلامية حاليا صراعا عقائديا مريرا بين السلفية الوهابية والشيعة الإمامية. عمق الكراهية والنفور بين فئات عريضة من المجتمع الإسلامي، وينذر بعواقب وخيمة، إن سمح له بالتطور والانتشار. وهذا الصراع الفكري والعقائدي ليس وليد اليوم أو الساعة، بل له جذور عميقة في التاريخ الإسلامي، تاريخ الخلافة، ونشوء المذاهب وتصارعها للاستحواذ والسيطرة على عقول ووجدان الجماهير الغفيرة، التي عاشت تحت مظلة الحضارة الإسلامية.

لقد بدأت محنة الشيعة الإمامية مباشرة بعد وفاة الرسول، وانتصار الخلافة على الإمامة. حيث وقف علي بن أبي طالب فارس الإسلام وسيفه الذي قطع دابر المشركين، موقفا مناهضا للحكم الجديد، معلنا معارضته ورفضه الدخول فيما دخلت فيه قريش. معلنا أن الرسول ﷺ قد نص على إمامته وأنه الخليفة الشرعي للإسلام والمسلمين، وأن الذين أخذوا لنفسهم البيعة من المسلمين، يعلمون ذلك جيدا.

لم يكن علي بن أبي طالب وحده في هذه المعارضة، بل وقفت إلى جانبه زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأعلنت في الملأ بأن زوجها هو الخليفة الشرعي للمسلمين، ولم تكتف بذلك بل قامت بحملة واسعة، تزور بيوت «الأنصار» وتذكرهم بما ورد في حق زوجها أبي الحسن من أحاديث وأقوال أبيها ﷺ. لكن دعوتها ذهبت أدراج الرياح لأن القوم كانوا يردون عليها بأنهم قد بايعوا أبا بكر، ولو جاءت قبل ذلك، لما حادوا عن بيعة زوجها؟.

قالت إن القوم أخذوا البيعة لأنفسهم في الوقت الذي كان علي بن أبي طالب يجهز الرسول ويغسله، أفهل يصح أن يترك جسد نبي الله مسجى في بيته ويذهب يطلب ملكه وخلافته؟! قبل دفنه وتجهيز جنازته؟!.

فَدك المغتصبة:

إن ابنة محمد بن عبد الله ﷺ وريحانته لم تستطع أن تحصل على «فدك»[١] وهي نحلة كان نحلها إياها رسول الله، فامتلكتها في حياته واستفادت من ريعها وهو عليه الصلاة والسلام حي يرزق. وقد علم بذلك الخاص والعام، لكن الخلافة الجديدة انتزعتها منها بحجة أنها إرث لرسول الله، والأنبياء لا تورث. فكيف وقد فشلت بإقناع القوم بخصوص ما تمتلكه، هل تستطيع أن تقنعهم بإمامة زوجها[٢]؟!.

---

(١) فدك: قرية في الحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة وهي أرض يهودية في مطلع تاريخها المأثور. كانت ملكا لرسول الله ﷺ لأنها مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ثم قدمها لابنته الزهراء، وبقيت عندها حتى توفي أبوها ﷺ. فانتزعها الخليفة الأول منها وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثروة الدولة يومذاك، حتى تولى عمر الخلافة فدفع فدكا إلى ورثة رسول الله ﷺ، وبقيت فدك عند آل محمد ﷺ إلى أن تولى الخلافة عثمان فأقطعها مروان بن الحكم. ثم توالى على ملكيتها بنو أمية إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة فرد فدك إلى ولد فاطمة. ثم انتزعها منهم يزيد بن عبد الملك، وبقية لدى بني أمية إلى أن انقرض ملكهم. وبعد قيام دولة العباسيين قال أبو العباس السفاح بردها إلى أبناء فاطمة. وبقيت فدك، خليفة يقبضها وخليفة يرجعها إلى ورثتها إلى سنة (٢١٠ هـ) حيث أمر المأمون العباسي بردها لأولاد فاطمة لأنها حقهم الشرعي. ولما ولي المتوكل الخلافة انتزعها منهم من جديد.. أنظر لمزيد من التفصيل محمد باقر الصدر «فدك في التاريخ». والغريب في الأمر أن الخلفاء الذين أرجعوها لبني فاطمة وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز قد ضربوا بالحديث الذي رواه أبو بكر الصديق واعتمده في أخذ فدك من فاطمة، عرض الحائط وهو قوله (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)، فلو صح لديهم لما كان لهم أن يرجعوها إلى أبناء فاطمة ولبقيت ضمن أموال بيت المال؟!.

(٢) يذهب بعض المحققين المعاصرين إلى أن تصديقهم للزهراء بامتلاك «فدك» وإعطائهم إياها كان سيحرجهم في عدم تصديقها بعد ذلك في قضية الخلافة والإمامة. لأنها كانت تؤمن بأن زوجها علي بن أبي طالب منصوص على إمامته من طرف أبيها ﷺ. لذلك جاء الرفض لكلا المطلبين. لكن الخلفاء الذين سيأتون بعد ذلك سيعيدونها لأبنائها وسيعترفون لها بحقها وذلك لأن المطالبة بفدك لم تعد مرتبطة بدعوى المطالبة بالإمامة.

لقد رجعت بنت رسول الله ﷺ إلى بيتها، تذرف الدمع الغزير، تبكي مظلوميتها، والإجحاف الذي يتعرض له زوجها، فقريش قد قلبت لهما معا ظهر المجن. خلفاء الرسول الجدد يقولون لعلي بن أبي طالب بعد ما تقدم مطالبا بالإمامة، إن قريشا لا ترغب في أن تجمعوا النبوة والإمامة؟! وإنها قد اختارت، وأحسنت الاختيار.

وبعد ما يئست بنت الرسول من تحصيل حقها وحق زوجها، خلدت إلى البكاء والنحيب، بكاء أزعج الحكام الجدد وضايقهم، لكنه لم يستمر طويلا، لأنها ستلحق بأبيها ﷺ، وستطلب من زوجها أن تدفن ليلا، وألا يصلي عليها من تنكروا لحقها في «فدك» وحق زوجها في «الخلافة». ماتت فاطمة بعد ما أعلنت للجميع بأنها غاضبة. على من انتزع ملكها[١]. وأنها سلمت أمرها لله العادل: «فنعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون..»[٢].

إلى جانب فاطمة عليها السلام وقف بنو هاشم وعدد من الصحابة في صف علي بن أبي طالب، وساندوا دعوته وأحقيته في الخلافة. على رأسهم سلمان الفارسي وأبو

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه في الجزء الرابع من كتاب بدء الخلق في باب منقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وسلم. قال: حدثنا أبو الوليد ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني. فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما أذاها»؟ انظر فاسألوا أهل الذكر، الدكتور محمد التيجاني السماوي، ص١٨٧- ١٨٨.

(٢) مقطع من خطبة الزهراء الطويلة في مسجد رسول الله تخاطب القوم وتحاججهم وتبين خطأهم تقول: «.. أيها المسلمون أأغلب على إرثي؟ يا بن أبي قحافة أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول ﴿وورث سليمان داوود﴾... وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ هل تقولون: إنّ أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟ أم أنت أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك..».
انظر الاحتجاج للطبرسي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ط٢ ١٩٨٣م، ج١ ص١٠٢. وهذه الخطبة طويلة، وتثير الكثير من القضايا الحساسة في تاريخ الإسلام، وقد تناولها بعض الباحثين بالدراسة والتحليل.

ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم.

لكن الظروف والمستجدات لم تخدم هذه المعارضة. فبعيد وفاة الزهراء بقليل انطلقت موجة الردة، التي كادت تعصف بالكيان الإسلامي الجديد. فما كان من الإمام علي إلا أن دخل فيما دخل فيه الناس وأعلن مهادنته للحكم الجديد، الذي سارع للقضاء على هذه الفتنة الدينية والسياسية.

حروب التأويل:

إن عليا وشيعته من الصحابة ومن تبعهم ووافقهم، لم ينسوا أبدا أنهم على حق. وإن النظام السياسي للإسلام ليس «الخلافة» وإنما الإمامة، إمامة علي وبنيه. لذلك لما أخرج الثوار - الذين قتلوا عثمان - الإمام علي بن أبي طالب وبايعوه بيعة عامة، كان الشعور السائد في الوسط الإسلامي آنذاك، أن المياه قد رجعت إلى مجاريها. وإن الإمامة التي أزيحت عن الحكم ٢٤ سنة، قد أعيدت لمكانها. وبدأ حكم الإمام علي وسط عواصف هوجاء بدأت تهب من هنا وهناك، فطلحة والزبير اللذان بايعا الإمام، في المدينة، تسللا إلى مكة ليقنعا أم المؤمنين عائشة بالخروج معهما لحرب علي، وقتل قتلة عثمان. فاستجابت لهما وقادت حرب الجمل التي حصدت ألوفا من أرواح المسلمين وعمقت شرخ الاختلاف بينهم.

أما بني أمية الذين استفادوا كثيرا من خلافة عثمان، فقد شعروا بأنهم على وشك أن يخسروا كل شئ. لقد قتل عثمان لأنه وزع أموال المسلمين على بني أمية، والآن جاء الوقت لاسترجاعها منهم. والاقتصاص لكل المظالم التي اقترفتها أيديهم. وكان الإمام علي عازما على تطبيق العدل الإسلامي بحذافيره. وأول ما فعل أقال ولاة عثمان على الأقاليم، ووضع غيرهم.

لكن معاوية الأموي رفض الإقالة وأعلن العصيان على الإمام علي ولم يدخل في بيعته، بل أعلن خروجه للمطالبة بدم عثمان والقبض على قتلته. وهو الذي لم ينجده لما طلب نجدته، بل ترك الثوار يجهزون عليه. لقد استفاد معاوية بن

أبي سفيان من جهل أهل الشام الذين لم يكونوا يعرفون عن علي وأهل بيت الرسول شيئا. بل إن فهمهم للإسلام لم يكن بالمستوى الذي يميزون به بين الحق والباطل. وإذا كان الخليفتان الثاني والثالث قد أطلقا يده في حكم الشام. فإنه قد توج نفسه ملكا، وتصرف تصرف الملوك والأباطرة. ولم يعر للدين الجديد الاهتمام المطلوب لنشره أو ترسيخه في نفوس الجماهير الشامية.

لقد أثمرت هذه السياسة الأموية ما كان مطلوبا منها، فجهز معاوية جيش الشام الذي كان حسب قوله «لا يفرق أصحابه بين الناقة والبعير» وبدأت الحرب، حرب الدجل والخداع، حرب لا أخلاقية استخدم فيها معاوية كل الأساليب الغير مشروعة، لإجهاض نموذج الإمامة في السياسة، الذي بدأ الإمام علي يؤسس له، حيث أعاد إلى الأذهان والواقع كل الأحاديث التي رويت في فضله وفي أحقيته في الإمامة والخلافة، وأعطى الأدلة الواقعية على ذلك، من علمه وحلمه وحكمته، وقدرته على الحكم والفصل في أدق المسائل وأعقدها.

لقد انتهت «حروب التأويل» التي خاضها الإمام بمقتله في المحراب وهو يصلي على يد أعرابي جلف لم يعرف الحق يوما، فيعرف أصحابه. بل اختلطت عليه المعالم هو وصحبه الذين طلبوا الحق فأخطأوه. فمكنوا للباطل ودعموه. قتل علي بن أبي طالب بيد الجهل والغباء، فماتت معه آمال عريضة في التغيير، وتحقيق العدالة الإسلامية، وأجهض النموذج السياسي الذي بشر به الإسلام. رحل علي عليه السلام. ودفنت مع جثمانه الطاهر، حقائق كثيرة، وأجوبة متعددة لمسائل ما زلنا لم نجد لها جوابا إلا الآن.

فاز الإمام علي بالشهادة، لكن الأمة خسرت الكثير، من العلم والمعرفة والحقيقة، كان عليه السلام يخاطب رعيته «اسألوني قبل أن تفقدوني» فكان البعض منهم يتقدم إليه سائلاً عن النملة التي أنذرت قومها من جيش سليمان هل كانت ذكرا أم أنثى؟!.

كان علي يريد أن يغير[1]، أن يعيد الأمور، كل الأمور إلى نصابها، أن يعلم الأمة التأويل الحقيقي والواقعي للوحي، وأن يجسد المثال والقدوة للإنسان الكامل الذي دعت الأديان لصنعه وإخراجه إلى حيز الوجود الواقعي. لكن رياح الأهواء والجهل، وقفت سدا منيعا أمام طموح الإمام. فلم يحقق من طموحه إلا النزر القليل، وإن كان قد استطاع أن يقف على منابر الكوفة معلنا للجميع أنه الإمام الذي اختاره الإسلام، وأنه وليس غيره، الخليفة الشرعي لرسول رب العالمين. يقول عليه السلام، «... لقد قبض رسول الله - صلى الله عليه وآله - وإن رأسه لعلى صدري. ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي. ولقد وليت غسله - صلى الله عليه وآله - والملائكة أعواني، فضجت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه. فمن ذا أحق به مني حيا وميتا؟ فانفذوا على بصائركم..»[2].

وغير ذلك من الخطب والمواقف التي صرح فيها بأنه الوصي والخليفة الشرعي.

لقد جاءت تصريحاته وخطبه لتعيد إلى الأذهان من جديد مشكل خلافة الرسول الذي كان قد غض الطرف عنه بعد ما انشغل المسلمون في حروب الردة. فآمن الكثير من المسلمين بإمامته وأحقيته، وصرح بذلك بعض الصحابة الذين لم يكونوا يستطيعون إعلان ذلك. وعليه فلم تعد موالاة علي تقتصر على بني هاشم ولفيف من الصحابة. بل أصبحت الموالاة عامة، تشمل فئة عريضة من المجتمع الإسلامي، وخصوصا في الكوفة وأقاليم العراق. لأن الإمام كان قد نقل مركز الخلافة إلى هناك.

(١) قال عليه السلام في إحدى خطبه: «لو قد استوت قدماي من هذه المضاحض لغيرت أشياء» أنظر شرح نهج البلاغة لمحمد عبده، منشورات الأعلمي، ج ٤، ص ٦٦.

(٢) شرح نهج البلاغة، الدكتور صبحي صالح، الخطبة ١٩٧، ص ٣١١.

هذه الفئة التي ستصبح بعد ذلك تيارا متميزا، بعد ما استحوذ بنو أمية على الخلافة وحولوها إلى ملك عضوض.

إنطلاق حروب الاستئصال:

لقد كان انتصار معاوية واستلامه الخلافة من الحسن بن علي، الإعلان الرسمي لشن الحرب على أتباع علي بن أبي طالب ومناصريه، وكل من آمن بخلافته وإمامته. فقتل الإمام الحسن مسموما على يد معاوية. وتبعه قتل وتشريد كل من عرف بموالاته عليا وأهل بيته. قطعت الأيدي وسملت الأعين، وهدمت المنازل على أصحابها وأعلنت البراءة من أتباع علي ومحبيه، ومنعوا أرزاقهم من بيت مال المسلمين[(١)]، وقتلوا أينما وجدوا. لم يقتصر القتل على عامة الناس بل قتل معاوية بعضا من كبار الصحابة مثل حجر بن عدي وأصحابه الذين امتنعوا عن لعن الإمام علي[(٢)]. وهكذا سن الأمويون لعن الإمام على المنابر طوال فترة حكمهم. وسالت دماء الشيعة والموالين في كل بقعة ومكان. وعوملوا بشدة وقسوة لم يشهد لها التاريخ مثيلا. وتبع ذلك تحريف واسع النطاق للإسلام ووقائعه التاريخية.

---

(١) جاء في العقد الفريد عن معاوية بن أبي سفيان قوله: «انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه». وجاء فيه كذلك «من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره»، ابن عبد ربه، ج ٤ ص ٣٦٦.

(٢) قتل معاوية ابن أبي سفيان حجر بن عدي وثلاثة عشر من أصحابه في مرج عذراء قرب دمشق وقد روي عن الرسول ﷺ: «سيقتل في عذراء سبعة نفر يغضب الله لهم وأهل السماء» وقد عاتبت أم المؤمنين عائشة معاوية على قتلهم فقال أنه قدر محتوم. ومن المحزن حقا والباعث على الأسى الكبير، إن حجر بن عدي كان أول من وطأت قدمه هذه المنطقة فاتحا في سبيل الله. وقد قال لما وصلها مكبلا في الحديد: «الحمد لله.. أما والله إني لأول مسلم نبحت عليه كلابها، ثم أنا اليوم أحمل مصفودا إليها». قتل هذا الصحابي بسيف معاوية، وقبله قتل ابنه همام أمام عينيه لكن عزاءه كان فيما سمعه من رسول الله ﷺ:

«يا حجر تقتل في محبة علي صبرا، فإذا وصل رأسك إلى الأرض مادت وأنبعت عين ماء، فغسلت الرأس». أنظر حجر بن عدي الثائر الشهيد، محمد فوزي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

تتبع معاوية أفعال الإمام علي وأقواله وتاريخه الجهادي، فأمر الرواة الكذبة بتحريف كل ما ورد في ذلك، فظهر للوجود كم هائل من الأحاديث والروايات تشرع، تحلل وتحرم، وتزيف تاريخ الدعوة الإسلامية. وقد كان معاوية وبنو أمية من بعده كرماء أسخياء في دعم هذه الحركة، حركة التزوير الكبير للإسلام وتاريخ رجالاته.

أما الإمام علي فقد كان يعلم ما سيقع بعد موته من استيلاء بني أمية على الحكم، لأن الرسول ﷺ كان قد أخبره بذلك قبل موته. يقول عليه السلام:

«... إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شئ أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته. ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شئ أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر!

فقد نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم! لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا. فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره. ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله، وسموا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة..» [(١)].

ظلم بني أمية وعدل بني العباس؟!:

وبهذا الكلام يكون الإمام علي عليه السلام قد وصف عصر بني أمية بشكل مجمل وواقعي «فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان»؟!. لقد قتل معاوية الإمام الحسن،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧. أنظر صبحي صالح ص ٢٠٥.

وقتل ابنه يزيد الإمام الحسين في واقعة كربلاء. واستمر القتل في الشيعة وأئمتهم الواحد بعد الآخر، حتى قال قائلهم «إن القتل أصبح لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة»، وقولهم «ما منا إلا مقتول أو مسموم».

وهكذا كان الحكم الأموي وبالا على الإسلام والشيعة، واكتوى بناره غيرهم، ففي وقعة الحرة بالمدينة المنورة قتل الآلاف من التابعين، وهتكت أعراض نساء المسلمين، لأنهم رفضوا بيعة يزيد، فكان جزاؤهم ما هو مسطور في كتب التاريخ.

إستمر السيف يحصد رقاب الشيعة طوال الحكم الأموي. وإن كانوا قد تنفسوا الصعداء مع بداية الحكم العباسي، إلا أن هذه الهدنة لم تدم طويلا، فالحكم العباسي الذي قام على تضحيات الشيعة ومعاناتهم، ورفع شعار «الحكم للرضا من آل محمد» سيتنكر للعلويين. لأن بني العباس قرروا الاستئثار بالملك والخلافة دونهم، وبدأت حرب الاستئصال من جديد، عمقتها الثورات الكثيرة التي تزعمها ثوار الشيعة من العلويين. الذين أصبحوا الأعداء الجدد للنظام الحاكم.

كانت حرب معاوية للشيعة من أجل القضاء على فكرة الإمامة واستئصالها من التفكير الاجتماعي العام، لأنها تشكل خطرا على ما كان يسعى له من تأسيس لملك إمبراطوري. أما العباسيون فقد انطلقوا من فكرة الإمامة وأحقية بني هاشم في الحكم والخلافة. لكنهم انتكصوا في ظروف يشرحها التاريخ، وانقلبوا على أبناء عمومتهم، وانفردوا بالملك. وأصبح الجامع بين الأمويين والعباسيين هو الخوف من وصول أئمة أهل البيت للحكم، لأن وصولهم يقطع الطريق نهائيا على الأسرتين القرشيتين.

فالإمامة عند أهل البيت لا تكون بالاختيار أو المؤامرات والدسائس الأسروية والقبلية، وإنما بالنص والتعيين. لقد نص الرسول على علي بن أبي طالب وقال ﷺ «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، ونص الحسين على إمامة ابنه زين العابدين، الذي خلفه ابنه الباقر وهكذا إلى الإمام الثاني عشر.

وبنو أمية كانوا على علم بذلك وكذا بنو العباس. لذلك فقد شكل وجود هؤلاء الأئمة تحديا دائما لملوك الأسرتين.

فوجود الأئمة تشكيك في شرعية حكمهم، خصوصا وفئات من الناس تؤمن بذلك وتعتقده، وترفض الحكم القائم. وهذا الوجود الشخصي للأئمة جعل من الجرح لا يندمل أبدا، عمقت شرخه الثورات المتتالية للشيعة، وإن كان الأئمة لم يشاركوا فيها مباشرة.

لقد ضاق العباسيون - وقبلهم بنو أمية - من وجود الأئمة درعا، فراموا قتلهم بكل وسيلة، وإذا تجرأ بنو أمية فقتلوا بحد السيف بعض الأئمة، فإن بني العباس قد استخدموا وسائل أخري، منها السجن مدي الحياة لبعض الأئمة ودس السم لهم بعد ذلك. والنتيجة أن الشيعة وأئمتهم قد عانوا الأمرين خلال الحكم العباسي كذلك، حتي قال: قائلهم:

يا ليت ظلم بني أمية دام لنا   وعدل بني العباس في النار

إن هذا الصراع لم يكن فرديا أو شخصيا، وإنما شاركت فيه فئات واسعة من المجتمع. كما أن الأسلحة المستخدمة فيه لم تكن السيف فقط. فالشيعة كانت لهم عقيدة قائمة على نصوص دينية من قرآن وسنة، مدعومة بوقائع تاريخية في فجر الإسلام. شكلت ترسانة قوية وصعبة لا يمكن القضاء عليها بالسيف.

لذلك فقد واكب الصراع المسلح، صراع آخر فكري، فبنوا أمية وضعوا الأحاديث والتفسيرات التي تدعم الخلافة أولا، وتنفي فكرة الإمامة الشيعية ثانيا. كم هائل من الروايات والتعليقات وأقوال الصحابة والتابعين، كلها تصب في خانة التشكيك في عقيدة الإمامة. لكن عصر بني أمية تميز بالحسم العسكري واستخدام الإرهاب والقتل. فالحجاج بن يوسف الثقفي مجرم بني أمية لم يكن يناقش الشيعة في صحة عقيدتهم، بل كان يعرض على السيف مباشرة من وشي إليه به، أنه يوالي عليا أو هو من أصحاب أئمة أهل البيت.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأئمة بعد الإمام علي، لم يكفوا عن الدعوة لإمامتهم وعرض الأدلة على صحة مطلبهم من القرآن والسنة، ووقائع الدعوة الإسلامية في فجر الإسلام وعلى عهد الرسول. لذلك فقد تكون للشيعة مذهب متكامل ومنسق في الإمامة مدعوم بالأدلة النقلية والعقلية.

لذلك ستنطلق مع الدولة العباسية الاستفادة من التراث الذي صنعه بنو أمية في صراعهم مع الشيعة، سيتم معالجة هذا التراث والزيادة عليه وتنقيحه وترتيب أبوابه، مواكبة للتطور العلمي الذي عرفته الفترة. فظهرت للوجود مذاهب عقائدية وفكرية، كان الغرض منها أولا وأخيرا، الوقوف في وجه الفكر الشيعي الإمامي ودحض حججه، والحؤول بينه وبين الانتشار والسيطرة على عقول الجماهير. وبذلك اكتملت وقائع الحرب بين الخلفاء والشيعة.

فالثوار يواجهون بالسيف والتنكيل والقتل. أما الأئمة الذين ظلوا بعيدين عن الحرب، يمارسون التدريس وتعليم شيعتهم عقائد الإمامة ومبادئ الإسلام وفروعه، فقد تولت المذاهب المصطنعة خصيصا لهذا الأمر، مواجهتهم والرد عليهم، بحجج العقل والنقل؟.

وما كاد القرن الرابع يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى كان لخصوم الشيعة الإمامية ترسانة من الأدلة والوقائع، احتضنتها مذاهب ومدارس، وتراث ضخم يخدم هذا الغرض. وهذا التراث الضخم لم يخدم في الواقع الحقيقة بل خدم الملك والسياسة، وساعد في توطيد حكم زائف محسوب على الإسلام، حكم انتهكت فيه الكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان الطبيعية باسم الإسلام.

وكتب التاريخ ما زالت تقطر دما من فضائع اقترفها في حق الإنسانية حكام بني أمية وبني العباس، ولا يمكن لأرباب المدارس الفقهية المعينين من طرف السلطان أن يبرروا هذه الجرائم، مهما أوتوا من قوة الجدل واصطنعوا من حيل ومكر تشيب له الولدان، لأن الظلم، ظلم، حتى الحيوانات العجماء تعرفه وتفر منه. يسأل هارون الرشيد أحد ندمائه عن ابنه هل يحفظ القرآن فيجيب بالتأكيد، ولما

يسأل الخليفة الابن، لا يجده يحفظ من كتاب الله شيئا. فيلتفت الخليفة إلى الأب ويقول له: قم وتقرب إلى الله بقتل ابنك، فترتعد فرائص الأب عند القيام. لكن أحد الحضور يستدرك الأمر ويطلب من الخليفة أن يعفي الأب من قتل ابنه ويكلف غيره للقيام بذلك. وفعلا يقتل الشاب.

هل هذا حكم الإسلام؟! هل أمر الله بقتل من لم يحفظ كتابه؟!.

والغريب في الأمر، أن أحدا لم يعترض على الخليفة. أو ينبهه إلى أن ذلك ليس حكم الإسلام؟! بل الرجل الوحيد الذي تدخل، فإنما رأفة بالأب الذي أمر بتنفيذ حكم الإعدام في ابنه..

إن نظام الخلافة الذي صنع له تراث ضخم من الأحاديث والتفسيرات والتأويلات، لا يمكن أن يكون هو النظام الذي كان الإسلام ينشده. فالإسلام دين الإنسانية والعدل. أما ما هو مسطر في كتب التاريخ من يوميات الخلافة فهو الظلم وسحق الإنسانية. ونحن لا نقول ذلك، انطلاقا من تاريخ الشيعة، لأن الظلم لم يقتصر عليهم، وإن كان نصيبهم أو فر، بل شمل قطاعات واسعة من المجتمع الإسلامي، بل لا نكون مجانبين للحقيقة إذا قلنا بأن المجتمعات التي دخلها المسلمون فاتحين على عهد الخلافة، قد نالت قسطها من الظلم العربي، إن صح التعبير. لأنه لا يمكن أن ينسب للإسلام ظلم.

طبعا سيطلع علينا فقهاء المدارس السلطانية ووعاظ الملوك - وخصوصا الحنابلة والسلفيون منهم - بأن معاوية قد قتل الصحابة متأولا. وأن ملوك بني أمية أهلكوا الحرث والنسل وعبثوا بالأرواح والأعراض متأولين. وأن ملوك بني العباس فعلوا ذلك متأولين، وهم فوق ذلك مأجورون؟، لأن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجرين وإذا أخطأ فله أجر واحد؟.

أقول لو صح ذلك فإن الفيلسوف الغربي كارل ماركس كان محقا ومصيبا عندما أعلن بأن «الدين أفيون الشعوب»؟!.

إن هذا التراث الذي سيستفيد منه دعاة السلفية في شن حربهم الشعواء على الشيعة الآن وقبل ذلك، لم يكن متراص الجوانب، قويا، يستطيع فعلا أن يسدد الضربات المؤلمة لمذهب الشيعة الإمامية الأصولي والفقهي. والسبب في ذلك يرجع إلى احتوائه على تناقضات كثيرة، فأحاديث الإمامة وفضل علي وأهل بيته، تملأ صفحات كثيرة من هذا التراث. أما المسائل الفقهية التي وقع الاختلاف حولها بين السلفية وأهل السنة من جهة، والشيعة الإمامية من جهة أخرى، فإن مصادر السلفية وأهل السنة بشكل عام، تزخر بالأدلة حول هذه القضايا الفقهية.

وبالجملة فليس هناك عقيدة أو فكرة يدعو لها الشيعة الإمامية إلا ولها مستند قوي، ليس في القرآن وما صح من السنة لديهم، بل ما صح من السنة لدى خصومهم. لذلك ترى المتشيعين من أبناء السلفية أو أهل السنة اليوم، لا يرجعون في الاستدلال على عقائد الشيعة التي اعتنقوها إلى مصادر الشيعة التاريخية والحديثية، بل يجدون مبتغاهم في تراث أهل السنة والسلفية، وهذا مما يزيدهم اطمئنانا وإيمانا بصحة عقائد الشيعة وما يدعون إليه.

وأمام هذا الواقع لا يجد السلفية اليوم كما وقع مع أجدادهم إلا الكذب، أو الانتصار بالسلطان والسيف في حربهم مع الشيعة الإمامية، أما ما يكتبونه من كتب ضد الشيعة، فهي بالإضافة إلى الكم الهائل من السباب والشتم والقذف الذي لا يمكن أن يعتبر ردا تفند به العقائد والنظريات الفكرية.

تحتوي على مجمل الانتقادات والاعتراضات التي قال بها فقهاء أهل السنة، وهذه الكتب لا شك أنها كتبت بمداد السياسة، وولدت في بطن الصراع الدموي التاريخي الطويل. فلم يذق أصحابها طعم الموضوعية، ولا ارتووا بماء المناهج العلمية. لقد كتبت كشهادات طعن وتجريح، قدمت للملوك دعما لشرعيتهم المهلهلة، وشهادات لأصحابها على موالاتهم للنظام، واستحقاقهم بعد ذلك للوزارات ومناصب القضاء والإقطاعات والمنح السخية.

لذلك نضم صوتنا للشيخ محمد رضا الحكيمي وهو مختص بتاريخ الفرق الإسلامية. عندما يقول: «إن الدراسة الموضوعية الهادفة تكلف الباحث الرجوع إلى الكتب المؤلفة بيد أعلام المذاهب وخبرائه المعروفين بالحذق والوثاقة. والاعتماد على كتب الخصوم خارج عن أدب الجدل ورسم التحقيق، بيد أننا نرى كثيرا من الكتاب المعاصرين يعتمدون في تحليل عقائد الطوائف الإسلامية على «مقالات الإسلاميين» للشيخ الأشعري، و«الفرق بين الفرق» لعبد القادر البغدادي، و«الملل والنحل» للشهرستاني، وهؤلاء كلهم من أعلام الأشاعرة، ويرجع إليهم في الوقوف على التفكير الأشعري، وأما في غيره فلا يكون قولهم ونقلهم حجة في حقهم إلا إذا طابق الأصل»[1].

والمنهج القرآني يدعم هذا القول وينتصر له، لأنه كان يعرض أقوال الكفار والمشركين من أهل الكتاب وغيرهم، ثم بعد ذلك يرد عليها بالنقد والتفنيد، ولم نسمع أن أحدهم جاء للرسول مدعيا أن ما جاء في القرآن، يخالف ما هم عليه. والقرآن يعرض لأقوالهم كما هي مهما كانت مخالفة للحقيقة أو الذوق السليم، ثم بعد ذلك يرد عليها. «قالوا اتخذ الله ولدا»؟ «إن الله فقير ونحن أغنياء» «وقالت اليهود يد الله مغلولة» إلى غير ذلك من الأمثلة.

وعلى السلفيين اليوم أن يتبعوا منهج القرآن، عليهم أن يعرضوا أقوال وعقائد خصومهم من أهل السنة والشيعة الإمامية. وأن يستقوها من مصادرهم المعتمدة والمتفق عليها بين خاصهم وعامهم، ثم بعد ذلك فليشمروا ساعدهم ولينقضوا عليها طعنا وتجريحا. ونحن لا نعتقد أنهم سيفعلون لأن ذلك سبيل إلى انفضاح كذبهم وتقولاتهم؟!. أما نحن فلم نغفل هذا المنهج القرآني، لقد حرصنا على الاستدلال بنصوص أخذناها من مصادرهم التي أعلنوا أنها معتمدهم، ووثقنا ذلك بمراجعه ليرجع إليه عند التحقيق، حتى لا يقال هذا محض افتراء وكذب، لأن من تعوذ

---

(١) بداية الفرق نهاية الملوك، ص ١٠٥.

الكذب قد يرى الناس كذلك.

إن الصراع المذهبي بين الشيعة وأهل السنة ظل منحصرا في الردود المكتوبة وداخل المدارس، إلا ما كان من حرب السلطان لثوار الشيعة الذين رفعوا السلاح، أو العناصر التي كانت تشكل خطرا دائما ولو بدون سلاح كالأئمة. لكن هذا الصراع لم تكن له تداعيات اجتماعية خطيرة إلا قليلا، وفي فترات تاريخية محددة.

لكن الصراع بين الشيعة الإمامية والسلفية لم يكن كذلك. لأنه وكما يظهر من وقائع التاريخ إن الحنابلة «السلفية» بعد ما استوى مذهبهم وكمل بناؤه. أخذوا على أنفسهم أن يحاربوا مناوئيهم، من الشيعة وغيرهم، ليس باللسان أو القلم ولكن باليد. وقد بسطنا القول في «أسلوب الدعوة» وكيف مارس الحنابلة دعوتهم لعقائدهم، وتعرضنا لذكر الفتن الدامية التي كانوا يحدثونا، وهم يتعرضون لأهل السنة من الشوافع والأحناف والأشاعرة بشكل عام، والأضرار البليغة التي نجمت عن ذلك فليراجع.

أما صراعهم مع الشيعة الإمامية فقد كان متميزا ومريرا وكأنهم كما قيل، قد تولوا الحرب بدل بني أمية الذين انقرضت دولتهم، وبني العباس الذين أشرف ملكهم على الانهيار مع نهاية القرن الخامس، بالإضافة إلى باقي الطوائف التي تخالف الشيعة عامة والإمامية بالخصوص. وما ميز هذا الصراع الذي سنعرض لبعض وقائعه، أنه كان دمويا ووحشيا، قتلت فيه الأنفس وحرقت فيه الأموال والممتلكات. وبالطبع كان البادئ لإشعال هذه الفتن، هم الحنابلة سلف السلفية المعاصرين. ونحن عندما نعرض لهذا التراث الوقائعي، إنما لتتبع جذور الصراع الحالي، الذي لا شك أنه استمرار لما سبق كما أن السلفيين اليوم يستمدون الكثير من عناصر الصراع وأدواته من هذا التراث الوقائعي التاريخي. بالإضافة إلى رسم صورة أمام القارئ لوحشية هذا الصراع ودمويته غير المبررة دينيا ولا إنسانيا؟!.

***

يوميات الصراع السلفي مع الشيعة الإمامية

مع حنابلة بغداد:

شهدت بغداد أطول الصراعات الحنبلية الإمامية، فقد انفجرت الفتن المذهبية، في النصف الأول من القرن الرابع. ففي سنة ٣٤٩ هـ «جرت وقعة هائلة ببغداد بين السنية والشيعية وتعطلت الصلوات في الجوامع سوى جامع براثا، الذي يأوي إليه الرافضة»[١].

ويقول ابن كثير في حوادث سنة ٣٥٤ هـ «.. ثم تسلطت أهل السنة(الحنابلة) على الروافض، فكبسوا مسجدهم، مسجد براثا الذي هو عش الروافض، وقتلوا بعض من كان فيه من القومة»[٢]. والسبب حسب هذا المؤرخ الحنبلي هو قيام الشيعة بعمل مأتم يوم عاشوراء بمناسبة مقتل الإمام الحسين بن علي(عليه السلام) وتوالت الفتن، كل سنة تقريبا يهجم عوام الحنابلة على مناطق الشيعة ومساجدهم فيعيثون فسادا. وقد كان بعض ذوي السلطان يدعمونهم ويشجعونهم على ذلك. وفي سنة ٣٦٢ وقعت فتنة عظيمة راح ضحيتها آلاف الشيعة ونهبت أموالهم. يقول ابن كثير: «وفيها أحرق الكرخ ببغداد، وكان سببه أن صاحب المعونة ضرب رجلا من العامة فمات، فثارت عليه العامة، وجماعة من الأتراك فهرب منهم فدخل دارا، فأخرجوه مسجونا (لعل الظاهر: مسحوبا) فقتلوه، وحرقوه، فركب الوزير أبو الفضل الشيرازي - وكان شديد التعصب للسنة - وبعث حاجبه إلى أهل الكرخ، (مكان الشيعة) فألقى في دورهم النار، فاحترقت طائفة كثيرة من الدور والأموال

---

(١) النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٢٣، والكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٥٣٣ نقلا عن صراع الحرية، ص ١٤.
(٢) البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٥٤. أنظر المرجع السابق، ص ١٥.

من ذلك ثلاث مائة دكان، وثلاثة وثلاثون مسجدا، وسبعة عشر ألف إنسان»، وعند ابن خلدون عشرون ألف إنسان[1].

أنظر لهذه الهمجية اللاإنسانية واللادينية، لم يكتف هؤلاء الحنابلة أتباع السلف من قتل من قتل، هذا إن كان فعلا قد قتله عمدا، والقصاص الإسلامي يقضي بقتل القاتل. فما بال عشرين ألف قتيل؟! ما ذنب هؤلاء؟

لا بد أن هناك أطفالا ونساء وشيوخا طاعنين في السن ومرضى!! لم قتل هؤلاء؟! وأي شرع يبيح ذلك ويشرعه؟! اللهم إلا قانون الحقد الأعمى والجهل المركب؟! تدعمه سياسة البغض، التي سنها بنو أمية، وعمل بها الملوك بعدهم.

مثال آخر لإهدار الدم الشيعي المسلم، فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٣هـ يقول: «ثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين، لأنه كان يتسنن، فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء، والقواد، فثاروا بالشيعة، وحاربوهم، وسفكت بينهم الدماء، وأحرقت الكرخ حريقا ثانيا، وظهرت السنة عليهم»[2]. والسنة أو عامة السنة هنا هم حشوية الحنابلة الذين تعضدهم السياسة الغاشمة وتشجعهم على إثارة الفتن وقتل الأبرياء.

إن ما يسترعي الانتباه فعلا هو ما كان يفعله حشوية الحنابلة أثناء هذا الصراع، لأنه يعتبر أحد المفاتيح لحل لغز هذه الفتن وخلفياتها. يقول ابن كثير في حوادث سنة ٣٧٥: «فيها في عاشوراء عملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض، ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة (الحنابلة) والرافضة، وكلا الفريقين قليل عقل أو عديمه، بعيد عن السداد. وذلك أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة

---

(١) البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٧٣، تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ٤٤٦ - ٤٤٧. أنظر المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٣٧. أنظر المرجع السابق، ص ١٩.

وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة، وبعضهم بالزبير. وقالوا: نقاتل أصحاب علي. فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير[١].

إنه الصراع ضد الإمامة الذي انفجر مبكرا كما أسلفنا، ما زال يحرك الضغائن ويبعث على الحروب، حروب الاستئصال الذي بدأها بنو أمية!

ولست أدري كيف أباحوا لأنفسهم القول: «نقاتل أصحاب علي» ألم يعترف إمامهم أحمد بن حنبل بخلافة الإمام علي. وأعلن بأن لا يناكحوا ولا يكلموا من لا يقول بالتربيع وبخلافة الإمام؟ فكيف بهؤلاء الحنابلة يرفضون قول إمامهم؟! ويضربون به عرض الحائط؟!.

إن هذا الموقف يؤكد لنا بأن ما يسمى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ليس إلا مجموع آراء وعقائد وأهواء هؤلاء الحشوية، وأن ليس لأحمد إلا الاسم والشعار، زيادة في التحريف والتزوير!.

وفي سنة ٣٨٩ هـ: «وفيها أرادت الشيعة أن يصنعوا ما كانوا يصنعونه من الزينة يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، فيما يزعمونه، فقاتلهم جهلة آخرون من المنتسبين إلى السنة، فادعوا: أن في مثل هذا اليوم حصر النبيﷺ وأبو بكر في الغار. فامتنعوا من ذلك»[٢].

الحقيقة أن هذا النص يلقي بعض الضوء على ما ألمحنا إليه سابقا من أن معاوية بن أبي سفيان كان قد أمر الأعراب من الرواة باختلاق روايات تخالف كل ما كان علي بن أبي طالب يفعله أو يقوله أو يتصف به. فعليعليه السلام كان يقرأ البسملة في بداية الصلاة ويجهر بها. فجاءت الأحاديث لتلغي البسملة من الصلاة

---

(١) البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٧٥. أنظر المرجع السابق، ص ٢٢.

(٢) البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٢٥. يقول المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي: «واستمر أهل السنة يعملون هذا العيد المزعوم دهرا طويلا. وقد أظهروا فيه الزينة، ونصب القباب، وإيقاد النيران.. الخ». أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، ص ٢٣.

نهائيا وتعتبرها بدعة، وأصبحت اختيارا مذهبيا مميزا. وهنا في هذا النص يقول ابن الأثير إن المنتسبين للسنة «حشوية الحنابلة» ادعوا إن في مثل يوم عيد الغدير، حصر النبيﷺ وأبو بكر في الغار. وجعلوا ذلك يوم احتفال لهم. ولا شك أن التاريخ سجل ذلك، ولا شك أن بعض أحاديث قد قيلت ورويت عن الرسول وصحابته لإثبات ذلك. وهكذا فإن هذا الصراع الحنبلي الشيعي سينجم عنه تحريف واسع النطاق لتاريخ الإسلام وعقائده؟!.

فكل عقيدة أو رأي أو عادة للشيعة سيوضع لها مقابلها المزيف؟ إن يوم عاشوراء هو يوم مقتل الحسين بن علي على يد يزيد بن معاوية الأموي وهذه حقيقة تاريخية مجمع عليها، ويوم غدير خم، حادثة تاريخية مجمع على وقوعها وإن اختلف في تفسيرها. وعليه فإن الشيعة كانوا يعتمدون التاريخ الحقيقي، ويحتفلون بوقائع مسطورة ومجمع على صحتها ووجودها. لكن الحنابلة لما، أعيتهم الحيلة، ولم يستطيعوا القضاء على هذه الحقائق وعلى المؤمنين بها، التجأوا إلى الاختلاق ووضع وقائع وتواريخ مزيفة لا وجود لها لا في التاريخ ولا في الواقع؟!.

وفي هذا السياق نفسه يقول ابن كثير، حوادث سنة ٣٨٩ هـ «ولما كانت الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتما، يظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة السنة. فادعوا إن في اليوم الثاني عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير، فعملوا له مأتما، كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره، كما يزار قبر الحسين، وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها. ولا يرفع البدعة إلا «السنة الصحيحة» ودامت السنة على هذا الشعار القبيح مدة سنين»[(١)].

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه بعد قليل، لكن لنا تعليق على هذا المؤرخ الحنبلي وتلميذ ابن تيمية الذي كان يعادي الشيعة، فهو يصف إظهارهم الحزن على مقتل الإمام حسين بدعة! ولست أدري ما ذا كان على الشيعة أن يفعلوا عند حلول

(١) البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

ذكرى هذه المناسبة كل سنة، هل يوزعوا الحلوى على الحشوية ويقيمون الحفلات والأفراح؟![1] أم كان عليهم نسيان هذه الحادثة والتغافل عنها؟! وهذا ما كان ولا يزال يرغب فيه أتباع بني أمية وأذنابهم.

ونسأل «الحنابلة» لماذا الاحتفال بمقتل مصعب بن الزبير؟ لقد كان عدوا لبني أمية حاربهم فقتلوه، وبنو أمية أمراء هؤلاء الحشوية وسلفهم؟! أم يحتفل به لأنه كان عدوا لأهل بيت الرسولﷺ، لدرجة أنه امتنع عن ذكر الرسول والصلاة عليه. بحجة أن له أهل يشمخون بأنوفهم عند ذكره في الصلاة أو خطب الجمعة؟!.

إنه الحقد الأعمى الذي يركب كل وسيلة، المهم الوقوف في وجه الشيعة وإغاضتهم ومنعهم من القيام بكل ما تمليه عليهم عقائدهم.

ونحن نسأل هل كان الشيعة يعارضون الحشوية أو غيرهم إذا ما قاموا بإحياء ذكرى موت أو قتل أي صحابي أو غيره من أئمتهم؟!. إن هذا لم يحصل إلى الآن؟.

والذي يدعو على الحسرة ليس فقط مقارنة مقتل الإمام الحسين بمقتل رجل حارب لأجل الملك فلقي حتفه دونه، بعد ما سفك الدماء الغزيرة وشط عن الحق وأهله. ولكن احتفال الحشوية بمقتله في الثاني عشر من المحرم، بينما قتل في النصف من جمادي الأولى سنة ٧٢هـ كما هو مسطر في كتب التاريخ!؟.

---

(١) اتخذ بنو أمية، وكذلك بنو أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم، ويختضبون فيه، ويزورون القبور، وينبسطون في المطاعم، ولبسوا الجديد، وتزيوا واكتحلوا، وتبخروا، وأقاموا الولائم والضيافات، وأطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم، كل ذلك ليرغموا آناف شيعة علي بن أبي طالب، الذين يتخذون هذا اليوم يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي.
أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، للعلامة السيد جعفر مرتضى العسكري، ص ٩٥.

السلطة تشجع إراقة الدم الشيعي:

استمرت الفتن المذهبية والتعدي على شيعة الكرخ، وظهر دعم السلطان للحشوية واضحا مع المقتدر العباسي. ففي عام ٤٠٨هـ تكررت الفتن وتفاقمت وقتل عدد من الفريقين، وعجز صاحب الشرطة عنهم وقاتلوه، فاضطروا إلى إشعال النار قريبا من الكرخ محل إقامة معظم الشيعة في بغداد فتوقفت الفتنة[١].

إن كتب التاريخ حافلة بذكر هذه الفتن، وقد ذكر المحقق العاملي ثلاثين فتنة وقعت خلال النصف الثاني من القرن الرابع وبداية القرن الخامس، وقعت ببغداد وكان فرسانها حشوية الحنابلة، وراح ضحيتها ألوف من الشيعة الإمامية. وسنذكر حادثة وقعت خارج بغداد لكنها في نفس الفترة، لأنها تلقي الضوء على العامل السياسي المحرك لهذه الفتن، وإن الحشوية كانوا مجرد أيادي غبية - كما هم الآن - يضرب بها الشيعة وتسفك دماؤهم، ليس في سبيل الله، ولكن في سبيل السلطان والشيطان.

قال ابن كثير: «في هذه السنة ٤٠٧هـ قتلت الشيعة ببلاد إفريقية، ونهبت أموالهم، ولم يترك منهم إلا من لا يعرف»[٢] وقال ابن الأثير: «في هذه السنة في المحرم قتلت الشيعة بجميع بلاد إفريقية. وكان السبب في ذلك: إن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه، ويدعون له، فاجتاز بجماعة، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء رافضة، يسبون أبا بكر وعمر. فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر...

فانصرفت العامة من فورها إلى درب المخلى من القيروان، وهو مكان تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعا في النهب، وانبسطت أيدي العامة في الشيعة. وأغراهم عامل القيروان وحرضهم. وسبب ذلك:

---

(١) عن الكامل، ج ٩، ص ٣٠٤، أنظر المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) البداية النهاية، ج ١٢، ص ٥، أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، ص ٣٣.

أنه كان قد أصلح أمور البلد، فبلغه: أن المعز بن باديس يريد عزله، فأراد فساده. فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم، وقتلوا في جميع إفريقية.

واجتمع جماعة إلى قصر المنصور قريب القيروان فتحصنوا به، فحصرهم العامة، وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأقبلوا يخرجون، والناس يقتلونهم، حتى قتلوا عن آخرهم، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم[1].

وبعد، ماذا يقول المفكرون الإسلاميون الذين يلهجون بتسامح الإسلام. وأن الأقليات الدينية من يهود ونصارى قد عاشت في وئام وحفظ في المجتمع الإسلامي؟! وإذا كان صحيحا، فإن من يقول: «إن عزير ابن الله» ومن يقول «إن الله ثالث ثلاثة» ولا يؤمن برسالة محمد بن عبد الله ﷺ كان يعيش في أمن وأمان على روحه وماله، أما من كان يشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقد كان يقتل في المساجد والطرقات، ويكبس في بيته ويحرق بالنار؟! لكنها السياسة كما قلنا سابقا، وسواء أكان الحنابلة أم غيرهم أداة التنفيذ، فإن الضحية واحدة هم الشيعة.

فترحم هذا الأمير على أبي بكر وعمر، يعتبر ضوءا أخضر لسفك دماء الأبرياء علما أنه وكما قال ابن الأثير «فسأل عنهم، فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر» فهو لم يتحقق من ذلك وإنما «قيل»؟! وقد اجتمعت «قيل؟!» مع رغبة عامل القيروان في إفساد البلاد بعد ما تسربت إليه أنباء عن عزله قريبا. أضف إلى ذلك «شهوة العسكر وأتباعهم في النهب». والنتيجة قتل شريحة في المجتمع واستخلاص أموالها، تحت شعار الذب عن السنة ومحاربة البدعة، والانتصار لأبي بكر وعمر.

---

(١) صراع الحرية في عصر المفيد، العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، ص ٣٣ - ٣٤، نقلا عن الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ٢٩٤ - ٢٩٥. وراجع تاريخ ابن الوردي، ج ١ ص ٤٦٠ ، لكن الناشر قد وضع نقاطا في موضع بعض الكلمات، لحاجة في نفسه قضاها.

وهل سب أبي بكر وعمر يبيح القتل ونهب الأموال. لقد كان معاوية وملوك بني أمية يلعنون على منابرهم الإمام علي وهو الصحابي الجليل، ثمانون سنة والخطباء يختمون خطبهم بلعن أبي تراب، ابن عم الرسول وزوج ابنته الطاهرة. وأبو الحسن والحسين ريحانتي رسول الله؟! لكن أحدا من علماء السلف لم يحرك ساكنا، ولم نسمع عن صدور فتوى تبيح دم معاوية وملوك بني أمية، أو الخطباء الذين كانوا يلعنون ليل نهار الإمام علي وهم بالآلاف.

بل إن مجتمعات في بلاد الشام كانت تتعبد بلعن أبي تراب عليه السلام كما مر معنا بخصوص مدينة حران وموطن الحنابلة ومنشأ ابن تيمية؟!.

تبرير المجازر الدموية:

إن مسألة سب الصحابة التي اتخذها الحشوية مطية لقتل الشيعة، إنما كانت إحدى أكبر المغالطات في تاريخ الإسلام وما زالت إلى اليوم. وسنعرض لها بعد قليل إن شاء الله لإيضاح مكنون سرها وفض بكارة لغزها[1].

والذي يبعث على العجب فعلا هو ما قرأته بخصوص هذه الحادثة عند الدكتور عبد المجيد بدوي فهو يقول: «في محرم من عام (٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م) حدثت مذبحة مروعة راح ضحيتها معظم الشيعة بجميع بلاد إفريقية بسبب جماعة منهم سبوا أبا بكر وعمر في مدينة القيروان إلى قوله وامتدت الفتنة إلى المدن الأخرى»[2]. ففي

---

(١) يقول المحقق العاملي: «إن الاتهام الذي كان يوجه إلى الشيعة والروافض بأنهم يسبون الصحابة، قد نشأ على ما يظهر من الإحراج الذي كان يصيب فريقا من الناس، حيث طرق القضايا الحساسة، بصورة صزيحة، وحرة، فلا يجد ذلك الفريق من نفسه القدرة على مواجهة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل. فكان أن التجأ إلى ركوب موجة تحريض العامة، وإثارتهم عاطفيا، ثم التوسل بأسلوب العنف والقهر، كوسيلة أفضل للتخلص من آثار ذلك العجز الذي يعاني منه فريق يفقد شجاعة مواجهة الواقع، والإقرار بالحق، والاستسلام له». أنظر صراع الحرية، ص ٧٦.

(٢) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، عالم المعرفة، جدة، ص ٩٠.

الوقت الذي يقول المؤرخ ابن الأثير فسأل عنهم (المعز بن باديس)، فقيل: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر» يقول الدكتور:

«بسبب جماعة منهم سبوا أبا بكر وعمر في المدينة»، ولعمري إن الفرق كبير جدا بين العبارتين، فعبارة المؤرخ تعني إن أحدا من حاشية المعز قال هؤلاء يسبون أبا بكر وعمر. ولم يحدد المؤرخ من القائل، بل قال: «قيل» على وزن زعم، و«قيل» تحتمل الصدق والكذب. كما تشير إلى أن الذي قال: كان عدوا للشيعة ولسكان هذا الحي في القيروان، أو أن مفهومها أن هؤلاء شيعة والمعروف عنهم أنهم يسبون الصحابة.

الدكتور يحصر الأسباب في هجوم العامة على الشيعة لأنهم سبوا أبا بكر وعمر. أما ابن الأثير فيوضح الأسباب الحقيقية وراء هذه الهجمة الهمجية، وهي أسباب سياسية، وأطماع في النهب والسلب ليس إلا؟!.

أما حصر هذه الأسباب في سب الصحابة فإنه تبرير ضمني لمجزرة دموية، ستبقى عارا على جبين التاريخ الإسلامي؟!. لقد شبعنا وأتخمنا ومللنا سياسة التبرير التي سلكها فقهاء السلطان قديما، ويسلكها اليوم من يجتر تراث هؤلاء ويؤمن به!!.

برروا الظلم في السياسة، في الاقتصاد، في الاجتماع، وفي الدين، ويقفون بعد ذلك ليقولوا نريد أن ننهض؟! نريد أن نخرج من التخلف الحضاري، لنواكب مسيرة الأمم في التمدن والرقي؟!. إن منهج التبرير الذي ورثه الخلف عن السلف، ليس إلا طريق الكذب وتزوير الحقائق، وهل سنتمكن من حجب نور الشمس، ببراقع الكذب والتلاعب؟!.

وبعد أليس من الحق والموضوعية أن ننقل النصوص كما هي أو على الأقل ألا نتصرف فيها تصرفا يلغي نصفها أو كلها؟!.

ويقول ابن الجوزي: «في سنة ثمان وأربع مائة استتاب القادر بالله أمير

المؤمنين فقهاء المعتزلة والحنفية، فأظهروا الرجوع، وتبرؤوا من الاعتزال، ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة، والرفض، والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذ خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم[١]. أما الدكتور عبد المجيد بدوي فيقول: «في هذا العام استتاب (القادر) الشيعة والمعتزلة عن المقالات المخالفة للسنة[٢]. ويكمل كلامه بما جاء في المنتظم بتصرف واقتضاب.

والفرق بين ما جاء في المنتظم وما قاله الدكتور بين، فابن الجوزي، يقول بأن القادر قد استتاب فقهاء المعتزلة والحنفية، ولم يقل الشيعة؟! وكيف يستتيب فقهاء الشيعة عن المقالات المخالفة للإسلام؟! نعتقد أن هذا الاضطراب منشأه وجود كلمة حنفية، أي المذهب الحنفي. على اعتبار إن المعتزلة ليسوا من أهل السنة، فليس هناك مشكل في عرض اسمهم. أما الأحناف فإن مذهبهم الفقهي والأصولي يعتبر من مذاهب أهل السنة والجماعة. وعليه فإذا كان هناك تحريف، فإن الغرض منه هو التستر على المذهب الحنبلي، فالقادر كان ينتصر لحشوية الحنابلة ويدعمهم، وهم ليسوا أعداء الشيعة فقط بل يعادون مذاهب أهل السنة الأصولية والفقهية كذلك. أو لجعل الصراع يقتصر على الشيعة وغيرهم من الفرق التي تدخل في خانة الابتداع والهوى.

لكن الدكتور سيعترف بأن هذه الفتن كان يقف وراءها الحنابلة، مستعينين بالسلطان. يقول: «وهذه الثورات كثيرا ما كان يوجهها المفكرون السنيون المحافظون وعلى رأسهم فقهاء الحنابلة ورجال الحديث، الذين كانوا يقفون بالمرصاد لأي حركة يقوم بها الشيعة أو غيرهم من المبتدعة في نظرهم..»[٣].

(١) المنتظم، ج ٧، ص ٢٨٧. أنظر صراع الحرية، م س، ص ٣٦.

(٢) التاريخ السياسي والفكري، م س، ص ٨٨.

(٣) التاريخ السياسي والفكري، م س،، ص ١٨٩.

ويضيف: «وقد حدث أن تجمع هؤلاء المحافظين في جمادى الأولى من عام (٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م) في ديوان الخلافة وطلبوا إخراج الاعتقاد القادري، وقراءته، فأجابوا إلى ذلك، وقرئ المحضر على المجتمعين ومما ورد في هذا الاعتقاد السالف الذكر، لعن الرافضة من الشيعة، وتكفيرهم، وتكفير من لا يكفرهم، ولعن المبتدعة»[(١)].

إن النصوص التاريخية التي وصفت الفتن لا تترك مجالا لأي قارئ أو باحث، أن يشك في أن الحنابلة كانوا السباقين دائما لإثارة الفتن والتهجم على الشيعة. يراقبونهم ويتتبعون جميع تصرفاتهم وعبادتهم. فأي فعل أو قول يخالف المذهب الحشوي، يعني الابتداع والكفر، ومن ثم الهجوم فالقتل. أنظر ماذا يقول الدكتور عبد المجيد بدوي: «لم يسلموا (أي الشيعة) من تحرش المحافظين (الحنابلة) الذين حاولوا إثارة الخليفة المقتدي ضدهم في شوال سنة (٤٧٩ هـ/ ١٠٨٧ م) عندما شكا أحد الفقهاء إلى الخليفة من أن الشيعة لا يذكرون أسماء الصحابة على جنائزهم، مع أن السنة ظاهرة ويد أمير المؤمنين قاهرة، فخرج كتاب من دار الخلافة ينعي على الشيعة إغفالهم لذكر صاحبي رسول الله ﷺ على الجنائز، وأنهم تورطوا في هذه الجهالة، واستمروا على هذه الضلالة «التي استوجبوا بها النكال، واستحقوا بها عظيم الخزي والوبال..»»[(٢)].

وفعلا استمر القتل فيهم والتشريد، لكن أحدا منهم لم يترك مذهبه لينتقل إلى الحنبلية، أصحاب السلطان. كما سيفعل فقهاء الحنابلة الذين انتقلوا زرافات إلى مذاهب أهل السنة بعد ما تغير السلطان وتغير معه الزمان[(٣)].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٩، وهذا الاعتقاد القادري نسبة إلى الخليفة القادر هو نسخة لما تذهب إليه الحشوية الحنبلية في الأصول. وليس اعتقاد أهل السنة والجماعة.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩١.

(٣) انتقل أبو جعفر عمر ابن أبي بكر الدباسي (ت ٦٠١ هـ) إلى المذهب الشافعي، فعين مشرفا لمكتبة النظامية. أنظر تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، للدكتور بدري محمد فهد، ص ٤٣٧. وانتقل أبو

إنتصار الفاطميين ومحنة الشيعة في بغداد:

لقد كانت هذه الفترة بالذات عصيبة على شيعة بغداد، كما تعرض أهل السنة للمضايقات لكن سرعان ما انفرج عنهم، فأصبح لهم السلطان، وكالوا الحنابلة بنفس المكيال. وقبل أن نعرض لبعض الأمثلة على ذلك، لا بد أن نشير إلى حقيقة تاريخية مهمة. وهي أن دعم الحشوية وتسليطهم على شيعة بغداد، والطلب من بعض رجالات أهل السنة أن يؤلفوا الكتب في نقض مذاهب الشيعة وخصوصا عقيدة الإمامة، كان سببه الرئيسي الدولة الفاطمية التي امتدت من مصر لتبسط سلطتها على مناطق الشام، وبالتالي بدأ خطرها يطرق أبواب الخلافة العباسية في بغداد، هذه الخلافة التي لم يبق منها إلا الرسم على عهد البويهيين.

لذلك كانت الخلافة تحس وتشعر بأن شيعة بغداد رغم أنهم إمامية ويختلفون مع الفاطميين الإسماعيلية في مجمل الأصول والفروع. لكن شعورا ما بالتعاطف قد يكون موجودا لدى العامة منهم، لذلك جاء إطلاق عوام الحشوية عليهم، لقتلهم ونهب أموالهم، بمثابة رد احترازي مبدئي على أي تفكير في ربط علاقات سرية سياسية مع الدولة الفاطمية أو دعاتها، الذين يجوبون أرض الخلافة العباسية دون أن يعرفهم أحد.

وعليه فشيعة بغداد كانوا يدفعون ثمن انتصار الفاطميين وتهديدهم للخلافة العباسية. لكن شدة الصراع وتكاثف السلطة العباسية والحنابلة على الشيعة، كان يواكب تراجع قوة البويهيين في العراق، الذين لم يخفوا تعاطفهم مع الشيعة الإمامية، وبداية ظهور السلاجقة الأتراك في أقصى الشرق الإسلامي، وبما أنهم

الفتح أحمد بن علي بن تركان المعروف بالحمامي (ت ٥١٨ هـ) إلى المذهب الشافعي وقد كان حنبليا، وأصبح مدرسا بالنظامية. أما المبارك بن المبارك الواسطي النحوي (ت ٦١٢ هـ) فقد كان حنبليا فتحول إلى الحنفي ومنه إلى الشافعي، فعين مدرسا بالنظامية. وكذلك القاضي أبو بكر محمد بن يحيى ابن المظفر (ت ٦٣٩هـ) أصبح شافعيا ودرس بالنظامية. أنظر طبقات الشافعية، ج ٣ ص ٢٥٢. راجع المرجع السابق ص ٢٢٥.

كانوا سنة، فقد انبعث في الخلافة العباسية أمل في استعادة بعض ما ضاع من بريقها وقوتها، هذا الأمل الذي ترجمه القادر العباسي بتزعمه حركة قمع البدع. والانتصار للسنة.

إن الملابسات السياسية في هذه الفترة كانت دقيقة ومعقدة، والسياسة وحدها هي التي كانت تمسك بخيوط اللعبة. أما حشوية الحنابلة فكانوا مجرد أدوات، ينفذون سياسة ماكرة، ولا يقولن أحد أن العقيدة وحدها هي التي كانت تتحكم في هؤلاء الحشوية وتحركهم. لأنهم كانوا ينقمعون عندما يأمر السلطان بذلك. بل المضحك والمبكي في آن هو ما كان يقع بين الجانبين من صلح في بعض الأحيان.

يقول ابن الأثير عن سنة (٤٤٢هـ): «بادرت الفئتان إلى الصلح، وأخذ الشيعة يترحمون على الصحابة، ويصلون في مساجد السنة، وتبادل كل فريق أذان الفريق الآخر، فأخذ الشيعة بالصلاة خير من النوم، وأذن السنة بحي على خير العمل[١]».

إذن أين موقع البدعة هنا؟! وكيف يؤذن الحنابلة بحي على خير العمل، وقد كانوا يكفرون الشيعة من أجل ذلك؟! أما الشيعة فإنهم لا يكفرون الحنابلة أو أهل السنة، وليس الأذان عندهم أصلا من أصول الدين حتى لو زيد فيه كلمة الصلاة خير من النوم؟! بل إن الأمر سيتجاوز هذا الحد في بعض الأحيان عندما يكتشف الشيعة بأن مهاجميهم الحشوية من العوام والسوقة لا يفقهون حديثا، فيتعاملون معهم بذكاء وتعقل، ينزع معه فتيل الفتنة، ويحفظ الشيعة أموالهم وأرواحهم بذلك.

يقول الدكتور عبد المجيد: «استمر السنة في التحرش بهم - أي بالشيعة - إذ خرجوا في شعبان من العام نفسه (٥٠١ هـ) لزيارة قبر مصعب بن الزبير، وكانوا

(١) الكامل، ج ٩، ص ٥٦١. والعبر، ج ٣، ص ١٩٩، أنظر المرجع السابق، ص ١٨٣.

قد تركوا ذلك منذ مدة طويلة منعا للفتنة. واتفقوا أن يجعلوا طريقهم على الكرخ تحديا لمشاعر الشيعة وإثارة لهم، ولكن الشيعة كانوا حريصين على عدم إشعال الفتنة... ومن ثم استقبلوا السنة بالبخور والزينات والترحيب حتى خرجوا من الكرخ، واستقبلوهم عند عودتهم بما استقبلوهم به أولا. وهذا المسلك من جانب الشيعة فرض على السنة أن يتسامحوا مع الشيعة، فلم يعترضوا طريقهم عندما خرجوا في النصف من شعبان لزيارة مشهد موسى الكاظم»[(١)].

أفول نجم الحنابلة:

لكن سرعان ما بدأ نجم الحنابلة في الأفول، مع سيطرة السلاجقة على بغداد، فهؤلاء كانوا يتعصبون للمذهب الحنفي، وقد مارسوا بعض المضايقات على الشافعية والأشاعرة بصفة عامة، بادئ الأمر. لكن وصول نظام الملك للوزارة في عهد ألب أرسلان السلجوقي سيغير الوضع عندما ينتصر للشافعية الأشاعرة، ويبني لهم المدارس والنظاميات، وينفق الأموال الطائلة عليها وعلى جلب خيرة الأساتذة، للتدريس بها.

والغرض من ذلك لم يكن الانتصار لمذاهب أهل السنة فقط، وإنما مواجهة الفكر الشيعي الإسماعيلي بالخصوص، لأن الحرب مع الدولة الفاطمية كانت قائمة على قدم وساق. وكتاب «فضائح الباطنية» ألفه أحد كبار المدرسين بهذه النظاميات، وهو الغزالي المدرس في نظامية بغداد. لكن تمكن الشوافع الأشاعرة «أهل السنة» وانتشار نفوذهم، سيدفعهم لتصفية الحسابات القديمة مع منافسيهم داخل الإطار السني. وهم بالطبع حشوية الحنابلة الذين كانوا يكفرون الأشعري ويتعرضون للشوافع بالسب والقتل في بعض الأحيان.

انطلق أهل السنة «ينتصرون لمذهب الأشعري ويعرضون بخصومهم من

(١) أنظر المرجع السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤. نقلا عن الكامل، ج ١٠، ص ٤٦٩.

الحنابلة لما يعتقدونه من التشبيه والتجسيم. وكثيرا ما كان هذا السلوك يثير حفيظة الحنابلة، فتثور الفتن بين الفريقين. وكان نظام الملك يقف بكل ثقله إلى جانب هؤلاء الأساتذة الذين يرسلهم»[١] إلى النظاميات ويعينهم فيها.

أهل السنة يكفرون الحنابلة:

بل استطاع هؤلاء الأساتذة أن يصرحوا بكفر الحنابلة من على المنابر. فقد ذهب الشريف أبو القاسم البكري المغربي، وهو مدرس بالنظامية، إلى جامع المنصور وهو مركز تجمع الحنابلة. «في حراسة الشرطة ووعظ به، وهاجم الحنابلة، ورماهم بالكفر قائلا: «ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا.. ما كفر أحمد بن حنبل، إنما كفر أصحابه، فرماه الحنابلة بالآجر»[٢] وهذا القول يؤكد دعوانا بأن المذهب الفقهي والأصولي إنما اختلق وصنع للإمام أحمد بن حنبل وليس له.

وفي (عام ٥٦٦ هـ) جاء إلى بغداد محمد بن البروي، فوعظ بالنظامية، ونصر مذهب الأشعري وبالغ في ذم الحنابلة، وكان يقول: «لو كان لي أمر لوضعت عليهم الجزية. فقال إن الحنابلة دسوا عليه من سمه»[٣].

إلا أن التاريخ لم يسجل أن أهل السنة هجموا على الحنابلة وقتلوهم أو نهبوا أموالهم، كما كان يفعل الحنابلة مع الشيعة. لقد تقلص حجم الحنابلة وضعف خطرهم مع سيطرة أهل السنة، وحوصرت دعوتهم وحركتهم، وتعرضوا للمضايقات بين الحين والآخر، يذكر السبكي: «إن العادل (الأيوبي) عزر جماعة من أعيان الحنابلة لقولهم بالتجسيم تعزيرا رادعا وأهانهم»[٤].

---

(١) التاريخ السياسي والفكري، م س، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) المنتظم، ج ٩ ص ٤٠٣، والكامل، ج ١٠ ص ١٢٤. أنظر المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٣) مرآة الزمان، ج ٨ ق ١ ص ٢٩٢، أنظر المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٤) وفيات الأعيان، ج ٢ ص ١٦٨. أنظر المرجع السابق، ص ٢٩٨.

وتستمر المذابح الشيعية:

وبذلك خفت حدة الفتن المذهبية. لكن الشيعة لم يتنفسوا الصعداء بعد، لأن القضاء على الدولة الفاطمية في الشام ومصر واكبه مذابح فظيعة لتجمعات الشيعة هنا وهناك. فقد أفتى الشيخ نوح بقتل الشيعة في حلب[1]. وبعده جاء ابن تيمية الحنبلي ليحيي الصراع الحنبلي الشيعي من جديد، فافتى بقتل جميع شيعة الجرد وكسروان في جبال لبنان[2]. وعكف على التأليف وإصدار الفتاوى في حقهم، هذه الفتاوى التي حصدت ألوفا منهم وما زالت تجثم على صدروهم، وتطاردهم أينما حلوا أو ارتحلوا.

---

(١) أنظر صراع الحرية في عصر المفيد، ص ٤٦، نقلا عن دول الإسلام، ص ٢٢٠.

(٢) كان انتقام المماليك من أهالي كسروان انتقاما رهيبا إلى درجة تساوى فيها مع إرهاب وتنكيل المغول ببغداد وأهاليها عام ١٢٥٨ م. هذا الانتقام الدموي دفع بالسلطان الناصر بن قلاوون أن يطلب من الإمام ابن تيمية تبرير هذه المجازر. أنظر محمد أبو زهرة، ابن تيمية ص ٤٥. ويقول الدكتور عاطف الأثات، وكان كبير أئمة السنة في الشام في تلك الحقبة «تقي الدين بن تيمية وهو شيخ المذهب الحنبلي في دمشق، فقدم إلى كسروان عام ١٣٠٤ م على رأس وفد من الأمراء لمفاوضة الشيعة هناك في الرجوع إلى الطاعة، فلم ينجح في مهمته وعاد إلى دمشق بعد ذلك وأخذ يدعو في جميع أنحاء الشام إلى حملة جديدة ضد أهل كسروان تقضي عليهم وتحد من نفوذهم نهائيا. كما أصدر فتوى بهدر دماء الشيعة الكسروانيين وهدم بيوتهم وحرق أشجارهم». أنظر مجلة العرفان، المجلد ٧٧ العددان ٩ - ١٠، جمادى الثانية ورجب ١٤١٤ هـ ١١ / ١٢ / ١٩٩٣م.

ابن تيمية والشيعة

تجديد الصراع وتعميقه:

إذا كان ابن تيمية قد أحدث بلبلة فكرية ودينية في عهده، عندما أعاد نشر الفكر الحشوي الخاص بالتشبيه والتجسيم ودافع عنه، كما خالف أهل السنة في قضايا أصولية وفروعية، وتعرض على أثر ذلك لموجة من المناظرات والمحاكمات انتهت بسجنه وموته فيه.

فإن حملته على الشيعة كانت أقوى وأشد خطورة، فإلى جانب استباحته دم شيعة كسروان، تفرغ للكتابة والرد على عقائدهم. وأهم مؤلف له بخصوص الشيعة. هو «منهاج السنة» الذي قيل إنه كتبه «للرد على الشيعة الإمامية الاثني عشرية في عقائدهم»، إذ كان لهم في عصره انتصار كبير في العراق وإيران. تحقق على يد عالمهم ابن المطهر الحلي، الذي أفلح في نشر المذهب في هذين البلدين، ولا سيما في إيران التي كان فيها الشيعة أقلية، فتزايد عددهم بجهوده تزايدا مذهلا، فصار يتردد في الأوساط العلمية والمجالس الشعبية اسم علامة الشيعة ابن المطهر، ذلك الاسم الذي أزعج ابن تيمية كثيرا، فنال منه في مجالسه وخطبه على ما بينهما من بعد المسافة[1].

العلامة الحلي ومنهاج الكرامة:

و«منهاج السنة» جاء كما يقول بعض المؤرخين ردا على كتاب العلامة الحلي «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة». وقبل أن أعرض لبعض ما احتواه كتاب «شيخ

---

(١) ابن تيمية، صائب عبد الحميد، ص ١٩٢.

الإسلام» من ردود على الشيعة. أقف مع الدكتور سيد الجميلي الذي كتب عن العلامة الحلي يقول: وله كتاب «منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة خلط فيه بين المعقول والمنقول وخرج عن طريق الاستقامة بغير وعي»[١].

أقول بغض النظر عن صحة اسم الكتاب وهل سماه صاحبه «منهاج الكرامة» أم منهاج الاستقامة؟! فإن الدكتور يقول عنه: خلط بين المنقول والمعقول؟! ونحن نسأل الدكتور هل قرأ هذا الكتاب؟ وهل وصلت إلى يده نسخة منه، فطالعها وتبين له أن العلامة قد خلط المنقول بالمعقول؟ لا نعتقد ذلك أبدا؟! وإنما هو اجترار لكلام ابن تيمية ليس إلا، لأننا على يقين بأن الدكتور المحترم لو يقتني له نسخة من هذا الكتاب من مطابع بيروت ويعكف على قراءتها بتمعن وموضوعية لانتهى به الأمر إلى الكفر بابن تيمية، ولرفع صوته معنا، بأن شيخ الإسلام هو الذي خلط المنقول بالمعقول، وافترى على الحقيقة والتاريخ، وبهت الرجل!؟.

ثم يضيف الدكتور «وقد انتدب ابن تيمية للرد عليه - أي على الحلي - في مجلدات يقول عنها ابن كثير في تاريخه المشهور «أتى فيها ابن تيمية بما يبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة». ثم يقول بعد ذلك ابن كثير عن ابن مطهر «ابن مطهر الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض»[٢].

ماذا نقول لهذا المؤرخ؟! إنه تلميذ ابن تيمية وصنيعته؟ وقد سن ابن تيمية لتلاميذه وأتباعه سنة السب والقدح، فهم يتوارثونها خلفا عن سلف؟! مع أن ابن كثير لم يكن يعرف عن ابن المطهر - وليس «مطهر» كما ورد في النص - شيئا. إلا سماعه بنبوغه الذي انتشر في الآفاق، وانتصاره لعقيدة الإمامية.

والإسلام والخلق الرفيع يقضيان بمعالجة آراء القوم وأفكارهم والرد عليها بموضوعية وليس تجريح ذواتهم والتعرض لأخلاقهم. ولنا وقفة أخرى مطولة مع

---

(١) مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره، أنظر الهامش، ص ٢١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١، نقلا عن البداية والنهاية، ١٤ / ١٢٥.

الدكتور الجميلي لأنه سينتصر لابن تيمية بما لم يثبت تاريخيا وقوعه.

ويكفي أن نرد على هذا الكلام بما قاله مؤرخون آخرون أكثر موضوعية من ابن كثير. قال الصفدي وقد عاصره: وهو الإمام العلامة ذو الفنون، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياته. وكان إماما في الكلام والمعقولات كان يصنف وهو راكب، وكان ريض الأخلاق، مشتهر الذكر، تخرج به أقوام كثيرة[١].

وقال ابن حجر: هو عالم الشيعة وإمامهم ومصنفهم، وكان آية في الذكاء، اشتهرت تصانيفه في حياته، وكان مشتهر الذكر وحسن الأخلاق[٢].

والعلامة الحلي كان قد درس على عدد من كبار علماء أهل السنة مثل علي بن عمر الكاتبي القزويني الشافعي، وبرهان الدين محمد بن محمد النسفي الحنفي، وابن الصباغ الحنفي. كما كانت له مع القاضي البيضاوي الشيرازي، صاحب التفسير، المتوفى (٦٨٥ هـ) مكاتبات تفصح عن الخلق الإسلامي والعلمي النبيل، ومن تلك المكاتبات، كتاب بعثه البيضاوي فصدره بقوله: مولانا جمال الدين، أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الأصول... فأجابه ابن المطهر بكتاب استهله بقوله: وقفت على إفادة مولانا الإمام أدام الله فضائله، وأسبغ عليه فواضله[٣]. أنظر ففي الوقت الذي يصفه أعلام المؤرخين والفقهاء من أهل السنة بالعلم والذكاء وحسن الخلق، يقول عنه ابن كثير تلميذ ابن تيمية «لم تطهر خلائقه»؟!!.

ابن تيمية ومنهاج السنة:

ونرجع إلى «منهاج السنة في نقض كلام الشيعة والقدرية» لابن تيمية، نقلب صفحاته، لنرى ماذا يخبئ فيه «الشيخ» للإمامية من ادعاءات وافتراءات رخيصة.

---

(١) الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٧٩، نقلا عن صائب عبد الحميد، م س، ص ٢٠٤.
(٢) ذيول العبر، ج ٤، ص ٧٧، أنظر المرجع السابق، ص ٢٠٤.
(٣) أنظر المزيد التفصيل أعيان الشيعة، ج ٥ ص ٤٠١، والمرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

وبما أن المقام لا يسع للتعرض لكل ما جاء في الكتاب والرد عليه فسنكتفي ببعض الأمثلة، ويمكن الرجوع للدراسات المختصة في هذا الموضوع وهي كثيرة[١].

لقد ناقش ابن تيمية الشيعة الإمامية في مجمل عقائدهم، وعارضها بعقائد المذهب الحنبلي. يقول في باب التوحيد مثلا: «وهم يدخلون في التوحيد نفي الصفات والقول بأن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة، ويدخلون في العدل التكذيب بالقدر وأن الله لا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يقدر أن يضل من يشاء»[٢].

وذهب إلى أن الشيعة في عقيدة التوحيد قد اتبعوا المعتزلة والقدرية، وتارة يتبعون المجسمة والجبرية[٣]. لكن الدكتور يوسف محمود يرد على هذا الخلط والخبط فيقول: إن من الواضح والبين من كتب مفكري الشيعة السابقين على «ابن مطهر الحلي» والشيعة المحدثين: إن عقيدة التوحيد لديهم بصفة عامة صافية كل الصفاء، وخالية من كل تشبيه أو تجسيم، وذلك أن هؤلاء الشيعة في أبحاثهم العقدية وخاصة عقيدة التوحيد قد اعتمدوا على القرآن والسنة النبوية، وإذا أخذنا على سبيل المثال الشيخ الصدوق «المتوفى سنة ٣٨١ هـ» لوجدنا بأنه يثبت هذه العقيدة الصافية والمطابقة للقرآن الكريم والسنة النبوية[٤].

وابن تيمية عندما يتهم الشيعة بالتشبيه والتجسيم وهم رواد التنزيه، يرد عليه السبكي الشافعي الذي قرأ كتابه متهما إياه بنفس التهمة، ويزيد عليه بأنه سقط فيما وقع فيه الفلاسفة من الإيمان بتسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية، وهذه

---

(١) مثل منهاج الشريعة في الرد على منهاج السنة، للسيد مهدي بن صالح القزويني، و«إكمال المنة في نقض منهاج السنة» لسراج الدين الحسن بن عيسى اليماني اللكهنوي.

(٢) على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية، ص ١٢٤، نقلا عن منهاج السنة، ج ١ ص ٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٤.

(٤) موقف ابن تيمية من الشيعة (دراسة مقارنة) ضمن المرجع السابق. للدكتور يوسف محمود محمد الصديقي مدرس الفلسفة والعقيدة جامعة قطر.

نكتة عقائدية كنا قد ذكرناها في فصله، كيف يتهم من سماه أهل السنة «بشيخ أهل التشبيه والتجسيم» الشيعة الإمامية بهذه التهمة؟! ولا ينفع الجدل هنا، لأن كتب الشيعة في التوحيد مطبوعة وموزعة، وعلى من أراد التحقيق أن يرجع إليها. فليس الادعاء كالحقيقة!.

ابن تيمية يرد الأحاديث الجياد:

ولما راجع الكتاب عالم الحديث ابن حجر، المعتمد لدى السلفية اليوم، قال عنه: «لكن وجدته كثير التحامل إلى الغاية في رد الأحاديث التي يوردها ابن المطهر! وإن كان معظم ذلك من الموضوعات والواهيات، لكنه رد في رده كثيرا من الأحاديث الجياد، التي لم يستحضر حالة التصنيف مظانها لأنه كان لاتساعه في الحفظ يتكل على ما في صدره والإنسان عامد للنسيان!. وقال:

وكم من مبالغة لتوهين كلام (الرافضي) أدته أحيانا إلى تنقيص علي عليه السلام؟!![1].

هذا هو رد ابن تيمية العلمي والموضوعي، رفض أحاديث الرسول وإن كانت كما قال ابن حجر «من الأحاديث الجياد»، ثم انتقاص الإمام علي عليه السلام!؟. رد سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والتهجم على الرجل الذي نصر الله الإسلام بسيفه وجهاده، رجل ولد في الكعبة وقتل في المحراب، وقدم للإسلام ولنبي الإسلام ما لا يجرؤ أحد أن يدعي مثله، إلا كاذب أو مفتر. لكنه الحقد الأموي، والبغض لأهل بيت رسول الله، الذي ورثه ابن تيمية من تراث الحشو الحنبلي الذي يمدح معاوية وطلحة والزبير، وينتقص الإمام عليا وذريته، مع أن الصحابة كانوا يعرفون المؤمن من المنافق ببغضه للإمام علي عليه السلام. لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق»..

وكيف يرد ابن تيمية أحاديث الرسول، ألا يؤمن ابن حجر وأمثاله أن رد

---

(١) ابن تيمية، صائب عبد الحميد، ص ٢١٧ - ٢١٨، نقلا عن لسان الميزان، ج ٦، ص ٣١٩.

السنة هو كفر بها؟! أم إن عذر النسيان يمحو هذه الخطيئة؟! وهل يباح أو يجوز النسيان هنا؟! إن فتاوى التكفير وإباحة الدماء ستنبني على هذا النسيان؟!.

الجزء الأول وقسم من الجزء الثاني الذي خصصه ابن تيمية لمعالجة قضايا التوحيد، سينتهي فيه إلى عرض عقيدة التشبيه والتجسيم، ونسبتها إلى السلف الصالح، وقد تكفل أهل السنة بالرد عليه ونسف عقيدته، أما ما يخص الشيعة، كتعريف التشيع، وإمامة أهل البيت وفضلهم، فإنه قد أخفق إخفاقا ذريعا في أن يقارب الحقيقة، أو يتمسك بحبل الصواب، بل شط بعيدا، وهوى به حقده وتعصبه لبني أمية، في مكان سحيق.

الأحاديث الضعيفة والأساطير الواهية:

وهو إن كان قد رفض أحاديث ابن المطهر التي أوردها نقلا عن مصادر أهل السنة والحشوية، بحجة أنها ضعيفة أو واهية. فإنه سيحشو كتابه «منهاج السنة» بكم هائل من أحاديث الحشو التي وضعت للحط من مكانة أهل البيت، وتزوير الحقائق التاريخية الإسلامية، أحاديث تكفي قراءتها لبيان تهافتها وعدم صحتها.

إنك سترى كما يقول الباحث صائب عبد الحميد: «رجلا آخر سترى ابن تيمية وهو يتحصن بالواهيات ويحشو أسس حصنه بما يشهد عليه بنفسه أنه لا حظ له من الصحة، ولا سبيل إلى دفع شبهة الوضع عنه، ثم يقيم عليه كلاما أشد تهافتا، وينقض بعضه بعضا، من حيث يدري أو لا يدري لكنها وسيلته الوحيدة في مواجهة خصمه»[1].

سيدعي بأن التشيع من تأسيس عبد الله بن سبأ اليهودي، هذه الشخصية الأسطورية التي صنعها أعداء الشيعة لمواجهتهم. والتي يقول عنها الدكتور طه حسين: «إن السبئية وصاحبهم ابن السوداء - ابن سبأ - إنما كان متكلفا منحولا

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١.

قد اخترع بأخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصرا يهوديا إمعانا في الكيد لهم والنيل منهم»[١]، وطه حسين ليس شيعيا، ولكنه البحث العلمي الذي يكشف الحقائق ويرد الخرافات والأوهام. ولنا وقفة بعد قليل مع ابن سبأ وأقوال المحققين من العلماء فيه.

لقد اعتمد ابن تيمية أقوال الشعبي لوصف الشيعة وبيان أخبارهم، لأنه في نظره كان أخبر الناس بهم. وهذا الشعبي هو عامر بن شراحيل. كان قاضي الكوفة في عهد بني أمية، وصحب عبد الملك بن مروان الأموي وكان أمين سره، وشارك في المؤامرات السياسية. ونحن نعلم أن بني أمية لم يكونوا يقربون إلا من كان يبغض عليا وشيعته. وقد كان الشعبي كذلك. لقد اتهم الشعبي الحارث الأعور الهمداني بالكذب. وهو من أصحاب علي بن أبي طالب. يقول ابن عبد البر: أظن أن الشعبي عوقب على تكذيبه الحارث، لأنه لم تبن منه كذبة أبدا، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي[٢].

لقد استحل بنو أمية وأتباعهم الكذب، وألصقوا بخصومهم ما هم به متلبسين. وجاء ابن تيمية ليغرف من هذه الأكاذيب ويصنع منها ردا، يقول عنه ابن كثير تلميذه بأنه «من الأشياء المليحة الحسنة». وفعلا فما أحلى الكذب عندما تعوز الخصم الحجة والدليل؟!.

والمضحك أن شيخ السلفية يتهم الشيعة بأنهم «ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة والأحاديث»في الوقت الذي يصف البيضاوي صاحب التفسير وهو أحد كبار علماء أهل السنة ابن المطهر الحلي عالم الشيعة بأنه إمام المجتهدين في علم الأصول»!؟.

---

(١) علي وبنوه المجموعة الكاملة لمؤلفات د. طه حسين، ج ٤، ص ٥١٨ هـ نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٣٨.
(٢) تهذيب التهذيب، ج ٢ ص ١٢٧. نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٤٤.

والصفدي يقول عنه كما مر معنا «كان إماما في الكلام والمعقولات»؟!

ونحن على يقين بأن ابن تيمية وأتباعه من السلفية قديما وحديثا، لو اجتمعوا لفهم كتاب «الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[١] لما استطاعوا ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. إلا أن يرشدهم أستاذ في علوم العقل والنقل. وإبداعات علماء الشيعة في الأصول والكلام والمنطق تملأ المكتبات، وليس تحصيلها عسيرا على من أراد أن يكشف الحقائق بنفسه.

وبالجملة فقد رام «الشيخ» بعد ما أعياه الدليل إلى جمع كل ما قيل في الشيعة من مثالب وأقوال ولم يرد أن يميز بين الغلاة والمنحرفين من الفرق التي تنسب إلى الشيعة وبين الشيعة الإمامية. الذين يبرؤون؟ من الغلاة ويكفرونهم. وفي ذلك نصوص وأحاديث كثيرة عن الأئمة.

على أننا نجد التفاتات من الشيخ الحنبلي لهذا الأمر في منهاجه، فبعد عرضه لعقائد القوم المختلفة يقول: «لكن قد لا يكون هذا كله في الإمامية الاثني عشرية، ولا في الزيدية، ولكن كثير منه في الغالية، وفي كثير من عوامهم»[٢]. لكن هذه الحقائق وغيرها مما كتبه قلم الشيخ، جاءت باهتة ضائعة في الكم الهائل من الدعاوي والخرافات التي نسبها للشيعة دون أن يميز بين طوائف الشيعة المختلفة. وهذا المنهج يعض عليه أتباعه اليوم بالنواجد. فهم يكتبون عن الشيعة الإمامية، لكن بتراث وعقائد الغلاة من إسماعيلية ونصيرية وغيرهم.

---

(١) يقول المؤلف: «هذا الكتاب الموسوم بـ«كتاب الألفين» الفارق بين الصدق والمين، فأوردت فيه الأدلة اليقينية والبراهين العقلية والنقلية ألف دليل على إمامة سيد الوصيين علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، وألف دليل على أبطال شبه الطاعنين وأوردت فيه من الأدلة علي باقي الأئمة عليهم السلام ما فيه كفاية للمسترشدين» أنظر الكتاب طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ٣ - ١٩٨٢ م.

(٢) منهاج السنة، ج ١، ص ١٣. أنظر صائب عبد الحميد، م س، ص ٢٤٠.

ثم يعرض ابن تيمية لرأي الشيعة في الصحابة. فيعيد كل ما قيل وما أخذ كذريعة لسفك دماء هؤلاء الشيعة في بغداد وغيرها، ولنا وقفة مع الشيعة والصحابة فيما سيأتي.

ابن تيمية وأهل البيت:

أما موقف ابن تيمية من أهل البيت فكان غريبا جدا، فعندما ستصادفه عشرات الأحاديث الصحيحة ومن في حكمها، وكلها تشهد لأهل البيت، علي وفاطمة والحسن والحسين، بالأفضلية، وتدعو لاحترامهم ومحبتهم وتقديمهم على غيرهم وهذه الأحاديث تملأ الصحاح وكتب الحديث المختلفة، فإن شيخ الحنابلة، سيقول: «إن فكرة تقديم آل الرسول هي من أثر الجاهلية، في تقديم أهل بيت الرؤساء»[1]؟!.

إذن الاصطفاء الإلهي لآل ابراهيمعليه السلام هو من أثر الجاهلية، وكل هذا الذي في القرآن هو من أثر الجاهلية؟!.

وهذه الصلاة على آل محمد وآل إبراهيم التي ترددها في صلاتك هي من أثر الجاهلية!! أتدري لماذا جدع قصير أنفه؟! لأنه لا يستريح حين يذكر لآل محمدصلى الله عليه وآله وسلم حق في ذلك الاصطفاء[2]. أما عندما يصطدم بحديث غدير خم الواضح في ولاية علي وأهل بيته، فإنه يحذف أوله ويثبت آخره. وهذا تحريف ليس جديدا على الشيخ، وقد تكلمنا في فصله عن اتهام أهل السنة له بالتحريف لأقوال الفرق الإسلامية والكذب على أصحابها.

ويتابع الشيخ الحنبلي نقض مستمسكات الشيعة الإمامية عروة عروة. لقد أجمعت الأمة أن الرسول آخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينه وبين علي بن

---

(١) منهاج السنة، ج ٣، ص ٢٦٩.

(٢) أنظر صائب عبد الحميد، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

أبي طالب، وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن الرسول ﷺ في حق علي: «أنت أخي وأنا أخوك»، لكن ابن تيمية ينفي ذلك، ويحكم ببطلان الأحاديث الواردة في ذلك. مع أن أحاديث المؤاخاة صحيحة وقد رواها الحاكم والترمذي وذكرها أصحاب التواريخ.

الحقد الأموي ورفض سنة رسول الله ﷺ:

ويبلغ التهافت والتجني على الحقيقة منتهاه، عندما يرفض هذا الحنبلي حديث الطير[1]. لأنه يصرح بأفضلية الإمام علي (عليه السلام) على جميع الناس ما عدا الرسول ﷺ. يقول ابن تيمية «إن حديث الطائر من المكذوبات الموضوعات عند أهل العلم والمعرفة بحقائق النقل» وقال: «وقد سئل الحاكم عن حديث الطير فقال: لا يصح»[2].

أما إذا رجعنا إلى أهل العلم لنعرف مصداق كلام الشيخ فسنجد أن هذا الحديث، قد رواه الترمذي من طريق السدي ووثقه، ورواه النسائي، وصححه الحاكم في المستدرك وقال: رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفسا، وصححه الذهبي وألف جزءا في ما صح عنده من طرقه، ورواه البغوي أيضا وآخرون.

وقال الخوارزمي أخرج ابن مردويه هذا الحديث بمئة وعشرين إسنادا... وقال سبط ابن الجوزي: قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري: حديث الطائر صحيح، يلزم البخاري ومسلم إخراجه في صحيحيهما لأن رجاله ثقات، وهو على شرطهما[3].

فماذا يقول علماء السلفية عندما يكذب شيخهم السلفي على علماء الحديث

---

(١) عن أنس بن مالك قال: كان عند النبي ﷺ طير أهدي إليه فقال: «اللهم ائتني بأحب الخلق إليك ليأكل معي هذا الطير. فدخل علي عليه السلام فأكله معه».

(٢) منهاج السنة، ج ٤، ص ٩٩. نقلا عن صائب عبد الحميد، م س، ص ٣٠٣.

(٣) صائب عبد الحميد، م س، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

فالحاكم صحح الحديث، لكن ابن تيمية يقول لم يصححه؟! إن هذا العمل هو الذي يشرح قول ابن حجر السالف الذكر من أن الشيخ رد الأحاديث الجياد. إن الانتصار لملوك بني أمية المجرمين وأعداء الإسلام والإنسانية، قد أعمى الشيخ وصمه، لدرجة رد أحاديث الرسولﷺ وضرب بها عرض الحائط.

وكذا فعل مع حديث الإنذار، الذي ذكره أهل التفسير عندما، شرحوا قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء الآية ٢١٤). وهذا الحديث يعلن صراحة وبوضوح كون الإمام علي هو الوصي والخليفة. وقد رأينا كيف حرفه ابن كثير أو حرفه الذين طبعوا كتابه. بل إن الشيخ الحنبلي سيتنكر لبعض الحقائق الواضحة والتي لا تحتاج إلى عناء للتحقق منها. فهو يقول عن سورة الدهر أنها «مكية باتفاق العلماء»[1]. وسورة الدهر أو الإنسان مدنية، باتفاق الأمة وهذه المصاحف بين أيدينا تشهد على ذلك؟! ولا ندري، ألم يكتف الشيخ بضرب السنة وتجريحها، فهل انتقل إلى القرآن لتغيير حقائقه.

نقول هذا الكلام للسلفية، ليسرعوا إلى تصحيح عثرات شيخهم، لأنها عثرات قاتلة؟!.

إن كذب الشيخ على علماء الحديث والمفسرين، وتحريف أقوالهم، كثير جدا في منهاجه، وقد جئنا بهذه الأمثلة لمعرفة منهجه وطريقة رده على الشيعة الإمامية، ولو كان المقام يسع لجئنا بعشرات الأمثلة على هذا التحريف والكذب الصريح على علماء الإسلام وتراثهم. ومن أراد الاستزادة فعليه بكتاب «ابن تيمية حياته، عقائده، موقفه من الشيعة وأهل البيت» للباحث صائب عبد الحميد، وهو من مراجع هذا الكتاب. فقد تتبع كلامه في منهاجه وحققه، فجاءت الحقائق دامغة، نقضت بنيان صاحبه وأبانت عن عوار قصده وتأليفه.

(١) منهاج السنة، ج ٢ ص ١١٧، أنظر المرجع السابق، ص ٣٠٧.

الشيخ الحنبلي يجترئ على مقام النبوة:

لكن الذي لا يسكت عنه أبدا، هو تجاوز الشيخ الحنبلي حده، واجتراؤه على مقام النبوة والرسالة، عندما بدأ يحدد ما يقصده الرسول من كلامه دون قرينة أو معتمد، وهذا عمل خطير، ينذر بعواقب وخيمة قد تلحق شريعة الإسلام من جراء ذلك، خصوصا إذا تبعه أصحابه ونهجوا نهجه.

فهو يقول بعد ذكر الحديث الذي رواه البخاري عن قول الرسولﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» يقول الشيخ:

ليس فيه أية مزية لعلي، ولا فيه ما يشير إلى حقيقة الاستخلاف، وما هو إلا كلام أراد منه النبي إيناس علي لا غير[1]. وعلى هذا التفسير فإن هارون لم تكن له أية مزية؟! فهو كباقي أفراد بني إسرائيل؟! وإذا كانت له مزية النبوة، فهل كلام الرسول لغو في لغو؟! حاشاه فما كان ينطق عن الهوى. ولماذا جاء بهذه المقارنة؟!.

ألا يفهم الإنسان العادي من كلام رسول الله إن لعلي ميزة عند رسول الله، كما كان لهارون ميزة عند موسىعليه السلام؟ لكن هارون كان نبيا وعلي ابن أبي طالب ليس كذلك. والحديث واضح الدلالة في أن عليا يشبه هارون في مؤازرة الرسول ودعمه والوقوف بجانبه، وسيرة علي شاهدة على ذلك. ومن يدعي بأنه كان أكثر مؤازرة من علي للرسولﷺ فكتب السيرة ستكذبه؟!.

ومن أخبر ابن تيمية بأن الرسول أراد أن يؤنس عليا بقوله هذا؟! إنه تقول على الرسول. وسوء أدب في حقه عليه الصلاة والسلام. لكنه الحقد الأعمى، ومعاداة أولياء الله، انتصارا للظلم والانحراف عن صراط الأنبياء والمرسلين.

---

(١) الحديث في صحيح البخاري، ج ٥ ص ٨٩. ورواه مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٠. وأحمد بن حنبل في مسنده، أنظر صائب عبد الحميد، ص ٣١٠.

الشيخ يتنكر لجهاد الإمام علي وينقد أعماله:

ويتابع شيخ الإسلام مسيره في منهاجه السني، يعرض بالإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، ويتتبع سيرته وينتقد تصرفاته ومواقفه، في جرأة لم يفعلها أحد قبله ولا بعده. مما حدا ببعض علماء أهل السنة لاتهامه بالنفاق، فقد صح عن الرسولصلى الله عليه وسلم قوله لعليعليه السلام.«لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق». وهذا الحديث رواه أحمد بن حنبل إمام السلفية الكبير.

الذي نقل عنه الطوسي، سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما روي في فضائل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسانيد الصحاح ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

لقد رفض ابن تيمية أن يكون علي بن أبي طالب محقا في حروبه، خصوصا مع معاوية، وهذا بخلاف ما أجمعت عليه الأمة. وكتب التواريخ شاهدة على ذلك.

ورفض أعلمية الإمام علي، وهو هنا لا يرد الحقائق المسلمة، بل يرد أحاديث الرسول التي صرح أئمة الحديث بصحتها؟! وتنكر لجهادهعليه السلام، وأدار ظهره لكل الوقائع التاريخية. لقد كذب هذا الرجل «السلفي»على كل الناس، رد أقوال الرسول، ورد أقوال المحدثين والفقهاء والمؤرخين، وأغمض عينيه ووضع في أذنيه وقرا، فهو لا يسمع ولا يرى. وليس العيب إلا على من يتخذه إماما وقدوة، لكن الطيور على أشكالها تقع.

إن المستشرقين والكفار لم يفعلوا بحقائق الإسلام ما فعل بها «شيخ السلفية» فهنيئا لأتباعه به. وإنما نوجه كلامنا للعقلاء من أبناء الصحوة الإسلامية، وندعوهم لقراءة «منهاج السنة» ثم مراجعة كتب الحديث والتواريخ، ليروا بأم أعينهم مبلغ التحريف والكذب على الحقيقة.

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، ص ٢٣٥.

وبهذا المنهج عالج الشيخ أحداث السقيفة وخلافة الخلفاء الثلاث، وما جرى في خلافة الإمام علي، من فتن وقلاقل. لكن لا يسع المجال لذكر بعض أمثلته. لقد انطلق الشيخ من فكرة النقض لكل ما يتشبث به الشيعة الإمامية من حقائق، تصب في دعم عقيدة الإمامية. لذلك ضرب بعرض الحائط كل ما وجد أمامه من أحاديث النبوة وأقوال العلماء. هذا من جهة، من جهة أخرى دافع عن خصوم أهل البيت دفاعا مستميتا، برر أعمالهم، وأول النصوص الصادرة عنهم بما يفيد اتهامهم. ولم يترك وسيلة تقربه من هدفه إلا وركبها.

وبالجملة لقد كان لسان شيخ الإسلام وقلمه أكثر حدة من سيوف بني أمية خصوم أهل البيت؟!.

قتل الحسين عليه السلام ليس بأعظم من قتل الأنبياء؟:

يعترف ابن تيمية بأن معاوية قد قتل الحسن بن علي عندما دس عليه من سمه. لكن الشيخ يعتبر قتل ابن بنت رسول الله أمرا اعتياديا، وهو من قبيل «قتال بعضهم بعضا»[1]. بل لا يشك أحد في أن معاوية كان مجتهدا متأولا، وهو مأجور على قتله الإمام الحسن بن علي. أليس كذلك؟!! وإذن أين حكم القرآن؟ هل نسي شيخ السلفية - لفرط حبه لمعاوية - إن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾[2].

أم أن أحكام القصاص لم تنزل لبني أمية وللمسلمين، كما ادعى معاوية من قبل، بأن حكم كنز الأموال نزل في أهل الكتاب وليس في المسلمين؟!!.

أم أن حكم الإسلام في الدماء قد استثني منه الصحابة والخلفاء؟! نحن نعلم أن للفقهاء أبوابا فقهية تعالج حكم من قتل حشرة أو حيوانا مهما صغر حجمه في الحرم

---

(١) منهاج السنة، ج ٢ ص ٢٢٥، أنظر صائب عبد الحميد، ص ٣٧١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

المكي. لكن ما بال هذه الدماء والأرواح؟! ما هو حكم قتل الإمام الحسن بن علي؟! هل يستطيع دعاة السلفية أن يجيبونا عن هذا السؤال!!. أم سيطلبون منا أن نلزم الصمت، أن نسكت، فتلك أمة قد خلت!! ولا شأن لنا فيما وقع بين الصحابة؟!.

إن هذا الأمر - أي السكوت - لن يتسنى لنا إلا إذا ضربنا كشحا عن الإسلام ككل. وابتعدنا عن الالتزام بالدين، فهل يعقل أن يؤمن الناس بدين لا تاريخ له؟!.. ويبقي السؤال معلقا ويحتاج إلى جواب. ما هو حكم قتل الإماميين الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، وقبلهما حجر بن عدي وأصحابه والمئات من الأرواح التي أزهقت بسيف معاوية بن أبي سفيان وبني أمية؟!!.

قتل الحسين بن علي في كربلاء ومن معه من أولاده وأصحابه. فما ذا يقول «شيخ الإسلام» في ذلك؟! يقول: «ويزيد ليس بأعظم جرما من بني إسرائيل، كان بنوا إسرائيل يقتلون الأنبياء، وقتل الحسين ليس بأعظم من قتل الأنبياء»[1]. وإذن، أين هو المشكل؟! يستطيع أي حاكم أن يقتل أي شخص من رعيته، وإذا قيل له لماذا؟! يجيبهم بأن المقتول ليس أفضل عند الله من أنبياء الذين قتلتهم بنو إسرائيل؟! هذا هو الحكم السلفي في الدماء، دماء المظلومين والأبرياء!!!.

الدفاع عن الظلم والإجرام:

لكن ابن تيمية سيعترف بوقعة الحرة التي قتل فيها جيش يزيد بن معاوية عشرة آلاف مسلم من التابعين وأبنائهم، وفضت بكارة ألف عذراء من بنات أهل المدينة سفاحا واغتصابا. وقع هذا في مدينة الرسولﷺ، وابن تيمية لا يسعه إنكار الحادثة، وإن أنكر عدد القتلى دون دليل طبعا[2].

---

(١) منهاج السنة، ج ٢ ص ٢٤٧، أنظر المرجع السابق، ص ٣٧٢.

(٢) يقول عبد الله بن حنظلة ابن الصحابي الجليل حنظلة الذي غسلته الملائكة: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء! إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات، والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة». أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطي.

لكنه سيهرع بحثا عن حسنات ليزيد علها تستر هذه المخازي والموبقات؟!

وفعلا وجد الشيخ ضالته، قال إن يزيد ابن معاوية شارك في غزو القسطنطينية وأن الرسول - كما يدعي الكذبة - قال: أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له. لكن هذا الحديث الواهي لم يعرفه عامة علماء الحديث. ولا بد أنه صنع بعد ما انتشر السخط من أفعال يزيد. فأراد بنو أمية أن يختلقوا له فضيلة تستر عوراته. لكن هيهات، فحتى مشاركته في جيش القسطنطينية كانت مؤامرة وتدليس من معاوية لتهيئته للخلافة من بعده، ولسنا نحن نقول ذلك، بل التاريخ هو الذي يفضح هذه المؤامرات والدسائس الأموية.

أما حرق يزيد للكعبة المشرفة فإن شيخ الإسلام يدعي بأنه لم يكن يقصد ذلك، وإنما كان يحارب ابن الزبير فوقع حرق الكعبة. إلى غير ذلك من التأويلات الغريبة دفاعا عن الظلم والانحراف. وعلماء أهل السنة يتبرؤون من يزيد ويلعنونه، لعنه الإمام أحمد بن حنبل، وذكر القاضي أبو يعلى الحنبلي إنه ممن يستحق اللعن. وقال ابن عقيل الحنبلي ومما يدل علىْ كفره وزندقته فضلا عن سبه ولعنه أشعاره التي أفصح بها بالإلحاد وأبان عن خبث الضمائر وسوء الاعتقاد[1].

وابن تيمية عندما يعرض لفاجعة مقتل الإمام حسين عليه السلام، يقول بأن يزيد لم يأمر بقتله ولا رضي بذلك. بل ينحو باللوم على الإمام حسين، لأنه خرج على

(١) أنظر تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي. يقول: «ولما لعنه جدي أبو الفرج على المنبر ببغداد بحضرة الإمام الناصر وأكابر العلماء قام جماعة من الجفاة من مجلسه فذهبوا فقال جدي «ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود» (ص ٢٩٠ - ٢٩١) يقول ابن العماد الحنبلي:

قال التفتزاني في (شرح العقائد النسفية): «اتفقوا على جواز اللعن على من قتل الحسين، أو أمر به، أو أجازه، أو رضي به، والحق أن رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك وإهانته أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما تواتر معناه وإن كان تفصيله آحاد، فنحن لا نتوقف في شأنه، بل في كفره وإيمانه، لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه». أنظر شذرات الذهب، ج ١ ص ٦٨ - ٦٩. عن صائب عبد الحميد. م س، ص ٣٨٦.

يزيد؟ وأراد أن يفسد عليه ملكه؟! وعليه فقد لقي حتفه وجزاءه[١]. وهو بذلك يخالف ما أجمعت الأمة قاطبة عليه. فابن الأثير في كامله ينقل عن عبيد الله بن زياد بأنه قتل الحسين لأنه يزيد بن معاوية هدده بالقتل إن لم يقتل الحسين. لكن شيخ الإسلام ينفي ذلك؟! ودون مستند.

إن شيخ السلفية في «منهاجه السني» قد عقد العزم على تحريف الحقائق التاريخية، وتزوير الوقائع، دفاعا عن إيمان بني أمية وفضلهم. والحط على أهل بيت النبيﷺ. فهو يرفض الأحاديث الصحيحة في فضل أهل البيت ويشكك في سندها أو يؤول متنها، بينما يتشبث بأوهى الروايات وأضعفها انتصارا لمعاوية وابنه يزيد.

يقول الباحث المصري صالح الورداني: «بقدر ما كنت أجل هذا الرجل المدعو ابن تيمية وأكن له احتراما عظيما طوال فترة نشأتي الإسلامية، بقدر ما أصبحت أبغضه وأحط من قدره بعد تبين موقفه من يزيد الملعون.... ولقد تمادى ابن تيمية في موقفه المتحالف مع بني أمية حتى أنه خطأ الحسين وانتقده لخروجه على يزيد ملقيا عليه بتبعة مأساة كربلاء»[٢].

إن من يريد من أبناء الصحوة الإسلامية أن يعرف هذه الحقائق، ويعرف كذلك مدى الكذب السلفي وتحريف التراث، عليه أن يراجع كتب التاريخ المختلفة، ثم بعدها فليقرأ منهاج السنة. وله بعد ذلك أن يتخذ الموقف المناسب من شيخ الإسلام ومن أتباعه اليوم.

---

(١) يقول سبط ابن الجوزي في قتلة الإمام الحسين: «قال الزهري: ما بقي منهم أحد إلا عوقب في الدنيا، إما بالقتل أو العمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة. وقال جدي أبو الفرج في المنتظم عن ابن عباس قال: أوحى الله إلى محمد ﷺ: إني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا وإني قاتل بابن فاطمة سبعين ألفا وسبعين ألفا». تذكرة الخواص، مكتبة نينوى الحديثة طهران، ص ٢٨٠.

(٢) الخدعة، رحلتي من السنة إلى الشيعة، دار النخيل للطباعة والنشر، بيروت، ط ١ ١٩٩٥ م، ص ٦٩.

أتباع ابن تيمية يسلكون نهجه:

وبعد هل ابن تيمية وحده الذي يكذب ويفتري على التاريخ والحقيقة؟! إن أتباعه ومحبيه قد استنوا بسنته. وقد هالني وأنا أقرأ كتاب «مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره» للدكتور سيد الجميلي، ما وجدته من مغالطات فظيعة. فقد أورد هذا الدكتور مناظرة بين ابن تيمية وابن المطهر الحلي عالم الشيعة. وهي مناظرة طويلة في ٣٦ ص. يورد فيها قول ابن المطهر ثم يأتي رد ابن تيمية. وأنا أسأل الدكتور الجميلي. أين التقى ابن تيمية ابن المطهر الحلي؟. لقد عاش الأول في دمشق ومات بها، وأخذ إلى مصر حيث سجن بها. أما ابن المطهر فعاش في العراق وهو من منطقة الحلة وتوفي بها. ولا وجود لتاريخ يقول بأنه سافر إلى الشام أو دمشق. كما أن أحدا لم يقل بأن ابن تيمية قد سافر إلى العراق؟!. فأين التقي الرجلان؟! وأين تناظرا؟!.

السيد الجميلي يقول أنه نقل هذه المناظرة عن كتيب صغير لمحمد مال الله تحت عنوان مطارق النور تبدد أوهام الشيعة. في سلسلة ما أنا عليه وأصحابي، طبع. دار الأنصار بالقاهرة. ويقول إنها مختارة من كتاب (المنتقى) للحافظ الذهبي. ونحن نقول للجميع نريد أن يحدد لنا هؤلاء السلفية مكان وتاريخ التقاء ابن تيمية بابن المطهر؟؟ حتى تسنى لهما أن يتناظرا؟!.

أما إذا رجعنا إلى هذه المناظرة فما ذا نجد فيها، نجد أن ابن المطهر عبارة عن تلميذ خائف منتكص للوراء، يطرح الشبهات دون دليل ويسكت. فيقوم شيخ الإسلام بالرد عليه بقوة وعنف، هذا كذب وافتراء على أهل السنة وعلى أهل العلم؟! هذا حديث ضعيف واهي يرفضه أهل العلم؟!.

والغريب في الأمر إن عالم الشيعة لا يناقش الشيخ أو يرد عليه، بإيراد الأدلة النقلية أو العقلية؟! ثم ينتقل الحلي إلى سؤال جديد دون أي اعتراض على ما قاله شيخ الإسلام. وبعد ٣٦ صفحة من الحوار المزعوم يحقق ابن تيمية انتصارا مطلقا على الحلي، ويظهر هذا الأخير كمحاور لا يملك إلا الشبهات المكذوبة والتافهة؟!.

أما من يقرأ هذه المناظرة فإنه سينتهي إلى أن الشيعة الإمامية فرقة ليس لها حض من العلم ولا يرتكز مذهبها إلا على المغالطات والكذب.

هذا في الوقت الذي كان فيه الحلي زعيم الأصوليين في عصره، وقد شهد له علماء السنة بذلك. ويكفيه كتبه وما خطه يراعه. وما بال كتابه (الألفين) الذي أورد فيه ألف دليل على إمامة علي بن أبي طالب، وألف دليل على إبطال شبه الطاعنين يقول الحلي: «وأوردت فيه من الأدلة على باقي الأئمة عليهم السلام ما فيه كفاية للمسترشدين». لقد كان الحلي من كبار الفلاسفة والأصوليين في عصره، ولم يكن ابن تيمية ليقف ندا له أو مناظرا، إنما هو الانتصار بالكذب، انتصارات وهمية على الورق ليس إلا.

لقد عرض رد ابن تيمية على ابن المطهر، فرآه مفتتحا بالشتائم والسباب، مشحونا بالكذب وبالحشو والمغالطات، فماذا كان جوابه؟! قال ابن حجر العسقلاني:

كان ابن المطهر مشتهر الذكر حسن الأخلاق، ولما بلغه كتاب ابن تيمية قال: لو كان يفهم ما أقول أجبته[1].

صدقت يا ابن المطهر، لو كان الرجل يفهم ما تقول، لاستحق منك الرد، ولو أراد أن يفهم لما كان رده على منهاج الكرامة بما حشا به كتابه من تحريفات وتأويلات بعيدة عن الصواب والحق. لكنه كان كبير الشام، وقد وصلت أخبار ابن المطهر وانتصاراته في المناظرات على علماء مصره، جعلت السلطان يعلن تشيعه. فهل سيقف كبير الشأم مكتوف الأيدي؟!.

---

(١) صائب عبد الحميد، ص ٢١٩، أنظر لسان الميزان، ج ٢، ص ٣١٧، ونقل الإمام ابن ناصر الدين الدمشقي في الرد الوافر عن الحلي أنه قال ردا على ابن تيمية:

لو كنت تعلم كل ما علم الورى   طرا لصرت صديق كل العالم
لكن جهلت فقلت إن جميع من   يهوى خلاف هواك ليس بعالم

لا شك أن مصداقيته كانت ستتزعزع في أعين أتباع بني أمية ومحبيهم، وذكر إمامة علي بن أبي طالب بدأ يغزو الساحة، ويجد من ينتصر له عقلا ونقلا.

لذلك تحرك الشيخ وكتب منهاج السنة فجاء كما أراده بنو أمية، كل شئ فيه، الكذب والخداع والتمويه وتحريف تراث المسلمين، لكنه خلا من الحقيقة، وابتعدت عن رحابه الموضوعية، فهنيئا لأتباع الشيخ السلفي به، وبما تضمنه من تبرير لسفك دماء أهل بيت النبوة.

وقد جاء في الحديث عن يوم القيامة إن الرجل يجد في صحيفته بأنه قتل فلانا، فيهرع قائلا يا رب أنا لم أقتل فلانا، لكن الجواب يأتيه، ألم تقل كذا وكذا؟! إن قولك هذا سفك به دم فلان؟! لقد دافع ابن تيمية عن بني أمية وبرر قتلهم لأبناء فاطمة وعلي بن أبي طالب، وغدا سيكون جدهم ﷺ خصمه فليهيئ جوابا.

لقد حصدت فتاوى ابن تيمية رؤوس الآلاف من الشيعة في بلاد الشام خاصة، وإن كان أغلبهم من الشيعة الإسماعيلية. لكن شرارة النار الملتهبة والمنبعثة من فتاوى الشيخ قد أصابت الشيعة الإمامية كذلك وأحرقت كثيرا من أرواحهم وأموالهم. فقد تعرض الإمامية لمذابح جماعية بعد ابن تيمية، في العراق وبلاد الشام، وراحوا ضحية الصراعات السياسية المتلبسة بالتعصب المذهبي، واستفاد خصوم الشيعة من تراث فكري ووقائعي ملئ بالكراهية والحقد شرعه بنو أمية وعمق شرخه بنو العباس واحتضنه حشوية الحنابلة، يوقدون ناره كلما أو شكت على الانطفاء.

إن هذا التراث الدموي اللاإنساني سترثه الدولة العثمانية من بين ما ورثت من ملك وسياسة في العالم الإسلامي. وستنطلق حفلات الدم من جديد، وكأن الأرض لم تشبع من هذا الدم الشيعي بعد. وعندما تبحث عن الأسباب والخلفيات تجد فقهاء يدعون الدفاع عن السنة والإسلام، متمركزين في مناصب، ويحتلون

مقاعد، لا يمكنهم الاستمرار فيها إلا بإراقة الدم الشيعي البرئ. وقد كان ذلك وفي أغلب الأحيان يصادف هوى في صدر الحكام وأمراء الجيش، وعندما يجتمع الاستبداد السياسي بالاستبداد الديني تكون الطامة على المجتمع وعلى فئاته الفكرية والدينية المختلفة.

يقول سماحة آية الله الخالصي من علماء العراق:»كانت الحكومة لا تتحرج من استئصال الشيعة وقتلهم تحت كل حجر ومدر، وذكر في تاريخ السلطان سليم العثماني أنه كان لا يهتم بشئ أكثر من اهتمامه باستئصال الشيعة وإبادتهم، وأنه قتل بين سامراء وبغداد في العراق في يوم واحد خمسة وعشرين ألف رجل من غير ذنب سوى أنهم شيعة، وذكرت مؤلفات تركيا الحديثة: إن من أقوى أسباب زوال الدولة العثمانية عداءهم للشيعة وحربهم معهم. وصرح كتاب ألف حديثا باسم (شيعتك أباد ولده حركاتي) بأمور كانت خافية، تبين أن عوامل التخريب في الدولة العثمانية كادت تكون منحصرة في تعصب الدولة لأهل السنة ضد الشيعة، حتى أنها لم تكن تعترف لهم كمواطنين في البلاد. وكانت تقتل من تظهر له مرتبة علمية من الشيعة كالشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي، والشهيد الثاني زين الدين وأمثالهما..» [(١)].

قد يقال بأن التجمعات الشيعة داخل الإمبراطورية العثمانية عرفت بعض الهدوء مع بداية الاستعمار الغربي وهجمته الإمبريالية لاقتطاع أراضي الدولة الإسلامية. لأن الخلافة في الإستانة قد انشغلت بالحروب المتعددة مع روسيا ومع الغرب. كذلك ربما نعم الشيعة في العراق ولبنان ببعض الحرية وتنفسوا الصعداء. لكنه هدوء سبق العاصفة. عاصفة هو جاء ستهب من بلاد نجد، تحمل على عاتقها قرونا من الكراهية والحقد الأعمى تجاه الشيعة والتشيع.

---

(١) رسالة الإسلام، السنة السادسة العدد الأول يناير ١٩٥٤ م، ص ٥٤ - ٥٥. موضوع بعنوان الطوائف الإسلامية في العراق.

الشيعة في المنطقة الشرقية:

انطلقت الحركة الوهابية من نجد وتمكنت بحد السيف من السيطرة على مجمل وسط الجزيرة العربية، وبدأت في نشر الفكر الحنبلي وإحياء التراث الحشوي في العقائد. وفي توسعها الجغرافي اصطدمت بأهل السنة في الحجاز. وبالشيعة الإمامية في المنطقة الشرقية والخليج. وإذا كان الحكم بالشرك قد أباح قتل أهل السنة ومن ثم القضاء عليهم والحلول محلهم، فإن الصراع مع شيعة المنطقة الشرقية سيأخذ أبعادا أكثر تعقيدا.

فلو رجعنا إلى يوميات الاحتلال الوهابي لمناطق الشيعة فسترى أن الهمجية بلغت مداها، يقول محمد عبد المجيد: «وفي خريف ١٧٩٣ م توجه سعود مع قوات كبيرة إلى الأحساء ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة، ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور ورعت الماشية في الحقول.

ويصف مؤرخ الدولة السعودية ابن بشر إخضاع الأحساء ويقول: «فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح فلما استووا (أي القوات) على ركائبهم وساروا ثوروا بنادقهم دفعة واحدة فاظلمت السماء وأرجفت الأرض وتأرجح الدخان في الجو وأسقط كثير من النساء الحوامل في الأحساء، ثم نزل سعود وظهر عليه جميع أهل الأحساء على إحسانه وإساءته وأمرهم بالخروج إليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة شهر. يقتل من أراد قتله ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه ويأخذ من الأموال ويهدم من المحال، ويبني ثغورا ويهدم دورا وضرب عليهم ألوف الدراهم وقبضها منهم...

وحينما سيطر عبد العزيز آل سعود على الأحساء والقطيف عين عبد الله بن جلوي الإرهابي المعروف، حاكما على الأحساء. وبدأ المذكور بالتنكيل بالشيعة ومارس معهم أبشع الجرائم دون رحمة. وتحدثنا كتب التاريخ السعودي إن كتب

الشيعة ومؤلفات علمائهم أحرقت أبان السيطرة السعودية الثالثة على المنطقة، وأن مساجدهم قد دمرت وأطلقوا عليها لفظ الكنائس وقد أجبر الشيعة على الرضوخ إلى مذهب السلطة فعينت السلطة قضاة يقضون بين الغالبية الشيعية على مذهبها، وعينت أئمة للجماعة ليؤموا الشيعة وأجبرتهم على الصلاة خلفهم. ومنعت عليهم بكل السبل والوسائل أحياء شعائر مذهبهم رغم أن رجالات الشيعة قد اتفقوا مع عبد العزيز بن مسعود عام (١٩١٣ م) على احترام حقوقهم المذهبية وعدم التعرض لهم في معتقداتهم ودينهم، لكن الملك نقض عهده، وراح يمارس الأمور ذاتها التي كان يقوم بها آباؤه وأجداده بل بصورة أشد شراسة، فقد أرسل الملك مشايخه وعلماءه للشيعة في المنطقة الشرقية ليجددوا إسلامهم، ولكي يؤدوا الصلاة خلفهم قهرا. وقد أفتى علماؤه في عام (١٣٤٥ هـ) بأن يجبر الشيعة على تغيير مذهبهم بالقوة أو ينفوا من البلاد، وأن تدمر مساجدهم وحسينياتهم، ويتم بالقوة تعليمهم مذهب السلطة ومعتقداتها. ولقد جاء في الفتوى: «وأما رافضة القطيف فيلزم الإمام أيده الله الشيخ ابن بشر أن يسافر إليهم ويلزمهم بما ذكرنا...»[١].

هذه إحدى حلقات الإكراه المذهبي والديني، يرغمون الشيعة على اعتناق المذهب الحنبلي وإلا القتل أو النفي من أراضيهم وأراضي أجدادهم ليحتلها بعد ذلك البدو، الهاربون من قحط الصحراء النجدية وشظف العيش فيها.

وإذا أضفنا إلى ذلك مجزرة كربلاء حين هجم (١٢ ألف وهابي) فجأة على ضريح الإمام الحسين، وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات، تركوا ما تبقى للنار والسيف... وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعا بسيوف هؤلاء البرابرة.

وبعد النهب والقتل دمروا كذلك ضريح الإمام وحولوه إلى كومة من الأقذار

(١) التمييز الطائفي في السعودية، رابطة عموم الشيعة في السعودية، ص ٥٨ - ٥٩.

والدماء. وحطموا خصوصا المنابر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب[(١)].

إن التاريخ الوقائعي لعلاقة الشيعة الإمامية بالوهابية داخل المملكة السلفية مثقل بالجروح والآلام، فمن القتل والنفي في الماضي، إلى التمييز الطائفي الحالي، حيث تعذر على الحكومة ومؤسساتها الدينية القضاء على الشيعة بفضل صمودهم، وبفضل المدنية الغربية التي فجرت النفط في مناطقهم واستخدمت الشيعة في صناعة النفط[(٢)] وآمنت بإنسانيتهم. فتعذر على الحكومة إبادتهم، إرضاء لشهوة البدو في تملك أراضيهم ومناطقهم الفلاحية المتميزة.

لكنهم محاصرون اجتماعيا واقتصاديا ودينيا. ويمارس عليهم أقصى أنواع التمييز الطائفي الذي لا يوجد له مثيل في العالم بأسره. فهم لا يدخلون الجيش إلا بصورة نادرة، سلاح الطيران إلا بصورة نادرة، سلاح البحرية إلا بصورة نادرة أيضا، لا يحق لهم الارتقاء الوظيفي إلى مستوى وزراء.. وهذا كما يقول محمد عبد المجيد، غيض من فيض من مواطن ومجالات التمييز الطائفي التي تمارسها السلطة السعودية وأعوانها ضد أتباع أهل البيت عليهم السلام في شبه الجزيرة العربية. إنها باختصار علاقة المعاناة التي يعيشها أبناء الطائفة الشيعية في ظل الحقد الطائفي الذي تمارسها الحكومة السعودية وأذنابها. كما أنها علاقة إرهاب وقتل وتنكيل وإبعاد وإقصاء من قبل السلطة السعودية ضد أتباع أهل البيت عليهم السلام[(٣)].

---

(١) أنظر أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، ١٨٠٣٠، الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٣٨ - ٤٠. عن تاريخ العربية السعودية لفاسيليف، ص ١١٦ - ١١٧.

(٢) تقول إذاعة لندن أن الشيعة «يشكلون نصف القوة العاملة في شركة أرامكو» لندن القسم العربي برنامج بين السائل والمجيب الساعة ٤٥ . ١ دقيقة، مساء يوم الثلاثاء ٢٦ / ١٢ / ١٩٩٥ م.

(٣) التمييز الطائفي في السعودية، ص ٨٤ - ٨٥، وأنظر للمزيد من التفاصيل في هذا المجال الشيعة في المملكة العربية السعودية، حمزة الحسن. إنه لوضع عجيب غريب يتنافى مع مبادئ الإسلام وميثاق حقوق الإنسان، ولا يكاد يصدق العقل حدوثه في ظل حكومة ترفع شعارات الإسلام وتتبنى خدمة الحرمين الشريفين. راجع الشيعة في السعودية الواقع الصعب والتطلعات المشروعة، نشر رابطة عموم الشيعة في السعودية.

وبعد هل هذا هو الإسلام السلفي، الذي يطرح نفسه كبديل ومنقذ للبشرية؟! ماذا سيفعل السلفيون مثلا لو استطاعوا أن يحكموا بلدا كلبنان، فيه أكثر من ثماني عشر طائفة؟! هل سيرمون غالبية الشعب في البحر باسم الإسلام؟! ثم يستوردون البدو من الجزيرة ليعمروا البلد الفارغ من أهله؟!.

إن ما يقوم به الوهابية اليوم في حق الشيعة الإمامية لا يقره لا الإسلام السلفي، ولا الإسلام الخلفي، ولا تقره جميع المواثيق الدولية الخاصة بحقوق الإنسان. والإسلام برئ من أعمال وأفعال هؤلاء البدو ﴿لا إكراه في الدين﴾.

إن الذي يقرأ ما كتبه بعض الكتاب الشيعة من هذه المنطقة حول ما يتعرض له مجتمعهم من اضطهاد ومضايقة، لا يسعه إلا أن يصرخ عاليا، ويعلن رفضه لهذه الممارسات اللاإنسانية، التي تسحق كرامة الإنسان، وتعتدي على أهم حق من حقوقه ألا وهو حق الاختيار العقائدي والديني!!.

يقول بعض الطلبة الشيعة: إن السلفيين يؤلفون الكتب التي تطعن في عقيدتنا، وتصفنا بالمجوس وأعداء الإسلام، وبأننا أشد خطرا وعداء للإسلام وأهله، من اليهود والنصارى. وتوزع هذه الكتب بالمجان. داخل المملكة، وخارجها. لكن أحدا منا لا يستطيع أن يحرك شفتيه معارضا. أما كتبنا الفقهية والأصولية فإنها ممنوعة إلى القليل منها. وفي البريد والجمارك والحدود كافة يصادر أي كتاب شيعي أو مجلة ولو كان في الأدب أو النحو، إذا ما كان مؤلفه شيعي.

إن سياجا من القوانين والمعاملات الطائفية يحيط بالشيعة الإمامية من كل جانب، ليمنعهم من التمدد أو التوسع، وقد أزداد هذا السياج قوة مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، التي أثارت الرعب في جميع دول المنطقة، وعلى رأسها مملكة السلفيين، هذا الرعب الذي أشعل نار الحرب العراقية/ الإيرانية والتي دامت ثمانية أعوام، أحرقت اليابس والأخضر، وابتلعت الألوف من الأرواح، والملايين من الدولارات. وراح ضحيتها ملايين من الأبرياء بين قتيل وسجين أو مشرد هنا وهناك.

إعلان الحرب على الثورة الإسلامية:

إن هذه الحرب الدموية المسلحة التي قادها طاغية أهوج، واستخدم فيها كل الأسلحة المحرمة دوليا. واكبتها حرب أخرى أشد ضراوة وأخطر وقعا، لأن آثارها ستتجاوز الحدود الجغرافية للصراع المسلح، لتشمل العالم الإسلامي بأسره. إنها الحرب التي يشنها الكتاب المرتزقة على الشيعة والتشيع انطلاقا من المملكة السلفية، وبدعم من مؤسستها الدينية. كرديف للحرب المسلحة وخلفية فكرية ودينية تدعم هذه الحرب، وتجد لها المبررات العقائدية، كي يموه على العالم الإسلامي، فلا يتعاطف مع المظلوم ولا يشجب الظالم.

لقد كتب المرتزقة عن الثورة الإسلامية في إيران بأنها ثورة مجوسية تريد أن تكتسح المنطقة وتقضي على الإسلام. لذلك صنعوا لها قادسية عربية، قادسية صدام الجديدة التي ستفتح بلاد الفرس من جديد؟!.

وغير ذلك من الأكاذيب والافتراءات التي صنعها الإعلام العربي الموجه من طرف الدول الخائفة من الثورة الإسلامية، ورغم ما قيل من كذب وما حرف وزور من حقائق، إلا أن الحق أبى إلا أن ينطق على لسانهم. فالإعلام الذي كان بالأمس يصف الجيش العراقي بأنه جيش إسلامي يقف أمام المد الفارسي المجوسي، ويدافع عن بوابة العرب الشرقية، وأن قتلاه شهداء عند ربهم يرزقون. سينقلب على هذا الجيش وعلى حاكمه، بعد ما حول جهاده لغزو الدول الخائفة من الغزو «الفارسي المجوسي»؟!.

لقد انقلبت الموازين رأسا على عقب، وأصبح صدام كافرا ومجرم حرب، وجيشه أداة إجرامية قذرة. وأعلن السلفيون الجهاد ضد هذا الكافر وجيشه، وكشفت الأوراق التي أريد لها أن تحرف وتزور. وكان مما استفادته الشعوب في المنطقة والعالم الإسلامي بأسره، أن بدأت الحكومات تكشف أسرارها.

فدول الخليج أعلنت صراحة بأنها كانت تدعم العراق بالمال والسلاح أثناء

حربه ضد الثورة الإسلامية. والعراق لم يبق مكتوف الأيدي وهذه الدول تستدعي الجيوش الغربية لحربه، بل كشف مجموعة من أسرار الدول الخائفة.

وهكذا كانت الشعوب على موعد مع الحقيقة، في لحظة اختلطت فيها الحسابات بين الإخوة الأعداء.

فغنمت الشعوب بعضا من الحقائق التي يمكن أن تتخذ كأمثلة للتأمل وأخذ العبرة. والطريف في الأمر هو الموقف الجديد من الثورة الإسلامية، فقد تقدم زعماء الدول الخائفة بالاعتذار للدولة والثورة التي أصبحت إسلامية. بين عشية وضحاها! وتسابق القوم لإقامة علاقات ودية مع الثورة الإسلامية. أما الإعلام السلفي ومرتزقته فقد أسكتتهم المصالح السياسية وذهبت حقائقهم مع الريح الجديد. ووضعوا في البرادات إلى حين الاحتياج إليهم من جديد.

أكاذيب وهرطقات سلفية

الهجمة الإعلامية الشرسة على الجمهورية الإسلامية:

لقد ظهرت إبان الحرب العراقية الإيرانية كتب كثيرة، تطعن في الشيعة وعقائدهم، وتصفهم بالمجوس واليهود، وتنبه المسلمين من خطرهم على الإسلام. يقول عبد الله الغريب: «فمنذ أكثر من عشرين عاما وأنا أتتبع أنشطة الرافضة ومخططاتهم في عالمنا الإسلامي... أتتبع ما يلجأون إليه من وسائل وطرق في نشر دعوتهم في المناطق الآهلة بالسنة، وأجمع الأرقام والإحصائيات عن عدد القبائل والأفراد الذين تشيعوا خلال قرن من الزمن في كل من إيران والخليج والعراق ولبنان»[1].

وبعد ذلك يملأ كتابه بالكذب المحض والافتراءات الرخيصة، ولا شك أن هذا الكتاب صناعة مخابراتية لأنه مشحون بالأرقام والتقارير، كما أن قوله أجمع الأرقام والإحصائيات عن المتشيعين يثير الشكوك في شخصه.

والكتاب من أوله إلى آخره يريد أن يظهر للمسلمين السنة إن الثورة الإسلامية في إيران هي دعوة مجوسية يسعى أصحابها كما يقول إلى «إعادة مجد كسرى ونار مزدا»[2]. وهذا الكلام لا يحتاج إلى رد لأن الحمق لا يناقش، ولأن الغرض من هذا الكذب الرخيص هو إبعاد أبناء الصحوة الإسلامية عن التأثر بالثورة، لأن ذلك يشكل خطرا عن أنظمة وحكومات لا شرعية لها.

---

(١) وجاء دور المجوس الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإسلامية، الدكتور عبد الله محمد الغريب، ١٩٨١ م، ص ٣ - ٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٩.

ويظهر ذلك جليا في قوله: «وتنافست معظم الجماعات الإسلامية في تأييد الثورة الإيرانية وهذه الجماعات التي تنتسب إلى مذهب أهل السنة متناحرة فيما بينها متخاصمة، ومن الصعوبة جدا أن توحد صفها، لكنهم جميعا متفقون على ضرورة تأييد الثورة الإيرانية والتعاون والتنسيق مع البطل الإسلامي الخميني كما يقولون[١].

وهذا الاتفاق بين الحركات الإسلامية والثورة الإيرانية هو الذي يؤرق أجهزت الأمن في العالم الإسلامي. وهذه الحركات فيها العلماء والفقهاء، وزعماء الحركات الإسلامية الكبرى، وقد أجمعوا على إسلامية هذه الثورة ووجوب الوقوف بجانبها في حربها ضد الإمبريالية وأذنابها في المنطقة. فهذا أبو الأعلى المودودي زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان يرد على سؤال مجلة الدعوة القاهرية عدد ٢٩ أغسطس (آب) ١٩٧٩م، حول الثورة الإسلامية في إيران. أجاب العالم المجتهد الذي أجمعت الحركة الإسلامية أنه واحد من أبرز روادها في هذا القرن: «وثورة الخميني ثورة إسلامية والقائمون عليها هم جماعة إسلامية وشباب تلقوا التربية في الحركات الإسلامية وعلى جميع المسلمين عامة والحركات الإسلامية خاصة أن تؤيد هذه الثورة وتتعاون معها في جميع المجالات»[٢].

ويستعرض الأستاذ فتحي يكن مؤامرات الاستعمار والقوى الدولية ضد الإسلام فيقول في كتابه (أبجديات التصور الحركي للعمل الإسلامي، ص ٤٨): «وفي التاريخ القريب شاهد على ما نقول ألا وهو تجربة الثورة الإسلامية في إيران هذه التجربة التي هبت لمحاربتها وإجهاضها كل قوى الأرض الكافرة ولا تزال، بسبب أنها إسلامية وأنها لا شرقية ولا غربية»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٨.

(٢) السنة والشيعة ضجة مفتعلة، الدكتور عز الدين إبراهيم. منظمة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٥ هـ ص ٣٣ - ٣٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤. أيد أغلب رؤساء الحركات الإسلامية الثورة الإسلامية في إيران واعترفوا بها. منهم الأستاذ عصام العطار الذي أعلن تأييده للثورة وقامت مجلته «الرائد» بشرح مواقف الثورة

وعليه ففي الوقت الذي يشهد زعماء الحركات الإسلامية قاطبة للثورة الإيرانية بالإسلام. يقول مرتزقة السلفية إن هذه الثورة مجوسية جاءت لتعيد ملك كسرى ونار مزدا؟!.

يقول الدكتور عز الدين إبراهيم وهو مفكر وزعيم حركي في فلسطين المحتلة: «بدأ بعضهم يشن حملة مشبوهة ومفاجئة ضد الثورة الإسلامية التي اكتشفوا أخيرا أنها ثورة شيعية، وأن الشيعة فرقة ضالة أو كافرة وأن آية الله الخميني الذي قالوا إنه هز العروش وهو يجلس فوق سجادته أصبح أيضا ضالا كافرا! وبدأ يتكرر أمامنا مشهد الشباب المسلم(!) الذي يحمل كتابا سعوديا مليئا بالمغالطات والافتراءات. يحمله من مسجد إلى مسجد يشرحه للناس ويبشر بما فيه من أضاليل...

أدرك أن بعض هؤلاء الشباب يتحرك بحسن نية متوهما أنه يعمل لله، تماما كما أدرك إن الطريق إلى جهنم مليء بمثل هذه النوايا الحسنة. فمتى يكتشف مثل هذا الشباب أنهم وبحسن نية ينفذون مخططا استعماريا، وإن عليهم أن ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان؟...

ويضيف الدكتور قائلا: إنني أفهم جيدا إن موقف بعض قواعد الحركة الإسلامية المعادي للثورة والمثير للضجة المفتعلة حول السنة والشيعة ليس موقفا جذريا أصيلا، ولكنه موقف طارئ فرضه آخرون(!) على هذا الشباب المخلص الطاهر بعد أن وضعوه في دوامة الشك واليأس وهو يكتشف أخيرا إن الثورة التي

ودعمها. وفي السودان زار زعيم الحركة الإسلامية هناك الدكتور حسن الترابي إيران وأيد الثورة وزعيمها. وفي تونس كتب الأستاذ راشد الغنوشي في مجلة المعرفة، مرشحا الإمام الخميني لإمامة المسلمين مما أدى إلى أغلاق المجلة. وفي الأردن أعلن الأستاذ محمد عبد الرحمان خليفة المراقب العام للأخوان المسلمين تأييده للثورة قبل وبعد زيارته لإيران. أما في مصر فقد وقفت مجلة «الدعوة» و«الإعتصام» و«المختار الإسلامي» إلى جانب الثورة مؤكدة إسلاميتها ومؤيدة لها ولزعيمها أنظر المرجع السابق.

أوقدت آماله وأشعلتها ليست ثورة إسلامية ولكنها شيعية وإن الشيعة كفار[١].

والحقيقة أن هذه الكتب إنما تخدم هذا الهدف. لقد تبين للدول الخائفة من الثورة الإسلامية أن الجيش العراقي لن يصد رياح الثورة، وأن أبناء الصحوة الإسلامية يتابعون يوميات هذه الثورة ويتشوقون لمعرفة أخبارها، خصوصا بعد ما تبين لهم إن الجيش الصدامي يمارس حربا عدوانية، الغرض منها القضاء على هذه الثورة. لذلك استدعى خبراء الأمن، الكتاب المرتزقة وبدأوا في تأليف الأكاذيب والأضاليل، لمحاصرة الثورة إعلاميا وفكريا ودينيا، مستندين على تراث حشوية الحنابلة، الذين وجدوا الفرصة مناسبة، لتوزيع الكذب والخرافات، وتحقيق الانتصارات المذهبية الوهمية.

والحقيقة أن هذا الكذب السلفي قد وجد آذانا صاغية داخل قطاعات واسعة من أبناء الصحوة الإسلامية، لأن أغلبهم لا طاقة لهم بمعرفة المكر السياسي وأحابيل الصراع المذهبي، وهم قبل ذلك يخافون من الكفر والشرك ويبحثون عن الحق والتوحيد. وقد امتلأت كتب هؤلاء السلفية بوصم الشيعة بالكفر والشرك ومخالفة قواعد الإسلام والإيمان، فالشيعة يسبون الصحابة، ويدعون تحريف القرآن الكريم، ولهم قرآن آخر غير الذي بيد المسلمين؟!. وهم يفضلون أئمتهم على الرسول والأنبياء، إلى غير ذلك من الهرطقات؟!.

كل ذلك في سبيل إبعاد أبناء الصحوة عن التأثر بالثورة الإسلامية، لأن في هذا التأثر نهاية صروح عالية تمتص دماء المسلمين، وتعبث بتاريخهم ودينهم وثرواتهم الطبيعية؟!.

الحمق لا يناقش:

من هذه الكتب التي ظهرت ونشرت على نطاق واسع، كتاب «تبديد الظلام

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣.

وتنبيه النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام» لإبراهيم سليمان الجبهان، وهذا الرجل كتب كلاما غريبا عن الشيعة، فهو يقول بعد ما ذكر فرق الشيعة: «الأصل بين جميع هذه الطوائف واحد.. وهو الإلحاد المتستر ببدعة التشيع»(١)؟!!.

ويقول في أوجه الشبه والاختلاف بين التشيع والشيوعية: «كلاهما يجمع الأحرف الأولى من الشؤم والهدم واليأس والعناء، كلاهما من صنع يهودي.

وكلاهما يهدف إلى الخراب والتدمير.. ما تبنيه الإنسانية يهدمه التشيع بلا عقل، وتهدمه الشيوعية بلا ضمير.. ائتني بشيعي صغير أخرج لك منه شيوعيا كبيرا وائتني بشيوعي صغير أخرج منه يهوديا كبيرا، وائتني بيهودي صغير أثبت لك أن الشيطان واحد من عملائه...

يقطع الشيعي الشجرة التي تظله، ويقطع الشيوعي الغصن الذي يجلس عليه(٢).

ويبلغ به الغلو في الكذب فيقول: «إن طائفة الشيعة الإمامية يا سادتي يتدينون بدين لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة واهية هي أشبه ما تكون بخيط العنكبوت. لا بل إنه دين يقف مع الإسلام على طرفي نقيض(٣)؟! ولا يكفيه أن يخرج فئة عريضة من الإسلام بجرة قلم بل يذهب إلى رد سنة الرسول ﷺ، فعل شيخهم ابن تيمية الذي سن لهم هذا الطريق.

يقول هذا الجبهان: زعموا أي الشيعة الإمامية. أن النبي ﷺ قال: تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي(٤). وهذا الحديث الذي يقول الكاتب السلفي بأن الشيعة زعموا أن الرسول ﷺ قاله. هو في صحيح مسلم باب فضائل علي بن

---

(١) تبديد الظلام، ط ٣ ١٩٨٨ م، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩١.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٠١.

أبي طالب (ج ٥ ص ١٢٢). وصحيح الترمذي (ج ٥ ص ٣٢٨)، ومستدرك الحاكم (ج ٣ ص ١٤٨) ومسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٣ ص ١٧). وهو قول الرسول ﷺ: «أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي». وقال أيضا في رواية أخرى. «يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور وأهل بيتي، أذكر كم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

إننا لن نستطيع أن نرد على كل ما جاء في الكتاب أو نورده هنا، لأنه من الصعب على العاقل أن يناقش الجنون، جنون الحقد الأعمى. إن أفضل رد وأحسنه، هو أن ندعو أبناء الصحوة الإسلامية لقراءة كتب الشيعة، وأن يضعوا بجانبهم هذه الكتب السلفية وليقارنوا بعد ذلك.

أما إحسان إلهي ظهير المفكر السلفي الباكستاني، الذي انتدبته المؤسسة الدينية السلفية للرد على الشيعة، فقد أتى في كتبه بما يحير العقول وتشيب له الأطفال من الكذب والتحريف والتزوير للحقائق. أنظر إليه وهو يعرف الشيعة الإمامية يقول: «ويسمون أيضا الرافضة أو الروافض لرفضهم مناصرة أئمتهم ومتابعتهم، وغدرهم بهم وعدم وفائهم لهم كما وصفهم علي رضي الله عنه»[1].

وليسارع القارئ إلى كتب الفرق الإسلامية ليبحث عن مثل هكذا تعريف للشيعة الإمامية؟! لكننا نحن ننصح القارئ بألا يضيع وقته في البحث عن شئ لا وجود له إلا في عقول وأوهام كتاب السلفية. ويكفي إحسان إلهي ظهير أنه أشعل فتنة طائفية بين أفراد الشعب الباكستاني الذين كانوا يعيشون في أمن وأمان مئات السنين. قبل أن يطلع عليهم قرن الدعوة السلفية وأتباعها. وأخبار القتل وإحراق المساجد في باكستان تملأ الصحف والمجلات وتتناقلها إذاعات العالم. فقد نشرت الصحف في عام (١٣٨٢ هـ) إن رجال الشرطة في مدينة كراتشي أعلنوا إن (١٢٠

---

(١) الشيعة والتشيع فرق وتاريخ. الناشر إدارة ترجمان السنة. لاهور، باكستان، ط ٤، ١٩٨٤ م، ص ٢٧٠.

شخصا) من المسلمين قد قتلوا كما أصيب ١٦ شخصا آخرين على إثر معارك دامية نشبت بين السنة والشيعة في قرية ثاري التي تبعد (٢٥ ميلا) عن العاصمة الباكستانية، وأن النيران اشتعلت في القرية التي دارت فيها المعارك، وأن اشتباكا مماثلا وقع في لاهور راح ضحيته شخصان[1].

ويستمر مسلسل القتل في باكستان والهند وتحرق المساجد إرضاء للإسلام السلفي وأتباعه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن هذه الكتب السلفية التي تنشرها المؤسسة السلفية للطعن في عقائد الشيعة، تساهم من جانب آخر في نشر التشيع، لأنه يكفي أن يطلع أبناء الصحوة على عقائد الشيعة في كتبهم ومجلاتهم وعند المقارنة تنهدم صروح الكذب السلفي بسرعة، ويتحول أبناء الصحوة بعد اكتشاف الحقيقة إلى أعداء للدعوة السلفية ومبادئها، ويعتنقون التشيع زرافات، وهذا ما يقع حاليا.

وإن كان زعماء الدعوة السلفية اكتشفوا ذلك فبدأوا يصدرون الفتاوى في حرمة قراءة كتب الشيعة، ويطلبون من أتباعهم عدم فتح النقاش مع الشيعة، وألا يقتنون أي كتاب من كتبهم. وذلك لحرمة اقتناء أو قراءة كتب الضلال.

نحن نقول لأبناء الصحوة لا تخافوا من كتب الشيعة، إن المكتبات العربية وأسواق الكتب ممتلئة بكتب سارتر وماركس وداروين ومن هب ودب من فلاسفة الغرب والشرق، من ملحدين وفسقة وضالين، وقد كنا ونحن نواجه من يؤمن ببعض أفكار هؤلاء، نقتني مؤلفاتهم ونقرأها ونستوعب ما تحتويه، ثم نخرج أشد إيمانا بالإسلام، ونرد على من يعتنق مثل هذه الأفكار. إن الإسلام قوي بما فيه الكفاية، ولا يخاف من استخدام العقل. وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن، فليبحث عنها أنى وجدها فهو أحق بها.

---

(١) على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية، م. س، ص ٣٤.

ورحم الله الشريف المرتضى حين قال: «إن المذاهب يجب أن تؤخذ من أفواه قائليها، وأصحابهم المختصين بهم ومن هو مأمون في الحكاية عنهم، ولا يرجع فيها إلى دعاوي الخصوم، فإنه إن يرجع إلى ذلك في المذهب اتسع الخرق، وجل الخطب، ولم تثق بحكاية في مذهب ولا استناد مقالة»[١].

على أبناء الصحوة ألا يخافوا من البحث والقراءة واستخدام العقل في التمحيص والمقارنة. لأن هذا هو السبيل الوحيد، الذي يحفظهم من السقوط في أحابيل المصالح السياسية المختلفة والمتناقضة، والتي لا يعلمون عنها شيئا.

لقد كانت البواخر أو الطائرات تفرغ حمولات ضخمة من كتب ونشرات وكتيبات، توزع في الجزائر وتكفر الشيعة وتبيح دمهم، ولم تكن تحمل توقيعا ولا إشارة لمؤسسة أصدرتها.

لكنها تبتدئ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وبعد ذلك يأتي تكفير الشيعة وعرض عقائدهم المحرفة والرد عليها. ولم يكن أحد يتساءل من وراء هذه الشحنات الورقية، ومن يطبعها؟! ولماذا توزع في الجزائر؟!.

فليس في الجزائر طائفة شيعية مثلا، ولا يشكل الشيعة نسبة مئوية من الشعب الجزائري، حتى يقال بأن هناك صراعا اجتماعيا مذهبيا؟!.

لكن السياسة الماكرة كانت تخطط بطريقة استراتيجية. الغرض منها صنع سد منيع بين أبناء الصحوة هناك والتأثر بالثورة الإسلامية في إيران، فكان لها ما أرادت وزيادة، أنظر ماذا يقول أحد الإسلامين الجزائريين: «والجماعة الإسلامية المسلحة سلفية عقيدة ومنهجا وسلوكا وموقفها من الشيعة معروف، وهو الحكم عليهم بالردة والخروج عن شرائع الإسلام»[٢] ونحن على يقين إن من يقول هذا

---

(١) نقلا عن المرجع السابق، ص ١٤٤.

(٢) جريدة الحياة اللندنية، الأحد ٤ أيلول ١٩٩٤ م.

الكلام، لم يقرأ يوما ما كتابا شيعيا، ولم يعرف عن الشيعة سوى ما كتبه ابن تيمية في منهاجه، وما ينشره السلفيون من كتب كالتي ذكرنا.

الخلط والخبط السلفي:

وحرب الشيعة لم يقتصر فيها على الكتاب وإنما هناك كم هائل من الأشرطة والمحاضرات المسجلة والتي توزع على نطاق واسع، وهذه المحاضرات يلقيها دكاترة وشيوخ من داخل المملكة السلفية، يحرفون فيها الحقائق ويشحنون عقول المستمعين لهم بالمغالطات والكذب المحض، وبما أن المستوى التعليمي بسيط جدا هناك، فإن أحدا لا يعترض على ما يقوله هؤلاء، علما أن الشيعة لا يسمح لهم بحضور هذه المحاضرات التي غالبا ما تلقى في المساجد، في نجد والحجاز، ولو حضر شيعي وقدم اعتراضا فإن مصيره سيكون القتل لا محالة، وإذا لم يقتل فإن السلطة ستستلمه لتزج به في السجن.

بين يدي شريط كاسيت للدكتور ناصر بن عبد الله القفاري الأستاذ في كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، حول «مصدر تلقي العقيدة عند الباطنية»، وهي محاضرة ألقاها في أحد المساجد، سمعت هذا الشريط مرات عدة، وجلست أفكر في المستوى العلمي لهؤلاء الدكاترة، وكيف يحصل أنصاف المتعلمين على درجة الدكتوراه، وقلت في نفسي نحن العرب نمسخ كل ما نستورده من الغرب، الديمقراطية أفرغناها من محتواها وميعنا مبادئها، حتى أصبحت سندا للاستبداد ووسيلة لانتهاك حقوق الإنسان؟!. وهذه الدرجة العلمية «الدكتوراه» يحصل عليها الباحث والدارس في جامعات الغرب بعد سنين من البحث والمعاناة، أما نحن فنسلمها لأشخاص لم يتجاوزوا المراحل الأولى في التحصيل العلمي؟! لماذا أقول هذا الكلام؟! لأن هذا الدكتور السلفي سيخلط المربى بالزيت، والطحين بالتراب والحابل بالنابل؟!.

يقول في تعريف الباطنية: «مجموعة فرق وطوائف تعمل في الظلام وتنشر

مذهبها في الخفاء وتتدرج بفريستها عبر مراحل عندهم) ودرجات في الدعوة والاحتواء.. لهم كما يقول الشهرستاني اسم في كل مكان ودعوة بكل لسان، فقد يتظاهرون بالتشيع في البيئة التي تغلو في التشيع لأهل البيت وتطعن في صحابة رسول الله ﷺ وقد يستخدمون العلمنة والعلمانية...

وينخرطون في سلكهم لحرب الإسلام والمسلمين. وقد يرفعون شعار البعث للوصول إلى أهدافهم. وقد يرفعون شعار الحداثة للوصول إلى أهدافهم، ولذلك قال الغزالي في فضائح الباطنية إن ظاهر مذهبهم الرفض يعني التشيع لأهل البيت وباطنه الكفر المحض. وأقول إن ظاهر مذهبهم قد يكون الرفض وقد يكون البعث، وقد يكون الحداثة وقد يكون العلمنة وقد يكون وقد يكون...[(١)].

ماذا يقول الإنسان في هذا الهراء، سنين طويلة ونحن نتصفح كتب الفلسفة وعلم الكلام وكتب التاريخ والفكر ولم نقرأ ولم نسمع أن حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم الآن في العراق وسورية حزب باطني، والعلمانية والحداثة، ما علاقة هذه المفاهيم والأيديلوجيات بالباطنية؟! وهل ظاهر العلمانية والحداثة والبعث، الرفض والتشيع؟!.

من قال ذلك؟!! ما هذا الخلط والخبط يا أتباع السلف الصالح؟! وفي مملكة السلف الكثير ممن يؤمنون بالعلمانية والحداثة والبعث، ومن بينهم أفراد الأسرة الحاكمة. فهل هؤلاء باطنية؟!؟!.

إن نقاش هذا الحمق يجلب الصداع للرأس. وبعد هذا يتابع الدكتور السلفي محاضرته ليبين بأن العلماء عرفوا عقائد هؤلاء الباطنية من خلال كتاباتهم التي بدأوا ينشرونها ويذكر اسم مصطفى غالب. وهو يعني كتب الإسماعيلية، وهذه فرقة معروفة في التاريخ والحاضر. لكن ما علاقة هؤلاء بالحداثة والعلمانية وحزب البعث؟؟!!.

ويختم الدكتور محاضرته بمربط الفرس والهدف من هذا الهراء. ليدعي بأن

---

(١) الشريط، تسجيلات ابن الجوزي الإسلامية، الدمام شارع ابن خلدون.

هؤلاء الباطنية تمثلهم اليوم طائفة الشيعة الاثنا عشرية المتواجدة في المنطقة الشرقية داخل المملكة. وأن هذه الفرقة هي المقصود بالباطنية!!.

ويخرج البدو السذج من المحاضرة يلهجون بكفر وزندقة ملايين من المسلمين، أخرجهم هذا الدكتور بعبقريته الفذة وعلمه الواسع، من الإسلام ووضعهم ضمن الباطنية التي تسعى على حد قوله للكيد للإسلام والمسلمين.

هذه المحاضرات والكتب هي التي يتغذى عليها قسم من أبناء الصحوة الإسلامية، فيحكمون على نصف أبناء الإسلام بالردة والكفر. ويتحينون الفرصة للتقرب إلى الله بدمهم. إنه تصدير الجهل البدوي والسذاجة المعرفية المدعومة بالمكر السياسي؟! ومع الأسف وجد هذا الجهل أرضا خصبة في أماكن من العالم الإسلامي، كالجزائر مثلا، فنما وترعرع وبدأ يعطي ثمارا مرة، أحلاها انتكاسة الصحوة الإسلامية وتشويه الإسلام في أعين المؤمنين به وأعدائه على السواء.

نموذج آخر من نماذج نشر الجهل السلفي، يتمثل هذه المرة في محاضرة سلفي آخر سجلت على شريط وتوزع للمساهمة في»نشر الخير»كما يدعي موزعوها. ألقاها عبد الله السبت تحت عنوان: «يزيد ابن معاوية». وللسلفيين ولع ببني أمية وحب يفوق الوصف، ونحن نعجب لهذا الحب وكيف أن علماء أهل السنة أغفلوهم وتناسوهم ولم يعتدوا بهم، واعتبروا أغلب ملوكهم - باستثناء عمر بن عبد العزيز - فسقه ومجرمين، أساؤوا للإسلام وأهله.

لنستمع ماذا يقول عبد الله السبت بخصوص هذا الإمام السلفي الزاهد يزيد بن معاوية، يقول: انقسم الناس في يزيد ثلاثة مذاهب منها: «قوم من بقايا مجوس وباطنية ووثنية قد كفروه وعدوه زنديقا وتكلموا في عرضه وفي دينه ووصفوه بأنه شارب خمر وتارك صلاة وهؤلاء هم الرافضة ومن سار على منهجهم عليهم لعائن الله[1].

(١) الشريط تسجيلات ابن الجوزي الإسلامية الدمام شارع ابن خلدون.

وهؤلاء الذين عليهم لعائن الله هم مؤرخو أهل السنة وكبار رجال السلفية المعتمدين عندهم. يقول هذا السلفي عن ابن كثير المؤرخ بأنه سيد المؤرخين، فماذا يقول ابن كثير في يزيد ابن معاوية: «اشتهر يزيد بالمعازف وشرب الخمور، والغناء والصيد، واتخاذ القيان والكلاب، والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخمورا. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل إن سبب موته إنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته»[1].

ويقول ابن كثير إن يزيد «كان فاسقا»[2] فهو القائل:

لعبت هـاشم بالملك فـلا ملك جـاء ولا وحي نزل

وقال البلاذري إن سبب وفاة يزيد إنه حمل قردة على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها فسقط فاندقت عنقه أو انقطع في جوفه شئ[3].

يقول نبيل فياض: قرد آخر ليزيد، اسمه أبو خلف، قال عنه البلاذري:

«خرج يزيد يتصيد بحوارين وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قردا، وجعل يركض الأتان، ويقول:

أبا خلف احتل لنفسك حيـلة فليس عليها إن هلكت ضمان

لكن أبا سمير هو القرد الذي احتل أرفع مكانة في قلب «أمير المؤمنين» يزيد، إلى درجة أنه حين مات «القرد طبعا» أمر الخليفة «أمير المؤمنين» بغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين[4].

نفس الكلام تجده في أغلب كتب التاريخ، وهذا السلفي يعلم بذلك، لكنه

(١) البداية والنهاية ابن كثير مكتبة المعارف، مكتبة النصر، ج ٨، ص ٢٣٦.
(٢) المرجع نفسه، ج ٨، ص ٢٢٦، وما بعد.
(٣) أنساب الأشراف، ج ٤، ص ١ - ٢.
(٤) أنظر يوم انحدر الجمل من السقيفة، بيروت - ليماسول، ط ٣، ١٩٩٥ م، ص ١٧.

يحرف الحقائق جهرا ويكذب على مستمعيه؟! وتراه يقول بأن السيوطي رغم أنه من المدافعين عن بني أمية إلا أنه «تورط في سب يزيد ولعنه»؟! وبعد ذلك يأتي بالعجائب والغرائب.، يقول بأن يزيد بن معاوية الفاسق كان زاهدا.

وأن الإمام أحمد بن حنبل عده من الزهاد؟! وهنا يختلط الحابل بالنابل؟!

فمن نصدق، لقد نقلنا قبل قليل إن الإمام أحمد لعنه، وإن طائفة من علماء الحنابلة وعلى رأسهم ابن الجوزي، لعنوه وأباحوا لعنه، وألف ابن الجوزي في ذلك كتابا. وتبعهم علماء أهل السنة فلعنوه ورفضوه واعتبروا قتله للإمام حسين بن علي وإحراق الكعبة وقتل التابعين في مدينة الرسول ﷺ من الموبقات.

كما أن ابنه خالد لما مات يزيد صعد المنبر وأعلن علمه بسوء منقلب أبيه، واعتزل الخلافة؟! وهذا مسجل في التاريخ. فلماذا المغالطات والتدجيل وتزوير الحقائق؟ لكن الكذب كان وما زال ديدن حشوية الحنابلة ومطيتهم للوصول إلى تحقيق أهدافهم. أنظر لما يقوله ابن كثير في سيرة الشيخ عبد المغيث بن زهير الحربي:»كان من صلحاء الحنابلة، وكان يزار وله مصنف في فضل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالغرائب والعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج ابن الجوزي فأجاد وأصاب[(١)].

(١) البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٥٠، صعد معاوية الثاني المنبر بعد وفاة أبيه يزيد وخطب خطبة ومما قال:» يا أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو علي بن أبي طالب. وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياه، ثم قلد أبي الأمر (يزيد)، فكان أهل لذلك وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل، وصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بجرمه، ثم بكى حتى جرت دموعه وقال: إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وبؤس منقلبه، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباح الحرم وخرب الكعبة. وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم..» يقول الدكتور رشدي فكار: «هكذا أورد لنا الكندي (في كتاب الولاة والقضاة ص ٤٥ وما يليها) هذه الشهادة الهامة للخليفة الثالث الأموي معاوية الثاني، وكيف كان البلاء نتيجة للخلافة وهمومها». بلاء الوجود في ديار الإسلام، دار البلاغ القاهرة، ط ١ - ١٩٩٥ م، المجلد ٢١، ص ٨٩.

وبعد، فهذا قليل من كثير في سيرة يزيد بن معاوية وأقوال العلماء فيه، وليس فيهم «رافضي» أو شيعي. إلا إذا اعتبرنا ابن كثير وابن الجوزي والسيوطي وابن الأثير روافض؟!. لكنه الجهل السلفي والحقد الأعمى تجاه شيعة أهل البيت، ورثه هؤلاء النجديون عن زعيمهم ابن تيمية الحراني.

إن هناك المئات من الكتب والأشرطة توزع في العالم الإسلامي مملوءة بالكذب والمغالطات. تنتصر للمذهب الحنبلي الحشوي باسم السلفية وتهاجم خصومه من أهل السنة والشيعة الإمامية، ومن المؤسف أن غالبية ابناء الصحوة يقعون فريسة هذا الصراع المذهبي المقيت دون علمهم، ويخدمون الأغراض السياسية الخبيثة بدون قصد، فترى السلفيين الجزائريين مثلا يرفضون الحكم السعودي ويسبون ملوكه، في الوقت الذي يعتبر انتماؤهم السلفي جزءا من استراتيجية الدعوة السعودية السلفية، فمن يطبع الكتب التي يتغذى عليها سلفيو الجزائر؟ ومن يوصل لهم آلاف الفتاوى والكتيبات والمنشورات ذات الطباعة الفاخرة؟ إنها أموال آل سعود، ولولاها لما كتب على أغلفة هذه الكتب والكتيبات «يوزع مجانا»، «لا يباع»، «وقف لله» وغير ذلك.

السلفي الحائر:

وأرجع لقائمة الكتب التي ألفها السلفيون في نقض مذهب الشيعة الإمامية، لأستحضر ما وقع لي مع شاب جزائري من تلامذة علي بلحاج المرشد السلفي لجبهة الإنقاذ. فقد تعرفت عليه يوما، وكان يتابع دراسته الشرعية في إحدى معاهد الشام الإسلامية. ولما توطدت العلاقة بيننا، وكنا نجلس ساعات طوال نناقش قضايا التمذهب والخلافات العقائدية والفقهية بين المذاهب الإسلامية. وما كنت ألاحظه هو بساطة المعرفة وقلة الاطلاع على مذاهب أهل السنة الأصولية والفقهية، أما الشيعة الإمامية، فمعرفته بهم لا تعدو أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد كفرهم، ولا حاجة بعد ذلك للمزيد أو الاطلاع، فهذا موضوع قد فرغ منه.

وشيخ الإسلام قد فصل فيه فارتاح وأراح. قلت له يوما ونحن نناقش موضوع إيمان الشيعة وكفرهم. أنا أعرف أمين المكتبة في إحدى المدارس الدينية الشيعية، فما رأيك لو زرنا هذه المكتبة؟! فقبل ولم يمانع، وكان هذا من انفتاح الشاب وجرأته. لأن دعاة السلفية يحرمون على أتباعهم قراءة كتب الشيعة أو مناقشتهم فكيف بالدخول إلى مدارسهم. وقد أعلن أحد كتابهم أن على السلفي إذا دخل حيا يسكنه الشيعة أن يقول«اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»وهذا دعاء دخول الكنيف لقضاء الحاجة.

أقول قبل صديقي السلفي زيارة المدرسة الشيعية، وفعلا وصلنا للمدرسة و طلبنا زيارة المكتبة، فسمح لنا بالدخول. لقد كانت مفاجأة صديقي أو لنقل صدمته قوية!!.

لقد وجد كتب أهل السنة والسلفية كلها جنبا إلى جنب كتب الشيعة.

وجد صحيح البخاري ومسلم والترمذي وسنن ابن ماجة والنسائي ومستدرك الحاكم ومسند الإمام أحمد بن حنبل. وجميع التفاسير القرآنية وعلى رأسها تفسير ابن كثير وسيد قطب. ومعظم الموسوعات الفقهية الخاصة بالمذاهب الأربعة، بالإضافة إلى مجمل كتب التاريخ ومصادره الأساسية.

قلت لصديقي السلفي: هذه الكتب ليست للعرض وإنما للاستفادة، وعلماء الشيعة يأخذون منها كما يأخذون من كتبهم الخاصة كموسوعات الأحاديث المروية عن الرسولﷺ وأهل بيته. ووجهت انتباهه لبعض الموسوعات الفقهية الشيعية، قائلا: لا توجد مسألة فقهية هنا إلا ولها أساس ومصدر في فقه أهل السنة وكتب الحديث التي تعرفها.

كان الذهول باديا على صديقي السلفي، لأني كنت أعلم أن ذهنه محشو بأفكار وأوصاف للشيعة لا وجود لها إلا في بطون الكتب السلفية وعقولهم. لذلك لما فكرت في دعوته لزيارة المكتبة الشيعية كان غرضي إيصاله لهذه الحالة من

الذهول والاستغراب؟! لدرجة أنه شك في نفسه وفي وجوده وهل هو حقا داخل مكتبة شيعية أما أن في الأمر خدعة. لكني كنت أدرك تساؤلاته واستغرابه الوضع.

كنت أقرأ عناوين الكتب التي يعرفها جيدا وأشير إلى مكانها بين الكتب والمصادر الشيعية الخاصة. لكن المفاجأة هذه المرة كانت مذهلة ولا تصدق.

عندما وقفنا أمام رفوف الكتب العقائدية. لأن صديقنا ستقع عينه على مجموعة الكتب التي يصدرها السلفيون ضد الشيعة، لقد وجد كل الكتب التي تسب الشيعة وتطعن في مذهبهم وعقيدتهم، مثل كتب إحسان إلهي ظهير والجبهان ومحمد الغريب وغيرها. مما تطبعه مطابع السعودية وتوزعه دور النشر المرتبطة بالسلفية.

أخذ صديقي السلفي يتصفح تلك الكتب ويقرأ بعض محتوياتها، وكأنه غير متيقن من وجودها هنا؟! قلت له إنها نفسها الكتب التي قرأت في الجزائر، أن إدارة المكتبة هنا حريصة على اقتناء مثل هذه الكتب، وتطلبها من داخل السعودية، ولا تكاد مكتبة شيعية تخلو من مثل هذه الكتب. وهناك ردود مكتوبة ومطبوعة تجدها بجانب هذه الكتب، ألفها علماء الشيعة وفقهاؤهم.

قلت لصديقي السلفي أنت مستغرب من وجود هذه الكتب هنا وهي تسب الشيعة وتطعن في عقيدتهم؟! وهي في نظرك قد تكون خطرا على الطلبة الشيعة وفيهم شباب صغار السن قليلو الاطلاع على المذهب؟! لكني لن أجيبك على ذلك، وسأترك قيم المكتبة يجيبك لأني سألته نفس السؤال يوما فأجابني!!.

ذهبنا إلى قيم المكتبة وصديقي يحمل الجزء الأول من كتاب الرد على المراجعات وسألناه حول وجود هذه الكتب «الخطيرة» على مذهب التشيع، داخل مكتبة مدرسة دينية شيعية. تبسم قيم المكتبة ورد في هدوء وكأن الأمر لا يستحق السؤال والجواب قائلا: إن أحد أئمتنا عليهم السلام قال «الحمد لله الذي جعل أعداءنا من الحمقى»، وهذه الكتب مصداق لهذا القول. إن هذه الكتب مملوءة بالكذب والافتراءات علينا، ونحن نأتي بها لنعرف مدى قوة أعدائنا المذهبيين

وحجم أدلتهم، وماذا يقولون عنا. وهذه الكتب ألف علماء الشيعة الكثير من الردود عليها. وهي في متناول أي طالب شيعي، يأخذها أو يستعيرها، ونحن كما ترون وضعناها ضمن كتب العقائد ليستفيد منها من أراد، مثلها مثل بقية الكتب. قلت أنا سائلا قيم المكتبة، ألا تخافون من انحراف الطلبة الجدد عن المذهب إذا هم قرؤوها واطلعوا على ما فيها؟! قال لي مبتسما:

يا أستاذ نحن نكتب إعلانا خاصا داخل المكتبة عندما تصلنا مثل هذه الكتب من السعودية. وليس هناك أي قرار لمنع قراءتها، ولو أردنا ذلك لما وضعناها ضمن الكتب كما شاهدتم؟! والطلبة عندما يقرأون مثل هذه الكتب يزدادون يقينا بما عندهم من الحق، وإذا استشكل على أحدهم أمر في هذه الكتب، يسأل أحد المدرسين، فيجيبه أو يوجهه لقراءة كتاب يزيح جميع الغموض لديه. فهذه الكتب تخد منا نحن الشيعة من حيث لا يدري أصحابها. فحبل الكذب قصير كما تعلم. وأصغر الطلبة سنا ومعرفة يرد على هذه الكتب، ويسفه أحلام كتابها فأين الخطر إذن؟!.

صحيح يقول أمين المكتبة: هذه الكتب تضر إخواننا من أبناء السنة لأن غالبيتهم قد لا يعرف عن التشيع شيئا. فتأتي هذه الكتب السلفية لتضللهم وتمنع عنهم الحقيقة، لكننا نعاتب علماءهم ومثقفيهم إذا ما تورطوا في تكرار ما تأتي به هذه الكتب. لأن المطابع اليوم لم تترك لهم أي عذر، فالجهل بعقائد الشيعة ومذهبهم الفقهي شئ لا يمكن السكوت عنه. وقد انتشر الكتاب الشيعي في بقاع العالم كافة. كما يمكن تحصيله بسهولة ويسر؟!.

طلب صديقي السلفي من قيم المكتبة أن يعيره كتاب الرد على المراجعات فوافق لأنني تعهدت له بإرجاعه، ثم غادرنا المكتبة. وقبل أن نغادر المدرسة جلسنا مع جمع من الطلبة ودار بيننا حوار حول الاختلافات المذهبية. وقد أدلى كل الطلبة بدلوهم في النقاش، وشعرت أن صديقي السلفي قد انتابه الخجل وبدأ يتململ من

الضيق والحرج، لأنه لم يستطع أن يجيب عن التساؤلات التاريخية والعقلية التي كان الطلبة يطرحونها، رغم تقدمه في تحصيل العلوم الشرعية، بل إنه من الأوائل المشهود لهم بالتفوق والمعرفة.

ولما غادرنا المدرسة ظل صديقي صامتا، فبادرته بالسؤال، إن شيخك ابن تيمية يكفر الشيعة، فهل الطلبة الذين جلست معهم قبل قليل كفار؟! فلم يرد جوابا!! لكنه علق مستغربا جدا حول تنوع المكتبة الشيعية واحتضانها الكتب السلفية المؤلفة ضد الشيعة، في الوقت الذي يستحيل أن تجد كتابا شيعيا في مكتبة سلفية أو مؤسسة سلفية؟!.

محاربة الكتاب الشيعي:

بل إن السلفية يحاربون الكتاب الشيعي في كل مكان، ويمنعون دخوله إلى بلدهم. ويحرمون قراءته. وفي الجزائر يتعرض أي شاب ملتزم للإهانة بل ربما للضرب والمحاكمة إذا ما وجد بحوزته كتاب أو مجلة شيعية؟. لماذا هذا الخوف من الكتاب الشيعي يا دعاة السلفية؟!.

إذا كان ما معكم وما تدعون له هو الحق؟ فإن الحق أقوى من الباطل والضلال!! والمكتبات في عالمنا الإسلامي مملوءة بكتب الأديان والمذاهب والنحل المناهضة لكل الأديان والإسلام بالخصوص. وقد كان أبناء الصحوة يقرأون الكتب المختلفة في جميع فروع العلوم الإنسانية فلا يزيدهم ذلك إلا تشبثا بقيم الإسلام وعقائده العامة.

إذن لماذا هذه الحرب الضروس على الكتاب الشيعي، ففي معرض الكتاب المصري للسنة الماضية اشترى السلفيون (٢٠٠ نسخة) من كتاب شيعي معروض وأحرقوه خارج المعرض. وقبله هاجم السلفيون دار البداية وحاولوا منع صاحبها من عرض كتبه، وهو مصري متشيع. يقول صالح الورداني:

«كان ظهور دار البداية في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٧ م قد شكل مفاجأة كبيرة للتيار السلفي المتربص بنا.. ولم يستطع التيار السلفي ضبط أعصابه وكظم غيظه لهذا الحدث فأعلن عن غضبه في منشور انطلق يوزعه على رواد المعرض:

وكان هذا المنشور يحوي تحذيرا من دار البداية ومن عدة كتب في مقدمتها كتاب المراجعات وأصل الشيعة وأصولها. وقد أرفق بهذا المنشور صفحة من كتاب الكافي تحوي عدد من الأحاديث الموجهة ضد الصحابة.

ولم يقف رد فعل التيار السلفي والذي كان ممثلا في دور النشر السعودية والمصرية المتحالفة معه عند هذا الحد، بل تعداه في القيام بغارات ما بين الحين والآخر على جناح دار البداية لتهديد القائمين عليها وزجر المتعاملين معها، وقام السلفيون بتمزيق كل الملصقات الخاصة بدار البداية في المعرض[1]».

لماذا هذا العداء؟! هل دفاعا عن الحقيقة والإسلام؟! وإذن كان على السلفيين أن يحاربوا كل الدور العارضة، لأن مما لا شك فيه أن معرض القاهرة يحتوي على آلاف العناوين التي تختلف مع الأديان بشكل عام. بل لا بد من وجود قصص وكتب تدعو للتحلل من القيم الدينية وتهاجمها؟!.

لكننا لم نسمع أن السلفيين قاموا بحرقها أو اعترضوا على توزيعها وبيعها؟! لكن الواقع أصرح وأوضح، فالمقصود هو منع الكتاب الشيعي من الانتشار، ليتسنى لهؤلاء نشر أكاذيبهم وهرطقاتهم، والادعاء بأنها الحق والصواب.

ونحن نقول لدعاة السلفية إذا كان ما تكتبونه عن الشيعة صحيح ويمثل الحقيقة، فلماذا لا تفسحون المجال للكتاب الشيعي أن ينتشر؟! لأن ذلك سيؤكد ما تدعون عليهم من آراء ومعتقدات؟! وسيجعل أبناء الصحوة الإسلامية يتخذون

---

(١) الشيعة في مصر من الإمام علي حتى الإمام الخميني، مكتبة مدبولي الصغير، ط ١. م، ص ١٤٥ – ١٤٨.

الموقف السليم من التشيع، كما اتخذوه مع الكتب والمذاهب المادية المنحرفة التي تملأ رفوف المكتبات في مجمل بلدان العالم الإسلامي؟ لكني على يقين من أنهم لن يفعلوا؟! لأنهم يخافون من التشيع، ومن حقائق التشيع؟! لأن الشمس عندما تطلع وتحتل مكانها في كبد السماء، تنطفئ كل الشموع، وينعدم ضوؤها، وهذا هو حال التشيع مع العقيدة السلفية.

إنهم يتسترون ويختفون وراء جدران صنعوها من الكذب والتلفيق. لذلك ما إن يعرف أحد أبناء الصحوة الإسلامية بعض الحقائق حتى ينقلب عدوا لدودا للسلفية ولدعاة مذهب السلف. لأنه سيكتشف أن غذاءه السلفي كان محشوا بالكذب وتحريف الحقائق. لقد قرأت في كتب الشيعة مرات عدة دعوتهم للمناظرة العلنية مع علماء السلف؟! وأنا أجدد هنا الدعوة لعلماء السلفية لماذا لا تناظروا علماء الشيعة الإمامية مباشرة وعلى الملأ، وتنقل ذلك وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة؟!.

إنهم كفار مرتدون عن الإسلام كما تدعون؟! وتحاربونهم في كل مكان!! وتدعون أنهم ليسوا على شئ وأن لا حظ لهم من العلم بكتاب الله أو سنة رسوله؟! لماذا لا تكشفونهم للناس إذن؟! ليس بكتب تكتبونها من خيالكم عنهم، ولكن بالمناظرة مع علمائهم، الذين ما فتئوا ينادونكم ويطلبون المناظرة؟!.

لكنكم لن تستطيعوا تلبية الدعوة؟! لأن ذلك سيعني النصر الحقيقي أو الافتضاح الحقيقي؟! ولعمري لو أنكم على يقين من انتصاركم للبيتم الدعوة مسرعين، كما يلبيها الشيخ أحمد ديدات الذي يحاور قساوسة النصارى ويهزمهم أمام الملأ وأمام كاميرات الإعلام.

وأرجع لصديقي السلفي الذي اختلطت عليه المعالم، فشيخه ابن تيمية يكفر أناسا، رأى بأم عينه أنهم مسلمون يؤمنون بلا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، ويشتركون مع باقي المسلمين في مجمل العقائد والفروع الفقهية. أما خصوصياتهم المذهبية فلهم أدلتهم النقلية والعقلية عليها.

ولما غادرنا المدرسة سألته ما رأيك هل هؤلاء كفار؟! كما يزعم السلفيون؟! وما قولك في أدلتهم حول الإمامة؟؟ قال صديقي: سأرد عليك عندما أنتهي من قراءة كتاب الرد على المراجعات. ضحكت وافترقنا، وأنا على يقين من أن صديقي قد تعرض اليوم لصدمة عنيفة لم يتعرض لها من قبل في حياته. فهو قد استعار من مكتبة شيعية كتاب سيجد فيه ما سينتصر به على الشيعة؟!.

إنه سيزداد تخبطا وتطوحا، لأن هذا الكتاب لو كان يشكل فعلا خطرا على عقائد التشيع، أو يستطيع هدم عقائده لما كان هناك في المكتبة وبين الكتب العقائدية!! فالتشيع قد يهزمه السيف، وقد يسكته القهر والاضطهاد، لكن الحوار المنطقي المستند لحقائق التنزيل ووقائع التاريخ، يرفع عقائده ويسمو بها في سماء الحقيقة. وينسخ كل ما قيل أو اختلق من أكاذيب وتحريفات وانحرافات.

ونحن عندما نتصفح الكتب السلفية الخاصة بنقض التشيع، نجد إجماعا مكررا لما قيل قبل ذلك، من أن التشيع ليس من الإسلام في شئ، وإنما هو من صنع واختلاق يهودي اسمه عبد الله بن سبأ. كما أن بعض كتاب السلفية اليوم يربطون بين التشيع والفرس، سكان إيران. والذي يدعي دعاة السلفية أنهم اعتنقوا التشيع للكيد للإسلام والعرب، انتقاما لملكهم الضائع. سنقوم بالرد على هذه الأفكار باختصار وإجمال. لكننا لن نستدعي كتب الشيعة الإمامية وأقوال علمائهم الذين فندوا هذه الادعاءات، وإنما سنستقي الرد من كتب مجموعة من علماء أهل السنة وأبناء السلفية. الذين درسوا المذاهب الإسلامية الأصولية والفقهية، وانتهى بهم المطاف إلى اعتناق التشيع عن قناعة وتمحيص، ومن ثم أصدروا كتبا تؤرخ لرحلتهم الفكرية في رحاب المذاهب والاختلاف. كي تكون الحجة أبلغ وأجدى في الحوار مع أبناء الصحوة الإسلامية الذين يضللهم الإعلام السلفي اليوم ويحجب عنهم ضوء الحقائق التاريخية والدينية.

***

المستبصرون يردون على دعاة السلفية

إمامة أهل البيت عليهم السلام:

يقول العلامة الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي: الأسباب التي دعتنا إلى الأخذ بمذهب أهل البيت عليهم السلام، هي أمور كثيرة نذكر منها:

أولا: رأيت أن العمل بمذهب الشيعة مجز وتبرء به الذمة بلا ريب، وقد أفتى به كثير من علماء السنة من السابقين واللاحقين وأخيرا منهم الشيخ الأكبر «زميلنا الشيخ محمود شلتوت رحمه الله شيخ الجامع الأزهر بفتواه الشهيرة المنتشرة في العالم الإسلامي»[1].

---

(١) مكتب شيخ الجامع الأزهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى التي أصدرها السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية:

قيل لفضيلته:

إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية، فهل توافقون، فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مثلا؟.

فأجاب فضيلته:

١ - إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه مذهب معين بل نقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة. ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في شئ من ذلك.

٢ - إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى.

ثانيا: ثبت عندي بالأدلة القوية والبراهين القاطعة والحجج الدامغة الرصينة الواضحة التي هي كالشمس الساطعة في ضاحية النهار ليس دونها سحاب أحقية مذهب أهل البيت عليهم السلام الله. وإنه هو المذهب الحق الذي أخذه الشيعة عن أئمة أهل البيت عن جدهم رسول الله ﷺ عن جبريل عن الرب الجليل. وليس فيه دخيل، ولن يرضون عنه بديلا حتى يلقون الرب الجليل.

وأخذه الثقات عن الثقات عن الثقات من اليوم البعثة إلى يوم البعث لا يختلف آخرهم عن أولهم.

ثالثا: أن الوحي نزل في بيتهم وأهل البيت أدرى وأعرف بما في البيت من غيرهم.

فالجدير بالعاقل المتدبر أن لا يترك ما صح لديه من الأدلة منهم ويأخذ من الأجانب الدخلاء.

رابعا: كثير من الآيات الواردة في الذكر الحكيم والقرآن المجيد الدالة على مدعانا وسنبين جملة منها عن قريب إن شاء الله.

خامسا: كثير من الأحاديث المأثورة والأخبار الواردة عن النبي الأعظم ﷺ

يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات.

التوقيع السيد صاحب السماحة العلامة الجليل الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

سلام الله عليكم ورحمته..

أما بعد.

فيسرني أن أبعث إلى سماحتكم بصورة موقع عليها بإمضائي من الفتوى التي أصدرتها في شأن جواز التعبد بمذهب الشيعة الإمامية راجيا أن تجعلوها في سجلات دار التقريب بين المذاهب الإسلامية التي أسهمنا معكم في تأسيسها ووفقنا الله لتحقيق رسالتها.

والسلام عليكم ورحمة الله..

شيخ الجامع الأزهر التوقيع

الدالة على ذلك وقد ذكرها الفريقان «السنة والشيعة» في كتبهم وسنعرض إلى ذكر جملة منها أيضا قريبا إن شاء الله، إلى غير ذلك مما لا يسعنا في هذا المختصر[١].

وبدأ المؤلف يسرد الأدلة على أحقية مذهب الشيعة الإمامية مستدلا ببعض الآيات الواردة في حق أهل البيت وأفضليتهم. يقول: جاء في القرآن المجيد آيات عديدة تؤيد مدعى الشيعة وقد فسرها علماء الفريقين وفقا لما ذهب إليه الشيعة جمعاء منها:

آية الولاية: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ (المائدة، آية ٥٥). اتفق جميع أهل البيت عليهم السلام وعلماء التفسير والحديث الشيعة بقضها وقضيضها وكثير من مفسري السنة بل جميعهم على أن هذه الآية الكريمة نزلت في علي أمير المؤمنين عليه السلام عندما تصدق بخاتمه على المسكين وهو يصلي في مسجد رسول الله ﷺ. قال السيوطي في الدر المنثور (م٢ ص ٢٢٣) أخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع فقال النبي ﷺ من أعطاك هذا الخاتم قال ذلك الراكع فأنزل الله ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾... الخ.

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله فأعلمه بذلك فنزلت على النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه ثم قال من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٢].

---

(١) لماذا اخترت الشيعة مذهب أهل البيت عليهم السلام، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٤. أنظر الآية ونزولها في الإمام علي عليه السلام. شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ح ١ ص ١٦١). وترجمة الإمام علي في تاريخ دمشق لابن عساكر الشافعي (ج ٢

وممن نص على ذلك فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب. قال نقلا عن جماعة أن هذه الآية دالة على أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب عليه السلام وتقريره أن نقول إن هذه الآية دالة على أن المراد بهذه الآية الإمام، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يكون ذلك الإمام هو علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد تعرض صاحب غاية المرام للأحاديث الواردة في نزول هذه الآية في أمير المؤمنين علي عليه السلام فأورد في (ص ١٠٣) أربعة وعشرين حديثا من طرق أهل السنة. كما وقد أورد في (ص ١٠٧) تسعة عشر حديثا من طرق الشيعة[1].

ثم يستطرد المؤلف في إيراد الآيات والأحاديث الدالة على كون أهل البيت أحق بالخلافة والإمامة من غيرهم ويأتي بأقوال العلماء والمحدثين، التي تصب كلها في نصرة مذهب الإمامية وأحقيته.

يقول الشيخ الأنطاكي: ومنها آية التطهير: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب، الآية ٣٣)...

وقد روى السيوطي في تفسير الدر المنثور (ج ٥ ص ١٩٨) إن نزول الآية في الخمسة أهل الكساء وذلك بعشرين طريقا كما رواها ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (ج ٢٢ ص ٥) بستة عشر طريقا. ورواها جل المفسرين والمؤرخين وأهل السير وعولوا عليها في تصريحاتهم باختصاص الآية الشريفة بالخمسة أهل الكساء.. وأخرج مسلم في باب فضائل أهل البيت عليهم السلام من صحيحه (ج ٢ ص ٣٣١) عن عائشة قالت خرج رسول الله غداة وعليه مرط من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء في فأدخله ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ص ٤٠٩). وأسباب النزول للواحدي (ص ١١٣)، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي (ص ٢٢٨)، والكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٦٤٩)، وغير ذلك من المصادر.

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.

ويطهركم تطهيرا[١]. وكذا آية المباهلة[٢]، وآية المودة[٣] وآية الصلوات[٤]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على أهل البيت وأفضليتهم وأحقيتهم.

وأخيرا يقول الشيخ الأنطاكي: إن ما قدمناه لقراء كتابنا من الآيات القرآنية والأحاديث الثابتة النبوية في كتب القوم (السنة) وعنهم، فيها إثبات أحقية علي أمير المؤمنين عليه السلام بالخلافة الفورية بلا فصل لو أنصف المخالف. أنظر بدقة وإمعان، إلى ما أوردناه لك من الحجج والبراهين في هذا الكتاب كيف تجلى الحق واتضح السبيل لسالكيه الذين أخلصوا النية وتجردوا عن العصبية المذهبية والنعرات الطائفية العمياء المهلكة. أما من بقي مصرا على عناده فلا تفيده الروايات وإن

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٠ - ٦١، وأنظر صحيح مسلم، ج ٢ ص ٣٦٨، ط عيسى الحلبي، وج ١٥، ص ١٩٤، مصر، بشرح النووي. وصحيح الترمذي، ج ٥، ص ٣٠، ح ٣٢٥٨. وج ٥، ص ٣٢٨، ح ٣٨٧٥، طبع دار الفكر. ومسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٣٠، طبع الميمنية بمصر. والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ج ٣، ص ١٣٣. والمعجم الصغير للطبراني، ج ١، ص ٦٥ و١٣٥. وغيرهم من المصادر الكثيرة والمتعددة.

(٢) وهي قوله تعالى ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (آل عمران: الآية ٦١). أجمعت الأمة الإسلامية على أن الآية نزلت في النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. راجع صحيح مسلم. كتاب الفضائل، فضائل علي بن أبي طالب (ج ٢ ص ٣٦٠) ط عيسى الحلبي، و(ج ١٥ ص ١٧٦) مصر بشرح النووي. وصحيح الترمذي (ج ٤ ص ٢٩٣ ح ٣٠٨٥ وج ٥ ص ٣٠١ ح ٣٨٠٨). وشواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ج ١ ص ١٢٠ - ١٢٩). والمستدرك على الصحيحين للحاكم (ج ٣ ص ١٥٠) وصححه. أنظر لمزيد من المصادر الراوية للحديث المراجعات للإمام عبد الحسين شرف الدين، تحقيق الشيخ حسين الراضي. المجمع العالمي لأهل البيت.

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ (الشورى الآية: ٢٣) هذه الآية نزلت في قربى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. راجع شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني الحنفي (ح ٢ ص ١٣٠) وذخائر العقبى للطبري الشافعي (ص ٢٥ - ١٣٨) والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ١١ ومستدرك الحاكم (ح ٣ ص ١٧٢) وغيرهم انظر المراجعات.

(٤) راجع صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على لنبي﴾ (ج ٦ ص ٢٧) ط دار الفكر و(ج٦ ص ١٥١)، مطابع الشعب. وصحيح. مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ج ٢ ص ١٦) ط. شركة الإعلانات وج١ ص ١٧٣، ط عيسى الحلبي مصر.

كثرت وكثرت ولو قدمنا له ألف دليل ودليل[١].

وبعد لم يكن باستطاعتنا تلخيص تجربة هذا الشيخ الأزهري الذي وصل يوما من الأيام أن يكون قاضيا، في المذهب الشافعي، لكن البحث أوصله أخيرا إلى اعتناق مذهب أهل البيت. وقد أورد المئات من الأحاديث والشروح والأقوال، كلها مستقاة من تراث أهل السنة والسلفية. فهل بعد ذلك يمكن أن نقول بأن عقيدة التشيع باطنية ومن صنع يهودي يمني للكيد للإسلام والعرب؟؟.

ننتقل إلى متشيع آخر وهو الدكتور محمد التيجاني السماوي الذي كتب قصة تشيعه وقدم الأدلة الدامغة التي جعلته يختار مذهب أهل البيت دون غيره من المذاهب الإسلامية.

يقول: أما الأسباب التي دعتني للاستبصار فكثيرة جدا... منها النص على الخلافة: والباحث في هذا الموضوع إذا تجرد للحقيقة فإنه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضحاً جلياً كقوله ﷺ «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»قال ذلك بعدما انصرف من حجة الوداع، فعقد لعلي موكب التهنئة حتى أن أبا بكر نفسه وعمر كانا من جماعة المهنئين للإمام يقولان: «بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[٢].

ومن الأحاديث التي أخذت بعنقي ودفعتني للاقتداء بالإمام علي هي تلك التي أخرجتها صحاح أهل السنة والجماعة وأكدت صحتها. والشيعة عندهم أضعافها ولكن - وكالعادة - سوف لا أستدل ولا أعتمد إلا الأحاديث المتفق عليها من الفريقين. ومن هذه الأحاديث:

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١٦.

(٢) ثم اهتديت، مؤسسة الفجر لندن، ص ١٣٥. أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ٤، ص ٢٨١. تذكرة الخواص لابن الجوزي، ص ٢٩، الرياض النضرة للطبري، ج ٢، ص ١٦٩، كنز العمال، ج ٦، ص ٣٩٧، البداية والنهاية لابن كثير، ج ٥، ص ٢١٢، تاريخ ابن عساكر، ج ٢، ص ٥٠، تفسير الرازي، ج ٣، ص ٦٣. الحاوي للفتاوي للسيوطي، ج ١ ص ١١٢.

أ – حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» رواه الحاكم في مستدركه (ج ٣ ص ١٢٧) وابن كثير في تاريخه (ح ٧ ص ٣٥٨). ورواه أحمد بن حنبل في المناقب.

ب – حديث: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

ج – حديث: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار».

د – حديث: «علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي» سنن ابن ماجة (ج ١، ص ٤٤) خصائص النسائي (ص ٢٠) صحيح الترمذي (ج ٥ ص ٣٠٠).

هـ – حديث الدار يوم الإنذار: قال رسول الله ﷺ مشيرا إلى علي: «إن هذا أخي، ووصي، وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا»[1].

وهذا الحديث هو أيضا من الأحاديث الصحيحة التي نقلها المؤرخون لبداية البعثة النبوية وعدوها من معجزات النبي، ولكن السياسة هي التي أبدلت وزيفت الحقائق والوقائع، ولا عجب من ذلك لأن ما وقع في ذلك الزمان المظلم يتكرر اليوم في عصر النور فهذا محمد حسين هيكل أخرج الحديث بكامله في كتابه «حياة محمد» في صفحة (١٠٤) من الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هجرية. وفي الطبعة الثانية وما بعدها حذف من الحديث قوله ﷺ: «وصيي وخليفتي من بعدي»، كذلك حذفوا من تفسير الطبري (الجزء ١٩، صفحة ١٢١) قوله: (ووصيي وخليفتي) وأبدلوها بقوله إن هذا أخي وكذا وكذا..!! وغفلوا عن أن الطبري ذكر الحديث بكامله في

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٩، تاريخ ابن الأثير، ج ٢، ص ٦٢. السيرة الحلبية، ج ١، ص ٣١١. شواهد التنزيل للحسكاني، ج ١، ص ٣٧١. كنز العمال، ج ١٥، ص ١٥. تاريخ ابن عساكر، ج ١، ص ٨٥. تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي، ج ٣، ص ٣٧١. حياة محمد لحسين هيكل الطبعة الأولى، باب وأنذر عشيرتك الأقربين.

تاريخه (الجزء ٢ صفحة ٣١٩). أنظر كيف يحرفون الكلم عن مواضعه ويقلبون الأمور، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره...

ولكن الباحث المنصف عندما يقف على شئ من هذا التحريف والتزييف يزداد عنهم بعدا ويعرف بلا شك أنهم لا حجة لديهم غير التضليل والدس وتقليب الحقائق بأي ثمن، ولقد استأجروا كتابا كثيرين وأغدقوا عليهم الأموال كما أغدقوا عليهم الألقاب والشهادات الجامعية المزيفة ليكتبوا لهم ما يريدون من الكتب والمقالات التي تشتم الشيعة وتكفرهم[1].

أما الباحث صائب عبد الحميد فيقدم أدلة إضافية ويزيد على ما ذكراه، يقول: لقد تناول النبي ﷺ أمر الإمامة في العديد من الأحاديث الشريفة المقطوع بصحة إسنادها.. من تلك النصوص حديث الثقلين، وهو من أشهر الأحاديث الشريفة، ذلك الحديث الذي يلخص الأمانة الكبرى التي تركها رسولنا الأكرم ﷺ في أعناقنا. من أجل حفظ هذا الدين، وحفظ هذه الأمة بحفظ دينها.

وهو كما في صحيح مسلم: عن زيد بن أرقم، قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبا بماء يدعى (خما) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به - فحث على كتاب الله ورغب فيه - وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

وفي سنن الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وهذا النص

---

(١) ثم اهتديت، ص ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩، بتصرف.

أخرجه الحاكم في المستدرك ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وفي مسند أحمد: «إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض جميعا». وقد ورد هذا الحديث في أغلب السنن وبطرق عديدة، يمتنع معها تسرب الشك إليه بأي شكل من الأشكال. وقد يكون هذا النص النبوي الشريف لوحده كافيا في تعيين خلفاء الرسول، وأئمة المسلمين[١]. ويستدل الباحث المتشيع على أحقية الإمام علي في الإمامة والخلافة بأحاديث عديدة نقلها من المصادر الموثوقة لدى أهل السنة والسلفية مثل: قولهﷺ: يا علي أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي» رواه الحاكم في المستدرك (ج ٣، ص ١٢٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وذكره صاحب حلية الأولياء (ج ١، ص ٦٤) وكنز العمال (ج ٣٢٩٨٣/١١).

وعن عمار بن ياسر، قال: قال رسول اللهﷺ:

أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل «تاريخ ابن عساكر ترجمة الإمام علي (ج ٢، ص ٥٩٧ - ٥٩٨) بهذا النص. وكذا مجمع الزوائد (ج ٩، ص ١٠٩) والمنتخب من كنز العمال بهامش مسند أحمد (ج ٥، ص ٣٢) وقولهﷺ: «من أحب أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي فليتول علي بن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى، ولن يدخلكم في ضلالة»[٢].

أما الباحث والصحفي إدريس الحسيني صاحب كتاب «لقد شيعني الحسين»

---

(١) منهج في الانتماء المذهبي، دار المودة، بيروت، ط ١ - ١٩٩٣ م، ص ٦٧ - ٦٨ - ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧. الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٣، ص ١٢٨، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ولسان الميزان، ج ٢، ص ١٤، ومجمع الزوائد، ج ٩، ص ١٠٨.

فيتكلم عن التدابير النبوية في تركيز الإمامة فيقول: كانت هناك طرق كثيرة ومختلفة اعتمدها الرسولﷺ في تركيز الإمـامة وترسيخها في وجدان المسلمين وهي كالتالي:

١ - العمل على إشاعة الإمامة لعلي بن أبي طالبعليه السلام.. وأهم تلك المواقف التي كان يرمي من خـلالها الرسولﷺ إلى إظهـار إمامـة عليعليه السلام في المستقبل ما يلي:

أ - يوم الدار.

ب - أحاديث الوصية.

ج - يوم الغدير.

وبخصوص يوم الدار يقول الحسيني: وهو موقف جرى تحت سمع وبصر صناديد قريش وكبرائها، وعليعليه السلام يومها لا يزال في طور الغرارة والصبا. إذ قرع الرسولﷺ مسامعهم، معلنا اختيار عليعليه السلام وزيرا له وخليفة من بعده.

وملخص الحادثة كالتالي:

إنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء، آية ٢١٤). قام الرسولﷺ يدعو أقرباءه، وفيهم أبو لهب فقالﷺ: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه.

فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم»؟. فسكت القوم ولم يجيبوا إلا عليعليه السلام قال: «أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله. وبعد أن كررها ثلاثا، التفت إليهم وقال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم (أو عليكم)، فاسمعوا له، وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع وجعله عليك

أميرا». أنظر تاريخ الطبري (ج ٢، ص ٣١٩ - ٣٢١) وفرائد السبطين (ج ١ ص ٨٥) وشواهد التنزيل (ج ١ ص ٤٢٠) وكفاية الطالب (ص ٢٠٤)، وينابيع المودة (ج ١ ص ١٢٢).

كان هذا هو أول موقف رسالي في الدعوة إلى الإسلام، قدم فيه علي عليه السلام بقوة. وكان الأمر بإنذار العشيرة، وهي أول خطوة للدعوة تزامنت مع عرض إمامة علي عليه السلام، لما في ذلك من تلازم وتكامل بين الدعوة والإمامة[1].

أسطورة عبد الله بن سبأ:

أما فيما يتعلق بموضوع ابن سبأ والسبئية الذي تلوكه السنة السلفيين فيقول الباحث الحسيني: «يحاول الكثير من المؤرخين إبراز السبئية» كمفتاح لفهم الظاهرة «الشيعية» وذلك لأنها أقرب إلى المؤرخ «البهلواني» حيث لا تكلفه عناء البحث فيكتفي بالقشور، ويستنكف عن الغوص في الأعماق.

إنني لا أزال أتتبع حقيقة السبئية، حتى وجدتها أبأس «تلفيقة» في تاريخ الإسلام. بحيث سرعان ما تلاشى تماسكها، وتداعى صرحها التلفيقي. لينتهي إلى مصدر مجهول، كمجهولية «ابن سبأ» نفسه. والذين ربطوا بين التشيع والسبئية، ليسوا إلا مستهلكين لبضاعة أموية عتيقة. يقول د. إبراهيم بيضون:

«والسبئية، أسطورة كانت أم حقيقة، فهي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي، بخلفيته السياسية البحتة». ويضيف الباحث: «إني ما زلت أبحث عن هذا الشخص الأسطوري الهارب بين فجاج التاريخ «المفبرك» وأضرب الرأي هنا بالرأي هناك، عسى أن أحصل على جواب يشفي غليلي من الجهل ونهمي إلى اليقين، من هذه الأمية التاريخية. ويجعلني أعبد الله على يقين من أمري.

---

(١) الخلافة المغتصبة أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ. إدريس الحسيني دار النخيل بيروت، ط ٢، ١٩٩٥ م ص ٢٦ - ٢٧.

وبعد بحث تاريخي طويل وعميق، تتبع فيه الباحث شخصية هذا الرجل الأسطورية واكتشف خلفيات ظهورها وانتشارها. يقول: «وعلى هذا الأساس تنقشع غيوم «البؤس» التاريخي المتلبس بأيديولوجيا البلاط الأموي. وهكذا تنكمش «تلفيقة» السبئية، لتلقى على كاهل محرف وضاع، مرفوض الرواية، وهو سيف بن عمر، وتتوضح بعدها الأسباب التاريخية لنشوء «فكرة السبئية» وتنقشع الغيوم، ولا تنقشع على الذين ما زالوا ممسكين بالعظام التاريخية. لقد تبين لي أن في تاريخنا مبدعين، لا يعجزون عن حبك الأساطير في أرقى خيالاتها. لقد كان للسياسة في تاريخنا خيال، يظللها من الشموس الكاشفة.

وليست هذه أول خرافة، تلقى بهذا الشكل «التهريجي» على التشيع. بل هناك أخريات من تلكم الشبهات المحبوكة بالأصابع المأجورة والمسيئة، بالترغيب والترهيب الأموي، لا بد من الوقوف على هزالها»[(١)].

ويقول الباحث الحسيني ناقضا فكرة ارتباط التشيع بالقومية الفارسية: «ولم يكتف خصوم الشيعة بشبهة – السبئية – فحسب بل أوردوا شبهات أخرى دعموا بها مسلمتهم الأيديولوجية. ومن تلك الشبهات الكثيرة والمتناقضة تهمة «التأثير الفارسي في التشيع»[(٢)]. وفي دحض فكرة «فارسية» التشيع، قال – أي المؤرخ أحمد أمين –: «والذي أرى – كما يدلنا التاريخ – أن التشيع لعلي بدأ قبل دخول الفرس في الإسلام. ولكن بمعنى ساذج، وهو أن عليا أولى من غيره من وجهتين، كفايته الشخصية وقرابته للنبي».

فالذين لا يعلمون – من إخواننا السنة – يجيب أن يدركوا، كما أدركت – منذ فتحت قلبي للحقيقة – إن أغلب علمائهم من «فارس». إنني ما زلت أقتفي

---

(١) لقد شيعني الحسين، دار النخيل العربي، بيروت، ط ٤ – ١٩٩٦ م ص ٧٨ – ٨٣ و ٨٨ – ٨٩ بتصرف. وأنظر لمزيد التفصيل في قصة ابن سبأ الأسطورة. عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى. لمرتضى العسكري العميد السابق لكلية أصول الدين في بغداد.

(٢) المرجع السابق، ص ٩١.

آثار علماء السنة الكبار، في البلاغة والنحو والفقه والحديث والتصوف..

فأجد الأغلبية الغالبة منهم فرسا ومنهم: «الترمذي والنسائي وابن ماجة والقزويني والقاضي البيضاوي وأبو زرعة الرازي، والفيروزآبادي (صاحب القاموس المحيط) والزمخشري والإمام فخر الدين الرازي، والكازروني وأبو القاسم البلخي والقفال المروزي والتفتازاني والراغب الأصفهاني والبيهقي والتبريزي الخطيب، والجرجاني وأبو حامد الغزالي.. وغيرهم مما يعجز عن عدهم اللسان ويضيق عنهم المقام. فأعلام «السنة والجماعة» الفطاحل، وعلماؤهم النحارير ومحدثوهم النقاريس، كانوا من بلاد «فارس».

والتشيع أدخل إلى فارس، من بلاد العرب، وساهم في نشر التشيع في بلاد فارس علماء من العراق، وجبل عامل، والأحساء، والمدينة المنورة[١].

الشيعة والصحابة:

أما ما يردده السلفية من أن الشيعة يسبون الصحابة ويتبرأون منهم. فإن في القضية ملابسات شائكة جدا. وتتجاوز فكرة السب والشتم، فليس للشيعة عداء شخصي مع الصحابة!! وإن كان لهم بعض الاعتراض على مجموعة ممن أطلق عليهم المؤرخون اسم صحابة. فالخلاف ينطلق من تعريف الصحابي. فابن حجر العسقلاني في إصابته يعرف الصحابي: «من لقي النبيﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام، طالت مجالسته معه أو قصرت روى عنه أم لم يرو، غزا أو لم يغز، من رآه ولم يجالسه، ومن لم يراه لعارض»[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٨، والذي يراجع تراجم كبار رجال الحديث والتفسير واللغة يجدهم من الفرس. ومنهم كبار رجال المذهب الحنبلي. والفرس اعتنقوا التشيع مؤخرا خلال القرن السابع الهجري لما سيطر الصفويون الشيعة على الحكم في إيران؟!.

(٢) نقلا عن النظام السياسي في الإسلام رأي السنة رأي الشيعة حكم الشرع، المحامي أحمد حسين يعقوب، ط ١ - ١٩٩٠م، ص ١١٢.

وإذا كان كل هؤلاء يعتبرون صحابة فإن المشكل هو في اعتبارهم كلهم عدولا، لا يتطرق إليهم الجرح والتعديل كما يدعي ابن عبد البر. وهذا بخلاف الواقع والعقل. فأهل السنة والسلفية مجمعون على أن الصحابة ليسوا معصومين.

وعليه فوقوعهم في الخطأ والزلل أمر ممكن. بل حدث فعلا. وهو مستمسك الشيعة. ومن يراجع كتب التاريخ والسير سيجدها تتحدث عن أخطاء مجموعة من الصحابة. فخالد بن الوليد الصحابي، قتل مالك ابن النويرة الصحابي ظلما وعدوانا وزنا بزوجته، وأراد عمر بن الخطاب أن يقيم عليه الحد لكن أبا بكر رفض.

ولعمر بن الخطاب اجتهادات خاطئة خالف فيها النصوص القرآنية والنبوية، كإلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، وإجازته الطلاق الثلاث بلفظ واحد مما دفع بابن تيمية زعيم السلفية إلى رفض هذه الفتوى واعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع إلا طلقة واحدة، وهو مذهب الشيعة الإمامية. وحرم عمر متعتي الحج والنساء، وقد عمل بهما الصحابة على عهد الرسول وخلافة أبي بكر وشطرا من خلافة عمر إلى أن قام قائلا: إنهما متعتان على عهد رسول الله وأنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما، إحداهما متعة النساء، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته بالحجارة، والأخرى متعة الحج[(١)]. مع أن القرآن صريح في حليتها. فإذا رفض الشيعة اجتهاد عمر بن الخطاب وتمسكوا بالنصوص، قيل لهم أنتم تسبون الصحابة. وقد خالف الخليفة الثالث عثمان بن عفان الكثير من أحكام الإسلام مما أدى إلى مقتله، وقد كانت أم المؤمنين عائشة تنادي وتقول «اقتلوا نعثلا فقد كفر».

يقول الدكتور إمام عبد الفتاح: «كان عثمان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة يطمئن إليها المسلمون، وغيرهم من أهالي الدول الإسلامية في عهده.

(١) سنن البيهقي، ج ٧، ص ٢٠٦، نقلا عن الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني. الدار الإسلامية، ط ١، ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٩٥٩.

وكان هذا أول خروج عن المثال! وفي خلافته عين عثمان أقرباءه منهم عمه الحكم بن العاص - وهو الذي طرده الرسول من المدينة - ومنهم الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه الذي عينه واليا على الكوفة، وكان يشرب حتى الفجر، فيصلي بالناس أربعا! وقد روينا قصته من قبل، وهو ممن أخبر النبيﷺ أنه من أهل النار! وعبد الله بن أبي سرح على مصر، ومعاوية على الشام، وعبد الله بن عامر على البصرة.. الخ، فكان هو الخروج الثاني عن المثال[1].

ويتكلم الدكتور عن أخطاء كثيرة ارتكبها عثمان وأضرت بالإسلام والمسلمين، والدكتور ليس شيعيا، لكنه استقى ذلك من مصادر التاريخ المعتمدة. وكذا محققي الشيعة اليوم وعلمائهم، يأخذون من تاريخ كتبه رجالات أهل السنة والسلفية، فليس للشيعة تاريخ عام يخصهم، وإنما هو تاريخ مشترك بالإضافة إلى خصوصيات مروية عن أئمة أهل البيت.

وهؤلاء الصحابة الذي يتهم الشيعة بسبهم أو الطعن فيهم، إنما سبهم التاريخ وطعن فيهم، وكشف أخطاءهم الفظيعة. فهذا المغيرة بن شعبة صحابي، لكنه ودفاعا عن مصالحه الخاصة فتح على أمة الإسلام باب من الشر لم يغلق بعد. فهو الذي شجع معاوية بن أبي سفيان على أخذ البيعة لابنه يزيد الفاسق، أنظر ماذا قال بعد ما خرج من عند معاوية وقد أوحى له ببيعة يزيد: فخرج من عنده، فلقي كاتبه، فقال: إرجع بنا إلى الكوفة. والله لقد وضعت رجل معاوية في غرز لا يخرجها منه إلا سفك الدماء[2].

وعمر بن العاص صحابي جليل لكنه باع دينه لمعاوية بن أبي سفيان وأخذ الثمن ولاية مصر، وفعلا حاربا الإمام الشرعي وانتهى بهما المطاف إلى تحقيق أهدافهما.

---

(١) الطاغية، د. إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، عدد رقم ١٨٣، مارس/ أذار ١٩٩٤م، ص ١٩٥.

(٢) منهج في الانتماء المذهبي، م. س ص ٢٤٢، نقلا عن تاريخ ابن خلدون، ج ٣ ص ١٣.

ومعاوية بن أبي سفيان أليس صحابيا؟! لكنه قتل عمار بن ياسر وحجر بن عدي والحسن بن علي وهؤلاء صحابة، وأزهق المئات من أرواح المسلمين ظلما وعدوانا. ماذا يقول فيها دعاة السلف؟! سيقولون لم يقتل أحدا!! وإذن تكذبهم جميع التواريخ ومصادر الحديث السنية والسلفية.

لكنهم دربوا على الدفاع عن الظلم وتصويغه، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه وهو جبار السماوات والأرض، ولا يسأل عما يفعل؟.

سيقولون إنه قتل الصحابة والمسلمين متأولا مجتهدا، فله أجر على ذلك فوق كل هذا القتل والظلم؟!.

وأمر بلعن الإمام علي على المنابر طيلة ملكه، لكن السلفية لا يبيحون دمه ولا يكفرونه مع أن الإمام علي صحابي جليل عندهم وخليفة شرعي رابع.

لكنهم يكفرون الشيعة لأنهم ينتقدون بعض الصحابة!! هل يحق لمعاوية أن يلعن الإمام علي ويقتل الصحابة، ومع ذلك يبقى أميرا للمؤمنين وعندما يذكر اسمه يقال «رضي الله عنه» ولا يحق لأحد من الناس أن يقول إن معاوية فعل كذا وكذا. إن من سن لعن الصحابة هم بنو أمية فقد لعنوا الإمام علي عليه السلام ثمانين سنة على منابرهم لكن أحداً لا يعترض عليهم، وخصوصاً السلفية؟!

وكم انتابتني الدهشة والاستغراب وأنا أقرأ سيرة معاوية في مصادر التاريخ الإسلامية. كنت أجد بعض القضايا والقصص التي لا تفسير لها لكن القوم أثبتوها في كتبهم وآمنوا بها. أنظر مثلا ما يقوله صاحب الفكر السامي: «قال ابن عباس: ما رأيت أحدا أحلى للملك من معاوية. وكان رزقه أيام عمر ألف دينار في كل سنة، فكان رزقه أعظم من رزق الخليفة وغيره بكثير»..[1].

ماذا يعني هذا الكلام؟! عطاؤه السنوي أكثر من الخليفة ومن غيره، فأين

---

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي، ج ١، ص ٢٧٦.

العدل العمري إذن؟!. لكن دعاة السلف سيردون علينا بالإرهاب والتكفير إذا ما تساءلنا حول ذلك وأوردنا أن نعرف الحق من الباطل.

وهل كان سيد قطب شيعيا أو رافضيا عندما تكلم عن معاوية وبني أمية، يقول يحيي أبو هموس إنه «يرمي معاوية خصوصا وبني أمية عموما بالكفر، ففي الصحيفة (١٧٢) من كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام (مطابع دار الكتاب العربي شارع فاروق بمصر) يقول: «فلما أن جاء معاوية وصير الخلافة الإسلامية ملكا عضوضا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات. وفي الصحيفة (١٧٤) يقول السيد قطب مصرحا بكفر معاوية وبني أمية: «فمعاوية هو ابن أبي سفيان وابن هند بنت عتبة. وهو وريث قومه جميعا وأشبه شئ بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية، فهو منه ومنهم برئ»[1].

إن الذي يقرأ سيرة الصحابة في مصادرها المعتمدة، لا يستطيع إلا أن يطرح ألف سؤال وسؤال؟! ومن حق أي باحث أن يسأل ويبحث؟! وأن يستخلص النتائج فهذا حق شرعي وعقلي. ولا يمكن لدعاة السلفية أن يرهبوا الناس والباحثين ويرمونهم بالكفر والانحراف؟! لمنعهم من البحث والتحقيق.

وقد صدرت عدة كتب تتناول حياة الصحابة وتاريخهم، ووصل أصحابها إلى نفس النتائج التي توصل إليها الشيعة من قبل. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن الشيعة يأخذون جل اعتراضاتهم على الصحابة من كتب ومصادر التاريخ الإسلامي العامة.

فإذا ما قرأت في أسد الغابة عن صحابي أنه أخطأ أو اقترف ذنبا، وتحدثت بذلك، فإن دعاة السلفية سيهبون لمطاردتك وسبك وإباحة دمك؟! ولا ندري لماذا

(١) مجلة منار الهدى البيروتية، عدد ٣٥ أيلول ١٩٩٥ م ص ٤٩.

هذا الدفاع والاندفاع، فمعاوية يحق له أن يلعن ويقتل الصحابة!! أما نحن اليوم فلا نستطيع أن نقول لقد أخطأ الصحابي فلان في هذه المسألة!!؟.

إن التعرض لحياة الصحابة بالنقد والتحليل لا يضر الإسلام أبدا بل يقويه ويزيح عنه الشوائب الرديئة التي التصقت به. إن الإسلام يحارب الظلم وينهى عنه، وكل إنسان ظالم أو مقترف لظلم هو مذموم في الإسلام سواء أكان صحابيا أو إنسانا يعيش في أدغال إفريقيا.

وبعد نحن نعرف لماذا يخاف دعاة السلفية من دراسة حياة الصحابة؟!

لأن ذلك سيزيح الستار عن بني أمية وإجرامهم وانحرافهم، وبالتالي سيفتضحون. وفي انفضاحهم، انفضاح كثير من المذاهب الفقهية والأصولية التي أسسها بنو أمية وشادوا بنيانها. ونحن هنا لم يتسن لنا أن نناقش نظرية الصحابة وعدالتهم وموقف الشيعة منهم بشئ من التفصيل. وما ذكرناه لم يكن سوى أمثلة لواقع هذا السجال الذي يؤخذ اليوم كذريعة لتكفير ملايين من المسلمين. فالشيعة لا يسبون الصحابة، مطلق الصحابة.

أولا ليس هناك سب وإنما دراسة وتحليل لتاريخ بعض الصحابة ومواقفهم المخالفة للإسلام وللعدالة والحق. ومصادر الشيعة في ذلك كما قلنا هي كتب أهل السنة والسلفية على حد سواء. والشيعة يلتقون مع كل عقلاء الإسلام ومفكريه وباحثيه، بخصوص الكثير من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب.

لينظروا إلى رجالات المعتزلة وموقفهم من عدد كبير من الصحابة. وقبل ذلك ليقفوا أمام تقييم إمامهم ابن تيمية، لقد طعن في الإمام علي واستهان به وعرض به لدرجة إن علماء السنة اتهموه بالنفاق، لأن الحديث صريح في ذلك، فلا يبغض الإمام علي إلا منافق كذاب. ورد اجتهاد عمر بن الخطاب وهذا عين ما يقوله الشيعة، واتهم عثمان بن عفان بحبه للمال.

وبعد نعود لنكرر، إن نقد أفعال الصحابة المخالفة للإسلام هو انتصار للحق

وللرسالة التي عانى محمد بن عبد الله ﷺ سنين طويلة من أجل إبلاغها، ليس للعرب فقط وإنما للإنسانية جمعاء.

يقول المحقق السبحاني: إن الشيعة تبعا للدلائل المتقدمة، واقتداء بأئمتهم، يقدسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه، ولم يتجاوزوهما، كما أنهم يتبرؤون ممن خالف كتاب الله وسنة رسوله، وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له: «اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته. وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور، والذين هجرتهم العشائر، إذا تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربات، إذا سكنوا في ظل قرابته. فلا تنس اللهم ما تركوا لكل وفيك، وارضهم من رضوانك... إلى أن يقول عليه السلام: اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا إغفر لنا ولإخواننا...»[(١)].

وأخيرا ندعو أبناء الصحوة الإسلامية للتأمل في هذه الأحاديث النبوية التي احتضنتها الصحاح السنية. فقد أخرج البخاري عن موسى بن إسماعيل، قال:

حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن أبي وائل، قال: قال النبي ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٢)].

وأخرج أيضا عن يحيى بن كثير، عن يعقوب بن عبد الرحمان، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض،

(١) الإلهيات، ج ٢، ص ٩٤٠، نقلا عن الصحيفة السجادية. وانظر لمزيد من التفصيل نظرية عدالة الصحابة للمحامي الأردني أحمد حسين يعقوب.
(٢) صحيح البخاري، ج ٩، ص ٨٣، كتاب الفتن.

من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا. ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني. ثم يحال بيني وبينهم».

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلا؟ فقلت: نعم. قال وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه، قال: «إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك»[(١)].

وأما مسلم فأخرج هذا الحديث من طرق عديدة، منها: عن أبي بكر ابن شيبة وأبي كريب، وابن نمير، قالوا: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم، فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[(٢)].

وقول الرسول ﷺ في حجة الوداع: «فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[(٣)]؟!.

***

(١) صحيح البخاري، ج ٩، ص ٨٣ / ٣، وأخرجه بنصه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٣٣٣.

(٢) صحيح مسلم، ج ٤: ١٧٩٦ / ٣٢ / ٢٢٩٧، حديث الحوض.

(٣) صحيح البخاري كتاب الفتن، ج ٩، ٩٠/ ٢٦٢٩، مسلم كتاب الإيمان باب معنى قول النبي: «لا ترجعوا بعدي كفارا» (ج ١ ص ٨١ / ١١٨)، ومسند أحمد أيضا من أربعة عشر طريقا منها في الجزء الخامس ٣٧ - ٤٤ - ٧٣. أنظر منهج في الانتماء المذهبي، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

أهل السنة والإمامية في مواجهة السلفية

مواجهة التحريف والتلاعب بعقائد الإسلام:

إن وقوف أهل السنة والشيعة الإمامية اليوم في صف واحد أصبح ضرورة لا بد منها لمواجهة الدعوة السلفية، أولا: لأن دعاة السلفية يكفرون الفريقين ويستحلون دماءهم وأموالهم وأعراضهم. والنصوص التي أوردناها من قبل دليل على ما نقول والواقع الحالي يؤكد ذلك.

ثانيا: هذا الوقوف هو دفاع عن الإسلام والمسلمين في نفس الوقت، فالإسلام يشهد موجة من التحريف والتلاعب بعقائده لم يشهد لها مثيلا من قبل، أطفال ومراهقون وعوام الناس أصبحوا بفضل المنهج السلفي يمارسون الاجتهاد والاستنباط للأحكام، ويفتون في الدماء والأعراض.

ومن يريد أن يرى ويسمع الأمثلة الواقعية على ذلك، فليزر الجزائر وليلتقي بدعاة السلفية هناك، ليرى كيف يعقد أتباع ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب عقود الزواج بالإكراه وتحت ضغط الإرهاب، وكيف يفسرون الكثير من تعاليم الإسلام، وكيف يمارسونها، وكيف يتصرفون مع من يخالفهم، في هذا التفسير والشرح والممارسة؟. كيف يهجم المراهقون المتمسلفة على بعض الشبان الملتزمين ويأخذونهم للمحاكمة. فإذا نجا البعض منهم بالكذب ونفعه ذكاؤه، فإن البعض الآخر ينفذ فيه حكم الإعدام مباشرة، لأنه كافر زنديق مخالف لما كان عليه السلف؟!.

ولولا أن يقال إننا نخدم النظام العسكري الدموي في الجزائر، لنقلنا من القصص والروايات الواقعية والصحيحة، ما يندى له جبين الصحوة الإسلامية التي

حرفها هؤلاء الدعاة عن الصراط القويم. ففتاوى التكفير تطال كل من يخالف دعاة السلفية؟! وفي هذا الجو التكفيري الإرهابي الخانق تضيع الحقائق وينعق الغراب في الخرابات التي يحدثها نشر الفكر السلفي الوافد من نجد والحجاز.

كل ذلك على حساب الإسلام والصحوة الإسلامية، فإذا كان الناس والشباب خاصة، قد أقبلوا في العقود المنصرمة على الالتزام بالإسلام أفواجا وجماعات، فإننا نسجل اليوم وبفضل الدعوة السلفية هروب وتراجع الناس أفواجا وجماعات عن الالتزام بالإسلام. فهذا يخاف من الحكومات والأنظمة السياسية، التي قد تحشره في صف الإرهابيين، والآخر يقول إذا كان الإسلام هو هذا التشدد السلفي في الملبس والمظهر، فأنا غير مستعد للذهاب إلى الصحراء واعتناق عادات وتقاليد البداوة؟! وبالجملة هناك نكوص حقيقي وارتداد للصحوة الإسلامية!!.

انتشار موجة التكفير:

وفي مصر مثلا كانت الشرطة قد قبضت على ١٣ تاجرا وفي حوزتهم ٢٨٤٧ شريط كاسيت تحوي فتاوى بتكفير المجتمع وبعض المسؤولين والشخصيات العامة وعدد من رجال الدين والمثقفين. وأكد الدكتور محمد سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية لمجلة «الوسط» وجود «حملة في لبنان ومصر وغيرهما تستهدف تكفير كبار الأئمة والعلماء القدامى منهم والمحدثين، وبخاصة أهل السنة والجماعة ونحن نستنكرها كل الاستنكار»[(١)].

وهذه الحملة قد أثمرت فعلا قتل الشيخ نزار الحلبي زعيم جمعية المشاريع الخيرية مؤخرا. والذين قتلوه أعلنوا سلفيتهم، وقد تحركت الحكومة اللبنانية وأقفلت إحدى جمعياتهم العاملة في طرابلس.

---

(١) مجلة الوسط، مقال بعنوان الأزهر: حملة مضادة على الكاسيتات وفتاوى التكفير. عدد أبريل ١٩٩٤ ص ١٥.

وهؤلاء الذين تسميهم المجلة بالمتطرفين ليسوا سوى أتباع السلفية الوهابية، الذين كما تقول عنهم: لم يستثنوا عالما واحدا من علماء الإسلام البارزين في مصر، حتى الشيخ محمد الغزالي هاجموه بدعوى أنه أباح الاستماع إلى الموسيقى والغناء، كما حلل عمل المرأة.

وشنوا هجوما على المفكرين الإسلاميين الدكتور محمد عمارة والدكتور أحمد كمال أبو المجد وخالد محمد خالد وفهمي هويدي. واتهمتهم ورقة كانت تروج في حي إمبابة الشعبي الشهير، وعثرت عليها أجهزة الأمن وضمتها إلى وثائق الاتهام في «قضية الإرهابيين» في حي إمبابة، بأنهم يروجون «العلمانية الإسلامية» أو «الإسلام العلماني»[١].

إن موجة التكفير التي تنطلق من نجد في المملكة السلفية، وتجوب العالم الإسلامي، لا تستثني أحدا، فعلماء أهل السنة كفار؟! ومثقفيهم أكفر؟! بل كل من كان سلفيا وخالف سلفيا آخر في اجتهاد آخر أو رأي فهو كافر[٢]؟!.

ناهيك عن الشيعة الإمامية فهم ليسوا كفارا فحسب بل أخطر من اليهود

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) عن جريدة الحياة اللندنية بتاريخ السبت ١٣ كانون الثاني ١٩٩٦ م: أعلن أمير «الجماعة الإسلامية المسلحة» أبو عبد الرحمن أمين (جمال زيتوني) في بيان وزع أمس تبني «الجماعة» عملية قتل الشيخين محمد السعيد وعبد الرزاق رجام ومجموعة من تيار «الجزأرة».

ويتحدث زيتوني في البيان الذي نشرته «الأنصار» وحصلت «الحياة» على نسخة منه، عن عقوبة من يخرج على «الجماعة» وأشار تحديدا إلى دخول «جماعة الجزأرة» في «الجماعة المسلحة» في ربيع العام ١٩٩٤ م، متهما إياها بأنها من «الطوائف المبتدعة» وبأنها «اخترقت صفوف الجماعة الإسلامية المسلحة منذ عهد، كما كان في منطقة الكالتوس وخميس مليانة وغيرهما، وحاولت الوصول إلى قيادتها (الجماعة) واحتوائها بعد الوحدة (...) ولما لم يمكنهم الله تعالى من ذلك وافتضح أمرهم وظهر مكرهم، رموا شق الجماعة وتفريق المجاهدين بحجة أن أمير الجماعة الإسلامية المسلحة أصبح يجور ويظلم ويفتك الدماء بغير حق حسب زعمهم فقرروا الخروج عن الجماعة وتوقيف السمع والطاعة». وأكد إن الخروج على الجماعة «لا يجوز».

والنصارى والمجوس وكل الملل والنحل الموجودة في العالم: أنظر ماذا يقوله هذا السلفي الذي طبع كتابه بإذن من رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة السلفية: «إن من يعتنق التشيع يسمى ملحدا هداما سواء أكان سبئيا أو إماميا أو إسماعيليا أو خطابيا أو بيانيا أو اثني عشريا أو غير ذلك. لأن من وطئ عتبة الكفر فهو كمن أوغل فيه. ولأن المرء لا يكون شيعيا بالمعنى الصحيح عندهم إلا إذا شك في الإسلام، وفي دستور الإسلام، وفي حملة رسالة الإسلام. والأدهى من ذلك، أنه لا يبلغ ذروة التشيع عندهم: إلا من يتطاول على الله، فيقيسه بخلقه ويتصدر على منصة الحكم، فيوجب على الله، ما أوجبه الله على عباده، ويحرم عليه ما حرمه الله على عباده، حتى ليكاد أن يجعله في عداد المكلفين. وفي حين أنه يرفع نفسه فوق مرتبة الألوهية تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا..»[١].

هذا ما يقوله رجالات السلفية عن الشيعة، عن فرقة لا وجود لها في العالم بأسره تعتقد أو تؤمن بما قاله هذا السلفي ويدعيه؟!!.

إن الشيعة والسنة اليوم، مطالبون بالوقوف أمام هذه الموجة السلفية، لأنها تستهدفهما معا، ولا ينعقن ناعق في آذان أهل السنة. بأن الشيعة يكفرونهم!!

إن علماء الشيعة موجودون في كل مكان ويكتبون ويعلنون صباح مساء بأن علماء أهل السنة وجماهيرهم العريضة مسلمون موحدون. إنما الخلاف حول النواصب الذين يبغضون أهل البيت وشيعتهم، وينادون بقتل الشيعة وسفك دمائهم ويثيرون الفتن المذهبية والطائفية[٢].

---

(١) تبديد الظلام وتنبيه النيام، س ص ١٨.

(٢) من المفارقات العجيبة أن الشيعة الإمامية لا يكفرون السلفية الوهابية، رغم أن هؤلاء يلهجون ليل نهار بتكفيرهم. وقد أفتى علماء الشيعة بصحة الصلاة وراء السلفية الوهابية في الحرم في موسم الحج؟!!.

أعداء الوحدة الإسلامية:

لقد كان للشيخ محمود شلتوت رحمه الله دور مهم في محاربة الفتن الطائفية، والتقريب بين صفوف المسلمين. وله الكثير من الأحاديث الصحافية وغيرها التي تحض على الوحدة والاتحاد ونبذ التطرف والتعصب. كان رحمه الله يقول: «لقد مضى زمان العصبية... كلنا مسلمون.. ومذاهبنا جميعا تنبثق من أصل واحد هو رسالة محمدﷺ كتاب الله وسنة رسوله.. إن بيني وبين كثير من أئمة الشيعة رسائل تهدف وجوب التقريب، ونزع ما بين السنة والشيعة من عصبية انتهزها الأعداء والمستعمرون للتفريق بين الشعوب الإسلامية الواحدة... إن الاستعمار يحاول أن يجد ثقوبا ينفذ منها إلى وحدة المسلمين...

ولقد رجحت مذهب الشيعة خضوعا لقوة الدليل في كثير من مسائل المسلمين، أخص منها ما تضمن قانون الأحوال الشخصية. وإن الباحث المستوعب سيجد في مذهب الشيعة ما يقوي دليله، ويلتئم مع أهداف الشريعة من صلاح الأسرة والمجتمع».

وقال الشيخ شلتوت رحمه الله عن التقريب بين المذاهب التي اشترك في تأسيس دار لها في القاهرة[1]، بأن من حاربها «ضيقوا الأفق، كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة. ولا تخلو أمة من هذا الصنف من الناس.

---

(١) بدأت دعوة التقريب في مصر عام ١٩٤٦ م وقد دعمتها جماعة الإخوان في ذلك الوقت بقيادة حسن البنا وتبناها الكثير من رجال الأزهر الذين ارتبطوا بعلاقات حميمة مع كثير من علماء الشيعة طول تلك الفترة وحتى أواخر السبعينات. ومن علماء الأزهر ورجاله البارزين الذين ارتبطوا بتلك الدعوة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ الشرباصي والشيخ الفحام، والشيخ محمد المدني الذي تولى منصب السكرتير العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية. أما من الجانب الشيعي فقد ساهم فيها صاحب الدعوة الشيخ محمد تقي القمي من إيران والشيخ محمد جواد مغنية إمام القضاء الشرعي الجعفري في لبنان والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء من علماء العراق. أنظر الشيعة في مصر لصالح الورداني، والوحدة الإسلامية، عبد الكريم الشيرازي، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط ٢ - ١٩٩٢ م.

حاربها من يجدون من التفرق ضمانا لبقائهم وعشيهم، وحاربها ذوو النفوس المريضة، وأصحاب الأهواء والنزعات الخاصة.. هؤلاء وأولئك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات مغرضة، لها أساليبها المباشرة في مقاومة أي حركة إصلاحية، والوقوف في سبيل كل عمل يضم شمل المسلمين ويجمع كملتهم»[(١)].

وهؤلاء الذين يحاربون الوحدة الإسلامية ويعمقون حالة التشرذم هم دعاة السلفية الوهابية. يقول إبراهيم سليمان الجبهان السلفي يتكلم عن الميوعة الفكرية: «هي التي شجعت عملاء الماسونية الكافرة بأن يؤسسوا بين ظهرانينا وتحت أسماعنا، وأبصارنا، وفي أعز بقعة تتطلع إليها أنظارنا دارا للنصب والاحتيال، وممارسة الدعارة المذهبية أسموها (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية)[(٢)].

إن دعاة السلفية اليوم هم الأعداء الحقيقيون لكل وحدة اجتماعية داخل الوطن الإسلامي، فهم يكفرون علماء أهل السنة ويرمون جماهيرهم بالشرك، ويخوضون حربا ضروسا مع المتصوفة وأصحاب الطرق التعبدية، وهم فئات واسعة من المجتمع الإسلامي. ولكي يتسنى لهم ذلك يقومون بحملة واسعة لتحريف تراث الإسلام والمسلمين. ويشوهون الإسلام في أعين أتباعه ومخالفيه، عندما يصرون على الالتزام بعادات وتقاليد البدو في الملبس والمأكل وطريقة التفكير والحياة.

أما الشيعة فإن فئات عريضة من المجتمع الإسلامي قد تأثرت بالدعوة السلفية التكفيرية المضللة تجاههم، ولا يمكن تغيير الصورة المشوهة للشيعة في أذهان الجماهير المسلمة السنية، إلا بجهد جهيد قد يتطلب سنوات بل ربما عقودا من الزمن.

يقول الشيخ الغزالي في كتابه «دفاع عن العقيدة والشريعة» جاءني رجل من العوام مغضبا يتسائل: كيف أصدر شيخ الأزهر فتواه بأن الشيعة مذهب إسلامي كسائر المذاهب المعروفة؟ فقلت للرجل: ماذا تعرف عن الشيعة؟ فسكت قليلا ثم

---

(١) الشيعة في المملكة العربية السعودية، م. س، ج ٢ ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) تبديد الظلام، م س، ص ١٩.

أجاب: ناس على غير ديننا.. فقلت له: لكنني رأيتهم يصلون ويصومون كما نصلي ونصوم.. فعجب الرجل وقال: كيف هذا؟ قلت له: والأغرب أنهم يقرأون القرآن مثلنا، ويعظمون الرسول ويحجون إلى البيت الحرام».

وفي موقع آخر قال: سمعت واحدا يقول في مجلس علم: إن للشيعة قرآنا آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف. فقلت له: أين هذا القرآن؟ إن العالم الإسلامي الذي امتدت رقعته في ثلاث قارات ظل من بعثة محمدﷺ إلى يومنا هذا بعد أن سلخ من عمر الزمن أربعة عشر قرنا لا يعرف إلا مصحفا واحدا مضبوط البداية والنهاية، محدود السور والآيات والألفاظ، فأين هذا القرآن الآخر؟.

ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال الدهر الطويل؟ لماذا يساق هذا الإفتراء؟ ولحساب من تفتعل هذه الإشاعات وتلقى بين الأغرار ليسوء ظنهم بإخوانهم وقد يسوء ظنهم بكتابهم. إن المصحف واحد يطبع في القاهرة فيقدسه الشيعة في النجف أو في طهران ويتداولون نسخة بين أيديهم وفي بيوتهم دون أن يخطر بباهم شئ بتة إلا توقير الكتاب ومنزله جل شأنه ومبلغهﷺ، فلم الكذب على الناس وعلى الوحي؟[1].

ونعود إلى موجة التكفير لنقول إن الجهود لا بد أن تبذل لوقف هذا النزيف في الجسم الإسلامي. على علماء السنة أن يتدخلوا لإيقاف الكتب والكتيبات والأشرطة التي توزعها المؤسسة السلفية من داخل المملكة السعودية أو من خارجها. وأن يتحرروا من الخوف المبالغ فيه من الإرهاب السلفي. وحتى إن منعوا من الحج أو العمرة فإن عذرهم عند الله سيكون مقبولا.

أما أن يسكتوا على هذه الموجة التكفيرية التي طالت الحاضر والماضي، فإنه موقف يدل على الخنوع وانحطاط الهمم، والخوف على الدنيا، في الوقت الذي يخرب فيه الدين وتنهدم عراه؟ فما حجتهم أمام الله غدا؟!.

---

(١) الشيعة في المملكة العربية السعودية، م س، ج ٢، ص ٤١٤.

أما علماء الشيعة فهم جاهدون في نشر الحقائق وكشف الظلمات السلفية. لكن الكتاب الشيعي محارب في كل مكان وممنوع دخوله في أغلب الدول، وقد أحاط السلفيون والغرب الاستعماري دولة التشيع بأسلاك شائكة من الدعايات المغرضة وتزييف الحقائق الدينية والسياسية، مخافة تصدير الثورة كما يزعمون.

إن ظاهرة التكفير من جهة ونشر الفكر البدوي الساذج من جهة أخرى يعتبران إعلانا واقعيا لانتكاسة الصحوة الإسلامية وتقهقر الفكر الإسلامي إلى الوراء. ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، حيث التحديات الحضارية المتعددة تكاد ترمي بنا بعيدا في مزابل التاريخ الإنساني.

لأننا أمة يتطاحن أبناؤها ويتقاتلون فيما بينهم حول حلق اللحية، ومقدار رفع الثوب عن الكعب، والنفور من دراسة العلوم أو التعرف على الآخر، لأن ذلك لا يقرب إلى الله. أو في أسوء الحالات بدعة منهي عنها ولم يعرف عن السلف اشتغالهم بها. فهي إن لم تكن كفرا تفتح الطريق واسعا نحو الكفر؟!!.

يقول المفكر الإسلامي حسين أحمد أمين: «التكفير سلاح من لا حجة له، وهو من قبيل استعداء السلطة الدينية أو السياسية حتى تتصدى إداريا للمبادرات الفكرية الحرة. وقد أدى تكرار ظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي إلى نتائج عدة من بينها شل كل محاولة من أجل التجاوب مع المتغيرات في العالم المحيط بدولة الإسلام، ومن أجل مواجهة التحديات الجديدة وميل المثقفين إلى التماس السلامة بالتزام الصمت أو التزام ما يمليه المتطرفون» ويتساءل: «ألم يكفر هؤلاء القوم شارب القهوة في القرن السادس عشر، وحكموا بهدم المقاهي في أرجاء الدولة العثمانية وبجلد من يرى وهو يحتسيها؟.

ألم يكفروا اختراع الطباعة فظل استخدامها محرما في أقطار الدولة العثمانية حتى أفتى شيخ الإسلام بإجازتها بعد نحو ثلاثة قرون كانت أوروبا قد أفلحت خلالها - ربما بفضل الاختراع نفسه - في أن تسبق العالم الإسلامي في مضمار

الحضارة؟ فلنسألهم إذن متى كانوا على طريق الهداية والصواب، ومن أعطاهم ذلك الحق وقال إنه وقف عليهم»؟.

ويرى الدكتور أحمد شلبي أستاذ التاريخ الإسلامي: «إنه لا يوجد من يملك استعمال كلمة التكفير إلا من أعلن صراحة كفره. أما دون ذلك فإن سبيل المناقشة الفكرية هي الطريق الوحيد للإقناع والتحاور. فمن قال لا إله إلا الله ليس لنا أبدا أن نكفره. فاستعمال التكفير نوع من الارهاب الفكري نرفضه علما، ما دام من يحاورنا يستعمل العلم في حججه فيكون الرد عليه بالعلم أيضا[1].

وأخيرا إن العقل السلفي الحنبلي الحشوي كان فتنة ظهرت في تاريخ الإسلام، وما زالت أعراضها تنمو وتتفجر في جسم الإسلام والمسلمين، محنة للعقل المبدع الخلاق، وانتكاسة لأي ثقافة حضارية أو تطور نحو الأفضل، ودعما للاستبداد والدكتاتورية والظلم السياسي والاقتصادي...

أما تراث الحشوية فكان ولا يزال دستورا أبديا ينظم الحرب الأهلية ويشرعها. ويمدها بالقوانين والأعراف، كي تستمر، ليتم هدم وتمزيق كيان الاجتماع الإسلامي، وتقطع أوصال انسجامه ووحدته، ومن يشك في ذلك فالواقع أمامه أصدق إنباء من الكتب.

***

(١) مجلة الوسط، م. س، ص ١٧. ويقول الشيخ عبد الله الهرري: «الذي يعرف ضلال الوهابية ثم يسكت عن التحذير منهم، هذا ذنبه أشد من الذي يعرف أن هناك كامنا يكمن للناس فيقتلهم، لأن هؤلاء إذا قتلوا تكتب لهم شهادة. أما ذاك الذي يترك الناس يأخذون الكفر من الوهابية ثم يموتون على ذلك يكونون صاروا من أهل الهلاك الأبدي.

والسبب الذي يوصل إلى الكفر أقبح من الأسباب التي توصل إلى الكبائر، كالقتل ظلما. لأن دعوة الوهابية هي دعوة لتكفير المؤمنين لغير سبب شرعي ودعوة إلى التجسيم أي تشبيه الله بخلقه». أنظر مجلة منار الهدى، عدد ٣٥ / أيلول / ١٩٩٥ م، والمقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، للشيخ الهرري.

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - الإبانة في أصول الديانة. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ط. حيدر آباد الدكن دون تاريخ.

٣ - ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه. محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٤ - ابن تيمية حياته عقائده، موقفه من الشيعة وأهل البيت. صائب عبد الحميد، مركز الغدر للدراسات الإسلامية، ط١ - ١٩٩٤م.

٥ - ابن تيمية في صورته الحقيقية. صائب عبد الحميد، مركز الغدير للدراسات والنشر بيروت. ط١ - ١٩٩٥م.

٦ - الإحتجاج. الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مؤسسة الأعلمي بيروت ط٢ - ١٩٨٣م.

٧ - أحمد بن حنبل حياته وعصره. محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٨ - الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار الكتب العلمية، بيروت.

٩ - الاستقامة. تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ط ١٤٠٣هـ

١٠ - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية. محمد عبده، دار الحداثة. ط٣ - ١٩٩٨م.

١١ - إسلام بلا مذاهب. الدكتور مصطفى الشكعة، الدار المصرية للطباعة والنشر بيروت.

١٢ - الأسماء والصفات. أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل مشيخة الإسلام بالإستانة سابقا. دار إحياء التراث

العربي، بيروت.
١٣ - الأصول العامة للفقه المقارن. محمد تقي الحكيم، دار الأندلس، بيروت ط٣ - ١٩٨٨م.
١٤ - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية. ناصر بن عبد الله الغفاري. ط١ - ١٩٩٣.
١٥ - الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. أبو بكر أحمد بن بن الحسين البيهقي، عالم الكتب بيروت ط٢ - ١٩٨٥.
١٦ - إفادة التيجاني. مصطفى بن محمد بن علوي، دون تاريخ ولا مطبعة.
١٧ - الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل. الشيخ العلامة جعفر السبحاني، الدار الإسلامية ط٢ - ١٩٨٩م.
١٨ - الألفين في إمامة أمير المؤمنين. ابن المطهر الحلي، مؤسسة الأعلمي ط٣ - ١٩٨٢م.
١٩ - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. أسد حيدر، دار الكتاب العربي بيروت.
٢٠ - الإنسان والإسلام. الدكتور علي شريعتي، دار الصحف للنشر بيروت ط١ - ١٤١١هـ
٢١ - الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب. أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، دار الجنان بيروت.
٢٢ - بحار الأنوار المجلسي. دار إحياء التراث العربي بيروت ط٣ - ١٩٨٣م.
٢٣ - بحوث في الملل والنحل العلامة الشيخ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية بيروت ط٢ - ١٩٩١.
٢٤ - بحوث مع أهل السنة والسلفية. مهدي الحسيني الروحاني، المكتبة الإسلامية ط١ - ١٩٧٩م.
٢٥ - البدء والتاريخ. المقدسي مطهر بن طاهر، مكتبة الثقافة الدينية.
٢٦ - بداية الفرق نهاية الملوك. الخطيب الشيخ محمد رضا الحكيمي، دار

الفردوس بيروت ط١ - ١٩٩٠م.
٢٧ - البراهين الجلية في رفع تشكيكات الوهابية. السيد محمد حسن الموسوي، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط١ - ١٩٧٧م.
٢٨ - بلاء الوجود في ديار الإسلام. الدكتور رشدي فكار، دار البلاغ - القاهرة ط١. ١٩٩٥م.
٢٩ - البيهقي وموقفه من الإلهيات. الدكتور أحمد بن عطية الغامدي، المجلس العلمي لإحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط١.
٣٠ - تاريخ الإسلام. الدكتور حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربي ط ٧ - ١٩٦٥م.
٣١ - تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة. الدكتور عبد الله فياض، مؤسسة الأعلمي بيروت ط١ - ١٩٨٦م.
٣٢ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام. أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية المدينة المنورة/بالواسطة.
٣٣ - تاريخ الرسل والملوك. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعارف القاهرة ١٩٦٨م.
٣٤ - التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي. الدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، عالم المعرفة، جدة ط١ - ١٩٨٣.
٣٥ - تاريخ العربية السعودية. فاسيليف، دار التقدم موسكو ١٩٨٦م.
٣٦ - تاريخ العلامة بن خلدون. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٣م.
٣٧ - تاريخ المذاهب الإسلامية. محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي القاهرة.
٣٨ - تاريخ نجد. حسين ابن غنام، حققه الدكتور ناصر الدين الأسد، دار الشروق ط١ - ١٩٨٥م.
٣٩ - تبديد الظلام وتنبيه النيام إلى خطر التشيع على المسلمين والإسلام. إبراهيم سليمان الجبهان ط١ - ١٩٨٨م.
٤٠ - تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري. عماد الدين

إسماعيل بن عمر ابن عساكر، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٤هـ
٤١ - تجارب محمد جواد مغنية بقلمه. دار الجواد، ط١ ١٩٨٠.
٤٢ - تحرير الوسيلة. آية الله روح الله الموسوي الخميني، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٣ - تذكرة الحفاظ. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٤٤ - تذكرة الخواص. سبط ابن الجوزي، مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١هـ
٤٥ - التفسير الكبير. للإمام الفخر الرازي، دار الكتب العلمية طهران ط١.
٤٦ - التمهيد. القاضي أبو بكر الباقلاني، المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧م.
٤٧ - التمييز الطائفي في السعودية. محمد عبد الحميد، رابطة عموم الشيعة في السعودية.
٤٨ - التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل. العلامة عبد الرحمان بن يحيى اليماني، تحقيقي الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب السلفية القاهرة.
٤٩ - تهذيب التهذيب. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبع الهند، الدكن سنة ١٣٢٥هـ
٥٠ - التوحيد والشرك في القرآن الكريم. العلامة الشيخ جعفر السبحاني، مؤسسة الفكر الإسلامي ط١ - ١٩٨٦م.
٥١ - التوسل، مفهومه وأقسامه وحكمه في الشريعة الإسلامية. العلامة الشيخ جعفر السبحاني، معاونية التعليم والبحوث الإسلامية.
٥٢ - ثم اهتديت. الدكتور محمد التيجاني السماوي، مؤسسة الفجر بيروت - لندن.
٥٣ - جامع الأصول. ابن الأثير الجزري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي ط ٤ - ١٩٨٤م.
٥٤ - جزيرة العرب في القرن العشرين. حافظ وهبة، لجنة التأليف والترجمة

والنشر، القاهرة ١٩٥٦م.
٥٥ – حجر بن عدي الثائر الشهيد. محمد فوزي، منشورات مؤسسة الأعلمي ط١ – ١٩٧٧م.
٥٦ – الحقائق الجلية في الرد على ابن تيمية. شهاب الدين أحمد بن جهبل الحلبي.
٥٧ – حلية الأولياء. الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية. بيروت ط١ – ١٩٨٨م.
٥٨ – الحور العين. سعيد بن نشوان الحميري، طهران ١٣٩٤هـ.
٥٩ – الخدعة. رحلتي من السنة إلى الشيعة، صالح الورداني. دار النخيل للطباعة والنشر، بيروت ط١ – ١٩٩٥م.
٦٠ – خطط الشام. تقي الدين المقريزي. دار صادر بيروت.
٦١ – الخلافة المغتصبة، أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ. إدريس الحسيني، دار النخيل بيروت ط١ – ١٩٩٥م.
٦٢ – خلق القرآن من كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل. تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية بيروت ط١ – ١٩٨٥م.
٦٣ – دائرة المعارف الإسلامية. دار المعرفة بيروت.
٦٤ – دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها. عبده الشمالي، دار صادر بيروت، ط ٥ – ١٩٨٥م.
٦٥ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٦٦ – الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث. الدكتور محمد كامل ظاهر، دار السلام للطباعة والنشر بيروت ط١ – ١٩٩٣م.
٦٧ – دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الإمام أحمد. أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي الحنبلي.

٦٨ - دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية. العلامة الشيخ جعفر السبحاني، معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية ط ١ - ١٤١٦هـ
٦٩ - الذيل على طبقات الحنابلة. الشيخ زين الدين بن رجب الدمشقي الحنبلي، دمشق ١٩٥١م.
٧٠ - رحلة ابن جبير الأندلسي. دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت.
٧١ - رحلة شمس الدين ابن بطوطة. دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٥م.
٧٢ - رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشير المريسي العنيد. صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي. دار الكتب العلمية بيروت ط ١ - ١٣٥٨هـ
٧٣ - الرد على ابن تيمية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي. محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت دمشق ١٩٨١م.
٧٤ - الرد على المتعصب العنيد. أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي، تحقيق محمد كاظم المحمودي، ١٤٠٣هـ
٧٥ - الرد الوافر. ابن ناصر الدين الدمشقي، المكتب الإسلامي ط ١ - ١٣٩٣هـ
٧٦ - ردود على شبهات السلفية. محمد نوري الشيخ النقشبندي الديرثوي، مطبعة الصباح ط ١ - ١٩٨٧م.
٧٧ - السعوديون والحل الإسلامي. محمد جلال كشك، المطبعة الفنية القاهرة ط ٤ - ١٩٨٤م.
٧٨ - السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. در الفكر دمشق ط ١ - ١٩٨٨ م.
٧٩ - السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. الدكتور محمود عبد الحليم.
٨٠ - السنة. عبد الله بن أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية بيروت ط ١ - ١٩٨٥م.
٨١ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث. محمد الغزالي، دار الشروق ط ٥ - ١٩٨٩م.

٨٢ – السنة والشيعة ضجة مفتعلة. الدكتور عز الدين إبراهيم، منظمة الإعلام الإسلامي ١٤٠٥هـ

٨٣ – سنن ابن ماجة. محمد بن يزيد، الحلبي القاهرة ١٩٥٢م.

٨٤ – سنن أبي داود. سليمان بن الأشعث الأزدي، دار أحياء السنة النبوية.

٨٥ – سنن الترمذي. أبو عيسى محمد بن عيسى، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٨٦ – شرح العقيدة الطحاوية. القاضي علي بن علي بن محمد الدمشقي، حققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة ط١ – ١٩٨٧م.

٨٧ – شرح صحيح مسلم. النووي، دار إحياء التراث العربي.

٨٨ – شرح نهج البلاغة. الشيخ محمد عبده، منشورات الأعلمي.

٨٩ – شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد عبد الحميد هبة الله المدائني، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي ط١ – ١٩٦٥م.

٩٠ – الشفاعة في الكتاب والسنة. الشيخ جعفر السبحاني. معاونية التعليم والبحوث الإسلامية.

٩١ – الشيعة في السعودية، الواقع الصعب والتطلعات المشروعة. رابطة عموم الشيعة في السعودية ١٩٩١م.

٩٢ – الشيعة في مصر من الإمام علي حتى الإمام الخميني. صالح الورداني. مكتبة مدبولي الصغير القاهرة ط١ – ١٩٩٣م.

٩٣ – الشيعة في المملكة العربية السعودية. حمزة الحسن، مؤسسة البقيع لإحياء التراث ط١ – ١٩٩٣م.

٩٤ – الشيعة هم أهل السنة. الدكتور محمد التيجاني السماوي، مؤسسة الفجر لندن.

٩٥ – الشيعة والتشيع فرق وتاريخ. إحسان إلهي ظهير. إدارة ترجمان السنة باكستان. ط ٤ – ١٩٨٤م.

٩٦ – الصحيح. مسلم بن الحجاج القشيري. ط. الحلبي القاهرة.

٩٧ – الصحيح. البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي القاهرة ١٣١٤هـ

٩٨ – صراع الحرية في عصر المفيد(٣٤٩ – ٤٠٨ هـ). العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، دار السيرة بيروت ط١ – ١٩٩٤م.

٩٩ – صفات الله عند المسلمين. الشيخ حسين العايش، مؤسسة أم القرى لإحياء التراث.

١٠٠ – صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث. الدكتور محمد عوض الخطيب، دار المعراج بيروت ط١ – ١٩٩٥م.

١٠١ – الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية. سليمان بن عبد الوهاب النجدي.

١٠٢ – طبقات الحنابلة. ابن أبي يعلى الفراء، المكتبة العربية، دمشق ط١.

١٠٣ – طبقات الشافعية الكبرى. أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، مطبعة الحسينية القاهرة ١٣٢٤هـ

١٠٤ – طبقات الفقهاء أبو إسحاق الشافعي الشيرازي، دار الرائد العربي بيروت ١٩٧٠م.

١٠٥ – الطبقات الكبرى. ابن سعد الزهري، دار صادر بيروت ١٩٨٥م.

١٠٦ – ظهر الإسلام. أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٥ – ١٩٦٦م.

١٠٧ – العبادة وحقيقة العبودية. تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، مكتبة تعز للنشر بغداد.

١٠٨ – العقد الفريد. ابن عبد ربه، دار الكتاب اللبناني.

١٠٩ – العقل الفلسفي في الإسلام. الدكتور علي شلق، على المدى للطباعة والنشر بيروت ط١ – ١٩٨٥م.

١١٠ – عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي. الدكتور، صالح بن عبد الله العبود، المجلس العلمي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ط١ – ١٤٠٨هـ

١١١ - على دروب التقريب بين المذاهب الإسلامية. وقائع ندوة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.(جامعة قطر)، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت ط١ - ١٩٩٤م.
١١٢ - علماء المسلمين والوهابيون. حسين حلمي بن سعيد استانبولي، تركي ١٩٨٤م.
١١٣ - العلو للعلي الغفار. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عبد الرحمان محمد عثمان دار الفكر، ط١ - ١٩٨٦م.
١١٤ - علي وبنوه. المجموعة الكاملة، طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
١١٥ - عنوان المجد في تاريخ نجد. عثمان بن بشر النجدي، مكتبة الرياض الحديثة دون تاريخ.
١١٦ - العواصم والقواصم. محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، مؤسسة الرسالة بيروت. ط١ - ١٩٩٢م.
١١٧ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب. عبد الحسين أحمد الأميني، دار الكتاب العربي بيروت ط١ - ١٣٧٨هـ
١١٨ - الغيث المنسجم. للصفدي/بالواسطة.
١١٩ - فاسألوا أهل الذكر. الدكتور محمد التيجاني السماوي. مؤسسة الفجر لندن ط١ - ١٩٩١ م.
١٢٠ - فتنة الوهابية. السيد أحمد بن زيني دحلان، استنابول - ١٩٧٨م.
١٢١ - فتوح البلدان. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، مؤسسة المعارف ١٩٨٧م.
١٢٢ - الفتوحات المكية. محيي الدين ابن عربي، دار صادر بيروت.
١٢٣ - فدك في التاريخ. محمد باقر الصدر.
١٢٤ - الفرق بين الفرق. عبد القاهر بن طاهر البغدادي. القاهرة.
١٢٥ - فرق الشيعة. الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء. بيروت ١٤٠٤هـ
١٢٦ - فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان. مقدمة الشيخ سلامة

القضاعي العزامي الشافعي، ملحق بالأسماء والصفات للبيهقي.
١٢٧ - الفصول المهمة. الشيخ ابن الصباغ علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي. دار الأضواء بيروت ط١ - ١٩٨٨م.
١٢٨ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
١٢٩ - الفكر السلفي عند الشيعة الإثناء عشرية. علي حسين الجابري.
١٣٠ - فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية. لويس غرديه وج فنواتي، دار العلم للملايين بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
١٣١ - الكامل في التاريخ. ابن الأثير محمد بن محمد الجزري، دار صادر بيروت، ١٩٦٦م.
١٣٢ - كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب. السيد محسن الأمين. الطبعة الخامسة.
١٣٣ - كشف النقاب عن عقائد محمد بن عبد الوهاب. السيد علي المنقي النقوي. المطبعة الحيدرية، النجف.
١٣٤ - الكشكول. بهاء المدينة العاملي. مؤسسة الأعلمي بيروت، ط ٦ - ١٩٨٣م.
١٣٥ - لسان العرب. ابن منظور دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ - ١٩٨٨م.
١٣٦ - لسان الميزان. ابن حجر العسقلاني. مؤسسة الأعلمي بيروت، ط١ - ١٩٨٦م.
١٣٧ - اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. مكتبة الفارابي دمشق.
١٣٨ - لقد شيعني الحسين عليه السلام الإنتقال الصعب في رحاب المعتقد والمذهب. إدريس الحسيني. دار النخيل العربي. بيروت ط ٤ - ١٩٩٦م.
١٣٩ - لماذا اخترت مذهب الشيعة، مذهب أهل البيت عليهم السلام. الشيخ محمد مرعي الأمين الأنطاكي، منشورات الأعلمي بيروت.
١٤٠ - لمع الشهاب. حققه أحمد مصطفى أبو حاكمة بيروت ١٩٦٧م.

١٤١ - مجموع التوحيد. رسائل ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهما، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان ط١ - ١٩٨٧م.
١٤٢ - مختصر طبقات الحنابلة. الشيخ محمد جميل المعروف بابن الشطي. دار الكتاب العربي بيروت ن ط١ - ١٩٨٦م.
١٤٣ - المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب. العميد عبد الرزاق محمد أسود الدار العربية للموسوعات، بيروت ط١ - ١٩٨٠.
١٤٤ - المدخل إلى دراسة علم الكلام. الدكتور حسن محمود الشافعي. مكتبة وهبة القاهرة ط١ - ١٩٩١م.
١٤٥ - مذاهب الإسلاميين. الدكتور عبد الرحمان بدوي. دار العلم للملايين بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
١٤٦ - المراجعات. الإمام عبد الحسين شرف الدين، طبع المجمع العالمي لأهل البيت.
١٤٧ - مرآة الجنان. أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي. مؤسسة الأعلمي بيروت.
١٤٨ - مروج الذهب. أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي. دار المعرفة بيروت ١٩٨٣م.
١٤٩ - المستدرك على الصحيحين. الحاكم، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، طبع الهند.
١٥٠ - المستبصرون. غلام أصغر البجبوري. دار الصفوة بيروت ط١ - ١٩٩٤م.
١٥١ - المسلمون وحوار الحضارات في العالم المعاصر. بحث للشيخ محمد الغزالي، مقدم للدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ١٩٩٥م.
١٥٢ - المسند. الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر بيروت ط١.
١٥٣ - المعارف. ابن قتيبة الدينوري. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط ٦ - ١٩٩٢م.

١٥٤ – معجم الأدباء. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. دار الفكر للطباعة والنشر، ط ١ – ١٩٨٠م.
١٥٥ – معجم البلدان ياقوت الحموي. دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
١٥٦ – معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكرياء. طبع القاهرة.
١٥٧ – مع الشيعة الإمامية في عقائدهم. العلامة جعفر السبحاني. معاونية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية ط ١ ١٤١٣هـ
١٥٨ – مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم. العلامة جعفر السبحاني. الإرشاد الإسلامي طهران ١٩٨٦م.
١٥٩ – المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية. الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي. دار المشاريع ط ١ – ١٩٩٤م.
١٦٠ – المقدمة. عبد الرحمان بن خلدون. دار الجيل بيروت.
١٦١ – مكة. محمد هادي الأميني، ط ١ – ١٩٨٨م.
١٦٢ – الملل والنحل. أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت.
١٦٣ – مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره. الدكتور سيد الجميلي. دار الكتاب العربي بيروت ط ١ – ١٩٨٥م.
١٦٤ – مناقب أحمد. أبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي، طبع مصر.
١٦٥ – مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في الإسلام. الدكتور علي سامي النشار. دار النهضة العربية بيروت. ط ١ – ١٩٨٤م.
١٦٦ – منهج في الانتماء المذهبي. صائب عبد الحميد. دار المودة بيروت ط ١ – ١٩٩٣م.
١٦٧ – منهاج السنة. تقي الدين أحمد عبد الحليم ابن تيمية. المكتبة العلمية بيروت.
١٦٨ – الموسوعة الفلسفية العربية. معهد الإنماء العربي ط ١ – ١٩٨٦م.
١٦٩ – موقف أئمة الحركة السلفية في التصوف والصوفية. عبد الحفيظ بن ملك

المكي. دار السلام للطباعة والنشر ط١ - ١٩٨٨م.
١٧٠ - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. الدكتور علي سامي النشار. دار المعارف ط١ - ١٩٧٥م.
١٧١ - النظام السياسي في الإسلام، رأي السنة رأي الشيعة حكم الشرع. المحامي أحمد حسين يعقوب ١٩٩٠م.
١٧٢ - النهج الأحمد في تراجم أصحاب أحمد. مجير الدين عبد الرحمان بن محمد العليمي. عالم الكتب بيروت ط١. ١٩٨٤م.
١٧٣ - النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل. محمد كمال الدين بن محمد العامدي الغزي. تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ. نزار أباظة دار الفكر ١٩٨٢.
١٧٤ - النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية. عبد القادر الكيلاني الإسكندراني، مطبعة الفيحاء دمشق.
١٧٥ - النهاية في غريب الحديث. ابن الأثير محمد بن محمد الجزري المطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٣هـ
١٧٦ - هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله. ابن خليفة عليوي. مطبعة زيد بن ثابت. دمشق ١٩٧٩م.
١٧٧ - هذه هي الوهابية. محمد جواد مغنية، دار الجواد بيروت ط١ - ١٩٨٣م.
١٧٨ - هوية التشيع. الدكتور أحمد الوائلي. مؤسسة أهل البيت بيروت ط١ - ١٩٨١م.
١٧٩ - الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول. محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة بيروت ط١ - ١٩٨٢م.
١٨٠ - وجاء دور المجوس، الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية. الدكتور عبد الله محمد الغريب، ١٩٨١م.
١٨١ - الوحدة الإسلامية، أو التقريب بين المذاهب السبعة. جمع وترتيب عبد الكريم الشيرازي. منشورات الأعلمي ط١ - ١٩٩٢م.

١٨٢ – وعاظ السلاطين. الدكتور علي الوردي. دار كوفان لندن ط١ – ١٩٩٥م.
١٨٣ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان. دار صادر بيروت.
١٨٤ – وقعة صفين. المنقري نصر بن مزاحم المنقري. دار إحياء الكتب العربية القاهرة. ١٣٦٥هـ
١٨٥ – الوهابية نقد وتحليل. الدكتور همايون همتي.
١٨٦ – يوم انحدر الجمل من السقيفة. نبيل فياض، بيروت – ليماسول ط١ – ١٩٩٥م.

المجلات والصحف:

١ – مجلة الأصالة. (السلفية) العددان ١٥ – ١٦ ذي القعدة ١٤١٥هـ
٢ – مجلة تراثنا. العدد الرابع السنة شوال ١٤٠٨هـ
٣ – مجلة الجزيرة العربية. فبراير ١٩٩١م، وأكتوبر ١٩٩٢م ويونيو ١٩٩٣م.
٤ – مجلة روز اليوسف. عدد ٢٢٩٨.
٥ – مجلة رسالة الإسلام. العدد ١ السنة الثالثة.
٦ – مجلة صوت الطليعة. العدد ٢٢. السنة السادسة أيار ١٩٨٠م رجب ١٤٠٠هـ
٧ – مجلة العرفان. العددان ٩ – ١٠ جمادي الثانية ورجب ١٤١٤هـ
٨ – مجلة الكفاح العربي. عدد ٨٤٧ – ١٩٩٤/١٠/٢٤م.
٩ – مجلة الكلمة، عدد ١٠/١٩٩٦م.
١٠ – مجلة منار الهدى البيروتية. ٢٥ أيلول ١٩٩٥م.
١١ – مجلة الوسط. عدد ١١٦ أبريل ١٩٩٤.
١٢ – جريدة الحياة اللندنية – ٤ أيلول ١٩٩٤ و١٣ كانون الثاني ١٩٩٦م.
١٣ – لوموند (العالم) الفرنسية – ١٩٧٩/١٢/١.
١٤ – جريدة اللواء الأردنية. عدد ١١٥٦ السنة الرابعة والعشرون، ٢٨ حزيران ١٩٩٥م.
١٥ – محاضرات سلفية ضمن أشرطة كاسيت.

فهرس المحتويات

الباب الثاني

... واستغل أولئك النفر جهل كثير أهل العصر بتاريخ هذه الفرقة الجاهلة، فأوهموا النّاس أنهم يمثّلون السّلف الصّالح من الصّحابة ومن بعدهم من التابعين بإحسان، والتاريخ يشهد والعلم بكتاب الله ينادي أنهم ما مثّلوا إلا سلف سوء من أشياخ المشبّهة وأئمة المجسّمة، الذين يفسّرون الكتاب بأهوائهم ويحملون السنّة على آرائهم، ويتقولون على معاني كتاب الله، ويضعون على رسول الله، ويأخذون بالضعيف إذا وافق منهم هوى، ويردّون الصحيح أو يشككون في صحته إذا كان حجّة عليهم...

الشيخ سلامة القضاعي الشافعي

فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان: صفحة ١٥٥

مركز الغدير

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية البنك اللبناني السويسري

هاتف: ٠٢/٦٤٤٦٦٢ - ٠١/٥٥٢٢٢٢ تلفاكس: ٠١/٥٥٢٢١٥ - ص. ب: ٢٥/٥٠

www.al-ghadeer.net - www.alminhaj.org

